


المرحوم
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
ولد سنة ١٢٦٦ وتوفي سنة ١٣٢٣
هجرية

فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام

صفحة

صفحة

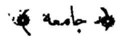






في المنشآت

يحتوي على بعض رسائله ومقالاته التي نشرت في الجرائد ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم الديني ومدافعته عن الدين ورحلته الى صقلية وعلى كتبه ورسائله الى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنثورة



السيد محمد رشيد رضا
منشئ مجلة المنار

(بمصر)

الطبعة الأولى بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٤



إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ * (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حيّ بآثاره ، التي هي مقبس أنواره ، مات الموتة الطبيعية،وحيي الحياة العقلية الروحية ، فهو لا يزال كما كان ، قبل ان يغيب عن العيان ، تنقل أقواله ، وتذكر أعماله ، وتكتب معارفه ، وتشكر عوارفه ، ولا غرو فان للعلماء والحكماء في هذه الدنيا حياتين — حياة جسدية محدودة تبتدىء بيوم الولادة وتنتهي بيوم الوفاة ، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركهم فيها سائر الناس بل سائر الحيوان — وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي تبتدىء بظهور ثمرات عقولهم النافعة لا متهم أو لكل من يجنيها من الناس وتدوم ما دام الزمان ، وبقي من المناظرين في آثارهم انسان ، وقد كان الاستاذ الامام من خيرة هؤلاء العلماء ، وأفضل أصحاب هذه الحياة من الحكماء ، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحائف ومآثره المرسومة في ألواح القلوب ،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن الرجل وهو فيما دون العاشرة منها (وفي نحو الرابعة والعشرين من حياته الطبيعية) تارة

يحرر الواردات الالهية في حقائق علم الكلام الاعلى ، ويسير في المزج بين عرفان الصوفية وبرهان الفلاسفة على الطريقة المثلى ، متمكناً من مقام التوحيد ، متنكباً عن مقعد التقليد ، على حين لا توحيد ولا كلام عند المشتغلين بالعلوم الدينية ، الا حكاية بعض ما قاله متأخرو الاشعرية ، وتارة يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين ، ويفيض منها على عقول المستعدين ، بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة يحبر الفصول الانشائية ، ويجلي المعاني العصرية ، في أثواب الاسجاع الحريرية ، ويزفها كالخرائد ، على منصات الجرائد ، داعياً الى استقلال الفكر ، وتناول علوم العصر ، حاثاً على ترقية الامة ، حاضاً على تجديد مجد الملة ، آمراً بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهياً عن التعصب الذميم بين المختلفين في الاديان ، فهذا مثال طور الطلب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يبتدئ في الكتاب برسالة الواردات وينتهي بالتحفة الادبية ،

ثم يمثله لك في طور آخر • وهو تارة بين أرباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعية وعمران البلاد ، وتارة يشرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بعقائل الفضائل وأحاسن الآداب ، بعد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليد والعادات ، يهبط على الفلاح في حرثه فيخاطبه بما يفهم ، ويعرج بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه ما لم يكن يعلم ، — وهذا هو المثال الاول لطور العمل ، من الحياة المعنوية للرجل ، تجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجل عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم يجليه لك مع أستاذه في الديار الأوربية، متحدين على ارشاد جميع الشعوب الاسلامية، السيد الحكيم يقترح ويدبر، والأستاذ الإمام يكتب ويحرر، يدعوان الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ويجمعان القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها، هنالك تجلى لك روح القرآن، هابطة من سماء الحكمة والعرفان، مؤيدة بالعزة والسلطان، تطوف بتلك العروة البلاد، وتصافح قلوب أهل الاستعداد، فتحييها حياة جديدة، وتجذبها الى عيشة سعيدة، هنالك ترى الالهام الالهي، يمد بتأثيره القلم الكسبي، فيصيبان مواقع الاقناع من العقل، ويبلغان مواضع التأثير من النفس، فلا يقرأ القارئ ما في العروة من بيان حال المسلمين، وأسباب ما أصيبوا به من البلاء المبين، وما تطب لدائهم، وتصف من دوائهم، الا وينثني أسير البرهان، مملوك الوجدان بالاذعان، مندفعاً الى العمل بذلك البيان، بالجنان واللسان والاركان، وذلك طور مستوى القوة، وكمال الفتوة، ومنتهى علو الهمة، وبيع النفس والوقت للملة والامة،

ثم يظهره لك رابضاً في الديار السورية، يعمل لاصلاح الاسلام باصلاح الدولة العثمانية، أو مقيما في الديار المصرية، يبين لأولي الامر طريق الاصلاح بالتربية الدينية، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ثاقب، ويرمي عن فكر صائب، يبين طبائع البلاد والساكنين، ويجمع بين مصلحة الحاكمين والمحكومين، ويهديهم الى الطريق القويم، في نظام التربية والتعليم، معززاً باستعداده لتقييد العلم بالعمل، مصرحاً بضمان تحقيق الأمل، وفي ذلك ما فيه من اعتماده على الله، وثقته بالقوى والمواهب التي آتاه، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح، وما فيها من أشرائع مناهج الفلاح.

ثم يبرز لك في طور المبارزين للطاعنين على الدين المبين، فيتراءى لك أن قلمه أمضى من الحسام، وكلمه أنفذ من السهام، فهو بهما يكر ويصول، ويجندل من المجادلين الفحول، ولا ينثني الا والحق غالب على أمره والباطل مغلوب يأرز الى جحره، وحسبك من ذلك رده على مسيو هانوتو في قوله في طبيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية، ثم رده عليه في مسألة الجامعة الاسلامية،

ثم يريكه يجوب الاقطار، ويقطع أجواز البحار، للنظر في آثار الاولين، واستخراج العبر منها للآخرين، فتراه في صقلية مرة يتصفح الصحف والاسفار، ويستنطق العاديات والآثار، ويقرأ ما نقش على الجدران بالعربية، لتحقيق المسائل التاريخية، ومرة يبحث عن الاخلاق والعادات، وينقب عن المنشآت والمستحدثات، يتردد بين الاديار والكنائس، والمقابر والمدارس، ثم يزف ما استفاد الى أمته فيما كتب عن رحلته

ثم يكشف لك عنه الحجاب، وهو يراسل العلماء والكبراء والكتاب فتارة يتلو عليك من كتبه الى حزب المصلحين، وأهل البصيرة من علماء المسلمين، ما تخشع له القلوب، وتتحدر من وقعه الشؤون، فكأنك معه وقد عاد بك الاسلام، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت نفسك تتدفق غيرة على الدين، وتفيض حزناً على ما حل بالمؤمنين، فلم يبق لها هم الا ان تكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، أو كأنك معه في عصر الراشدين، وكأنه معك أمير المؤمنين، يصول على الارواح بمواعظه الصادعة، ويختلب الالباب ببلاغته الرائقة،

ومرة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان، من رسائل الوداد الى الاصدقاء والخلان، فيمثل لك الادب الباهر، واللطف الساحر، ويصور

لك الوفاء في أجمل صوره ، والاخلاص في أجل مظاهره ، والصدق في الحب ، على البعد والقرب ، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته ، المستغرق في عمل الاصلاح لملته ، أديبا ظريفا ، ونديما لطيفا ، حسن الاماليح ، مليح الافاكيه ، حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

وآونة يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية ، أو المترجمين للكتب الاجنبية ، ما يرفع من أقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشحذ غرار همتك ، ويزجي ركاب عزيمتك ، الى أن تكون من زمرتهم ، وتساهمهم في مثل خدمتهم ،

وأحيانا يسمعك من تعازيه للمحزونين ، ومواعظه للمرزوئين بالاقربين ، ما يحلو به مر الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة والأجر ، ويترك القلوب مفثوءة الثائرة ، قد سكنت قدرها الفائرة ، وأنشأت تشيع الاحزان ، وتستقبل السلوان ،

ثم يختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والآثار العقلية ، بشذرات من الحكم المنثورة ، والآيات المأثورة ، فترى اجمالا ينبيء عن تفصيل ، وقليلا لا يقال له قليل ، كأنه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة ، أو عناوين لتلك الكتب المسطورة ، على أن الكتاب كله نتف من أقواله ، ونموذج من أعماله ، وان آثاره في النفوس ، لاعظم من آثاره في الطروس ، فهو حي في الآخرة بما قدم من عمل ، حي في الدنيا بما ترك من أثر ، يمثل حياته هذا الكتاب الناطق ، وينشر خبرها الصحيح مريده الصادق ،

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

رسالة الواردات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب وجوده ، العامّ جوده ، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم ، ومن هو لأساطين الالهيين خاتم ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله ، الناشيء باقليم مصر بخطة البحيرة بقرية تسمى محلة نصر خادم خدمة الحكمة ، المعرض عن نحو الكلام والكلمة ، المتخلي عن قيد لباس الطوائف ، الى فضاء اقتناص صيد المعارف ، اني كنت مشغلا بطلب العلوم ، فبينما انا حول الرياض أحوم ، اذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حبا ولكن لم أجد من هي له طوية ، فحرت في أمري وأخذت أجيل فكري ، وكلما سألت أجابوني بأن الاشتغال بها حرام ، أو قد نهى عنها علماء الكلام ، فتعجبت شدة العجب ، وغفلة الناقلين أعجب ، وتفكرت في سبب ذلك فرأيته ان من جهل شيئا عاداه ، ومن أخلد عن العلا يأباه ، فوجدتهم كمن علك بلسانه ورق العناب فلا يدري مرارة الحنظل ، ولا حلاوة العسل ، وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق ، فوضح لنا بها رقائق الدقائق ، بوفود حضرة الحكيم الكامل ، والحق القائم ، استاذنا السيد جمال الدين الافغاني ، لازال لثمار العلوم جاني ، فرجوناه في شيء من ذلك ، فأجاب والحمد لله على ذلك ، وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ فنلنا بذلك طرائف التحف فأومأ الينا بكليات هذه جزئياتها ، وآيات هذه بيناتها ، وذلك على فترة من الحكمة ، فكأنه غيث ارسل لاحياء تلك النعمة ، وسميتها الواردات ، في سرّ التجليات ، فأقول وبالله التوفيق

﴿واردة﴾

كثيرا ما قرع سمعك لفظ الممكن وكأنك ما فهمت مدلوله أو شنفوا سمعك بان الممكن ما يحتاج الى غيره في الوجود أو ما لا يترجح وجوده على عدمه الا بمرجح

ونحو ذلك من الالفاظ المترادفة لكنك لاتدري خارج هذا المفهوم كسامع لفظ الماهية لايدري على أي الافراد صدقت ، فسفينة فكره فى بحر التعيين غرقت ، فاسمع قولا قليلا في ذلك لعلك تدري ان المقيد ذات مطلقة قد ضم الى تلك الذات قيد فالمقيد أمر مركب من قيد وذات مطلقة قيدت بذلك القيد، فللقيد مفهوم ، وللتقييد مفهوم،ولكل ماصدق،وللمجموع مفهوم وماصدق ، ولا يصح اتحاد شيء منها مع الآخر في المفهوم أو الماصدق، والالما صح التقييد اذ لسنا نعني بالقيد الصادق الوصف، كالناطق في الحيوان الناطق، بل نعني به مبدأ ذلك الوصف الذي يعبرون عنه تارة بمبدإ الاشتقاق وتارة بالوصف القائم فاذا نظرت الى نفس القيد ونفس الذات المطلقة وجدت كلا منهما مستقلا بالثبوت بالنسبة الى المجموع أي لوقطعت النظر عن تركبهما لوجدت لكل ثبوتاً في نفسه مفهوما وما صدقا واذا نظرت الى الكل المركب منهما وهو الذي تسميه بالمقيد نظراً ذاتيا مقطوعا فيه النظر عن شيء من الذات والقيد لم يكن له ثبوت في ذاته اذ متى قطع النظر عن شيء من الذات المطلقة وقيدها فقد انعدم المركب لانعدام الكل بانعدام شيء من أجزائه فاذاً المجموع محتاج في تحققه الى كل من المطلق والمقيد وانضمام كل منهما الى الآخر ليس المركب الا عبارة عن هذا فليس ثبوته الا ثبوت كل مع التركيب فليس للمقيد في ذاته استقلال بل هو في اعتباره مستند الى كل من الذات والقيد بل اعتباره عين اعتبارهما بخلاف كل منهما . ولنضرب لك الامثال، لكي لايلبث(١) عليك المقال، فانظر فيما بين يديك من البيت المركب من الاضلاع الاربعة فان كل ضلع لو بني بدون انضمام بقية الاضلاع اليه لكان قائما بذاته موجودا وكذلك اجزاء الضلع المركب هو منها كالاحجار والجص مثلا فان كل واحد منهما بدون ان يركب مع الآخر موجود في ذاته لايحتاج الى تركبه مع الآخر وكذلك الجص والحجر بالنسبة الى اجزائه التي بها قوامه ولكن ليس للبيت وجود الا بالاضلاع الاربعة ولا الضلع الا بالحجر والجص مثلا ، ولا

(١) قوله يلبث لعل صوابه يلتبس

للجص بدون ما يقومه واذا وجد كل من الاجزاء منضما الى الآخر فهو المركب فليس المركب الا الاجزاء مع هيئة اعتبارية لتلك الاجزاء بل ليس المركب الا هذه الهيئة الاعتبارية أي فيكون اعتبارا من اعتبارات الاجزاء ووجودها هو وجوده لكن بقيد الانضمام على وجه خاص فافهم . ومثل هذا يقال في الامور المعقولة كالعقول والنفوس فانها ذوات منضمة الى مبدإ التمايز بينها و بين غيرها فانت اذا نظرت الى مطلق الذات وجدت ثبوته في ذاته أي بقطع النظر عن كونه عقلا أو نفسا وكذا مبدأ التمايز لا يتوقف ثبوته في ذاته على كونه لعقل أو نفس أي يصح النظر اليه في ذاته بالنسبة الى العقل والنفس بخلاف العقل أو النفس فليس يصح اعتباره وجودا الا بوجود كل من الذات ومبدإ الامتياز وليس يصح لك ان تقول يجوز ان يكون مبدأ الامتياز هو الذات المطلقة فان هـذا ينافي التقييد بالقيد الخاص اذ المطلق لا يقتضي لذاته قيدا معينا لاستواء القيود بالنسبة اليه فلا بد من انضمام شيء اليه حتى يتميز بالمميز الخاص وذلك معلوم

فقد علمت ان كل مقيد فهو محتاج الى المطلق والقيد فهو معدوم في ذاته فلا يترجح وجوده على عدمه الا بمرجح والمطلق الذي لا قيد فيه بوجه من الوجوه ليس بممكن اذ لا يفتقر الى موجد والا لكان قيدا له فكل مقيد ممكن وكل ممكن مقيد ولا شيء من المطلق الحقيقي بممكن فيا أيها المقيد بقيد التقليد اخلع نعليك انك بالوادي المقدس، واخرج عن غياهب ظلمات جهلك ففلق الصبح تنفس،

﴿ واردة ﴾

تسمعهم مرة: يقولون ثبوت الواجب بديهي لا يحتاج الى البرهان ثم يفاوضون مع منكريه ، و يزعمون أنهم ينبهون عليه ، ومرة يقولون بأنه نظري يحتاج الى الدليل، و يستدلون عليه ببراهين مبنية على مقدمات مسلمة فيما بينهم يمجها الذوق السليم، و ينبو عنها الفكر المستقيم ، فاسمع ما ينفعك في ذلك:

من المعلوم ان الممكن يحتاج الى مرجح في الوجود لما انه ليس له من ذاته وجود كما سمعت في الفصل السابق ووجوب افتقاره الى الموجد مستلزم لاستحالة

وجوده من العدم الصرف (بيان الملازمة) ان صدور المعلول عن العلة يستدعي نسبة خاصة بين المعلول والعلة حتى يصح صدور المعلول عن العلة اذ لولم يكن بينهما تعلق وارتباط — وجميع الاشياء بالنسبة الى العلة على السواء — لكان صدور هذا المعلول دون بقية الاشياء عنها ترجحا بلا مرجح وهو محال . وأيضا لولم يكن بينهما نسبة لكانا متباينين تباينا تاما فلو وجد المعلول لوجد بدون ربط بينه و بين آخر فقد وجد بدون موجد: هذا خلف . فلا بد بين المعلول والعلة من النسبة والعلاقة الخاصة واذا قلنا بوجوب النسبة والتعلق فلأن التعلق والنسبة لا يتحقق الا بين طرفين لا بد من وجود الطرفين حتى يتحقق منشأ النسبة فلا بد من وجود المعلول مع العلة لتتحقق النسبة الموقوفة عليها العلية فقد وجد الممكن قبل تحقق العلية بالمرتبة فوجد قبل وجوده هذا خلف . و بالجملة فالبداهة قاضية بانه لا نسبة بين الوجود والعدم الصرف . وأيضا قولك بأن الشيء موجود من العدم اذا كان حقيقيا فلابد ان يكون العدم أيناً له أومتى أوجوهراً موضوعا أومادة إلى آخر الوجوديات الممكنة فيلزم وجود العدم والمعدوم هذا خلف .

فاذن حدوث شيء من العدم الصرف محال وهذا حكم بديهي قد نبهناك عليه فاذن جميع ماصدق عليه مفهوم الممكن محتاج الى علة ليست تلك العلة مباينة له بالمرة وتلك العلة تنتهي الى مرجح خارج عن ماهية الامكان وهو الواجب الحقيقي الذي هو وجوده لذاته وكل مقيد فهو محتاج اليه وهو منتهى التقييدات ومرجعها « اليه يرجع الامر كله » ومع كون المعلول ليس مباينا كذلك ليس عين العلة ولكن طور من أطوارها وشأن من شؤونها لا وجود له الا وجودها فتبين ان كل ممكن فهو اعتبار من اعتبارات علته ليس له وجود الا وجودها فاذن ليس في الوجود الحقيقي الذاتي الا ذات مطلقة واحدة لا تعدد فيها الا بتعدد اعتباراتها لا تقيد فيها بوجه من الوجوه وهو واجب الوجود فافهم . ليس في الامكان ، أوسع من هذا البيان ، وتوضيح الواضح مشكل فالحق بين يديك ظاهر فلا تشغل فكرك بإبطال التسلسل فهو يحتاج الى أوهام ملء الاكوان

(تقريب) لا تستبعد أن المعلول شأن من شؤون علته فانك لست تغفل عن

كون البيت شأنا لاجزائه واعتبارا من اعتباراتها والشجرة طور الحبة وشأن من من شؤونها والامواج طور للبحر وشأن من شؤونه وهكذا جميع الامور والعجب للمتكلمين والحكماء المقلدين لما عجزوا عن الارتقاء الى درجة الكمال كيف اتخذوا الاعدام سلما لتطلع الحقيقة ويزعمون أن هذا تنزيه لحضرته ولكن نحن نقول ليس وجود الا وجوده ولا وصف الا وصفه فهو الموجود وغيره المعدوم قال الأمراء الأولون رضي الله عنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ما رأيت شيئا الا رأيت الله قبله أو بعده أو فيه. أو معه كل واحد ينسب الى واحد منهم ولا يقعن في وهمك ان هذا قول بالحلول فان الحلول انما يكون بين وجودين أحدهما حال في الآخر ونحن نقول لا وجود الا وجوده

(تنبيه) أظنك في هذه الكلمات تحققت بأن هذا الواجب واحد اذ لو كان واجبان لكان كل منهما ممتازا عن الآخر والا كان عينه. وامتيازه انما يكون بقيد ليس في الآخر فيكون مقيدا فيكون ممكنا : هذا خلف . وقد يستدل على استحالة تعدد الوجود مطلقا وانه ليس الا وجود واحد بأنه لو كان هناك وجودان فإما لا امتياز بينهما فيلزم كون الاثنين واحدا: هذا خلف، وإما بينهما امتياز فاما بوجود مغاير لهما فننقل الكلام اليه ونطلب المميز عنهما وهكذا فيتسلسل وهو محال ، وإما بعدم فيلزم امتياز الوجود بالعدم والعدم لا تميز له في ذاته حتى يميز غيره : هذا خلف ، ان تقل كانك لم تعتبر التسلسل محالا كما يلوح من وجه قولك فأقول أني اعتبره في هذا المقام لا لاستحالته في ذاته ولكن لاستلزامه عدم الامتياز فانك لا تحصل ممتازا والا انتهت السلسلة فافهم - فاذن ليس هناك الا وجود واحد جزئي حقيقي لا قيد فيه بوجه من الوجوه والكل نِسَبُهُ وهذا معلوم مما سبق

(واردة)

كأنك تدرك ان الكمال هو الوجود وان النقص هو العدم فانك تعلم ان كل شيء لو بلغ غايته فيما يلزم لذاته في جميع أحواله من حيث ذاته فهو الكامل وكل مالم يكن كذلك فهو الناقص على قدر درجته من عدم بلوغ غايته فان ترتب على شيء نقص في آخر فالشيء كامل والآخر ناقص وقيل للشيء ناقص لانه ناقص

في ذاته ولكن من حيث لزم عليه ماهو نقص وهو العدم وذلك سهل عليك تحصيله فان أوردنا المثال بطول المقال والمقام ضيق .

اذا تحصل عندك هذا فقد عرفت ان كمال الشيء بقدر ماله من جهات الوجود ونقصه بقدر ماله من جهات العدم فهلا تحققت من هذا ان ماهو وجود الكل الذي لا وجود الا وجوده وكل ماسواه عدم هو الكمال لذاته بحيث لا عدم له في شيء من جهاته وان كل كمال فهو بروز كماله وكل نقص فهو عدم والعدم غيره فهو الكمال وغيره النقصان « تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام — سبحان ربك رب العزة عما يصفون »

ولعلك تميل الى التعزل عن هذا المقام فنقول وصف شيء بشيء يقتضي ان يكون ذلك الشيء منشأ لذلك الوصف أو في ذاته ماهو كذلك وذلك لان جميع الصفات بالنسبة الى جميع الذوات من حيث هي صفات وذوات مستوية فما لم يكن في ذات مقتضي صفة لا تتصف بتلك الصفة والا لازم اتصافها بجميع الصفات والترجيح بلا مرجح وصفات إما ذاته أو في ذاته والثاني باطل لعدم التركيب فيه فمنشؤها ذاته فهو كامل لذاته بل كمال الذاته وحديث الغير باطل لا يسمع اذ لا غير الا منه فكيف يرجع المعلول على علته بالعلية .

(واردة واجب الوجود عالم)

لما أشرقت في قلبك أنوار وجوده وانه الحق وكل ماسواه محتاج اليه في الوجود وكل من ظهور ذاته فيجب لك بذلك ادراك انه عالم وذلك لما تراه الاحكام والترتيب وملاحظة الدقائق ورعاية المصالح كما هو مشاهد في كليات العالم وكما تعلمه اذا اطلعت على علم تشريح الحيوان والنبات وطبقات الارض مما يطول شرحه وفي ترتيب المسببات على اسبابها ، فأعطى كل شيء حقه ، وأنزله منزلته ، اذا نقص السبب نقص المسبب واذا كل كل واذا زال زال فلا يليق بك مع شهود هذا الاحكام ان تنكر علمه (وأيضا) هلا تبين لك فيما سبق أن مظاهر الممكنات طلسم ذاته وصفاته الا وان العلوم من الممكنات الظاهرة فهي

طلسم لعلمه الحقيقي فعلمك طلسم وعلمه باطنه فهو العالم وعلمك على ذلك شهيد والعالم بغيره أولى ان يعلم ذاته (وأيضا) لما كان الحق هو الوجود من كل جهة والجهل عدم محض فيستحيل عليه الجهل ويجب له العلم فهو العالم بذاته لذاته وكل ما نشأ عن ذاته

(واردة)

قال مقلدو الحكماء واليه ذهب رئيسهم ان علم الباري تعالى بالكليات بارتسام الصور في ذاته فنقول ان قلتم بان العلم هو نفس تلك الصور (أولا) يلزم أن يكون علم الباري تعالى زائدا على ذاته وهو من كمالاته فيكون الباري كاملا بغير ذاته والكامل بغيره ناقص لذاته (وثانيا) لا يصح لعاقل فضلا عن حكيم ان يقول ان مجرد الصورة فى شيء علم ذلك الشيء بصاحب الصورة والا لكان الجدار عالما بالاسد المرسوم صورته عليه (وثالثا) هذه الصور أمر طارئ على الذات أي زائد عليه فاما قديمة بالذات وهو محال لاستحالة تعدد واجب الوجود واما حادثة عن الذات فيلزم ان لا يكون الذات عالما قبل تلك الصور بالمرتبة فقد كان الجهل جائزا عليه لذاته مستحيلا لغيره . وأيضا يلزم قيام حوادث لانهاية لها بذاته تعالى وأيضا هذه صور على أنحاء شتى بنظام وترتيب معتبر تستدعي علم صانعها فيلزم ان يكون عالما قبلها بها . هذا خلف . على انه لو كان عالما قبلها فاما بصور لتلك الصور وننقل الكلام وهكذا وهو ظاهر البطلان واما بعلمه بذاته الذي هو عين ذاته لاستدعاء العلم بالعلة العلم بالمعلول فليكن علمه بالكليات كذلك وان قلتم بان علمه شيء آخر غير تلك الصور فان كان غير ذاته نتكلم فيه مثل الاول وان كان علمه بذاته فلا معنى للقول بارتسام الصور في ذاته تقدس عن ذلك

واردة في علمه بالجزئيات

لما كان تحقيق الحق موقوفا على نفي ما عداه أردنا نقل ما وصل الينا من المذاهب في تلك المسألة فنقول كثر النقل عن الشيخ الاشعري رضي الله عنه في ذلك ومع ذلك ما تقرر (١) نقل الناقلين على شيء يعتمد عليه فى ذلك بل كلما نقلوا

(١) لعل الكلمة (استقر)

نقلا أكثروا فيه من القيل والقال واختلفوا في فهم معناه ونحن نأخذ بما اشتهر من مذهبه وهو أنه يعلم الجزئيات فنقول ان أراد أنه يعلمها بوصف الجزئية فذلك انما يكون بعد وجودها الخارجي اذ الشيء مالم يوجد في الخارج لم يتشخص والصور العقلية وان قيدت بألف قيد لاتمنع الصدق على كثيرين فهي كلية فإن كان علمه كذلك أزليا (أولا) لزم عليه ان تكون جميع الجزئيات الحادثة موجودة في الازل وهو باطل (وثانيا) مجرد حضور الشئ عند الشئ لايكفي في كونه عالما فلا بد من طروء شيء من المعلوم على العالم حتى يدركه وذلك الطاريء هو الصورة فتكون تلك الصورة مرتسمة في ذاته وهو مستلزم لكون ذاته ذا طول وعرض حتى يكون محلا لصور المساديات التي هي كذلك وإن لم يكن علمه أزليا بل بعد وجود الحادث (فأولا) يلزم جهله به قبل وجوده (وثانيا) يلزم عدم ارادته في خلقه لعدم العلم اذ الارادة من توابع العلم مالم يكن لم تكن (وثالثا) ماتقدم من كون ذاته ذا طول الخ وكل ذلك محال. وان أراد أنه يعلمها لا على وصف الجزئية بل يعلم ان في زمن كذا عند حادث كذا يوجد ذات كذا بصفة كذا فهذه التصورات انما تكون بارتسام الصور في ذاته فان كانت حادثة بالحدوث الزماني فيلزم ان لا يكون عالما قبلها وطروء الحادث على ذاته وهما محالان (وأيضا) هي مخلوقة له مسبوقة بعلم ويكون بصور أخرى فننقل الكلام اليها فيتسلسل. وان (كانت) قديمة بالزمان فان كانت قديمة بالذات أيضا لزم مالا يتناهى واجب الوجود وان كانت حادثة بالذات مستندة اليه في الوجود فيلزم قدم حوادث غير متناهية غير الذات والصفة وهو خلاف مذهبه (وأيضا) لا بد في خلقها من الارادة الموقوفة على العلم فيكون عالما بتلك الصور أيضا قبل خلقها ويكون ذلك بصور أخرى وننقل الكلام اليها فيتسلسل فان تجاوز عن هذا كله وقال ان علمه ليس بالارتسام فقد قال بعلم ذاتي هو عين ذاته وهو علمه بذاته وقد برهن هو على بطلانه والله أعلم

وقال مقلدو الحكماء انه يعلم الجزئيات بوجه كلي أي بمثل ماتقدم في الترديد الثاني من قول الاشعري ومثلوا له بعلم المنجم بأنه في سنة كذا في ساعة كذا في درجة كذا يحصل كسوف وهو لا يقع الا جزئيا وان كان في تعقله كليا اذ الشيء

مالم يوجد في الخارج لا يتشخص وان قيد بغير المتناهي من القيود. و يلزم على هذا المذهب على الشق الثاني من ترديد قول الاشعري فانهم قائلون بأنه بارتسام الصور

وذهب الصوفية الى ان جميع جزئيات الممكنات حاضرة لديه في الازل موجودة بوجودها الخارجي قائلين بأن الزمان شأن من شؤون الحق وجميع الكائنات الداخلة تحت حكم الزمان موجودة في ذلك الزمان بمنزلة النقاط المرسومة على الخط المستقيم ولما ظهر الحق بهذا الشأن الواحد فقد ظهر بجميع ما فيه فالكل موجود عنده حاضر لديه منكشف له واستشهدوا لذلك بانه كما أن نسبة جميع الامكنة اليه على السواء فكذا نسبة الازمنة اليه على السواء ليس عنده حال ولا ماض ولا استقبال وانما نحن لا ندرك ما يأتي أوما مضى ادراك الحال لقصور نظرنا كنملة تمشي على خيط ملون بألوان مختلفة فهي لا تدرك لونا حتى تتجاوز اللون الذي قبله لقصور حاستها عن الاطلاع على جميع الالوان دفعة وهي تظن بان هذا حادث وذاك انعدم مع انا نراه دفعة فكذا نحن. وهذا المذهب الذي حمل عليه صاحب المحاكمات مذهب الحكماء في قولهم يعلمها على وجه كلي فقال أي لا يعلمها معدومة ثم موجودة بيضاء ثم سوداء وهكذا بتجدد في علمه بل يعلمها على تغيرها دفعة ومثل بهذا المثال واستشهد بهذا الاستشهاد وكأنه قول انما يحكم صريح العقل بخلافه اذ كل عاقل يحكم بأن اليوم المستقبل معدوم الآن موجود فيما بعد بجميع ما يحدث فيه في طرفي الوجود والعدم وليس هذا بمنحط عن درجة السفسطة مع أنه لا يسلم من القول بالارتسام والتمثيل والاستشهاد في بون بين المستشهد والممثل له ولنرجع لتحقيق الحق فنقول

أنت تعلم انه لما لم يكن وجود الا لذاته فحقيقته حقيقة الحقائق وذاته ذات الذوات وجميع ما تتوهمه انما هو من الاعتبارات لتلك الذات فلا بد أن تقول ان علمه عين ذاته وهو عين علمه بذاته وهو علم بجميع شؤونه وأطواره وان جميع ما تشرف بالبروز فانما هو تجلي ما في العلم ولكن لضيق ظرف الخارج عن ان يسع المراتب الغير المتناهية التي يقتضيها على حسب ما لكل شيء في ذاته يحصل الترتيب في التجليات فكما أن ذاته واحدة بالذات، والكثرة انما وقعت في عالم التجليات،

فكذا علمه بالكل واحد بالذات، وكثرته في عالم التجليات، فما برز في الوجود الاما كمن في العلم الذاتي ولا فصل الاما أجمل فيه فهو العالم بكل شيء «لا يعزب عنه مثقال ذرة» فدقق النظر واياك ان تحجبك الكثرة عن ذات الوحدة فان البحر لو علم بذاته فليس يحتاج الى علم آخر يعلم به أمواجه وهذا قد يوافق من وجه قول من قال ان العلم قديم وتعلقه حادث ولكن قد ضل عن سواء السبيل، فوقع في تيه الاباطيل، وأيضاً يقرب مما يقال ان للاشياء وجودا علميا ووجودا شهوديا ومما يقال ان للشيء وجوداً بحسب ذاته ووجودا في ذات العلة فتفطن وطبق ان كنت من أهل النظر

﴿ واردة ﴾

كأني بك اذا التفت لنفسك وقد وجدت علمك بنفسك عين نفسك وهذا غير عسير ثم دققت علمت انك لا تدرك غير نفسك فان الادراك ان كان هو مجرد ارتسام الصور فقد تكرر غير مرة انه لا يصح موجبا للعلم وان كان الانفعال بتلك الصور فهو هو أو قريب منه وحكمه حكمه فليس الادراك الا تجلي نفسك بالصور على حسب الاستعداد فادراكك لنفسك في تلك الحالة ادراك لتلك الصور بعينه فادركت نفسك بنفسك وما أدركت خارجا عنك ولكن بالتجوز تقول أدركت زيدا الخارجي ولكنك ظهرت بمطابقه فقلت ظهرت به وهذا دقيق فافهم

﴿ واردة ﴾

كأنك فيما ألقي اليك أدركت ان الحق مريده في تشاء به (١) ولكن ليس يشتاق ويتفكر ثم يوجد على حسب ما يؤدي اليه فكره بل ارادته عين فعله أي لا يتخالل بين الارادة والفعل (١) «انما أمرنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون» انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » فانظر الى حصر الامور في الفعل في جواب الارادة أي ليس لنا شأن من الشؤون المتعلقة بذلك الشيء اذا أردناه الا قولنا

(١) كذا في الاصل ولعل في الكلام تحريفا وحذفا

له كن وذلك كما اذا تصورت زيدا الذي تعرفه من قبل فتصوره فعل من أفعالك ومرضي لك ومراد ولكن ماتعلقت ارادتك بتصوره ثم فعلت ذلك التصور بل ان فعلك ذلك تجلي ارادتك فمعنى كونه مريدا أنه لاجابر له بل تجليه عن علمه مرضي لذاته لايقع في ملكه الا مايريد فتأمل فليس مايفهمونه في الارادة ينبغي في حضرة الالوهية

﴿ واردة ﴾

الحق جواد أي يعطي كل شيء ماينبغي له من حيث انه ينبغي أي ينزل المراتب منازلها «أعطى كل شيء خلقه» فلا يفيض في مرتبة ماتستحق أخرى ولا يحجب عن مرتبة مالها في ذاتها وذلك على حسب ماتقتضيه مراتب التجلي في عالم التنزلات وهذا لايخفى عليك من المباحث السابقة والقوم قد وقع النزاع بينهم في أفعاله تعلل بالاغراض أم لا وكل من الطائفتين أيد مايدعيه ولكن الجمهور على أنها لاتعلل والالزم ان يكون للباري غرض لايتم الا بغيره فيحتاج الى الغير في اتمام غرضه بل هو يفعل بدون غرض فلما أورد عليهم انه يلزم ان يكون عابثا أجابوا عن ذلك بأنه وان لم يلاحظ الغرض ولم يكن له باعث على الفعل لكن جميع أفعاله لاتخلو عن الحكم والمصالح .والعجب لهم كيف دفعوا العبث بهذا مع انا نعلم ان من لعب برجله بدون قصد شيء فترتب على ذلك موت ثعبان مثلا فهو عابث لايقال له أحسنت وفعلت صوابا . ومن غرائب الاتفاقات ماوقع في بعض البلدان الشمالية أنه اجتمع خمسة سراق في محل ليسرقوا منه فسمعوا صوت صبي داخل بيت في تلك الدار فأخرجوه خوفا من ان يوقظ أهله صياحه فوضعوه في صحن الدار فصاح فاستيقظت أمه وأيقظت أباه وخرجا لاجل الولد ثم دخل السراق البيت فأخرجوا المتاع الى الصحن أيضا ليأخذوه فلما دخلوا لاخذ مابقي من المتاع انهدم البيت عليهم فهلكوا جميعا ونجا أهل المنزل مع غالب أمتعتهم فهل يقال لهؤلاء السراق انهم حكماء محسنون وهذا الفعل من جميل أخلاقهم حيث أنجوا هؤلاء من هلاك الهدم وترتب على فعلهم هذه المصلحة الكبيرة؟ كلا بل لايقول به عاقل فليس الامر الا كما سمعت فوجود

ذاته عين الحكمة والغرض لذاته فلا تكن من الغافلين

﴿ واردة كيف بدأ الله الخلق ﴾

من القضايا الاولية ان الطفرة محال أي كونك في مكان لم تكن فيه لا يمكن طفرة أي بدون قطع مسافة على أي وجه كان من المكان الذي كنت فيه الى مالم تكن فيه وإلا لازم عدم المسافة وكونك فيه قبل كونك فيه . وهكذا في كل شيء له بداية ونهاية لا يمكن الوصول الى الغاية الا بقطع المراتب المتوسطة ومنه اللطف والتكثف والقلة والكثرة والاطلاق والتقييد ونحو ذلك فان الكثرة لا يمكن تحققها الا بتحقق آحادها ولا يخفى عليك مثل هذا البديهي غاية الامر انه يتفاوت القطع بالسرعة والبطء، فاذن الارتقاء من مرتبة الاطلاق الى أقصى مراتب التقييد لابد فيه من قطع مراتب التقييد الى أن يصل الى أقصاها والالازم عدم المراتب والفرض وجودها كما علمت من ثبوت المبدإ والمنتهى ، ولما تبين لك ان الاكوان شؤون الوجود ودرجات تنزله وأطواره فاعلم ان تنزله الى غاية التقييد من مرتبة غاية الإطلاق لابد فيه من قطع مراتب التقييدات التي بين المبدإ والمنتهى فقد وقع التجلي على مراتب التنزل الالطف فاللطيف وهكذا الى آخر مراتب التنزل وهو العالم الهيولاني الطبيعي فجميع المراتب التي قبل هذا العالم هي التي نسميها بالملائكة والسرادقات ونسمي البعض عقلا والبعض نفسا وهكذا فكل مرتبة طلسم للتي قبلها والتي قبلها حقيقتها و باطنها والقائم بها الى حقيقة الحقائق وأقربها الى الوجود هو المسمى بالعقل لما انه امام جميع التعينات وملتقى فيضها من المبدإ الاول وفي كلام الحكيم الالهي صلى الله عليه وسلم «أول ماخلق الله تعالى العقل» وباقي المراتب قبل الناسوت هي النفوس الكلية وأشعتها المنبثة عنها فى المراتب العرضية هي النفوس الجزئية وهذا هو المسمى بعالم المجردات

ثم على حسب ماوصل اليه نظرنا وانتهى الينا من حضرة الحكيم الالهي ان النفوس الكلية المربية لعالم الناسوت الظاهرة فيه على ماتقتضيه مرتبته في التنزل أربع نفوس وهي الحاملة لعرش الرب الذي هو هذا العالم وهي (نفس ميكائيلية) وهي التي تركب كل ذرة من ذرات الوجود مع الاخرى لأمر يقتضيه وهذا هو

الرزق العام ومنه الجذبات العمومية الكائنة بين ذرات الوجود (ونفس اسرافيلية) وهي التي بها حصل الحياة فى كل ذرة من ذرات الوجود ومنها فيض الحياة العام (ونفس جبرائيلية) وهي المفيضة للادراك فى كل ذرة من ذرات الوجود (ونفس عزرائيلية) وهي القابضة روح الحياة عن بعض ذرات الوجود لامر يقتضيه المحالة لبعض الأجزاء عن بعض الحلية لبعض المراتب عما كان له كل ذلك في كل شيء بحسبه ثم إنه كما يحصل ذلك في الذرات الجزئية يحصل في المركبات ومن ذلك قبض حياة الحيوانات بالنفس العزرائيلية ورزقها بالميكائيلية وحياتها بالاسرافيلية وإدراكها بالجبرائيلية

والمرتبة الجبرائيلية كما حصل التعليم منها للكليات والجزئيات قد يحصل منها التعليم الظاهري كما حصل ذلك لبعض القديسين مثل الانبياء وهذه المرتبة كثيرا ماجاء ذكرها على الألسنة الإلهية خصوصا على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء انه رآه وقد سد الأفق وليس هذا الارمز لما قررناه، واشارة لما أوضحناه، ولا تستبعدن مثل هذه الافكار فانه قد تكلم قوم بالسيال الكهربائي في العالم وليس يظهر الا آثاره وهو كلام حقيقي مبرهن فقل أنت بالسيال الروحي فى العالم

وليست هذه المراتب متباينة متفارقة بل كل شيء في كل شيء ولفظة في ضيق عبارة ولنرجع الى اتمام مانحن بصدده فنقول

فلما انتهت مراتب التجلي الى عالم الناسوت وقد كنت تعلم ان التنزل ليس الاعبارة عن تنقل الوجود فى الاطوار ولست تدرك منه الا الحركة ولكن لست تعلم كيفيتها والباطن حقيقة الظاهر والظاهر تجليه فبرزت جميع المعنويات في الحسيات في هذا العالم الحسي على ما تقتضيه مراتب التجلي فكانت الحركة اللاكيفية حركة كيفية فبرز هذا العالم شيئا واحدا بسيطا ليس فيه تجزؤ ولا تركيب وهو الذي يسمونه بالهيولى ثم بواسطة هذه الحركة اللازمة بالترتيب حصل في ذلك البسيط جزر ومد وفتق بعد رتق فمنه اللطيف والكثيف والمتفاوت في المرتبتين ووقعت كل كرة حيث أدت بها الحركة كيف كانت ولم يزل هذا العالم متحركا بهذه الحركة لكنا لا ندرك الا حركة الجزئيات الحاضرة بين أيدينا لانا لسنا كل العالم حتى ندرك حركته الكلية فالحركة واحدة ونراها متكثرة بتكثر أجزاء

المتحرك ومن ثم لا تجد إلا متحركا ولا حادثا الا عن حركة وذلك لعدم توقف الفيض في لحظة من اللحظات لعموم الجود وكان العالم في الترقي على حسب تقادمه في الوجود وهذا من مقتضيات الترتيب وقد علمت ما يحتاج اليه العالم في نظامه العام من النفوس الكلية أما النظام الخصوصي لكل ذرة أي المبدأ القريب لهذا انما هو بالنفوس الجزئية المنبعثة عن النفوس الكلية فلا تزال الكلية في تربية الكل والجزئية في ترتيب الجزء حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا

ولعلك على ما تحققت من لزوم الترتيب في عالم التركيب تقول ان أول ماظهر في هذه الكرة النباتات على تفاوتها في الدرجات من متناقص الخلقة جدا ثم يتكامل شيئا فشيئا حتى انتهت الى غايتها ثم الحيوانات كذلك ثم نتيجة الكل وغاية منتهى السير هو الانسان ثم كذلك تتفاوت مراتبه في الوجود من غاية التوحش الى أدنى منها ثم وثم ولا يزال هكذا وقد نطق بهذا كتابنا وأشار اليه في قوله « والله أنبتكم من الارض نباتا » فهذا قليل تستغني به عن كثير واجمال يغنيك عن لبس التفاصيل

﴿ واردة ﴾

قد تبين ان الحق فياض مطلق ينزل كل شيء منزلته التي يجب ان يكون عليها في ذاته ولما أوجد هذا النوع الانساني جعل فيه ادراكات واخلاقا على حسب لوازم فيه وآلات تقتضي ذلك بحسب النوع . ثم ان الآلات الجزئية تقتضي الاختلاف في الاقتضاء على حسب اختلافها في الاشخاص بالعوارض الطارئة على الحقائق الناشئة عن الاسباب الجزئية في هذا العالم فكان اللازم على اختلاف الاخلاق وتباين الآراء على حسب ما تقتضيه تلك المراتب الشخصية أن يأخذ كل طرفا غير الذي يأخذه الآخر و« كل يعمل على شاكلته » ومن مقتضيات هذا التنافر أن يترتب عليه النزاع اذ ينازع البعض البعض الآخر في قصده، ويذوده عما هو بصدده، فيلزم بغلب البعض وقهره البعض الآخر وهو منشأ الفساد والفتن لوقوع العداوة بينهم بذلك فينشأ عنها المحاربات والمقاتلات الذي ينشأ عنها فساد هذا النوع . ثم لاستغراق في عالم الحس الذي هو مقتضى رتبة هذا العالم يستلزم الغفلة عما

يأول إليه أمره بعد مفارقة هذا العالم فيبوء بظلمة الجهل وضيق كدرة الاخلاق ورذائل الاعمال كل ذلك على حسب ماتقتضيه مراتب الوجود في هذا العالم الطبيعي

ولما أمدهم الحق بما فيه اصلاح أبدانهم من جميع لوازم تعيشاتهم وبما فيه بقاء هذا النوع من الاستيلاء ولزم ان يمدهم من جوده وفيضه بما يكون سبباً في تربية عقولهم وتزكية نفوسهم وطبيباً لبواطن أمراضهم بأن يبعث فيهم منهم ذانفس قدسية مطهرة عن جميع شوائب الغفلة منكشفة لها الاسرار والحقائق على وفق الحكمة بأصل الفطرة لايحتاج فيما يقصده الى الفكر والنظر، وحيه من نفسه زكي الاخلاق، رفيع الهمة، قدبث فيه شوق خلقي ونور جبلي الى تربية من أرسل اليهم، يفدي بروحه لذلك، ولا يبالي في هداية شخص باقتحام المهالك، قد جلس على منصة البلاغة، حتى يحكم بالبيان ابلاغه، فتكون اخلاقه ميزاناً لاخلاقهم، واعماله ميزاناً لاعمالهم، وذلك انما يكون على حسب احتياج النوع لذلك بقدر الاستعداد، واستحكام مواد الفساد، فهذا الشخص المتصف بهذه الصفات هو النبي.

ولما بلغ العالم الى درجة (١) في اكتساب المعلومات ووجوه المعارضات وجالوا في ترتيب الافكار، وكانوا في استعداد للتنبه والاستبصار، بعث فيهم نبياً كاملا عمومي الفكر صادق اللهجة في أعلى طبقات الكمال وختم به الأمر وتمم لعدم احتياجهم الى غيره اذ كلما تقادمت الازمان قويت دواعي العرفان ووقد تبين (٢) لهم اجمالا ينبي عن تفاصيلهم قد أحاط بجميع مهماتهم على اختلاف أحوالهم في اعصارهم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه

ولا يخفي على العاقل ان مثل هذا الرجل الكامل لابد منه في عالم الوجود لهذه التربية على ماهو مقتضى العالم وترتيبه على الاسباب والمراتب ومن لطائف الوقائع ماوقع للفاضل الاستاذ (٣) في الاستانبول مع جماعة من الطبيعيين وقد كانوا يسخرون بالانبياء وذلك انه قال لهم يجب على من أنكر الألوهية فضلا عن أثبتها الاعتقاد بالنبوة وذلك لأن الطبيعة قد اقتضت للشخص كبدا وقلبا وروحاً لأجل بقاء وجوده واقتضت أمورا مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب لكماله

(١) لعل الاصل درجة عالية اودرجة الكمال (٢) لعلها بين (٣) يعني السيد جمال الدين

في وجوده واقتضت للنوع آلة تكون سببا في بقائه والأسباب كثيرة فاذا لم يكن هذا الرجل الكامل لهذا العالم بمنزلة الروح للشخص فهلا كان مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب وهدب الاشفار ونحو ذلك فسكتوا وقبلوه

هذا لسان الحكيم في هذا الباب و بلسان آخر نقول لما حصل للوجود في مراتب تجلياته بعد عن نفسه في مراتب تجرده تجلى من نفسه لنفسه بتجلٍّ يدعو نفسه لنفسه على ما يقتضيه التجلي وليس ببعيد بل كما يشاهد فينا من زجر انفسنا الانفسنا وحثها إياها وفيض هذا التجلي بالالتفات الى مبدئه الحقيقي فاذا استغرق في دعوة التجليات، حصل له الالتفات عن عالم المجردات ، فتفكر واستشار . ولما تنفس صبح الحقيقة والناسوتيون في سنة من جهالتهم بعث مناديا :هلموا الى النجاح، فقد طلع الصباح،: فالناس في الاجابة على اختلاف درجاتهم في سنة الغفلة ، ومن استيقظ من غفلته، واستنار بشمس حقيقته، ناب عن الداعي في دعوته، لهذا تم العقد برسالته، وهو لسان التصوف

﴿ واردة ﴾

لعلك فيما سبق تنبهت الى أن المجرد ليس محتدا للتغيير والتبديل والكون والفساد لتنزهه عن الحركة الحسية المقتضية لذلك فالنفوس الناطقة الانسانية باقية ببقاء الوجود . ولما كان الوجود في جميع مراتبه فعالاً فللنفس الناطقة من الافعال على حسب رتبتها وهو في بدنها ليس الا التدبير اما بعد مفارقتها البدن الانساني فافترقت الطوائف في حكمها (فمن قائل) بأن النفس ليس لها حالة الا وهي مدبرة للبدن الانساني فلا تتدنى عنه الى الحيوان والنبات ولا تفتر عن التدبير وكلما خلق ثوب لبست آخر من هذا النوع بعينه فهو مظهر خيرها وشرها وعذابها ونعيمها

ومن قائل بأنها اذا تعطل البدن ظهر لها ملكاتها وادرا كاتها فكان لها بذلك إما الحزن والاسف واما الفرح والابتهاج فلا تتعلق ببدن مادامت تلك الملكات فيها فاذا زالت تلك وصارت ساذجة تعود الى تدبير النبات وتترقى الى الانسانية وهكذا لشوقها لمرتبتها من التدبير لهذا العالم

ومن قائل وهم الحكماء ان النفس قد تفارق هذا البدن الى غير النهاية ولما كان الحق في جمع مراتبه فعالا كما سبق وكان للنفس بذلك رتبة الفعل

فمام ظهورها يكون في عالم التعقل والتخلق كولد سلطان يشتاق الى مرتبة أبيه ولكن لقصوره ينزوي الى بعض الجهات ويظهر سلطنته فيها وبه يتسلى ويكون متلذذا مبتهجا يعزل ويولي ويعز ويذل فكذا النفس فى عالم التعقل والتخلق فان أصلحته ورتبته على ماهو عليه كانت بعد فراق البدن وجودا في عللها متلذذة بمرتبتها مبتهجة بسلطنتها وعلى قدر النقص في ذلك يكون العذاب والألم

ومن قائل وهم الصوفيـــة ان الحق لما نادى شؤونه على لسانه النبوي الى الدخول في حضرته أمرهم ان يتلبسوا عند ذلك بملابس تليق بتلك الحضرة وان يتخلوا عن غير ذلك فمن فهم الرمز وحل اللغز وفني بالفناء المطلق واتصل بحضرة الجود ، ولم ير الا نفس الوجود فلذته نور الوجود ، وهو (ما) لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر علي قلب أحد . ومن نظر الى ظاهر الحال ، وعمل بما فهم من مدلول المقال ، غرست له في أرض نفسه أشجار النعيم ، فكل عمل عمـله برز له عند خراب البدن لذائذ على حسب ما كان يعهد ويتلذذ وكان له من ذلك الحور والولدان ، والاساور والتيجان ، ومن توجـه نحو الطريق ، ولكن غفل عما يروم الفريق ، ونقاعد عن السير ، ولبس ملابس الضير ، ظهرت له تلك النقائص حيات وعقارب وسلاسل واغلالا ، ولا يزال كذلك حتى يتقدس فيكون أحد السابقين. ومن أعرض عن الطريق بالمرة ، وشغل بالاغيار عن تلك الكرة ، فهو لا يزال معذبا بظهوره ، متألما بفجوره ، فاذا هبت عليـــه نسمة من نسمات الرحمة واللطف كان العذاب عذبا، والرحيم ربا

﴿ خاتمـــة ﴾ هلا تفطنت فيما أدرجت الك في هذه الاقوال الى انه وقـع الصلح بين الطائفتين العظيمتين في ان الافعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبيد. فانه لا تخالف بينهما في الحقيقة فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل والوجود في جميع مراتبه مختار والحمد لله رب العالمين وحده

قال مؤلفها تم تبيضها يوم الاربعاء سادس عشر شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الألف اه

المقالة الأولى ــ التربية

في ليلة الأحد الماضي انعقد درس الاستاذ جمال الدين الافغاني وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم وكثير من الافندية مستخدمي الدواوين بمحضر هؤلاء وأولئك شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة ومايلزم ان يسلك من سبلها ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره فى الجرائد الوطنية تعميما للفوائد وبيانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد قال مامعناه:

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم ان قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لايتميز أحد تلك العناصر بالغلبة علي باقيها غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي مايسمي بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة فإن غلب أحد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ماسواه منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي الى اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري ليبحث في تلك العلوم عما به تحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لتتم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لابد منه في تربية النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وما ذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الأهوية ومنافعها ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية

النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طبيبا يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها، ويميز نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها ومايلائم كل واحد على حسبه وخبيرا بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتاريخها من قدم وحدوث حتى يعالج كلاً بما يليق به فإن جهل من ذلك شيئا كان فقده خيرا من وجوده فإن الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجهله يستعمل من الأدوية ماعساه يهيج المرض ويمين من الاغذية ما يساعده على قسوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه. وكما يلزم للطبيب ان يكون عالما بجميع ما قدمنا يجب ان يكون شفيقا رحيما صادقا أمينا لايكون قصارى عمله ما يناله من جُعل المعالجة فإنه ان كان قسياً عديم الرأفة أو كان خائنا فلربما صار آلة في أيدي اعداء المريض يستعملونه لهلاكه بإلقائه السم في الادوية مثلا أو اهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من العرض الفاني وكذلك ان قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم فإنه ان كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفى أجر عمله فإن هلك فقد نال مايزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فعدمه أيضا خير من وجوده

وكما ان روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة فإن تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقيا سيء الحال وسقط في مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك. ألاترى ان النفس الانسانية لابد لها من خلق الجرأة وخلق المخافة وهما متضادان ومن مقاومتها على وجه

معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع تحقق الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعا وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته ولو ان الجرأة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهورا وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق بدون تبصر ولامراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوي الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه. وكذلك لابد من خلق الامساك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء وهي البذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا ولو ان الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لامسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلا فيضر ببدنه ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدى به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفاسد البخل التي لا تنحصر ولو تغلب البذل لأنفق جميع مابيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا لايجد ماينفقه في ألزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي واسطة لطرفين متضادين لابد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك. وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضا بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقلدها بعاداتهم أو باستماع إغواء ذوي الاهواء وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد

وبيان مفاسد الأخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال بمنزلة الاطباء. وكما لزم للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والأرواح اذارقي منبر الارشاد ان يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بإرشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضا وأن يكون مطلعا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الازمان وان يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وانه حديث أوقديم قوي في النفوس أوضعيف وماهو العلاج اللائق بكل صنف. وكما انه يجب على الطبيب البدني ان يكون على علم تام بمنافع الأعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر والواقع. وكما يلزم ان يكون الطبيب شفيقا رحيما صادقا أمينا لا ينظر الى الدنايا ولا ينحط الى المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين ان يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولي مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فأن رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزئت بطبيين لا أطباء بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء والسفلة والادنياء فأنذرها بالعناء والشقاء فإن المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل ويغرس فيها جراثيم الشر باسم انها أصول الخير ولربما كان مقصده حسنا ولا يريد الاخيرا ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ويبعده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فإن ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلجه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نقع الرذيلة واعتقد ذلك ظلا ظليلا فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيرا من وجودهم وكذلك ان كان خائنا أو دنيئا ينحط الى سفاسف الامور أو عدم الشفقة والانسانية فإنه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى اغراضه الفاسدة ومطالبه

الذاتية فلايبالي أوقع الافراد في خير أوشر،صفت النفوس أو تكدرت،ارتفعت الآداب أو انحطت،صحت الارواح أواعتلت ، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم

الا وان القائمين بأمر الارشاد يحصرون فى قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقداستحقوا التعظيم والاحترام، والتبجيل والاجلال،واستوجبوا الشكروالثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم وإلا استحقوا الرفض والطرد والإبعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح ان يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر ضرره على المبتلى به بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية ـ الصناعة

قدعاد حضرة الاستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة فابتدأ حفظه يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولا جليلة غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة الا انها نبتت فروعها فى المغرب واجتنيت ثمارها لغير غارسيها ولم تزل في بلادنا على كايتها واجالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة الى الفعل الا أن هذا السيد الفاضل قدجمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع الى الاصول فروعها والى المقدمات نتائجها والى المجملات تفاصيلها بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القويمة ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للعموم رأيت من الواجب قياما بالخدمة الانسانية ان أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها وأنشر طيب وفدها فى صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق

بيـن حفظـه الله وأثبت ان الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضيـة

(لا كما يزعمه أرباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليتذكر من له فطنة) وانه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ويسير في عيشه سيرتها يتفيأ ظلال الأشجار، ويستكن في الجحرة والاوكار، ليس له شعار ولا دثار، (ولكن خفيف أشعار) يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية، على يد القوى الطبيعية، لا تمسها يد صناعية، ولا تربية أجنبية، ليس له من المكر والتحيل الا مالا يداني فيه الثعلب، ولا من العلم والتدبير الا ما يبعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار والرواح للاستكنان في كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية، والفرار من المكاره الحسية، كما تفر الشاة من الذئب، والارنب من الثعلب، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود، ويقيمه متحكما في كل موجود، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سر الحقائق وعماد عالم الكون وإن جميع البسائط والمركبات انما خلقت لاجله، والكواكب والسيارات انما تتحرك لخدمته، بل كان ضعيفا عاجزا جاهلا حافيا عاريا يزعجه كل حادث، وتستفزه كل نبأة، ويتهيب من كل شكل وهيئة، والشاهد على ذلك ما تحكيه لنا أحوال الامم التي كأنها قريبة عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا والقبائل المستمرة في قمم الجبال والاجم والغابات البعيدة عن العمران البشري المعروف الذين لم تضطرهم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من مكان الى مكان فإنهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة لا يفهمون خطابا، ولا يحسنون جوابا، الا ما كان متعلقا بضرورة الحياة كجلب قوت بسيط ومدافعة عاد من الحيوانات وجميع ما يعده الانسان المتمدن كمالا وانسانية فهم بعيدون منه، عارون عنه، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الانواع الحيوانية بخاصة العجز والفقر والحاجة حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه لا تحصل الا بالتحصيل وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء وهبه قوة عاقلة كلية التصرف، تامة القبول، ووكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود الكلي فكان لكل نبات وحيوان بل لكل موجود مشهود حق الاستاذية وسابق الفضل

على نوع الانسان فاسترشد بأعمالها. واهتدى بآثارها والتقط درر الحكم من فعلها وانفعالها، وتدرج في ذلك شيئا فشيأ تارة يخطىء وتارة يصيب، وطورا ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن ادراك الحقائق والوصول اليها، وأخرى تجذبه الجواذب اضطرارا للوقوف عليها، حتى وصل الى ما تراه من أحواله الغريبة، وآثاره العجيبة،

ثم بين حفظه الله كيف كان يتقلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقادا في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر بأمره، ويتبع سيره، تارة يتدرج الى الكمال فيقعده مقعد رئاسة الكون، وسلطنة الوجود، بما يرشده اليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام، ويقذف به في جب الخرافات، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة، ويغل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة، على ان جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة انما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك مستشهدا في تبيانه بشواهد أحواله الآتية المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وانه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية، لتكون له عوضا عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية، التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة، وليس ذلك يخاف على ذي شعور فإن صنعة الحياكة مثلا قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والاوبار الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره، وصناعة الحديد والاسلحة منزلة القوة المولدة للمخالب والبراثن والانياب للسباع والضباع وعوادي الطيور وهكذا بقية الصنائع وما لم يقم منها مقام ضروري أو حاجي قام مقام كمالي على ما يتضح لك بعد

واذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب ان نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الاولية على

ما قرره الحكماء الاقدمون، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات فالقوة منشأ الاثر مطلقا فعلا كان أو انفعالا فالمعلم مثلا ذو قوة الفعل والمتعلم ذو قوة الانفعال الا ان قوة التأثر والقبول لاتعد صناعة ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة وليست قوة فاعلة صناعية مالم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم فالقوة الحالية التي تعرض آنا وآنات ثم تزول ليست منها في شيء وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة كالافعال الطبيعية من احراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك فان لم يكن الفكر صحيحا كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم أو كان نحو غرض غير محدود الذات كاعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه ان لا يقر قولا لقائل ايا كان حقا أو باطلا فليس له حد يقف عنده بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله فان كان نافيا كان هو مثبتا وان كان مثبتا كان هو سالبا فليس بصناعة

ثم ان نظر في عالم الوجود الكلي علم علم اليقين انه وان وقع كثير من صوره وكمالاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع أو قوى احساسية كقوى طلب الغذاء مثلا في الحيوانات أو الهرب مما يؤلم الجثمان الا ان عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنيا على مراعات الغايات والحكم وفوائد الكمال التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس انما ينظر الكلي الباقي أولا ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وان واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره وجعلها محور صلاحه وفلاحه ان وجهها صوب وجهتها الحقيقية فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا تفيد سواه كأن يطلب بها تنمية بدنه أوجلب ما يلائم ذائقته أو نهامته وما يشبه ذلك فقد أضاع تلك القوة

العالية الشريفة وسلخ عنها ثمرتها وانحط الى درجات الحيوانات بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة واما من حفظ نفسه من السقوط وامسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل فهو الذي ينظر إلى كاية العالم الكبير فيعلم ان نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو متماته فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال ويوقن ان نوع الأنسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التعاقب كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ويتحقق ان حفظ أشخاصه وافراده إنما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن ان يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد كما نراه في موادّ الأغذية التي لا تحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرّاً وجميعها أيضا يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ولوازم ونحوها الا كتساء من العرى وضرورات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات كل ذلك لا يكون الا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلاً عن تحصيل غايته منها فكيف به ان يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوما بيوم بل ساعة بساعة فلابد من التعاون في الاعمال فيعتاض كل عن ثمن عمله بثمرة عمل الآخر فيكون المجموع الإنساني كبدن ذي أعضاء ويعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه اذ لو طلب الاختصاص —مع انه لا بقاء له الا في ضمن المجموع— فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضوا حقيقيا وركنا ثابتا يقوم بأداء عمل يعود على كاية الافراد أولا من طريق كايتهم ويعود الى شخصيته ثانيا ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الأنساني ويعين على انتظام الهيئة الكلية فهو كالعضو الأشل لا فائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من ازالته فالاولى ابانته وقطعه بل ان كان لا يعمل ويسعى الى بقية الافراد في عدم العمل كالاباحية الذين يعتقدون أنه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض حيثما جاءوا أكلوا أو شبقوا واقعوا ويبثون أفكارهم بين افراد النوع فيقتدوا بأعمالهم ويسيروا بمثل سيرهم فيترك كون الأعمال اتكالا على ما بيد الغير

حيث انه مباح لهم فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب ما بيد الغير وما بأيديهم فيحتاجون الى الضروري من الاقوات وغيرها ولا يجدون فيهلكون

فأولئك كالأمراض السارية مثل الجذام والزهري لا بد من قطع العضو المؤف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا إباحيين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك فينبغي ان يعاقبوا و يؤدبوا و يحال بينهم و بين أعمالهم هذه بكل ما يمكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أولا يقيموا

ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلا بد ان يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفاؤهم فراراً من ألم القلب عند اختبار الهم واقتطاعهم لما لهم من العذر القائم اذ حيث ان مدبر الكون قد حرمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه الا ان الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الكلية من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الإنسانية فهم مبغوضون في النفوس مطرودون من زوايا القلوب ساقطون عن نظر الاعتبار بل هم ملعونون من أنفسهم أيضا اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند ما يخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة رديء العاقبة وان كان شقاوه يغلب عليه فيما بعد فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل وتؤيد العاقل ولكن أكثرهم لا يعقلون

وأما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكلوا أنفسهم الى التوكل الكاذب اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا أنه عبارة عن معارضة سنة الله التي قد خلت في عباده ودعوا ذلك تبتلا وانقطاعا عن عالم الظاهر مع أخذهم لكشكول التكفف وخلعهم لجلباب التعفف فهم بمنزلة شعر الإبط لا ينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير و يستحب ازالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم فان بلغ من أمرهم ان يتخذوا ذلك أمرا يدعي اليه

وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الاعمال ويقلدون أعناقهم سبح المكر والحيلة ويسربلونهم بسرابيل التمويه والتزوير ويغرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع يودعون نفوسهم اخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه والحقد والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التلبيس (الغير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الاستار طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بثمرات اكتسابهم باسم انهم وانهم وانهم (كما ترى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع ان يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معا . وبالجملة حيث تبين ان لا قوام للانسان الا بالصنعة فمن أخل بوظائفها أورامها بالنقد فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية فعليها ان تطرده من أبوابها وتمحو اسمه من كتابها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى اقسام اما نافعة ضرورية أو غير ضرورية وإما أن تكون كثيرة النفع أو قليلته أو متممة لفعل الطبيعة أو مزينة له فالقسم الاول كالحدادة لأنها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية والثاني كقصر الثياب مثلا والثالث هو ما يكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل وواضعة جميع النظامات ومعينة جميع الحدود وشارحة حدود الفضائل والرذائل وبالجملة فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية ومن هذا القسم الحكومة العادلة والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة فإن لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليه والخامس (وهو الكثير النفع) كالنجارة والتجارة مثلا والسادس كصناعة الصيد وما شاكلها والسابع كعلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على اتمام وظائفها والثامن كالصباغة والنقش والتلوين وغير ذلك

ثم ان شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته وان أعم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من انها الباحثة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وافكاره واخلاقه فهي أشرف الصناعات والحدادة وان كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الآمر اهـ

٢

ما كتبه في جريدة الاهرام أيام كان مجاورا في الازهر وهو أول كتابته الانشائية في الجرائد

تقريظ الاهرام

جاء في العدد الخامس للسنة الأولى من جريدة الاهرام الاسبوعية الصادر في ٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٦ الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ ما يأتي :

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر فأدرجناها بحروفها

الى حضرة الهمام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الاهرام

انه لما نظر لدى كل قاص ودان، واشتهر بين بني نوع الانسان، ان مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك، اذ كانت قد اختصت بتربية العلوم، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم، وانفردت بالبراعة في الصنائع، والابتكار في أنواع البدائع، فكان أبناء العالم اذ ذاك ينتدون نداها، ويستجدون جداها، يستمطرون من الغيث قطراً، ويستمدون من المحيط نهرا، فكان التمدن فيها كهلا، حين كان عند غيرها طفلا، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب، اذ رأى الطالبين تنسل اليه من كل حدب، وان ملوك الارض خدام عتبته، وتيجان الكيانين تحت قبضته، فاستكبر واعتلا، ولكؤوس الراحة اجتلا، فاقصته الى ممالك الغرب، ليذوق مرارة الشغب واللغب، ويتربى بذلك ويتأدب، فبدا بتلك الممالك غريبا، ونادى معلما وجد مجيبا، وتناوشته أيدي الجاحدين، ولفحته أقوال المنكرين، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب، ويقاسي مستعصيات المصاعب، الى أن بلغ بها أشده، وملك رشده، وسار فيها شرقا وغربا، وخامر ألباب القوم حبا، فعم انتشاره، وبدت آثاره، وتلألأت أنواره، واذ تحلى بحلل الجمال، وتتوج بتاج الكمال، وقضى مدة السياحة، وباء بغاية الراحة، استدار

الزمان كهيئته، ورجع الامر الى بدايته، وقفل التمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته، فورد ديار مصر ورود الاهلي، وتمكن بها تمكن الاصلي، فاستقبلته الديار بغاية المسرة، وأكرمت مثواه وأعظمت أمره، واستردت ما كانت فقدت، وأدنت ما كانت انأت، وأحلته محل القرب، وأنزلته سوداء اللب، فقام يؤدي حق خدمتها، ويوفي شكر كرامتها، فنظر الى ما كان أبداه في تلك الازمان، من شواهق البنيان، التي كم بلغت الاسباب، وحيرت الالباب، وانبأت بما فيها، عن براعة بانيها، ونطقت بفيها، أن آيات الكمال فيها، فلما أعجب بالمثال، حداه حادي الكمال، لأن ينسج على هذا المنوال، فانشأ لنا جريدة الاهرام، المؤسسة على أحكم قواعد الاحكام، الكافلة بارشاد المسترشدين، وتنبيه الغافلين، بما فيها من المباني الرقيقة، والمعاني الدقيقة، والافكار العاليه، المؤيدة بالبراهين الشافية، القائمة بنشر العلوم، بين العموم، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب، تنادي بمقالها وحالها حي على الفلاح، وهلموا الى موارد النجاح، لا تقفوا عند صورة المبنى، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى، تلك اهرام أشباح، وهذه غذاء أرواح، تلك ظواهر صور، وهذه دقائق عبر، تلك مساكن أموات، وهذه لسان سر الصماوات، نعم أين ذلك الزمان، من هذا الآن، الذي قد سطعت فيه شموس العرفان، وانشأ فيه بنو الانسان نشأة أخرى، وتقلب في فنون الحقائق بطنا وظهرا، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم، واهرامنا غير اهرامهم، وأين الذي تفنيه الرياح والامطار، من الذي لا توهنه توالي المدد والاعصار، فان مقره العقول العاليات، والنفوس الزكيات، التي لا يتناولها الفنا، ولا يتبدلها العنا، فبخ بخ لمنشيها، وطوبى لقاريها، فمن الواجب على ذوي الالباب أن يجتنوا اجناها، وان يستطلعوا سر معناها، فيبوؤا بأنوار الحكمة، ويتقلبوا بفضل من الله ونعمة، فان ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها، ولا ألذ من حكمة يصادفها، هذا المجاز في مزاياها، بسم الله مرساها ومجراها، اه

(يقول جامع الكتاب) هذه بداية تشير الى ما عرفنا من الغاية، فالتصور يدل على اشتداد الخيال، والكلام يعرف بأزهري للعلوم العصرية ميال، ولا ينكر منه المنتهي الآن الا تحري السجع الذي كان منتهى البراعة في ذلك الزمان،

﴿ الكتابة والقلم ﴾

وجاء في أهرام السنة الأولى أيضاً ما نصه وقد نشر في عدة أعداد أولها الثامن

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الاديب الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر وموضوعها

في أن فن القلم والكتابة من اللوازم الضرورية ليس للعالم عنها مندوحة في تعيشهم الحقيقي

ان مما انبسطت به أيدي الضرورات وأنتجته مقدمات الحاجات انشاء لسان القلم نائبا عن المتكلم فيما يتكلم وذلك أنه لما اقتضى النظام الآلهى أن يخلق الانسان محتاجا في أن يقوّم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة الى أن يتخذ ما خلق الله فى الارض مالم يكن حاصلا وان يكون منه مالم يكن كائنا بحسب الخلقة الاصلية ركب فيهم القوة النطقية واللطيفة الفكرية التي بها يكون ترتيب ما يحتاجون الى اتخاذه من المطعم والمشرب والملبس والمسكن فقادتهم الفكرة الى اتخاذ الصنائع وآلاتها على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها واضطرهم ذلك الى الاجتماع بتفصيل لسنا الآن بصدده وانه وان صح أن يقوم كل شخص بعمل من الاعمال والبراعة فيه بالآلات البدنية فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعا مبتكرا لما يحتاج اليه أرباب الاعمال في أعمالهم من اللوازم الضرورية أو الادوات التسهيلية أولما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات وفصل الامر بينهم عند الخصومات على ما يقتضيه انتظامه الاجتماعي الانساني بتفصيل لسنا الآن بصدده أيضا بل ذلك انما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة والفطنة النقادة ...

ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفي فى ترتب الأثر عليه بل لابد في ذلك من أعماله وتربيته وأعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الاشغال سواه فانه القوة الواحدة لا تكفي على البراعة لأمور متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ أرباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ويقوم أرباب الاعمال باخراج ذلك من

القوة الى الفعل فقام كلٌّ بواجبه واعتاض كل من صاحبه وكان نسبة أرباب التعاليم الى أولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق والحفي الرفيق ليس لهم فكر الا في رقيهم ولا نظر الا فيما يكون سببا لاسعادهم وأساسا لراحتهم واذ رأوا ذلك منهم تحققوا مالهم من الفضيلة وانتضلوا للقيام بشكرهم بكل حيلة فاشتعلت اذ ذاك أفكارهم وارتفعت أنظارهم واتسعت دائرة المعرفة وغدت آيات الحقائق منكشفة فعسر عليهم حفظ ما أسسوه وعظم عليهم ان يؤدوه كما أبدوه لكثرة المقدمات وتشتت الجزئيات وصعوبة ماتحتاج اليه القواعد مما لا يقوم بحفظ الكثير فضلا عن الواحد فاحتاجوا أيضا الى اتخاذ ما به تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون اليه عند النسيان ويذكرهم لدى البيان فطفقوا يتخذون صورا من الاحجار وأخشاب الاشجار تحكي بالمناسبة عما يريدون وتنطبق على مايقولون لتكون اشارة للعارفين وحجابا على أعين الجاهلين وكان ذلك كافيا لنقطة من الزمان

ثم لما شيدت مباني العرفان وانتشرت المعارف بين بني الانسان وغصت الارض بالعلوم وسيرت فيها سير النجوم صعب عليهم الحفظ بالتصوير والتبس الامر على السميع البصير فألجئوا بالاضطرار الى حفظ ذلك بالارقام العلمية الحاكية عن الحروف اللفظية القابلة في الرسم للتأليفات الغير المتناهية بدون أدنى التباس بين أشكالها كما لا يحصل الا التباس بين الالفاظ عند تأديتها فكان القلم لسانا آخر للمتكلم الا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال وما نطق به القلم جوهر لا يزال فلصاحبه عند الذهول أن يرجع اليه ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم وفرغوا من شغل عظيم ووضع عنهم وزر جسيم كان يعوقهم عن كثير من التعاليم وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل الى جيل على نحو ما قال من اجمال وتفصيل فكان بذلك أفكار الازمنة المتتالية مجتمعة في نقطة واحدة وكذلك أفكار أهل زمان واحد على ما فيها من الشوارد بدون اشتباه في ذلك فحصل لذلك التعاون في الافكار وايقاد سرج الاستبصار فان أفكارا كثيرة تقدمت أو تأخرت بمنزلة لجنة قد انعقدت للارتئاء في حقيقة أمر خفيت والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجح بين الاقوال

ويري بنور بصيرته ما اليه أمر كل آل

فكم من وهم فاسد عنه اندفع وكم من محال جاز وجائز امتنع وكم من نور له بين تلك الآراء لمع فكان له مكنة أن يمشي في ضوء مصباحه وأن يضرب بسلاحه لطالب صلاحه فوضع القواعد وأقام الشواهد ورمى بالقذى في عين الجاحد فارتقت العلوم الى ذراها وارتبط أولاها بأخراها وركض العالم في ضوءها واستقوا من هاطل نوءها وعاد مثل الأول والآخر في هذا العمل الفاخر مثل جماعة تألبوا على اقامة بيت بالاشتراك وكلفوا كلا على حسب ماله من المكنة والادراك أن يأتي بماله بال في اقامته أو دخل في استدامته أو ما يكون موجبا لحسن الترتيب أو اتقان التركيب فمنهم من ميز زواياه ومنهم من فصل جواهره عن خباياه ومنهم من أسس قواعده ومنهم من أقام شواهده وهكذا كل يسعى لتشييده واقامة حدوده واحكام قوائمه واظهار علائمه الى أن يتم بيت المعارف الذي هو أمان لكل خائف وهو حرم الله الذي من دخله كان آمنا وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قمنا وكل ذلك بسر سير القلم الذي به علم الانسان مالم يعلم وجمع الكل في صعيد واحد ونادى فلباه كل قاصد فهذا ايجاز في شانه ويسير من بيانه في تسيير العلوم وارتقائها وتسهيل اقتباسها وابدائها

ثم لما عظم أمر المعاملات التجأوا الى التعامل بالنسيئة واحتاجوا الى حفظ وجه التعامل خوفا من النفوس الجريئة وكثرت وجوه الاعتداء من الاحزاب والشعوب والتجأوا الى الاصلاح كيلا تبيدهم اللغوب وكان ذلك لا يستقيم الا بحفظ معاهدات تنعقد بينهم لمنع الاقتراحات ولا يتم ذلك الا بأن يحفظ ماوقع اتفاق عليه على الوجه المرضي بينهم ليمكن الرجوع عند الاحتياج اليه فلم يوجد لذلك مستودع أمين ولا حصن مكين لايداع هذه المعاني الا ما يشيده القلم من المباني فكان القلم هو الشاهد العدل والحكم الذي عليه المعول ولولاه لم يحفظ حدود ولم يوثق بعهود ولم ينل المحق حقه بل يتسع المجال للمبطل وتبعد الشقة

ولما انتشر نوع الانسان في أقطار الارض وبعد ما بينهم في الطول والعرض مع ما بينهم من المعاملات ومواثيق المعاقدات احتاجوا الى التخاطب في شؤونهم مع تنائي أمكنتهم وتباعد أوطانهم فكان لسان المرسل اذ ذاك لسان البريد وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد وان حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد أو يبعد القريب أو يقرب البعيد فكم من رسول أعقبه سيف مسلول أو عنق مغلول أو حرب تخمد الانفاس وتعمر الارماس ومع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام ولم يكن في كلام المرسل ما يثقله بهذه الاوزار ولا من نفسه ما يشعل شرر هذه النار فوقعت الندامة وضرب الويل خيامه فالتجأوا الى استعمال رقم القلم ووكلوا الامر اليه فيما به يتكلم فكان مبلغا أوعى من سامع وهاجعا أسرى من لامع وقنوعا أغلب من طامع وصامتا أنطق من مانع فأدى القول كما سمع وحكى الصنيع كما صنع وأتى على المراد من فاسد أو سداد بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل وأحفظ للأمانة من المالك الحامل فهو حينئذ حقيقة اللسان وغيره مجاز عنه في البيان فكم من معاتب تنفر النفوس من عتابه ان هو اعتب في خطابه ولكن ان رقم أتى بالرقيق ونادى نداء الشفيق فاستبدل الشقيق بالمشاق ورفع العنا ووضع الوفاق فهو ان تكلم كلم وان رقم شفى الحلم وكم من مؤدب فيه لا يستطيع تحريك فيه بما يخفيه لا يفيد المستفيد ولا يوفي مرام المستعيد ولكنه ان أجرى القلم نطق بالحكم وحج وأفحم وحل وابرم وأسس وأحكم فهو وان لم ينطق بلسانه قد نطق بيراعه وبنانه فلم تعد فضيلة البيان وان عضلته عصبة اللسان وكم من خطيب نجيب ورقيب حسيب ان تكلم اقاق وأطبق وأغاق وان كتب أعجب ورغب وأرهب وقرب وأبعد وجمع وافرد وأوقد نيران الانفه وعقد روابط الالفه وأتى برقيق التشبيه ودقيق التنبيه

ومن أجل آثار القلم اذ يعد من أعظم النعم ومن اللوازم ألزم الجرائد والجرنالات التي هي أمل عظيم لترقي الملل وانتظام أمور الدول اما الاول فلأنها توقف الملل على خصائصها الموجبة لنقائصها وتوضح لهم أسباب الترقي وما به

يكون التوقي وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى وأي الامور لهم بالتمسك أحرى وتشوه لهم وجه القبيح ان ارتكبوه وتعظم لهم أمر الجميل ان تركوه فتشرح مفاسد العادات التي هم عليها كالجهالة والتكاسل عن الصناعة والرضا بالفقر مع التردي برداء الكبر والتمسك بالخرافات وفاسد الاعتقادات وجمع كلمة النفاق وشق عصى الوفاق وغير ذلك من قبائح الافعال ورذائل الاخلاق وتقدم لديهم مصالح الفضائل كاتساع دائرة الافكار والتنقير على ما في العالم من دقائق الاسرار والحث على الاشتغال بالصنائع والاهتمام في ترقي البدائع وطلب العيشة الراضية مع اليد العليا والهمة العالية والنظر في آراء الاوائل نظر الناقد والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد كيلا يفوت كثير من الكمالات ويفقد عظيم من اللذات وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير البصيرة وتطهير السريرة وتحرك فيهم حمية الغيرة فينتبهون بذلك من غفلاتهم ويستيقظون من سناتهم ويلتفتون الى مصالحهم ويقلعون عن قبائحهم فيطلبون الخير ويتجنبون الضير ويرتفع من بينهم الجور ويوضع العدل وتطلع فيهم شمس المعارف وينسلخ عنهم ليل الجهل وينالون من الراحة والرفاهية ما لا يحصر ويستولون من عظائم الأمور على ما لا يصح ان يذكر وان أدركه أرباب النظر ·

وأما الثاني فلأنها لسان سر السياسة فتنبىء عن نتائجها في الآن بل في الآت وتوازن بين الدول وقواها وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها وتبين ما في نظامهم من الاختلاف وما في أفعالهم من الاعتلال ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح ومواد الاصلاح وحفظ الارواح وارتياح الأشباح وما انثنت عليه صدور السلاطين من عدل يزين وظلم يشين وترشدهم الى ما يجب أن يسلك فيما استولوا عليه وما يؤول أمرهم ان سلكوا غيره اليه وتغري وتحذر وتبشر وتنذر فاذ ذاك ينتبه الغافلون ويحترس المستيقظون ويقوم الضعف المتلافي ويطلبون اللحاق بالملاصق والتجافي ويهرع المختلون لسد خللهم وأبراء عللهم وتخفيف أثقالهم ويرتدع الظالمون ويغتبط المقسطون وذلك كله مع تنائي الاقطار وتباعد

الاسفار فالقول الواحد يبلغ الجميع في قديل زمان وكأنما القائل والسامع في مكان فيعتضد البعض بالبعض في الخروج من الذلة وشفاء الغلة وانما مثل صاحب الجرنال مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ونادى بالحقير والجليل فنفخة تحيي ونفخه تميت وعظة تصيب وأخرى تفيت فمن الواجب على كل ذي دراية ان يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ليكون على بصيرة في أمره ومصيبا في سيره نائلا لخيره حذرا من شره متحركا نحو المعالي طالبا ما تهتز اليه العوالي ويقف على خفيات الحقائق ورقائق الدقائق ويخرج الى فضاء المعرفة ويطلق من غل الجهالة والسفه ان هذا الا بامداد مداد القلم وجريانه في ميدان تربية الامم والا فاين الفيافت من بلاد تبت وأين فارس من بلاد هند وفارس اذ يقوم عليهم رقيبا وفيهم خطيبا يعظهم بالموعظة الحسنة ويحذرهم غرة السنة ولقد ينبئنا ما انجر اليه علم أمر العالم في سيره وليس له مكنة ان يعدل عنه الى غيره بان صار القلم محتاجا اليه في ادنى المهمات وأهون الملمات وخصما في جميع المنازعات وحكما لدى المحاكمات حتى لم يبق للسان الا محاورات قليلة وموارد أخطارها غير جليلة فاقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم

المدبر الانساني والمدبر العقلي الروحاني

وجاء في العدد ١١ منها الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ — ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ ما يأتي وتتمته في ع ٢٣

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العالم العلامة ﴾

﴿ الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

ان النظر في الآثار الانسانية على اختلافها بحسب الخصائص الشخصية وائتلافها في الغايات النوعية ينبئنا بان الحقيقة الانسانية تشتمل على مدبرين عظيمين أحدهما المدبر الحيواني مع ما يستتبعه من جميع الاحساسات الظاهرة

والباطنة والآخر هو المدبر العقلي الروحاني الكلي ولكل واحد منهما اذا لوحظ وحده بقطع النظر عن صاحبه غاية يطلبها وحدود في سيره لايجاوزها فالمدبر الحيواني ليس لهُ من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم والى زمن مخصوص فهو منوط باللوازم الكافلة لهذا الغرض من جلب ماتقوم به البنية ودفع مافيه مضرة أولها ء مغنية على قدر الامكان حتى يتقوم هذا المزاج سالما مدة مامن الزمان وذلك أيضاً هوحال سائر الحيوانات العجم يرشدك الى ذلك التأمل في آلاتها البدنية وآثارها الحياتية فان حيوانا من الحيوانات لم يكن لتتوجه ارادته الى سوى مايقوّم بدنه أو دفع مايعتري عليه مما يوهنه فان رجليه لم تكن تسعى الا لطلب المرعى أو للهرب من قاصد إيلام، أو للاستقاء من حر أوام أو ليوقع سفادا ليتخذ لهُ من نوعه أولادا بل لا شعور له بهذا الاخير وانما هو ليدفع عن بدنه ما كان يناله بالتأخير ولا سكنت الا للاستراحة من تعب أو ليأوي حيث أعياه الطلب ولا تحرك منه خيال لغير ما ذكرنا على أي حال فهذا مطمح نظره وقصارى أمره في سيره وليس له في هذا السير سوى خدمة الطبيعة ومساعدتها باتمام تركيب العالم العنصري واستبقاء أنواعه واستكمال آثاره البسيطة فقد علمت ان الانسان في هذا مشارك لغيره من الحيوانات وليس يمتاز فيه عنها بشيء من جهة من الجهات

واما المدبر العقلي فهو من حيث هو ليس لهُ من غاية سوى كشف المعمى، وان بعد المرمى على وجه لا يلحقهُ فيه الريب ولا يتطرق اليه أدنى عيب والتحلي بالملكات الفاضلة والتنزه عن الصفات الغير الكاملة وذلك بان يأخذ بالقسط ويقف على الحد الاوسط فيما يجب ان يقع من تصرفاته مع اغياره أوفي حد ذاته وأن يفيض على الغير مما استفد أو أن يضع النجاح ويدفع الفساد ويقرر قواعد الوفاق ويقلع أساس التفرق والشقاق، وكل ذلك على مقدار قوته وما يملكه من مكنته فهو السابح في بيداء الوجود ليميز الواقع من المفقود ويقف على أصول الكون وما نشأ عنها لونا بعد لون ويكشف عن وجوه الاسرار براقع الآثار فلا يدع مدينة الا قرع بابها وطعم طعمها واستقى شرابها ولا حسناء الا كشف نقابها

ورشف رضابها ولا عميقا لا وقف على قراره ولا مرتفعاً الا أتى عليه بعبارة وعلى هذا المنوال حتى يصبح وقد استغنى عن العالم بصدره واكتفى عن مخبر به بخبره وأضحى خلقا جديدا وعلى كل شيء بذاته شهيدا وانطوت في وحدته الكائنات واتحدت في ذاته المختلفات،

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد

فحينئذ يضع موازينه ليحكم قوانينه فقد عرف النافق من الكاسد، وميز الصحيح من الفاسد فيأخذ بما استطاب ويدع ما منا استراب فلا يدع شاردة من الفضائل الا اقتنصها ولا ناشزاً من المكارم الا اقتنصها ولا دفينا من المحاسن الا أبرزه ولا خليطا الا أماط عنه ما يشوبه وافرزه ولا نقيصة الا أولاها النفار وولاها الادبار فلا يدنيه ميله من السفاسف ولا يقصيه عزمه عن المعالي وان دونها القواصف فلا يكنف ثقل العار ولا يستنكف الاخذ بالثار وإذا دعت اليه داعية الحق وان جل الخطب واتسع الخرق وحينئذ يستميح مسامع امثاله ليمدهم من نواله ويغرس فيهم أشجار النجاح ليجتنوا منها ثمار الفلاح ويجنبهم ريبة الاختلال، ويضع لهم ما يعبرون عليه فى لجج الاشكال وهذه هي الآثار التى قد امتاز بها الانسان عن سائر الحيوانات فلا ريب ان المدبر العقلي هو الانسان بالحقيقة

هذا ما لكل من المدبرين على حدته الا ان سير الوجود قد اقتضى ان يكون مجموعهما طبيعة واحدة وهي الحقيقة الانسانية وان يقع الوسط بينهما على وجه محكم، حتى ان الاتحاد بينهما ربما يتوهم وان يكون كل منهما محتاجا الى الآخر فى ابداء عناله، وبلوغ كماله وهاك الشاهد فانا قد بينا ان المقصد الاعلى للعقل انما هو استكشاف اسرار الوجود وابراز ما استتر في عالم الشهود وذلك مقام لا يعلوه كعبه، ولا يأتي عليه عناؤه وتعبه عند استبداده بذاته وصرف الوجهة عن آلاته بل الطريقة المثلى فى ذلك والمسلك الوحيد من بين المسالك هو استعمال هذه الآلات الجسدانية، ليتوصل منها الى ما يتطلبه من الدقائق الخفية فانها تقدم اليه من صور الكائنات ما لم يكن يحضره ولم يكن يبلغه خبره . فانا لو فرضنا ان العقل قد فطر على أحسن الفطر

ونشأ على غاية من صفاء الجوهر ولكنه لم يستعمل حس البصر فهل كان يتمكن من استجبال وفد الضياء أو استطلاع سكان الفضاء حتى يحدد دائرة أورانوس ويهاجم العقرب بالقوس ويجمع بين الاسد والثور على الجوار بلا تعد ولا جور ويعين ما لبدرنا من المنازل وأين حوت ليالي وصله وهجره نازل ويعين سير الكاتب ويستكشف ما نال المشتري من العجائب، وينبي عن ذي الحلقتين ويحقق ما بين السماكين، ويقف على ما لشمسنا من التدبير في هذا العالم الكبير وكيف ان كل هذه العوالم اليها فقير ومن مركزها الحقيقي يستمد التيسير في المسير ويقدر ما بينها من الابعاد وما يشتمله كل كوكب من الامتداد ومن أين كانت تأتيه هذه الصور، حتى تحدثه بما لديها من العبر وهل كان يقف على حقيقة الألوان وما للضياء من الاختراق والسريان وكيفية وصوله من النيرات الى الارض وانتشاره في الطول والعرض وهل كان يدرك سير الأنواء وحوادث الهواء من برق يخطف الابصار ومدارات البان على بنات القفار حتى يقف بذلك على اسرار كبيرة، ويقتني فوائد غزيرة وهل كان يحضره تراكيب الحيوانات على اختلافها وتناسب اعضائها وائتلافها وارتباط الاعصاب والعضلات وجذب طلمبات الشرايين مادة الغذاء الى جميع الجهات وغير ذلك مما تحار فيه الافكار وتعشى فيه الابصار حتى يقف على شيء من سر الخلقة وينال من الواقع حقه وهل كان يستطيع إحكام آلات التحليل حتى يستيقن الاصيل في عالم التركيب من النزيل ألا ان فضائل البصر لدى العقل لا تنكر وفوائده المجلوبة منه اليه لا تحصر،

ولو انه لم يصرف وجهة الالتفات الى ما يأتي بالسمع من الاصوات لكان أول ما يفقده من الفضائل الفضيلة التي ليس لها من معادل وهي تقطيع الصوت بالحروف على وجه معروف لتكون علائم حاكية عما تكنه الصدور وما هو وراء حجب الظواهر مستور فيقف كل من بني النوع على أفكار الآخر التي قد كابد عليها وثابر فتكون ميدانا تجول فيه فكرته ومحجة تمتطيها حجته، فتكثر بذلك العلوم ويتسع مجال الفهوم فان الامر على ما بيناه في مقالة قلمية ابديناها سابقا وهو ان مثل أفكار كثيرة تقدمت أو تأخرت مثل لجنة قد انعقدت للارتياء في حقيقة

أمر خفيت والمستبصر الناقد كرئيس لتلك الجمعية يرجح بين الاقوال ويحقق بعين بصيرته ما اليه أمر كل آل فتدفع عنه وساوسه وتتجلى اليه عرائسه ويشرق له في نفسه شمس من البرهان ويأخذ بالالباب من آياته سحر من البيان فكان له مكنة ان يسير في ضوء مصباحه وان يضرب بسلاحه لطلب صلاحه فوضع الشواهد واقام القواعد ورمى بالقذى من عين الجاحد وفوائد السمع سوى هذه كثيرة

وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه أنواع المشمومات وحاسة الذوق أنواع المطعومات وحاسة اللمس أرشدته الى مبدأ الصلابة واللين فأرشده كل ذلك للبحث في اسرار هذه الاختلافات وأسبابها وعللها الفعلة وعلاقة نهايها وذلك باب من العلم عظيم وخطبه جسيم ولو ان المدرك العقلي فينا وقف على نقطة واحدة واتخذله متبوءا على حدة هلا كان يفوته كثير من المعلومات ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات بلى فلا بد من الانتقال من أين الى أين والابتذال في البون والبين والاستبصار فيما يراه كيلا يعود بخفي حنين فتحتم عليه لنيل كمال الارب، تحريك كثير من الآلات البدنية نحو الطلب، والا فليس يدرك الانزرا ولا يحمل إلا وزرا شعر

ان العلي حدثتني وهي صادقة فيما تحدث ان العز في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

فقد تنورت من هذا ان ليس للعقل عن شيء من هذه الآلات غنى، ولا لاشجاره دون سقيها جنى .

هذا هو الاضطرار العقلي الى الحيوان في كمالاته الادراكية وجدير بان يكون كذلك في كمالاته العملية كالاقدام والاحجام لربط وثام أو تقرير نظام، أودفع عار أو تأنيس نفار أو وضع عدالة أو انقاذ من ويل جهالة أو إغاثة ملهوف أو مواصلة مشغوف وغير ذلك مما يجب ان يكون العالم عليه ولا راحة للكون الا بأن يصار اليه وكذلك الحيواني في الانسان مضطر الى العقلي في بقائه مدة ما من الزمان فان الانسان لما شغفته عرائس الاكوان حبا ودعته لوصلها لم قربا تنكب عن مقامه وأسرع في إقدامه فبرز اليها قبل ان تنسج له أيدي القدر لباسا يقيه،

أو تصنع له نعلا يحتذيه بها ترفده من حدة الناب وقوة المخلاب ما به يتخلص من مهاجمه وينتصف من مقاسمه ولم تهبه من القوة الطبيعية ما يتعيش معه بعطاق النباتية، فكان بادي البشرة حافي القدم مجردا عن آلات الذب والدفاع معرضا لصنع البلايا وهدفا لسهام المنايا يوهنه الحر ويودي به القر ويلجئه الاضطرار لتناول ثمار الاشجار فهو عاجز فقير قد أعوزته القدرة والتقدير وليس في حسه الحيواني، ما يفي بتعيشه الآني فاذن عرض على العقل حاله وقدم اليه ماناله فلم يجد العقل بدا من ان يقيم هذا العرش على كواهل الصنائع يستديم حفظه بأنواع البدائع فأقبل نحو أمهات الاسباب يستدرها ألبان الارزاق فسكبت اليه ضروعها من جميع الآفاق ومحضها بأيدى الآلات فاستخلص منها ما للبدن من الغايات فالنباتات أضحت حاملة لمادة غذائه وملتحفة بما يكنه من درعه ودوائه والمعادن والاشجار والاحجار استقبلته بوجه لم تنله نائلة النفار قائلة هانحن لك فاتخذ ماتريد من جلب ملائم أودفع بأس شديد فاستخدم البعض وانبسط سلطانه في الطول والعرض فاتخذ منها آلات لجميع الاعمال جاعلا زائد الاحتياج قائدا له الى جميع الآمال فلبس لباس العزة بعد ما كادت مشاركاته في الوجود ان تستفزه واستوى على عرش الراحة وأطلق من قيد العناء سراحه كل ذلك بتدبير العقل الرشيد وتصرفه الوحيد فقد كان البدن محتاجاً في قيامه الى مايقتضيه العقل من أحكامه فحينئذ كان كل من الحيواني والعقلي مفتقراً في نيل غايته الى الآخر ومن ثم يرتبك الناظر في حالها

فمن جهة يرى ان العقل قد أفرغ جهده وبذل غاية ما عنده في استيفاء لوازم البدن واقتناء اللذائذ ماظهر منها وما بطن ويرتكب في ذلك الصاعب ويحتمل أنواع المتاعب ويرتب مقدمات الحيل للوصول الى ماقل منها وجل فيظن ان ليس وراء عبارات قريبة وليس سوى هذه اللذائذ من بغية ويذهب الى ان الانسان يعيش لان يأكل ويشرب ويلهو ويلعب وهذا نظر أدنى

ومن جهة يرى ان كثيراً ممن لا يحصى عددهم ولا تحصر افرادهم يتجرعون كؤوس الشدائد ويتكلفون مخالفة العوائد تتجافى جنوبهم عن المضاجع

وان لذ العيش وعز المضاجع يكتحلون السهاد ويتمنطقون بطي الابعاد ويكتسبون ثياب النحول ويعترضون حد السيف المسلول يجوبون القفار راكبين متن الاسفار يتوسدون ما لا يتوسد ويأكلون ويشربون ما يزهد وذلك كله ليستكشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال أو ليستبين أن سلسلة جبال قد أخذت في امتدادها كم من الاميال أو ليعلم ان مقاطعة على كم تحتوي من افراد الانسان أو انهم يتدينون بأي دين من الاديان فهؤلاء قد هجروا أوطانهم واتعبوا أبدانهم لتحقيق أمر جزئي خطره في ذاته يسير وان كان مايترتب عليه من الآثار في جملة العالم كثير ويبصر ان كثيراً من الناس قد امتلك خزائن من الاموال وتحصن بقلاع من فرسان الرجال بحيث يكون له مكنة من الراحة التامة البدنية واقتناء جميع اللذائذ الحيوانية ومع ذلك ينتحل نحلة الفكرة وينتف لحية نفسه كرة بعد كرة يتمثل اليه الحور والولدان فيغض عنهم ساحبا ذيل النسيان وربما غفل الزمن الطويل عن غذائه الذي به دوام قوته واستحكام بنائه وانكب على النظر فيما بين أوراق الدفاتر ليقف على افكار الاوائل والاواخر ويضع قسط الميزان بين الآرا كانما يحاكم بين الاسكندرودارا حتى اذا أخذته الحيرة يرى ولها حيرانا ويملا سكرانا وقد اكتفى بسلاف الشراب واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب وبقرع أقداح الكلام من قرع جامات المدام واذ قذفت به أمواج بحر الوله الى ساحل المعرفة وانقشعت عنه ظلمات الاوهام وأسفر له صبح الحق انتبه الى رمقه واطفأ حرقه وحسبك ماروه عن نيوتن الفيلسوف المشهور ذلك حيث استغرقته الفكرة مع ان الجوع كان قد بلغ معه قدره طلب الطعام فلم يجد فأمر ان يصنع له البيض فانه أسرع الى النضج من غيره فأتي له بقدر فيه ماء وأوقدوا أسفله النار وأتي له بالبيض ثم قالت الخادمة له اذا غلا القدر نألق البيض فيه فأخذ بيضة ينتظر بها غليان القدر وكانت الساعة بيده ليعلم مقدار الزمن الباقي لدرسه فلما غلا القدر ألقى الساعة في القدر ظانا انها البيضة ثم أخذ ينظر الى البيضة ليعلم مقدار الزمن من حركة زلالها ويكتشف الواقع من صفاتها فأتت الخادمة وهي تظن ان الفيلسوف قد قضى عمله وبلغ من الغذاء

أمله فوجدت الساعة في القدر دائرة بين الهبوط والصعود والركوع والسجود كسكران أطربته ألحان القانون والعود أو ناسك حركته أهوال ذلك اليوم المشهود وأحوال غيره من أمثاله مشهورة وفي الكتب مسطورة وبالجملة فان كون البحث في دقائق العلوم وكشف معميات الامور مما يشغل الانسان عن نفسه فضلاً عن حسه أمر محقق قد قر في نفوس العموم حتى لا يصح ان ينكر اذا لم يجده كل شخص من نفسه

ويرى ويسمع ان من الناس من يقوم بنشر فضيلة من الفضائل أو تبيان حق في مسئلة من المسائل ينتضل سيف لسانه ويستميل عقول الغافلين بسحر بيانه فيتعوذون من سحره بتمام الانصراف ويغمدون عضب لسانه في اغماد الاجحاف قائلين (شعر)

من ذا الذي من غينا يخرجنا نحو العلى والحق من يرشدنا

ويجرعونه في ذلك كؤوس الاحن ويطلبون الراحة من عنائه بالاجلاء على الوطن وهو مع ذلك لا ينثني عنانه ولا يسكن في طلب اسعادهم هيجانه وليس يهمه في ذلك قرع الصفاح والسنان ولا استفزازه من مكان الى مكان ولكن أن يقبل المستعدون سجال فيضه وان يرى ازهار غرسه في صالح أرضه ومن أولئك رجال لا يحصى عددهم ولم ينقطع الى الآن مددهم ويرى ويعلم ان كثيرا من الناس يريق دم جميع اللذائذ دون حماية لائذ ولا يحتمل ثقل العار وان دونه جبال النار وحسبك ما تراه من لاعبي نحو الشطرنج والنرد اذ يصرف أحدهم فكرته ويبذل همته في ان يحوز قصب السبق في ميدان الغلبة بحيث لو أتى اليه محبوب كان دائم المماطلة وقد دعته داعية الرأفة للمواصلة لا يلتفت اليه ولا يعطف ميله عليه وكل ذلك حذرا من أن يلحقه عار المغلوبية مع أنها غلبة وهمية لا تكترث بها النفوس الابية فضلا عن الدنية فما ظنك بعار يلحق صاحبه الشناعة ويذهب ببهائه ويكشف قناعه خصوصاً ان أودع بطون الدفاتر ليكون عبرة من الاول للآخر فهنالك يخلع لباس حب الحياة عن نفسه ويضع خوذة شرف الانسانية على رأسه حتى يتخلص من

لحقه أو يلحق بمن سبقه وهو في ذلك يتلذذ بطعنات السنان كأنها غمزات حور وغلمان ومن هؤلاء كثيرون وأنتم بهم عالمون فمن هذه الجهة يظن بل يوقن أن ليس المقصد الاعلى والغاية القصوى من هذه النشأة الانسانية سوى التحلي بهذه الفضائل المعنوية واقتناء تلك اللذائذ الروحانية ولامحالة يذهب الى ان الانسان يأكل لان يعيش ويعيش لان يرى ويرى لان يعقل ويعقل لان يكمل وهذا هو النظر الادق والقول الاحق

فان قال قائل ان جميع ماذكرته ثابت لاينكر ولكن ان جميع مايرتكبه أولئك الذين عددتهم من ترك اللذائذ البدنية وميلهم نحو مازعمت من الخصائص العقلية ليس لاستكمال اللذة الثانية لذاتها بل لتكمل لهم الاولى بجميع جهاتها فان أرباب العلوم قد علموا ان لا تنال الرفاهية والراحة ولايستوفى جميع ما يقوم به البدن سالما عن جميع الآفات الا بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب فيشقون في تحصيلها ليسعدوا بنيل عاقبة أمرها وان الذين قد استبدوا راحتهم في نشر أفكارهم وبث فضائلهم لم يكن داعيتهم الى ذلك سوى حب الرياسة ليستعبدوا غيرهم ويتخلصوا مما كانوا ينالونه من الذل والتعاسة وإن أرباب الهمم العالية لم يجيروا المستجير ولم يحفظوا ذمار العشير الا خوفا من أن يمتد اليهم عند التساهل في حواشيهم يد المتغلبين فيتمكنون من نواصيهم فيمنعونهم من لذاتهم الجسمانية ومقتضيات حياتهم البدنية وبالجملة مانشرته فهو اما لنيل لقمة أودفع لكمة فأقول مجيبا دقق النظر ياهذا في أحوال الذين بذلوا أرواحهم في طلب الكمالات العقلية مع ايقانهم اما بفوت هذه اللذائذ الحسية أوقطع عرق الحياة بالكلية الذين لم يكن مسعاهم سوى نيل المكارم والفضائل وكل مادون ذلك فهو له من الوسائل. فانه لوكان لهم غاية سوى تلك الكمالات لماتوا دونها ولم يتجاوزها الى اضدادها بل في أحوال غيرهم فانك قلما تجد انسانا لايفدي بلذة بدنية لنيل روحية والتي ان عددت لك أصنافهم الدانية التي لا تنحط درجة افرادها عن ذلك على اختلافها يطول المقال ويتسع المجال. نعم اننا لاننكر ان كثيراً من الافراد يتخذ المقاصد ومبادي ولم ينالوا من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي اشربوا في

قلوبهم عجل الشهوات ووسموا جميع الآثار الانسانية بالمقدمات وتكالبوا تكالب الذئاب على الفريسة وان مثالهم فى نيلها بما ذكر مثل المختلس يتزيا بزي أرباب الامانة كيلا ينفر منه الأمين ولا يحترس فان بني نوعهم لو يقفون على مقاصدهم الدنية لم يرفدوهم شيئاً مما تهواه تلك الهمم الارضية الا من هم على مشربهم وارتضعوا من ثدى أمهم ومنهم من رسب فى أرض حيوانية بالمرة ولم يوجه طرفه نحو سماء الانسانية بنظره فمثله كمثل الحمار يركبه كل راكب ليمده بعلف دائب وهذا مع ماقبله سواء فى المقصد وشركاء في المصدر والمورد لا منتهى لحركاتهم سوى مآرب حيوانية بل نباتية فلا يصح لاحد منهم ان يرى نفسه أرقى من ثعلب يروغ من المحارب ويحتال في التوثب على ضعيف الدجاج والارانب ومع كل ذلك لا تقبل نفسي انهم مجردون من اللذائذ الروحانية وان غلبتهم على ذلك دناءتهم وانحطت بهم طبيعتهم ولا أمل أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وتستشيط نفوسهم والالآم غضباً ان أندادهم فى أعراضهم جهلوا بدون من يلحظوا في ذلك تلك اللذات أو يكون لهم اليها التفات ثم اني أنشدك الله أيها الحكيم الا ما تقلدت الانصاف في التحكيم وانبأتني على من ترتبت الآثار التي توقن انها من خصائص الانسان كتمهيد دلائل العرفان . التي قد استخدم بها ما في العالم من جماد وحيوان واستنقذ بها ابناء عالمه من ربقة التكليف الى فضاء ليس فيه مزعج ولا مخيف . وفي ظل من أنت ترفل في ثياب الفخار تحكم ما تريد وتفعل مما تشاء وتختار لا شك في أنك تحكم بان تلك آثار أولئك الذين قد بذلوا حياتهم في نيل الفضائل والمعارف وأجهدوا أنفسهم بتهامع ماصادمهم من أنواع المخاوف وجعلوا تلك الغايات نصب أعينهم حيثما ذهبوا ومنتهى سيرهم رغبوا أو أرغبوا قائلا كل واحد منهم (شعر)

ولست بنظار الى جانب الغنى اذا كانت العلياء في جانب الفقر

وهل سمعت ان ملة قد ارتقت الى صلاح حال أو تنعم بال الا بعد ان خضب ثراها بدماء أولئك الفضلاء واختطف عقاب جورها نفوس هؤلاء النبلاء ثم بعد يرتعون في مروج حميتهم ويختالون في ثياب عز غيرتهم فهل كان ذلك يحصل الا بايثار لذة واحدة على لذائذ متعددة بل غير متناهية وهي لذة الفضيلة

والصفات الجليلة فهي خاصة الانسان التي عنها ينشا آثاره

فاذن لاجرم ينقسم الانسان الى قسمين قسم أخلد الى أرض الحيوانية فغايته غاياتها يقوم بدنه مدة ثم ينفلت من الحياة لا يبقى له أثر ولا يسمع له خبر وقسم قد ارتقى الى ذروة الانسانية فنهج المنهج العقلي الذي قدمنا بيانه وايدنا برهانه فكلما قوي في فطرة الشخص جانب الانسانية كان ميله نحو التصرفات العقلية يأنف الظلم ولا يجازف في الحكم ولا ينتحي نحو الغدر ولا يحتمل صدمات القهر لغير الحق بل تركض خيله في أرض العدالة لرفع آثار الجهالة ودفع معرة النذالة يأخذ بالبرهان ولا ينكص اذا استحكم البيان وذلك لا الى حد مخصوص ولا في مكان مخصوص ولا في زمان مخصوص. نعم الاقرب الى البحر أولى بمائه والروى انما ينال من فضل استغنائه ومن ثم ترى ان أهل قارة أوربا لما ارتقت لديهم المعارف الى ذارها وبلغت فيهم الكمالات قصاراها وألقت الرياسة اليهم زمامها وفوضت السياسة اليهم أحكامها وأصبح نور العقل في أحيائهم يتلالا وسنا الفضل في أقطارهم يتعالى تسابقت هممهم الى بث مقتضيات الانسانية في نواحي الكرة الارضية واستئصال مادة التوحش وتطهير الارض من خصال التبربر وما استعصى عليهم في ذلك من عويصات الموانع انفذوا اليه قامعا من كتائبهم أي قامع

الا ان منهم من يتخذ هذه الفضائل اسما ويتقلدها رسما لتكون آلة لاعمالهم وسلما لسوء آمالهم خصوصاً الملك الكبير ذا الارض الواسعة والاقطار الشاسعة الذي قد منح أهل ممالكته تمام الحرية حتى انه لا يبيح لهم ان تدرس العلوم الفلسفية في مدارسهم الرسمية بل الاهلية بل ان أراد أحدهم ان يتبصر اتخذ له كمينا وتستر وأولى أهل ملته من مقتضيات الحنو والشفقة ما تنفطر منه قلوب أهل الرأفة والرقة خصوصاً أهل دينه الكاثوليك الذين مزقهم كل ممزق ونفى كثيرا منهم الى حيث لا يخاف ولا يفرق وما ترك وسيلة الى الاسترقاق الا أقامها ولا ذريعة الى استعباد غيره الا قص قصصها كيف لا وقد تقلد رتبة البطركية التي هي مقدمة ركب الالوهية فقام بمامورية المقدسة ليؤدي بعض ما أسسه وكتبه على نفسه من القيام بحقوق الانسانية والتهافت على تقويم الحق على الوجه الاحق

الاليق فاوقد نيران الفتنة في بيوت أهل دينه الفقراء المحتاجين الى رعاية دولتهم ليجردهم من ذل الشوكة والقوة و يلبسهم عز الضعف والمهنة و ينقذهم من ربقة الحرية التي قد نالوها حيث هم على حفظ عهودهم عاكفون وعلى إصلاح أحوالهم الداخلية متألبون يتدللون على دولتهم تدلل المعشوق على العاشق و ينالون منها ماينال الولد من والده أو الحبيب من محبه الصادق وليستخلصهم من كل ذلك الى فضاء عدله الذي قد بسط غطاءه على أنفاس أهل مملكته و بحبوحة الحرية التي قد استعبد بها ابناء ملته وقد صادقه على ذلك جل الممالك القاسطة لما لكل واحد منهم من ساقطة ينتظر بها الالتقاط و بذلك الملك المقدس في نيلها يكون الارتباط وهم في ذلك ينادون يا للانسانية و يا للحقوق المدنية وتترنم منهم الخطباء على منابر الظلم والاجحاف بتلاوة آيات الاقلاع عن الالحاد واقتناء شرف الانصاف واني لست الآن معهم في ميدان المحاكمة حتى انبئهم انه قد فعل ذلك بأبناء دينهم بل ابناء أوطانهم وهم بمرأي من ذلك ومسمع مالا يصح فى مثل هذه الايام ان يسمع وقد سودت بذلك وجوه الصحف ومع ذلك لم يتحرك فيهم عرق الحماسة ولا فتحوا فى ذلك سجلات السياسة وان أمثال أولئك الكمل لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي بها منعوا بيع الرقيق قضاء لحق المساواة ان يجعلوا تلك الرأفة والرقة خاصة ببعض المقاطعات أو منحصرة فى جهة من الجهات بل كان من الواجب ان ينظروا من وراء حجاب الى خيوه وخوقند كما نظروا جهارا الى السرب والجبل الاسود فاني لو تكلمت في هذا يطول أو يجيبني مجيب بأنهم الى الآن لم يبلغوا حد الكمال حتى يفعلوا أفعال الرجال ولا يتحرشون بحرش المقتال وللانسان كمال سوى ماهم فيه وتلك التي تتوسم فيها العظم مباديه ولكن أعجب لجعل المسئلة شرقية وغربية فان العاقل يتفرس في ذلك أسرارا خفية تنبئنا عنها التواريخ القديمة والحديثة وتحكي ما كانت تفعله القياصرة بالاكاسرة والاكاسرة بالقياصرة حيث كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر فهذا حقد بالميراث جدير بالاكتراث الا انه لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب وتركت الشرقيين يحمى يثرب قويت من الغربيين المهاجمة و بطلت من الشرقيين آثار

المقاومة فبات عدو بلا معاذي ومبارز لا تصده الدواعي والعوادي فخفي الامر على غير بصير وذهب على غير خبير وما أوصل الشرقيين الى هذا الحدسوى تفرق الآراء واختلاف الاهواء حتى ان بعض الناس ممن لا يبالي بهم يتهللون بسوء أحوالهم ويبتهجون اذا بشروا بتسلط اعدائهم وماذلك الامن تداني الهمم وتراكم الظلم والوقوع في حفرة الحيوانية والانحطاط عن درجة الانسانية حيث فقدت منهم الغيرة والحمية وذلك بدل ان ينبذوا في مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية لحماية أوطانهم ووقايتها من وطأة أعدائهم الذين لا يرومون من الاستيلاء علينا معاشر الشرقيين الا توسعة ممالكهم والتمكن من استعبادنا بالدخول تحت حوزتهم لتكون لهم خزينة عند الافتقار وترسا يقون به أوطانهم ورجالهم مما عسى يبرزه الاستقبال وبعد ذلك يكون عاراً علينا أي عار يذهب بهاؤكم يتشفى منكم عدوكم وينهدم بناؤكم وينقطع من العزة رجاؤكم أنتم يا معشر الشرقيين أبناء وطن واحد متشاركون في المنافع والمضار وسائر المقاصد لا يمس أحدكم خير الا نال الآخر منه مثل ما نال صاحبه ولا توجه اليه خير الا وهو الى الآخر يتعاقبه فما لهممكم تضاءلت وخطباؤكم تمثلت

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فؤادكم

محى السيف أسطار البلاغة وانتحى اليك ليوث الغاب من كل جانب

واذكروا اذ تسطر أحوالكم في صحف الرجال ويستقبل بها ما يأتي من الاجيال فان أنتم أبرزتم حميتكم ورعيتم حق وطنكم الذي منه ابتدأتم وفيه سكنتم ودافعتم عنه ببذل الارواح فضلا عن حسن المقال وبالجملة سلكتم مسالك الرجال لا تهوس الاطفال فتلك مأثرة انسانية تنالون بها مجدكم وفخاركم وتتملكون سعدكم وحلية يختال فيها من تعقبونه بعدكم والا فالعار والشنار لاحق بكم وليس الا ان يحثى تراب الذل في وجوه اعقابكم وانظروا الى أحوال سلفكم لتكون مرآة لأخوالكم. فان قال قائل

ان الديانات ألقت بيننا احنا وأودعتنا أفانين العداوات

فكل واحد منا يتوقد من صاحبه لمخالفته له في مذهبه ومناوأته اياه في مشربه فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق وجمع كلمة الاتفاق والتخلص من خسة النفاق ؟ نجيبه ان مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحد واصل واحد قد يقع بينهما بعض المنازعات المنزلية والمناوشات المعاشية فيأخذ كلا منهم ماشاء من الغيرة والحمية ويكاد أن يفتك كل بالآخر ومع كل ذلك انهما عند اقتراح أجنبي على أحدهما يقوم الآخر بنصرته ولا يحجم عن رد تبعته فتلك العداوات الجزئية لا يصح لدى العاقل ان تضر بمصالحنا الكلية وعلى فرض ان لو عدت تلك المزاحمات شيئا يذكر وأمرا يصح اليه النظر فما اشنع حال من ينتقم بيد الغير و يلحق نفسه وعقبه عار السفاهة والضير أين أنتم من تيمستكليس اليوناني الذي بعد ما صنع المكايد مع دارا وهزمه وجاهد ماجاهد في حماية وطنه اقصاه اليونانيون وطردوه وأجمعوا أمرهم على ان يقتلوه فالتجأ الى دارا يستنجده ما اعتراه فاعظم منزلته وأكرم مثواه ثم ان دارا طلب منه ان يحشد جيشاً على اليونانيين فقال وجهني الى أي مكان قاص أودان سوى بلاد اليونان فانها وطني ومقر تربيتي لا ترضى همتي بان أقدمها لغير أمتي وانه وان كان أهل اليونان طردوني ولكن تراب اليونان ماصنع معي قبيحا فلما أغلظ عليه دارا في الطلب نادته هواتف الانسانية أن ذلك من الموت أصعب فاختار الموت على الحياة وتناول السم ومات ألا فانتبهوا من سنة الغفلة واتخذوا لكم من الانسانية ظله ومن الفضائل خله واحذروا وبالحمية الوطنية اتقوا واعتصموا اه

العلوم الكلامية . والدعوة الى العلوم العصرية

وجاء في العدد ٣٦ منها وأعداد بعده ما يأتي:

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل ﴾

﴿ الاريب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب

ومنينا أنفسنا بانا ناصرنا في نشأة أخرى وتقدمنا الى الأمام بعد أن كنا الى القهقرى واستصبحنا بمصباح الآمال في ليل الضلالة والاختلال وهمت أفكارنا بتحصيل ماسبقنا اليه غيرنا تذكرنا حوادث الأيام باننا لازلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الاول بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل وتنثني آمالنا عن تقدم أهالي أوطاننا فمن أعجب مارأيناه في هذه الايام ان بعض طلبة العلم الكرام الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل وافتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم قد تحركت الى المعالي همته ودعته الى التفنن غيرته فاخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الاسلامية لما انه قد علم كما هو الواقع ان العلوم المنطقية انما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الافكار غثها من السمين وتبيين ان كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان أن اي مقدمة يصح ان تؤخذ في البيان وأيها يجب أن يقذف ويطرح فهذا علم حقيق بان يتخذ سلماً لجميع العلوم ولا يعدل عن طلبه الا جهول ظلوم والعلوم الكلامية انما هي أحكام لتأييد القواعد الدينية بالادلة العقلية القطعية حتى يحق لممارس تلك العلوم ان يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين على وجه لا يكون فيه اثبات الشيء بنفسه ولا تنزيل العقل عن درجته في ادراكه وحسه فلما سمع بذلك بعض أحبائه وأصفيائه واقربائه الذين يؤثرون خيره ولا يرتضون ضرره اهتز لذلك واضطرب وأعجب كل العجب وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله ان يأخذه وأوسع لذلك الطالب النصيحة ويالها من فضيحة أي فضيحة .قائلا كيف تدرس علوم الضلالات حتى تقع في الشبهات الافارتدع وبحالتك اقتنع وكن كما كان الاب والجد وجدَّ فيما كانوا عليه فمن جد وجد فأجاب الطالب المسكين سؤله وطوى سجل علمه ونشر جهله ومع ذلك لم تدعه ألسنة حساده المتألبين على عناده ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام . ورمي سهام الملام يقولون الى الآن في ضلاله القديم لم يميز بين المنتج والعقيم والمخدوش والسليم حتى ان بعض ذوي (الجهل) من أهل بلاده المخلصين في وداده الساعين في إسعاده وشوا بهذا الطالب الى والده وأفصحوا له القول بشأن ولده قائلين

ان (الرجل) منا اذا سمع ان ولدك يشتغل بالعلوم تتناوله أيدي الهموم (يقوم) ولا يهنأ له طعام ولا شراب ويبيت ليله في اضطراب ويظل نهاره في اكتئاب أسفاً على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا ولم يعمل على مثالتنا ألم تعلم ان الانسان كلما قوي في العلم اجتهاده وبدا له رشاده يتزلزل اعتقاده فكيف بك وهو ثمرة فؤادك وأرشد أولادك فتحرك في والده عرق الحمية وأسرع ذاهباً الى مصر المحمية ليرى هل صح الخبر أو كذب الناقل وفجر فوصل الى ولده في الساعة الثالثة من الليل ومن آن وصوله أخـذ ينذر ولده بالثبور والويل ان كان لتلك الاقاويل صحة فأجابه الطالب ان ذلك من كذب الناقلين وبغي الحاسدين واني من يوم سعيت في منعي وقطع نفعي لم تقر عيني بنظرة في رياض تلك العلوم ولم أشف قلبي بأخذ منطوق منها ولا مفهوم فلم يصدقه حتى تمسك بالحبـل المتين وأحلفه بالله رب العالمين ان الناقل كذاب وانه في أمره غير مرتاب فحلف وهو الصادق في حلفه وكيف لا وقـد حفته المـكاره من بين يديه ومن خلفه فلما أيقن أبوه بكذب ما نقل اليه حمـد الله وأثنى عليه وأصبح من غده متوجهاً الى بلده فانظر الى هذا الرجل مع كثرة انشغاله واحتياجه لساعة ينظر فيها الى أحواله كيف ترك الاهم وصرف الدرهم وانقض انقضاض السهم وأقدم إقدام الشهم وماذاك الا لحادث أقلقه وشناعة عظيمة خاف ان تلحقه وداهية دهياء قد استفزته من أرضه وبأس شديد طلب التخلص من حلوله بركضه فإن سألت ماهذا الأمر الفظيع والحادث البشع الشنيع قال ان ولدي يتعلم المنطق والكلام ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والاقدام وانظر الى هذه الحماسة والغيرة التي قد دعتهم الى التعاضد والتناصر والنخوة التى قد حركتهم على التكاثر للتخلص من هذا الحادث الملم وانقشاع هذا الليل المدلهم بغاية الحرارة الناشئة عن صدق طوية وخلوص نية فتباً لهذه العقول وبئست عواقبها وما اليه أمرها يؤول

إن دام هذا ولم تحدث له غيرٌ لم يبـك ميت ولم يفرح بمولود

واني لاتعجب من هؤلاء الاخوان في الوطن وأرباب البصائر والفطن كيف مالت بهم الحرارة الى الهبوط حتى آل أمرهم الى السقوط وياعجبا إذ لم

تصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها ففي أي شيء نصرفه فانه ان ضل عنا رشادنا وغاب سدادنا فهل بشيء سوى الدليل نعرفه

الاوان هذا أمر غني عن البيان ويكل عن الافصاح به اللسان مع ان هذه العلوم ليست الا ما يقرأ في سائر جوامع المسلمين مشارق الارض ومغاربها حتى الآن في نفس الاستانة يقرأ في مساجدها كثير من كتبها وقد قال الاكابر من المحققين كالامام الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم ان تعلم هذه العلوم من فروض الاعيان وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية خصوصاً في مثل هذه الازمان التي قد وقع فيه اختلاط الناس من سائر الاديان فانه من البين ان ما أخذ عن الآباء و بلغناه ألسنة الاقرباء إن لم يؤيد بالبراهين نالته أقوال الملحدين وادحضته شبه الجاحدين فيصبح وقد وهى بنيانه وانحط شانه أولم يطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الاسلام في استامبول الى الرجل الجرماني الشهير الذي قد أسلم في هذه الأيام اذ يقول له: نحن لا نجتنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ولا نقبل اعتقادا يناقض العلوم المتعارفة (كالمبرهنة) في فني الحساب والهندسة من أن الكل أعظم من الجزء وان الشيء لا يكون غير نفسه وان الشيء الواحد لا يكون واقعاً وغير واقع في آن واحد وأمثالها من العلوم المتعارفة وهي البديهيات الأولية أو الاولوية على ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديث اوآية كذلك أي تغاير العلوم المتعارفة لاولناه . اه

وليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدي الاسلام وغذيت بلبانه وتربت في حجره وتقلدت في إيوانه من زمن يزيد عن ألف سنة وتناولتها أيدي الخلص منا وتناقلتها عنهم الألسنة فما حالنا بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان وكافة عنا أيدي العدوان والهوان وأساس لسعادتنا ومعيار لثروتنا وقوتنا لا بد لنا من اكتسابها وبذل المجهود في طلابها فبالاولى تقدم نضع أصابعنا في آذاننا ان ذكرت ونهاجر من كرة الارض اذا سماؤها انشقت وان مثل هذه النفرة لو كانت في عهد المتوكل العباسي عندما كانت الامة بغرور وشواسي

وقوة متوهمة تحصنها من تعدي الامم المتمدمة أوفي زمن المماليك وتكولمان وغيرهم ممن تملك هذه الاوطان حين كانوا في ذروة التوحش لا يهتدون الى مابه يديرون أمورهم في التعيش وكانوا حائرين في تيه الخيالات والاوهام وقد أخذ بجميع احساساتهم جور الحكام ولم يكن بينهم و بين غيرهم من الامم اختلاط اذ كانوا في حفرة الانحطاط لكان لا يأخذنا العجب بل نضيف ذلك الى السبب ونلتمس لهم العذر فى ذلك اذ قد عميت عنهم جميع المسالك وكنا نؤمل ان المبنج يفيق بشم روح النوشادر وان هؤلاء يهتدون اذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر و يقومون من غفلتهم اذا قام من يوقظهم ويخرجون عماهم فيه اذا نادى بهم من يعظهم ولكن (تعذر) ذلك الامر منهم فى زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عم انحاء الكرة على العموم وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون ووقع فيه الارتباط بيننا و بين الامم المتمدنة ورأينا ماهم عليه من الاحوال الحسنه وظهر لنا التوازن بينها و بين أحوالنا الهجنة كثرتهم وفاقتنا وعزتهم وذلتنا وقوتهم وضعفنا وقدرتهم وعجزنا وصولتهم وانهزامنا وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد و بها يعتد بل فى زمان خرج فيه العلم من الاذهان الى الاعيان وتنزل من مرتبته الروحانية وتحلى في الصور الجسدانية وفتح لنا رياضه وهيأ للغرس غياضه وأصبح يجول بيننا في علاه و ينادي بأرفع صوت وأعلاه الا من سائل فأعطيه الا من فقير فاغنيه الا من طالب سلطان فيناله الا من محارب عدوان فنحدد نصاله . الا من حيران في غسق الضلال يمن على نفسه بنظرة لسنانا المتعال ونحن بمسمع من نداه ومرأى من سناه لكن صمت الاذان وعميت الابصار (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ـ ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وهل يليق (بقوم) أن تكون هذه الجهالات أفكارهم وتلك المستهجنات آثارهم مع كل ما قدرأوه من صنيع مليكهم وحامي ذمارهم جناب الخديوي الاعظم لازال قضاؤه في الكائنات يبرم حيث قد بذل الهمة فى اجتلاب المعارف وتوسيع دائرة الآداب والعوارف اذ فتح المدارس والمكاتب (وعني) بالاساتذة من الاقارب والاجانب واجتذب التلامذة من كل جانب حتى أضحت غايات الارتقاء سهلة الاكتساب وخزائن الخيرات مفتحة

الابواب وترعرع روض المعارف وأزهر زهره وبدا صلاحه وينع ثمره (ولكن لم يكن له مقتطف ولا مجتني ولا عان ولا معتني) وأطلق الحرية أيده الله فى اقتناء هذه الخيرات واجتناء هذه الثمرات وافترش بساط العدل ودعاهم بذلك الى دار الكرامة والفضل فهلا انتهزوا الفرصة قبل انقضاء آجالهم وانتكاس آمالهم ولعمري ان مافعل الخديوي فى هذه البلاد من موجبات الاسعاد لو كان عند أمة أخرى لكانت بلغت الى غاية الكمال ووقفت على حد الاعتدال وأصبحت مفيدة لا مستفيدة وتقلدت سيوف العز بدل القرعة والجريدة فأننا لم نسمع ان ملكا من ملوك أوربا الذين قد خلدت أسماؤهم في الصحف الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن فى أقطارهم قد بذل الهمة في ذلك معشار ما بذله جناب الخديوي فيه فيالله سعيه اذ قد أتى بكل ما يمكن ان يؤتي به في سعادة أمته ولكن ماذا تصنع فى همتنا الكسالى * ياخيبة المسعى اذا لم نسعف * لكن

على المرء ان يسعى الى الخير جهده وليس عليه ان تتم المطالب

فهلا ساعدوا هذا المليك فى اسعاد أنفسهم وتخلصهم من بؤسهم «ان هذا الشيء عجاب» لا العواصف تحركهم ولا العواطف تجتذبهم ولعل ذلك المرض فيهم قد خفي دواؤه واعيا الطبيب شفاؤه نسأل الله العافية

ولعل قائلا يقول ان هذه الحادثة تثني الامل ولا تنذر بخيبة العمل فانها جزئية من الجزئيات لا يحكم بها على الكليات فأنه في كل زمان وفي كل مكان يوجد الحمقى والأغبياء وأرباب الجهالات والاشقياء وذلك لا ينافي حكم الغالب: فأجيبه بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ولا أبدع واقعة وقعت ولكن ذلك أكثر من الكثير وأمره فاش بيننا شهير خصوصاً من الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة فإنهم الى الآن لم ينظروا الى أنفسهم ولا الينا بعين الرحمة ولم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على ابناء ملتهم (بعائدة) ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه وطويت صحفه وولت ركائبه غير ملتفتين الى اننا أصبحنا فى خلق جديد قد طرحتنا الايام بين يدي

وشرفنافي بادية قدغصت بآساد ضارية كل يطلب منا ثاره و يطلب شن الغاره فان كنا من آحاد تلك الاساد فقد وقينا أنفسنا ودينا والا فاما نطرح ديننا وننجو بانفسنا واما ان نبيد عن آخرنا بسوء الجهل وضلال الطريق مع ان ملاك الامر بأيدينا فعلينا ان ننظر الى أحوال جيراننا من الملل والدول وما الذي نقلهم عن حالهم الاول وأدى بهم الى ان صاروا أغنياء أقوياء حتى كادوا ان يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل فاذا حققنا السبب وجب علينا ان نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ونستعد لخيرنا فيما هو آت وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا

أليس من البين أنه لا دين الا بدولة ولا دولة الا بصولة ولا صولة الا بقوة ولا قوة الا بثروة وليس للدولة تجارة وصناعة وانما ثروتها بثروة أهاليها ولا تمكن ثروة الاهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب فان ذلك أمر قد خفي على ذوي الالباب فضلا عن غيرهم كيف لا وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالاخشاب والنبال والسهام وخزف الجبال وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهيد القيم وحضرنا زمان نضطر فيه الى المراكب المدرعة ومدافع المترااليوز والمكروب و بنادق الابرة وغير ذلك من الاسلحة التي تجددت وستجدد فيما بعد فان الشر الذي هو من عناصر الانسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع فانهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد واخلاص . وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا ودنيانا من شرر هذه النيران بدون ان يكون عندنا ما يماثلها إن لم نقل ما يزيد عنها وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بداني الحرف؟ كلا بل لا بد من أن تؤتى البيوت من أبوابها وتطلب المسببات من أسبابها فلا بد من البحث عن وجوه الاكتساب من وجه الصواب والاستضاءة بنور المعرفة والتبري عن مرافقة السفه وليس من يرشدنا الى ذلك الا ابناء هذه الطائفة فانهم أرواحنا وقائدوا أشباحنا حيثما توجهوا توجهنا وفي أي وقت على أي شيء عرجة

عرجنا وان من حقهم ان يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم و بيان فوائدها وما يترتب عليها من المنافع وعلى عدمها من المضار ووجه احتياجنا اليها ولعمر الله قد كان ذلك خير الاعمال وأحبها عند الله لان اعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الاسلام مقدم على جميع الشعائر فانه بعد زوال الرأس لا يبقى لسائر البدن الا الرمس كما هو بين عندهم وغير خاف عليهم ولا تظنن اني أقول ان توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بلزومه لرقة في دينهم حاشا الله بل انهم لم يلتفتوا الى لزومه وانه أهم مايهم وأوجب مما يجب ولو انهم التفتوا اليه وحققوا الامر على ماهو عليه لقاموا بارشاد الناس اليه على قدم وساق وضاقت المساجد بخطبائهم ووعاظهم وحث الاهالي وتحريضهم على استحصال ماهو أساس لحفظ دينهم على ماهو المعهود منهم من الهمة فيما يكون مقويا للشوكة دينا وصولته ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته ومن لي بان ينتبهوا الى هذه النكتة وانه لا بد لهم من الالتفات الى هذه اللوازم البتة كي يمنوا علينا بحسن النظر ويعينوا لنا حد الخير والشر فانا لا نسمع الا مقالهم ولا نرمق إلا أحوالهم بل لا نسمع الا بآذانهم ولا نبصر الا بابصارهم ولا نذوق الا بذائقتهم ولا نتكلم الا بألسنتهم كيف لا وهم الارواح ونحن الاشباح وهم النسمات ونحن الارواح حيثما مالوا ملنا وما ملوا مللنا . نعم اننا نحتاج زيادة على هذه المدارس الى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسئلة وهي ان العلم نافع والجهل ضار وافصاح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار بل هي ألزم من جميع اللوازم فانه مالم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الاقدام عليه بل يكون مبتذلا عند النفوس مرموقا بعين البؤس تشمئز منه الطباع وتنفر منه الاسماع وان هذه المسألة أي ان العلم نافع لنا والجهل مهلك لارواحنا وأبداننا مسألة صارت عندنا من أدق النظريات يحتاج في بيانها الى كثير من المقدمات والحجج والبينات مع ما ينضم الى ذلك من الاعتبارات كالترغيب والترهيب والتمثيل والتقريب والاجمال والتفصيل والايجاز والتطويل على حسب اختلاف مراتبنا في القبول وعلى الله تمام المسئول

﴿ وجاء في العدد ٤١ من هذه السنة ما نصه ﴾

التحفة الادبية

انه حينما كانت همم أرباب الفطن النقادة والافكار الوقادة (من أهل) العربية في أوج كمالها وافلاك سعادتها في منازل اقبالها كانت الامة تباهي سائر الأمم برجالها العقلاء السياسيين وفلاسفتها المتبصرين وتختال بينها عجباً بما لها من الثروة والقوه والعزة والفتوه وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سمائهم حيث كانوا قد استووا على منصات الكمال في التعقل والتبصر على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت. وبما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها واحاطتها بدقائق (المعاني) التي كان يبديها العرفاء من المتكلمين بها وكانت متحلية متزينة بحلية الاصطلاحات العلمية كاصطلاحات الطبيعيات والالهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من سائر الفنون وكانت قريرة العين بتلك الحلية والزينة وازديادها وانتظامها على حسب مرور الازمان (إذ) فترت تلك الهمم ونزلت الى حضيض الانحطاط لموانع قد اعترضت سيرهم وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأرقفتهم (عند حد) لم يتجاوزوه بل أرجعتهم الى مقام كانوا قد تقدسوا عنه وتركوه

تلك الامة (كان) ما كان لها من الشان وبدأ أمرها بعد التمام في النقصان وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لهـا من الحلي والزينة وأمست للصغار والابتذال رهينة وتقدم سائر الامم في اكتساب المزايا التى كانت لتلك الامة وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ونالوا من الثروة والرفاهية وتحلت السنتهم بالعلوم والمعارف وديارهم بالبدائع وبهي الزخارف وتطاولت ألسنتهم بالفخار على لساننا وباهت رجالهم في السياسات والافكار رجالنا فلما قرع آذان أبناء الامة العربية سهام الملام قام فيهم قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهدا في استرجاع ما فقدوه رغما لتلك الموانع وقسراً لحركات هاتيك القواطع فنشأ فيهم من بذل الهمة في استحصال العلوم واللغات وبرعوا في ذلك وترجموا الى لغتهم العربية

(الكتب) من جميع الفنون كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذلك من الفنون المفيدة فتجلت لغتنا في حليتها وبدت ترفل (في) ثياب زينتها الا أنه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ويقلدها لآلئ مبانيه حتى قام بهذا الامر العظيم جناب الفاضل الاديب واللوذعي الاريب الذي يغنيك رؤية أثره عن عطر ذكره الخواجا حنين نعمة الله خوري فتبرع لابناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع لم يسبق سابق بمثاله ولم ينسج ناسج على منواله وهو ما ألفه الوزير الشهير كيزو فانه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسات ما تحار فيه ألباب أرباب الرياسات حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ومادة الحياة وهو الكتاب المسمى بالتحفة الادبية واني لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الاستاذ الاكرم . والفيلسوف الاعظم الذي تشرف بذكر اسمه مسامع القاصي والداني جناب السيد جمال الدين الافغاني وهاك ما قال

«لا ريب ان كل انسان طالب للسعادة بطبعه وهارب من الشقاء بوسعه فجميع حركاته وسكناته انما هي لاستحصال تلك الغاية وان سعادة الانسان انما تقوم بسعادة ملته وأهالي وطنه فانه عضو من أعضاء الملة ولا شك في أن العضو يشقى بشقاء سائر الاعضاء ويتألم بآلامها الا ان يكون أشل عديم الاحساس فأعظم سعادة تطلب انما هو سعادة الامة والملة التي نشأ الانسان فيها الا أن للوصول الى هذه السعادة المطلوبة طرقا وعرة المسلوك وربما ضل فيها الطالب فوقع في نقيض المقصود وتردى في حفرة الشقاء فكان من الواجب على كل انسان (أن) يأخذ الاهبة ويمتحن جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطلب الجليل ومن المعلوم ان المستبد برأيه كثيرا ما يعرض له الخطأ بل قلما تقع منه الاصابة فأحسن الطرق واولاها بالسلوك هو الطريق الذي قد امتحنته أيدي التجربة وترتبت عليه تلك النتائج في عالم الاعيان وها نحن لا نشك في أنه قد حصل لاهل أوربا تقدم ووصول الى الغاية المطلوبة في هذا العالم وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قياسا صحيح النتيجة حتى أوصلتهم الى هذا المطلوب فلا بد لكل انسان ان

يبحث عن تلك المقدمات التى انتجت سعادة أولئك الامم حتى يستعملها فى ايصال أهالي ملته ووطنه الى مثل ماناله غيرهم حتى يسعد بسعادة ترابه الذي نشأ فيه والوزير كيزو قد جمع في كتابه هذا جميع الشروط والاسباب والوسائل والآلات التى كان لها المدخل في سعادة الاورباويين والعناصر التى تكون منها ذلك المزاج اللطيف بحيث ماأبقى شاردة ألا اقتنصها ولا خفية الا الى العيان أبرزها وأحكم بيانها فعلى عالم الانسانية أن يشكر له هذا الصنع البديع وعلى أبناء العرب خاصة ان يقوموا بشكر مترجمه الفاضل فانه قد بالغ في تهذيب العبارات وتحقيق الاشارات حتى أتى على المرغوب من ايضاح معاني ذلك الكتاب بألفاظ رقيقة عذبة المذاق متسقة المساق تتسابق معانيها الى الاذهان وتبرز دقائقها في عالم العيان فكان حقيقا بأن يجعل قلادة فى عنق كل واحد من أبناء هذه الامة العربية فعلى أبناء أوطاننا وأهالي لغتنا العربية ان يعرفوا له هذا الجميل الجليل ويبذلوا الهمة فى مطالعة هذا الكتاب العظيم الشان ودراسته والاخذ بسيرته والسير على طريقته حتى تستنير عقولهم وتندفع الى المعالي هممهم ويعضدوا بذلك مقصد هذا الفاضل فانه لم يكن له بغية في هذا العمل سوى ترقية هذا الفن في ابناء هذا الوطن فليؤيدوه بالهمة والنشاط في ذلك وليقتدوا به في النهوض الى مثل هذا الصنيع المفيد فان بيت السعادة محتاج الى أركان كثيرة ومما يرشدك الى أنه لم يرم شيئا سوى نفع أبناء الوطن وانه محب صادق لخيراتهم أنه لما رأى أن بعض أهل العلم من الازهر قد نشر بعض مقالات على الطرز الجديد بدت منه علائم السرور والابتهاج وسارع الى مدحهم والثنا عليهم وشكر ذلك اليهم فجزاه الله عنا وعن أهالي أوطاننا خيرا وخلد له أحسن الذكرى»

محمد عبده

﴿يقول جامع الكتاب﴾ سقطت كلمات من هذه المقالة تعرف بالبداهة فوضعناها بين أقواس وسبق مثل ذلك فى غيرها وهذا آخر ما رأينا للاستاذ الامام من المقالات في السنة الاولى من جريدة الاهرام وكان لايزال مجاورا فى الازهر لم يصر مدرسا رسميا وهي تدل على انه أوتي كمال العقل من أول نشأته رحمه الله ونفعنا به

٣

مقالات الوقائع المصرية (الرسمية)

كتب في العدد ٩٤٢ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في (١٤) القعدة سنة ١٢٩٧ — ١٩ اكتوبر سنة ١٨٨٠

حكومتنا والجمعيات الخيرية

ان مما تثلج به الصدور وترتاح له النفوس و يبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا مانراه من اقدام ابناء قطرنا على الاعمال الخيرية وحدهم ونشاطهم في تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها وأخذهم بالوسائل الحقيقية التي تؤدي الى ذلك وان سبقنا اليها سكان الممالك المتمدنة و بلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكمال السطوة وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف اشكالها وتتحد مقاصدها وتتعدد أماكنها وطرق سيرها وتتفق غاياتها وفوائدها فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي اعضاء مختلفة يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة و يزيدنا املا وثقة مانشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات وشد عضدها بما تبديه من المساعدات لها في كل ما يوجب ثباتها وتقدمها وتشييد أركانها وتقوية دعائمها بما تصدره من الاوامر السامية في شأن تقريرها واعترافها بها حتى يظهر للناظر ودقيقه ان الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة لطيف الإشارة يبث الغيرة في القلوب و يجذب الهمم من خطة الخطإ ويدعو افراد الرعايا إلى الهدى والرشد و يعلمهم الواجب عليهم لأنفسهم وهو المحبة الوطنية والألفة الأنسية والتعاون على جلب المنافع العامة التي يشترك فيها كل واحد منهم ودفع بلايا الفقر والفاقة والذلة الناشئة من الشقاق والتباغض المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الانسانية وصدور مثل ذلك من حكومة مصرية وان كان غريباً عجيباً اذا رجعنا الى صفحات التاريخ في الازمان الماضية الا أنه ليس بمكان الغرابة في عصرنا هذا فان الجناب الخديوي المعظم قد عرف من عهد شبوبيته بالميل الى المعارف وشدة الحب لها والسعي فى تربية

الاهالي وتهذيب عقولهم وعلى ذلك وزراؤه الكرام أيد الله شأنهم ومن ذلك لا نعجب اذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لاهل الخير ممهدة لهم طرق الوصول الى خير ما يقصدون بعد ما ذللت لهم المصاعب الكاية (التي أدركهم اليأس من تذليلها في سنين طويلة) بعناية خديويها الجليل وهمة دولتلو رئيس النظار (١) وان من أقوى البراهين على ما نقول إقبال الجناب الخديوي ودولتلو رياض باشا ناظر الداخلية الجليلة على من قدموا اليه من رجال الجمعيتين الخيريتين الجمعية الخيرية الاسلامية بالإسكندرية ،جمعية المقاصد الخيرية بمصر فقد قابلهم الجناب المعظم بصدر رحيب ووجه باش وأجاب التماس كل بأن يصير سعادة ولي العهد رئيساً عاما للجمعية المبعوث من طرفها وعند ما عرض قانون كل من الجمعيتين على دولتلو ناظر الداخلية الجليلة أقره واستحسنه و بعث الى نظارة المعارف باعترافه وقبوله وأصدر الامر بتقرير كل من الجمعيتين وشكر صنيع كل من رجالهما وحث على مساعدتهما في كل ما به تقدمهما غير انه لم يغض الطرف عن ما يلزم لعموم نفعهما وهو مراعاة وحدة التعليم وان تكون موضوعات التعليم فيهما متحدة مع ما في المدارس الميرية ليتأتى قبول تلامذتهما في المدارس العالية ليتمتعوا بتتميم دروسهم فيها ونيل الشهادات الحقيقية على ما اكتسبوه من الفنون وخص جمعية الاسكندرية باعانة نقدية يبلغ مقدارها ٢٥٠ جنيها من جانب الحكومة في كل سنة حيث انها قرنت بين العزم والفعل وشوهد لها أثر في العيان الا أنه حث مندوبها على مراعاة الفقراء والايتام والاكثار منهم بالمدرسة قائلا ان للاغنياء طرقا كثيرة في تعليم أبنائهم أما الفقراء فليس لهم سبيل اليه واننا لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم في الاعانة النقدية ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقيا راسخا في القلوب ثابتا في العقول لا أن يكون ظاهريا على سطوح الخيالات والاوهام فهذا الصنيع الجميل من هذا الوزير الجليل يستدعي انطلاق الالسنة بالثناء عليه وميل الافئدة بكليتها اليه وما كل ذلك الا بعناية الخديوي وحسن مقاصده خلد الله دولته ومكن في الآفاق سطوته وسنرى من آثار هاتين الجمعيتين ما يحمد أثره ويخلد ذكره وهذا محصل

(١) كان رئيس النظار وناظر الداخلية لذلك العهد رياض باشا الشهير

ما كتب من نظارة الداخلية الى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالإسكندريه بتاريخ ١٢ القعدة سنة ٩٧

«ليس بخاف ما نهض اليه الموفقون من أهل البر والاحسان من ذوات ووجوه الثغر السكندري في تأليف وانشاء جمعية خيرية لتعليم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة وقد قارنوا العزم بالفعل اذا أنشأوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى وحبا فيما يعود على الوطن بالخير والآن قدموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم بما قرروه من إنشاء مستشفى للمرضى ومكتبة لمطالعة الكتب واستنساخها ثم دار ضيافة لمن يقدم على الجمعية وان يكون من شؤنها مواساة الارامل وتربية الايتام من أبناء أعضائها بعد موتهم وغيرهم ومساعدة من يصابون في أنفسهم وأموالهم بما يقوم بدوائهم وتكون رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الاكرم وحيث كان هذا المشروع من محاسن الاعمال العائدة بالمزايا على الوطن وأهله الدالة على جمال المقصد وهي مطابقة من كل وجه لافكار الحضرة الخديوية وعند تلاوة مفصلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع ملائما موافقا للطبع فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية وتقريرها على حدتها ومعرفتها بالاسم الذي عنونت به ولزم تحريره لسعادتكم اخطارا بذلك لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به تقدمها وحسن سيرها ومن طيه نسخة القانون للعلم بما اشتملت عليه وحفظها أساسا لذلك بالمعارف

«وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم ونشرها بالصفة التي أوضحت بقانونها وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها فعليكم اعطاء جميع التعليمات والاوامر التي تلزم لذلك»

احترام قوانين الحكومة وأوامرها

من سعادة الامة

وكتب في العدد ٩٥٣ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في ٢٦ القعدة سنة ١٢٩٧ — ٣١ اكتوبر سنة ١٧٨٠

انما تسعد البلاد ويستقيم حالها اذا ارتفع فيها شأن القانون وعلا قدره واحترمه الحاكمون قبل المحكومين واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقي ومفهومه عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ويسري فيها روح السعادة وتهطل عليها سحائب الرحمة فتخصب بها ارض الثروة لكون جميع الاعمال على اختلافها حينئذ متجهة الى غاية واحدة هي النفع العمومي المنقسم على كل فرد من أفراد الرعية على التساوي كل بمقدار عمله وصاحب الحظ الوافر من السعادة هم العمال والمأمورون وأركان الدولة لأنهم مصدر الاعمال الكلية التي عليها يدور نظام البلاد فينالون من الثمرة على مقدار مالهم من الفضل

وليس يكفي في راحة العباد وانتظام المملكة ان توضع القوانين حاوية لكليات الامور وجزئياتها ثم تهمل من النظر وتطرح عن الفكر ويستمر كل ذي عمل في عمله يتبع فيه رأي نفسه ان خطأ وان صوابا فان هذه الحالة يستوي معها وضع القانون وعدم وضعه ولا فائدة في ابراز فصوله وأبوابه من عالم الفكر الى عالم اللفظ والكتابة بل يكون هو والعدم سواء وتتساوى بلاد ارتقى فيها الفكر الشرعي الى أعلا درجة مع بلاد بلغت أقصى غاية من الهمجية والتوحش فان نهاية أمر الجهتين هو الاختلال والشقاء وطالما افتخرت حكومة مصر في الزمن السابق باصدار اللوائح ووضع القوانين وتجديد النظامات وتنقيح الاصول الاساسية وسجلت ذلك في الدفاتر وخلدته في بطون الاوراق حتى كان الناظر في ذلك يظن ان بلادا هذا نظامها وذاك قانونها لفي غاية من السعادة والراحة لكنها كانت تحنو أعناقها خجلا عند ما كان يظهر من أعمالها وأعمال عمالها ما يضاد

القانون الذي وضعته و يؤدي الى شقاء البلاد التى حكمتها ولا تؤاخذ على ذلك وهذه خصلة لا يرضاها العاقل لنفسه أعني أن يعمل على خلاف ما يرسم و يحدد

أما حكومتنا اليوم فلم تسمح بوضع اللوائح تحت المساند ولا فى مستودعات الدفاتر ولا تحت تراب الاهمال والاغفال بل لا تزال همة رجالها متوجهة الى جعل القانون عنوان العمل فلا تصدر حركة من آمر أو مأمور الا على طبق مارسمته فى أوامرها العالية فان بقي من تلك المادة السيئة (أعني اهمال الاوامر) شيء في نفوس البعض من ذوي المناصب و بلغ ذلك مسامع رئيسه الاعلى وجه اليه اللوم والعتاب وانذره انذار من يؤاخذ بالذنب و يعاقب على الجرم وأخذته الغيرة على قانونه الذى سنه خوفا عليه من الضياع وعلى ثمرته من الفقدان فان تكررت منه المخالفة أزله عن منصبه بعد احالة النظر في مخالفته على المجالس القضائية وذلك كله لحسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها باصلاح بلادها و بهمة دولتلو رياض باشا رئيس النظار وغيرته على الحق وتيقظه وسهره على تنفيذ لوائح الحكومة ومنشوراتها علما منه ان أسعد البلاد ما نفذ فيها حكم القانون خصوصا ان كان ذلك القانون عادلا يوافق مصلحة البلاد وانه لا فائدة في اجهاد النفس لوضع اللوائح وتأسيس المنشورات اذا لم يجر عليها العمل ولم تكن نصب أعين العمال في جميع اجراآتهم ينظرون اليها و يسيرون في كل أحوالهم عليها

فرغب هذا الرئيس الجليل رغبة حقيقية في تأييد حرية العمل في هذه البلاد ورفع سوط القسوة الغير القانونية وابطال عمله بالكلية اذ لم يجعل لاحد من المأمورين سلطة على أحد من الاهالي الا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة كما هو شأن العدالة وحقيقة النظام وأعلن ذلك بالصراحة فى منشورات الداخلية الجليلة مرارا ليعلمه الحاكمون والمحكومون معاً فيعرف الاهالي حقوقهم ممتازة ظاهرة فلا يسمحون بخدشها و يعتبر بذلك المديرون وصغار المأمورين فلا يسخرون أحداً فى عمل من الاعمال بغير حق والا فلا يأمنون عاقبة ذلك وسوء مغبته. نعم لهم الحق فى أن يسوقوا المتقاعدين عن الاعمال التى تطلبها مصلحة البلاد بسوط العدل الذي لا يرفع عن المهملين وهذه صورة منشور جليل صدر من نظارة الداخلية فى هذا الشأن منبئاً بغيرة

دولتلو ناظرها الافخم وشدة محافظته على رعاية القانون

* * *

« قد علمنا مما كتب لنظارة الداخلية من مديرية الشرقية بالتلغراف أنه أخذ جملة أنفار من أهالي مديريته وتوجه بهم الى جهة شالوفة لاصلاح ماحدث من الخلل وترميم ماوقع من التهدم بجسر سكة الحديد في المسافة الواقعة بين هذه الجهة والسويس ولما سئل عن إقدامه على هذا الاجراء بأمر من هو أجاب بأنه أقدم على ذلك بناء على تلغراف ورد اليه من عموم ادارة السكة الحديد ولما رآه من المصلحة العامة في ذلك مع تعهد ادارة السكة الحديد بدفع أجر الانفار ولا يخفى ان هذا الاجراء لا ينطبق على القواعد الاساسية المتبعة ولا يوافق نصوص الاوامر السامية المصرحة بأنه لايجوز تكليف الاهالي بعمل من الاعمال الااذا كان عائدا عليهم بالمنفعة العمومية كري مزروعاتهم وحفظ أراضيهم و بلادهم من غوائل الغرق فقط. نعم ان منفعة السكة الحديد تعد منفعة عامة لكن لها دائرة خصوصية ترجع اليها ايراداتها ومصاريفها فعليها أن تتدارك جميع أعمالها من طرفها باستعمال مأمور بها أنفسهم فيما يلزم لها وليس لها أمر ولا نهي على المديرين من أعمال الادارة ولا غيرهم فيما يماثل هذا الامر ولو صدر عنها ذلك فلا يصح لمدير أو من دونه أن يجيبها أوغيرها الى ماتطلب بعد ماعلم هذا الاساس المتين خصوصا ان أوامر الحكومة الصادرة الى المديرين ناطقة بأوضح عبارة بأن كل مأمور مكلف بامتثال أوامر النظارة التابع هو لها فالمديرون ليسوا بتبعة لمصلحة السكة الحديد ولا غيرها من المصالح ولكنهم تابعون لنظارة الداخلية ولا يسوغ لهم إجراء عمل ما يشبه ذلك الا بأمر يصدر لهم منها فعلى المديرين والاهالي عموما ان يتنبهوا لمثل هذه القوانين الثابتة و يراعوها حق المراعاة و يعلموا انه لاسلطة للمدير أو غيره على أحد من أهالي البلاد في عمل من الاعمال الا فيما يعود اليهم بالمنافع العامة فقط وهو ما يتقرر بالجداول في كل سنة من أعمال التطهير وتقوية الجسور وحفظ البلاد عند فيضان النيل وكل من يبدو منه أدنى مخالفة لهذه الاوامر بأن يكلف الاهالي بأداء أعمال لاتجب عليهم ولا هي في منفعتهم العامة المقررة

في جداول العمليات فقد أوقع نفسه تحت خطر المحاكمة ونفوذ أحكام العدالة فيه ومجازاته بما يقضي به القانون وبهذا لزم الاخطار لعموم الجهات ومن الجملة لسعادتكم تحذيرا من الوقوع فى المخالفة .

حب الفقر او سفه الفلاح

وكتب في العدد ٩٦٩ الصادر في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٧ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ تحت هذا العنوان ما يأتي

كان أهالي بلادنا محملين من الاثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب على الأراضي متنوعة متكاثرة تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والاعوام وجرائم تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام لا تنتهي الى غاية ولا تقف عند حد حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ولا قاعدة معروفة بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم وارادته الغير المرتبة فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بانواعها في أول شهر منها وتارة يطالبون باموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ولا محيص لهم عن الاداء فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك والحبس المؤبد أو انتزع منه جميع ما بيده قهرا وماشا كل ذلك من المعاملات الخشنة

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الالتجاء الى التجار وأرباب البنوكة الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم في ذلك الوقت وأشد أنصاره فاذا رأوا حاجة الاهالي اليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم ان الكرباج وراءهم فلا قدرة لهم على الصبر ولا سبيل الى التخلص من ألم العذاب ولو موقتا الا بالرضاء بكل مايرسمون عليهم من الفائدة فكان التاجر لا يؤدي نقوده سلما ولوقبل الحصاد بعشرين يوماً الا بستين فيما يساوي مائة وقت الحصاد فتكون الفائدة أربعين أو أزيد في الشهر الواحد وصاحب البنك لا يعطي الا بفائدة في المائة عشرة بل أزيد في كل شهر ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر وجميع هؤلاء حاضرون

أحياء نعلمهم وهم يشهدون فكانت تلك الايام ويلا ووبالا على الحكومة والاهالي جميعا وكانت سعدا وربيعا للتجار وأرباب البنوكة الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الاغنام فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ عنها بالكلية فاحاط بهم الفقر وصاروا في أسوأ حال

والحمدلله أصبحوا في هذه الايام وقد خففت عنهم الاثقال وألغي كثير من الضرائب الغير القانونية ووقفت المطلوبات عند حد معروف وضربت لتأديتها مواقيت محددة على حسب فصول السنة ومايكون فيها من حاصلات الزراعة فتوفرت على الاهالي ثمرات أعمالهم وصار والآن لاحاجة لهم الى بيع شيء بأقل من قيمته ولا بفلس واحد فان اوقات الاداء هي أوقات اجتناء ثمرات الزراعة ومع ذلك فالمطلوب مقسط باقساط خفيفة سهلة الاداء لاتلجيء صاحبها الى ارتكاب شيء مما كان يرتكب أولا فنمت الثروة نموا لم يكن يخطر بالبال وأيقنا ان الاهالي سيثبتون علي أملاكهم ويعتبرون بسوابق أحوالهم فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى حتى يستردوا ماسلب من أيديهم قهرا ولو باعلى قيمة وأغلى ثمن وتأخذهم الغيرة علي أملاكهم وأملاك اخوانهم التي أصبحت في أيدي غيرهم يتمتع بخيراتها و يتلذذ بشهي ثمراتها فيطلبون رجوعها اليهم بدفع أضعاف قيمتها الاصلية كما هو شأن الاحرار ذوي الشرف والهمة وذلك لايكون الا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة أو دونها حرصاً على نيل الشرف الحقيقي وهو تخليص أملاكهم أو حفظها من تطرق يد الغير اليها

الا اننا نأسف كل الاسف اذلم نظفر بهذه الامنية فان الحكومة لمارفعت عن كواهلهم أثقال المظالم وخففت عنهم أحمال المغارم فتحوا على أنفسهم بابا من الفقر آخر يلجونه باختيارهم وارادتهم بدون قاسر ولاقاهر وهو باب السرف والتبذير والاكثار من لوازم الرفاهية والزينة وما يكسب الظهور الكاذب بلاطائل فرأيناهم يتفاخرون في اعداد الولائم واتقان أشكال الزينة ويتنافسون في تشييد الابنية و يتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ لايقفون فيها عند حد ولا ينتهون

الى غاية (كما كانت الضرائب في الزمن السابق) وليتهم مع ذلك ينقدون في اجتلاب هذه الاشياء قيمتها الحقيقية ولكنهم من الجهل يشترون ما يساوي عشرة بعشرين إن لم نقل بمائة فان ضاق ايراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع أسرع الى البنوكة يرهن فيه أرضه وعقاره بفائدة ليست بقليلة يلزم نفسه بأدائها أعواماً كثيرة و يظنها سهلة الاداء مع انها تحت شروط شديدة عليه لطيفة على صاحب البنك غير متدبر عاقبة الامر ولا متبصر فى نتائج هذه الغفلة

بلغني ان بعض الاعيان فى بلاد نارهن أرضه الزراعية الخصبة على خمسة وعشرين ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور . أليس هو الاحق بهذه الفائدة التي هي ثلاثة أضعاف ماأخذ وهي ثمرة كسبه ونتيجة تعبه وماعليه اذا اقتصر في مصرفه ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ بل أكثر منه ولعمر الحق انه لو أنفق على قدر ايراده أو نصفه لقلما أنه من المسرفين ولكن أبى حاكم الشهوات الا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطي الافكار بما لا يطيقون كأنهم يبرهنون باعمالهم هذه وتهورهم في الاسراف والانفاق على أنهم ليسوا أهلا للثروة ولا مستحقين للغنى ولا يتحملون ثقل الخير على أنفسهم بل يحبون ان يكونوا على الدوام فقراء مترين لا يملكون شيأ وان كانوا في صورة أغنياء مثرين و يرغبون ان يكونوا تحت ذل الدين وأثقاله اذ رسموا على ذواتهم ان تكون في قبضة أرباب الدين يتصرفون فيها وقت مايشاؤن ولا يعلمون ان نكبات الدهر كثيرة الورود شديدة البطش فربما اجتاحت (زرعه) جائحة سماوية (كالمعروف عندنا بالندوة أو الهيفة) أو أصيب بموت ماشيته أو نزلت به حادثة غرق أو شرق أو ماشا كل ذلك من المصائب التي لا مندوحة عنها فيعجز عن الاداء فتباع أملاكه و يصبح من الخاسرين ولا يبقى له سوى الحسرة في قلبه على مافرط في شأن نفسه وكان من الواجب على هؤلاء المساكين (الاغنياء والمتوسطين) ان ينتهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيها ماينفعهم زمن الشدة ويوفروا على أنفسهم شيأ من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكربة والا فقد دلت التجارب على ان عاقبة الاسراف حسرة تملأ القلب وحيرة تدهش اللب وسنعود الى هذا الموضوع مرارا انشاء الله

وكتب في العدد ٨٨٩ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٨ (١٨) ديسمبر سنة ١٨٨٠

(عدنا والعود احمد الى موضوع حب الفقر او سفه الفلاح)

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الانسانية الجليلة بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وامساك أعني ان الاقتصاد هو التوسط فى الانفاق بحيث لا يبسط صاحب المال يده كل البسط حتى لا يبقي فيها شيئا ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا بل ينفق من ماله على حسب حاله يقدم الأهم فالمهم فيدفع الضرورة ويقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناه وفقره مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض الغير المنتظرة التي قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بغتة من حيث لا يشعر فاذا جمع الشخص بين الامساك عما لا يلزمه والبذل فيما هو أحوج اليه فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم (الاقتصاد نصف المعيشة) والمعنى ان المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته فمن كسب مالا فقد حاز أحد الامرين فان لم يحز الآخر وهو حسن التدبير فقد فقد نصف معيشته أي فقد انهدم أحد ركني المعيشة فان حاز الامر الثاني هو الاقتصاد فقد تمت له المعيشة وتوضيح الحقيقة في هذا الباب ان من أجهد نفسه فى الاكتساب وتحصيل الاموال ولم ينفق منها شيئا على نفسه فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته أو أنفق منها قليلا جدا بحيث لا يفي بلوازمه ولا يقضي واجباته فهو وان كثر ماله وغزرت مادة ثروته لكنه فى الحقيقة ناقص المعيشة فقير جدا وهذا الكاسب ليس الا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ فهو خفير فقير بيده مفاتيح الخزائن ولكن كأنها مملوكة لغيره لا ينال منها شيئا ولم ينل الا التعب والشقاء لا غير وكذلك ان تجاوز في النفقة حد الواجب بأن حدد لنفسه من الامور ما ليس بلازم وصرف جميع ما اكتسب أولا فأولا فانه يكون في غاية من الفقر وان كثر الايراد جدا لانه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئا فهو

بمنزلة من يصب مافى حوض فتح في قاعه بالوعة كبيرة لا تبقي شيئا مما يصب في الحوض فالماء دائم السيلان لكن الحوض فارغ فهو في الحقيقة فنبرجنا ان ألمت به مصيبة أصبح متربا فى غاية الاحتياج والاضطرار يرشد الى هذا كله قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) وهذه القاعدة الجليلة مع ظهور فائدتها فى انتظام أحوال الانسان بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل وترغيب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها على ما نطقت به الآيات والاحاديث نرى كثيرا من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف بعضهم يميل الى جانب الامساك بالمرة والبعض الآخر يميل الى جانب الاسراف بالكلية أما الاولون فانهم يصرفون جميع أوقاتهم في الكد والتعب والاخذ بأنواع الحيل لتحصيل الدينار والدرهم ثم يودعون جميع ما يحصلون بطن الارض وترتعد يد الواحد منهم عند ما يقرب من الصرة أو الوعاء المحتوي على النقود فان وجب فى ذمته لله أو للناس حق صعب عليه أداؤه فيكتسب الوزر والجرم وينال من الناس الاهانة والتعزير في طلب حقوقهم وتحيط به الضرورات بأنواعها ولا يدفع شيئا منها بشيء من ماله بل أن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته ولكنه لا يرضى بذلك ويحب أن يدوم كما أودعه لا يزيد الا بما يضمه اليه من خارج ويقتر على نفسه فى كافة لوازمه فلا يحافظ على صحة بدنه ولا يبذل شيئا في تربية أبنائه وتهذيبهم وان كان على علم بأن ذلك واجب خشية من نقص عدد النقود وان كان ذا عائلة اضربها من عدم الانفاق وأهمل واجباتها وتركهم يئنون تحت آلام الاحتياج فمثل هذا السفيه اتعس حالا من الفقير فان الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والاعدام ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار والتلذذ الوهمي بأن له نقودا فى بيته فاذا مات تركها لا يعلم بها أحد لانه اكتنزها في أخفى الأمكنة وأشدها بعدا عن الاعين فيصبح أبناؤه ومن كان في نفقته فقراء معوزين لا يملكون شيئا فهذا الصنف من الناس خلق لان يتحرك في الهواء حركات الذرات الغير الشاعرة لا يدرى لأي شيء يغدو ويروح وهو عاشق للافتقار والاضطرار ويلتقي في نهاية سيره مع اخوانه في الرذيلة المسرفين

وأما قسم المسرفين من أهالي بلادنا فأولئك شأنهم غريب اذا خفت عنهم المغارم واقالتهم الحكومة من المظالم وتوفر لدى البعض منهم شيء من النقود وارتفعت اسعار المحصولات أو جاد موسمها ورأى بعضا من النقود يرن في يديه قصد الى سوق البضائع الافرنجية (التى يعد اقتناءها تمدنا) يشتري أخسها وأدناها بأعلى القيمة وأرفعها حلية لزوجته وزينة لابنته وابنه وبهرجة لنفسه يظهر بها يظنها رونقا يكسبه حلية واعتبارا حتى يعود وقد صرف جميع ماتوفر لديه وربما كان مع ذلك بيته مهدما يحتاج الى البناء ومضجعه خاليا من الفراش لا يستر سوى الحصير البسيط وزوجته التي يحليها هي المنغمسة في الاقذار المكلفة بأداء جميع الاعمال الخسيسة وليس عندها من الاوقات ماتتجمل فيه بتلك الزينة اللهم الا يوم المأتم والفرح وأبناؤه الذين حاباهم بتلك الزخرفة فاقدي التربية متروكين في زوايا الاهمال يسره ان يراهم يلعبون ويتواثبون في مساحة بيته المفترشة بطبقات من الاتربة ثم اذا زاد ايراده مرة أخرى رأيته يتفنن في الولائم واقامة الافراح لابنائه وأقاربه تحت مصاريف متى فتحها على نفسه أخرجته عن طاقته وأنفق فيها المئين والالوف بجلب الاشياء التالفة التى لا قيمة لها سوى العدم ويسره في كل ذلك انه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئا من الفضائل

وكان الاليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب معينا له فى أعماله يخفف عنه بعضها فان ماينفق على المساعدين يأتي بالربح ويفرغ صاحب الكسب لاعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها أو يأتي لاهل بيته بمعين على أعمالهم حتى ينالوا شيئا من الراحه أو يؤدب أولادهم ويهذبهم على شرط ان يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب بل لا بد أن يبقى منه ذخيرة ينفقها عند حدوث الحوادث وينظر للعواقب نظر الحكيم ويكفيه من الافراح ان ابنه ختن أو تزوج في حياته بدون احتياج الى ماهو أزيد من ذلك فقد رأينا كثيرا من هؤلاء المساكين تأتيهم أراضيهم بالمحصولات الجيدة والارزاق الوافرة ثم ينفقونها عند ورودها في امثال هذه الزخارف الباطلة حتى اذا مضت مدة السكرة التى أتى بها الايراد وطرقته نائبة من موت مواشيه أوفساد زرعه بجائحة سماوية أو خسران تجارته أو كساد صناعته

أو حدوث أمراض أوقفته عن الاعمال وكيسه فارغ وبيته خال (الامن الزخارف التي لا أساس لها) عمد الى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته ورهن أملاكه أو بيعها حتى يصبح فقيرا معدما وقلما مكنه الزمان من الرجوع الى مثل حالته الاولى أو مايوازيها فيأخذ في الانزواء قهرا عنه ويخلع ثياب الفحفخة والزينة ويلبس رداء الخمول والفقر وترميه العقلاء بل وامثاله من السفهاء الذين ذاقوا مثل ما ذاق أو ينتظرون عاقبة كعاقبته بالسفه وضعف الرأي وقلة العقل ويمسي ذليلا محتاجا بعد ان كان يظن نفسه غنيا عزيزا فما أصعبها على النفس من حالة وياليت النقمة كانت خاصة بشخصه ولكنها تأتي على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله وهذه الحالة نراها في الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها وهذا كما يضر بهم وبحواشيهم يضر أيضا بثروة البلاد نفسها اذ تحصر الثروة في دوائر مخصوصة عند اشخاص قليلين لوازمهم ليست بالكثيرة فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين في الصنائع والبضائع أي لقلة القادرين على اقتنائها وتقل الرغبة في الاعمال الزراعية اذ يكون الجميع كاجراء لا يهتمون اهتمام الملاك وان أغنى البلاد وأسعدها هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهاليها ويزداد الضرر اذا وقعت الاملاك والمبيعات في أيدى الغرباء والاجانب الذين لا يسرنا ان نراهم واضعي أيديهم من غالب الاملاك العظيمة والاراضي الواسعة التي كانت في أيدي أبناء البلاد بل هذا أمر يحزن كل ذي عقل وادراك ولا يغفل عنه الا غبي دني محب للفقر والفاقة واننا لنخجل من حكاية هذه الاحوال عن أهالي بلادنا خوفا من وقوع بصر الاجنبي عليها فيعرفون منا ما لا نحب أن يعرف لكننا نظن انهم على خبرة من أمورنا بحيث لا يفيدنا السكوت ولكننا ندعو النبهاء بل والعلماء أن يجتهدوا في بث هذه الافكار بين عموم الناس لعلها تنجح فيهم ولا أراها الا ناجحة ونرغب الى بعض ذوي الكلمة في بلاد الفلاحين لا في المدن ان يلاحظوا ذلك وينصحوا المتوغلين في الاسراف على غير قاعدة راشدة بأن يكفوا عنه وأن يعتدلوا في أحوالهم خيرا لهم من ضياع أموالهم

ثم كتب في العدد ١٠٢٤ الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٩٨ — ٢٩ يناير سنة ١٨٨١

﴿ حب الفقر او سفه الفلاح ﴾

(نعود اليه من وجه آخر غير الذي بدأنا به)

خلق الانسان ولوعاً بالمنفعة حريصاً على احراز الفوائد نفورا من غائلات الاضطرار يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل و بعيدها و يجهد النفس في توفير ثمرات الكسب توقيا من عوارض الاحتياج وطوارئ الافتقار وهذه فطرة ألهمه الله اياها لتكون له مخاصاً من تعاسة المعيشة التي تنشأ عن الاضطراب في حفظ الحياة فهو يتعب الجسم و يشغل الفكر و يواصل العمل وان كان في ذلك نوع من الآلام والشقاء ليمتاض من تعبه هذا راحة كان يعسر نيلها لولا هذه الاتعاب وهي الاطمئنان على النفس والوثوق بصونها من التهلكة فترى العامل يشتغل بأشق الاعمال بياض نهاره و يتألم و يتضجر من صعوبة العمل كأنما قهره عليه قاهر وفي الحقيقة لا قاهر له سوى علمه بأنه لولم يشتغل لفقد أجر الاشتغال وهو مادة قوته وقوام معيشته في مسكنه وملبسه وكافة ما بقي حياته من الزوال فيستسهل هذه الاعمال البدنية في جنب ما تأتي به من الفائدة الكلية وهي حفظ الوجود ورفع ألم الاضطرار الطبيعي وهو الجوع والعرى وتسلط القوى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه ومصداق ذلك ما نراه من السنن المقررة في أهالي المعمورة عموماً على اختلاف أصنافهم ومواقع أوطانهم يشقى كل واحد شقاء جزئيا وقتيا لينال سعادة كلية ثابتة على زعمه و يترك فوائد جزئية لا ثبات لها كلذة الراحة والبطالة لتحصيل فوائد أعلى وأثبت ولو سألنا حال الصبيان في سن الرضاع لنطق بحقيقة ما قلنا فهل يرتاب في ذلك أحد

لكننا من العجب نرى هذا الالهام الالهي (إلهام الدأب في السعي وارتكاب بعض المشقات لنيل الراحة الثابتة) قد غشيه في بلادنا سحب من الجهل فاستتر عن النفوس فماد الناس لا ينظرون الا للغايات الوقتية بل الآتية التي ربما لا يكون لها امتداد أزيد من آن حصولها وذلك بعد ان نذكره عامًّا في غالب طبقات الناس كما

يشهد به العيان من ميل جميع الطبقات الى البطالة والكسل عن تعاطي الاعمال التي يناط بها كل واحد منهم استلذاذاً للراحة الوقتية وركونهم الى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان لا يحكم لواحد منهم قانوناً ولا يستقي شريعة طلباً لمنفعة آتية ربما أعقبها نكد عند مع الحياة نذكره كذلك خصاً في طبقة الزارعين من اخواننا الفلاحين فان لهم في ذلك شؤوناً غريبة وأطواراً عجيبة أقتصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن الجادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم

يعلم كل زارع علم اليقين ان الزرع لا ينبت والنبات لا يثمر والثمر لا يجود الا اذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني ويوقن ان بلادنا ليست أقطاراً يكثر فيها نزول الامطار فنعم المزارع بدون عمل منا فننال حظنا منها ونحن رقود وليس لنا من الامر شيء سوى انتظار ماء السماء فان يبس الجو مات النبت ونزل القحط والعياذ بالله

بل يعلم حقاً ان الله قد منح أراضينا ماء النيل روحاً لنبتها وحيوانها وهو ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطرار حاملاً من المواد المغذية للنبات ماشاء الله ان يحمل غير أنه يحتاج الى أعمال اليد في توزيعه على المزارع وحفظها من الزيادة المفسدة لها فتحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها واقامة الجسور والقناطر وما شاكل ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضاً ويتحقق كل فلاح ان هذه الاعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة أو قيعان الترع غير عميقة الى الحد الكافي لجلب المياه بسرعة أو سدت مسالك المياه من أي وجه من الوجوه الطبيعية لفسد الزرع اما بالغرق العام أو اليبس الكلي المعبر عنه (بالشرق) فتتعطل مادة الرزق ويسوء حال الزارعين على العموم

جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم ثم نراهم مع ذلك يفرون من الاعمال العمومية التي دعت اليها ضرورة حياتهم على ما قدمنا فرار الفريسة من المفترس وما هذا الفرار الا ملاحظة للاتعاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم قليلاً وترك بعض أعمال خصوصية في البيت أو أرض الزراعة وصعوبة العمل نوعاً على

ان هذه الاتعاب لاتعد شيأ بالنسبة الى ماينشأ عنها من الفوائد وعن تركها من المضرات الكلية المؤدية الى فقد الحياة وعموم القحط فلو ان لهم بصيرة واعية لقسموها على أنفسهم بالتراضي كبيرهم يستوي مع صغيرهم في كيفية أدائها بطيب القلب وصفاء الخاطر استجلابا لمادة رزقه بدون ان يحتاجوا في ذلك الى سائق يسوقهم أو قائد يقودهم خصوصاً في هذه الاوقات التي توفرت فيها الافراد توفرا تاما بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية التي كانت عامة البلوى في أنحاء القطر فكان عدد البلد الواحد الذي لايزيد عدد القادرين على العمل فيه عن مائة يؤخذ منه عشرون للعمل في الجفتلك الفلاني المتعلق بالست الفلانية وعشرون آخرون للاوسية الفلانية التابعة للباشا الفلاني وعشرة لابعادية أخرى وهكذا فربما أتى يوم من الايام لاتجد في البلاد الا الشياب والعجائز والصبيان أما الآن وقد علموا ان معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب والباقون يشتغلون بالاعمال الزراعية في الاراضي فلا يليق بهم التقاعد عنها بل من الواجب على كل واحد المسارعة والمبادرة اليها بكل مافي قوته وامكانه تعاضدا وتعاونا واتفاقا تاماً على جلب هذا الخير العظيم لانفسهم عموماً وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعته التي لاطريق له سواها ثم يتقاعد عنها ويحتاج الى من يجذبه اليها بالقوة القاهرة

فان تعللوا بأنهم لايفرون من العمل نفسه ولكنهم ينفرون من الاعمال التي كانت تصدر من الحكام وتابعيهم من الضرب المؤلم والارهاق المزعج وأعمال سوط السطوة فيمن يذهب الى مواقع الاعمال العمومية وتكليف العامل بما لا يطاق من العمل والظلم البين وتوزيع مقاديره على حسب ميل المأمورين والمهندسين اذ ذاك الى بعض الجهات لغرض ما وانحرافهم عنها فيخففون عن بعض البلاد ما يثقلون به كاهل البعض الآخر حتى ينال من هذه أيضاً مثل ما نال من تلك فيقع التوازن والتعادل بين البلاد لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب اذ يخف العمل عن الجميع بواسطة ما دفعوا من النقود فيقيمون الزمن المحدد ثم ينصرفون الى بلادهم بدون طائل فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الاعمال العمومية

كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها فأقول لهم في الجواب عن ذلك (أولا) ان تلك الايام قد مضت وانقضت وهي الايام التي كان قدر الفلاح فيها مجهولا وكان يستعمل في الاعمال كما تستعمل الدواب والماشية لا يعلم لأي شيء يشتغل ولا لأي شخص يعمل هل لنفسه أو لغيره حتى صار بعد جميع الاعمال لغيره لا لنفسه أما الآن فقد عرفت الحكومة قدر رعاياها وتقدمت اليهم بجميع الوسائل النافعة لهم وسارت أوامرها الشديدة في انحاء البلاد سيرا حثيثا ناطقة بأن لا سلطة لأحد من الحكام على أحد من الناس الا فيما ينفعهم ويعود عليهم بثمرات الثروة والوقاية من موجبات الضرر وقد شاهدنا رأي العين ان كل من ينحرف في سيره رمقته عين الحكومة التي لا تغفل حتى تتحقق سوء فعله فتأخذه بجرمه وتضعه تحت المحاكمة كائنا من كان وقد نشرت الجرائد كثيرا من مثل هذا. أفيليق بالزارعين بعد ما رأوا صدق عزيمة الحكومة في تعميم المنافع بينهم وأنها تجد كل الجد في تيسيرها بأي الوسائل ان يتقاعدوا عن ما علموه منفعة لانفسهم استحضارا للصور الماضية وان كانت هائلة تنزعج منها النفوس (وثانيا) ان الذي دعا أرباب السلطة في الزمن السابق الى التطاول عليهم انما هو تباطؤهم عن منافعهم بتفرق الكلمة في طلب المنفعة العائدة على الجميع فلو أنهم صدقوا جميعا في تتميم ما يجب عليهم من الاعمال وكل واحد يشتغل وهو يعلم ان هذا العمل عائد اليه بالنفع كعمله في مزرعته بلا تفاوت فهل كان يمكن لاحد ان يثقل عليه أو يخفف عنه ؟ كلا انهم كانوا جميعا يقدرون على ردع الظالم وتبديده لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره الى من فوقه واظهار حاله الرديئة فلا يستقر قدمه بينهم ولكن ظنهم ان العمل أجنبي للحكومة لا لهم هو الذي بث في نفوسهم حب التخلص منه بأي الوسائل فيتداخل كل منهم في صرفه عن نفسه بكل ما يمكنه فيقع الظلم على البعض بل الاغلب من جهة ويختل نظام الاعمال من جهة أخرى لوقوع التهاون من البعض الذي أرضى الحاكم السافل وهذا جهل بيّن فان الحكومة لا شأن لها في هذه الاعمال الا ايصال الخير الى رعاياها فهم الغاية المقصودة بثمرة العمل فليس من العقل بعد ما تحققوا هذا المقصد في عهد حكومتنا الحاضرة وان سلطة الباشوات (والستات)

والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق الا سلطة الحق والمساواة ان يتقاعد مكافف بعمل ما عن عمله اللهم الا أن يكون سفيها يستحق الحجر عليه

على اننا ننظر في أحوال الفلاحين أمرا اغرب من هـذا الذي قدمنا وهو الاعراض عن الاعمال الخصوصية المتعلقة ببلد واحد كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه أو المحافظة على النقطة المقابلة له فيعلم أهل البلد علم اليقين ان ترعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهـم المياه وتعطلت زراعتهم اما بتلفها كلية أو بالنقص في ثمراتها وان المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلا أمر لا بد منه والا اندفعت المياه على أراضيهم فافسدتها ثم ان عملية التطهير ربما لا تحتاج الى أكثر من أربعة أيام أو خمسة ومع ذلك ترى كثيرا من البلدان يهملون المساقي الخصوصية التي لا طريق لري المزروعات سواها فاذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الاراضي عن يمينهم وعن شمالهم وهم يتلهفون على نقطة من الماء فلا يجدونها وكلما دعاهم داع في أيام التطهير الى العمل يحتج كل واحد منهم بحجة ان له شغلا خصوصيا في بيته أو غيطه يمنعه من ذلك حتى تمضي الايام ويأتي وقت الندم حين لا ينفع فان لم يكن في البلد عمدة يهمه أمر زراعته لانها أكثر من زراعة الباقين فيلجئهم الى العمل قهرا لتعمهم الفائدة — وان لم يبعثه الا المنفعة الخصوصية لكنها أوصلت الى العمومية — فهذا حالهم فانظر الى هذه الحالة الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب وانقطاع التواصل بين النفوس فلا يهتم واحد بعمل يشترك في منفعته مع آخر وان كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه كأن اشتراك الغير في المنفعة صيرها مضرة ينبغي اجتنابها وكان من الواجب ان الاشتراك يدعو الى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط فكأنهم سلبوا الخواص الطبيعية التي لانسان الجبال والغابات وقـد علمت الحكومة ذلك فأرسلت الى المديريات بالتأكيدات الشديدة لتتميم العمليات الخصوصية ومع ذلك لم نزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئا في لوازمها الخصوصية فكأن المأمورين يعاملون الفلاحين بما في نيتهم لكن ليس هذا غرض الحكومة فالواجب على كل مأمور في جهة أن يهتم بتنجيز أعمالها الخصوصية فقد أزف وقت العمليات العمومية ولا يمكن فيـه قضاء عمل خصوصي والا فكل مأمور سيسئل عن جهات مأموريته وان عاقبة

السؤال غير مجهولة نسأل الله أن يصلح أحوالهم ويمتعهم بنور البصيرة فيرشدون الى حسن المآل ويوفقون لخير الاعمال .

وكتب في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ المحرم سنة ١٢٩٧ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

كثر تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات وكأنهم لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية وما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال وتقلب الاشكال اذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العقلاء أخذوا يلتفتون الى ما به حياتهم الحقيقية ونمو هيئتهم الاجتماعية وظهور شأنهم بين الناس وحسبانهم في عداد أهل العالم وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره موجهين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانها ذات الشأن فيه فقالوا كلاما كثيرا اذكره كما قيل

قالوا ان المدارس ينبوع هذا الخير الجليل (العلم) وليس له من وسيلة سواها ولكن تحت شروط لابد من استيفائها (ولسنا الآن بصدد بيانها) وقد افتتحت المدارس في ديارنا من عهد المرحوم محمد علي باشا لكن كان اسمها غريبا على الآذان وحشيا عن القلوب يساق الناس اليها كأنما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون ان الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم والبلاء المحتم و بعض الناس بعد التنبه كانوا لا يرون خطة أرفع من خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكام والتصرف في الحقوق فاكتفوا بارسال ابنائهم الى الكتبة يعلمونهم حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة الى مدرسة ولا مكتب منتظم و بعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من

تربية أبنائه فيها ولكنا لا نبديها وأما في أيامنا هذه فقد تنبهت العقول ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف غير أن ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعداً على الطريقة المنتظمة أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الجهالة السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش إما بالتوظف في الخدمات المبرية أو طلب الكسب من وجوه أخر ولهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع الى التعليم في مكاتب الاطفال وتعطيل اسباب معاشهم فيود الكثير منهم ان تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض ما فاتهم في الازمنة السابقة أزمنة جهل آبائهم لعلهم بذلك ينفعون أنفسهم و بلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليليه ثم عارضتهم بعض الموانع فلم تساعدهم المقادير النجاح وكانوا في انتظار توفيق الهي يسوق اليهم ذلك الخبر حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيقت الينا نؤدي له مزيد الشكر عليها ثم انقبضت نفوسهم عند ما سمعوا من شروط تلك المدرسة ان تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة ولا يقبل فيها الا من كانت عنده مبادئ الرياضيات والطبيعيات وله تقدم في اللغة الفرنساوية وقالوا ياسبحان الله ان المدارس الليلية في البلاد المتمدنة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل في التعبير والتحاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم وذلك لفائدتين (الاولى) ان كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادئ العلوم بهذه الطريقة فلا تفتر همة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم و ينتشر العلم حقيقة اذ لا يكون في فهمه صعوبة ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) انه اذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقربها الى الفهم كأحدوثات تتسلى بها النفس بل الذهن ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا و يخرج بنور جديد فتنجذب نفوس الناس الى مستملحات العلم فبدل صرف أوقات ليلهم الطويل في مضاجعهم يتقلبون من جانب الى جانب أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل تحتها أو في أماكن أخرى نتحاشى عن ذكرها يهرعون الى معهد العلم ليغذوا

عقولهم و يروحوا قلوبهم ولم نسمع ان أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها ليلية فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا واخترعت طريقة جديدة وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه المتفنن منهم ولا العامي والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية حتى يحرم الناس الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون و يتلهفون على ذلك ولا يجدون وهو مما يوجب الاسف خصوصا وقد تواتر على الألسنة ان غالب من قبلوا فيها أجانب (وان كان ذلك غير صحيح فعندي علم اليقين بأن الاكثر وطنيون لكن من الذين تعلموا في مدارس الفرير ونحوها) فهل يقال باننا تقدمنا عن تلك الممالك فترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم أو أيقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئا أولا حظت نظارة المعارف انها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها فان كان هذا الوجه الاخير قلنا انها ستجعل مدرسة الخوجات نهارا فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ماتشاء لهذا الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول الى بعض هذا المقصد فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس فوق البدايات وان كان الثاني قلنا ان الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ولهم رغبة تامة في التعليم فكيف يصح اساءة الظن بجميع شباننا الى هذا الحد وان كان الاول قلنا الاولى ان لا نتكلم واننا وحق الحق لفي حاجة كلية الى ان يكون التعليم الليلي عندنا مستديما آخذا من البداية سهل الوسائل ميسر الاسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل و يبطل برهان الكاسل وتنبعث الغيرة في الكل اذا أقبل البعض على التعليم و يقع التنافس في الفضائل و يجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا وتوبخهم الذمة وتلمنهم ضمائرهم اذا تركوه اذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها اذ ذاك نرى انه لا بد أن يكون هذا التعليم الليلي اجباريا عاما لكل مستخدم وقارىء لم يتعلم تمام ما يجب عليه في وظائفه الا

الضرورة تمنعه من مرض ونحوه خصوصا بعد ما أعلنت الحكومة ان جميع المستخدمين في الادارات أو التحصيلات لا بد ان يكونوا من الدراية بحيث يقدرون على تحقيق القضايا وحل المشكلات بأنفسهم في مواد الجنايات والحقوق والحسابات ونحو ذلك وهذا لا ريب يستدعي أن يكون جميعهم على بصيرة تامة وذوي عقل وافر وهذا لا يمكن الا بعد تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التي لا بد منها لكل من يريد الاستقلال في سيره

هذا حاصل أقوال الناس في شأن المدرسة الليلية التي افتتحتها نظارة المعارف قريبا وربما كانت تلك الاقوال صحيحة لكن ان صح ماقالوا فعليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ثم يجيبهم الى مطلوبهم ان رآه موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات والا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن فحينئذ يعلمون الحق ويريحون أنفسهم من الجدال ولهم أقوال في مواضيع شتى يمنعنا من ذكرها في هذا العدد ضيق المقام وربما نذكرها غدا ان شاء الله

وكتب في العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

مقالات الناس فيها أفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق ونذكر بعضا منها في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئا منها يقارن صحة فيصادف قبولا وليكون ذلك دليلا على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا

نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشورا مبسوط العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة قاضيا على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاتهم لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم مبينا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة قد أظهرت ان في بعض المدارس قصورا في التعليم وفي بعضها كمالا وزيادة فاستوجب موظفو الاولى التوبيخ والانذار وموظفو الثانية الشكر والثناء فعلى الجميع من الآن فصاعدا بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم بحيث تكون الاستفادة تعقلا وتبصرا لا حفظا

ولقلقة و بين في هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم وانذر من لم يحذ حذوها بوقوعه تحت مسؤلية الديوان

فانشرحت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الاكيدة والتعليمات المفيدة وقالوا لو عمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكافة الى تربية ابنائهم في مدارسنا التى يصرف بها آلاف من الجنيهات على خزينة الحكومة ليتربى بها على توالي الازمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة زمارها فقد كانت النفوس في ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ولذلك كانت مدارس الفرير والانكليز والامريكان والبروسيان وغيرها عامرة بأبناء الاهالي مسلمين ومسيحيين ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها ولم يكن ذلك الا لما أظهرته التجربة من نجاح التعليم في تلك وقصوره في هذه مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الوالدان والاقارب فى المدارس الاجنبية واغفالها فى مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت فان التفات سعادة ناظر المعارف الى كيفية التعليم وتشديده فى ان تكون على وجهها الحقيقي مما يفيد الآمال ويقويها

الا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة منها قولهم هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين وهي مكافأة الدينار والدرهم فان مكافأة الشكر والثناء وان كانت واجبة وهى من أجل المكافأة وأجملها ولها تأثير فى جلب الرغبات وتقوية العزائم لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة الماشية فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من ايراده لا تنفك عنه الوساوس ولا يبارح ذهنه الاضطراب وتغلب منغصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ماسمع كلمة الثناء عليه ثم ذلك ينقص من اجتهاده ويحط من همته بل ربما أورث خللا في كيفية تأديته لوظائفه خصوصاً اذا رأى غير المجتهد مماثلا له فى الرزق وأوفر راتبا منه ولقد صدق القائل: النقص من الرواتب نقص من الاعمال: لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة مع أن المسموع ان ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ونظارة المالية تسمح باستغراقها بل تود لو يزاد فيها

وقولهم هل جميع من نشر عليهم هـذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الادراك واذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدرب على الطرق الجديدة مايؤهلهم لاجرائه والسير بمقتضاه بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره أو ان الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها والبعض ربما لايمكنه ذلك حتى ولا بالتعليم؟ وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة وعلم المستعد منهم وغير المستعد بوجه الدقة والضبط حتى اذا وجـد منهم من لايليق لوظيفة أنزل عنها ورزقه على الله ومن يليق لأعلى منها رفع الى مايستحق لتوجد الرغبة الحقيقية أولاً وتخشى عواقب الجهل والاهمال ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ويكون كله خسارا على التلامذة المساكين. ولا نقصد بالامتحان الا السؤال في الفن الذي يعلمه فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عدّ عارفًا ثم طلب الالقاء والتدريس وكيفية التفهيم فرب عالم لايستطيع البيان

يقول الناس إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء عارفون بفنونهم قادرون على تأديتها بالوجه اللائق لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقة وتعودوا عليها فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها وان كانوا علماء بفنونهم والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علما ويعجز عن تمرين المتعلم عليها عمـلا والبعض يوجد خاليا من الأمرين يهزأ به التلامذة ولا يوقرون أستاذيته كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ويوجـد بين المعلمين صنف من النبهاء لايحب ان يجهد نفسه في التعليم ويكتفي في درسه بحكاية بعض ماوقع له في يومه أو ليله ثم ينصرف فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها واعترف للفاضـل بفضله وعرف الناقص مقدار نفسه وأنزل كل منزلته هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصا من العرفاء كل في فن مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية ولا يكون لهم عمل سوى هـذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يومًا مثلا ويقدموا جميع مايرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة فان رأوا نقصا عرفوا سببه ومن أي الجهات منبعه فان كان اعوجاجًا

فى طريق التعليم ارشدوا المعلم بأنفسهم و بينوا له الطريق مرة بعد أخرى فان اعتدل والا اعتزل و يكون أولئك الاشخاص تحت مسؤلية شديدة اذا ظهر فيما بعد نقص ولم يكونوا نبهوا عليه فان ذلك يبعث الغيرة و ينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل الى المقصود باقرب الطرق المؤدية اليه و يسهل تدارك الخلل اذا ظهر وازالة النقص اذا طرأ ؟ هل دققت نظارة المعارف فى معرفة أخلاق النظار والاساتذة الذين وضع الاطفال في كفالتهم يدبرون أمورهم و يرشدونهم الى كمالهم وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة والافكار المستقيمة والعفة والنزاهة والغيرة على نفع من وكل أمرهم اليه وأداء ما وجب في ذمته حتى يكون حاله وكماله درسا آخر يعطى للتلامذة في كل يوم فتنطبع هذه الكمالات فى نفوسهم باشد من انطباع صور المعلومات فى عقولهم وهو المعنى المقصود من التربية و بين من لاخلاق له بأن يكون أحمق أو دنيئا أو عديم الغيرة والذمة أو رديء الافكار ونحو ذلك من الذين تكون معاشرة التلامذة لهم موجبة لتلوثهم بالرذائل وتكون كلماته فى الدرس ممزوجة بسم الفساد فتميت أذهانهم وتكون عاقبة أمرهم إما جهلا وقد ضاع الزمان وولى الشباب واما علما صناعيا مصحوبا بشرور تعود على صاحبها بالشقاء و ياليتها تكون قاصرة عليه ولكن تتعدى الى غيره بحكم العادة المستمرة وعند الفصل بين الفريقين بارشاد الرقبا النبهاء ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم والامانة في الخبر والصدق فيه يميز الخبيث من الطيب و يبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في انحاء البلاد لتفوض اليهم تربية الاطفال والشبان ليكونوا رجالا ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة أملا بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون انه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلا ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ولا موافقة لطريقة التعليم فى المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد وانه يلزم ايجاد طريقة جديدة في التأليف وازالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيرا من الناس عن التعليم فهل حصلت العناية

بتصنيف تلك الكتب وان حصلت فبمن أنيط تصنيفها وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ويكون لهذا المجلس حق في تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون حتى يتأتى اجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق ان سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أمورا كثيرة تستحق الالتفات وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لابد من تقريرها والاسعاف بها فهل أجيب طلبه وحصلت المذاكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداها حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها الى البحث في غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سؤالاتهم سردناها للاحاطة بها وإنا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك وأنها لا تغفل شيأ مما تعلمه نافعا ومفيدا ومن اليقين انها لاتشرع في شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل اذ تعلم ان زماننا هذا لايرى فيه الا الأثر الظاهر ولا يؤثر عن رجاله الا الاعمال الحقيقية أما صدور الاوامر والنطق بالالفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها فقد مضى وقته وان الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء كسعادة ناظرها الاكرم الحريص على تقدم العلم والغيور الرفيع الهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري والبصير الحاذق وكيل المكاتب الاهلية حضرة علي بك فهمي وسنرى من أعمالهم مايرفع جميع هذه الاوهام ويفتح للمعارف في عصرنا هذا تاريخا جديدا فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها فعلينا ان لانضيعها

وكتب في العدد ٩٩٧ الصادر في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عامة النفع شاملة الفوائد يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهارا عن التعليم مع رغبتهم فيه وميلهم اليه ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها اذا افتتح مثل هذه المدرسة الا فى تعلم ما ينفعهم ويزيدهم نورا و بصيرة وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا و يقرأ فيها درس باللغة الفرنساوية يكون قاصرا على تعليم اللغة لاغير يبتدأ فيه من الهجاء الفرنساوي الى نهاية مايلزم ان يتعلم فى تلك اللغة أما دروس اللغة العربية فمنها ماهو خاص بتعليم قواعد اللغة ومنها مايكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ أحوال الامم وتاريخ طبيعي و بعض مبادىء الرياضة (فيما سمعت) بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التى سبق منا الكلام عليها المسماة بمدرسة الخوجات الليلية في جوهر مايقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك أجنبية وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين وتلك لا نتوسم فيها ذلك الا ببرهان وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة لكنها لا تضر فى المقصود

ومما ينبغي ذكره انه ثبت في اذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها و يهتم بشأنها مع ان اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها ولا يصح أن تجعل غاية تقصد وانما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لا تكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية فطالب تعلم اللغة الفرنساوية مثلا اذا لم تكن عنده مبادىء علوم وملكة ادراك في بعض الفنون التى يطلب التفنن فيها لا يعد مصيبا في طلبه الا اذا طلب معها تعلم تلك المبادىء حتى انه عند بلوغه الى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول الى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون

التعلم والتعليم الليليين قاصرين على اللغات فقط بل يلزم أن يكون معها بعض مبادىء العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة التى لا نزال نرى مساعيها فى تقدم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون وتبطل حجة اللائمين الذين انصبوا الى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها وما يعود على البلاد منها ونشرنا وجوه انظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهانا فعليا لا جدليا يقنع الناظرين ويفحم المخاصمين ويذهب بتعللات المتعللين ومطالبا لاصحاب تلك الافكار بالبرهان الفعلي أيضا وهو توجه الهمم الى التعلم وافراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم حتى تظهر فوائد هذه الاثر وانا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها يجيبون نظارة المعارف الى طلبها كما أجابتهم الى طلبهم ويكون لجريدة الوقائع المصرية شرف الإخبار بخير الأخبار وأجر التنبيه على الامر ومافيه

وكتب في العدد ٩٥٧ من الوقائع الصادر فى ٣ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ — ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٠ مانصه

التربية في المدارس والمكاتب الميرية

من المعلوم البين ان الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها انما هو تربية العقول والنفوس وايصالها الى حد يمكن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حيا وبعد موته ومرادنا من تربية العقول اخراجها من خير البساطة الصرفة والخلو من المعلومات وابعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة الى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ويكون النظر بذلك شجية لها أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الاشياء وخبائثها وهذا هو الركن الاول في المدارس والمكاتب ومرادنا من تربية النفوس ايجاد الملكات والصفات الفاضلة

في النفس وترويضها عليها وإبعادها عن الصفات الرذيلة حتى يكون المتحلي بها ناشئا على ما يوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ومتعودا عليه وهذا هو الركن الثاني واذا فقد أحد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة أو قلت جدا ولنترك البرهان على ذلك الى علم كل انسان به فاذا اجتمع للشخص هذان الامران كان انسانا له أن يطلب ما ينفعه ويبعد عما يضره فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة اذا رآه موافقا لاستعداده وفي قوته النهوض به فيختار من العلوم والصنائع ما يشاء ويبرع فيه بكل رغبة وغيرة حتى يصل الى ما تمكنه القوة منه ولا يتأتى منه الاهمال فيه لوجود الباعث من ذاته وهو غيرته وتصوره للغاية الذي لا يفارقه أما ان كان الشخص ضعيف الادراك أو فاسد الاخلاق وان كان عالما بجميع علوم الدنيا فلا ريب أن يكون شقيا في نفسه وسببا في الشقاء لغيره ولا تغني عنه المعلومات شيئا بل ذهب بعض الحكماء الى انه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة الا بعد تحلي النفس بالصفات الجميلة التي منها بل أعظمها حب الكمال الذي هو الداعي الحقيقي الى طلب العلم والبراعة فيه وان أول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة والنفوس بالصفات الكريمة هو التعاليم الدينية الصحيحة أعني ترغيب القلوب بما يرضي الخالق وإدهابها مما يغضبه ثم يؤتي بابا لرغيبة التي يراد حث النفس عليها على حقيقتها المقصود للشارع بحيث لا تخرج عن مكارم الاخلاق التي حصر الشارع علة بعثته فيها كما قال عليه الصلاة والسلام انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ويؤتي بالامر المنفور منه كذلك على وجهه ثم يقال ان ذلك يرضي الله وهذا يغضبه وذلك لا يتأتى نجاحه الا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من الله وتعظيما لجلاله وتبجيلا لمقام ألوهيته السامي بحيث لو ذكر اسم الله عند شيء خفق قلب السامع وأضربت جوارحه خشية منه ورهبة فيكون ذلك سببا لاقدامه على ما يرضيه من الفضائل ونفرته عما يغضبه من الرذائل فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهذيب فان الطفل في صغره بل والشاب في أول بلوغه يعسر عليه لقلة التجربة ان يفهم مضار الاشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل الصرف خصوصا مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب يستحسن

منها عند شخص ما يستقبح عند آخر و بالعكس وايداع مثل ذلك فى القلوب انما يكون بتعويد الابدان على العبادة وتذكر جلال الله بالركوع والسجود ومعرفة العقائد الدينية السليمة فهي الاساس لكل ذلك وطالما تشوفت النفوس لان تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد الذي عول عليه جميع الامم المتمدنة في مبادىء تعاليمهم فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الاوروباوية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها الى ما يزيد عن ست سنوات تقريبا ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لاسباب نضرب عن ذكرها صفحا

والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها الى ذلك وطلبت تجويده والاهتمام بشأنه من المعلمين والنظار وان لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الأمر وشددت عليهم في ذلك كل التشديد حتى أوجبت على الاساتذة ان يقوموا برسوم العبادة حق القيام امام التلامذة ويدعوهم لذلك ان كانوا مسلمين أما المسيحيون وغيرهم من ذوي الاديان الأخر فلا يكلفون بذلك أصلا بل هم على حريتهم فلها الشكر على هذا المقصد الحسن غير أنه يلزم ان لا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صورا يابسة لا روح فيها كعبادة الجاهلين بل يجب ان تكون معنوية حقيقية تخرق حجاب الغفلة وتتمكن في باطن الادراك وتبعث في الأشخاص روحا من الحياة يشهد أثره الناس أجمعون وعلى نظارة المعارف ان تلاحظ التعليمات الدينية التي يلقيها المعلمون حتى لا تكون محشوة بأنواع من التخريف المضاد لحقيقة الدين كما جرت به عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء وان كانوا في الحقيقة من أردإ الجهلاء فان ذلك يخل بالمقصود من التربية و يضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها (وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء)وهذه هي صورة منشور المعارف الى جميع نظار المدارس والمكاتب

***

« قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة الى ديوان المعارف وما معها من النتائج والملحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه ان بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الاسلام المندرجة في المسامرة

الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الاهلية والمدارس الملكية الابتدائية مع ان معرفة قواعد الاسلام بالنسبة لاطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ولا يجوز اغفاله في حال من الاحوال مطلقا فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة خوجات القرآن مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ويفهمون معناها فهماً جيداً ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور وهي الفرقة الثالثة من كل مكتب ومذا كرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون اليها حتى لا ينسوها واذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لهما قراءتها في تلك الفرقة يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر في الفرقة التي هم بها بمعرفة خوجه النحو اذ من بعد الآن لا يرخص بترقي التلامذة من فرقة الى أعلا منها من ابتداء الفرقة الثالثة الى أعلا فرقة الا بعد التحقق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظا وفهما وعلما وعملا ويكون من أخل بشيء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسؤلية الشديدة ويشترك معه في هذه المسؤلية ناظر المكتب أو المدرسة اذ يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر ويجعل لذلك خانة مخصوصة في جداول الامتحان العمومي والامتحانات التي تحصل في أثناء السنة ويعطى فيها نمرة كسائر الدروس وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين خاصة وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن الذي يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم في ذلك وترغيبهم فيه وتحريضهم عليه ونهيهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لاداء الصلاة مع الحث منه للتلامذة عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة ان كان موجودا فان لم يكن موجودا ففي مسجد قريب فان لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض الى الديوان عن تحديد محل للصلاة مع ارسال رسمه ومقايسة تكاليفه ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك

ولو في حوش المكتب أو المدرسة موقتا الى ان يتم انشاء المحل المطلوب واذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم مع بيان القياس المطلوب وقد كتب بما ذكر الى النظار عموماً وهذا لحضرتكم للاجراء على الوجه المشروح بغاية الاهتمام والحذر من التهاون فيه بعد الآن

كتب في العدد ٩٨٤ الصادر في يوم الاثنين ١١ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٣ دسمبر سنة ١٨٨٠

وخامة الرشوة

ورد من مديرية الجيزة في ١٩ الحجة سنة ٩٧

«قبض على أشخاص من ناحية كومبره معهم أربع زكايب ملح براني بها ٥٠٧ اقه و ٣٤٠ درهما بواسطة مندوبي المديرية بارشاد متعهد المصلح بناحية بولاق الدكرور فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشا وكسورا على وجه الرشوة فورد المبلغ للخزينة وها هو اللازم جار لاتمام التحقيق ومحاكمة الاشخاص ومبيع الحمير التي كانت حاملة للملح لتورد أثمانها للاميري حسب المنشورات في هذا الشأن» اه

***

قد تقرر في عقول جهلة العوام ان الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على مايخالف الاصول المتبعة أو يخل بالامن والسكينة أو يهتك حرمات الحقوق اتكالا على مايضمره في نفسه من ان الرشوة كافية للنجاة عن العقاب أو الحصول على غرضه بأي وجه كان وقد غلب على عقول العامة ان كل صاحب وظيفة ميرية أو غير ميرية لايصح أن يقضي أمرا في مصلحته لاحد الا بالرشوة ولذلك يرون أنه من الوجوب على من التمس إنجاز أي عمل يتعلق بمصلحته ان يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التي انطبقت بذمته على أجر يتقاضاه في رأس كل شهر ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لاتشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحد منهم بل كادت أن تكون من

الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتال ولا يكتفي بذلك في اقتضائها فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخليص حقه غنيمة باردة وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليه في قبولها منه لظنه ان لا نجاح بدونها وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم تقربا لذوي المناصب وتذللا خبيثا لا يجوزه الشرع ولا قانون البلاد وتنفر منه نفس كل ذي احساس انساني مع ان حفظ الاموال من الضياع فيما لا ينبغي وصرفها في وجوهها الضرورية كالمطاليب الميرية والنفقات اللازمة أليق بفعل العقلاء وأصون لحرمات القانون وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت اعباء المعاقبة والتهلكة وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة اذ لو كف كل ذي حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الاقوم وخضع للاحكام الحقة لتحصل على حقه بدون ان يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة الا بالحق و بدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتشبطه طمعا في ما يأخذه منه

على ان أي متوظف كان وان بلغ ما بلغ من الزهد والعفة فلا أظنه يمتنع عن تناول ما يقدمه الغير اليه بالرغبة والرجاء خصوصا اذا أكثر التردد مع ظهور الحق له فاذا مد يده اليها تعود شيئا فشيئا حتى يرتشي في الحق والباطل و بالرهبة بدل الرغبة فالعلة الاولى في فساد اخلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوي اليسار في ارشائهم بدون تأمل فيعودونهم على ذلك وحينئذ فما يلحق الراشي من اللوم أشد مما يلحق المرتشي وان كان كل منهما مجرما لان الاول ضيع ماله واسترسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوي فيه الحاكم والمحكوم عليه امام القانون وأمال المرتشي لاخذ الرشوة وقوى طمعه ودله على الشره وكلف نفسه بما لم يكلف به

ومن غوائل الرشوة ما رأيناه في الزمان السابق يحصل كثيرا بين الخصماء حيث يبذل الواحد منهم ما يدخل تحت طاقته من الاموال رشوة بالغة ما بلغت في سبيل اعنات خصمه والحصول على غرضه وان زادت النفقات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعافا مضاعفة ومثل ذلك كثير لا يمكن الشرح ان يأتي على بعضه وهذه الحادثة المتقدمة

تشهد بالتقريب لما قلناه فان مادفعه الاشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من ثمن الملح الذي كان معهم فلو أنهم اشتروه على الطريقة المألوفة لما وقعوا في الخسائر الجمة وأثقال المحاكمة ولكان ذلك أقرب الى وفرة الكسب وأسلم للمال والنفس ولكنهم ظنوا ان الزمن الحاضر هو السالف والحكومة هي هي فسهل عليهم ان يتعدو الحدود ظنا منهم ان الرشوة تقيهم من عواقب أعمالهم وقد خاب ظنهم بتيقظ المتعهد والمندو بين وأمانتهم

ومن العجب بل مما يتأسف عليه غاية الاسف ان الاهالي مع علمهم بأن الحكومة تنادي بمنشوراتها وأوامرها واجراآتها الفعلية بأن لا يستقر في وظائفها سوى ذوي الاستقامة والعفاف وأنها تبادر الى عقاب المرتكبين ولو بالمظنة نرى البعض منهم بل الكثير لا يزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك التي سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الازمنة السالفة (وصعب على الانسان مالم يعود) أليس كان من الواجب على الاهالي ان ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) و يقوموا في طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التي سهر في انشائها وتنقيحها أولو الامر طلبا للعدل ورغبة في الانصاف ويتفق أهالي كل جهة على ان لا يدفعوا لذي وظيفة شيأ من الاشياء بل يسلمون أمورهم الى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه فان الحاكم اذا لم يكن له ميل الى أحد الجانبين لغرض كهذا الغرض الخبيث فلا يرى سبيلا ولا يجد من نفسه داعية الا الى الحكم بالقانون فان أخطأ فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا يستأنف في كل منها النظر في القضايا من أي نوع

لا نشك في ان سلوك طريق الاستقامة أهدى وأقوم وافيد للعموم والخصوص واحكم أما تلك الطرق العتيقة فهي قريبة العطب شديدة الخطر لا نرى لمرتكبها نجاة خصوصا في هذه الاوقات التي أصبح بصر الحكومة فيها حديدا ومن توارى تحت التستر وقتا ظهر بعار الفضيحة في آخر نسأل الله الهداية والتوفيق لارشد طريق

وكتب في العدد ٩٩٥ الصادر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠

العفة ولوازمها

سبق اننا ادرجنا في جريدتنا فصلا معنونا بالرشوة ووخامتها بينا فيه ان هذا الداء المميت لروح العدل المفسد لمزاج النظام ازمن في طباع الاهالي من زمن بعيد حتى ظنوه صحة وحسبوه حالا لازمة لهم وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم ويجازفون فيه بأموالهم مع عدم التبصر والتدبر وانتفاء الموجب والمقتضي ولا يقتصرون في أداء نقودهم وعروضهم لارباب الوظائف (ان قبلوا منهم) على حالة الضرورة وربما يؤدون على طريق الرشوة مايساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه وهذا يعد من سفه الرأي وقلة العقل ودناءة الطبع وكان من الواجب على أرباب الحقوق ان يعلموا ان الوظائف ليست للموظفين مجانا بل كل متوظف فله مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته يصرف له ذلك المرتب من خزينة الحكومة التي هي خزينة الاهالي حقيقة فلا حق لمتوظف أيا كان أن يأخذ بارة من أحد من الناس في مقابلة عمل من الاعمال بل كل ما أخذه فهو سحت وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم (كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به) أو كما قال وقد أجمعت الشرائع الالهية على لعن الراشي والمرتشي وأطبقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرد والخزي واللعنة على كليهما أيضا

غير ان كلا منا في ذلك الفصل لم يكن موضوعه ان الموظفين يتعاطون هذا الامر على العموم بل صرحنا فيه بأن من الحكام العفيف الذي ينهر راشيه ويبعده وكيف يصح التعميم مع علمنا عين اليقين ان في رجال الحكومة وموظفيها الاعفاء المنزهين ولولاهم لما استقامت الاعمال وانتظمت الاحوال وهم معروفون بين الناس تشهد لهم اعمالهم وتنشرح صدورهم وتثني عليهم سرائرهم عند مايحسون من أنفسهم الاستقامة وسلامة الذمة حتى كأني بالرجل العفيف منهم عند مايخلو بنفسه ويدخل الى مخدعه يحدثه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم الذي عرض عليه حطام الدنيا والنفيس من الذهب والفضة وربما كان محتاجا اليه ومع ذلك

كف يده عن أخذه وترفع عن مد كف يد الخيانة لاستلامه حفظا لشرفه وصونا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء بل والسفهاء اذا ذكر عنه انه ارتشى ومراقبة للاحكام الالهية والعهود الانسانية فعند مايرى لنفسه هذه المزية الشريفة يطير فرحا وهو وحده وتكون صداقته سميرا ومحدثا له ينسر بموافقتها وملازمتها ويتحكم في نفسه سلطان الافتخار الحق الذي لا يعارضه فيه أحد فأمثال هؤلاء (الاعزاء الوجود) هم عماد الملك وقوام النظام وان دوائر حكومتنا متشرفة بهم . بخلاف أولئك الساقطي الهمة الفاسدي الاخلاق الذين يقبلون ما يقدم اليهم من أرباب الحاجات قليلا كان أو كبيرا أو يطلبون ذلك منهم بصريح أقوالهم أو بتعطيل أشغالهم اذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة: ان شاء الله يكون قضاها: فاذا جاءه مرة ثانية قال اذهب الى غد فان جاء في الغد عبس في وجهه وقال: ان عندي أشغالا أهم من شغلك: ونحو ذلك من المماطلات وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد حريص على نيل مقصوده فان كانت فيه غفلة عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكني ويلوح ويعرض حتى ينتبه الطالب الى الغرض فيبذل ما يقصر به على نفسه مدة الطلب ولولا جهله مافعل فهؤلاء الاشرار وان استتروا تحت ذيل الحيل والخداع يوما فلابد ان تنتشر في الجو روائحهم الكريهة وربما غضت عنهم الابصار زمنا لكن لابد من نفوذ أشعتها اليهم في آخر فاذا أدركتهم كانت يد السطوة ضاربة على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق التي لا نفلت ولعلمهم بقبح سيرتهم ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة وشدة حرصهم على اخفاء هذا الأمر الشنيع تراهم اذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ماصنعوا من الحيل لالتهام الاموال وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة فرب صاحب حاجة ذكي نبيه يشكو أمره لمن فوقه ورب رقيب من طرف الحاكم اليقظ يطلع على وجوه حيله ورب ناقد بصير رأى صاحب الحاجة سائرا الى بيته ورب حر غيور يبصر الهدية وهي طارقة باب منزله ثم يأخذ يعلل نفسه بأن تلك الاشارة كانت غامضة على الحاضرين والناظرين وذلك كان خفيا على المراقبين وهكذا تستولي عليه الافكار السيئة والاوهام الخبيثة فيبيت مضطربا خائفا مرهوبا لكن شقاءه يحتم عليه الرجوع

الى قبيح صنعه فخبث السريرة يكون بمنزلة منكر ونكير يحاسبه ويعاقبه على مافرط منه خصوصاً وان قلبه وعقله فى كل وقت يحدثانه بأن هذا مضاد للانسانية منافر للطبيعة اذ لولا ذلك لما حافظ على اخفائه كالسرقة والنصب بل يحرص على كتمانه أكثر من ذلك فان عاره أشد وجرمه أعظم وكفى بهذا عقابا وعذابا لو كان له عقل و بصيرة طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا وقطع من الكون دابرهم

وانه ليسرني و يملأ قلبي ابتهاجاً ماسمعته من ان كثيرا من المتوظفين تكدروا من قولنا فى ذلك الفصل: على اني لا أظن ان المتوظف وان بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح يمتنع عن أخذ مايقدم اليه بطريق الرجاء خصوصا مع ظهور الحق لصاحب التقدمة الخ خوفا على أنفسهم من الدخول تحت هذه الكلية فيمسهم ولو بطريق الوهم شيء من عار هذ الوصف الشنيع أعني أخذ الرشوة على أي وجه كان فان تكدرهم هذا برهان على نزاهتهم وعفتهم وحبهم ان لا ينتظموا في سلك المتصفين به ولو فى مفهومات الالفاظ على وجه بعيد وهذا غاية في المحافظة على الشرف والنفرة من هذا النقص الذي موت الانسان خير من ان يتصف به لكني أقول لو دققوا النظر لما تكدروا من هذه الجملة لوجهين الاول الاستثناء المتقدم في صدر العبارة والمفهوم من السياق والثاني ان منطوق جملتنا صادق فيمن يقدم اليه ويسكت حتي يحصل الرجاء واني اعلم ان العفيف لا يتجاسر أحد على ان يقدم اليه شيئا متى اشتهر عنه ذلك ولو اتفق ان أحدا بذل له رشوة ولم يقبلها فلا يصح له السكوت عليها بل عليه ان يخبر في الحال جهة الاختصاص به حتى يعاقب الراشي وتضاف الرشوة الى جانب الديوان فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الادلة وأوضحها أما ان سكت على ذلك واكتفى بالمنع من جهته فاني أراه موضعا لقولنا في الجملة السابقة فان كثرة الرجاء تلين الحديد اذا كانت في أمر يتكلف الشخص فيه مشقة فما ظنك اذا كانت في اتصالـــ منفعة الي المرجو وأنه ليعجبني جدا ماذكر في قانون العقوبات من قوانين المحاكم الجاري عليها العمل في بلادنا في باب الرشوة منه ببند ١٠٧ حيث قال فيه: المتوظف أو المأمور الذي قدمت له أو أعطيت له عطية أو ودعه بشيء ما لاجل التوصل الى الغرض السابق ذكره

(أداء عمل من أعمال وظيفته ولو كان العمل حقاأو لامتناعه عن عمل من الاعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فورا جهة الاقتضاء يجوز ان يحكم عليه بالعقوبات المقررة في حق الرشوة اه على ان هذا الانذار لولم يكن مثبتا في القانون لوجب ان تنبئه الذمة والغيرة فان من عرض عليه شيء على سبيل الرشوة اذا كان غيورا وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة من عرض عليه لوجهين الوجه الأول خصوصي وهو الانتقام من الشخص الذي ظن السوء فى هذا المتوظف بل جزم بنقصه وعدم شرفه حتى أقدم على ارشائه فهو حقيق بأن ينتقم منه والثاني عمومي وهو أنه اذا عوقب الراشي لسبب إخبار المتوظف وشاع ذلك بين الناس يقع الرعب فى قلوبهم ويخافون من ان يقدموا شيأ لمتوظف خشية ان يخبر كما أخبر ذاك فيقع الراشي تحت العقاب فينكف أرباب الحاجات عن البذل خوفا حتى لو مد المتوظف يده طالبا الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لايقاعه في الخطر هذا من جهة ذوي الحاجات وأما من جهة أرباب الوظائف فانهم متى سمعوا ان فلانا أخبر براشيه وظهر اسمه وانتشر ذكره خصوصاً اذا ترتب على ذلك رفعة قدره اقتدوا به لينالوا مثل ما نال في ظهور الشرف والفخار فيمتنعوا عن قبول الرشوة بل يتسببون في اضافة أموال جمة الى بيت المال ويقع التنافر والتسابق في فضيلة العفة والاستقامة وقد بلغنا ان بعضا من الموظفين أخبر الجهة الموظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك لكن بمبالغ زهيدة ربما يسمح بها الخاطر لاظهار العفة فينال شرفها بقيمة زهيدة ولم نسمع بأن موظفا أخبر جهة عمومه بمبلغ وافر من تلك المبالغ التى كنا نسمعها وهي التي يعد التعفف عنها تعففا حقيقيا ومع ذلك فانا نشكر المتزهد عن القليل والكثير

وربما يتوهم بعض ذوي الاستقامة ان في الاخبار ضررا بالراشي وفضيحة له فالتستر عليه أولى فهذا الوهم خطأ صرف لان الله تعالى جعل فى العقاب حكمة بالغة وهو ردع النفوس الشريرة عن الشر حتى يقل الشر أو ينقطع قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب) والمعنى ان قتل القاتل وان كان فيه إعدام لنفس واحدة لكن يرتدع بسببه أشخاص كثيرون ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس

اذ لم يعلموا ان جزاءهم القتل فمرتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة فكان في القصاص الذي هو موت حياة وان الشفقة والرأفة على من استحق العقاب غير جائزة بل مخالفة لامر الله فقد قال في سياق حد الزاني والزانية (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) وهكذا الذمة والالهام الالهي المودع في طبيعة النوع البشري يرشدنا الى ذلك أي ان الواجبات الانسانية تطالبنا بان من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة وتؤدي الى مفسدة عامة كالرشوة وجبت علينا المبادرة لطلب عقابه فان فيه صلاحا له بعدم عوده وردعا لغيره و بالجملة فانا نؤمل من ذوي الاستقامة ان يكونوا قدوة للناس ودعاة الى مثل أخلاقهم وذلك لا يكون الا بظهور آثارها واجراء مايوجب التنافس فيها والمسابقة في ميدانها وان داء الرشوة وان كان لا ريب يظهر أثره على المبتلى به فيكون ممقوتا وان اجتهد في اخمائه باظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه أو أخذ العهود والمواثيق على من يقدم اليه هذا السحت لكن لا يظهر رسما على وجه مطرد حتى تظهر المجازاة عليه وتعرف عند العامة والخاصة فتتعود الانفس على تصور عاقبته الا بطريقة أخبار المتوظف بمن يرشيه فانها تظهر لنا شطر المقصود والمراقبة والتيقظ يظهر ان الشطر الثاني (عند عدم الاستقامة) وإنا نسأل الله تعالى ان يكثر في بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين النزهاء و يمحق أولئك المجرمين الاشقياء

وكتب في العدد ١٠٣١ الصادر في ٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — ٧ فبراير سنة ١٨٨١

القوة والقانون

قبل الكلام على خصائص هذين الركنين لهيئة الوجود الانساني نريد ان نبين حقيقة كل منهما ليكون القارىء على علم بما يلقى اليه بعد فلا يخطىء الغرض ولا يجاوز المرمى ولا تلحقه شبهة توقعه في ظلام الحيرة وغيهب التردد

اما القوة فلا نعني بها الا ما يستعمل لجلب الملائم ودفع المكروه سواء كان من شخص واحد أو جماعة متآلفة أو شعب من الشعوب أو أمة من الأمم

وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ودفع المعاند هي القوة البدنية مجردة عن سواها كما نراه فى السباع الضارية والحيوانات الكاسرة أو هي منضمة الى السيوف القاطعة ولآلات المحرقة وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والصيال

اما القانون فهو الناموس الحق الذي ترجع اليه الأمم فى معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية وهيئاتها النفسانية أعم من ان يكون متعلقاً بروابط الممالك وعلائقها أو منوطاً بالسياسة الداخلية كالادارة المدنية والتدابير المنزلية أو باحثاً عن الاخلاق الفاضلة وما ينبغي ان يتحلى به الانسان منها وما يجب ان يبتعد عنه من اضدادها وسواء كان في أمة واحدة أو أمم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن اما القوة فكانت شرعة الأمم الغابرة والشعوب السالفة وقت ان كان الانسان جبلي الطبع لا يمتاز عن غيره من أنواع الحيوانات الا بالفصل المميز اعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف وشعار التمدن فكانت له الحاكم الفيصل يرجع اليها فى تحصيل غرضه ونوال مطلوبه وباختلافها وتفاوتها اشتداداً وضعفاً وتقدماً وتقهقرا كانت تختلف الأمم وقتئذ في الشرف والضعة والسطوة والفقر والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مهما كانت طرائقها فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجراءة وكثرة السلب والنهب والبتك والفتك وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل في هذه الصفات تعرف بالمجد الاثيل والشرف الباذخ والمكانة العالية فيدين لها مجاوروها وتخضع لسطوتها كل أمة قرع أسماعها ماهي عليه من علو المنزلة وشدة الانفة وقوة الشمم وتساق اليها الهدايا من تخوم الاقطار وشاسع البلدان وتأتيها الغنائم أفواجاً يقتادها رجالها الأبطال من ساحات الصدام والنزال ولم تزل الازمان الغابرة محكومة بسلطان القوة تقلب الامم على جمر الخوف والاضطراب وتضرب بصولجانها جرائيم القلوب الضعيفة فتلقي بها فى مهاوي الذل والهوان حتى خضعت لها الامم ودانت لها الشعوب وصارت هي الديان المسيطر على كل شيء فاذا تمت لقوم تبعتها السلطة التامة والحكم المطلق فيتسلطون بقدر مكنتهم على ما شاء الله من الشعوب والقبائل ويتخيرون واحداً منهم سلطاناً أو ملكاً قد امتاز

بالتهور والجراءة وجلالة المنظر والنضارة بملكونه زمام الحكم والسلطة ثم ينتخبون من عشائرهم رجالا يمدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة والنصرة على العدوّ والعدة لفتح الممالك والامصار ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سلطانهم بالرهبة والقساوة لئلا يتملصوا من ربقته فيذعنون لملكهم قهرا لاطوعا وينظرونه مقتا لاحبا ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون وذلك دون مراعاة طرق عادلة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة بل بحسب ماتقتضيه القوة التي سفكت الدماء وذللت الشعوب وانتهكت حرمات الامم وسجنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد

هذا ماولدته القوة في تلك الاعصار الخالية التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة مسربلة بجلابيب الغباوة مغمورة في بحار الوحشية وما أظن تلك الشريعة المشار اليها كانت خاصة بأمة من الامم أو صنف من أصناف البشر بل كانت عامة بين أبناء الانسان على اختلاف أجناسه وتباين مواطنه فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة وإمارات متباينة تجول فيها يد القوة ويحكمها مجرد الرهبة ويطويها الخوف وينشرها الفزع ويشملها الاضطراب والاختلال وتتبادلها أيادي السلب يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ويصبح اقوياؤها غير مطمئنين على حياتهم فانبعثت في قلوب هؤلاء الاوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعصا القوة علة الضعف ودبت فيها سخائم الحقد فاختلفت الاغراض وتباينت المشارب وتفرقت القلوب وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى انواع لايجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق وتبدلت فطرته السلمية الى أخلاق لامناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب وارتسمت صورها في مخيلاتهم ونسجيت معانيها الى ذاكراتهم وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم قائمة نصب أعينهم حتى توهموها مقلب القلوب والاحوال حافظ القوى والاكوان اليها مرجع الحوادث وعليها تدبير النوازل والكوارث فاحتسبوها المدبر في المكونات باجمعها وصوروا تماثيل على صور مختلفة وانواع متباينة تشير ظواهرها الى القوة وتؤدي هيآتها

معاني العظمة والسطوة ووضعوها في أماكن عباداتهم ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان وهذه اصنام العرب والصين والعجم وآثار قدماء المصريين وآلهة اليونانيين المصنوعة على اشكال الحيوانات العادية والملوك الفانية يشرح التاريخ أحوالها فلا داعي الى الاسهاب في تفاصيل شؤونها ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي بامعان وتبصر ظهر له ان القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلمية وبددتها وأحدثت به من القبائح ما أحدثت ولولا ان القانون كسر سورتها وذلل صعوبتها لما اشرق نور الحق على صفحات الوجود ولا تمتع الانسان في الازمان الاخيرة بلذة الراحة والسعادة فالحق للقانون لا للقوة

وبينما الانسان تائه في أغوار الاستعباد ، في هاتيك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد، والجور والعيث والفساد، ليس له حق يصان، ولا عرض الا ويهتك ويهان، اذ أشرقت عليه قرائح الذين جادت بهم مراحم الفضل وعرفوا بمناهج الخير فأبصر من طلائع افكارهم ما يهديه الى سبل الرشاد ويوقظ فكرته الى التماس الصواب من ابواب السداد فعلم ان القوة هي منحة جليلة ونعمة كبيرة يستعين بها على حاجاته الضرورية ولوازم معيشته المرضية قد عززها الله تعالى بالاتحاد والائتلاف حتى اذا عجز الفرد الواحد عن ما لا طاقة له عليه من نفائس المطالب وجلائل الرغائب استعان بعشيرته ثم بقبيلته ثم بأمته التي يجمعها دين أو ملك ثم بجميع افراد نوعه وان القوة ان لم تكن على قانون لا تتعداه وخط لا تتخطاه بان استعملت على أي وجه وفي أي زمان أو مكان لا ينال ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة فأسف على ما كان ونزع من رقدة الغفلة يحاول لها هذا النظام المعبر عنه بالقانون فكان نورا يهتدى به وقائدا رشيدا يسلك بالانسان الى ما أهله له من الكرامة والنعيم فاتبع سبيله المهتدون ومال عن سنته الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالانقياد لاحكام القانون فانه حفظه باطنا وظاهرا، وتمسك به غائبا وحاضرا، حتى صار ركنا من لوازم حياته، وعدة لمقاصده وغاياته، وملهج لسانه في بكره وعشياته، الى ان عرف به واجباته الحقوقية، وفرائض معيشته العمومية

والخصوصية، وامن به من مصائب الظلم ونوازله والجور وغوائله واطمأن به على نفسه وعرضه وماله فسكن قلبه بعد الاضطراب وقرت عينه برياض الامن والامان وتولد فيه أمل حمله على ادمان العمل فأعمل فكرته الخامدة وأجرى حركته الراكدة ولا زال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ويقتنص بحبالة الاستكشاف كل فائدة ويستعمل قواه في حل المبهمات ويستطلع ببصيرته ماخفي من مجهول الكائنات الى ان حداه العلم الى معرض الاختراع والابداع فطار على جناح البخار بدل الشراع واستخدم البضار لقضاء الاوطار واستعمل البرق على بعد الديار رسول الاخبار وجعل المدافع والقنابل ليبيد بها مضاديه ومعانديه وانغمس في النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا الى غير ذلك مما اتيح له من محاسن الحضارة ولطائف الرفاهة والنضارة ولازال يضرب في تخوم البلاد ويذلل بقوة عزمه أخلاق العباد الى ان اصبحت البسيطة في قبضة زمامه ولا غرو فان قائده الاتحاد والائتلاف وباعثه الوفق لا الاختلاف وهو لآن كما بدأ يحافظ على القانون بانسان مقلته ويصرف في حراسته مايدخل تحت قوته فانه ملاك سعده وأساس مجده ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفحا وطوى عنه كشحا فهو هو على رذالة أخلاقه وبساطة أفكاره يصبح مضغة تحت اضراس الظلم ويمسي كرة لصولجان البغي فليحي صاحب القانون على بساط النعمة الهني

فيا أيها الذين ينحرفون عن القوانين ويعدلون عن طرق النظامات لغرور وقتي ارفقوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ورفعوا شأن الحقوق فاصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهضوا لمجاراتهم في الصدق ان كنتم تعقلون واياكم والتمادي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من السلطة فللايام تغلب وتقلب لكن صراط الحق واحد وسالكه لايضل ان عثر يوما استقام اعواما أما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطرة كثيرة الغوائل سالكها معارض لمدبر العالم سبحانه وتعالى في أحكامه فانه عزشأنه قد أقام الكون بنظام الحكمة ورتب لكل شيء حدودا هي سور بقائه وسياج دوامه فان خرج عنه انحدر الي مهاوي العدم والفناء ومن تأمل الكون الاعلي ومافيه من

الكواكب والشموس والاقمار ثم نظر الى العالم الاسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان يشهد في الجميع لكل نوع منها قانونا خاصا في سير وجوده تقوم البراهين القاطعة على انه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الالهي بالعدم والانقلاب وانه بباهر حكمته قد جعل للهيئة الانسانية حدودا عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في معيشته لخاصة نفسه أو معاملته مع غيره وقد أودعها العلماء والحكماء بطون كتب التهذيب والتربية البشرية بعد ان نطقت بها الشرائع الالهية وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة عن الامم الماضية والمشاهدة الحالية في الاوقات الحاضرة ان من تخطى حدود هذه الحقائق رماه القهر الالهي بسهام لا يخطئ مرماها فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الامم وان القوة لا تأتي بثمرتها الحقيقية الا اذا عضدت باتباع الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه

فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة ان يغتر بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته أو يعجب بصولته ويدع الامور لارادته ومشيئته ويزدري ما للقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت امرته فيفعل ماتسول له نفسه ويأتي كل مايسوقه اليه حسه فيسري الاهمال في طبقات رجاله ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه وتصير الاموال لديهم مباحة والحقوق مبتذلة والاعراض منتهكة ووسائل الربط والضبط معطلة وعقد المواثيق والعهود محللة فيكثر فيما وليه غوائل الخسران وينمو به جوائح الهيثان حتى تصير أفراد المحكومين اخلاطا رعاعا لافرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات والتمكن من وسائل اللذات مع توافق في الفطرة وتشابه في الغريزة ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بجم غفير من الغرماء يتجاذبونه بايد طالما تقدته من خزائنها ماظنه نزرا يسيرا في جانب اسرافه وتبذيره وهو على كاهل الاهالي حمل ثقيل العبء لاتقدر ان تقله ونمسي عمارية البلاد تنعي محاسن صبحتها أربابها طوامس المعالم مظلمة الاطراف ليس فيها سوى نعاب البوم وهمس الهوام وحينئذ لاتسل عن العاقبة فانها أسر ونهب وبئس المآل

ذلك ما يولده الغرور بالقوة والاعجاب بالسطوة وترك القانون الذي عليه سعادة العباد وخصب البلاد فاذا أرادت تلك الامة التي تصرف ذوو البغي والغرور فيها على خلاف القانون ان تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول فلابد لها من اعادة شأن القانون فتشيد منه ما هدمته يد الغرور وبددته سطوة الفجور وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه ومتابعة رشده وهداه ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض وما كان أغناها عن الاصلاح بعد الافساد والتعمير بعد التخريب ولكنها باعت القانون بثمن بخس فكان جزاؤها ان تشتريه بنفوسها العزيزة ودمائها الشريفة حيث عرفت ماهي القوة وهو القانون ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد ان شاء الله تعالى ٠

وكتب في العدد ١٠١٢ الصادر في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ — ١٥ يناير سنة ١٨٨١

ما اكثر القول وما اقل العمل

ان من أخس الأوصاف وادناها ان يقول الانسان مالا يفعل وان يدل غيره على ماضل هو عنه وان يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه وذلك ان من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر وخبيث المقصد دنيء الهمة من الوجه الثالث ٠ اما جهله فلأنه اذا ادعى بما ليس فيه من علم أو فضل مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله بمعنى انه لم يؤلف تأليفاً نفيساً مثلا ينتفع به عموم الناس ويعترف بنفاسة ما فيه العقلاء والمتبصرون من أي أمة ولم يكشف حقيقة ولم يحل مشكلة واعتقد ان سامعيه يصدقونه فيما يدعيه فقد جهل ان النفوس مجبولة على تطبيق المسموعات على المشاهدات وواقع الأمر فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائلها فتنقلب دعواه مقتا عليه ويسقط من قلوب الناس أجمعين اذ لم يروا له أثرا يفيدهم سوى انه يخبر عن نفسه بأوصاف لاحقيقة لها وكذلك اذا أرشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها ويظن ان الناس يسترشدون بارشاده فهو لامحالة مطبق الغفلة مركب الجهل اذ لا يعلم

ان الافعال تؤثر في النفوس أضعاف ما تؤثر الاقوال فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب فتتردد في مفهومه فلا يقودها الى العمل الا بعد تكرار وتذكار اما الفعل فهو أمر مشهور ينطبع في النفس أشد انطباع فتندفع اليه خصوصاً ان كانت فيه لذة معجلة وان عاب على غيره وصفا هو موجود فيه فقد جهل ان ذكره لعيب الغير ينبه الاذهان للنقص القائم بنفسه فان المتكبر مثلا اذا ذم الكبر في غيره فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر فهو جاهل بنفسه وبما يعود عليها وهو ظاهر.

وأما اعترافه بنقصه وعجزه فلانه لم يصدر منه ذلك أي الدعوى بما ليس فيه وترغيب الناس فيما لا يرغبه لنفسه أي فيما ليس بمتصف به بل هو منحرف عنه وذكره لمثالب الغير وهي فيه الا لاجل ان يبين للسامعين كماله وفضله ويظهر لهم وصوله لما يهديهم اليه وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته حيث علم ان الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع وكأنه بذلك ينادي على نفسه بانه لم يبلغ من ذلك شيئا لانه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره شاهدة بعلو مقامه سواء ادعى ذلك عن نفسه أولم يدع وسواء نقص غيره أو كمل ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه أو ذمه لغيره بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها فمن تكلف الاطراء على نفسه بوصف من الاوصاف الفاضلة أورام اظهار كماله بالحط من قدر غيره فذاك معترف بانه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة فاضطر الى النداء بالكذب ليقنع السامعين بانه كذلك

واما خبث مقصده ودناءة همته فلأن من هذه صفته لا يريد ان يكون ذا فضيلة قط ولا يبتغي الوصول الى كمال ولكنه يطلب عيشا حيثما اتفق فاذا جلس الى بعض البسطاء أو غيرهم طلب التلبيس على عقولهم ليقرر في نفوسهم انه بالصفة التي يذكرها عن نفسه أو يرشد اليها وانه خال من العيب الذي يسب به غيره ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض اغراضه الخسيسة أو يستفيد منهم حطاما يسد به بابا من أبواب نهمته وشرهه فهو في ذلك بمنزلة المشعبذين أو المختلسين أو السارقين ونحو ذلك من كل ذي حيلة خسيسة لجلب الأموال ولا يختلف عن

هؤلاء الا بالاسم فقط حيث يقال انه غش الناس بحكاية الكذب عن نفسه وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده الفعل يحسب من اردإ الأوصاف واقبحها لانه يشعر بوجود أوصاف تشهد البداهة بقبحها ومن الأسف ان هـذا الوصف يوجـد في كثير من أهالي بلادنا بل في الغالب منهـم بل لا يوجد القائل الفاعل الا قليلا جدا (واننا نخجل من تسجيل مثـل ذلك في الجرائد ولكن أي فائدة في اخفاء عيب فينا عرفه الغير منا فحق علينا ان نذكر به لعلها تنفع الذكرى)

اننا ان طرقنا المجالس الخصوصـية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لا نعدم قائلا عن نفسه انه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ووقف على المباحث الجليلة وكشف بواطن الدقائق الخفية واستطلع الاسرار وكان مع ذلك مشهورا في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء وتوقد الفكر وقوة الحافظة ونحو ذلك وآخر يقول إنه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل والافحام عند المخاصمة وتفهيم الطالب عند الاستفادة حدا لا يصـل العالمون الى غباره وان له من طرق الاقناع والافهام مالا يتيسر لغيره معرفتها وأنه يحيي بكلامه الاذهان الميتـة ويحشر اليها صور المعلومات ويودع فيها أسرار الكائنات ولو سـألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيته يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي أسلكه لانتشر العلم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا ان التآليف والتصانيف مفقودة وان وجد منها شيء كان ناقصا إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ماقصد منه فيكون كعدمه والطالبون للعلوم على اختلافهم قاصرون عن ادراك ماأضاعوا عمرهم فيه ودليلنا على ذلك احتياجهم دائما الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم أو الصناعة التي تعلموها فتارة يحتاجون الى الاجانب وأخرى الى بعض من الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها والطرق الموصلة الى جلب النافع ورفع الضار والوسائل المؤدية الى تقويم حال الامم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شاكل ذلك ثم اذا فوض اليه أمر من تلك المصالح رأيته أبعد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر واستنكف عن المساواة واستهجن معنى العدالة وان كان يعبر عن نفسه بلفظها وسار مع أغراضه وشهواته وجعلها قانونًا يتبع ويعد كل ذلك حقا وهو في درجة وعظه الاولى لم يخجل ولم يتلعثم له لسان في النصح ودعوى معرفة الحق ولو ان أحدا عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغيبه في قبول النصح والمساواة لرأيته يتذمر ويتضجر ويود ان يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ويهدي اليه نصحاً في بعض أعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألمت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية وعدم الاكتراث بمنافع العامة ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به مدعيا أنه يميل في كل الميل الى الاتحاد والائتلاف وانما تأتي النفرة من غيره ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيته يعد هذه المطالبة أمرا كبيرا وان كانت بغاية من اللطف والانسانية والتوى من الغيظ التواء الثعبان ولو دعي الى إغاثة ملهوف أو ازالة مكروه عن بعض اخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيته يتعلل ويعتذر أو يتمنع ويستكبر ويقول: ليس هذا من خصائصي: ولو طلب الى تأسيس أمر خير يقيد الزراعة أو الصناعة أو يساعد على التربية الحقة وجدته يستصغر ذلك ويسفه آراء طالبيه ويقول ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعامة دعهم في شأنهم يرزقهم الله من غيري كان جنابه يظن ان المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل اليها يجب ان تكون له من الغير لا في مقابلة منفعة ولا جزاء لدفع مضرة بل لا بد ان ينفعه الناس وهو لا ينفعهم وما أجهل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم (ومن العجيب أنهم كثير جدا)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف ولكن اذا عرض له حق

في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلبا للوصول الى غايته وكانه يعد ذلك من قبيل الانصاف الذي يدعيه أو اضرب عن النصح والارشاد الى وقت آخر

ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم وفاسدي الادارة وسيئي التدبير ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادرا عن سواهم اما اذا كان صادرا عنهم فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة فامثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحا ولا حسنا ولا صحيحا ولا فاسدا وانما هي ألفاظ ورثوها نطقا ولم يتفهموها حق الفهم وألفوا استعمالها في مواقع مخصوصة فهم يستعملونها كما سمعوها بدون ان يعلموا لها حقيقة أو يقفوا لها على مرمى وحقيقة أمرهم أنهم جهلاء انذال عديمو الشرف الانساني حقيقة ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤم عليها وهم في رتبة الحيوانية الاولى لا يعترفون بالحقائق الثابتة بل لا يرون حسنا الا ما يصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية فاذا مضى وقتها ذهلت اذهانهم عنها ولا ينتبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا ولا يرون قبيحا الا ما يصل الى ادراكاتهم من المؤلمات الوقتية كذلك فاذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تمسهم فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة ولم ينظروا اليها نظر الاسف المستنكر فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة الى أنفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرى وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار وانما هي أهواء وهم يعبرون عنها بالالفاظ المطنطنة كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية والحقوق الوطنية وما شاكل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعاني يلوكونها بألسنتهم ومع ذلك فهم لا يسلمون من شر ما يقولون وما يفعلون فجهلهم لا محالة يعود عليهم بعاقبة بئس العاقبة

ولكننا لا نحب ذلك ونود ان يكون الفعل أكثر من القول وان يكون كل شخص من أبناء بلادنا صغيرا كان أو كبيرا مجدا في نيل الفضيلة الثابتة التي يلهج بتحسينها واجراء مقتضاها حتى تكون بذاتها شاهدا عدلا على أهلية صاحبها لما يقول وتنتشر الاعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين فتسير المصالح على صراط مستقيم

و ينال كل شخص حظه الحقيقي من ثمرات أتعابه الآتية علي وجه منتظم فيعود النفع على العامة والخاصه أما الفخفخه وكثرة اللغو فانها من أشدة العجز لاتميد ولاتبدي وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصه ان شاء الله

وكتب في العدد ١٠٣٣ الصادر في ١٠ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — ٩ فبراير سنة ١٨٨١

منتدياتنا العمومية واحاديثها

وعدنا فيما سلف بنشر ماألفناه من الاحاديث وماعكفنا عليه من الاقاويل في مجامعنا الاعتيادية ومحافلنا المتتابعة مما هو عقبات في طريق تقدمنا وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية وحواجز دون الوصول الى محجة الرشاد وانتهاج خطة السداد وان خاله الكثير منا تمدنا وزعمه السواد الاعظم من شعار الادب وعلائم الذوق والترف وقد أردنا الآن ان نتكلم على هذا الموضوع وفاء بما وعدنا فنقول

ان أحاديث الامم تدور على محور أفكارها اذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة على اختلاف أشكالها وتنوع فنونها فباختلاف صنوف البشر في المعارف والامزجة تتباين مفاوضاتها وأحاديثها وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها وان تواريخ الامم الغابرة وحوادث الملل الحاضرة لترشدنا الى ذلك باجلى بيان فهذه الامة العربية في صدر الاسلام وقبيله لما مال عنصرها الى التحبب في خلق الجرأة وحملتها شهامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح قصرت أحاديث رجالها على مايتعلق بحرب ماضية ومعركة آتية تعقد مجالسها على ذكر جياد الخيل ومحاسنها شارحة معايب الاقواس وأوتارها منتقلة الى الكلام عمن اشتهر من رجالها بالاقدام والظفر والبسالة والانتصار وقصائدهم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس وخطبهم النثرية موقوفة على مدح النزال والبراز و بقيت هكذا أحاديثهم الى ان ضعفت تلك الحواس واستعيض عنها بالميل الى الراحة

والانغماس في النعيم فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ولهجت شعراؤهم باوصاف الغزل بعد الحماس وبنعت الحاجبين والخصر بعد الاسهاب في وصفي القوس والوتر

وهذه أمة اليونان لما كانت ديارها مهد الحكمة ومطلع شموس العرفان دارت أحاديث قومها في المجامع على تحديد العلوم وتبيين مهايا الاجناس والفصول يطلب الواحد منهم منزل صديقه ليتحاور معه في كيفية إنتاج الاقيسة المنطقية مع تغاير أشكالها فيطول بينهما الحديث وهما بين مثبت وسالب ومعترض ومجيب وهذا في حال كون المجالس الاخرى غاصة بجماهير النبلاء فئة تغوص في البحث عن أمزجة المواد وعناصرها وأخرى تطلق عنان اللسان لاستكناه حركات الافلاك ومراكزها فاذا عقدوا عزائمهم على المزايلة والانصراف ودعتهم أوقات أحاديثهم شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من تقرير المسائل واماطة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات واستقبلتهم الايام بوجه باش وثغر باسم فرحة بما سيكون لها في بطون التواريخ مرسوما بمداد الثناء على صفحات الاعصار والدهور لما ستبرزه فيها أفكار هؤلاء القوم الى عالم الوجود من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة والحجج السديدة وهذا مع محافظتهم وقت المحاورة والجدال على رعاية الآداب وحرمة قوانين المباحثة وهذه أمم أوروبا تشعبت مجالسها وتنوعت مواضيعها تحمل الينا الجرائد من أخبارها مالا نكاد نصدقه لولا علمنا بوفرة معلوماتهم وكثرة مخترعاتهم فيوما نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداولة فيما يلزم اتخاذه لانشاء بنك مالي يكون مركزه في احدى الممالك الاسيوية مثلا فتطول بينهم المخابرة في ذلك ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها فمنهم من يرجح انشاءه في الاملاك الفلانية من تلك القارة محتجا بان فلاحي تلك الديار يقترضون النقود بفوائد باهظة لاحتياجهم وشدة فقرهم فتكون الثمرة أجزل والربح أوفر مما لو أنشيء هذ البنك في احدى الديار الافريقية التي أصبحت لخصب تربتها ووفرة حاصلاتها وأخذ الاموال الاميريه منها بتقسيط عادل لاتحتاج الى استقراض من مالنا بل ربما اذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من ايراداتها التي تقتدر بها على انجاز مشروعات عمومية حتى تصير بذلك معادلة لاعظم ممالك أوربا في

الثروة واليسار فيجاوبه الآخر قائلا ان الاجدر بنا أيها الشريك أن نعدل عن انشائه في أي مركز من مراكز آسيا مطلقا الى اتخاذه بديار مصر وأما ما قيل من ان تخفيف الضرائب عنها مع حسن تربتها وكثرة ايراداتها يجعلانها غنية عن الاستقراض فذلك انما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه والا فما دام على هذه الحال فانه يكون أبدا مثقلا بديوننا يقرع أبوابنا آناء الليل وأطراف النهار ولو أثمرت أرضه ذهبا وعوفي من جميع الضرائب سرمدا فانه على ما يقال رهن عند أحد البيوت فيها ما يجاوز العشرين في المائة من أطيانها تأمينا على ما أخذ منه من النقود في مدة لا تزيد عن العام كثيرا فيستحسن الحضور بيانه وتختم الجلسة بالعزم على الشروع فيما قصدوا ليدركوا من الربح مثل من سلفوا

وبينما هم كذلك ترى فئة أخرى تتروى في مد سكك حديدية في احدى الايالات المشرقية وانشاء أسلاك برقية فوق البحار وتحتها تسهيلا للمواصلات التجارية واحكاماً للعلاقات الدولية وأخرى مجتمعة لتتخير من بينها نبيلا يكون رسولا من قبلها عند رجال احدى البلاد فيعقد معها شروط التزام مصالح عديدة وأراضي فسيحة ومياه عذبة ما كانت أهل تلك الديار في حاجة الى التزامه وترى على مقربة من هذه الفئات جماهير متألبة وجماعات متضافرة يحسنون صنع الخطابة ولا يجهلون تاريخ الخليقة يقلبون العالم بين أصابعهم ويقطعون وجه البسيطة في أقل من لمح البصر وهم جلوس يتحادثون يعينون أوقات الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الامارة أو ذلك الأقليم يستطلعون الرسائل المتوالية الورود من أبناء جلدتهم المنبثين في انحاء المعمورة لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التي هم بين ظهرانيهم يذللون المصاعب ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح ونحن عن كل ذلك غافلون نواصل الليل بالنهار في اللهو واللعب بلغت منا الخرافات والهذيانات مبلغا جسيما حتى استحوذت علينا فأنستنا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة وصارت تلك الاخلاط الفاسدة كملكات للنفس يتعسر زوالها الا بذهاب الارواح والاشباح تعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمور والمسكرات يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان ويصرفون ثلثي الليل على قهاويهن

(كذا اصطلح والا فهي مواضع رجس ودنس) يشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسمة قدرًا لا تسوغه طباع الوحوش الضارية ولا الاسود الكاسرة وفي خلال ذلك يتشاقون و يتخاصمون حيث ان كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه و يعدد أوصافه و يذكر محاسنه و يشرح مزاياه من حور عيون ورقة خصور وعذوبة منطق وماشاكل ذلك و يحتج عليه بأن فلانا لا يبيت في ذلك المخدع ولا يطأ ذلك الموضع حتى يدفع عشرين أو ثلاثين جنيها وماشابه ذلك والآخر يناقضه و ينافسه و يروم اقناعه في مقام الجدل ولا يروق لهم الحديث الا اذا انتقلوا الى القذف في شرف من بينه و بينهم جامعة ديوانية أو علاقة مجاورة منزلية أولا هذه ولا تلك وانما هدتهم شهرة ذكره الى معرفته فيرمونه بالجبن وعدم الذوق لكونه نزيه النفس يأنف من سلوكهم ويرمونه بغلظ الطبع والتقشف و يسمونه (نطما) وهم في خلال ذلك يهزؤون ويسخرون و يضحكون بصوت جهوري (ولا يبكون وهم سامدون) يتبارون في ميادين البذاء واستحضار كل ماقبح وخبث من الالفاظ وهو المسمى عندهم (تنكيتا) فقسموا الالفاظ العرفية أبوابًا وفصولا ليستعملوها في هزلياتهم السخيفة حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع واذا تبارى اثنان منهم في باب منها استداما ساعة أو أكثروهما مع الحضور في خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج فمن عجز منهما قبل صاحبه أوسعوه توبيخا وصفقوا للمنتصر اعلانا بظفره وأجلسوه مكانا عليا و يسمونه المعلم الماهر وهذه فئة غير قليلة في المدن وأكثرها من أبناء الاغنياء عديمي التربية

وأما مجالس ذوي الكمالات من أهل المدن فانها ان اتفق وتجردت عن الحديث في منكر فهي لاتخلو عن حشو فانه على الاقل لا بد ان يتشرف المجلس ولو زمنا قليلا بحلول الغيبة أو النميمة المرافقتين لنا مرافقة الشخص لظله الا اذا سمحت الصدفة وكان زمن المجلس قليلا جدا لا يسع سوى التحية دون ردها وانهم لن يستطيعوا ان يبرهنوا على خلاف ذلك فاني قائل اذا لم يجلسوا مستديمين الصمت ومنصرفين كذلك فبماذا ينطقون هل ينطقون بعلم شرعي وقد جهلوه أو تجاهلوه أم بعلم صناعي وقد عادوه أم فن طبي وقد تناسوه أم حديث عن منفعة عمومية

وقد أغفلوها أم استفسار عن حوادث سياسية وقد زعموا* الاشتغال بها عبثا فاذا لا سبيل الا الاشتغال بالعابهم المعتادة كالشطرنج والنرد (الطاولة) وغيرهما من أصناف الملاعب وانها دون ريب لتحملهم الى أسوأ ممـا فروا منه كما هو مشاهد نعم يوجد بيننا بعض الاذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة ولكن فضلا عن كونهم نزرا يسيرا فان أعمالهم غير منطبقة على مايقولون لكونها جملا حفظوها من غير ان يعقلوا لها معنى أو لكونها أمورا اجمالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها هذه هي المجالس المنزلية

وأما المجالس التي تعقد على قهاوي الشعراء أو الحشاشين المخرفين فلا نستطيع تفاصيل ما فيها من العجائب والاحاديث الجنونية لكثرتها وتشعب مسالكها سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين أو خرافات المعاتيه والمجانين كما اننا نكتفي في الكلام على منتديات الارياف بانها وان قيل فيها مايتعلق بالزراعة ومصالحها ولكن لا تخلو من كلمات تدل على تمكن الحسد والحقد في أفئدتهم وان العداوة والبغضاء راسختان في ضمائرهم بحيث يعسر زوالهما وهذا مع مساواة غالبهم لاهل المدن في البغي والفجور وان بعض عمد البلاد أسوأ حالا وأقبح عمـلا من أهل المدن كما هو معروف

فهذه أحاديثنا في مجالسـنا وتلك أقاويل غيرنا في مجامعهم سرورنا لذوي النقد والبصيرة معرضين عن كثير مما نتفوه به وقت اجتماعنا ولعلنا نذكره وقتا ما اذا رأينا لهذه البزرة أوراقا يانعة وثمارا طيبة فيقوى فينا ضعيف الامل ويحيي ميت الرجاء ونشمر عن ساعد الاجتهاد ونطلق لسان العظـة داعين الى طرق النجاح وأنا لنخشي ان تقابل هذه الجملة بمثل ما قوبلت به اخواتها من قبل كأن يقول زيد ما كتبت هذه الجملة الا للتنديد على أقوالي ويظن مثله عمرو فيصرفونها عما وضعت لاجله من خالص النصـح ومحض الارشاد من غير ان تناط بشـخص مخصوص أو فئة معينة فالملحوظ فيها كسابقاتها الخلق من حيث تعلقه بالافراد أيا كانت كما هو الشأن في جميع المواعظ والنصائح العمومية لا المرء المخصوص المتصف بتلك الاخلاق حتى تكون تنديدا وطعنا فعسى ان لا نسمع بعد بمثل تلك التصورات

من أحد من الناس و يعلموا ان ما كتب وسيكتب. صادر عن نفوس تسعى في تهذيب الاخلاق ما استطاعت ويسرها ان ترى أبناء الديار رافلة في حلل من الكمالات متحلية بالعزة والفخار حقق الله آمالنا وختم لنا بحسن مآلنا

وكتب في العدد ١٠٥٥ الصادر في ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ — ٧ مارس سنة ١٨٨١

حاجة الانسان الى الزواج

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية ان نتكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن فالآن نوفي بما وعدنا بادئين بتمهيد نتبعه بالمقصود فنقول

لما كان من لوازم حفظ النوع الانساني المعرض للفناء والزوال التناسل والتوالد أودع الحق سبحانه في طبيعة الانسان قوة شهوية تدعوه الى الاقتران وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير ان الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة يستحضر بها ماشهده في الماضي فيطلبه ان كان لذيذا استحصالا لمجرد اللذة وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل مايروم جلبه لنفسه من ان تمسه يد الغير و يدافع عنه ما استطاع كل من حاول مشاركته فيه ثم ان هذا التمييز العقلي دعاه لان يطلب من الازواج ماهو أبهى في المنظر وأنعم في الملمس وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك فلا يسمح لاحد بمقتضى الحرص الذي نسميه غيرة ان يشاركه فيه ويدفع ذلك بكل ما يمكنه حتى القتل والجرح وهذا بخلاف باقي الحيوانات فانها وان كان يغار ذكرها على أنثاها وقت طلبه لها لكنها لحيظات وتنقضي فاذا سافدها انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة والانسان لفكره ليس كذلك بل يلازم الحرص في جميع أحواله خوفا على المستقبل

ومن المعلوم ان تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الافراد البشرية فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال وسلم من الآفات حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به ويدافع الغير عنه لما قدمناه من

الاسباب وزد على ذلك ان الانسان في حاجة الى التعاون بالضرورة وهو في فطرته لا ينظر الى التعاون بجميع أفراد الانسان فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص فلو ترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ويكفل سلامة نتيجتها لاختل عقد نظام الانسان وفسدت أركان سعادته ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء وذلك من وجوه (الاول) ان النسوة اذا أبيحت لكل ذكر من الرجال وأبيح لكل أنثى ان تقترن بكل زوج في أي وقت لاشتعلت نار الغيرة في أفئدة كل واحد من البشر وسارع كل الى مدافعة من يروم الاشتراك معه ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات (الثاني) ان المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ودرء المكروهات عن ذاتها خصوصا في أزمنة الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع ومالم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى في القيام بحاجاتها والمدافعة عن حقوقها فتضيع وتضيع ذريتها (الثالث) وهو أعم من هذا ان الرجل لا يخاطر بنفسه في تحمل الاتعاب واقتحام الشدائد طلبا للحصول على وسائل المعيشة الا اذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه في أمور معيشتهم ونوال مآربهم يؤدي اليهم مااستطاع من الرزق وقت قدرته مؤملا فيهم أنه اذا وهنت قواه بعد عنايته بتربيتهم اذا كبروا يعوضون عليه اتعابه السالفة وتسيئهم مصيبته ويفرحون بثروته وسعادته بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به وتعد نسبته اليها كنسبة الجسد للروح لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته فان ادخار العيش الذي هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والابناء وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العاني فهو يجتهد للايجاد وهم يهتمون بحفظ الموجود وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الانساب وجهلت الاصول بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعي في تربية ولد فيستأصل الموت افراد النوع في أوائل أعمارهم .

فظهر من ذلك ان سعادة الانسان في معيشته بل صيانة وجوده في هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ويضرب لها حدودا يقف كل شخص عندها وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة فيمتنع التعدي ثم

يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته وكل زوجة و بعلها فيسمى كل لخير من اختص به حيث ان سعيه لكل البشر غير ممكن بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشري وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الامر وان اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الامم لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والاعصار ولم تبح للرجل أية امرأة يريدها الا اذا كانت خالية عن الازواج ونيقن فراغها من الحمل وخلوها عن جميع الموانع التي تخل بهذا الاختصاص وطلب العقد عليها والاجابة منها أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من الناس تذيع هذا الامر لتنكف الناس عن ارادتها اذا علموا أنها خصت برجل يقوم بحاجاتها و يدرأ عنها أي مكروه وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة ونهت عن ارتكاب أي أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي الذي لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها وحسن الاقتصاد في المعيشة وان ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخصوصية و بعبارة أظهر ليس عنده أمر يعد مصلحة الا اذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم و ينقلها من خطة الشقاء الى درجات السعادة والهناء

فتبين من ذلك ان الشهوة الحيوية المغروسة في الانسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الانسان مآربه التي لا يستطيع المقام بدونها كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقرابة الذي يعد من أقوى الروابط الانسانية التى لولاها لاختل نظام الوجود الانساني بالمرة كما هو ظاهر ولما كان التعاون على المصالح المعاشية والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج لم يبح الاجماع ان يقترن الرجل باخته أو عمته أو ابنته لانه يضيق تلك الفوائد و يقلل من الثمرات فضلا عن كونه في نظر الاطباء يوجب العقم وانقطاع النسل فلذلك أوجبت الشريعة ان يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة بل لا بد ان يقع الاقتران من بيتين ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل وتتجاذب صلات

المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة وتجعلها متجهة الى كعبة الاتحاد والائتلاف فتستريح الناس من ألم الشقاق ووخامة البغض والعناء أما العائلة الواحدة فيكفي في ارتباطها العلاقة النسبية

هذا ما أتت به الشرائع ونطقت به علماء الدين وأوضحته العقلاء في حكمة الزواج والاقتران بقطع النظر عن كونه بواحدة أو متعددة اقتصرنا عليه الآن وسنشفعه في صحيفة غد ببيان ماجاءت به شريعتنا من اباحة الزواج باربع من النسوة وجواز مفارقتهن بالطلاق مع بيان ما كان عليه السلف الصالح فى معاشرة زوجاتهم ومانحن عليه الآن من سوء معاشرتهن وعدم العدل بينهن وحصول ضد المقصود اذ يكون الزواج موجبا للعداوات وتفريق الشمل بدلا عن المحبة وجمع الكلمة كما أوجبته الشريعة وليس لناغرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم .

وكتب فى العدد ١٠٥٦ الصادر فى ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

حكم الشريعة في تعدد الزوجات

قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة ان علم من نفسه القدرة على العدل بينهن والا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالى (فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) فان الرجل اذا لم يستطع اعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة اذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد كان يستقضيها حاجة فى يوم الاخرى امتعضت تلك الاخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه الى من لاحق لها وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن فكان صلى الله عليه وسلم

وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة احدى الزوجات في نوبة الاخرى الا باذنها

من ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ولم يرض بالاقامة فى بيت احداهن خاصة فلما كان عند احدى نسائه سأل في أي بيت أكون غدا فعلم نساؤه انه يسأل عن نوبة عائشة فأذنّ له فى المقام عندها مدة المرض فقال «هل رضيتن» فقلن نعم فلم يقم في بيت عائشة حتى علم رضاهن . وهذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى ينطبق على نصائحه ووصاياه فقد روي فى الصحيح ان آخر ماأوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه وخفي كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لاتكلفوهم مالا يطيقون الله الله فى النساء فانهن عوان في أيديكم — أي أسراء — أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» وقال «من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الاخرى — وفى رواية ولم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا (أي العدل في المبات والعطاء) جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك » (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهن اذا أراد سفرا

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيتوتة باجماع الأئمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوفه على نسائه وقالوا لايجوز للزوج الدخول عند احدى زوجاته في نوبة الاخرى الا لضرورة مبيحة غايته يجوز له أن يسلم عليها من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول . وصرحت كتب اللغة بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه ان يبيت بحجرتها ولا يذهب الى ضرتها الا لمانع برد ونحوه . وقال علماء الحنفية انظاهر آية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ان العدل فرض في البيتوتة وفي الملبوس والمأكول والصحبة لا في المجامعة لا فرق في ذلك بين فحل وعنّين ومجبوب ومريض وصحيح . وقالوا

ان العدل من حقوق الزوجية فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعا اذ لا تفاوت بينها وقالوا اذا لم يعدل ورفع الى القاضي وجب نهيه وزجره فان عاد عزّر بالضرب لا بالحبس وما ذلك الا محافظة على المقصد الاصلي من الزواج وهو التعاون في المعيشة وحسن السلوك فيها

أفبعد الوعيد الشرعي وذاك الإلزام الدقيق الحتمي الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف فإنا نرى انه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الاخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها واتقانها وتحلف بالله انها لصادقة فيما افترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها أخلصت له النصح لفرط ميله اليها ويوسع الأخريات ضربا مبرحا وسبا فظيعا ويسومهن طردا ونهرا من غير أن يتبين فيما ألقي اليه اذ لا هداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل وفضلا عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائما يتوقعن منه الطلاق إما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج. وأيا ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهن تزرع كل واحدة في ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لاخوته أولاد النسوة الأخريات فانها دائما تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له وجوه الامتياز. فكل ذلك وما شابهه ان ألقي الى الولد حال الطفولية يفعل في نفسه فعلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله فيبقى نفورا من أخيه عدوا له (لا نصيرا

وظهيرا له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الأخ)

وان تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يعقل مالفظ ان كان خيرا أو شرا لكونه صغيرا انتصب سوق العراك بين والدتيهما وأوسعت كل واحدة الاخرى بما في وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب (وان كن من المخدرات فى بيوت المعتبرين) كما هو مشاهد في كثير من الجهات خصوصا الريفية واذا دخل الزوج عليهن في هذه الحالة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن بحسن القول ولين الجانب اذ لايسمعن له أمرا ولا يرهبهن منه وعيد لكثرة ما وقع بينه و بينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هـذه الاسباب أو غيرها التي أفضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحمق الطبع فتقوده تلك الاسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعا أوطلاق من هي عنده أقـل منزلة في الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فتخرج من المنزل سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الاطفال عـديدا فتأوي بهم الى منزل أبيها ان كان ثم لايمضي عليها بضعة أشهر عنده الا سئمها فلا تجد بداً من رد الاولاد الى أبيهم وان علمت ان زوجته الحالية تعاملهم بأسوإ مما عوملوا به من عشيرة أبيها ولا تسل عن أم الاولاد اذا طلقت وليس لهـا من تأوي اليه فان شرح ماتعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس بحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتقريع يئنون من الجوع و يبكون من ألم المعاملة

ولا يقال ان ذلك غـير واقع فان الشريعة الغـراء كلفت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسـن تربيتهم وعلي من يقوم مقامها في الحضانة ان خرجت من عـدتها وتزوجت : فان الزوج وان كلفته الشريعـة بذلك لـكن لايرضخ لأحكامها في مثـل هـذا الامر الذي يكلفه نفقات كبيرة الا مكرهاً مجبورا والمرأة لاتستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعي إما لبعـد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيها لايملكون شيئاً مدة أسبوع أوأسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج وربما آبت اليهم حاملة صكاً بالتزامه بالدفع لهـا كل شهر ما أوجبه القاضي عليه من النفقة من غير ان تقبض منه مايسد الرمق

أو يذهب بالعوز ويرجع الزوج مصرًّا على عدم الوفاء بما وعد لكونه متحققاً من ان المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية أو حياء من شكاية الزوج فان كثيرا من أهل الارياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيباً فظيعاً فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلباً لما تقيم به بنيتها هي وبنوها على الشكاية التي توجب لها العار وربما لم تأت بالثمرة المقصودة. وغير خفي ان ارتكاب المرأة الأيم لهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التي أقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فسادا وفي طباعها قبحاً مما يذهب بكمالها ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الامور الى أن تبقى أيماً مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل وان خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق فلا يكون في الغالب الا أقل منزلة وأصغر قدرا من بعلها السابق أو كهلا قلّت رغبة النساء فيه ويمكث زمناً طويلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء ان فعل ذلك كأن مطلقها يريد أن تبقى أيماً الى الممات رغبة في نكالها وإساءتها ان طلقها كارهاً لها أما اذا كان طلاقها ناشئاً عن حماقة الرجل لإكثاره من الحلف به عند أدنى الاسباب وأضعف المقتضيات كما هو كثير الوقوع الآن اشتد حنقه وغيرته عليها وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكأني بمن يقولون ان هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة الناس وأدنيائهم وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئا من ذلك فانهم ينفقون مالاً لبداً على مطلقاتهم وأولادهم منها وعلى نسوتهم العديدات في بيوتهم فلا ضير عليهم في الاكثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا أرادوا بل هو الأجمل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الامم يوم القيامة » وأما ما يقع من سفلة الناس فلا يصح ان يجعل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من

الأمة خصوصاً وآية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) لم تنسخ بالاجماع فاذاً يلزم العمل بمدلولها ما دام الكتاب

نقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهن فتربى أولادهم عند أقوام غير عشيرتهم لا يعتنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم وكثير مارأينا الآباء يطردون أبناءهم وهم كبار مرضاة لنسائهم الجديدات ويسيئون الى النساء بما لا يستطاع حتى انه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا ارادة الاضرار بالاولى وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات لا يمكننا الا ان نقول كما هو الواقع ان انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية من القسم في المبيت ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعاً على الرجل لزوجاته فهذه النفقة تستوي مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لا تمايز بينهم وبين الفقراء فى أن كلا قد ارتكب ماحرمته الشرائع ونهت عنه نهيا شديدا خصوصا وان مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء كما هو الغالب فان المرأة قد تبقى فى بيت الغني سنة أو سنتين بل ثلاثا بل خمسا بل عشرا لا يقربها الزوج خشية ان تغضب عليه (من يميل اليها ميلا شديداً) وهي مع ذلك لا تستطيع ان تطلب منه ان يطلقها لخوفها على نفسها من بأسه فتضطر الى فعل ما لا يليق وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم بل وابيهم أيضا موجودة عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء ولا تصح المكابرة في انكار هذا الامر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي وتطاير شره فى اكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار المشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من أغنياء وفقراء فى حالة التزوج بالمتعددات كأنهم لم يفهموا حكمة الله فى مشروعيته بل اتخذوه طريقا لصرف الشهوة واستحصال اللذة لاغير وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على

العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان خفتم(١) وإما ان يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الاولاد وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدي بهن الى الاعمال الغير اللائقة ولا يحملونهن على الاضرار بهم و بأولادهم ولا يطلقونهن الا لداع ومقتض شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله و يوقرون شريعة العدل و يحافظون على حرمات النساء وحقوقهن و يعاشرونهن بالمعروف و يفارقونهن عند الحاجة فهؤلاء الافاضل الاتقياء لالوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعاً وهم وان كانوا عددا قليلا في كل بلد وأقليم لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم الثناء العميم والشكر الجزيل وتقربهم من الله العادل العزيز

وكتب في العدد ١٠٧٩ الصادر في ٥ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ — ٤ أبريل سنة ١٨٨١

خطأ العقلاء

ان كثيرا من ذوي القرائح الجيدة اذا أكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة أخبار الامم وأحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم أفكار جليلة وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة تندفع الى قول الحق وطلب الغاية التي ينبغي ان يكون العالم عليها ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والاخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ماعلموه هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم والالفاظ من أسماعهم فيطلبون من الناس طلباً حاثا ان يكونوا على مشاربهم و يرغبون ان يكون نظام الامة وناموسها العام على طبق أفكارهم وان كانت الامة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين و يظنون ان أفكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ووضعت أصولا

---

(١) جملة وأما آية الخ معترضة بين التقسيم والآية واحدة

وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة وتتبدل العادات وتتحول الاخلاق وليس بين غاية النقص والكمال الا ان ينادى على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وإنهم وان كانوا أصابوا طرفا من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعاث الغيرة لكنهم أخطأوا خطأ عظيما من حيث انهم لم يقارنوا بين ماحصلوه و بين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها ولم يختبروا قابلية الاذهان واستعدادات الطباع للانقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب وتبينوا كيفية انتقال الامم من بداياتها الى نهاياتها لعلموا ان الامم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية وليست الامة مثلا الا مجموع أفرادها وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد الا مجموع أحوال هاته الافراد

فعلى من يريد كمال امة بتمامها ان يقيس ذلك بكمال كل فرد منها و يسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع ان يودع في عقل الطفل الرضيع أو الصبي قبل رشده وقبل ان يتعلم شيئا من مبادي العلوم تلك الافكار العالية التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا بل لو أراد ان يجعل شخصا من الاشخاص على مثل فكره احتاج الى ان يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ثم مبادي الفنون السهلة التحصيل ثم يتدرج به شيئا فشيئا حتى ينتهي بعد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ثم هو في خلال ذلك محتاج الى ان يحصر أعماله و يقيدها بقيود من الترغيب والترهيب وان يراقب حركاته في أعماله خوفا من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار أو المائلين الى الكسالة والبطالة أو ورود موارد الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التي لا بد منها فان اختل شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الإصعب على الاسهل مثلا

أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله اختلت التربية وذهبت الاتعاب سدى واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو انه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرحولية هل يمكنه ان يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه كلا ان الذي تمكن في العقل أزمانا لا يفارقه الا في أزمان فلا بد لصاحب الفكر ان يجتهد اولا فى ازالة الشبه التي تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته وذلك لا يكون في آن واحد ولا بعبارة واحدة ولكن بعبارات مختلفة في التقريب بعضها سهل المأخذ قريب المنال والبعض أرقى منه و بعضها خطابي والآخر برهاني وما شابه ذلك فان لم يتخذ تلك الوسائل فى ارشاده امتنع عليه مقصوده بل ربما جرّه نصحه الى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد ثم ان نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد موقوف على ان صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يعاشر ولا يخالط في خلال تعلمه الا مرشده صاحب الفكر السليم فان كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الاول طال الزمن وربما لم ينجع فيه الارشاد وأظن (أن) هذا يعترف به كل من مارس الاخلاق والعادات

ان كان هذا حال شخص واحد اذا أردنا اصلاح شأنه في صغره أو كبره مع انه يسهل ضبط أعماله وأحواله والوقوف على كنه أوصافه ودرجات تقدمه فى المقصود وتأخره فيه فما ظنك بحال أمة من الامم تختلف عناصرها وتتباين شعوبها فمن الخطأ بل من الجهالة ان تكلف الامة بالسير على ما لا تعرف له حقيقة أو يطلب منها ماهو بعيد عن مداركها بالكلية كما انه لا يليق ان يطلب من الشخص الواحد ما لا يعقله أو ما لا يجد اليه سبيلا

وانما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج حتى لا يمضي زمن طويل الا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة الى ماهو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون أما اذا وضع لهم من الحدود مالم يصلوا الى كنهه أو كلفوا من العمل مالم يعهدوه أو خولوا من السلطة مالم

يعوده رأيتهم يتخبطون في السير لخفاء المقصود عنهم وضلال الرأي فيما لم يكن يمرّ على خواطرهم فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن الى ما هو أتعس منها بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها والحرية التامة في الانتخابات العمومية في روساء جمهورياتها وأعضاء نوابها ومجالسها وما شاكل ذلك ونعرف مقدار السعادة التي نالها الاهالي من تلك الحالة ونعلم ان هذه السعادة انما أتت لهم من كون أفراد الامة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم لانهم أرباب الانتخاب وانما روساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لانفسهم وتتشوق النفوس الحرة ان تكون على مثل هذه الحالة الجليلة لكننا لانستحسن ان تكون تلك الحالة بعينها لافغانستان مثلا حال كونها على مانعهد من الخشونة فانه لو فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لايرى سواها فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أونسيبا أوقريبا فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ثم لاينتهي الانتخاب الى المرغوب أصلا لوقوف كل واحد عند انتخابه الاول ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخبت كل قبيلة رئيسا منها ثم يقع الهرج بين الروساء وهكذا حال الامم التي تعودت على ان يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدبر أعمالها بدون ان يكون لها دخل في روية مصالحها لايمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة والا فسدت فاذا أردنا ابلاغ الافغان مثلا الى درجة أمريكا فلا بد من قرون تبث فيها العلوم وتهذب العقول وتذلل الشهوات الخصوصية وتوسع الافكار الكلية حتى ينشأ في البلاد مايسمى بالرأي العمومي فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لامريكا

وياعجبا هل الشخص الذي توارث العوائد عن آبائه وأجداده ومرن عليها من مهده الى كهولته وتعود تفويض مصلحته الى ارادة غيره يصح ان يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ويلقي اليه زمام مصلحته وهو في جميع عمره لم

يفكر فيها ان هذا لخطأ ظاهر

ولكون أرباب الافكار منا يرومون ان تكون بلادنا وهي هي كبلاد أوربا وهي هي لا ينجعون فى مقاصدهم ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ورجع الامر الى أسوأ مما كان فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم امكان أن يكونوا على أحسن منه فمن يريد خير البلاد فلا يسعى الا في اتقان التربية وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه ان كان طالباً حقاً بدون اتعاب فكر ولا إجهاد نفس وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

وكتب فى العدد ١٨٢

كلام في خطأ العقلاء

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس فى أزمنة مختلفة تظاهر كل منهم بانه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التي عليها أبناء الامم المتمدنة وجعلوا الوسيلة الى ذلك ان تنقل عادات أولئك الامم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم وأخذنا الآن بافكارهم اليومية وتشبهنا بهم في الاطوار كاف في أن نكون مثلهم وان استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الافكار أمر غير عسير

لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الامم الى هذه الحال التي هم عليها حتى يعتدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن ان تكون بداية مع ان ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا اليه الا بعد معاناة أتعاب ومقاساة مشاق وسفك دماء شريفة وثل عروش ملك رفيعة وكانوا في كل ذلك يقربون من المقصود تارة ويبعدون عنه أخرى كما يرشدنا اليه تاريخهم حتى بدلت الحوادث الدهرية طبائع الاهالي وغيرت

أخلاقهم ونبهت الضرورات أفكارهم وهذبت المخالطات الجهادية والتجارية عقولهم .
ان بداية التقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الاهالي وأفراد الرعايا علمتهم الحروب الصليبية سبر البر والبحر وخالطوا فيها الامم الشرقية أجيالا وطمحت أنظارهم لمغالبتهم فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم اذ ذاك) وبحثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة وفيما بينهم أفكار سامية ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية ولذلك كان الغنى والعز مستوكرا أقطارهم فاخذ أهالي أوربا عند ذلك في تقليدهم لكن لا في البهارج والزخارف بل في أسبابها والموصلات اليها وهي توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب فكان ذلك أساساً للعمل وقر في النفوس وثبت في العقول وبنوا عليه ماشاءوا ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الاوربي لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد وهو احساس نفوس الاهالي بالآلام صعبة الاحتمال من ظلم الاشراف (النبلاء) وغدر الملوك وضيق وجوه الاكتساب ونفرة دينية على المسلمين الذين استولوا على حرمهم المقدس وهذا الاحساس هو الذي دعا الانفس الكثيرة العدد الى الخروج من هذه الآلام فطلبوا لذلك أسباباً متنوعة أقواها التعاضد والتعاون على ترويج وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات وتتألف له الجمعيات فكان جرثومة تقدمهم أمرا منبثاً في غالب الافراد ومحرزا في أغلب العقول وهو نشاط الاهالي في اجتلاب الثروة وطلبهم لحرية العمل لينالوها ورفضهم لتلك التقيدات التي كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ثم تدرجوا فيه ينتقلون من حال الى حال والاصل ثابت لا يتغير حتى عم التغير جميع العوائد والمشارب والقوانين ولم يكن ذلك كله الا من حرص الاهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم و يتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبناؤهم من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والأهالي على غير علم منها بانفسهم فاستلفتهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختيارا

أو ألجأتهم اليه اضطرارا . وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد وطبقاتها اشخاص مختلفون في الافكار والاحوال الى تلك البلاد المتمدنة ويشهدوا عاداتها وأحوالها ويهتم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء اهتمام المضطر الذي يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه بل جلبوا اليهم كثيرا من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية وترى عليهم آثار النعمة يتكلمون بما لا يفهم ويتفكرون فيما لا يعقل فشادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة وجلبوا الينا من مصنوعاتهم ما راق منظره وطاب مخبره لكننا لم نشهد مصنعه ولم ندر منبعه ورأيناهم يتزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن وتشرح الخواطر ويتنافسون فيها فاعجبتنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا مثلهم والحقوا بهم في هذه السعادة ثم صاروا أئمة لنا في العمل فاخذنا نتشبه بهم لكن فيما رأيناه وهو الزينة والبهرجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا ومن ذلك ترى أفكار الغالب منا دائما عند ما يجد فرصة الاقتدار موجهة الى تشييد الابنية وتجويد وضعها واتقان ترتيبها وتزيين بواطنها وظواهرها والتوسع في لوازم المآكل والمشارب وآلاتها وأوانيها والتفنن فيها وجلب ماهو أغلى ثمنا وأدخل في النظر وأجلب للأنس والتأنق في الملابس ومحاذاة الاوربيين فيها ومحاولة ان تكون على النمط الاعلا عندهم وعلى هذا النحو تفننا في أنواع المفروشات وتأنقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلا ثمنه وارتفعت عن الطاقة قيمه وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد وتملك الحصون وبالجملة فقد سلكنا مسالك المتمدنين في ثمرات تمدنهم التي جملوها من زوائدهم فاسرفنا في الانفاق وصار الناظر لملابسنا ومساكننا والذائق لمطاعمنا ومشاربنا يشهد باننا في ذلك بحمد الله متمدنون فقد اشتركنا معهم في ثمرات التمدن أي ما ينتهي اليه حال المتمدن من طلبه للتمتع باللذائذ وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الامر علم ان مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت ان الاوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت ان تبيض مثلها فأجهدت نفسها في ان يكون ذلك غير عارفة ان ذلك لا يكون الا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فحبست

نفسـها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشق منها ماانشق وتمزق منها ما تمزق فان افراطنا في تقليد الاوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الاغنياء منا فعلا غريبا صرف نظرهم الى اللذائذ واستكمال لوازم الترف والنعيم وأحدث في نفوسـهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل الى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة المستتبعة للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هـذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجوه اللذائذ والآلام والتنشط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الامنة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الامم المتمدنة فصح ان يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع أنهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب اللذات مفتحة قبل ان يجدوا عقلا يقدر لهم مايلزم منها ومالا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك العوائد الترفهية الى بلادنا وطلب التحلي بها بدون ان نحوز ما يوصلنا اليها من أنفسـنا وليتنا قبل ان نشـيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاثات أبقيناها على بساطتها وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا تمتد اليها الايدي وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ علينا ماوجدنا وتجذب الينا مافقدنا وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ورفق بالملهوفين وغيرة على البلاد وأنفة عن الصغار

لعمر الله لو قدمنا هذه الزينة الجوهرية عـلى ذلك الرونق الصوري لـكان العالم بأسره ينظر الينا نظر الراهب الخائف أو يرمقنا بلحظ المعظم المبجل وكانت معيشتنا البسيطة أوقع في نفسه من معيشته الرفيعة وكان ذلك سهلا لو ان الزاعمين فينا حب الترقي والتقدم ساروا بنا من البدايات وحجبونا عن النهايات حتى لا نراها الا من أنفسنا فنطلبها لا لانها أعجبت النظر ولـكن لانها بنت الفكر ونتيجته وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين في أصول أعمالهم لافي زوائدها فـكنا بذلك نصل الى

ماوصلوا اليه في زمن أقل بكثير من الزمن الذي نالوا فيه ما نالوا لكن فات الوقت ونحن الآن فيه فعلينا بالعمل غير مقتصرين على مجرد الامل

وكتب في العدد ١٠٩٢ الصادر في ١٩ ابريل سنة ١٨٨١

كلام في خطأ العقلاء

لسنا ننكر ان بلادنا كانت في الازمان السابقة تحت تصرف أقوام خشنين لا يعلمون للخلقة غاية الا وجودهم الشريف وكانوا يعدون افراد الاهالي انما خلقت لهم يستعملونها كيفما يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الامم غربية وشرقية) فارغموا أنف الطبيعة ومحوا أنوار الالهام الفطري الذي وضعه الله في نفوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سدا حصينا بين كل شخص ومنافعه فاستأثروا بجميع ثمرات الاعمال فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني ثمرة عمله فانه عند ما تبدو الثمرة يسرع حاكمه الى قطفها وكانت حياته معقودة بغضب ذلك الحاكم ورضاه فان رضي عنه فهو في أمن عليها وان غضب عليه فهو ان عاش كمريض بلغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لقضاء حاكمه) وبالجملة لم يكن لاحد من الاهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم وكان يعتقد أنه وماملكت يداه حل للآمر عليه وليس لتصرف ذلك الآمر حد يجب ان ينتهي اليه وهذه حالة يصعد بها تاريخ هذه البلاد اجيالا كثيرة اذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لا نصل وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فنيت الارادة ومات الاختيار وطفيء نور الفكر بالمرة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون الحجر على أهالي المدن وغيرها في الاعمال والاقوال الشخصية حتى كانوا من شدة التضييق يستعملون طريقة يقال لها الكبسة وهو ان يهجم رجال الضابطة على بعض

الاماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجماع على فسق كفحش بالنساء أو شرب للمسكرات وماشا كل هذا فان وجدوا شيأ من ذلك ساقوا من يجدونه الى حيث يستوفي عقاباً أليما وكذلك وضعوا في الافواه لجاماً من الرهبة فلا يكاد ينطق الناطق بكلمة في مطلب علمي أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقة أو طعن في حاكم وله عند ذلك الويل الذي لا مخلص منه كل ذلك سمعنا بعضه بالنقل ورأينا بعضه الآخر بالعيان

فتلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا ان ينتحلوا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها فرزق الله هذه البلاد بأناس خالطوا الامم المتمدنة وطالعوا أحوالها ورأوا ماعليه أهلوها من اطلاق الارادة وحرية الاختيار فطلبوا لبلادنا ان تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة لكنهم أول مابدأوا به ان أباحوا (ماأقبحها من اباحة) لكل شخص ان يعمل فيما يخص نفسه بارادته ويتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره وشرطوا في ذلك شرطاً (ماأنفسه من شرط) وهو ان تكون تلك الاعمال والاقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه فان كانت كذلك فدونها ضرب الرقاب أو سكن الحبوس أو الجلاء عن الاوطان وسموا تلك الاباحة حرية ونادوا بها على الالسنة الظالمة فكان حاصل تلك الحرية ان لاجناح على من ارتكب أي جريمة وتطبع باي خلق حسنا كان أو سيئا وذهب الى أي مذهب صحيحاً كان أو فاسدا وانما عليه ان يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوباً أو يستقضى منه مسلوباً أيا كان فلم يجعلوا للسلطة حدا معينا وهو الذي نسميه بالقانون الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده بل أبقوها على ما كانت عليه وجعلوا تلك الحرية غطاء على هذا الاستعباد فهم في الحقيقة لم يقلدوا الامم المتمدنة في اطلاق الارادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة فهذا خطأ من وجه ان كان لهم مقصد إصلاح وظلم ان كانوا متعمدين هذا التقييد ثم انهم قلدوها في الاحوال الجزئية الشخصية مع علمهم ان البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات وهتكوا حرمة الوقار وتهالكوا على شرب المسكرات في

بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه الاوربيون في بلادهم الباردة وكثرت لذلك الحانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والابدان ثم تولعوا بما يتبع السكر من اللهو واللعب وتنافسوا في الحظوة عند النساء الباغيات واتسع الامر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال في الطرق والشوارع وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فذهب الكثير منهن الى حيث يبتغين وافتضحت بذلك بيوت شريفة وكلما طلبت لذلك منعاً أو رمت له دفعاً قال المولع هذه حرية فضاع شأن الآداب وانحطت قيمة الشرف والوقار حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الاحوال الرديئة ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) ويصرفون فيها مالا يقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعاً خاصاً) وكاد فساد الاخلاق يسري الى كثير من طبقات الاهالي هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات والمشارب الدينية فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه فان قيل له خفض من صوتك واجمل في قولك فما كل الناس برضاه قال اننا في زمان الحرية على ان أفكاره التي يذهب اليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادي ربما يقال انه اتخذها مشرباً بل ألفاظ حفظها من معاشريه لو سئل عن معناها أو طلب منه أي وهم ساقه اليها لعجز عن التعبير والتجأ الى التهوس ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة حيث لم يوافقه على مشربه الفاسد ثم يتخذ هذه الخزعبلات الاعتقادية التي يظنها تنوراً وتبصراً ذريعة لاستباحة القبائح واستحلال المحظورات ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعياذ بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ومنهم من ينكر النبوات ويعتقد بالشياطين وماأشبه ذلك فهؤلاء من الجهل بمكان لا يعلوهم فيه حيوان فضلا عن انسان

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثرا يحمد وان كان الأوربايون يحرصون عليها فان استعداد بلادنا لم يكن ملائما لمثل هذا الاطلاق الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد فان الجاهل الذي لم يتعود على

تصريف ارادته واعمال اختياره اذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية نعم انه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء ولكن شهواته الخبيثة تبيعه بأبخس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل وجميع أنواع الشرور وتودعه سجن الفقر وتغله بطوق الذل والعار وياليته بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الانفس والاموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية فيكون لكل شخص زاجر من نفسه فترتفع الكبسة بذاتها ويذهب الناس أحرارا بطبعهم وما كان ذلك بعسير ولا محتاج الى زمن طويل وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها

فتلك الحرية التي سموها اطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل وأسلمته الى الجهل الأعمى فهو يتصرف به كيف مايقتضي من المضرات ولو أنه بقي تحت سيادة العقل يسوسه المهذبون ويقوده المتبصرون حتى يعلم من أين تؤتى الافكار وبأي الوسائل يوفي العقل حظوظه الحقيقية لكان ذلك خيرا وأبقى ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شناعات المتعصبين وتعيين دائرة منتظمة يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول فتضرب لنفسها حداً تقف عنده ولكننا طلبنا ان نكون على مثال الاوربيين في عوائدهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

وياليت العقلاء منا في الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتمدنة في الازمان السابقة عند إرادتهم تأييد الاستقلال حقيقة حيث بدأوا بالمجالس البلدية فكان يمكنهم ان يصنعوا لأهل البلاد قانوناً بسيطاً ينطبق على عوائدهم وأحوالهم ويقرب فهمه من ادراكاتهم ثم يفوض الى أهل كل بلد ان تنتخب منها عدداً معيناً ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ويذهب اشخاص من العارفين الى القرى والمدن ليفهموا أولئك مواد القانون السهل البسيط ويدربوهم على كيفية العمل به ثم لايزالوا على المراقبة ازمانا فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الاهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم فتنمو فيهم القوة

وتحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد ايطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولا مع تفهيمه وتعليمه لجمهور الاهالي ليعلموه فيقفوا عند حده

وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لا يفهمها الا الراسخون في العلم وهي محفوظة بين دفات الكتب وصدور بعض من النبهاء لكن الاهالي أنفسهم الذين قد وضعت هذه القوانين لهم غير عالمين بها فكيف يطالب منهم ان يعملوا بمقتضاها ان هذا لشيء عجاب غير ان العقلاء منا يقولون لا بد ان نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغماً عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لاحكام بقعتنا وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذي نشأنا فيه ولن يكون ذلك أبدا

واننا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الاعمى واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة ان تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا وان يكون انتقالنا عنها (لو انتقلنا) على وجه تقليدي أيضا فلا يفيد لكن الوقت لم يفت بعد فعلى من يريد بنا خيرا ان يذهب بنا طريقاً قويماً ولأراه الا نشر القوانين (وان كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا وما لا يدرك كله لا يترك كله) انما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد فان قارئها قليل ولا بارسال المنشورات الى عمد البلاد فان كثيرا منهم قلما يفهم اذا قرأ ولكن لا بد من تشكيل جمعيات فى القرى والمدن لتفاهم القوانين واللوائح والمنشورات والا ضاعت الحقوق وكثرت المشاكل وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراآت المضرة بالحكومة والاهالي معا ثم وضع حدود قويمة للاعمال الشخصية والاخلاق والتصرفات فان اصلاح الاخلاق والافكار والاعمال من أهم واجبات البلاد و بدونه لا يمكن اصلاح شيء من أمورها وليس بجائز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط

ومركز النظر فى جميع ذلك نبهاء البلاد وذوو الشأن فيها فعليهم ان كانوا صادقين فى الوطنية ان يبذلوا الجهد فى طلب ذلك والقيام بما يلزم والا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

وكتب فى العدد ٩٥٨ الصادر فى ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٧

ابطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية

عرض الى نظارة الاوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه في تاريخ ٣ القعدة مامفاده ان مجلس ذكر السعدية الذي ينعقد بذلك المسجد في كل يوم ثلاثاء لايذكر فيه اسم الله الا مصحوبا بضرب الباز (نوع من الطبل ذي الصوت المزعج معروف) ولما فى ذلك من تشويش الاسماع نبهنا عليهم مرارا بابطال هذه العادة (وان يذكروا الله ذكرا مجردا عن الطبل) فلم تثمر التنبيهات أدنى ثمرة وحيث أن الزائرين لضريح الامام الحسين وطلبة العلم وجهوا اللوم والاعتراض على هذه العادة يقولون انها من المحرمات شرعاً ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الامر بابطاله فكتب من نظارة الاوقاف العمومية الى حضرة فضيلتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ما معناه

قد تبين من افادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ما ذكر فيها وحيث ان النظر فى ذلك مختص بسيادتكم بعثنا بها اليكم لافادة الحكم الشرعي فيها فوردت افادة حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى ديوان الاوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أي ونحوه) في المساجد مما لا يسوغ شرعا فعلى ديوان الاوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه ثم زاد حضرة الاستاذ في حاشية رقيمه ان ذلك ليس مختصاً بالباز بل هو عام في كل ماأوجب تشويشاً على المصلين حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله فى المسجد اذا ترتب عليه التشويش وكذلك كل مايترتب عليه اجتماع من لايليق اجتماعه بالمسجد كاختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفتهم معهن فى المساجد المحترمة فصدر أمر نظارة الاوقاف الى مأموري أقسام أوقاف المحروسة بالزام كل مأمور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لقسمه وأرسلت الى كل منهم صورة الافتاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الازهر ونبهت عليهم بالاطلاع عليه وفهم ماأودعه من الحكم الشرعي والسير على مقتضاه وأخذ التعهدات القوية على خدمة

المساجد وأم المراقبة والتيقظ لمنع أي لفظ يوجب تشويشاً على المصلين أواخلالا بحرمة المساجد اتباعا لنصوص الشريعة الغراء اه

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة والسنة القويمة وبانتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة اذ وجه أولو الامر منا نظارهم الى تخفيض شأن البدع وازالتها فلنشكر همة سعادتلو ناظر الاوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف واهتمامه باحترام أماكن العبادة وصيانتها عن وقوع اللهو وسيئ الافعال ونثني كل الثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يبالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين فلقد نسمع بعضا من الجهلة بل عددا وافرا منهم يقول هذه سنة وجدنا عليها آباءنا وأخذ العهود علينا باتباعها أشياخنا وطبعت على حبها قلوبنا وتمرنت على القيام بها اعضاؤنا فكيف يصح ان يحكم علينا بتركها ان هذا لشيء عجاب: تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدعين يهدرون دم الشريعة طوعا لأغراضهم وتنفيذا لأحكام عاداتهم ولبئس ما كانوا يصنعون و يأبى الله الا ان يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لا تغني من الجاه شيئاً

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الاوقاف ان المنع خاص بالباز وطريقة السعدية أو بالطبل على العموم بل هو صريح فى عموم كل فعل يوجب تشويشاً على مصل أواخلالا بحرمة مسجد فيدخل في المنع طريقة المغاربة المنسوبة للسيد عبد السلام الاسمر (كذباً وافتراء) ومن شعائر ابناء تلك الطريقة اتخاذ طبول متنوعة بعضها مستطيل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذكر وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضاً و بعضها مستدير (يعرف بالطار) الا انه كبير ينشأ من ضربه صوت عنيف يصم الآذان ولا يجتمعون للذكر الا وفى مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت فاذا قاموا الى الذكر غضوا شناعة أصوات الطبول الكثيرة بضجتهم المزعجة يجأرون بألفاظ لا مدلول لها وعند مايشتد خمر الاوهام فى عقولهم يهيمون هيام المعاتيه

و يتجرد البعض منهم عن ثيابه و يأخذ جذوات من النار و يدخلها في فيه و يلامس بها بدنه اظهارا للكرامة وحاشا ان تكون — من الكرامة — كل ذلك مع حركات شديدة واختباط غريب ومن عادتهم ان يأتوا بمثل هذا العمل فى مسجد سيدنا الحسين بمولده فيجتمع عليهم الناس و يزدحم المتفرجون و يشوشون أذهان الزائرين وهذا حظهم ولا يعلم أية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التى يجريها الجهلة في بيوت الله المعظمة ولا يخرجه من حكم المنع أيضا ما يفعل من نحو ذلك بأضرحة الاولياء رضي الله عنهم وان لم تكن مساجد لمنافاتها الأدب الواجب فى حقهم على ان الشريعة المطهرة مانعة من ان يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم بدون استثناء خصوصا وانه لا يشك عاقل في ان قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نغماتها انما هو اللهو والطرب الممنوعان شرعاً يرشد لذلك تضاحكهم وتلاعبهم فى نفس محافلهم الموقرة وتهافتهم فيها على مالا يليق بشأن العبادة ولو كلف أحدهم ان يهتف بذكر الله مرة وهو وحده لم تسمح نفسه بذلك ولكن يحركه الي هذا الذي يسميه ذكرا حب الطرب والميل الى اللعب وأقبح شيء في هذا الباب اعتقادهم ان طاعة شهواتهم هذه طاعة لله نعوذ بالله من الزيغ ولا ريب ان علماءنا رفع الله قدرهم سيفرحون بمنع هذه البدع فرحا شديدا و يرجون من عدالة الحكومة ازالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع ويعاب على العقول السليمة ان تقره ويشمل حكم المنع أيضا الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والاربعاء بمسجد السيدة زينب و يومي السبت والثلاثاء و يوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين اذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعاً ويجري فيها من الفعال القبيحة مالا يليق ذكره ولا يدع الازدحام مكانا لمصل يصلي فيه ولئن وجد المكان فقلما يستطيع اداء الاركان بدون تشويش فيها فهذا الأمر الذي أصدرته نظارة الاوقاف متبعة فيه افتاء شيخ الاسلام حفظه الله يعتبر أساساً جليلا لمنع كثير من البدع وقد فتح به باب من الخير لا بد من الوصول الي غايته ان شاء الله وسيسري ذلك من القاهرة الى بلاد الارياف فعلى الناصحين

لطرق البدعة ان يعدلوا عنها قبل ان تمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين

وكتب في العدد ١٠٣٨ الصادر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ ما يأتي

تنبيه رسمي

بطلان الدوسة

اطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة من عهد قريب (١) لسان الشكر والثناء للجناب الخديوي وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة وللسيد البكري على عنايتهم بابطال بدع كثيرة ليست من الدين في شيء بل هي مناقضة للدين المحمدي على خط مستقيم. ومن افظع تلك البدع بدعة الدوسة وهي أن ينطرح الناس على الارض مصطفين أحدهم لجنب الآخر ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحد بعد واحد حتى ينتهي الى آخرهم وهم مسلمون من أهل الايمان قد أمر الله بتكريمهم وحرم اهانتهم الا لحد أو تعزير شرعي بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم بني آدم على سائر الحيوانات مطلقا فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته سبحانه وتعالى فقال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم وقد نهت الشريعة الغراء عن اهانة أجساد الاموات فضلا عن الاحياء

وانا لنعلم علم اليقين ان حضرة مولانا سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية قد وقع لديه هذا الامر أعني ابطال الدوسة موقع الاستحسان لعلمه أنها كانت من المنكرات الشرعية وكان يتمنى التفات الحكومة الى ابطالها وهو متشكر من الحكومة التي أقرت السيد البكري على ازالتها ولما عاد الجناب

(١) كتب ذلك في عدد ١٠٣٥ الصادر في ١٣ ربيع الاول اذ ذكر ابطال الدوسة من حفلة المولد النبوي وكان قد مهد لمثل ذلك وسعى لهسعيه

الخديوي للمذاكرة معه في هذا الشأن بيّن حفظه الله مافي هذه البدعة من المحظورات الشرعية كإهانة المؤمنين والتعرض للخطر فانه لايؤمن أن تفلت رجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة فترض عضوا يابسا أوتبتك عضوا رخوا ويكون فيه تلف المصاب وان التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب فأمره الجناب الخديوي أن ينبه على بعض المشايخ ليبينوا ذلك للعامة حتى يقتنعوا بحرمة هذه البدعة وقد نبه سيادته على كثير من الوعاظ والمدرسين وأوعز اليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الامر ويوقفوهم على أن امثال هذه البدع مما لاأصل له في الدين (على أن أصل الدوسة فيما تقول العامة كانت كرامة للشيخ يونس بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر وهي مرة واحدة فكيف تبدل الزجاج بالانسان وصارت عادة مستمرة نعوذ بالله)

وكذلك سرّ كل السرور بذلك حضرات العلماء الاعلام أيدهم الله فانهم متضلعون من الادلة النقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وتحريم امتهانهم خصوصا وان الدوسة وامثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولامماثل في السنة النبوية الغراء حتى يلتمس احد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه على بعد . وأما دعوى أنها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السنة والجماعة فانهم نصوا في كتب التوحيد على ان من شروط الكرامة ان لاتصير عادة يتعاطاها من يريد اظهارها على حسب ارادته فان صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة ونحوها التي يتعاطاها كل من (يأخذ عهدا على طريقة الرفاعي أو السعدي) أو (يتولى مشيخة السعدية) أيا كان فلا تكون من قبيل الكرامة بل تعد من الحيل المذمومة ومن أجل ذلك قد بادر السيد البكري وساعده أهل الشرع والعقل على ابطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الانسانية ولا يميزون الحسن والقبيح من ان هذه عادة قديمة فكيف يسوغ ابطالها يعد من الهذيان الذي لاطائل تحته فان العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بان الدوسة ونحوها من البدع المنكرة فهل يريد الجهال بجهلهم أن يغيروا شرع الله أو يرومون ان

العلماء يتحاشون عن انكار البدع خوفا من جهل الجهلاء ؟ أولا يعلم الجاهلون ان مصر بل وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما كاد يذهب بهجة الشريعة وأن ذلك كان تبعا لأهواء الامراء السالفين وان العلماء في الازمان السابقة كانوا لا يستطيعون اعلان الحقيقة خوفا من سطوة الظالمين أما الآن وقد نظر الجناب الخديوي ورجال حكومته الى الاصول الدينية بعين الاحترام فلا يخشى العلماء لومة لائم فى انكار المنكر واقرار المعروف فليس على الجاهلين بالاصول الشرعية الاان يتعلموا خيرا لهم من ان يصادموا أوامر الدين الحق التي اتفق عليها العلماء وغضب الله ورسوله على كل من خالفها فان المصائب لم تصب علينا ولم تصل أيدي الغدر والفجور الينا الا من يوم نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهريا ولم يلتفتوا الى حقيقة الشرع ولم يقفوا عند حدوده القويمة بل زادوا فيه أمورا ظنوها منه وهي ليست منه في شيء وان بطلان هذه العادة السيئة ليس الا مفتاحا لبطلان عادات كثيرة وسنرى البدع الضلالية تبطل شيئا فشيئا حتى يرجع الامر الى الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الراشدين هدانا الله للاقتداء بهم وسنعود الى الكلام في أمثال هاته البدع مرارا أخرى ان شاء الله تعالى

وكتب فى العدد ١٠٧٨ الصادر في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ — ٣ ابريل سنة ١٨٨١

الدوسة

تقدم لنا الكلام على ما يتعلق بهذه العادة المخالفة لاحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية وأظهرنا ما شملنا من الافراح وما عمنا من المسرات عندما توجهت عناية الجناب العالي الخديوي الى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المنابذة لقواعده القويمة الاساس الواضحة البيان واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الأستاذ السيد البكري فأعلن أمره فى السنة الاولى من تولية نقابة الاشراف (سنتنا هذه) ببطلان الدوسة وإلغائها كليا من جميع الموالد والاحتفالات وقد رأينا بداية اتباع هذا الامر في مولد النبي صلى الله عليه

وسلم الذي أقيم في سنتنا الحاضرة فى العاصمة وجميع مدن القطر و بنادره فتيقنا ان جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها وان انوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا فتطهر مرآة العقل من رجس الخرافات وتحفظ هيكل الانسان (الذي كرمه الله) من وطئه بمناسم الحيوانات ورجونا ان يثل عرش كثير من أعماهم الجهل وأضلتهم الشهوات

فبينما نحن نستنشق خبرا ينبيء بابادة تلك البدعة أو يشعر بزجر أولئك المشعوذين وتأديب المحرفين اذ سمعنا الآن ان نفرا ممن ألفوا تلك العادات استفزتهم مصالحهم الخصوصية وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكري أن يبيح لهم إعادة الدوسة في مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر (الذي روي عنه ان الزجاج صف امام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير ان يصاب بكسر أو يعتريه اختلال) محتجين على حضرة السيد المشار اليه في طلبهم هذا بأن الدوسة فضلا عن أنها من كرامات أحد الاولياء (الشيخ يونس) فانه عمل بها منذ زمن طويل بحضر كثير من العلماء الاعلام والسادة الفضلاء ولم يبد من واحد من حضراتهم معارضة أو تنديد بها ومضت تلك الازمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف فلا يصح بطلانها الآن اتباعا لسنة الآباء والاجداد ومحافظة على العادات والمشارب

فاسفنا لهذا الخبر ووقفنا ننتظر ماسيكون من اجابتهم وترددنا بين ان ندحض ماقام بخيلاتهم من الشبهات التي جسمها لهم حب الصالح الخصوصي اونقتصر على ما شرحناه من ذلك في بعض الاعداد السالفة ولكن لعلمنا بأن تلك العادة وماشابهها متمكنة في أفكار كثير من العامة و بسطاء الادراك فلابد وان يكون طلب تلك الفئة ملائما لمذاق الجاهلين باحكام الشرع منهم ترجح عندنا أن نذكر شيأ مما يتعلق بطلبهم دفعا لاوهام بعض العامة الذين ربما يوقرون أولئك البسطاء الملحين على اعادة البدع وان كنا على يقين من أنهم لا يجابون لما طلبوه فنقول

اذا صح ماعزوه الى الولي الشهير الشيخ يونس من أنه ركب الحصان وداس به على ألواح الزجاج ولم تنكسر فتلك كرامة خصه بها المولى عزوجل وذلك لا يفيد

اباحة الدوسة بمعنى ان تصف الرجال منكبين على وجوههم متلاصقي الاكتاف يطأ ظهورها حيوان من العجم لم نشم من سيمته كرامة ولم نتبين من حافره منهاج الصالحين و يمشي أمامه وخلفه نفر من حاشيته وجم من المتفرجين وكلهم يطؤن بنعالهم أجساماً أعلى قدرها الحق في كتابه العزيز ولكن سوت بينها و بين العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين ولو توسعنا في تلك الرواية الغير الموثوق بها وقلنا ان ذاك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضا ولم يلحقهم من ذلك ضرر فهذا انما كان (لو وقع) اظهارا لامر خارق للعادة على يد رجل من المتقين ولا يستلزم جواز وطئ أجسام الرجال بحوافر الخيل ونعال العامة من الناس بحيث يكون ذلك عادة يقع في كل زمان ومكان فانه لا يكون من باب الكرامات في شيء فضلا عما فيه من انتهاك حرمة الانسان وتعريضه للخطر والمضرات

وأما وقوعها في الازمان السالفة بمحضر العلماء والافاضل بهذه الصفة التي كانت عليها الآن فلا يستدل به على جوازها وذلك لأن نصوص الشرع الشريف تكلفنا بالنظر في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها وعدمه على المباحات فان كان وجودها مخالفا لتلك النصوص (القرآن الشريف والاحاديث الصحيحة وقول الائمة المجتهدين) أو يترتب عليها ما يخالفها كانت من المحرمات ووجب نهي فاعليها مهما طال عليها المدى في أي وقت وأي مكان وسواء نهى عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم بعدم اذاعة النهي عنها والا فتكون من الملحقات بالمباح .

وحيث ان هذه البدعة التي كلامنا الآن فيها (الدوسة) موجبة لانتهاك حرمة الانسان المنصوص على تكريمه ومظنة للخطر المنهي عن التعرض له شرعا ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف سيما وان عملها تحت اسم كرامة من كرامات الاولياء مما يؤدي بالعقول الى سوء الظن بالمتقين والصلحاء فهي لهذه الاسباب من المحرمات التي يجب التضافر على ازالتها من صفحة الوجوه وان أتى عليها دور غير قليل من الزمان وهي متسلطة على عقول الجاهلين بل التي طال الزمن على وجودها يجب الاهتمام بازالتها بكل ما أمكن من الوسائل خشية ان تعتقدها

العامة من المعالم الدينية ولا يخفى ما في ذلك من المضرات التى توجب اشتباه الحق بالباطل والخبيث بالطيب

وأما سكوت العلماء عن ازالتها وقت مشاهدتهم لها في تلك الايام الخالية فليس ناشئا الا عن تسلط الخرافات والبدع في أفكار معاصريهم من العامة و يأسهم من ان تساعدهم ولاة أمورهم على بطلانها لعدم اهتمامهم بشؤون معالم الدين والمحافظة على سلامته من الاوهام والبدع فلو طلبوا اذ ذاك ازالتها لم يجدوا سميعا لدعوتهم ولا ظهيرا يعضد مقاصدهم من أولي الحل والعقد فضلا عن ان عامة الناس تسلقهم بألسنة الجهالة وترميهم بالخروج عن الدين

أما الآن وقد رزقنا أميرا يهمه أمر الدين ويسعى ما استطاع في تشييد معالمه وتثبيت أركانه فلا غرو اذا رأينا الفضلاء من العلماء والاتقياء من الصلحاء يتسابقون في وعظ العامة وزجرهم عن الاقدام على اعتناق البدع والتهافت على الخرافات المفسدة لكمال العقل والطامسة لنور البصيرة (وقد رأينا من حضراتهم هذه الفعال المكلفين بها شرعاً رأي العين) فان ذلك من قبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم يثابون عليها اثابتهم على الفروض العينية والواجبات (وقد نشرنا من مدة ما كان من جناب الاستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشريعة وكفى بهذا إقناعاً للمتعصبين)

فلتعلم اذا أهل البدع والخرافات ان نجوم طلاسمهم قد أفلت واستعيض عنها ببزوغ شموس الحق ومصابيح الارشاد الى طرق الدين القويم فليريحوا أنفسهم من طلبات لا تعود عليهم الا بالخيبة والنكال وليعودوا نفوسهم على التمسك بعروة الشرع والاستضاءة بنور الحق فانه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة فلا يصغون لكلماتهم المبهمة ولا يعبؤن باعمالهم الشعوذية ذلك خير لهم من ان يحاولوا اعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسرا بل متعذرا

ولنا أمل قوي في ان غيرة حضرة السيد البكري وميله الى تعزيز شأن الشرع والمحافظة على دعائمه لا تسمح له باجابة طلب هؤلاء الناس بل يحثهم على العدول

عن هذا الامر الذي لا يوافق مذاهب السنة ولا ينطبق على قواعد الشريعة (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

وجاء في العدد ١٠٧٣ الصادر في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ — ٢٨ مارس سنة ١٨٨١

ماهو الفقر الحقيقي في البلاد

ان أرضنا خصبة طيبة التربة ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه المسكونة وهواؤها ونباتها في غاية الجودة يصلحان لتغذية كافة الحيوانات البرية و بنوها أصحاب كد ونصب وذوو صبر على العمل وجلد على التعب فهي من هذا الوجه عالم برأسه غنية مثرية لا تفنى كنوزها ولا تفرغ خزائنها وانها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها وتقوية شوكتها بل ان تكون سلطتها مبسوطة الى أقطار أخر

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة والعزة والشوكة وان كان من كليات أسبابها بل لا بد ان ينضم اليه حسن استعمال هذه الاسباب الجليلة ورشاد الرأي في استخدامها ليوضع كل شيء في موضعه الطبيعي وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها فان ضلت الآراء وساء الاستعمال فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه وماذا تصنع الوسائل المهيئة اذا لم تجد من يستعملها فيما هي وسيلة له وأي شيء تفيد الفرص اذا لم تصادف من ينتهزها وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل كلا فما فقر البلاد الا قلة الراشدين فيها وما غناها الحقيقي الا كثرة المهتدين

فان سألنا سائل هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد اذا وجدوا وهم فقرها اذا فقدوا قلت مع الاسف لا انهم قليل نخشى اذا انقضى دورهم أو قضى أجلهم ان لا يوجد بدلهم والبرهان على ذلك ان الرجال تعرف بالآثار الثابتة في البلاد التي تدوم بدوامها أو على الاقل اجيالا واحقابا وان ذوي

الآثار الحقيقية في بلادنا التي أثمرت ثمرا جناه ابناء الاوطان وتمتعوا بلذته مع الثقة بدوامه هم قليلون جدا بل ينحصرون في أوائل مراتب الاعداد وان النفوس الطيبة تعرفهم وهم أيضا يعرفون أنفسهم

الزراعة على حالها القديم لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الحاصلات أوتسهيل العمل وتخفيف المشقة بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الانواع التي كانت تزرع في الازمان البعيدة كالكتان والسمسم وغيرهما والاقتصار على بعض أصناف قليلة والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة واظن هذا لايحتاج الى البيان والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصرا و بيوت التجارة الواسعة من أبنائنا قليلة جدا ان لم نقل مفقودة بالنسبه لبلاد أخر ورجال العلم ومصابيح الفضل لانراهم الا قليلا اذا أردنا أن نعددهم لانحتاج الى زيادة عن عقد الاصابع بل ربما نقف دونها بكثير والمترشحون لاستلام ادارة المصالح العمومية التي هي اساس العمران وأدائها حق الواجب لها على وجه العدل وطريق الحق الذى لايخامره الباطل اللهم الا خطأ نادرا هم أيضا كسابقيهم نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان

على ان أولئك الافاضل من رجال المعارف أو المحنكين فى السياسة والادارة ان كانوا في هذا الوقت كثيرا فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب ان يتأثرهم من بعدهم حتى لانقطع سلسلة الصالحين بل ان كانوا وجدوا فبالصدفة والاتفاق ثم ينثرهم الزمان فلا يطول الا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم وهيهات ان يأتي هذا التراب بامثالهم فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء (ان كانوا) كمثل عاجز نبش في أرض قفر فوجد فيها كنزا يكفي لنفقته مدة معينة فاذا مضت تلك المدة فقد المال واستسلم المسكين لاحكام الصدف والغالب على حاله ان يموت جوعا فيكون فريسة لذئب أوطعمة لكلب

والسبب فى ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التي تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه وشعوره باضرار وطنه

كشعوره باضرار ذاته ان لم نقل تجعل الاحساس الاول أقوى من الثاني وتزيد في احساس الانسان بمنافعه ومضاره ولا أتكلم فيها الآن فان لي في مقالي هذا مقصدا سواها فبلادنا من هذا الوجه فقيرة وا أسفاه

(تلك آثار السابقين من الذين وسد اليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم ألعوبة وتولوا أمرها فصيروها بسيء تصرفاتهم أعجوبة فلا حول ولا قوة الا بالله)

ان جميع النبهاء في أوطاننا يوافقوننا على هذا الذي قلناه و يشاركوننا في الاسف على مثل هـذه الحال أعني فقر البلاد من الرجال والدليل على ذلك ان غالبهم اذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيته ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول الى ما انتهى اليه من درجات الفضل و يتأسف على ان بقية الناس لم يلحقوه فهذه منهم شهادة على ان الفضل قليل و بنوه مثله

فان سألنا سائل هل من مانع يحول دون وضع ذاك الاساس أساس المجد والعزة أعني به أساس التربية الحقة وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة وانحطاط همم الافراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليـه قلت لا اننا كنا في الزمن السابق نتعلل في اغفال مصالحنا واغماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة وكان لنا بعض الحق في ذلك فان السلطة في تلك الازمان كانت ضاربة على العقول والافكار حجبا من الرعب والخشية فان غاياتها من التصرف في الحقوق بما تشاء ونفوذ الكلمة واستيفاء الاغراض وقضاء الاوطار الذاتيـة لايمكن الا مع جهل المحكومين وعمائهم حتى لايعرفون حقا فيطلبونه ولا باطلا فيدفعونه

وهي وان أدخلت في البلاد أسماء كثيرة كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والاوامر واللوائح وما شاكل ذلك الا أنها كانت بدون مسميات بل تطلق عليها هـذه الاسماء مجازا بعيدا وانما كانت تجلب على النظر والسمع صورا خيالية اذا امتحنها العقل ذهبت أوهاما فلم تكن في تلك الايام سعة لفاعل خير ان يفعله بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأن له ثروة يريد ان ينفق منها في سبيل خيري

أصبح لايجد نفسه ولا ماله فهذه كانت أعذارنا في الازمان السابقة ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لا لنا فكيف الاعتذار

لكنافي هذه الايام والحمدلله قد أصبحنا فى مأمن من هذا . لوتحققت حكومتنا انلاحدنا كنوز الارض لم يسعها الا المحافظة على روحه وماله ولكانت حريصة على ازدياد ثروته ولئن طلب الانفاق جهده في الاعمال الخيرية لجدت هي فى مساعدته وتسهيل الوسائل الى بلوغ مقصده ولو أبصرت شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت الى تقويته حتى يكون شمسا منيرة وان تنشط أقوام من رعيتها الى الاجتماع والتألف والاتحاد لغاية محمودة كبث علم أو اذاعة فضل رأيتها تقيم لبيت الالفة أعمدة وتوطد له أركانا وتحيط به سورا منيعا كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في القاهرة والاسكندرية بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية و بالجملة فان الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق وقاصد صلاح وراغب فلاح فليس من جهة الحكومة هذا المانع فبطل ذلك التعلل

فان سأل سائل أليس في البلاد ذوو ثروة وأولو جاه تحوم عليهم الافكار وتتوجه نحوهم القلوب وتنجذب اليهم النفوس ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم من الاعمال الجليلة التي تكون عنوانا لمجدهم وسياجا حافظا لناموسهم ورفعة شأنهم فتحركهم الغيرة وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم الى بعض و بذل الزائد من فضلات أموالهم في سبيل حفظ الشرف في أبنائهم وأعقابهم على ماهو شأن العقلاء في سائر أقطار الدنيا

قلت اني أجيبك عن هذا السؤال غدا ان شاء الله وان غدا لناظره قريب

الجواب (١)

نعم يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار وهم المتمتعون بخير البلاد وهم الذين ينبغي لهم ان يطلبوا لها رفعة الشان ومنعة الجانب لان الاعين الغادرة محلقة اليهم طالبة انتزاع ما بأيديهم وان تسلط الدخلاء (٢) عليها وتلاعب الايدي المتغلبة بامورها يضر بأولئك الاغنياء أولا و بالذات ولا يضر غيرهم من الفقراء الا ثانيا و بالعرض

(١) جاء هذا الجواب بعد عدة أعداد لكثرة المواد الرسمية (٢) يعني الاجانب

بل ربما لا يصل الضرر الى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلا فان الانظار لا ترمق الا ذوي الاعتبار فهم منتهى الاطماع

فان سأل سائل الا يحب أولئك الاغنياء ان يطمئنوا على أنفسهم وأموالهم ألا يبتغون ان تثبت قاعدة العدل فيهم وفى أعقابهم من بعدهم ألا يعلمون ان الزمان قد انقلب وضعه وتغير طبعه فصارت السلطة الخشنية لادوام لها وان الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ولا لتحصيل ما فقدناه أولم ينظروا الى الايدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلبا لاختلاس أرواحهم من أبدانهم وان جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ولن يدفعها الا حرس الحزم والبصيرة ألا يعقلون ان التغالب في هذه الاوقات أصبح معظمه ان لم أقل جميعه تغالب الافكار والآراء فالامة ذات البسطة في الافكار والمهارة فى المعارف هي الاقوى سلطانا والاقوم سياسة وهي الغالبة على سواها من الامم أفلم يبصروا انه لامعنى لشدة البأس في أيامنا هذه الا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء ألم يقفوا على الاسباب التى أعدها غيرنا من جيراننا لنوال أعلى مراقي المجد في أوطانه ثم اندفع الينا لاندري ماذا يريد ان يصنع بنا فان عقلوا جميع ذلك أفلا يفقهون انهم ان لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر

قلنا بلى ان اختلاطنا بالامم الاروبية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب الضعف ووسائل القوة وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الخشونة فلا يكاد أحد من أولئك الذين نحدث عنهم الا وقد وقف على الشيء من ذلك وكثيرا مانسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ويلوكون امثال هذه المباحث فيما بين أشداقهم كأنهم يعلمونها حق العلم

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك الى ابراز الآثار وطلب ماعلموه صلاحا بالفعل دون القول كل واحد منهم يطلب الخير ولكن لايحب ان يكون البادىء به بل يريد ان يبدأ الغير ثم هو يتبعه فان كانوا كذلك فلا بادىء ولا تابع وكأني بهم على احدي حالتين اما ان جميع الحوادث التي مرت على

رؤوسهم لم تكسبهم معرفة ولم تحرك فيهم غيرة فذلك غاية لجهل نعوذ بالله وانا ننزههم عنه واما أنهم علموا وتفقهوا ولكن استولى اليأس على نفوسهم فذلك ليس من شأن العقلاء فان القنوط من رحمة الله كفر

هذه أيامنا نسمع فيها طنين الاماني صادرا من القادرين على بلوغها لكنهم يطلبونها من غير وجهها فيعز عليهم منالها يروم كثير من الناس خصوصا من ذوي الاقتدار ان يكون ميزان العدل منتصبا لا يميل حبة ولا مثقالا ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم وان لا يكلفوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون يودون ان تنشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بسيطها لكن على شرط ان لا يكون له فيها مدخل لا يبذل نقد ولا تجشم عمل ويرغب ان يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة والجد والاجتهاد ومراعاة المصلحة العامة لكن بدون ان يقف واحد منهم على باب مدرسة ولم يخطر بباله ما هي المصلحة العمومية ولم يجد من نفسه احساسا بحلاوة الاستقامة ومرارة الاعوجاج وان ذلك لمن المحال البين و بالجملة فطالب الاصلاح منا لا يرضى لنفسه ان يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله بل يحب ان يأتيه الاصلاح ساعيا اليه ويحدق نظره نحو الحكومة يطلب منها ان تخلق خلقا جديدا مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا ان يسعى افراد الامة ونبلاؤها في جمع الكلمة و بذل الدينار والدرهم وتعاضد الافكار والاعمال على تحصيل ما يطلبون باسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان في العمل ولا فتور في الهمم

فعلى الاغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتطاول الايدي الظالمة اليهم أ كثر من الفقراء ان يتألفوا ويتحدوا و يبذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية وتثبت في البلاد جراثيم العقل والادراك وتنمو روح الحق والصلاح وتتهذب النفوس و يشتد الاحساس بالمنافع والمضار فيوجد من ابناء البلاد من يضارع بني غيرها من الامم فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة لهم مالنا وعليهم ماعلينا وعلى الحكومة في جميع ذلك ان تسن قوانين التعليم وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين

أفلم يعتبروا بالجمعيات الاوربية التى لم يكن أعضاؤها الا الزارعين والصانعين والتجار كيف يبلغ ايراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليونا من الجنيهات و بعضها أكثر وبعضها أقل وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم واتساع دائرة الصنائع والفنون وتقوية روح التربية الحقة التي لاشأن للبلاد الا اذا تحلى ابناؤها بحلاها

أيظنون انه يمكن لهم نوال شرف أوحفظ ناموس الا اذا جاهدوا في سبيل الاصلاح باموالهم وأنفسهم وانشئوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الافتخار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المالوف

ان شأن الحكومة ليس الان تطلق للناس عنان العمل فيعملون لانفسهم ما يعلمونه خيرا لها فان أية حكومة قيل انها عادلة حرة لم يكن لها الا انها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة فاذا لم يكن في الناس خصوصاً الكبراء من يهمه أمر مصلحته و بقاء شرفه وناموسه فسفه منه ان يطلب من الحكومة مالا يطلبه هو لنفسه من نفسه .

اني بالاختصار أوجه كلامي هذا الى الاغنيا الذين يتكلمون كثيرا فيقولون لو : ياليت:لوما: كان: وماأشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ثم ينفقون النفقات الجسيمة فيما يسمونه بانفسهم لهوا وفخارا كاذبا ولا يبذلون درهما أو ان بذلوا فشيء يسير جدا يقدر عليه أفقر الناس فى المطلوب الذي يعدونه عظيما

وانهم يعلمون ان عدل الجاهل ظلم فان صدر منه بطريق الصدفة لاعن مقصد فلا بد له من الخبط فيظلم وان غناه فقر فانه أتى من البخت الاتفاقي ولا بد يوما ان يختل سيره فيفتقر وان كمال الجاهل نقص فانه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط و يتناثر منه التراب ثم ينهدم

فقر الجهول بلا علم الى أدب فقر الحمار بلا رأس الى ذنب

لا نصدقهم فيما يقولون من انهم يحبون العدل ويرغبون الاصلاح و يعرفون خير أنفسهم و بلادهم بل ولا يصدقهم أحد أبدا الا اذا برزوا الى ميدان العمل فحينئذ نعترف لهم بكل مايدعون ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون و يشتهون اما الكلام فقد شبعت منه الآذان وافعمت به القلوب والسلام

وكتب في العدد ١١٠٥ الصادر في ٩ جماد الثاني سنة ١٢٩٨ — ٧ مايو سنة ١٨٨١

وضع الشيء في غير محله

هو تصرف مضر يدعو اليه الجهل بالعواقب أوعدم الا كتراث بما يترتب عليه من المضار وانا نذكر من أمثاله بعض الاوضاع الالهية التي ألهمنا الله حكمتها وأرشدنا بالفطرة الى فائدتها ثم أقام لنا من الحوادث برهانا على المضار التي تأتي من سوء التصرف فيها والعدول بها عن وضعها

ان الله تعالى يهب للكثير من عباده أو كلهم قرائح جيدة شديدة النفوذ في الحقائق وفطنة زائدة سريعة الانتباه الى الدقائق ذلك لان تكون هذه المنحة عدة لصاحبها وآلة للوقوف على مخبآت الامور والوصول من المقدمات الى النتائج ومن المشهودات الى ماوراءها من الخفيات ليحرز من المنافع ماشاء الله أن يحرز ويحذر من المضرات ماربما يكون خبيئا له في ضمن مايتصوره نافعاً فيعيش بهذا النور سعيدا يعلم الخير فيقتنيه ويبصر الشر فيتقيه

لكن من الاسف ان كثيرا من أرباب هذه المنح مع احساسهم من أنفسهم هذه الصفة الجليلة فيهم (أعني شدة الادراك وجودة القريحة) ينحرفون بها عن هذا الوضع الحق فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول الى غايات ساقطة حتى من نظرهم أيضا فترى البعض من أولئك الاذكياء يعمل فكره ويقلب نظره ليدبر حيلة في استمالة غيداء واستعطاف هيفاء أو يجد وسيلة للحظوة عند ذات قد يهزأ بالاسل وأعين غنية عن الكحل بالكحل ويبذل هذا الجوهر النفيس في منافسة الانداد في ذلك ومغالبتهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين طالبيه وما شابه ذلك من الامور الدقيقة التي تحتاج (والحق يقال) الى صرف زمن واعمال فكر كما يشهد بذلك المجربون غير أن هذه الامور مع دقتها لاداعي اليها والاتعاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها وهي معلومة يخجل الانسان بعد نيلها من جميع ما كان استعمله لها قبل ذلك

وزيادة عن الاتعاب التي هي خسارة محضة لا ربح فيها يفوت صاحب الادراك وقت غالي الثمن عالي القيمة يطالبه باغتنام فوائده وانتهاز فرصه وهو في غفلة عنه بهذا اللهو بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه فيمضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذكائه فيحول عنها وجهه فتدبر عنه عازمة على أن لا تعود اليه قاطبة هـذا هو الذي يزعج كل فطن ذكي يلتفت الى ماضيه فيجده خاليا من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة لمستقبله ويعدها العقلاء منفعة أو شرفا حقيقيا ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرقى وأملك لناصية الدهر منه فيتلقب على جمر الاسف خصوصا اذا طرقه الزمان بمطرقة المصائب فينتبه كأن لم يكن ذا نتباه ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجد قوة أوهنها في أعمال باطلة الى ماأعدت له من الاعمال الحقيقية فاذا طلب لنفسه بعد ذلك ما يطلب العقلاء من أسباب السعادة رأى تلك القريحة قد صدأت والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة فيجتهد كل الاجتهاد لاماطتها عنه ليخلص من ظلماتها المكدرة وكأنه لا يستطيع أن يعيدها الى صفاتها الاولى ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل مايكفي في تعذيبه وتعنيفه حتى يتدارك مافاته ويملك زمام الاعمال المستقيمة ويرشد مع الراشدين

خصوصاً اذا كان من أبناء الذوات أو الاغنياء أو موظفي الحكومة أو من شابههم من الذين تحكم عليهم مكانتهم بان يكونوا أسرع الناس الى الجد وأقربهم الى الحق وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الاول على رفعته والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الانفس من غيرها فهذا الوجدان منه يبعثه على ان يكون أعلى وأجل من غيره فيما به الرفعة والشأن في كل زمن على اختلاف الاحوال وتقلب الهيآت وهو الكمال الادراكي والفضل الذي ينشأ عن صحة الادراك فهذا هو الامر الثابت الذي يمكن للانسان ان ينال به جميع مرغوباته سواء صلحت أحوال العالم أو فسدت بخلاف من يفوته هذا الكمال فان أمره موكول الى اختلال الاحوال وفسادها فما دام النظام مختلا والعدل ضائعا والحق مستورا فهو يؤمل التقدم وعلو

المنزلة فان لمع بارق من الحق أو استقام أمر النظام وأخذ في التصرف بالعدل أصبح هذا الذكي النبيه في زاوية من الاهمال واهدر شأنه وعد في الآحاد السافلة

هذا كله اذا اقتصر في تصرفه على استعمال قوة القريحة في غير موضعها و بقي حافظاً لجرثومة هذه القوة (القريحة والادراك)

فان أضاف الى سوء التصرف سعيا في اطفاء نورها من أصله بأن عكف على معاطاة الارواح المسكرة والجواهر المخدرة من أنواع الخمور والحشيش والافيون والمعاجين والجوارش ونحو ذلك فقد أضاع هذا النور الالهي الذي أودعه الله فيه وانقطع الامل من عودته الى ما كان عليه فان مزاج عضو الادراك يختل بتعاطي هذه المهلكات فلا يعود للقوة مركز تقوم عليه فان ظن أنه يدرك في بعض الاحيان سرا أو يفهم خطابا أو يرد جوابا فليعلم ان ذلك ماهو الا بقية تعلق خفيف لتلك القوة الشريفة ببدنه المعتل وأنه لو لم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقي عنده أضعاف مايجده من نفسه بكثير وان الذي منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاء جزيلا فجعله نزرا قليلا

خصوصاً وان الانهماك في قرع الأكواب والتهالك على الشراب مما يستدعي زيادة السهر بالليل ويتبعها فتور البدن واستيلاء الوخامة بالنهار ويقتضي تماديا في الملاهي والهذر ويفتح على الانسان باب الزهو واللعب ويستلزم رفع الحجاب عن السر وكشف ستار الحياء وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات ويستوي فيه الضار والنافع فيختلط به الامر ويكتسب صاحبه ذكرا سيئا بما يفعل من الامور الخسيسة التي لا يشعر بها حال ضياع الفكرة واستيلاء السكرة ثم يزداد الوصف الاول وهو سوء التصرف الى حد يهدم الشرف ويحط من القدر حتى عند أدنياء الناس واخسائهم وذلك ان يفرغ مابقي من فطنته في انتخاب كلمة تضحك الحاضرين وحركة تطرب الناظرين وبدل ان يستعمل مخيلته في تشخيص الاحوال الواقعية وتقريب الحقائق الى الاذهان وتنوير الافكار بما يبتدعه من حسن التصور يستعملها في تلم الاعراض الطاهرة بخيل حال عالم أو صفة فاضل ثم يبرزها على صورة بشعة وحالة مستنكرة فيعجب ذلك جلساءه لكنه

يغضب ذمته وسريرته ولا يرضى به ما بقي من عقله

فان تمادى به هذا الحال ازمانا حتى عرفته العامة ووقف عليه الخاصة ونظروا اليه بعين الازدراء من الفضلاء والعقلاء (وان بقي مبجلا في أعين أصحابه فهذا لا ينفعه بشيء) ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعا عنه من نفسه فهذا هو الذي يخشى على الهيئة الاجتماعية من وجوده فسدت طبيعته وانقلبت فطرته وعميت بصيرته حتى لا يدرك هذا الذي نقول أيضاً فبئست الحال حاله فعلى حكومة البلاد ان تقتفي أثره وتضع لمن يكون على هذه الشاكلة قانونا صعبا يخيف القلوب وان لم تكن واعية ويزعج الخواطر وان لم تكن حاضرة ويؤثر في العقول وان لم تكن سليمة والا فان هذه أمراض خبيثة سريعة الانتشار لاسيما اذا بدأت في الخاصة فانها لا تلبث ان تسري فيما بين العامة

وكتب في العدد ١١٠٩ الصادر في ١٢ جمادي الثانية سنة ١٢٩٨ — ١١ مايو سنة ١٨٨١

الكتب العلمية وغيرها

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين الى أقسام متفاوتة بتفاوت أميال المطالعين سواء كانت هذه الاميال غريزية أو مكتسبة من طوارئ التربية وعوارضها وهذه الاقسام كما اختلفت في الشهرة والخفاء وكثرة التداول بين يدي الكثير من الناس وفي منتديات المشتغلين بمطالعتها ومحافلهم الخصوصية والعمومية

فمنها الكتب النقلية الدينية وهي ما بين فيها مسائل الدين سواء كانت من الاصول كعلم الكلام أو الفروع كالعبارات والمعاملات ومن هذا القبيل كتب التفسير والحديث وكتب الاخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الاحياء لحجة الاسلام الغزالي وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عددا كثيرا نبغ منهم الافاضل والاماثل وكثرت فيهم المؤلفات وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات

ومنها الكتب العقلية الحكمية وهي مايبحث فيها عن الحقائق الوجودية وأحوالها ولوازمها على قدر الطاقة البشرية وهذا القسم نادر الوجود فى بلادنا والمشتغلون بكتبه أقل من القليل بل انه لم يطبع منه في مطابعنا الانزر يسير من فروعه كبعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات والكتب الموجودة منه عند البعض من الناس كلها اما بالنسخ واما بالطبع الاجنبي ولا تشترى الا بالثمن الجسيم ومنها الكتب الادبية وهى مايبحث فيها عن تنوير الافكار وتهذيب الاخلاق ومن هذا القبيل كتب التاريخ وكتب الاخلاق العقلية وكتب الرومانيات وهي المخترعة لمقصد جليل كتعليم الادب وبيان أحوال الامم والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ككتاب كليلة ودمنه وفاكهة الخلفا والمرزبان والتليماك والقصة التى تترجم في جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور ويكثر في ابناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته العاكفين على مطالعته

ومنها كتب الاكاذيب الصرفة وهي مايذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع وتارة تكون بعبارة سخيفة مخله بقوانين اللغة ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وعنتر عبس وابراهيم بن حسن والظاهر بيبرس والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها ولم يكن بين الطبعة والثانية الازمن قليل

ومنها كتب الخرافات وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات الى الارواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الاسباب التي لامناسبة بينها و بين مازعموه ناشئا عنها وتارة تثبت مالا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف ومن هذا القبيل مايعرف عند الناس بعلم الريحاني وعلم الكيميا (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزايرجات وذلك ككتاب أبومعشر والكواكب السيارة وشمس المعارف الكبري والصغري وكتاب الحرف المنسوب للحكيم هرمس والبرهتية وشرحها

والخلخلوتية وشرحها والجلجلوتيه وشرحها ودعوة السباب ودعوة القمر بشروحها وكتب المنادل واستحضار الخادم والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض وعقد الرجل عن الجماع وارسال الهواتف والتسليط بالرجم على البيوت وغير ذلك مما لا يحصيه القلم وهذا القسم قد اشتغل به في ديارنا كثير من الناس ونبغ منهم الدجالون والمحتالون وطبع من كتبه عندنا مايخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان واذا تمهدت هذه المقدمات فنقول

قد كانت جميع هذه الكتب باصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ثم من عهد قريب (على عهد وزارتنا الحاضرة) صدرت الاوامر بان لا يطبع كتاب في احدى المطابع الا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع وحجر في أثناء ذلك على طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس الا وكان يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الاخيرين (هما كتب الاكاذيب الصرفة وكتب الخرافات) على انهما ليسا مما يخل بالدين ولا مما يناقض السياسة ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر واشتغل بمطالعتها كثير من الاهلين فاذا شب الولد ومالت نفسه الى المطالعة في الكتب لم يجد امامه الا أصناف هذه الكتب الكاذبة اوالخرافية فيجهد نفسه في قراءتها فيشيب وهي بين يديه و يموت وهو معتقد لما فيها من الاضاليل ونجم عن ذلك انغماس الغالب فى ظلم الجهالات وانحطاطهم عن درجات الكمالات وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد و بقائها فى جفر الهمجية والاخشيشان ولهذا فان الحكومة السنية قد وجهت عنايتها الى تطهير البلاد من هذه الامراض المعدية السريعة الانتقال فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجر على طبع الكتب المضرة بالعقول المخلة بالآداب وهي كتب القسمين الاخيرين فمن الآن وصاعدا لا يرخص لأية مطبعة ان تطبع من هذه الكتب شيأ ومن يتعد ذلك يجاز بأشد الجزاء وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن فعلى الذين يميلون الى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح الخاطر ان يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة فمن كانت رغبته متجهة الى كتب (ابو زيد)

وما معها من الكتب كعنتر عبس وغيرها ان يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة كتاريخ المسعودي وتاريخ اظهار أنوار الجليل لحضرة رفاعة بك وتاريخ الكامل لابن الاثير وتاريخ الدولة العلية وكتب القصص الادبية المترجمة فى أعداد الاهرام والقصة التي طبعت فى مطبعة العصر الجديد وهى المعنونة بالانتقام وغيرها من بقية الرومانيات العربية الاصل ككتاب كليلة ودمنة وما ماثلها من الكتب التي جعلت على ألسنة الطيور والحيوانات وعلى من كانت فيه بقية من حب كتب الخرافات المعبر عنها بالروحاني أوغيرها من كتب الوفق والتنجيم ان يقلع عنها ويشغل نفسه بما يري منه الفائدة والا فأي فائدة عادت الى من صرف نقوده وأباد بصره واراق ماء وجهه في طلب الكيميا الكاذبة وهو لم ينظر منها ما يجعله عوضا لهذه المصاريف وتلك المشقات واي عائدة رجعت على من حفظ العزائم وأجهد نفسه فى حفظ أسماء الشياطين وأتعب عقله و بدنه فى الخلوة لاستخدام العفاريت؟ انالم نر لكل ذلك من فائدة ولا عائدة بل رأينا ان المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين و يعدون مع المحتالين وان العاقل لايرضي لنفسه أن يشار اليه بأنه من احدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليهما المقت ولحقهما غضب الله والملائكة والناس أجمعين وحينئذ فمن الواجب على كل عاقل ان يترك كل هذه الكتب الخرافية و يتباعد عنها على قدر الامكان وان يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ككتب الديانة المطهرة وكتب الآداب والفضائل وتهذيب الاخلاق وكتب التواريخ الصحيحة وكتب العلوم الحقيقية فانها أنفع للنفس و يرى المشتغل بها فائدتها في أقرب زمن على أسهل وجه بدون ان يلحقه جزء من مائة من تلك المشقات ولا ان يلتجيء الى اضاعة الاموال فيما لا يفيد

وفى ظني ان كل هذا مما يقع عند اخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان فان كل واحد منهم يذهب الي ماذهبنا اليه ويرى ما رأيناه وسنعود الى هذا الى الموضوع مرة ثانية ان دعت الحال ثم نأتي على ماجرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات ونبين تأثيرها في النفوس ودرجتها عند أهل المدن والارياف

ونفصل الاصناف المتعارفة منها عند العامة و بالجملة نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد ان شاء الله

وكتب في العدد ١١٤٢ الصادر في ٢٢ رجب سنة ١٢٩٨ — ١٩ يونيه سنة ١٨٨١

اختلاف القوانين باختلاف أحوال الامم

(عدنا الى الكلام في القانون حسبما وعدنا)

ان المبدع الاول جل شأنه أودع في الانسان قوتين عملية ونظرية ليتوصل بهما الى كماله المخصوص به وربط احداهما بالاخرى فجعل كمال الاولى متوقفا على كمال الثانيــة فصار الانسان مفطورا على طلب النظريات والوقوف على الحقائق قبل ان يباشر عملا ما فان العمل لا يقصد الا اذا كان له من النتائج ما يبعث على مباشرته وليس كل عمل ينتج الفائدة المعتد بها بل لا بد ان يكون على نهج مخصوص ولا جرم ان تصور النتيجة ومعرفة أساليب العمل مما يناط بقوة النظر فاذا كملت جاء العمل على أحسن الوجوه وكانت الفائدة أعظم والغاية أكمل

ومن هذا صار كل انسان حريصا على استكمال النظريات أولا و بالذات ليهتدي بها الى مناهج أعماله التي يقارفها للحصول على كمال حياته و يميز النتائج على اختلاف درجاتها في النفع ليضع بازاء كل واحدة منها عملا مخصوصا مرتبا على وجه معلوم أقرب فائدة وأسهل تناولا وأحكم وضعا

فعلوم الانسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة ويضبط بها طرق الاعمال الموصلة الى تلك الفوائد حتى لا يخبط في سيره ولا يختلط عليه النافع والضار فيقع في الشقاء وتنتابه أيدي البلاء

وحيث ان أحوال كل أمة تابعة لمعلوماتها على نسبة بينهما كنسبة العلة والمعلول فهي انما تتخذ لاعمالهــا حدودا وتختار لاوضاعها قوانين بحسب قوتها في النظر ورتبتها في الفكر بحيث لا تخرج وقتا من الاوقات عما تسنه سجيتها من

التقاليد والاخلاق الا اذا أتاحت لها الفرص الارتقاء الى درجة أعلى في النظر وأرقى في الفكر

ولما كانت القوانين مناط ضبط الاعمال لتكون منتجة لجلائل الفوائد وهي ثمرة الاعمال النظرية وخلاصة الابحاث الفكرية صارت قوانين كل أمة على نسبة درجتها في العرفان واختلفت القوانين باختلاف الامم في الجهالة والعلم

فلا يجوز حينئذ وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى تباينها في درجة العرفان وتزيد عليها فيه لانه لا يلائم حالة أفكارها ولا ينطبق على عوائدها وأخلاقها والا لاختل نظامها والتبس عليها سبيل الرشد وانسد دونها طريق الفهم وحسبت الصحيح فاسدا والصواب خطأ وحرفت الاوضاع و بدلت وغيرت فيقلب عليها دواء غيرها داء وذلك لقصر نظرها وعدم درايتها بوجوه تلك القوانين وماهي الداعية لها والحاجة اليها فان الحاجة هي الاستاذ المرشد والمعلم الاول متى علمها الانسان حق العلم صار حريصا عليها مقيدا بها فلا يخالف مادعت اليه وقضت به واذا كان وضع القوانين بين قوم داعيته حاجتهم اليها فلا تسمح لهم ظروف الاحوال بمخالفتها أما من لم تدعهم الحاجة اليها فلا يرونها من الضروريات فلا لوم عليهم اذا نبذوها ويكون تكليفهم بها من قبيل التكليف بالمحال بل الاجدر بهم ان يعلموا أولا ماهي الحاجة ليستووا مع غيرهم في العالمية ويتحدوا معهم في مايترتب عليها

وقد جرت عادة المشرعين في كل زمان ان يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذين يراد وضعها لهم حتى لا تكون مبهمة عليهم فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها وان يلاحظوا العوائد والاخلاق ملاحظة تامة فلا يخرجون في تأسيس القوانين عما تقتضيه من الشدة والتخفيف فرب طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف ويردعهم الوعيد بالجزاء الهين اذا كانت طباعهم سهلة الانقياد ونفوسهم شريفة وحواسهم سريعة التأثر فهولاء لا يسن لهم من القوانين الا ما كان منطبقا على أحوالهم فلا يكلفون بالقوانين الصارمة لانها تضر بهم شأن من يتجاوز في استعمال الدواء الحد المخصوص

مثلا اذا فرض أن واحدا ممن وصفناهم فعل مايستوجب العقاب وكان السجن .

بالنسبة اليه أمرا يؤثر في طبيعته ويؤلم نفسه على مابها من العزة ولطف الحاسة ألما شديدا ويشق على نفوس عشيرته وأهل وطنه ان يقال فلان سجن لجناية كذا بحيث يكون وقوع ذلك لواحد منهم من أكبر الزواجر عن اقتراف الذنب الذي وقع منه فيكون الحكم على هذا المجرم حينئذ بما هو أعظم من ذلك كالنفي والطرد والاعمال الممتهنة الشاقة ظلما بينا لان ذلك ربما يفضي به الى الموت العاجل ويؤثر في نفوس عشيرته وبني جلدته انقباضاً مستمرا وحقدا أبديا لعلمهم بخطأ الحكم وظلم الحاكم وليس بعد ذلك الا ان تتقد نيران الفتن وتلتهب حمية الغضب بين هؤلاء الناس وتكون عاقبتهم شرا أو تخمد النفوس وتذل الطباع وتنعدم الشهامة من الافراد وبئست العاقبة هذه

ورب أمة فطرت افرادها على الغلظة ومجافاة الرقة وكانت بواطنهم منطوية على الخسة والسفالة ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف فهؤلاء لا يردعهم عن غيهم ولا يصدهم عن موارد بهتانهم الا القوانين الصارمة المؤسسة على الجزاآت الشديدة فمن الخطأ البين ان يعامل مذنبهم بالسجن مثلا اذا كانت نفسه تستخف ما هو أشد منه عقاباً فان الغرض من وضع القوانين انما هو مجانبة ما يخل بالنظام ويبدد هيئة الاجتماع ويضر بالمصالح الشخصية والمنافع العمومية فاذا لم تكن مؤدية لهذا الغرض فليست الا مجرد تكاليف ألقيت على كواهل الناس بل لا تعد الا توسيعاً لدائرة المفاسد واكثارا للمظالم

ولنا شاهد على ما ذكرناه حالة بلادنا من قبل فقد مر على أهلها زمن كانوا فيه همجا لا يعرفون صالح نفوسهم لتمكن الجهل منها وقتئذ فكانوا لا يعتدون بالزراعة مع توفر أسبابها وصلاحية الاراضي لها وكان الملاك لا يعرفون قيمة ما يمتلكونه منها فيود الواحد منهم ان لو انتقلت أملاكه لشخص آخر حتى لا يكلف بأداء ما فرضته عليه الحكومة من المطالب ولا يقيم في بلده مدة تناله فيها أيدي الحكام فكان أهالي البلاد يهاجرون منها الى بلاد أخرى خوفاً على نفوسهم من الزراعة والاخذ بوسائل الغنى والثروة فاضطرت الحكومة وقتئذ ان تلزم الاهالي بامتلاك الأراضي وزراعتها ورتبت على المخالفين قوانين صارمة تشتمل على مواد

العقاب الشديد فاذا جاء الوقت الذي تطالب فيه الحكومة بالمطاليب الاميرية امتلأت السجون من بقايا الذين هاجروا من البلاد وراج سوق الكرابيج فكنت ترى كافة الاهالي مابين فار من بلده ومودع في السجن وموجع بالضرب وكان لخراب البلاد وعمارها أوقات معينة في السنة لاتتعداها واستمرت على هذه الحالة السيئة أمدا طويلا الى أن توطدت نفوسهم على العمل وتمهدت لهم طرق الزراعة ودخلت في دور جديد بما أتيح لها من المعدات التي سهلت طرقها وثبتت الاهالي في البلاد وأخذوا خطة واحدة في فلاحة أراضيهم غير مبالين بمطاليب الحكومة لكونهم ابتدؤا يعلمون أهمية الزراعة ويعظمونها ويتنافسون في حاصلاتها فتبدلت القوانين التي كانت تتخذها الحكومة لزجر الفلاح عن الفرار واهمال الزراعة والتقاعد عن الاداء نوعاً من التبدل ثم تبادلتهم الايدي الظالمة أمدا ليس بقصير ولكنهم لم يزالوا ثابتين على أملاكهم فسئموا سوء المعاملة واشتاقت نفوسهم الى قانون عادل ينتظم به أمر الاداء فساقت لهم يد العناية الالهية من لدن الحكومة التوفيقية من أسس لهم قانونا عادلا في هذا الشأن دخلت به مصر في عصر جديد وارتفع من بين أهلها صوت الكرباج وبدل جزاء التأخير عن أداء المطاليب بما لا يحط من شرف الانسان ورتبت المصالح العامة على قوانين لاتخالف مشرب أهل البلاد بوجه يغاير القوانين السالفة وذلك مرتب على تغاير الحالتين وتباين المشرب بين أولا وآخرا فلو جعل جزاء التأخير في الزمن السابق هو انتزاع الارض من يد مالكها لكان أحب شيء اليهم هو التاخير ليستريحوا من كتابة اسمهم في دفتر الملاك وكان هذا الجزاء ثوابا عندهم في الحقيقة لاعقابا لكنه الآن أصبح من أشد العقاب

وقد آن لحكومتنا ان تعطف عنان النظر الى قوانين المجالس القضائية لتجعلها مناسبة للحالة الراهنة فتختار منها مالا يصعب فهمه ولا تحتمل عباراته معنيين أو جملة معان ولا تكون مواده من قبيل القواعد العموميه التي تنطبق أحكامها على جملة من الجزاآت لكثير من الجنايات المتباينه حتى لا تكون القوانين نفسها ذريعه لارباب الأغراض الفاسدة فيلعبون بالحقوق كما يشاؤن مع ان من بايديهم أزمه القوانين ليسوا في رتبه المشرعين الذين يستنبطون مما يحتمل خلاف الظاهر

أو من القواعد العمومية الحكم المنطبق على حقيقة الامر والواقع على أن أرباب الحقوق منا ليسوا منزهين عن الشكوك والظنون الفاسدة فربما أساؤا الظن بمن يكون بريئا عن الخطأ والخيانة مع خفاء الحكم من نفس المواد القانونية وعدم انكشاف النص منها وذلك يؤدي الى حرصهم على استئناف التحقيق أولا وثانيا فيطول الامر وتتعطل المصالح وتزيد النفقات وتشتد الضغائن وتتسع أبواب المفاسد مع كثرة الوقائع والمشاكل كما هو حاصل فى بلادنا الآن فيجب حينئذ أن تكون مواد القوانين نصوصها صريحة ظاهرة الاحكام منطبقة على كافة الوقائع مفصلة الابواب سهلة التراكيب

أما القوانين التي كانت متناولة في بلادنا حتى اليوم فانها (مع كونها قاصرة مجملة غير بينة الاساليب) ليست مضبوطة ولا معروفة عند الناس بل بعضها يعرف بالقانون الهمايوني و بعضها يسمى باللوائح و بعضها يدعي بتعليمات الحقانية والبعض يقال له قرار الخصوصي والبعض الآخر منشور الاحكام والبعض الامر العالي الصادر في تاريخ كذا وهكذا مما لا يحصى عدده ولا يمكن لاحد ما حصره فكيف يعقل أن يكون هذا التشديد (لعلها التشتيت) قانونا يقف العالم عند حدوده على أنهم لو علموه لما تصوروه لكونه غريبا عن أحوالهم بعيدا عن مداركهم

فمن الواجب اصلاح هذا الخلل البين الذي أضاع الحقوق وأضر بالأمن ومن اللازم الاسراع به وعدم تفويت الوقت واضاعة الزمن في الاقوال التي لا طائل تحتها ويلزم ان تكون القوانين مستوفاة جميع القيود والشروط ولا يحال فيها على المنشورات ولا اللوائح تسهيلا لضبط الاحكام وتطبيقا لها على مقتضى الحال وان تكون منطبقة على حالة الاهالي ودرجة ادراكهم ليمكنهم دركها والعمل بمقتضاها كل على حسبه والا كانت حبرا على ورق فقد تقرر في مدارك العلماء والسياسيين من سابق ولا حق ان المشرعين وواضعي القوانين يضطرون دائما الى مراعاة العوائد والاخلاق ليتمكنوا من تأسيسها على وجه عادل نافع بل ان أحوال الامم بنفسها هو المشرع الحقيقي والمرشد الحكيم النطاسي وان القوة الحاكمة تابعة لقوة رعاياها فلا تخطو الاولي خطوة الا اذا كان لها من الثانية سائق الى

ماخطت اليه نعم لا ننكر ان أعداد الوسائل والمعدات منوط بالقوة الحاكمة فهي تلزم بها رعاياها كرها أو اختيارا لكن على قدر طاقة المحكومين فاختلاف هيئات الحكومات وتبدل قوانينها تابع لما تقضي به حقوق الوطنية التي هي فى الحقيقة حالة الرعية فان انتقال حكومة فرنسا مثلا من الملكية المطلقة الى المقيدة ثم الى الجمهورية الحرة لم يكن بارادة أولي الحل والعقد فقط بل المساعد الاقوى حالة الاهالي وارتفاع أفكارهم وتنبه احساساتهم لطلب الرقي الى أعلى مما هم عليه فتغلبوا على جميع القوى الغريبة التي كانت تحول بينهم و بين الوصول الى مطلوبهم من معرفة الواجبات الحقيقية على أنهم لم يصلوا الى هذه الغاية الشريفة الا بعد قطع العقبات التي هي دون الوصول اليها اذ بدون ذلك لا يمكن ان تنال الغاية ولا يدرك المطلوب

وحيث كانت تلك الوسائل وهذه المعدات من مزالق الافهام والعقول كانت معرفتها والحصول عليها بذاتها في غاية الصعوبة فربما يقع فى وهم طائفة من الناس أنهم تهيئوا لان ينتقلوا الى خطة أرقى في المدنية والنظامات القانونية وليس الامر ماتوهموه فيتقهقروا الى الوراء بأن يعمدوا الى جعل التشريع حرا والمشاركة في التأسيس مباحة وليسوا آمنين من دسائس الاغراض ولا متمكنين من الوسائل التي تهيئهم لهذا الامر فيفشو فيهم داء الاختلاف و يلحقهم دخل العناد فلا يهتدون الى الصواب ولا يبرمون رأيا ولا يبتون حكما و يمضون الزمن في قيل وقال فتفوتهم ثمرة الحزم وتضيع مصالحهم ويصدق فيهم المثل (من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه) و بالجملة فليست هيئة النظام المدني لامة من الناس سوى صورة لمادة الملكات التي اكتسبتها افرادها من مألوفاتها وعوائدها التي نشأت عليها سواء كانت ممدوحة أو مذمومة وان اختلاف قوانينها في معارج صعودها ومدارك هبوطها لا ينفك عن هذه الملكات مهما تغيرت أصنافها وتبدلت شؤونها وهذا ماجعل عقلاء الناس يجتهدون أولا في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عند مايريدون ان يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكما فيقدمون التربية الحقيقية على ماسواها ليتسنى لهم ان يحصلوا على هذه الغاية بل يجعلون فى نفس القوانين النظامية فصولا وأبوابا تضبط الاخلاق وتحفظ الملكات الفاضلة وتكون حدا تقف عنده

النفوس في أعمالها وتلتزمه الاشخاص في سيرها حتى تنتقل الاعمال من حالة التكليف الى حالة العادة والملكة فتصبح الاخلاق فاضلة والعادات حسنة وتسير الامة في طريق الاستقامة الى خير غاية.

وكتب في العدد ١١٨٦ الصادر في ١٤ رمضان سنة ١٢٩٨ — ٩ أغطس سنة ١٨٨١

تأثير التعليم في الدين والعقيدة

من المعلوم الذي لا يشتبه فيه ان أرباب المذاهب والاديان على العموم وان اختلفت عقائدهم وتنوعت مشاربهم يحترمون اعتقاداتهم ويجلونها وينزلونها من العلو اعلى منزلة ويدافعون عن حرمتها ببذل الاموال وفناء الارواح حتى ان صاحب العقيدة الثابتة في دينه ليموت بالسيف قطعا وبالنار حرقا وبالحجر رضا ولا يتحول عن عقيدته وذلك ظاهر فان كل دين يرشد متقلديه الى ان الدنيا فانية وان هناك دارا باقية نعيمها يفوق كل نعيم وشقاؤها يهون دونه كل شقاء وكلاهما ابدي لا ينقطع فالرجاء والخوف يدفعانه الى الموت على أي وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها والجحيم عقاب العدول عنها

ثم ان التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض نقيضها ودحض كل حجة تخالفها وتقضي عليه بأن يرى جميع مخالفيه فيها من الاشقياء الهالكين حيث ان النجاة مربوطة بعقيدته والهلاك معقود بمخالفتها وذلك يلزمه بمقتضى الطبع ان يسعى جهده في نشر عقيدته وتمكينها في القلوب وتثبيتها في النفوس لاحد أمرين

الاول سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة وخوفه من أن يسعى في ضرره لانتقاض الرابطة الاعتقادية بينهما فهو يسعى في ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد حتى يكون واسطة في الاتحاد على التعاون والانتفاع الذاتي والأمن من المضار وان صاحب العقيدة لهذا السبب لا يألو جهدا ولا يؤخر سعيا ولا

يترك وسيلة توصله الى الاكثار من الموافقين له في الاعتقاد حتى تتوفر له المنافع ويكونوا له عونا على دفع الاخطار

الثاني الشفقة الانسانية فان الذى يعلم ان عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية وان جاحدها لابد ان يصيبه الشقاء السرمدي ويعلم ان بني الانسان كلهم اخوة أبناء آب واحد وأم واحدة يجب على كل منهم ان يسعى طاقته في نفع الآخر كل هذا يحمله على ان يرق ويرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة فيدعوهم الي ان يكونوا على مثل اعتقاده لينجو في الناجين ويستعمل كل حيلة لانقاذهم من الاعتقادات التى يظنها مضرة بهم مهلكة لارواحهم بعد مفارقة أبدانهم

ولهذا نرى أرباب المذاهب والاديان منتشرين في كل جهة ضاربين في أرض يطلبون انتشار مذاهبهم وبث معتقداتهم بكل مايمكنهم من الوسائل فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ومنهم من ينشيء المدارس والمكاتب للتعليم وهذا القسم الاخير هو الاكثر عددا والانجح سعياً فان العقول في سن الصغر ساذجة والاذهان خالية وهي مستعدة لقبول مايرد اليها من الافكار قابلة للتأثر والانفعال بما يطرأ عليها من صور الاعمال والآراء والاحوال خصوصا اذا كان جميع ذلك صادرا من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي فمتى وجد الولد صغيرا في حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم فلا ريب تؤثر فيه احوالهم وأعمالهم واقوالهم وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه فأيًّا كان اباؤه واسلافه الاولون لايحفظ عقائدهم ولاهيئات احوالهم بل يتشكل عقله ولبه بالاشكال التي يفيضها عليه مهذبوه ومعلموه ايا كانوا فان خالفت مذاهبهم مذاهب ابائه وأسلافه فلاشك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذهبهم لتاثير أحوالهم عليه

خصوصا وقد بينا فيما سبق ان كل ذي دين يميل بالطبيعة الي بث دينه

وإعلاء كلمة اعتقاده فأي مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو رؤساء مذهب بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب فلا شك ان حالهم وقالهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه ويزداد التأثير بطول المدة وحسن المعاملة والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربهم لافرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب وجميع هذا لالوم فيه على صاحب الدين أو المذهب فالذي دعاه اليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر واما الشفقة والرأفة على عباد الله بحسب اعتقاده الذى يراه يقينا لاريب فيه بل ان هذا التغيير الذى يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلميهم ومهذبيهم قد تحصل بدون قصد من المعلمين بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في أقطارنا المصرية التي أسسها وانشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب وانما الغرض منها نشر العلوم وبث أنوار التمدن (وعلى مايقولون) كمدارس الفرير والامريكان والانكليز وغيرها فاننا وان فرضنا أنه لاغرض لهم في انشائها وصرف المصاريف الزائدة عليها الا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط لكن حيث ان رؤساءها ينسب كل واحد منهم الى مذهب من المذاهب المسيحية فالرئيس منهم ليس بملزم ان يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتبا خاصة توافق مذهب التلميذ وديانته ولا ان يجعل التعليم في كتب تختص بمذهب غير مذهبه لايعرفها وان عرفها فربما لايفهمها ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتبا توافق مشربه ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والاملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم والكاثوليك يقرءونهم مايوافق مشربهم وهكذا فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرءون كتبا واحدة توافق مشرب مؤسس المدرسة

خاصة فاذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت مثلا فلا شك ان عقائدهم تتحول بالتدريج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أوالدين الاسلامي الى مثل عقائد البروتستانت ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك أوفي المكاتب الدينية الاسلامية كمكاتب الفقها مثلا أومدرسة الازهر فان المتعلم فيها ان كان صغيرا لاشك تحول عقائده أيا كانت الى الدين الاسلامي بتأثير الكتب فيه فضلا عن تأثير هيئات العبادة وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لاتشعر وكل هذا لالوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلا فانهم لم يعملوا شيئا الا بحسن النية وصدق القصد وليس لهم من غرض سوى افادة العموم على حسب اعتقادهم

غير ان عزة العقائد على النفس كما بيناه في صدر مقالنا هذا تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الأبناء فاذا شعر الوالد بان ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول طار عقله وانبعث الى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ماعساه يحدث تشويشا في العموم وقلقا في الافكار ومن ذلك ماحدث من مدة سنوات ان أحد أولاد مصطفى أفندي المنشاوي واسمه أحمد فهمي كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الامريكان البرتستانتية وبعد مضي ثماني عشرة سنة من عمره أظهر التمذهب بالمذهب البروتستنتي ودعا أباه واخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة وكان لهذه المسئلة قصة هائلة لم يزل يتحدث بها الناس حتى اليوم وتداخلت فيها الحكومة وقنصلاتو أمريكا وانتهى الامر بفقد الوالد ولده حيث سافر الولد الى جهة لايعلمها والده وهو باق فى حسرة فراقه يتقلب على جمر القلق حتى الآن خصوصا مع مايراه في هذا الامر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته اجيالا

وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع وقعت في هذه الايام وهي ان أحد أولاد حسن أفندي الحكيم من رجال الحقانية كان تلميذا في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ثم انتقل منها الى مدرسة الطب غير ان المودة كانت لم تزل بينه وبين رؤساء المدرسة وبعد ان أقام في تعلم الطب سنتين تغيب من مدة أسابيع

ولم يعلم أين ذهب ولم يهتد والده الى السبب حتى أخبر أخ له صغير بأنه رأى رقيما من رؤساء المدرسة مبعوثا الى أخيه المتغيب يعينون له فيه يوم السفر فقط بدون زيادة و بعد البحث والتدقيق علم انه في مدرسة الفرير بالاسكندرية غير ان المسئلة لم تتضح حتى الآن كمال الوضوح

فهذا الامر أفزع والده وعائلته وأوقع بهم من المصائب مالم يكن في حسابهم غير ان اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد الى المدارس التى يتولى التعليم والادارة فيها معلمون على غير مذهبهم أوغير دينهم ويقيمون بينهم الازمنة الطويلة يتلقون عنهم الافكار والتعاليم من كل نوع حتي تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم

فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أومذهبه سواء كان مسلما أو مسيحيًا أو يهوديًا وسواء كان قبطيًا أو أرثوذكسيا أو بروتستانتيًا أو غير ذلك من المذاهب ان لا يبعث باولاده وهم صغار لا يعقلون ولا يفهمون الا مايلقى اليهم من المعلم والمؤدب الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه أودينه ومن تساهل في ذلك ثم تغير اعتقاد ابنائه وانقلبت مذاهبهم الى مذاهب أخرى فلا يلومن الا نفسه

اما من لا يلتزم اعتقادا خاصا ولا يرى لنفسه مذهبًا معينًا فله ان يرسل أولاده في أي سن الى أي مدرسة اذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم ولا تتفاوت عنده اشكال التربية وصورها فجميعها لديه سواء

و بالجملة فأنا نقول ان كل صاحب اعتقاد يخاف عليه و يحرص على بقائه و يحب ذلك لاولاده ونسله فاول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده بحفظهم عن مخالطة من يخالفه فى العقيدة وهم في سن الصغر فاذا بلغوا رشدهم وعقلوا عقائدهم وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم فلا بأس باطلاق سراحهم يعاشرون من شاءوا و يستفيدون العلم ممن يريدون ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته العديم الغيرة في حفظها وسنعود الى هذا الموضوع عند مايرد الينا تفصيل الحادثة الاخيرة وما انتهى اليه الامر فيها

وكتب في العدد ١١٩٧ الصادر في ٢٩ رمضان سنة ١٢٩٨

(بقايا مسئلة تأثير التعليم في العقيدة)

نوهنا في احد أعداد جريدتنا سابقًا بتغيب ابن حسن أفندي الحكيم بما أغراه بعض رؤساء المدارس الاجنبية واستهواه عن عقيدته وفيما يقال انهم رغبوا السفر به الى الجهات الخارجة عن القطر المصري حسب مايوجهونه وان كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة وجحد احسانهما اليه بالتربية البدنية وما أنفقا من كسب الايدي عليه لتكميل تربيته النفسية وجرح قلوبهما بفراقه وهو عزيز لديهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما فى تهذيبه وتعليمه

وأشرنا في ذلك الى أن حضرة والده الوله المحزون على ما أصابه توجه الى الى الاسكندرية مستقصياً خبره فبلغنا بعد ذلك انه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه فرجع الى المحروسة فى حالة اليأس فأشير عليه بتقديم تقرير الى قنصلاتو دولة فرنسا يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغووه وأغروه بفراق والده وارتكاب العار الشنيع الذي لايخصه بل يعم العائلة بتمامها كما وقع لسابقه فحرر تقريرا بذلك وذهب الى الاسكندرية لهذا الغرض فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة الى ان ورد الينا من أحد أصحابنا بالاسكندرية رقيما يفيد ان الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت الى مثل هذا العمل (التفريق بين الوالد والولد) ولنورد عبارة هذا الرقيم ببعض تلخيص فمنها تتضح حقيقة المسئلة قال صاحبنا بعد الديباجة

ان نجل حضرة حسن أفندي الحكيم الذي نوهتم بذكره في أحد أعداد الوقائع في الاسبوع الماضي قد أحضره خاله من الميناء الغربية باسكندرية (محل وجود الوابورات البحرية) وعلم من كلامه (كلام الفتى) انه كان متغيبا جهة الرمل (بالاسكندرية) يدارس مع أحد الاساتذة بعض فصول علمية وانه لما علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الاسلامية وحضر قاصدا خاله ولم يكن له علم بان والده بالاسكندرية ولما قيل له انه موجود بهذه

المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم سعى اليه وقابله وقبل يديه وأظهر له الخضوع والطاعة وأبان له انه حريص على دينه المحمدي وأنه لايرغب عنه ولم يحمله على التغيب الا حب العلوم وتشوقه لاتمام علم الطب لشدة شغفه به ثم ان والده أخذ يلاطفه و يعده بما يميل اليه وبأنه سيهتم في توجيهه الى أي جهة يريدها من الجهات الاوربية حتى آنس منه الامتثال وقد حملته الغيرة على ان يكتب الى الجريدة الرسمية بنفي ما نسب اليه الا ان والده رغب الي ان أكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد الوقائع اه

غير اني كنت أحب أن يكتب الي هذا الفتى بنفسه ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره وأرجو ان يكتب الينا بشيء من الفصول العلمية بأي عبارة كانت لننشرها تحت اسمه ويكون له الفضل ونؤدي له على ذلك الشكر

ولنعد الى أصل الموضوع فنقول ان عبارة هذا الرقيم في الحقيقة وافية بكشف الواقع وانه لم يخرج عن حد ما نوهنا به سابقا الا أننا نضرب عن بيان وجوه ذلك صفحا فقد ظهر لنا وتحقق ان هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الالهية بارضاء والده الحنون الشفوق والابتعاد مما يلحق به و بوالديه وعائلته من ألم الحزن والاسف اذ يلم بوالديه مالا يقدر من الاحزان على فراقه و بعده و يحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ في فكره أوخطر بباله حالة أبويه وما وصل أمرهما اليه اذ توبخه ذمته و يلعنه ضميره كلما تذكر الاحسان السابق منهما اليه مع اساءته اليهما وهو قادر على مكافأة الاحسان بالاحسان فنحن نشكر له هذا الانتباه ونحمده على تلك الغيرة الدينية بل الحمية الانسانية ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى في الرتبة تالية للاقرار بربوبيته ووحدانيته اذ قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا) وقال تعالى (وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه و بالوالدين احسانا) و بأن يعظم قدر الاحسان الذي أسدياه اليه صغيرا وهو فاقد القدرة والارادة ووالياه بالبر حتى صار رجلا ذا قدرة على الكسب واختيار وارادة في الخير والشر فقد قرن الله شكر الوالدين بشكره في أمره فقال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في

عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير)

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ولا ريب ان هذا هو الذي يمحو عنه كل شيء لحقه من تلك الاشاعة التي ظهر آخر الامر على ضدها وفقه الله تعالى لحسن الطوية ووفقه عقله بنور المعرفة ليسعى في ارضاء والديه وتسكين خواطرهما قياماً بأمر الله في جميع كتبه على لسان جميع رسله

والامل بعد هذا ان لا يتغيب عنهما الا باذنهما سواء كان لمدارسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت حرصا على برهما ثم اننا نعيد انذار الآباء هداهم الله بان لا يسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر وتشويش البال وان لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى باذن الله تعالى بمنع التعلم الديني في جميع مدارس العالم فتكون المدارس قاصرة على العلوم الغير الدينية والصنائع ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه وهذا خصوصا في مثل أقطارنا أبعد من مجيء الالف على رأس المائة على ان ماسبق منا نشره في الاعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر في العقيدة فلا يؤمن على الاطفال من تغيير المذاهب الا اذا ارتفع استحسان الشخص لمعتقد واستوى جميع الاعتقادات عنده وهذا محال مادام الدين دينا فليتنبه من يتنبه ولينتبه الآباء ان كانوا يعقلون

وكتب في العدد ١٢٢٣ الصادر في ٨ القعدة سنة ١٢٩٨ — ١١ اكتوبر سنة ١٨٨١

نيل المعالي بالفضيلة

عثرنا في جريدة المقتطف على فصل مفيد يحكي تاريخ الجنرال غارفيلد رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا فكان هذا التاريخ شاهدا على ما للرجل من وفرة العلم وكثرة التجربة وتقلبه في الاعمال النافعة لبلاده ودليلا على ما لبلاد أمريكا من التقدم في المدنية حيث ان فضل الرجل عندهم يعرف ويشهد لهم

به فلا يحول بينه و بين ما يؤهله له استعداده وضاعة أصوله أو خمول عشيرته أو فراغ يده من النقود أو حقارة مسكنه أو خشونة مأكله فجميع هذه الظواهر التي لادخل لها في جواهر الرجال ليست معتبرة عندهم ولا هي المدار في ارتقاء مراتب الشرف والسيادة وقد استفيد من هذا التاريخ ان هذا الرجل لم يصل الى ما وصل اليه بلزوم أعتاب الكبراء ولا الوقوف خلف أبواب الامراء ولم يرفعه الى منزلة الرياسة العظمى صفاء لون الوجه ولا حسن تركيب الخلق ولا توسطه في منافع من هم أرفع منه منزلة ليجذبوه من حضيض حطته الى أوج رفعتهم وهكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الفاضلة وسعة المعلومات و بذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة

وهذا (هو) الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجد في كسب الفضائل الحقيقية واستعمال العقل الانساني فيما خلق لاجله من اصلاح أحوال المعيشة وسعادة الدارين وسلوك طرق الرشاد واستخدام جميع الوسائل الالهية التي أعدها الله تعالى لمنافع خلقه ووهب لهم ادراكا يتمكنون به من اجتناء منافعهم منها

فأرباب الثروة وذوو المقامات الرفيعة يعلمون ان المناصب وارتفاع الشؤون انما تنال بالفضائل التي ألهم الله بها عباده وهداهم اليها على لسان من اختصهم بمزايا الادراكات السامية ودلهم عليها بالحاجات والضرورات بما ساقه اليهم من حوادث الكون التي هي خير أستاذ ماهر للعقول الانسانية والنفوس البشرية وجعلها قواما لسعادة المعيشة وركنا شديدا لبيت الحياة وهي الفضائل التي دونت لها كتب العلماء والحكماء وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم ويجمعها طلب النفع الخاص من طريق الفائدة العامة أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حد ما ينفع الجمعية المعنونة باسم واحد كمصر أو الشام أو أمريكا أو ينفع لعموم نوع الانسان ولا يجلب ضررا على أحد من المجتمعين لافي العاجل ولا في الآجل الا أن يتوقف عليه نفع جميعهم ويتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع لها وكل واحدة منها أصل لفضائل لا تنحصر الا بالذوق الطاهر والفكر الدقيق و يلزم لنوال كلها اتساع دائرة العقل في المعلومات ومقارنة الحوادث بعضها

بعض فى السير المدني ونسبة كل منها الى الآخر في المنفعة والمضرة حتى يتيسر للشخص حسن الطالب على النحو الذي بيناه ويتبع هذا الواجب نشاط فى العمل المفيد للفرد والمجموع واحتمال لكثير من المشاق المتعبة في أوقات وان أعقبها راحة دائمة ثم يعقب ذلك تحلٍ بصفات كثيرة وتخلٍ عن أغراض جمة تسمى الاولى باسم الفضائل وتعنون الثانية بعنوان الرذائل فاذا تيقن الأعلون من الناس ان لا رفعة ولا ثروة الا بحوز هذه الفضائل دأبوا في تحصيلها و بذلوا الجهد في المحافظة عليها فيسعدون بما يستفيدون ويسعد غيرهم بما يفيدون اذ يحرصون على اتقان في العلوم والصنائع التي يحتاجها غيرهم فيطلبها منهم بالثمن الذي يرغبون ويجتهدون فى منع كل ضرر يخشى وقوعه لهيئتهم الاجتماعية التي هم أعضاؤها الرئيسة فتطالبهم الافراد للسيادة عليهم جزاء لهم بحسن خصالهم وجميل فعالهم

أما الوضعاء من الناس وذوو الانساب الحقيرة ومن لا اسم لهم فانهم يعلمون ان هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة وان من لا قدر لهم ولا تعلم أسماؤهم لخمول ذكرهم وحجب ستارة الفقر والاعدام شواخصهم عن أعين الناظرين يعلو ذكرهم وتتوجه الافكار الى معرفتهم والقلوب الى احترامهم وتطلبهم المنازل الرفيعة وهم في مساكنهم الحقيرة فيجدون و يجتهدون في اكتساب مايؤهلهم و يعدهم للحاق بمن سبقهم في الاعمال النافعة والاوصاف الفاضلة لينالوا من رفعة الشأن مثل مانال السابقون و بذلك تكون الامة على اختلاف طبقاتها فى حركة صعود دائما فان الغني وذا الجاه لايريان لحفظ غناها وجاههما أو الاستزادة منهما الا المحافظة على منابع الخير من ذاته والبعد عن قواذف الشر ومطارح الضر والفقير وخامل الذكر لايجد سبيلا الى الغنى ونباهة الاسم الا المبادرة الى أسبابه الحقيقية وهي التشبه بالنبلاء والوجهاء الذين لم ينالوا النبالة والوجاهة الا بالفضائل الحقيقية في التحلي بتلك الفضائل حتى يصبح نبيلا وجيها مثلهم فتقوى في الامة دعائم العمران وتثبت فيها أصول السعادة التي وضعها الله تعالى لتحسين حالة الانسان في حياته ووقايته من الخطر الذي يتوقع أن يحل به وعند ذلك تمكون للامة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة والقوة والشوكة والغنى

والثروة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات التي تمدح بها و يعلو شأنها

وهذا بخلاف ما يوجد فى كثير من البلاد التي لاعناية لها بشأن الفضائل فلا ينظر فيها الى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينته العقلية ولكن أهاليها ينظرون الى الرونق الظاهر والحلية الصورية و يعدون الاعراض الساقطة في المنزلة الاولى من الاعتبار فلا ينزل الواحد فيها منازل الشرف الا اذا كانت له من أبيه أو من متبوعه جهة الشرف ثم ان صاحب الجاه والشأن الرفيع لا يسقط من مقامه فان جاهه هو الحافظ له وشأنه هو الذي يقدم أبناءه وحواشيه الى مثل مقامه وان كان فاقدا لكل فضيلة وخاليا من كل صفة الانسانية فتكون الطبقات في مثل هذه البلاد على الدوام ثابتة افرادها على حال واحد في أزمنة كثيرة فالفقراء يبقون على فقرهم والاغنياء يدومون على غناهم وقليل ان يصير الفقير غنيا و يلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى وفي مثل هذه البلاد قد ينال بعض المستضعفين وآحاد الناس ومن لا شأن لهم رفعة شأن أو علو مقام ولكن لا من أسبابه الطبيعية التي سنها الله في خلقه بل بوسائل التذلل والمداجاة واظهار العبودية لمن فوقه ولزوم أعتابهم والوقوف على أبوابهم أو بأن ينتصب لجلب منافعهم الخاصة فاذا داوم على ذلك أزمانا رقوا له وأخذوا بيده فدرجوه في مراقي الشرف سلما بعد سلم حتى يلحق بهم و يعد في حاشيتهم فيشرف بمثل شرفهم فبهذه الوسائل تنحرف القلوب وتميل الافكار عن الجادة المستقيمة و يدخل الناس في هذه الطرق فتنعدم الرغبات في الفضائل بل تغفل الاذهان عنها بالكلية فلا تتوجه الا الى تلك الرذائل

غير ان هذه الوسائل وان أفادت في بابها وأتت بالغاية المطلوبة منها لكن لا يمضي زمن قليل حتى تسقط الامة بتمامها و ينتهي بها الحال الى الخراب و يعم الشر جميع الافراد

فهنيئا للبلاد التي تعرف فيها الحقوق لارbabها و يدخل لها السعادة من أبوابها وأنا ننشر هذا الفصل التاريخي ليستفيد منه المطالعون .

وكتب في العدد ١٢٧١ الصادر في ١١ محرم سنة ١٢٩٩ — ٣ ستمبر سنة ١٨٨١

العلم وتأثيره في الارادة والاختيار

(لاحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية قال (*))

سألني أحد الافاضل عن سلطة الفكر والتعقل على الارادة وسلطة الارادة عليهما فلم أجد بدا من المذاكرة معه في هذه المسئلة وتوضيح ما وصل اليه عقلي نقلا عن العلماء المحققين واستنباطًا من كلامهم ولظني أن في ذلك نوعا من الفائدة لقراء جريدة الوقائع رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء وما أداهم اليه التدقيق في هذه المسئلة ولا بد قبل الكلام فى الفكر والتعقل من تقديم مقدمة فى العلم ولا نتكلم في العلم من جهة ما نقول و يقول المرشدون من انه نور العالم الانساني وشمس وجوده وروح حياته وأنه وسيلة التقدم في المدنية وكمال الحقيقة الانسانية وهو سيف القوة و ينبوع الثروة وما شابه ذلك من الاوصاف الحقة التى أجمع عليها العقلاء بعد أن صدر بها النطق الالهي على لسان الرسل والانبياء والصديقين والاصفياء فان هذه الاوصاف انما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع ومثال للحقائق الثابتة وحاكٍ عن الاوضاع الالهية في عالمنا الوجودي أما كلامنا الآن فهو في مطلق الادراك المعبر عنه بالشعور الذهني الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي

اختلفت كلمة العلماء فى مسمى لفظ العلم فمنهم من قال انه الصور المنطبعة فى النفس آتية من طرقها المعلومة (الحواس الخمس) أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر ومنهم من قال انه انفعال النفس بتلك الصور أي التأثر الذي يحصل فيها بورود الصور عليها ومنهم من قال غير ذلك من كونه نسبة بين العالم والمعلوم مجهولة الحقيقة أو اتحاد العالم بالمعلوم الى غير ذلك من الاقوال التي لا حاجة بنا الى ذكرها لكن القولين الاولين هما الاقرب الى العقل والاشهر فى النقل و يكاد الخلف بينهما

(*) المقالة بطولها له رحمه الله ولكنه أراد أن ينظر فى هذا البحث المهم لذاته

يكون لفظيا لاتفاقهما على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور فهي متأثرة بها الا أن الخلاف فى كون العلم هل هو الصورة نفسها أو تأثر النفس وانفعالها بها والاقرب للحقيقة هو الرأي الثاني وهو ما يرشد اليه الوجدان الذي يدركه كل متعقل من نفسه

فالعلم بناء عليه انفعال فى هذا الجوهر المدرك الذي تخفى علينا حقيقته لكنا نعرف آثاره وهو الروح الحيوي والقوة المودعة فى المخ والأعصاب من الحيوان أو المعبر عنه بالنفس الناطقة في الانسان فالضياء الذي قال العلماء أنه يحمل الصور الى الباصرة مثلا ليس المراد أنه ينقل صور المرئيات كما ينقل أحدنا الشيء من المكان الى البصر فيودعها فيه اذ هذا من المحالات الاولية فان صورة الشيء الذي نراه لا تفارقه بالضرورة بل المراد أن الضياء للطفه عند مروره على الصور والاشكال يتشكل بها فيكون أيضاً بنفسه قد حدث فيه شكل يشاكل هيئة مامر وانطبق عليه على حسب حالة الانطباق ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة ينعكس الى البصر بشكله فيؤثر فى الروح اللطيف (أشد لطفاً من الضياء بكثير) المودع بالحكمة الالهية في مركز الادراك بمثل ما تأثر الضياء من المرئي عند انطباقه عليه وهكذا يقال فى تموج الهواء بالنسبة الى المسموعات وفي الملموسات والمشمومات والمذوقات يتأثر الروح المنبث في الأعصاب الإدراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به فيحصل فيها مثل هيئتها التى خالطته

فالعلم والادراك أثر فى الجوهر الدراك يحدث فيه من المؤثرات الاخر المحيطة به كسائر الآثار التي تحدث في الاشياء من اتصال بعضها ببعض وانفعال كل منها بما في الآخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن ينفعل بها كالحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها والماء يكتسب شكل الاناء عند وضعه فيه وما شابه ذلك

وهذا الاثر بحكم الوضع الالهي الذي لاتصل الى كنهه العقول يثبت في جوهر المدرك مستتبعاً جميع لوازمه التي لاتفارقه فصورة الانسان مثلا يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء وهي في مكانها المخصوص ووضعها المعين

فكما صارت تلك الصورة فى الروح يكون فيه أيضا حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية ومقدار البعد بينها و بين الاشياء التى أحاط بهاالضياء وأتى بها معها و بالجملة فان الشيء يكون فى العقل كما هو في الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده الفطري حتى ذهب كثير من المحققين الى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها فى العقل كماهي موجودة في الخارج لما رأوه من التماثل التام بين صورة العلم والمعلوم فكأن عالم الادراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه وكما ان حركة الموجودات فيالعالم الخارج عن نفوسنا تدعو الى اتصال بعضها ببعض فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أوغير منتظم يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها مالم يكن لها قبل التألف فان حركة الاجزاء الغذائية مثلا وانضمامها الى البدن الانساني أو الحيواني يكسبها من صفات الحياةمالم يكن لها قبل اتصالها بالبدن كذلك حركةالجوهر المدرك فينا تفضي الى انضمام بعض الاشكال الادراكية فيه الى بعض آخر فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقيلة في ذلك الجوهر مالم يكن للشكلين الاولين ونريد من الاشكالأنواع الحركات الحادثة فىجوهر الروح فان انضمام بعضها الى بعض يحدث أنواعا أخر من الحركة

وكما يرى في عالم الشهود ان بعض اجزاء العالم يجذب بعضاً و بعضها يطرد بعضاً آخر لتمام مناسبة أوتمام منافرة بينهما كذلك بعض المعلومات فى العقل اذا حصل يوجب انضمام معلوم آخر اليه أوانفصاله عنه وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثرا جديدا ومن ذلك تذكرالشيء بعد الذهول عنه لوجود مايلائمه أو يضاده بالكلية وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة ومع بطوء تارة أخرى كما يحصل ذلك في الموجودات المشهورة بلافرق ومعنى هذا ان تأثرجوهر الادراك بحالة قد يوجب تأثره بحالة أخرى لرابطة بين التأثرين سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل ان هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على

لابدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهرا لآثاره بمعنى ان حركات هذا الروح في أجزاء الابدان توجب مطاوعة تلك الاجزاء له فهذه التأثرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة اليه توجب فى هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية و بحكم حركة هذا الروح تتحرك الاجسام والابدان بآلاتها المخصوصة على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثرها وهذا مانسميه بالحركة الارادية وهي التي يندفع بها البدن الى طلب شيء أوالهروب عنه عند العلم بملائمته أومنافرته أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أوالمنافرة حسب الشكل الذي حدث فى الجوهر الروحي المعبر عنه بالذهن يتحرك في الاجزاء المعدة لحركته فيها فتتحرك هي أيضا بحركته اما طلبا واماهربا (جذبا أوطردا)

وقد يتعارض أثران فى الجوهر المدرك الذي هو الروح و بعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل أحداهما تقتضي اندفاع الروح وحركته نوعا من الحركة والاخرى تطلب نوعا آخر منها فيقف وهي حالة التردد فاذا عرض من الآثار الادراكية أو الصور العلمية مايقوي أحد الاثرين تحرك الى مايوافقه والا فهو فى مركز الوقوف و يبقى أثر ضعيف في الادراك للصورة المرجوحة عند مايغلب على الروح أثر الصور الاخرى

فالارادة انما هى تابعة للاثر العلمي في الروح الادراكي أوهي صورة أخرى لذلك الاثر بل الفعل الصادر عن الروح في البدن أعني الحركة البدنية نفسها انما هو ظهور الاثر الادراكي في الروح فيكون حاصل القول ان المتصل بالروح أثر فيها أثرا وهو العلم أوجب حركتها في أجزاء البدن فكان عنها حركة البدن نفسها وان شئت قلت تشكل الروح وهو في الاجزاء بشكل مااتصل به فظهر ذلك الشكل بعينه في الاعضاء بالحركة الفعلية وهذا مايقول العلماء ان الارادة تنزل العلم والفعل تنزل الارادة ومعناه ان حقيقة الاثر واحدة ظهرت في الاشياء المتعددة بمظاهر مختلفة

وقد يكون تأثير الادراك في أعضاء البدن واجزائه والمواد التي يتركب

منها خارجا عن الطور الذي نسميه بالارادة وذلك كفعله في الدم عند ماينتقش بصورة فعل منافر وفي الامكان دفعه فيفور الدم و يغلي و ينتشر في جميع العروق و يدور فيهادورة غير اعتياديه فاذا اشتدت الدورة تحرك البدن الى الايقاع بمن صدر عنه الفعل الغير الملائم وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب فان تأثير الامر المغضب على الدم ليس فى حد الارادة والاختيار وان كان التحرك للايقاع واقعاً تحت الارادة لكن ربما اذا أمعنا النظر نجده خارجاً عنها وانما نعده داخلا تحتها عند ما نلاحظ ان عندنا أثرا علميا آخر يدافع طلب الانتقام و يرد النفس عنه وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يخشى من خطرها فلوجود هذا الاثر عند الغضب نحسب الحركة الغضبيه حركه إراديه والا فالغاضب يحس من من نفسه انه مغلوب لادراكه

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق فانه يفعل في الدم حركه وفي القلب خفقانا خصوصا اذا كان المعشوق بمرأى منه وبمشهد من أعماله و يتبع ذلك ارتعاد خفيف في الاعصاب والأربطه البدنيه ربما يفضي الى الرعشه وليس هذا التأثر داخلا تحت الارادة ولا هو منها في شيء ولكن قد يتبعه فعل ارادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب وانما يعتبر الفعل اراديا ماإذا كان ناشئاعن ادراك آخر سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أوالمقابلة ومرادنا من المقابلة تصور الشيء وضده وترجيح غايته على غاية الضد كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما

وقد يفعل الادراك في الدم وقفه وانقباضاً ربما تؤدي الى الجمود وفقد الحياة كما نشهده فيمن فجع بموت ولده أو صديقه أو تصور خطرا وخطبا جسيما فان قوة هذا الاثر الادراكي وفعلها في جوهر الادراك قد تتسلط على الدم فترده من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه أو توقف دورته وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والآيس و يتبع ذلك من الاعمال الارادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم وقد يؤدي ادراك من الادراكات — كتصور أمر مخيف — الى ذهاب الادراك وسلب الشعور بالكلية وهو ما يعبر عنه بالاغماء والغشي وذلك لاستيلاء أثر الصورة المخيفة على

الجوهر المدرك في البدن فلا يسفله سواها فتضمحل جميع الانفعالات المعبر عنها بالادراكات وتفنى في نوع هذا الادراك والانفعال الشديد

وهذه الاحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة الى أن التأثر الادراكي من الانفعالات الطبيعية التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء والكهرباء وغيرهما وان ما ينشأ عن التأثر الادراكي انما هو كيفيات تتبع الحالة التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثر الذي عرض عليه أي ما نسميه علما وادراكا

الملكات والعادات

ان هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل اليه وينفعل أشكالا من الانفعال لكل متصل به يأخذ بتوارد أنواع التأثرات هيئات مخصوصة تثبت فيه مستتبعة لوازمها حتى تصير كأنها من أصل خلقته لكثرة ما وردت عليه وهي التي نسميها ملكات ادراكية وعلوما ثابتة في النفس لا تزايلها ويتبعها السجايا والطبائع والاخلاق النفسانية الملائمة لتلك الملكات الادراكية ويلزمها الافاعيل البدنية المعبر عنها بالعادات

فليست الاخلاق والعادات الا توابع ومستلزمات للعلم والادراك الذي هو أثر في جوهر الروح يتبعه الاثر الفعلي فان عرض للنفس مؤثر أو وقف على أبواب الادراك وارد غريب عن ملكاتها السابقة وبعيد عن الهيئات الادراكية التي أخذ الجوهر شكلها عسر على الذهن ادراكه وتعسر على النفس فهمه ومانعت الاعضاء البدنية أثره فهذه الاخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الادراكي من نوع واحد حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الافعال الجزئية الملائمة لها كلما عرض عليها أثر جزئي من نوع الهيئة الكلية فسجية الكرم مثلا ثبتت في نفس الكريم لكثرة انفعال عقله وادراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم والفوائد الجليلة التي يكتسبها باذل المال أو باذل الهمة في سد حاجات المحتاجين فبتكرار هذه الصور والادراكات على العقل وصدور الاثر الارادي عنها وطول الزمن على ذلك تمكنت في النفس هيئة مخصوصة ادراكية وهي اليقين الذي خالط الروح بأن الكرم جميل مفيد ويتبعها انطباع

النفس بالنهي (كذا) التام لحركة الاعطاء وايصال الخير الى من يحتاج اليه فاذا أخطر ببال الكريم وصاحب هذه السجية التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدتها فعل لبخيل مناع للخير رأيت عقله يبعد عن ادراك هذا الفعل و يجد من روحه انقباضا وتعاصيا عن الانفعال به بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه احدى الحواس أو يذكر به راوي العمل وحاكيه فاذا كاف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخلاء رأى من نفسه بعد الاباية الادراكية والمصادرة العقلية انحطاطًا بدنيا وارتباطًا في الاعضاء حتى كأنه يجد عاقدا يعقد كل طرف بآخر ومانعا يمنعه من نفسه عن تحريك عضلاته بل يحس من ذاته كأن القوة المحركة الى هذا العمل الخبيث فاقدة (كذا) بالكلية وهكذا يقال فيمن تعودت نفسه ادراك غوائل الفقر والحاجة وتكاثر عليها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب وتهيأ جوهره الادراكي بصورة الانخذال والانهزام من صدمات الحوادث فهذا الذي أحاط بادراكه جميع المزعجات تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من من هذه الانفعالات وانطبعت نفسه ومبادئ الحركة فيه على الميل الى مايلائم ادراكه الثابت فهذا الراسخ هو ملكة العلم بفوائد البخل والامساك عنده وهذا المنطبع سجية البخل وعنهما تصدر الارادة بالافاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك السجية ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والاحسان وما ينشأ عنهما من الفوائد لمن تحلى بهما رأيته ينفر من ذلك نفور الوحش و يطالب سد أبواب الادراك على نفسه حتى يتكدر خاطره و يتألم بهذه الصور الرديئة المستبشعة

من جملة هذه الملكات التي ترتكز في جوهر النفس المدركة ملكات الصناعة كالكتابة والادارة والرسم والحدادة والنجارة وغير ذلك من أنواع الصنائع التي ترتسم في ذهن المدرك صورها الآتية اليه من احدى الحواس مقترنة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها وتارة لا تأتي اليه صورة الصناعة من طرق الحاسة ولكن يضطره الاحساس المؤلم (مثلا) العارض له من المؤثرات الجوية الى طلب الخلاص منه فيندفع الى التأمل في الموجودات المحيطة به لعله يجد منها ملجأ فينفعل بصور منها على هيئات مختلفة انفعالا يلائم الانفعال

الاصلي أعني طلب الخلاص من الالم فيتحرك للعمل فيها على غير انتظام ولا حالة تمام وكمال في مبدأ الامر ثم يلجؤه ركوز الفائدة المقترنة بهذه الهيئة ولزوم الحاجة لمداومة الاعمال فيها الى جبر الاعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة ان كانت الصناعة بدنية حتى تلين تلك الاعضاء وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك أعني أنها تكون في حركاتها مثالا لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو لمسها مثلا مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة حيث أثر ارتسامها في الروح أثرا خاصا وبه سرى في الاعضاء على هيئة وكيفية خاصة ويصعب أول الامر ان تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه ولكن باستحكام الاثر ومداومة العمل تنطبع الهيئة بتمامها في الاعضاء كما انطبعت في مركز الادراك ومثل ذلك الهيئة المخترعة التي دعت الضرورة الى ارتسام الذهن بها

فان كان العمل غير بدني كالادارة والسياسة مثلا من الاعمال الفكرية التي لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع ويمكن بالسهولة الاجراء على مثالها وهو ما نعبر عنه في اصطلاح الحكومة بالتنفيذ فملكتها انما تثبت في العقل وتنطبع في الروح حتى تكون كهيئة فطرية له كما في سائر الملكات بتوارد صور كثيرة مختلفة الانواع والاشكال من صور المضار والمنافع والمصالح والمفاسد ثم يوجد عنده انفعال وتأثر بغاية وداعية تبعثه على المقارنة بين تلك الصور والحركة في تطلاب لوازمها الكامنة فيها فاذا استحكمت هذه الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والاشكال العلمية أمواجه أو كالضياء لا ينفك عن الحركة يؤلف بين عدد من الصور ثم يفرق بينها ثم يجمع بين المتفرقات في نقطة ولا تسكن له حركة حتى يستقر في ملتقى المنافع وهي الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له أي التي تأثر وانفعل بها فانبعث لطلبها بحكم ذلك الانفعال وفي مبدأ الامر لا تأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه السرعة لكن متى استحكم في الروح الاثر الباعث على هذا العمل الفكري استمرت الحركة العقلية مرة تحاذي الغاية وأخرى تنحرف عنها فتحفظ للانحراف أثرا يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الاتجاه الى وجهة الطلب كطبع جبلي فيها وهذا اجمال في القول ربما

نأتي على تفاصيله فيما بعد

ومن تأمل حال سير الانسان بل طريق ترقيه وتدنيه في أعماله واختلاف عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكافة شئونه وأنه قلما يتفق جيلان من الناس بل قبيلتان بل فخذان على استحسان شيء أو استقباحه بل اذا تنزلنا الى النظر في الجزئيات رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في بيت واحد هذا يستحسن شيأ وذاك يستقبحه و يستهجنه ومن يدقق نظره في ذلك يوافقنا على ان هذه الاحوال الادراكية التي تتبعها الملكات والاعمال التي نسميها بالعادات انما منشاؤها الانفعال من المؤثرات الخارجية التي تختلف على الشخص باختلاف موقعه وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة ومن يكتنفه من أبناء جنسه وما ينشأ عليه من نوع المأكل والمشرب والملبس والمسكن وما يطرق اذنه من الاصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة وما يراه من الصور والاشكال متعاقبة بعضها أثر بعض وما يذهب اليه ادراكه من جميع ذلك مستعقبا ومستتبعا لوازمه فان جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك و يكون هيئة فيه وما تكرر منه ثبت شكله فيه أي انطبع الروح بطابعه أي صار الروح على ذلك الشكل فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال وهو ما نعني من تقرر الملكة وثبوت العادة ومالم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الاشكال عليه و يعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بدون فكر ولا روية وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية انها غير ارادية بالمرة أوأنها رمي بدون رام تارة يخطيء وتارة يصيب ولكن مرادهم ان الروح ينطبع عليها فالارادة موجهة الى مايكون على مثالها بدون احتياج الى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض و بعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الاعضاء على محاذاتها في الحركة يكون من الصعب بل ربما كان من المتعذر ان يتحول الانسان عنه الا بقاهر تشتد وطأته على النفس فيوصل اليها من المؤلمات أو يخيل لها من المخوفات مايؤثر فيها أثرا قويا يلويها عن الاثر الأول و يقودها الى الاثر الجديد ثم يستمر ذلك أزمانا وان شئت قلت اجيالا حتى تضمحل الهيئة الأولى وتثبت الهيئة الاخرى ومن ذلك الحديث الشريف (اذا

سمعتم ان جبل كذا انتقل من مكانه فصدقوا واذا سمعتم أن فلانا تحول عن خلقه فلا تصدقوا) يشير بذلك الى صعوبة الانتقال عن الاخلاق والعادات الثابتة من تلقاء النفس بدون ان يضطرها لذلك قاسر أو زاجر وهيهات ان ينال المطلوب مع ذلك ومما يرشد الى ان تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية ما حكاه عبد الوهاب (لعله عبد اللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥ هجرية في مصر ان شدة القحط وفقد المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع وفشا ذلك فاستبشعته النفوس ونفرت منه حتى ان بعض الناس انزعج لهيئة أكل الانسان فمات من بشاعة المنظر ثم لما عم ذلك غالب الافراد زالت البشاعة شيئا فشيئا حتى صار من المألوفات ان يأكل الرجل أحد أقربائه والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها وكانوا يطبخون لحم الآدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان فانظر الى الانفعال الذي حدث فى النفس من غائلة الجوع كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام وانقلب القبيح حسناً الا انه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول الى مكانه لارتفاع الضرورة لكن لم يعد الى حالته الأولى على وجه الكمال الا بعد أزمان

نظن انك التفت فيما ألقينا اليك من المقدمات السابقة الى ان العلم والإدراك الذي يستولي على الإرادة إنما هو الانفعال بالصور الواردة الى الروح الدراك اذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها ملائمة لذي الروح أو منافرة ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثا فى الأعضاء أوما تجافى مركزه الفكري لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة الا اذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح الى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات اذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز فى النفس ومتى قوى ارتسام الصورة الادراكية وتغلب على سائر الادراكات الاخرى وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه اندفع الروح الى الحركة كما مر بك بيانه وعن ذلك تكون الاعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علوما وأرى لهم في التسمية حقاً لانها نوع من التأثرات النفسية الادراكية وان كانت لا أثر لها في باب الادراك يصح اعتباره الا من وجه انها اشكال مؤلفة من خواطر النفس لاغير وهي ماتخيله التعاليم والالفاظ الموضوعة بازاء معان يمثلها المعلمون للذهن بالتمثيل والتشبيه ويقربونها الى الجوهر الدرّاك بتذكير بعض المألوفات فيحدث منها في المخيلة أنواع من الاشكال بسائط ومركبات أي يتشكل الجوهر الدرّاك بهيئات تناسب التقريبات التعليمية تحضر عنده بالتذكر وضم بعض المذكورات الى بعض وذلك كما يوصف للاعمى هيئة الافلاك والكواكب وحركاتها ويمثل له ذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات كمحيط الغربال الا انها في السعة على نحو كذا وفي التدوير على كيفية كذا الخ الأوصاف وكما يقرب للبخيل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه لمستحقه وصرف ثمرات الكسب فيما يؤثل المجد ويعلي شأن الحسب وأشباه ذلك فانه يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه وانما التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو الكرم مثلا الا انها لاتجاوز المركز الادراكي فهي ترتسم فيه من حيث التمثيل والتعليم فان تواردت عليها الاشباه والمذكرات من وجه التعليم والتذكر بقيت ثابتة ويقال لمن هي عنده انه عالم بتلك الصفة وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به عنده ومن ذلك كل مايتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد ان يتعقلها أي ان توجد في جوهر روحه صور مؤتلفة على نوع خاص من الائتلاف وترجع الى وجهة واحدة في الجنس كعلم النحو وعلم العروض مثلا أو فن الاخلاق والسياسة

وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة لكنه ليس من نوع الملكات التي بينا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام وانما هو نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة بحيث اذا وجد جزئي من الجزئيات يرد على الذهن من الخارج فربما ينتبه المدرك الى كون هذا من نوع بعض الصور وليس من نوع البعض الآخر ويكون لصاحب هذه الملكة انه يولد في عقله من

هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أوغير تامة ويطابق بين الأصل وما تولد عنه كل ذلك في عقله لايراعي فيه الانطباق على الواقع أوعدم الانطباق فان لاحظ ذلك فهو على شريطة ان لايباين الاصل الذي تلقاه فهذا انما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أومتمعا كسة ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية وذهبت عقولهم خلفها فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد تبين حقيقة ماقلنا فمثل هذا النوع من العلوم لايؤثر في الارادة شيأ سوى انه يحولها الى إجالة الفكر فيه فلا يكون له هم الا تأليف الاشكال العقلية وتفريقها وهذ نوع من تسلط الارادة على الادراك بعد تسلطه عليها

مثلا الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس الا بعد ان صار كهلا بين قوم بعيدين عن التهذب وتلقفت احساساته من أحوالهم ما انطبع عليه روحه الدراك وسرى به في الدم والعروق وجرت به الاعمال العضوية ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة وللبدن عادة وحفظ جميع ماحوته الكتب الشهيرة في هذا الفن فان قواعد الفن وصور أصوله تكون جاثمة في مركز الادراك واشكالها ثابتة فيه لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل وهو العمل وانما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه ان يعلمه ويلقيه كما تلقاه فان العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط فاذا انضم الى ذلك غايته وهي ان يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة تحرك الروح في لسانه وتضامت الاشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله فيتمكن من ذلك بالتعويد حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له وتكون الارادة تابعة للادراك هذا النوع من التبعية

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية وهو مسلم أو بالعكس لالقصد العمل ولكن لقصد ان يتكلم أو يكتب مايدل على تلك الاعمال وفروعها فالارادة تابعة للانفعال الادراكي بالداعية والباعث الى الحركة فان كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده أوانضمام الترتيب والتأليف في الالفاظ والارقام

تجاوزت الى هذه الغاية وهي الى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية التي هو بها جزء من هذا الوجود شيئا يعتد به وأرباب هذه الحالة يعرفون في الاصطلاح باللفظيين تشبيها لعلومهم باشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالالفاظ لا أثر لها الا بالعرض

ومن ذلك الذين يتكلمون كثيرا بالحكم العاليه والأصول النظاميه الجليلة لكنهم في أعمالهم لا يراعون شيئا مما يقولون، وما ذلك الا لكون تصوراتهم انما هي تأليف أشكال خيلها لهم الممثلون والمقربون فوجد لتأثر أذهانهم بها نوع من الارتياح للطف الاشكال المؤلفة منها في حد ذاتها فانبسطت نفوسهم لاستثباتها وانضم الى ذلك احساسهم باجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام فوجهوا الارادة الى ذلك فلم ينالوا سواه. وعلى هذا المثال من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب الا أنه اذا قرأ لا يتذكر شيئا منها واذا كتب جال قلمه خارجا عن دائرتها وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون ولو علم النحوي مثلا قواعد النحو حق العلم أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الدراك على النحو الذي أسلفنا لتبع ذلك الانفعال غايته فان الغاية من الأصل المدرك التي ما وضع الأصل الا لها من لوازمه لا تفارقه فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الاصل نفسه فيها ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العلمية لتحصيلها فيعوج في السير و يستقيم حتى ينطبع شكل الاصل وغايته في الروح المنبث في كافة الاعضاء فتصدر لذلك الأعمال تابعة للاصل الثابت بدون عسر وهنالك تمام العلم وكماله أفلا يرى ان مدرس السياسة عند ما يقبض على زمامها لاجراء العمل بما علم يلتبس عليه الحال الواحد لا يدري يطبقه على أي أصل من الاصول الثابتة عنده أليس هذا جهلا بنفس الأصل حيث لم يقف على نوع جزئياته لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه انه فتح له باب جديد من العلم وكذلك ان حدث منه أثر رديء فهذا الارتباك الاول والرشاد الثاني شاهدان على نقص الادراك قبل تمكن الملكة النفسية

والاعمال التعويدية وكماله بعد تمكنهما ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئاً و يعلمونه حق العلم بل و يدافعون عنه ولكنهم يعملون على خلاف مايقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه والهلاك في العدول عنه وقد تبين أنهم في الحقيقة لا يعلمون

* * *

الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي لا مجرد الاثر التصوري هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد لأنه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كأنه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به وما عدا ذلك هو المخيل والموهوم يحوك في النفس وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته وموجبات انفعال النفس به فاذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب رأيت المعتقد قد احتوى على الروح فتحرك به وتوجه الى وجهته وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن وانما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المخروطي فأثر في انحرافه عن المخروطية فاذا قويت الشعلة حتى أحرقته عادت الى تمام الشكل ولا يحصل انحراف الشكل الا عند عروض عارض آخر فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالاشكال الطبيعية وما دونها لا يؤثر فيها أثرا حقيقياً ثابتاً وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن) ولست أريد تفصيل ذلك

تأمل الى من جلس امام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل انصات ويهز رأسه هزة الهائم بجمال ما يسمع وتارة يذرف الدمع من عينه لما حاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب ويكون ذلك الوعظ في تخفيض شأن الدنيا وتهوين أمر الحياة وان كل طويل فيها قصير وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشرور وان لا غنيمة فيها سوى ما يقدمه العاقل بين يديه من طيبات الاعمال ليكسب بها نعيما مؤبدا حتى اذا انفض المجلس وانتشر القوم لطلب الرزق رأيت ذلك الباكي وهو يتقرب الى موارد الشهوات ويدنو من مساقط

الدنيئات و يستعمل لذلك أنواع الحيل التي طبعتها في جوهر ادراكه فواعل الاحتياجات التي ألمت به أو وردت عليه صورها ملمة بغيره مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ و يتفق مع ارشاد المرشد فيكون عمله على ضد مايزعم اعتقاده حيث ان هذه الطرق لم تألف احساساته ولم تنتقش في مداركه على النحو الذي يبث الروح في الاعضاء فيحركها على مشاكلة تلك الرسوم الجميلة فقد وضح لنا من هذه الآثار التامة للادراك ان الصور التعليمية التي تحضر الذاكرة دائما أو في بعض الاحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لا تعد في الحقيقة معتقدات وانما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط ثم لا يترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح يثبت فيه ولكن ينشأ عنها اعراض وقتية

تبين من هذا الذي أوردناه من التقريبات في باب تأثير الادراك في الارادة أنه يعم جميع الادراكات والارادات سواء كانت مطابقة للصواب جالبة للسعادة الحقيقية مانعة من الشقاء أو لم تكن كذلك وان ذلك تابع لما يصل الى المدرك من المؤثرات الخارجية التي تحدث فيه آثارا تناسب هيئتها التي وصلت بها اليه ولم يخرج في ذلك الانفعال الادراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية الا من حيث الكيفية والنوع المخصوص فاختلاف العادات والملكات والاخلاق والاعمال في النوع الانساني تشهد لنا بناء على تلك المقدمات السابقة أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مركز الادراك من الاكوان الطبيعية المكتنفة بالمدرك وعوارضها وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث وتخالف الطبائع الخارجة من حيث الخلقة الاصلية والوضع الالهي واما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول تلك التأثرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الادراك

أما الوجه الثاني أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الخلقة لجوهر الادراك فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني والعناصر الداخلة فيه والوضع الذي أبدعته يد القدرة الالهية عليه فعناصر التركيب البدني وجودتها ورداءتها ووضعها فيه وكيفية تأليف الاعضاء ونسب الاجزاء بعضها لبعض مما له دخل في ظهور الجوهر الادراكي بآثاره و بعبارة أخرى في شدة انفعاله بالمؤثرات

الواردة عليه وضعفه وفى قوة استثبات الصور المنفعل بها وضعف تلك القوة وغير ذلك من صفات الادراك التي لاتخفى على مدرك وهذا 'لدخل مما لا يشك فيه

وأما الوجه الاول أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث وتخالف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك فهو يظهر من اختلاف العادات والاخلاق والادراكات باختلاف الاقطار والبقاع وتنوعها بتنوع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتنمو فيه ويمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة التعيش وطرق اكتساب الرزق ووقاية الوجود من الخطر والاحساس من الالم التي تستدعيها طبيعة الاراضي فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري وتدعو اليه المحاماة عن النفس بمدافعة الوحوش الكاسرة والسباع الضارية أو يبعث اليه التأثر من شدة البرد ويبوسة المنشأ وجدب المكان كل ذلك غير ذلك الذى يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة والفرار من المهلكات بالاستكنان فى بعض الاكواخ لسهولة الارض وخلوها من المفترسات وبعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة وتوسطها في الحر والبرد وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطلب الارزاق فان تأثر الجوهر الدراك بالاخطار الاولى يبلغ من الشدة مبلغا يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على انحاء توصل الى المطلوب أعني التخلص من تلك الاخطار وبتكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الاعمال على ذلك النحو المتقدم مثلا اذا نشأ الانسان فى أرض جبلية كثيرة الغور والنجد غزيرة الغابات وعرة المسالك قليلة الخصب تسكنها أنواع الحيوانات المفترسة ومع ذلك تكون فى جو شديد البرد كثير الصواعق سريع التقلب فلا ريب ان الانفعالات التي تعرض على احساساته من هذه الاشياء المكتنفة به وكثرة ماتدعوه الى المقاومة والمصادمة واحتمال المصاعب في دفع المصائب وتجشم المشاق ليتخلص بها من المهلكات ونحو ذلك تجعل في الاعضاء قوة على العمل ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والاقدام وتتجه بذلك قوة الادراك الى البراعة فى الكر والفر وفنون الدفاع والهجوم وتثبت فيها ملكة الحذر والتيقظ وملكة النشاط في السعي لطلب المعيشة وملكة الثبات في

العزائم وملكة حب التألف والاجتماع للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة وملكة القسوة والتهاون بالدماء وعدم الاكتراث باتلاف النفوس وازهاق الارواح وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام وملكة الغدر التي تتولد دائما من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث و يتبع هذه الملكات ملكات أخرى و يتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها .

وهذا بخلاف ماذا نشأ في سهولة العيش وخصب الارض وهشاشة التربة وخلوها من الغابات واستواء سطوحها واعتدال هوائها وصفاء جوها وخلوها من الحوادث المخيفة فان ذلك لايحدث في النفس الا صورا لطيفة تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والنزاهة عن الضغائن والبعد عن الطمع والرضا بالقليل وما يتبع ذلك من الصفات التى لاتتخلف عن مناشئها الواقعية الا بالطوارىء العرضية التي نذكرها فيما بعد فانتظرها

(يقول جامع الكتاب) ان الفقيد وعد هنا باتمام هذه المقالات الفلسفية التي نشرت في خمسة أعداد وقد تصفحنا سائر اعداد الوقائع المصرية التي صدرت بتوقيعه فلم نجد فيها هذه التتمة ولعله شغل عن أمثال هذه المباحث الدقيقة في الفلسفة بحوادث الثورة العرابية التي نجمت في تلك الايام واضطر لمقاومتها كما علم من بعض ماسبق ويعلم من المقالات الآتية في الشورى وغيرها

وكتب في العدد ١٢٦٧ الصادر في ٦ محرم سنة ١٢٩٩ — ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١

الحياة السياسية

تقرر فيما سلف ان لابد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها و يجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا وان خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن و بعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً فهو والسكن بمعنى: استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ويحفظ حقك فيه و يعلم حقه عليك وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك ومن أقوالهم فيه لا وطن الا مع الحرية وقال لابروير الحكيم الفرنساوي لاوطن فى حالة الاستبداد ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب سمية وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الأخير لا ينقض قولهم لاوطن الا مع الحرية بل هما سيان فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق وهما شعار الأوطان التي تفتدى بالاموال والابدان وتقدم على الاهل والخلان و يبلغ حبها فى النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان

أما السكن الذى لاحق فيه للساكن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا فان عظم فلا يسر وان صغر فلا يساء قال لابروير السابق الذكر ما الفائدة من ان يكون وطني عظيما كبيرا ان كنت فيه حزينا حقيرا أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيرا

على ان النسبة للوطن تصل بينه و بين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي فهو يغار عليه و يذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه وان كان سيء الخلق شديدا عليه ولذلك قيل في مثل هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنساوي على فرنسا والانكليزي على انكلترة فأنكر ذلك بعض الناس وكان فى الامر لاشك سوء فهم أو سوء افهام

وجملة القول ان فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والاهل والولد والثاني

أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان و يعز أو يسفل و يذل وهو معنوي محضاً

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئا و يشرب مريئا و يبيت في الاهل أمينا وهو مقامه الذي ينسب اليه ولا يجد في النسبة عارا ولا يخاف تعييرا وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية

وللحب على أهله شروط محفوظة عند الاذكياء مجهولة عند المدعين الاغبياء فما تنفع فيه الشكوى ولا تقدم لصاحبه دعوى الا ببيان من الواقع وشاهد من الفعل وما أحسن ما قيل

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

وله مراتب مناسبة لموضوعه موافقة لمنشأه فهو في الكرامة كريم وفي النبالة شريف وفي المآثر حميد وفي العز والمجد رفيع وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات فان قيل في حب الحسان

أحبك حبا لو تحبين مثله أصابك من وجد على جنون

لطيف أمع الاحشاء اما نهاره فدمع وأما ليله فأنين

فقل في حب الاوطان

أحبك حباً لو تحبين مثله أصابك منه يا ديار تغير

شديد امع الاشواق اما نهاره فسعي واما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعا لباس الجهالة والذل ولكن أبت الحوادث الا ان تثبت لنا وجودا وطنيا ورأيا عموميا ولو كره المبطلون على ان منهم فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفساف القول من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف وألفنا الخدمة والرق فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية كأنما هم لا يعلمون ان أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصارا

وكانوا فى قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح وأن العالم بأسره كان فريقين أحرارا يظلمون وعبيدا يطيعون أولم يكن فى بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون فى الارض لغيرهم و يباعون كاتباع العجماوات أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة لا يزال في بلادنا ستون ألفا أوسبعون ألفًا عبيدا للرهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول الى ما أدركوه من رفعة المقام وان يروا أمثال تيارس وجريفى وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبدا نا أرقاء

ولئن كان من فضل هذه المائة ان يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاما

وكتب فى العدد ١٢٧٩ الصادر في ٢٠ المحرم سنة ١٢٩٩ — ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨١

الشورى والاستبداد

تكلمت بعض الجرائد العربية في الشورى وأشربت بعض جملها عبارات في الاستبداد أوهم ظاهرها وعمومها بعض الناس ان القصد منها مدح الاستبداد الذي عرفوا من آثاره ما يكرهون ولقوا من جرائه مالا يودون فشددوا على محررها نكيرا وولوا عنه نفورا وقالوا مدحه ظلما وزورا وكان في ذلك من المخطئين

وان مانعهده في حضرة هذا المحرر من حسن القصد وسلامة النية يجعلنا في ريب من ان يكون الاستبداد ممدوحًا له ومقصودا بالثناء عليه بل مانعتقده فيه من التفقه في الدين والتضلع منه يصور لنا ان ليس المقصود من تلك العبارات ماتدل عليه ظواهرها التي أوقعت في أوهام كثير من مطالعيها خلاف ما عليه شرعنا فاردنا ان ندفع هذه الأوهام ببيان حقيقة الشرع في هذا الموضوع

مؤيدين ما نقول بالآيات الشريفة والاحاديث المنيفة وأقوال الأئمة الأعلام من علماء المسلمين رضي الله عنهم فنقول

ان الاستبداد يقال على معنيين أحدهما تصرف الواحد في الكل على وجه الاطلاق في الارادة ان شاء وافق الشرع والقانون وان شاء خالفهما فيكون اتباع النظام مفوض اليه وحده ان أراد قام به وان لم يرد لا يؤخذ عليه وهو الاستبداد المطلق وثانيهما استقلال الحاكم في تنفيذ القانون المرسوم والشرع المسنون بعد التحقق من موافقتهما على قدر الامكان وهذا بالحقيقة لا يسمى استبدادا الا على ضرب من التساهل وانما يسمى في عرف السياسيين توحيد السلطة المنفذة ومن تتبع الشريعة الغراء ونصوصها الواضحة ووقف على حكمة تنزيل الكتب السماوية وتدوين الاحاديث النبوية يرى أن الاستبداد المطلق ممنوع منابذ لحكمة الله في تشريع الشرائع ومعاند كل المعاندة لصريح الآيات الشريفة والأحاديث الصحيحة الآمرة باتباع أحكام الكتاب العزيز والاخذ بالسنة الراشدة فانه نبذ للدين وأحكامه وسعي خلف الهوى ومذاهبه وذهاب الى خفض كلمة الله العليا وخرق لإجماع السلف الصالح من المؤمنين اذ لم يبيحوا في جميع أطوارهم أن يتولى عليهم من يخالف الكتاب والسنة الى أحكام شهوته وهواه يشهد بهذا صيغهم في بيعة الأمر والعهد الى الولاة يقولون لمن يبايعونه بايعناك على ان تكون خليفة رسول الله تتبع سنته وتسلك بنا طريقته أوعلى ان تحكم فينا بما أمر الله وما سن رسوله صلى الله عليه وسلم ولم نر طائفة منهم ولا قوما ولوا عليهم أميرا على كونه يتبع هواه أو يعمل فيهم بما يراه وافق الدين أوخالفه ويدل عليه العهود التي كان يعهد بها الخلفاء الراشدون الى عمالهم في الاقاليم فانها كلها مشحونة بعبارات الوصية والحث على اتباع منهاج الشرع الشريف والجري على السنة الراشدة والوعيد على مخالفتهما وأخصها عهد الامام علي رضي الله عنه الذي عهد به للاشتر النخعي حين ولاه أمور مصر ويؤيده أقوال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في خطاباتهم ومقالاتهم عند انعقاد المحافل كقول عمر رضي الله عنه بعد ان ولي الخلافة (أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه : فقام بعض الحاضرين

قائلاً (والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) ويؤكده ماسنتلوه عليك من الآيات والاحاديث

اما المعنى الثاني وهو ان يرجع الأمر في تنفيذ الشريعة الى فرد واحد فهو غير ممنوع في الشرع ولا فى العقل بل هما على وجوبه أما الشريعة فنصوصها متضافرة على وجوب نصب امام ينفذ الشرع القويم ويحفظ الدين المستقيم ويجري أحكامه العادلة على الرعية وأما العقل فلما في قصر التنفيذ على الواحد الفرد —أي أجراء الاحكام باسمه المخصوص— من الهيبة والرهبة اللتين تلزمان لتنفيذ الأحكام واذعان الرعية لها وانقيادها لما قضت به ثم ان هذا لا يسمى فى العرف استبدادا كما أسلفنا اذ صاحبه يكون مقيدا بالمرسوم محصورا فى دائرة المشروع بحيث لا يجوز له الخروج عنها ولا تجاوز حدها والمستبد عرفا من يفعل ما يشاء غير مسئول ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أوخالفه ناسب السنة أو نابذها ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أومايضارعه صرفوه الى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم منه وكبرة ماجلب على الامم والشعوب من الاضرار وحق لهم النفور والاشمئزاز اذ لم ينالوا من جرائه الا وبالا ولم يلقوا من أحكامه الا نكالا بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلما وتؤكل فيه الاموال أكلاً وتسفك الدماء زورا وتدمر البلاد تدميرا فلا تثريب عليهم اذ كرهوا سوقه في سياق مدح ولو مرادا به غير ماعرفوه

ولقد تبين لك مما قدمناه ان الشريعة لا تبيحه وانها توجب تقييد الحاكم بالسنة والقانون ومن البديهي الواضح ان نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها فانها ليست الا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وعلمائها أومدلولا عليها بنقوش مرقومة فى الكتب ولا يكفي في تقييد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد فى ذلك من وجود أناس يتحققون بمعانيها ويظهرون بمظاهرها فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير في طريقها ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضي الله عنه الناس في خطبته الى تقويم ماعساه يكون منه من الاعوجاج في تنفيذ أحكام الشريعة فقال (أيها الناس من رأى

منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه الخ الاثر المشهور) وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)
اذ لا يخفى ان هذه الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم على معنى أن تلك الأمة أي الطائفة من المسلمين تدعو الملوك وغيرهم الى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده حاكما كان أومحكوماً وليس الامر هنا للندب كما فهم بعضهم بل للوجوب والفرض على ماصرح به العلماء ويؤيده ان قيام تلك الأمة بذلك مما لا يتم الواجب المفروض وهو التقيد بالشريعة الا به فيكون واجبا على حكم القاعدة عند فقهاء الشرع (مالا يتم الواجب الا به فهو واجب) وقالوا ان هذه الطائفة يجب تأليفها من أفراد الأمة وجوباً كفائيا على معنى انها ان لم تقم فيهم أثمت أفراد الأمة بجملتها واستحقت العقاب برمتها فقد فرض الله على الأمة الاسلامية ان تقوم منها أمة أي طائفة وظيفتها الدعوة للخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للشريعة من ان يتجاوز حدودها المعتدون وصوناً لأحكامها من ان يتعالى عليها ذوو الشهوات فينتهكوا حرمتها و يخلوا نظامها اذ تحرفهم عن العمل بها الاهواء اذا تركوا وشأنهم ولم يؤخذ على أيديهم في الاسترسال مع داعيات الشهوات فلم يجعل الله الشريعة في يدي شخص واحد يتصرف فيها كيف شاء بل فرض على العامة ان تستخلص منها قوماً عارفين لجلب كل ما يؤيد جانب الحق وتبعيد كل مامن شأنه ان يحدث خللا في نظامه أوانحرافاً في أوضاعه العادلة

ولقد قلنا ان الملوك والسلاطين داخلون تحت من يجب على تلك الطائفة ارشادهم وذلك لتضافر الأحاديث الصحيحة والأخبار الشريفة على وجوب نصيحة الأمراء قال صلى الله عليه وسلم « ان الدين النصيحة » ثلاث مرات قيل لمن يارسول الله قال « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم » وقال « ان الله يرضى لكم ثلاثا و يسخط لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبل الله جميعاً وان تناصحوا من ولاه الله أمركم » الحديث . قال العلماء والنصيحة للائمة وأولياء الأمر هي معاونتهم على ما تكلفوا

القيام به في تنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ماجهلوا وتحذيرهم ممن يريد السوء بهم واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية وسدخلتهم عند الحاجة ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم ورد القلوب النافرة اليهم والنصح لعامة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرأفة بصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم الى ما يسعدهم وتوقي مايشغل خواطرهم و يفتح باب الوسواس عليهم بل قال عليه الصلاة والسلام « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده » فهذه الانباء الشرعية وغيرها مما لم يسع المقام سرده تدل بصراحتها على وجوب رصد أعمال الولاة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وردهم الى الشريعة الحقة عند الاعوجاج ومعلوم ان الأمة بتمامها لا يمكنها القيام بهذا فوجب اختصاص ذلك بمن تحتم عليها — بمقتضى تلك الآية (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير الخ) استخلاصهم منها عارفين بالواجب فيدعون اليه والممنوع فينهون عنه وكما كلفت الشريعة المطهرة جماعة المسلمين بمناصحة أولياء الأمور والاخذ على أيدي الظالم منهم وانتقاء طائفة من خيارهم للهداية والارشاد ووعدتهم بقرب العقاب اذا لم يردوا الظالم عن ظلمه عند احساسهم به كذلك كلفت ولاة الأمور بأن يأخذوا آراء رعاياهم فيما ينظرون فيه من مظان المنافع ومجالبها قال تعالى مخاطباً لنبيه الذي لا ينطق عن الهوى (وشاورهم في الأمر) قال ابن عباس قد علم الله ان مابه اليهم حاجة ولكن أراد ان يستن به من بعده وقال بعض المفسرين ان الله تعالى لما علم أن العرب يثقل عليهم الاستبداد بالرأي أمر نبيه بمشاورة أصحابه كي لا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم وقال المفسرون في قوله تعالى (فاذا عزمت فتوكل على الله) أي اذا عزمت بعد الشورى فتوكل على الله في تنفيذ الرأي وامضائه ومن هنا قال العلماء من أقبح مايوصف به الرجال ملوكا كانوا أوسوقة الاستبداد بالرأي وترك المشاورة

واذا علمنا ان مناصحة الأمراء أمر واجب على الرعية كما تدل عليه الاحاديث والآيات السابقة الشريفة وجب على ولاة الامر ان لا يمنعوهم من

قضاء هـذا الواجب فدل ذلك على ان الأمر في قوله تعالى (وشاورهـم في الامر) للوجوب لا للندب وهو ما يؤخذ من عبارات بعض المحققين من علماء التفسير خلافاً لما في تلك الجريدة من كونه للندب فوضح من كل هذا ان تصرف الواحد في الكل ممنوع شرعاً وان الرعيـة يجب عليها ان تجعل الحاكم والمحكوم بحيث لا يخرجان عن حد الشريعة الحقة وأن الولاة يجب عليهم استشارة ذوي الرأي في مصالح البلاد ومنافع العباد وأن الشورى من الامور الشرعية الواجبة فمن رامها فقد رام أمرا شرعياً قضت به الشريعة وحتمته على الحاكم والمحكوم جميعاً بحيث لو منعناه لاكتسبنا بذلك اثما مبيناً

ومعلوم أن الشرع لم يجيء ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام ولا طريقة معروفة للشور عليهم كما لم يمنع كيفية من كيفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها فالشورى واجب شرعي وكيفية اجرائها غـير محصورة في طريق معين فاختيار الطريق المعين باق على الاصل من الاباحـة والجواز كما هو القاعدة في كل مالم يرد نص بنفيه أو اثباته غير انا اذا نظرنا الى الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو (كان النبي عليه الصلاة والسلام يحب موافقـة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم وكان المشركون يفرقون رؤسهم فسدل النبي ناصيته ثم فرق بعد) ندب لنا ان نوافق في كيفية الشورى ومناصحة أولياء الامر الأمم التي أخذت هذا الواجب نقـلا عنا وأنشأت له نظاماً مخصوصاً متى رأينا في الموافقة نفعاً ووجدنا منها فائدة تعود على الأمة والدين والا اخترنا من الكيفيات والهيئات ما يلائم مصالحنا ويطابق منافعنا ويثبت بيننا قواعد العـدل وأركانه بل وجب علينا اذا رأينا شكلا من الاشكال مجلبة للعدل ان نتخذه ولا نعدل عنه الى غيره كيف وقد قال ابن قيم الجوزية ما معناه ان أمارات العدل اذا ظهرت بأي طريق كان فهناك شرع الله ودينـه والله تعالى أحكم من ان يخص طرق العـدل بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين

فتألف من مجموع هذا أن الشورى واجبة وان طريقها مناط بما يكون أقرب

الى غايات الصواب وأدنى الى مظان المنافع ومجالبها على انها ان كانت في أصل الشرع مندوبة فقاعدة تغير الأحكام بتغير الزمان تجعلها عند مسيس الحاجة اليها واجبة وجوباً شرعياً ومن هنا نعلم ان نزوع بعض الناس الى طلب الشورى ونفورهم من الاستبداد ليس واردا عليهم من طريق التقليد للاجانب ولا آتيا لهم من ذم بعض الجرائد فيها هكذا جزافا ورجماً بالغيب كما سبق اليه قلم محرر تلك الجريدة بل ذلك نزوع الى ماهو واجب بالشرع ونفور عما منعه الدين وقبحه العلماء وشهدوا من آثاره المشؤومة ماعرفوا به قبح سيرته ووخامة عقباه نعم لاننكر انه ربما كان في الطالبين النافرين من سبق الى حب الشورى وكراهية الاستبداد المطلق بطبيعة التقليد ولكن ذلك ان كان فليس الا نزراً يسيرا من مقدار كثير فلا يصح اطلاق القول بالتقليد على فرض ان يجوز التخصيص ولو قال حضرة المحرر ان كثرة ذم الجرائد للاستبداد وتشويقهم الى الشورى أحضرتهم صور ماأخذوه من الواقع وأخطرت بأذهانهم أمثلة المشهود في العيان فجسمت ذلك عندهم فلذلك اشتدت كراهتهم فيه وقويت رغبتهم فيها لكان ذلك أدنى الى الصواب ولكن ربما سبق القلم الى غير المراد

وأما قول حضرة هذا المحرر ان جواز إعطاء الحرية للافراد في ابداء آرائهم مع كونه تفردا بالرأي أي استبدادا بحتا يستلزم جوازه في جانب الأمراء بالطريق الأولى فهو خلاف التحقيق فان حرية الافراد على معنى تنفيذ مايرونه صوابا لا يقال لها استبداد أصلا لا لغة ولا عرفا فان واحدا منهم لم يستقل بتنفيذ ماراآه كما هو حقيقة الاستبداد بل انما طلب غيره لمشاركته في الرأي وماهو من معنى الاستبداد في شيء وذهاب المحرر في هذه العبارة خلف فكره يعد من سبق القلم وجريانه بما لا يرجع الى أصل علمي اذ ليس في تشارك أفراد العامة تصرف الواحد في الكل بل تصرف الكل في الكل أو تصرف الكل في الواحد سلمنا كونه استبدادا فهل يستلزم ذلك صحة الاستبداد في جانب الامراء مع العلم بأن رأي الواحد ليس مثل رأي الكل اذ الأول مظنة الخطأ ولا يحتمل الثاني خطأ الا احتمالا يفرضه العقل وتكذبه العادة والاختيار ومن ثم قال سيدنا عمر بن الخطاب . الرأي الواحد كالخيط السحيل — وهو

الحبل على قوة واحدة — والرأيان كالخيطين والثلاثة الآراء كالثلاثة لا تنقطع) وقال صلى الله عليه وسلم (ماتشاور قوم الاهدوا لأرشد أمرهم)وقال تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه السلام (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري) وقال عمر رضي الله عنه عند ماجعل الخلافة شورى بين ستة (ان انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الاربعة ميلا منه الى الاكثر لان رأيهم الى الصواب أقرب) قاله السيد السند وعن أبي هريرة (مارأيت أكثر تشاورا من أصحاب رسول الله) أفبعد هذا يصح الحكم بأولوية استبداد ولاة الامور؟ لاشك ان الحكم بهذا يكون من قبيل ترجيح المرجوح من حيث هو مرجوح بل من ضرب تجويز الممنوع ان أريد الاستبداد المطلق حيث علمت امتناعه مما أسلفناه لك من الادلة المنقولة والبراهين المسموعة

هذا ما أردنا ايراده في هذا المقام دفعا لما توهمه عبارات تلك الجريدة من تجويز ديننا للاستبداد المطلق أو ايجابه مع كونه براء منه ورفعا لما عساه يتولى بعض الاذهان من كون حكم الشورى عندنا معاشر المسلمين الندب مع أنه الوجوب كما قررنا ولعل من يدعي ان الامة الاسلامية لاتصلح للشورى زعماً منه ان ديننا القويم يأباها يكتفي بهذا المقال فيعلم ان شريعتنا شريعة سمحة تأبى ان يتولى أمور ذويها من لايراعون للشرع حرمة ولا يحفظون للسنة ذمة وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعا ذلك هو الحق والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل ·

وكتب في العدد ١٢٨٩ الصادر في ٣ صفر سنة ١٢٩٩ — ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨١.

الشورى

نتكلم عليها من جهة وجوبها عقلا على الحاكم والمحكوم معاً فنقول خلق الانسان محاطاً بالشهوات مكتنفاً بالاميال مقيداً بالاغراض فهو أسيرها تدفعه الى

مقتضياتها وتجذبه الى لوازمها بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها وتستعملها فيما يلائمها فلا يتصور حسنا الا ماتستحسن ولا يتخيل جميلا الا ما تستجمل وهذا أمر يكاد ان يكون طبيعياً فطرياً لايمكن الانسان ان يغالبه ولا أن يتخلص منه وان امكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته على ان هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ولا في طاقة كل شخص فلا يستطيعه الا من كبرت همته ولا يقدر عليه الا من ذكت فطنته حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب بما يتخذه من الوسائل المختلفة حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها وتمكنهم من لوازمها كانوا مضطرين الى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية الى ذلك حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد وليس من وسيلة الى ذلك الا مشاورة العارفين العالمين بطرقها فان للرأي العام في مغالبة الأهواء مالايخفى من القوة ولذلك ترى ان الانسان ربما مال الى شيء ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام لا يستحسنه وأيضا فالانسان الواحد قاصر وان بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر على ان يحيط علما بمصالح عامة خصوصاً اذا كانت مصالح أمة كبيرة فانها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الانسان الواحد ان يستوعبها ويستوفيها اطلاعاً

وقد يتنبه بعض الناس من نفسهم لهذا الامر ويعلمون انهم لو تركوا انفسهم وشأنها فربما استرسلت مع شهواتها ومالت مع أغراضها ووقفت دون الصواب حجابا فيجتهدون فى منع ذلك بأن يستنصحوا الناس ويسترشدوهم ويستهدوهم استعانة منهم بآرائهم على كشف الحجاب ورفع النقاب عن وجه الصواب وهؤلاء هم القوم الذين صفت سرائرهم وطابت نفوسهم فلا يرون حسناً الا ما وافق الصواب ولا جميلا الا ما طابق الحق ومن هذا يتبين وجوب الشورى على الحاكم أما وجوبها على المحكوم فيتبين مما أقول قد علمت أن الواحد وان بلغ من علو

الفكر ورفعة الذكاء مكانا عليا قاصر عن الاحاطة بمصالح الأمة وحينئذ يلزمها اذا ألقت اليه مقاليد مصالحها ان تمده من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها فليس من الانصاف ان تلقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه ثم اذا رأت ما لا بد منه من التقصير وجهت اليه سهام اللوم بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقا لوجه الصواب ثم اذا وجدت منه تقصيرا فيما اختص به كان لها حينئذ ان تلوم وكما لا يصح ان تتخلى عنه في الاعمال البدنية العمومية مثل حمى البلاد ممن يريدها بسوء بل لا بد من مساعدته فيها وان لم تفعل فقد قصرت فيما وجب عليها كذلك لا يصح التخلي عنه في الاعمال الفكرية العمومية فان كونها فكرية لا يسلب عنها الجسامة المقتضية للتشارك فيها وهل من العدل ان تترك الامة حاكمها بين أعمال مهمة مختلفة الانواع متشابهة الالوان يصعب على أي مخلوق كان وحده أن يقوم باعبائها ثم اذا رأت منه تقصيرا بحسب ما يبدو لأول النظر بادرت الى تعنيفه ؟ لعمري لو فعلت ذلك انها اذن لمن الظالمين

وان لنا على صحة ما قدمنا من الادلة لدليلا فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله تعالى عنهم حيث قام بينهم خطيبا فقال (أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا الخ) اذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا الا التنبيه على الحق والارشاد الى الطريق المستقيم فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه ومما يدل على وجوبه على المحكوم هو اجابة الصحابي بقوله (والله الخ) فانه لا يجوز استعمال القوة الا بعد الاعذار بالارشاد والهدى

ولقد رأى خديوينا الافخم حفظه الله مثل ما رأى سيدنا عمر مما قضى بالتشاور وان بلاده قد كثرت بها خصوصا في هذه الايام مواد الاعمال واختلفت مواضيع المصالح وتنوعت أسباب المنافع اذ لا يخفى ان هذه البلاد قد امتازت عما سواها بكثرة الاعمال الداخلية المختلفة اختلافا كليا بحيث يناسب بعض البلاد منها ما لا يناسب البعض الآخر فندب رعاياه الى التشاور حرصا منه على الاقتداء بالسلف الصالح كما هو شأنه حتى في الامور الجزئية الخاصة فضلا عن الامور

الكلية العامة وعلما منه بما وراء التشاور من الفوائد الجليلة والمنافع الجزيلة
وكأني بمن يقول ان لنا فيما كان عليه السلف من طريقة التشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية فأقول في جوابه ان هذه الطريقة الحالية قد صارت دون سواها ذات الوقع العظيم والتأثير القوي في النفوس بما اتصفت به من كونها مناطا للعدل ومظهرا للاستقامة في سائر الممالك وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لا تترتب الا عليها أما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض لما أنها هي المستعملة في زمنهم على ان هذه الهيئات ليست الا وسائل غير مقصودة لذاتها فاذا انقطعت الرابطة بينها و بين الغايات كانت مهملة غير مقصودة وتحول القصد الى ماصار بينه و بين الغاية ارتباط ووفاق

وكتب في العدد ١٢٩٠ الصادر في ٦ صفر سنة ١٢٩٩ — ٢٥ دبسمبر سنة ١٨٨١

الشورى والقانون

قد أسلفنا فيما سبق من أعداد الجريدة أن القوانين تختلف باختلاف أحوال الامم وبينا الاسباب الموجبة للاختلاف وضربنا لذلك أمثالا لتقريب المطالب من الاذهان وان ذلك صريح في أن القوانين متعددة وأصنافها متنوعة لتفاوتها بحسب الغرض المقصود منها أعني ضبط المصالح وفتح سبل المنافع وسد طرق المفاسد والآن نريد ان نبين أقربها للغرض وأبعدها عن مساقط الاهمال وأمنعها عن عبث الجهل والاغراض فنقول

ان القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا و بيانه ان الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين وانقطع كل منهم في الاسباب التي توصله الى لوازم

المعيشة نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي وتولد من ذلك شدة الطمع والشره وجر الامر الى الحسد والبغض والبطر فأصبحوا وهم في مكان واحد متباعدي المقاصد أشتات القلوب لا يبالي أحدهم باقتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ونسي رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك في الوطن وتناول أشدهم عضدا مقاليد الحكم عليهم وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الاعمال وتبين الحدود فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ولا قصدين متطابقين بل لا ترى الا نفوسا شاردة واغراضا متباينة تسوقهم عصا الظلم وتجمعهم دائرة الغرم فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم بحيث تكون محورا لدائرة أفكارهم وغاية تنتهي اليها حركاتهم في كافة أمورهم اذ ما نزل بهم من دواعي الاضطراب وأسباب تبلبل الالباب جعل لكل منهم شأنا خاصا به فلا يفكر يوما ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط فكأنه أمة وحده مقطوع العلائق بغيره فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم واذا استمرت بهم هذه الحال زمنا طويلا فسدت طباعهم وتبدلت أخلاقهم الى ملكات رديئة تحملهم على البطالة والكسل وتكلهم الى الآمال العاطلة والاماني الكاذبة وتورثهم الخمول والذل والفتور فاذا توالت عليهم الحوادث وعلمتهم أسفار الاخبار طرفا من سير الامم تذكروا انه قد كان لهم من حقوق الاجتماع ما يسوقهم الى العيش الرغد ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناسة الاتضاع فتهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي نطالبهم بها طبيعته فتمانعهم تلك الاخلاق التي نشأوا بها ممانعة تضعف منهم قوة العمل فكلما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهتهم للتقاعد عن الاخذ بالوسائل وطفقت نفوسهم تنفض عنها درن الملكات الفاسدة وتوفرت فيهم بواعث الاعمال المختلفة وأصبحت المقاصد متجهة الى غاية واحدة وهي المعاضدة على حفظ الهيئة الاجتماعية فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ويعلمها حق العلم بدون ان يتلقى درسها من معلم فان الحاجة هي الاستاذ الذي لا يضيع تعليمه

ولا يخيب ارشاده ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأي العام وهو الاساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الافكار المتشعبة وتنمحي فيها الاغراض المتعددة اذ ليست في الحقيقة أغراضاً ذاتية وان تلبست بصورها وانما هي طرق متخالفة تؤدي الى مقصد لا يخرج عن الرأي العام وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد وكل عامل للامة مسخر لانتقاء أقرب الطرق الخالية عن أعباء الكلفة كما يشهده من وقف على مشارب القدماء والمتأخرين من السياسيين حيث يتفرقون احزابا و ينصبون حلبة الجدال في البحث عن الصالح العام

فاذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنور وأصبحوا جميعاً على رأى واحد فى وجوب ضبط المصالح وتقييد الاعمال بحدود مقدسة تصان ولا تهان اندفعوا جميعا الى طلب هذه الحقوق الشريفة بدون ان يخشوا لومة ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانونا عادلا لائقا بحالهم منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم كافلا بمصالحهم يرجعون اليه في أمر المساواة والامن على العباد والبلاد ولا يعجبهم ان يكلوا وضعه لواحد منهم يتولاه بنفسه اذ الواحد لا يتأتى له ان يشخص مصالح الجميع مع تباينها وهذا أمر ينبني عليه صحة القوانين وما يترتب عليها من الفوائد ولا يمكنهم أن يباشروا وضعه جميعا اذ فيهم من تمنعه موانع قوية عن ذلك فلم يبق الا ان ينتخبوا منهم نوابا بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ومن كل ذوي حرفة ليكونوا جميعاً على علم بأحوال موكليهم عموما وطبائع أمكنتهم فاذا أتموا هذا القانون على وجه كامل شامل بعد البحث الدقيق وان استغرق عملهم أمداً كان هو القانون المعول عليه علماً وعملا أما علما فلأن أحكامه كلها صارت معلومة لدى أفراد الناس جميعا لان من وضعها هم نوابهم ولا يخفى أن نفس المنوب عنهم لا يغفلون طرفة عين عن كل أمر من أمورهم يشرع النواب في المداولة فيه ليقفوا على طريق الجدال في كل مبحث و يعلموا ما تم عليه الرأي فيه على أن صحف الاخبار التي لا يخلو منها قطر من الاقطار تتكفل بنشر المفاوضات والاحكام في كل مسألة فتكون هي السفراء بين مجلس النواب و بين

الرعايا على اختلافهم ولا يضر عدم العلم لافراد منها كالسوقة الرعاع والعملة وان كثروا فانهم كالآلات الصماء الموقوفة على الاعمال البدنية ليس الا فتبين من ذلك أن العلم بأحكام القانون الذي يضعه جملة النواب لابد أن يتحقق بين الافراد فبعد اتمامه لايحتاج الامر الى المدارسة فيه الا لمن هو حديث عهد به وأما عملا فلان القانون عادل منطبق على المصالح ومثله حقيق بأن يرسم في صفحات القلوب خصوصا وأن واضعيه هم النواب والنائب لسان المنوب عنه فكان من وضع الامة بتمامها وتلك حجة عليهم بأنهم جميعا متعاهدون عليه سيما وأنهم هم الذين تقاسموا بالايمان على الاخذ بالاحسن من كل شيء نافع وأن قلوبهم طويت على المحافظة على الرأي العام وأنهم جميعا سائرون الى غاية واحدة فكيف بعد هذا كله يتركون القانون حبرا على ورق بدون علم ولا عمل

فقد وضح مما ذكرناه أن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأي الامة العام أعني المؤسس على مبادئ الشورى وان الشورى لا تنجح الا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة كأن يكونوا جميعا طالبين تعزيز شأن مصالح بلادهم فيطلبونها من وجوهها وأبوابها فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه فلا يلتبس عليهم بالباطل ولا لوم عليهم اذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال فان الحصول على أقصى المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة كما قضت حكمة الله تعالى فى خلقه أن الشيء لا يبلغ حده فى الكمال الا بالتدريج بل اللوم كل اللوم ان يضرب الطالب صفحا عن مطلبه و يقصر فى السعي ويرضى بحالته فيقف عندها وقد هيأ الله له الاسباب ومهد له الوسائل اذ ذلك ضرب من الجهل المركب القبيح الذي يجعل صاحبه أدنى درجة من الحيوانات العجم

وان استعداد الناس لان ينهجوا المنهج الشوري غير متوقف على أن يكونوا متدربين فى البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله بل يكفي كونهم نصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد وأحوال العباد ولا يتوهم أن القانون العادل المؤسس على الحرية هو الذي

يكون منطبقاً على الاصول المدنية والقواعد السياسية في البلاد الاخرى انطباقاً تاماً فان البلاد تختلف باختلاف المواقع وتباين أحوال التجارة والزراعة وكذلك سكانها يختلفون في العوائد والاخلاق والمعتقدات الى غير ذلك فرب قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين فينتفع أولئك ويضر بهؤلاء اذ على مؤسس القوانين أن يراعي أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم وطبيعة أراضيهم ومعتقداتهم وكافة عوائدهم ليتسنى له ان يحدد مصالحهم ويربط أعمالهم بحدود تجر اليهم جلائل الفوائد وتسد عليهم أبواب المفاسد وحينئذ لا يسوغ لارباب الشورى ان يجاروا غير بلادهم في سن القوانين بل عليهم ان يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الاهالي الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيء لهم حينئذ ان يرسموا مالا بد منه من الاحكام الملائمة فاذا أمعنوا النظر ودققوا في البحث وطلبوا الحق حيث كان وان من صغير وكان هذا المقصد السائق للجميع على البحث والتنقيب انفتحت لهم عيون المسائل وسهلت عليهم صعاب المطالب وحومت أفكارهم على ما كان يحسب أبعد خطور بالباب فتغلغل أفكاهم في ما وراء ذلك من الامور التي لا يكاد يكشف الحجاب عنها في مبدأ الأمر حتى يحصلوا على مباد أولية يتخذونها قواعد كلية لما يرد عليهم من الابحاث كأن يستعملوا قاعدة القياس والحكم على النظائر والاستدلال بالاصل والعادة والعرف وأمثال ذلك في محاوراتهم بعدان صارت لديهم من المسلمات الاولية وقد كانت في بداية الامر من الغوامض التي يحتاجون في حلها الى نظر و بحث وهكذا يتدرجون من الوسائل الى المقاصد ثم ينساقون من المقاصد التي لديهم بديهية المبادي الى مقاصد أعلا وأسمى حتى يثبت قدمهم في الشوري كل الثبات

ومما تقدم سرده تعلم ان أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام وأخذوا ينتصلون من جرم الاهمال و يستيقظون من نومة الاغفال وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار حتى اشرأبت مطامعهم الى بث أفكارهم في ما يصلح الشأن و يلم الشعث و يجمع

المتفرق من الامور ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاضد فى الرأي فقد أزف الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا عن سن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على وجه ملائم يتبادلون فيه الافكار الحرة والآراء الصائبة فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ممن لهم دربة ودراية تامة بشؤون البلاد وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ماقضت به نواميس الحرية وانشرحت صدور الناس عامة بهذا الامر واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل سيما وقد عهدوا من الحضرة الخديوية ارتياحا تاما لما يؤيد شأن البلاد ويعلي كلمة الوطن ولنا أمل لا يخيب فى أهل البلاد وحضرات النواب فهم أجل من ان يعدلوا عن طريق النجاح أو يكون سعيهم الا فى حب الاصلاح وهذه هي خطوة نعدها ان شاء الله فى سبيل تقدمنا فاتحة الالطاف

وكتب فى العدد ١٤٠٠ الصادر في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٢٩٩ — ٤ مايو سنة ١٨٨٢

التمرن والاعتياد

حصول صورة الشيء في النفس علم وميلها الى طلبه أوتركه ارادة والتصميم على أحد الامرين عزم وليس بعده الا الطلب بالفعل أوالترك والترك لايحمل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تكلف بها النفس تكليفا ضروريا أوكماليا كان من الامور المباحة أوالمحظورة فاذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافا

أما الطلب فهو أحد الامرين الذي يحمل النفس عنائين أحدهما يتعلق بها من جهة قوتها الفكرية والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الامرين المتضايفين لايوجد أحدهما بدون الآخر

أما الاول فهو البحث في أصل الطلب واستقصاء مايعود منه على الطالب أوغيره من المنافع والتنقيب عن الوسائل التي توصل الى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة وتقدير الاعمال إزاء الفائدة لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل في الاعمال البشرية أو زائدة عنها على أصل التفاضل وذلك كله انما يكون بعد ان تعرف نسبة الطلب الى غيره من المطالب ليترجح عما سواه بخاصية من الخواص حتى لا يلزم على الشروع فيه الترجيح بلامرجح هذا شرح حال العناء الاول وليس بعده الا الشروع في العناء الثاني عناء الاعمال البدنية

أما فوائد الاعمال فهي وان كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار اذ هي نتيجة أعمال متجددة وكل متجدد فنتائجه كذلك ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواما غير مطلق والطالب لايستغني عن هذه الفوائد وقتا من الاوقات وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته الى فوائده سواء كانت من الضروريات أوالكماليات فهو محتاج الى دوام الفوائد ودوامها يتوقف على دوام الاعمال وهو أمر موقوف على العامل وليس ادمانه العمل المطلوب في موضوعنا هذا أمرا من لوازم وجود ذاته فيحتاج الى صفة زائدة تقضي عليه ان يكون دائم العمل بقدر الحاجة وليس احتياجه كافيا لهذا الاقتضاء اذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والاهمال وما شاكلها على أن الحاجة متفاوتة فما كان منها فى الدرجة الاولى درجة الاضطرار البحت فهو بنفسه كاف لادمان العمل بخلاف ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق والصفة القاضية بالادمان أي المتممة لعلته هي التمرن والاعتياد

و بعبارة أوفق بالغرض: ان مالا تدعو اليه الحاجة أصلا فى زمن من الازمان قد تدعو اليه في زمن آخر لا لسد الاضطرار البحت بل لما زاد عنه من الحاجات الثانوية كالكماليات والمحسنات وقد تدعو اليه بعد زمن طويل أو قصير لسد الاضطرار البحت فلا يجد الانسان عنه فرارا فيتكلفه مقهورا مقسورا يتصور المنفعة على بعد ولكنه غائب في دهشة آلام الاعمال التي لم يتكلفها يوما من الايام لولا حكم الصروف والحادثات التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور

في يدي الطفل فلايزال يحس بالالم و يدمن العمل حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً الى ان يزول الألم بالكلية ولا يجد الا عملا بدون ألم فاذا مضت برهة بعد الابتداء يحس من نفسه بعض الميل الى العمل فكأن الألم الاول استحال الى ضده (على حكم تلاقي الطرفين) و يجد منه باعثا طبيعياً اليه وهكذا يزداد الميل و يشتد العشق حتى لا يميل به الكسل يوما ما الى اهمال العمل وهذا هو المقصود من التمرن والاعتياد

أما كون الشيء ر بما يكون ضرور يا فى وقت دون وقت فالامر فيه وان كان على ما أظن لايحتاج الى البيان غير اني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظر ين أقول

ان الانسان من حيث هو مفكر لا يقف عند حد محدود فيما يتعلق بلوازم حياته وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو الحضارة أو الترف فى المعيشة أوغير ذلك بل يكفيه مايسد الرمق من القوت و يقيه الحر أو البرد من اللباس ويكنه وقت الايواء من البيوت غير أنه لما تأنق فى هذه الضروريات بعض التأنق ورأى أنها تقبل التحسين شيأ فشيأ أخذ على نفسه أن لا يقر له قرار ولا يهدأ له جاش حتى يستخرج من دائرة الامكان كل ماتتأدى اليه فكرته فجد واجتهد واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها عند ما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه أنها لم تخلق الا له فتسلط عليها بصنعتي التحليل والتركيب حتى فتح أبوابا للتجارة والزراعة والصناعة ووصل الى ما وصل اليه الآن وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالا على أثقال كلما وصل منه الى درجة ظنها آخر الدرجات وحسب نفسه فيها غريبا فيتخذ نتائج تقاليدها الغريبة زينة شأن كل أمر غريب نادر الوجود اذ كل نادر عزيز قال الشاعر

سبحان من خص القليل بعزه والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذي نفس لمحتاج الى أنفاسه

فاذا توطنت نفسه الى هذه الغرائب زمنا استزاد منها حتى يبلغ بها حد

الكثرة فيستعملها في لوازمه الضرورية في كافة أحواله ولا يخص بها وقتا دون وقت الى ان تصير من قبيل الأمور المعتادة التي لايستغني عنها بحيث يعتبر كل ما كان أقدم منها وفي درجة قبلها من التقاليد ساقطاً عن درجة الاعتبار وغير جائز الاستعمال و يتوهم أن استعماله في الحالة التي وصل اليها يزري بمقامه المنيف و يحط بمقداره الشريف ولا يتذكر أنه هو هو الانسان أيام كان يقتات ببسائط النبات و يستتر بأوراق الاشجار و يأوي الكهوف والأغوار فبان بما ذكر أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر

ومن وجه آخر نقول انا اذا سبرنا أخبار الأمم نعلم يقيناً ان الهيئة الاجتماعية البشرية ماوصلت الى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات دفعة بل لا بد كما يشهد العيان ان تسبق أمة من الأمم الى غاية في المدنية فاذا نظرت الى جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها والانسان (قتل الانسان ماأكفره) بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره فتفاخرها بما يدهش العقول و يبهر النواظر من صناعاتها الغريبة وأوضاعها الجميلة فترمقها تلك بعين الذاهل المندهش وتتوهم أن ضعفها واقعي فتنقبض نوعا من الانقباض فاذا توسمت فيها هذه الانكماش والذعر (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها من ضروب الحيل والدهاء و بما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد فتقف تلك وقفة الحائر المتفكر الى أن يرشدها التأمل الى أن هذه ما وصلت الى ماوصلت الا بالعلم والعمل المتوقفين على الكد والاجتهاد فتندفع وراء الجد بحكم الاضطرار حتى تصل الى ماوصلت اليه أوتكاد غير ان تلك أيضا بعد ان تذوق لذة التقدم وتنسيها سكرة التيه طعم الذل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة جارتها الأولى تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ما كانت تعامل به في مبدأ الأمر حتى تضطرها كذلك الى ان تركب متن الاجتهاد في السير وراء من تقدمها وهكذا كلما دخلت أمة من باب كلفت به من يجاورها من الامم حتى تنتظم الامم جميعا في سلك واحد في هذا الباب ولكن حيث ان حب التسابق طبيعية في الناس فلا تراهم يقفون لدى نقطة بل متى وصلوا الى حد ما من حدود التقدم

فلا يمضي زمن طويل حتى يقال ان أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة وفتحت بابا من أبواب التقدم عاد عليها بالنماء في الاموال والانفس والثمرات و بأن مجاورها يخشون بأسها و يرقبون حركاتها فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ولا تسكن خواطر بقية الامم والممالك حتى ينساقوا الى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون فبان ان الامم قد يحتاجون في زمن مالا يحتاجونه في آخر فصدق القول أن الشيء قد يكون ضروريا وقد لا يكون

وما ذكرناه من التلقبات والتنقلات يحكي حال الجمعية الانسانية من يوم ان تفرقت شعوبا وقبائل يتخالفون في العوائد والاخلاق فيتنافسون و يتحاسدون على النقير والقطمير و يغلب عليهم حب الذات والميل الى الخصوصيات فيدعون أنهم أجناس شتى ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحناء و يعذبون بعوامل البغضاء فتارة ترمي بهم الاطماع في مخاليب التكلف ومشاق التنقل من حال الى حال فيضطربون لهذا الأمر اضطرابا و ينقبضون منه انقباضا وآونة يلقي بهم الجهد الجهيد بعد أن يروا من الصعوبات ألوانا في بوادي الراحة عند ما يصلون الى نقطة التمرن والاعتياد ولكنها نقطة غير ثابتة كما أن درجات تقدمهم غير متناهية فلا يزالون يترددون من التعب الى الراحة حتى يرجعوا الى المجرى الطبيعي فيلتئمون بعد التفرق و يرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت

و ياليت شعري ما هو النازل الذي حل بالانسان فغير معالمه الطبيعية و بدل أخلاقه السلمية وحل رابطته النوعية والا فعهدنا به ان لم نقل انه من أم وأب تسليما جدليا فهو من نوع واحد يشف مرآه عن الوحدة التامة الناطقة بأن الانسان من جرثومة واحدة نشأ عنها عائلة واحدة حواها بسيط واحد ربطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة ولقد رمزت تعاليمه الحاضرة — التي منها وهو أكبرها تعميم المواصلات وتأكيد الروابط بين الممالك وحركة الاجتماع والتآلف — الى هذا السر المكنون و بشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين حفظا لحقوق الانسان وصونا لذمة البشر بأن الحركة العمومية موجهة الى النقطة الاولى

وكلما قربت الى المركز زادت سرعتها شان كل حركة طبيعية ولقد أثرت هذه الحال تأثيرا خفيا فى الجم الغفير من عقلاء الناس فمالوا الى خدمة الانسانية من غير ان يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب فاذا رجع الانسان الى مركزه الطبيعي لا ترى الجمعية البشرية بعد إلا كسا كني منزل واحد يرتفقون بمنافعه على السواء و يجدون من بركات الارض مايكفيهم مؤنة التعب و يكفهم عن الشقاق والعناد اذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص على حكم تبادل الاعمال واذا نزل بقبيل نازل توجه الكل الى انقاذه مما ألم به وساروا جميعا على وفق القانون الطبيعي المودع في فطرة الانسان يهديه اليه من علم الطير النياحة ومرنه على السباحة ثم لا ترى فيهم اذ ذاك مايحتاج معه الانسان الى كلفة وعناء بل لا ترى الا أعمالا جارية على منهج السهولة منهج التمرن والاعتياد

وكتب فى العدد ١٤٥٨ الصادر في ١٢ القعدة سنة ١٢٩٩ ــ ٢٥ سيبتمبر سنة ١٨٨٢

جملة سياسية

ان صوالح الافراد وان تكن مما لا أهمية لها بالنسبة الى الصوالح العمومية فالافراد هم الذين يقومون بها ويرجونها فالناس بالملوك والجيوش بالقواد وكما أن الخراب قد يطرأ على بلد أو أمة بسوء ادارة أفراد أو بعدوانهم وسطوتهم فكذلك يتم العمران بافراد يحسنون الادارة و يصلحون الفساد و يصح ذلك فى البلدان التي لم تبلغ فيها الشورى الدرجة الكمالية أكثر مما يصح في البلدان التي تقيدت فيها القوة الاجرائية بسلاسل الرأي العام وآراء أهل المشورة واذا تأملنا في أعمال أحمد عرابي في مصر نرى أنه أوقف دولاب تجارة ذات أهمية ودمر عمرانا متسع الدائرة وحجب الوفا عن أعمالهم في أهم أوقاتها و بدر من الذهب خزائن وجلب العار على وطن عزيز قد اتصف أهله باللطف والانقياد بأعمال نسبتها أوروبا الى البربرية مع أن الذين قاموا بها هم قليلون من جهلاء القوم الذين سمعوا كلمته وأنفذوا

أوامره وجلب على نفسه لوم كل الذين ينطقون بالضاد لانه هو وأعوانه سودوا وجه تاريخهم باعمال بينها و بين روح العصر بون عظيم بعد أن أفرغت حكوماتهم وعلماؤهم ورؤساؤهم الجهد في سبيل اظهار اكتسابهم روح المدنية العصري لاكتساب المنزلة السياسية واعتبار الرأي العام ولو كان ذلك ترويجاً لصالح جلي أومقروناً بأمل نوال غاية ممدوحة أوحرية مفقودة أوحقوقاً مهضوماً منها لماصعب علينا إدراك غايته وفهم مقاصده على اننا بالنظر الى ما نعهده في سياسة أوروبا في الشرق خاصة في مصر وما هو معلوم من قوتها التي اذا ضعف قسم منها تعززه بقسم آخر لانقدر أن ننسب الاعمال العرابية الا الى طمع أعمى الابصار عن صالح الوطن وداس المصلحة العامة ترويجا للمصلحة الخصوصية وعلق رئيس الفتنة وأعوانه أملهم بان يستبدوا في القطر و يقبضوا على أزمة الامور و يرتقوا سلم المجد والعز و يحرزوا الملايين وفي بادي، أمرهم خدعوا بكلامهم وادعاآتهم محبي القطر المصري حتى توهموا أن في مطالبهم خيرا وفي مقاصدهم تعزيز الوطن على أنهم منذ وجهوا خواطرهم الى تقوية العنصر العسكري وتبذير الاموال في سبيل استجلاب رضائه وابعاده عن الحكومة القانونية انكشف الستار عن مقاصدهم الشخصية وابتعدت عنهم قلوب الذين يهمهم شأن بلادهم وراحة أبناء وطنهم و يحسبون حسابا لدوس المعاهدات الدولية والحقوق العادية التي لاتتجرأ على ان تمسها أعظم الدول على أن العسكرية في يدها القوة المجموعة فانقادت بجهلها لماتقتضيه الادارة والسياسة الى قوادهم انقيادا قدجعل وطنهم ينحط من ذروة التقدم والراحة والرفاهية الى وهدة حالة الفوضى وجرت حملة أجنبية طالما حذرناهم منها مبينين لهم أن تصرفهم لا بد من أن يجلبها و يهضم من الحقوق التي لاتزال محفوظة للوطن و بسطنا لديهم بأجلى بيان الوسائل التي تمكنهم من نوال ما يرومون بالتدريج وما هي الا استمرار الانتظام المالي والاداري فالذين عاثوا وأفسدوا وخربوا وهدموا و بدروا وألقوا الناس في تهلكة أفراد حادوا عن السبيل المستقيم وانقادوا الي دواعي المطامع الشخصية وخانوا وطنهم وأمتهم وروجوا ماادعوا أنهم راغبون في دفعه عنهم فكما أن حلول تلك البلايا تم بأولئك الافراد لابد من لن يتم اصلاح الشؤن ورجوع

﴿تنبيه﴾ هذه الجملة السياسية ليست من مقالات الفقيد وقد كان طبع ما تقدم منها خطأ

وكتب في العدد ١٠١٧ الصادر في ١٩ صفر سنة ٢٩٨ و ٢٠ يناير سنة ٨٨١

التمدن

ما وصلت اليه أمة الا وحط عن كاهلها جميع الاتعاب والبلايا، والاضطهادات والرزايا ولا رقي اليه شعب الا وأمن غائلة الاعنات والاعتساف، وتحصنت أعماله من جائحة السلب والاعتداء، فصاحبه هو الساكن في منازل الرغد والهناء، واللابس حلة الاسعاد، نقول ولا مغالاة في الحق انه هو الضامن لتوطيد أركان العمران والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع، كيف لا وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكمالات من غير فرق بين أن يكون أدبيا، أو ماديا حسياً أو معنويا، فالتفنن في الصنائع فصل من فصوله، والتسابق في ميادين العلوم باب من أبوابه، والتجافي عن مواضع النقيصة جزء منه، والتجمل بالاخلاق الفاضلة نبذ من جواهره فاذا لا بدع اذا قلنا ان صاحبه هو السعيد، والواطيء بنعله غرف النعيم، جد في طلبه من أدرك نتيجته من الامم فجنى ثمره اليانع، تراه يتقلب على بساط العز، ويتدرج في معارج الاجلال والجمال، عمرت دياره بعد أن كانت قاعا صفصفا بالابنية العالية وتزينت بالاسواق الفسيحة، والصنائع العديدة، وصارت محط رحال السياسة ومطمح أنظار النبلاء ضاق بسيطها عن القيام بنفقاته الواسعات فطار على جناح العلم يستطلع بقاعا ربتها الجهالة، وثلمتها يد البغي، ليكون فيها هو الوارث بعد بنيها، يستخرج منها الكنوز بحكمته، ويفجر منها الينابيع بقدرته، ليجني وأهلها الغارسون، ويقضي وهم المطيعون، تسمع أهل تلك الديار صدى صوته في العشي والابكار، والغدو والآصال، ولكن يغالطون الحس ويكابرون بانكار البداهة ويسلون أنفسهم بأن هذا الاجنبي لا سطوة له ولا حكم وانما هو غريب دعته الحاجة للتجول في البلاد لطلب الرزق ثم تحدثهم خواطرهم بأننا أرفع شأنا من أولئك الغرباء وأسبق منهم يدا في المدنية ولئن تأخرنا عنهم حينا من الزمن

لكننا لحقنا بهم في انتظام الهيئة وحسن السلوك وهذه قصورنا المشيدة وثيابنا الملونة وقدودنا المجملة وأطعمتنا المتنوعة تشهد بأننا قوم غمسنا في الترف وحظينا بالثروة ونهجنا الصراط المستقيم

يحسبون تلك الاوهام حقائق تجعلهم من ذوي النعمة واليسار والعزة والكمال اعتمادا على كونها سنة الامم المثرية، والشعوب المتنورة، وأيم الله انها بالنسبة الى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع ومجلبة الشر وان هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق يتوهم الغافل من بريقها ولمعانها أنها تأتي بوابل ينعش البقل ويحيي الموات ولكن اذا حل الاجل أمطرت مايذهب بالحياة و يبدد الاجسام وذلك لان الامم المتمدنة وان أنفقت الاموال الكثيرة في تشييد القصور وتزيين الملابس وتحسين الاثاث الى غير ذلك من المصارف فانما يكون على نسبة مخصوصة من ايراداتهم الحائزين لها بالكد والتعب في ابراز المصنوعات الجميلة والمخترعات الجمة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسعة وقدرا رفيعاً ولا يجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها ومع ذلك فنفقاتهم هذه لاتتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم فكلها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ورفع الحاجة. تدخل منزل الرجل منهم فترى غرفه ومخادعه مشغولات بامتعته و بضائعه ونقوده وليس فيها قدر شبر غير معمور لغير حاجة حتى حديقته ولا يشتري ثوبا له أو لزوجته وأولاده الا بقدر العوز وحلي آل بيته ثلاثة أرباعه من النحاس مهما كثرت ثروته وليس في اصطبله سوى عربة أو حمار للركوب لايجمع بينهما الا نادرا. فرشه وغطاؤه لايخرج عن نوعي القطن والصوف كثيابه

أما أهل تلك الديار الذين يزعمون أنهم قوم متمدنون (وهم في ذلك مخطئون) فقد ركبوا الشطط وحملوا أنفسهم مالا يطيقون من النفقات الباهظة يصرف الواحد منهم آلافا من النقود في سبيل تعمير أرض فسيحة و ربما كلفه مالا يبلغ العشر من مساحتها و يفرشها من أعلى أنواع الفرش ويزينها بأبهج أصناف الزينة فتبقى غرف المنزل بلا ساكن يعلو التراب على مافيها من

الاثاثات والفرش المغشاة بالفضة والذهب حتى يبيدها ور بما لا يستعملها مرة في العام يتختم في أصبعه بما تجاوز قيمته عقد الالوف من الفرنكات ولدى زوجته من الالماس والجواهر ما يكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد لواستعمل ثمنه في شيء يتجر به (اذا كان ممن يفقهون) الى غير ذلك من المصارف التى يضيق بنا المقام عن تفصيلها وما حمله عليها سوى الطيش والانهماك في الشهوات والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون فان رجعنا الى سيرهم في طرق جلب المنافع وتخفيف اتعاب المعيشة وتحسين وسائل الاكتساب رأيناهم واقفين على نقطة واحدة من آلاف من السنين فايراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الاخضر المفروشة بقصب (الحلفاء) المفروشة بقضبان شجر (الجميز) وجذوع النخل مكتفين من الثياب بما يستر البشرة ومن الطعام بما يذهب النهمة فمزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الايام لم تتغير أشكالها ولم تتبدل أصنافها نعم قد زادت حاصلاتها نظراً للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري ولكن هذا النمو لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي ألم بتجارة أبناء البلاد فقد كان يوجد قبل ورود الغريب اليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع اصناف المزروعات وغيرها من الاقمشة والمأكولات ويربحون من ذلك أجراً عظيما أما بعد ذلك فلا ترى بينهم الا يتضورون جوعاً ويئنون تحت أحمال المشقات لبوار التجارة وكسادها واختصاصها بيد النزيل ويتبع ذلك سقوط صنعة النجارة والحدادة والحياكة وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الامم المتمدنين وربما ينتهي بهم الامر لو استمروا على الجهالة والسفه الى خلو أيديهم من الزراعة ايضاً لوجود من يحسنها سواهم ولا عجب بعد هذا اذا رأينا هؤلاء السفهة واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال يئنون تحت أثقال الديون التى تستغرق جميع ما في حوزتهم من الاملاك وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء فى قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد فيلاقون منه شمالا تقدر على تحمله النفوس ولا تستطيعه الطباع وربما كان الدائن من سفلة قومه والمدين من اعيان بلاده ولا تغني عنه يومئذ قصوره العالية

ولا ثيابه المزركشة ولا أثاثاته الخزية والحريرية وهذا فضلاً عمـا يعتريه من البلبال وكثرة الوسائل والافكار. يبيت ليله يتقلب على الفراش ولا تقلبه على جمر الغضا يقدر محصولات زراعته قبل بذرها وينسبها لمقدار المطلوب في إبان الحصاد فاذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان ذاهلا عما عساه يحدث من الغرق او الشرق او الاندية المتساقطة من الجو حتى اذا حل الاجل ولم يجد لدينه ما يفي بالمطلوب لأصابة الزرع باحد الاسباب التي ذكرناها ضرب كفا على كف واسود وجهه وساءت حالته وتسول الناس ليكفلوه عند عميله اذا لم يف ما عنده بالرهن فلا يجد مجيباً ولا نصيرا. لعمر الحق ان المفترش للحصى المتوسد لحجر الصخر المستكن في منازل الحيوانات المتكفف في معيشته خير من هؤلاء الناس الذين لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال (ومما يسوءنا أن نراهم أكثر من الكثير في بلادنا) أهذا ما حسبوه تمدنًا وزعموه نعيما مقيما بل انه هو الشقاء الابدي الجالب للفقر المدقع والعذاب الأليم

هذه مشار بهم في الاحوال المعاشية تحزن المحب وتفرح قلب الرقيب ولعلمنا بان تلك الحالة لا يرضاها الشرع ولا القانون لم نقصر في النصح فيما مضى ولم نقصر في البيان الآن وسنأتي بعد على هذا الموضوع كما أتينا عليه سابقًا مبينين علة الميل الى الانهماك في السرف الذي نعده تمدنًا ونتبعه ان شاء الله بشرح بعض ما ألفناه من العادات المستهجنة في الافراح والمياتم والموالد والضيافات وبيان ما نتحادث به في منتدياتنا مما هو عقبات في طريق تقدمنا ونمو ثروتنا مفردين في البيان كل موضوع على حدته انذارا من سوء عاقبته لعلنا نعتاض بما هو خير منه فنستبشر بانتهاجنا صراطاً قويماً وطريقًا مستقيماً وما ذلك على الله بعزيز

(يقول جامع الكتاب) قد كان ينبغي أن توضع هذه المقالة بين مقالة (ما أكثر القول وما أقل العمل) ومقالة (منتدياتنا العمومية وأحاديثها) وهـذا ما علمناه من مقالات الاستاذ فى جريدة الواقائع المصرية الرسمية . وله ما فيها كتابة أخرى في ضروب من الاصلاح كان يكتبها بمناسبة الاخبار والحوادث تجد الكلام عليها في الجزء الاول من هذا الكتاب

٤

مقالات العروة الوثقى

الاصلاحية

أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) فالآراء والافكار فيها كانت مشتركة بين هذين الحكيمين والمحرر لجميع مقالاتها هو الثاني وقد كتب في فاتحة العدد الاول منها ما نصه



ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير . هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، في نجاح العمل ،

خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الانفس ثم التوت ، أوغل الاقوياء من الامم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام الى ما يسوله الوهم ، ويغري به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه أن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت سوادفي أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الازمان احاطة امة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة وان بلغت القوة اقصى ما يمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم

علم تاريخه الى اليوم أن الامم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة ، او غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، او افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ازعجتها ونبهتها بعض التنبه فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ولم تجد بدا من طلب النجاة من اي سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتئام أفرادها والتحام آحادها ، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ترشدها الى ان لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها .

ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها واستأسد ذئبها وتنمر ثعلبها والتمست خلاصها وان تعدم عند الطلب رشادا .

ربما تخطىء مرة فتكون عليها الدائرة لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التي تبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها لا يكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر فان العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة نعم يمكن تخفيف الأثر او ازالته بازالة علته ورفع اسبابه .

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعادات والمشارب وإن لم يكلفها زائدا عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها فكيف بها اذا حملها ما لا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبا تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرب فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنسي

والمذهب . وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق اشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة . أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام . كل يطلب خلاصاً و يبتغي نجاة و ينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن وأن العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمي عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في ابنائه بل ما يجري به القضاء الألهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون الخ ،

الجنسية والديانة الاسلامية

﴿ من العدد الثاني الذي صدر في ٢٢ جمادى الثانيه سنه ١٣٠١ ﴾

ان استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الاغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه و يغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا أنه يبعد ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربي فيها الى ان عقل ولم يذكر له مولده فانا لا نرى في طبعه ميلا اليه بل يكون خالي الذهن من قبله و يكون مع سائر الاقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعي لا يتغير . ولهذا لا نذهب الى أنه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات فان الانسان في أي أرض له حاجات جمة وفي أفراده ميل الى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار يطبعها على العدوان

فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالا الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا الى الأجناس فتوزعوا أمماً كالهندي والانجليزي والرومي والتركماني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرا على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علما بأنه لا بد أن يكون جائرا اذا حكم ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلا تحس به النفس و ينفعل له القلب فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها فى الحدوث بلا ريب وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدر وتخضع لسلطته النفوس بالطبع وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام وهو مبدأ الكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها فمحي أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير

هذا هو السر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبيتهم الاسلامية فان المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه و يلتفت عن الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد و بيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعاً لها ولن

ينالها بوراثة ولا امتياز فى جنس أو قبيلة أو قوة بدنية أو ثروة مالية وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الامة . فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة وليس للوازع أدنى امتياز عنهم الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل فخار تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والاموال والاعراض بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية» والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى (اتباع الشريعة) « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الأجيال من لا شرف في جنسه ولا امتياز له فى قبيله ولا ورث الملك عن آبائه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه الى منصة الحكم الا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه

وان بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها اليهم على حسب امتثالهم للاحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم من الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس الى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع .

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسي يقبل سيادة العربي والهندي يذعن لرياسة الافغاني ولا اشمئزاز عند احد منهم ولا انقباض . وان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الى

قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها . نعم اذا نبا في سيره عنها وجار في حكمه عما نصت عليه وطاب الاثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب وانحرفت عن محبته الانفس وأصبح وان كان وطنياً فيهم أشنع حالا من الاجنبي عنهم

ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجافي عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان وان ينال الغاية من رفعة الشان في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ولا يتجشم في ذلك اتعابا ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . . ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة . أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الاديان الى الآخرة فقط ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة في الدنيا والتنعيم في الآخرة وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين وجاء بالمساواة في أحكامه بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على أن الندم يأخذ بارواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالالم رجع واسترجع . وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم

عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الاقدمين فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطه العليا فاذا رجع الوازعون فى الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين وفقنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها

نشرت في العدد الثالث من العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوي الاركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل نمت فيها افنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا سعادة الا في انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل

ثم وبعد هذا كله وهي بناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الاهواء وانشقت العصا وتبدد ما كان مجتمعاً وانحل ما كان منعقدا وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو في غيبة عن ان ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الامة وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده والى

توفير خيرهم من تنمية رزقه وكانه بهـذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحوا وذبول يظنه المغرور زهوا وأخذ القنوط بآمال اولئك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة اليهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر للحق في خيال احدهم او استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفا او يعيد لها مجدا عده هوسا وهذيانا اصيب به من ضعف في المزاج او خلل في البنية اوحسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالو بال واورده موارد الهلكة او لصار من اقرب الاسباب لزوال نعمته ونكد معيشته . و يحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعي ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه و يقصر نظره عن درك ما اتى اسلافه من قبله وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لاعقابهم و يبلغ هذا المرض من الامة حدا يشرف بها على الهلاك و يطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيرا من الامم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وأسفا ما أصعب الداء وما اعز الدواء . وما اقل العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق الا لأن كلا عكف على شأنه . . . استغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن اخيه وهو أشد اعضائه اتصالا به ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه نعم ربما التفت كل الى ما هو فى فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدري من أي وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها . كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت الا بعد ماسكنت زمانا غير قصير الي ماليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد ان الفوز فى سلوك سواه خصوصا بعد ما استدبر المقصد وفى كل خطوة يظن انه على مقربة من الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه المبتهج بأحلامه وفي اذنه وقر في ملامسه خدر؟ هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقه من أمة عظيمة

تتباعد انحاؤها وتتناءى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعدما تراكم جهل وران غين وخيل للعقول ان كل قريب بعيد وكل سهل وعر؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير . هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه؟ ان كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل ان يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ والا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لا تظهر الا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها .

كلا انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليها وان كان المتشبهون بهم كثيرين . وكما ان المتطبب القاصر في الامراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة بل ربما يفضي بالمريض الى الموت كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الاولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فان أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء . فمن له حظ من الكمال الانساني ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي لا يجرأ على القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علما أو عملا . نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء

ظن أقوام في هـذه الازمان ان أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد وأنهـا تكفل انهاض الهمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق . كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون الانجاح الامم مع التنزه عن الاغراض فبعد ماعم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون لا تجد لها قارئا ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه لضيق في التصور أوميـل مع الهوى فلا يكون منه الا سوء التاثير فيشـبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافا . على ان الهمة اذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمـها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاسـتطلاع مافيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ان هـذا وحقك لعزيز .

و يظن أقوام آخرون ان الامة المنبثة في أقطار واسعة من الارض مع تفرق أهوائها واخـلادها الى مادون رتبتها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسـها ولا مشربها بل لمن كان خاضعا لسيادتها راضخا لاحكامها مع هذا كله يتم شفاها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوربا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة . وما أبعدما يظنون فان هـذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوي قاهر يحمل الامة على ماتكره ازمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته في تنفيذ ماأراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضوع كلامنا في الضعف وداوئه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغني ولو كان للأمة هذان لمـا عدت من الساقطين . فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الامكان لولا مايـكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لان يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر . . على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الامـة مدة من الزمان

تكفي لبث تلك العلوم في بعض الافراد والاستزادة منها شيأ فشيأ فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وان مايصيبه البعض منها يبوئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء امته . واعجبا كيف يكون هذا وان الامة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت وبأي ماء سقيت وبأي تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهرا من القول لانبأ عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الافراد بها وسوقها الى اذهانهم المشحونة بغيرها يقوّم من أفكارهم ويعدل من اخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد في افادة اخوانهم . لعل الاقرب ان ناقلي تلك العلوم وهم من امة هذا شأنها مع ماينعكس اليهم من الاوهام المألوفة فيها وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الامة التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لايزيد طبائعها الا فسادا .

ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم -- يؤدون ماتعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح فيرومون من الصغير مالا يرام الامن الكبير وبالعكس غير ناظرين الا الى صور ما تعلموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على مابها أضعافا وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لهـا نقلة وحملة . فهؤلاء الصادقون الا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنه سن الالبان لا يقبل سواه فيسرع اليه المرض وينتهي به الى التلف فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخرياب الالتئام ان كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط

فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا الاخيرا ان كانوا مخلصين ويوسمون بذلك الخصاص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود أبوابا ويباعدون ما بين الصفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير ·

شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم مايحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل مايسمونه تمدناً وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني · هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم ازمان غير قصيرة · هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد · هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم · هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم · هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم · هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا وان بادت في سبيلها خلفها وزاث على شاكلتها كما كان في كثير من الامم

نعم ربما يوجد بينهم افراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهاة فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم ان يقوموا بكل ماتستدعيه تلك العلوم

الجديدة والكماليات الجديدة لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا الالأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها . . .

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين اطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤمًا على أبناء أمتهم يذلونهم ويحقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وان جلت وان بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم أو نزوع الى معالي الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحي أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير اولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ذلك أنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون ان قوة تغالب قواهم .

أقول ولا أخشى لوما لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب على بعض أراضيها الانكليز لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم ولهذا لو طرق الاجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم .

فما الحيلة وما الوسيلة والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أي جهوري من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الافكار الخامدة ؟ أي نفخة تبعث هذه

الأرواح في أجسادها ، وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها ؟ الاقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي ، الرؤوس مطرقة الى ماتحت القدم أو منغضة الى ما فوق السماء ، ليس للابصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال ولا للأسماع إصغاء ولا للنفوس رغبات وللاهواء تحكم وللوساوس سلطان .... ما ذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والاخطار محدقة بهم ؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنايا على أبوابهم ؟

لاأطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكني أستلفت نظرك الى سبب يجمع الاسباب ووسيلة تحيط بالوسائل . أرسل طرفك الى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض هم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها انما هو دين قويم الأصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث على الألفة داع الى المحبة مزك للنفوس مطهر للقلوب من أدران الخسائس منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل مايحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه الى جميع فروع المدنية . فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها انما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً وحدوث بدع ليست منها في شيء اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله وما أعدته الحكمة الإلهية له حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الامة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها .... فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران

الغيرة وجمع الكلمة و بيع الارواح لشرف الامة ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم بإحياء الامة الا الى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الارواح لأقرب وقت فاذا قاموا لشؤنهم ووضعوا اقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني .... ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الامة الا نحساً ولا يكسبها الا تعساً .

هل تعجب أيها القارىء من قولي ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة . وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الى أقصى غاية في المدنية ؟ ان عجبت فان عجبي من عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدنايا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وبعد ان كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة أقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وارسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها ....

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على الأمصار وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنايا وبعد الغايات وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم وقومت أفكارهم وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا

مستقلا في عدد آخر ان شاء الله وهو الموفق للصواب

النصرانية والاسلام واهلهما

مقابلة بينهما في طلب العزة والسيادة من العدد الرابع نشرت بالعنوان الآتي

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

خلق الله الانسان عالما صناعيا ويسر له سبيل العمل لنفسه وهداه للابداع والاختراع وقدر له الرزق من صنع يديه بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة وخشونة ورفاهة وتبدٍ وحضارة صنيعة أعماله - أقواته من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية وسرابيله ومايقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجا أو خصفا واكنانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع مايتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه انما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسطا أكفه للطبيعة ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم وهو فى صنعه وإبداعه محتاج الى استاذ يثقفه وهاد يرشده فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر على ان يعمل فصنعته ايضا من صنعه فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه

دعه في هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى أحواله النفسية من الادراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضا عالما صناعيا شجاعته وجبنه، جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفته وشرهه، وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى وما يودع فى نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربي بينهم، مرامي أفكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه الى الأسرار الإلهية أو ركونه الى

البحث في الخواص الطبيعية وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عند بادي الرأي فيه وكل مايرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات والاقوام والعشائر والمخالطون أما هواء المولد والمربي ونوع المزاج وشكل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلاأثر له في الاعراض النفسية، والصفات الروحانية، الا مايكون في الاستعداد والقابلية، على ضعف في ذلك الاثر فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع. نعم ان أفكارا تتجدد، ومعقولات من اخرى تتولد، وصفات تسمو، وهمما تعلو، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين و يظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ولكن الحق فيه أن ثمرة ماغرس ونتيجة ماكسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا ان الاعمال البدنية، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية، وان الروح هي السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لاتحتاج فيه الى تذكير لأنه مما لا يعزب عن الاذهان انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن منكرا يجحدها ،

ان الدين وضع الهي ومعلمه والداعي اليه البشر تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الامم أول مايمتزج بالقلوب و يرسخ في الافئدة وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها الى ماتدبر به بدنها وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل واول مايخط فيه رسم الدين ثم ينبعث الى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال

و بعد هذا الموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية وهو بحث

طويل الذيل وانما نأتي به على اجمال ينبئك عن تفصيل. ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ومن وصايا الانجيل: من ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر: ومن أخباره ان الملوك انما ولايتهم على الاجساد وهي فانية والولاية الحقيقية الباقية على الارواح وهي لله وحده. فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ماقلنا من ان الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار مع ملاحظة ان لكل خيال أثرا فى الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين فى عقائدهم اليه فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ويسارعون الى افتتاح الممالك والتغلب على الاقطار الشاسعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة ويستعملها بعضهم في بعض ويصولون بها على غيرهم ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ويصرفون عقولهم فى احكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لايكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ بسورة من كتابها المنزل يحكم حكما لاريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد ان يكونوا أول ملة حربية فى العالم وان يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها ومن تأمل في آية «وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة» أيقن ان من صبغ

بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبلها والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ومن لاحظ ان الشرع الاسلامي حرم المراهنة الا في السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون في طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا فى اختراع الآلات حتى فاقهم الامم سواهم فيما كان أول واجب عليهم واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية وكيف وجدت بندقية مرتين في ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب

لم لايحار الحكيم وان كان نطاسياً، لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من اجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين أو ألقي شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم عند ما ينربعون فى محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما؟ هل استبدت الابدان فيها على الارواح أو وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال أو انفلتت الافكار من سلطة الدين أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته وهو أول حاكم عليها وأقوى موثر فيها ؟ هل تتخلف الملل عن معلولاتها؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ،

أينسب هـذا الى اختلاف الاجناس وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحـدة ويتقاربون في الانساب الدانية ؟ أينسب هـذا الى اختلاف الاقطار وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ويتجاورون في مواقع الامكنة ؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الالباب؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخو الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها . كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية اشباه المـدافع فزع لها المسيحيون وغابو عن معرفة أسبابها . ذكر ملكام سرجم (انكليزي) في تاريخ فارس ان محموداً الغزنوي كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انحزامهم بين يديه سنة (٤٠٠) من الهجرة وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها . فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها الى مالم يكن في قواعد دينها وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم . مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن ان لابد لهـذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولـكن نجمل على ماشرطنا :

ان الدين المسيحي انما امتدظله وعمت دعوته في الممالك الاوربية من ابناء الرومانيين وهم على عقائد وآداب وملـكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة وعلومهم وشرائعهم الاولى وجاء الدين المسيحي اليهـم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ماورثوه عن اسلافهم ومع هـذا فان صحف الانجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الـكافة من الناس بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ثم ان الاحبار الرومانيين لمـا أقاموا أنفسهم في منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليها دعوة الدين التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينيـة وجرت منها مجرى الاصول ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحيين فى أوربا وافترقوا شيعاً وذهبوا مـذاهب تنازع الدين فى سلطته وعادا وميض ماأودعه أجـدادهم في جراثيم وجودهم

ضراماً وتوسعوا في فنون كثيرة وانفسح لهم مجال الفكر فيها وكانت براعتهم في الفن العسكري واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون

أما المسلمون فبعد ان نالوا فى نشأة دينهم مانالوا وأخذوا من كل كمال حربي حظا وضربوا في كل فخار عسكري بسهم بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه وخلطوا بأصوله ماليس منها فانتشرت بينهم قواعد الجبر وضربت في الأذهان حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال هذا الى ماأدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهرا لوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم وفتوراً في العزائم . وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصا بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة فى دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم بل الموجب لتقهقرهم وهو الذي نعاني من عنائه اليوم مما نسأل الله السلامة منه

الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وان كان حجابها كثيفاً لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج وحيث ان الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلا بد يوما ان يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الاغيان وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وامامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجها ولا

يخصص لها طريقا فإننا لا نرتاب في عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ماسلب منهم فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع والى الله تصير الامور.

انحطاط المسلمين وسكونهم (*

وسبب ذلك

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

ان للمسلمين شــدة فى دينهم وقوة في إيمـانهم وثباتا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل وان في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض ومما رسخ في نفوسهم ان فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين و يشفقون على أحــدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء وهـذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم حتى لوسمع أي شخص منهم فى أي بقعة من بقاع الارض عالمـا كان أو جاهلا ان واحدا ممن وسم بسمة الاسـلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل اليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسـترجاع و يعـد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمه من الغليان و يستفزه الغضب ويدفعه لحكاية مارأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم و بعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ومن فروضهم في

*) نشرت فى العدد الخامس من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي .

سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطب ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم و بالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه — وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأو يلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان.

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الايمان وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكليز فى أفغانستان على مواقع انظارهم ولا يجيش لهم جاش ولا تكون لهم نعرة على اخوانهم والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون . . . .

. . . .

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب و يدعو الى الحيرة و يسبق الى بيان السبب فنذكره مجملا منه: ان الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وان كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير مايعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التي تلائمها

نعم ان الانسان انسان بفكره وعقائده الا أن ماينعكس الي مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير فكل شهود يحدث فكرا وكل فكر يكون له أثر في داعية وعن كل داعية ينشأ عمل ثم يعود من العمل الى الفكر ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار مادامت الارواح في الاجساد وكل قبيل هو للآخر عماد .

ان للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات وتلجىء اليه الحاجات عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع وتضافرهم على دفع المضار وبعد كرور الايام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه في آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية كالاحساس بالجوع والعطش والري والشبع بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيا . فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الاوقات الى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها أو وجد صاحب النسب من يظاهره في غير نسبه أو ألجأته ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الامر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكري ملجيء الضرورة أو قوة الداعية الي عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من اشكالها فلن يكون منشأ لآثاره وانما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الاصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم والعلة في تباطوءهم عن نصرة اخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب الا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضا هجرا غير جميل فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلا عمن يبعد عنهم والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين افراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة

بين أحدهم وآخر أماني هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم بل لا أنساب بينهم وكل ينظر الي نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه ·

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين · أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق ؟ هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد و بلد الا لطيف من الاحساس بان بعض الشعوب على دينهم و يعتقدون مثل اعتقادهم وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة اذا التقى بعض ببعض في موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعي الى الاسف وانقباض الصدر اذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبي عن ملته لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته · كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وتضعضعت هيئة الجسم ·

بدا هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم · كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الاديان ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس · تفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك فسقطت هيبتها من النفوس وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة ·

و زاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وايقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم

فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً وانفرد كل بشأنه وانصرف الى ما يليه فتبدد الجمع الى آحاد وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا اما الى ملك أومذهب فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة وصار ما في العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ولم يبق من آثارها الا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عند ما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء و يبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان وما هو الا نوع من الحزن على الفائت كما يكون على الاموات من الاقارب لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع ان ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية و يتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين و يجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة و يصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة اذا اهتز أحد اطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر و يرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع انحاء الارض بعضهم ببعض و يجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم و يأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الاثر ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة واشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها و يكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع فان إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل . الا أنا نأسف غاية الاسف إذ لم تتوجه

خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفت اليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ويصافحوا بالاكف من هو على مقربة منهم ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة والرمق باق والآمال مقبلة والى الله المصير

اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (*

التعصب

لفظ شغل مناطق الناس خصوصا في البلاد المشرقية تلوكه الالسن وترمي به الافواه في المحافل والمجامع حتى صار تكأة المتكلمين يلجأ اليه العيي في تهتهته والدملقاني في تفيهقه (١) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة الا وهو فاتحتها اوحشوها اوخاتمتها يعدون مسماه علة لكل بلاء ومنبعا لكل عناء ويزعمونه حجابا كثيفا وسدا منيعا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل . والمتسربلون بسرابيل الافرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال واذا رموا به شخصا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فناتيك) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا وهمزوا به وغمزوا ولمزوا ، وإذا رأوه عبسوا وبسروا ، وشمخوا بأنوفهم كبرا

---

*) نشرت في العدد السادس من جريدة العروة الوثقى

(١) التكأة كهمزة العصا والعيي الذي لا يبين والتهتهة ضرب من اللكنة ورجل دملقاني سريع الكلام والتفيهق في المنطق التوسع والتنطع فيه

وولوه دبرا ، ونادوا عليه بالويل والثبور . ما ذا سبق الى افهامهم من هذا اللفظ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة ومصدرا لكل نقيصة وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته ؟

التعصب قيام بالعصبية والعصبية من المصادر النسبية نسبة الى العصبة وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته و يدفعون عنه الضيم والعداء . فالتعصب وصف للنفس الانسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ووجوه الانصال تابعة لاحكام النفس في معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب وأقام بناء الامم وهو عقد الربط في كل أمة بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد و ينشئها بتقدير الله خلقا واحدا كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبره روح واحدة فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الاشخاص . وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة وقبيل وقبيل ومباهاة كل من الامتين المتغالبتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة وسمو المقام ونفاذ الكلمة . والتنافس بين الامم كالتنافس بين الاشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة

التعصب روح كلي مهبطه هيئة الامة وصورتها . وسائر أرواح الافراد حواسه ومشاعره فاذا الم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي وجاشت طبيعته لدفعه فهو لهذا مثار الحمية العامة ومسعر النعرة الجنسية . هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الامة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الامة بضرر او يؤل بها الى سوء عاقبة ، وان استقامة الطبع ورسوخ الفضيلة في امة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود وانما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن و بقائه وكلما ضعفت قوة الربط بين افراد الامة بضعف التعصب فيهم استرخت

الاعصاب ورثت الاطناب ورقت الاوتار وتداعى بناء الامـة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء . بعد هذا يموت الروح الكلي وتبطل هيئـة الامة وان بقيت آحادها فما هي الا كالاجزاء المتناثرة اما ان تتصل بابدان اخرى بحكم ضرورة الكون واما ان تبقى في قبضة الموت الى ان ينفخ فيها روح النشأة الاخرى . سنة الله في خلقه ، اذا ضعفت العصبية في قـوم رماهم الله بالفشل وغفل بعضـهم عن بعض وأعقب الغفلة تقطع في الروابط وتبعـه تقاطع وتدابر فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ولن تقـوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب في نشأة ثانية

نعم ان التعصب وصف كسائر الاوصاف له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة وينظر الى الاجنبي عنه كما ينظر الى الهمل لا يعترف له بحق ولا يرعى له ذمـة فيخرج بذلك عن جادة العدل فتنقلب منفعة التعصب الى مضرة و يذهب بهاء بل الامة يتقوض مجدها فان العدل قوام الاجتماع الانساني وبه حياة الامم وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال . وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في قوله (ليس منا من دعا الى عصبية)

التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد كذلك توسع أهل العرف فيه فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً والمتنطعون من مقلدة الافرنج يخصون هـذا النوع منه بالمقت و يرمونه بالتعس ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة تندفع عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني وليس يوجـد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة

القريب عن قريبه ومعاونته على حاجات معيشته وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب . فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض اذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع الى جور في المعاملة ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها اذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد خصوصا ان كانوا من قبيل قوي فيهم سلطان الدين واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية . ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والاعمال كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر بل الاجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات بل المتباعدة في الصور والاشكال ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم . هذا الاثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد اليه العقل الصحيح . وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه

ثغثغ جماعة من متزندقة هذه الاوقات في بيان مفاسد التعصب الديني وزعموا ان حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذي يصدهم عن السير الى كمال المدنية ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ويرمي بهم فى ظلمات الجهل ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم ومن رأي أولئك المتفتقين ان لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيرا ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون ان الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للانفس الى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف وأرحم مؤدب وأبصر مروض يطبع

الارواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة و يقيمها على جادة العدل و ينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة خصوصا دين الاسلام . فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الامم في التوحش والقسوة والخشونة وسما بها الى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة وهي الامة العربية

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والافراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم وجور بل ربما يؤدي الى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ومحو وجودهم كما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والابادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب . وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمي الاندلس وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ان صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم الا ان هذا العارض لمخالفته لاصول الدين قلما تمتد له مدة ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل

أما أهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت فى تعصبها في الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفيهم في دينهم وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ولنا الدليل الاقوم على ما نقول وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي فى وهن الضعف . نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم الا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان و يرعون حق الذمة و يعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه و يدفعون عنه غائلة العدوان ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم (ان من رضي بذمتنا فله مالنا وعليه ماعلينا) ولم يعدلوا فى معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) اللهم الا مالا تخلو عنه الطباع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحـدا من مخالفيهم عن التقدم الى مايستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ولم يزل الامر على ما كان وفي الظن ان الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم(فسحقاالقوم يظنون ان المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم)

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم مسلك الالزام بدينهم والاجبارعلى قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغلغلهم في افتتاح الاقطار واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة وانما كانت لهم دعوة يبلغونها فان قبلت والا استبدلوابهارسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقة الاسلامي . هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين ايام شوكتهم الاولى فانهم ما كانوا يطأون أرضا الا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتطوق بدين أولئك المسلطين وهو الدين المسيحي كمافعلوافي مصروسور يا بل وفي البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر وتذكرة لمن يتذكر ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده —هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله ان يعد الاعتدال من التعصب الديني نقصيةوهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي الابمايكون به التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة. لانخال عاقلا يرتاب في صحة ماقررناه فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟ وأي قاعدة من قواعدالعمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقصية يجب الترفع عنها ؟

نعم ان الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة الدينية وأدركوا أن قوتهم لاتكون إلا بالعصبية الاعتقادية ولأولئك الافرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين

أرباب الديانة الاسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا فانهم علموا كما علمنا وعلم العقلاء اجمعون ان المسلمين لا يعرفون لهم جنسية الا في دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدا فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حمقا منهم وسفاهة فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل ان يهيئ لنفسه مسكنا سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضا لفواعل الجو وما تصول به على حياته . ...

....

هذا أسلوب من السياسة الاوربية أجادت الدول اختياره وجنت ثماره فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ولم تعدم صيدا من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام ان يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويلهجون في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ولا يعلم أولئك المسلمون انهم بهذا يشقون عصاهم ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بايديهم وأيدي المارقين . يطلبون محو التعصب المعتدل وفي محوه محو الملة ودفعها الى أيدي الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضا والسماء سماء . والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة . الافرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم

على نجاح أعمالهم واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحا وعويلا وهيعات ونبآت تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية وينادي جميعهم: الا قد ألمت ملمة وحدثت حادثة مهمة فأجمعوا الأمر وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية: وتراهم على اختلافهم في الاجناس وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وان كان في أقصى قاصية من الارض ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الارض وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ولا يتنبه لهم احساس بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية وليسوا من نوع الانسان الذي يزعم الاوربيون أنهم حماته وانصاره . وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ولكن كثيرا ما تجاوزوه . اما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلادستون واضرابه ثم لا تجد كلمة تصدر عنه الا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب بل لا نرى روحه الا نسخة من روحه (انظر الى كتب غلادستون وخطبه السابقة) .

فيا أيتها الامة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ودماؤكم فلا تريقوها وأرواحكم فلا تزهقوها وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هي روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات ولا تدهشنكم زخارف الباطل ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة

اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وان تناءت دياره وتقاصت أقطاره

هذه صلة من امتن الصلات ساقها الله اليكم وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لاربابها وحسن المعاملة وإحكام الالفة في المنافع الوطنية بينكم وبين ابناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان المختلفة فان مصالحكم لاتقوم الا بمصالحهم كما لاتقوم مصالحهم الا بمصالحكم وعليكم أن لاتجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان وذريعة لانتهاك الحقوق فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه باشد العقاب . هذا ولاتجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض بل تضافروا بها على مباراة الامم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية . اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»

القضاء والقدر (*

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على مابينا فى بعض الاعداد الماضية ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ثم تظهر على البدن باعمال تلائم أثرها في النفس، ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس فى تعليم أوتبليغ

---

*) نشرت في العدد السابع من جريدة العروة الوثقى

شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم أو على خبث الاستعداد فتنشأ عنها أعمال غير صالحة وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ولا كيف يصرفه اعتقاده والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالبا بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب وكثيرا ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير وهذا مايحمل بعض من لاخبرة لهم على الطعن في دين من الاديان أو عقيدة من العقائد الحقة استنادا الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة ٠

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة الاسلامية الحقة ٠ كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة وحكمت فيهم الضعف والضعة ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطوارا ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا ان المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوي الحربية والساسية عن سائر الامم وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ولكن متى أمكن لاحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم يسرحون في مراعاهم ثم يعودون إلى مأواهم الامراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيأ ٠ يصرفون

أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيرا . نفقاتهم واسعة ولكن لايدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون و ينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة كل منهما يخذل صاحبه ويستعدي عليه جاره فيجد الاجنبي فيهما قوة فانيــة وضعفا قاتلا فينال من بلاد هماما لا يكلفه عددا ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور يفزعون من الهمس ، و يألمون من اللمس . قعـدوا عن الحركة الى مايلحقون به الامم في العزة والشوكة وخالفوا في ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم و يباهونهم بما يكسبون وإذا أصاب قوما من إخوانهم مصيبة أوعدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم ولا ينبعثون لمناصرتهم ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجهرية ولاسرية يكون من مقاصدها إحياء الغيرة وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسلط الغرباء . هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار وزعموا أن لامنشأ لها الا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية وحكموا بأن المسلمين لوداموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزا ولن يعيدوا مجدا ولا يأخـذون بحق ولا يدفعون تعديا ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ويركس من طباعهم حتى يؤدي بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفني بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الاجانب .

واعتقد أولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر و بين الاعتقاد بمذهب الجـبرية القائلين بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ومتى رسخ فى نفوس قوم انه لااختيار لهم في قول ولا عمل ولاحركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدوا ثمرة ماوهبهم الله من المدارك والقوى وتمحي من خواطرهم داعية السعي والكسب وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الي عالم العدم . هكذا ظنت

طائفة من الأفرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق ولست أخشي أن أقول كذب الظان وأخطأ الواهم و بطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا . لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سني وشيعي واسماعيلي وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختياريا في أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهي الربانية الداعية الى كل خير الهادية الى كل فلاح وان هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ و بين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة وسهل على من له فكر أن يلتفت الى أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا أثرا من آثار الادراك والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة مالا ينكره ابله فضلا عن عاقل وان مبدأ هذه الاسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة انما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزء له خصوصا فى العالم الانساني .

ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس في امكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية فهل يستطيع انسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه . هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين وان بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء وأطالوا البيان في اثباتها ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بآرائهم .

إن للتاريخ علما فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والاخلاق والافكار بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم وتكون الدول أوفناء بعضها واندراس أثره .

هذا الفن الذى عدوه من أجل الفنون الادبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه علي الاعتقاد بالقضاء والقدر والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الاسود وتنشق منها مرائر النمور . هـذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ويحليها بحلي الجود والسخاء ويدعوها الي الخروج من كل مايعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الاجل محدود والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أوملته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الاوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) . اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا الدول وقهروا الامم وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين مع قلة عددهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الاهوية المختلفة وطبائع الاقطار المتنوعة أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والاكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات

دمروا بلادا ودككوا أطوادا ورفعوا فوق الارض أرضا ثانية من القسطل وطبقة أخرى من النقع وسحقوا روءوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤس النابذين لسلطانهم وارجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش يغص بها القضاء ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع مايملكون من رزق في سبيل اعلاء كلمتهم لايخشون فقرا ولا يخافون فاقة .

هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ولا تأخذ النساء رهبة ولا تغشى الأولاد مهابة . هذا الاعتقاد

هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب و يبدد أفلاذ الاكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم بل قبل أن نصل الى تخومهم أطراف جحافلهم . (بكائي على السالفين، ونحيبي على السابقين، أين أنتم ياعصبة الرحمة وأولياء الشفقة، أين أنتم ياأعلام المروة، وشوامخ القوة، أين أنتم ياآل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة، أين أنتم ياخير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ أين أنتم أيها الامجاد الانجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الأمة؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم !! انحرفوا عن سنتكم، وجاروا عن طريقكم، فضلوا عن سبيلكم وتفرقوا فرقا وأشياعا حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا، وتحترق الاكباد حزنا، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية لا يستطيعون ذودا عن حوضهم، ولا دفاعا عن حوزتهم، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، و يوقظ النائم، ويهدي الضال الى سواء السبيل . انا لله وانا اليه راجعون .)

أقول و ربما لاأخشى واهما ينازعني فيما أقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ماوجد فاتح عظيم ولامحارب شهير نبت في أوسط الطبقات ثم رقي بهمته في أعلى الدرجات، فذللت له الصعاب، وخضعت الرقاب، و بلغ من بسطة الملك مايدعو الى العجب، و يبعث الفكر لطلب السبب، الا كان معتقدا بالقضاء والقدر . سبحان الله!! الانسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر وركون قلبه الى أن المقدر كائن ولا أثر لهول المظاهر . أثبتت لنا التواريخ ان كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الاقدمين ماتسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة إلا لأنه كان معتقدا بالقضاء والقدر فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة . وان الاسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة وجنكيزخان التتري صاحب

الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد بل كان نابليون الاول بونابرت الفرنساوي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة فيتهيأ له الظفر وينال بغيته من النصر ·

فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت · نعم اننا لاننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر وربما كان هذا سببا في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها في الاعصر الأخيرة ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ماأثبته أئمتنا رضي الله عنه كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون الى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ماأوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم ولايرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم وترد اليهم عزيمتهم وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول الادعوة خير من علمائهم وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم ·

أما مازعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولا غيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه بل أشبه مايكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار ·

نعم حدث للسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيزخان وأحفاده وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوربية بأسرها على ديارهم وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة ·

وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الأمر فيهم الى غير أهله وولي

على أمورهم من لايحسن سياستها فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لاتتجاوز لذته الآنية وأخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب لالعلة صحيحة ولاداع قوي وجعلواهذا ثمرة الحياة فآل الامر بهم الى الضعف والقنوط وأدى الى ماصاروا اليه ٠

ولكني أقول وحق ما أقول ان هـذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ورسومها تلوح في أذهانهم وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم وكلما عرض عليهم من الامراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بدأن تدفعه قوة العقائد الحقة ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقالهم ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم وارهاب الأمم الطامعة فيهم وايقافها عند حدها وماذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الي ارجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر ٠

ثم ارجع البصر تجـد هزة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ماتوعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب ٠ حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقا وغربا وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرةالعدل والشرع والسعي بغايةالجهد لبث أفكارها وجمع الكلمة المفترقة وضم الاشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض مايضمره الاجانب لهم وانا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوما بعد يوم نسأل الله تعالى نجاح أعمالها وتأييد مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه أن يترتب علي حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما وللمسلمين خصوصا ٠

الفضائل والرذائل وأثرهما (*

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

قالوا للأنسان كمال مفروض عليه ان يسعى اليه، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ،وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه فى التلوث برذيلة من الرذائل ،فما هي الفضائل وما هي الرذائل ؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها كالسخاء والعفة والحياء ونحوها فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان في التعامل فان من سجية كل منهما البذل في الحق والمنع اذا اقتضاه الحق فكل يعرف حده فيقف عنده فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الاعمال المالية والأعفاء لا يتزاحمون علي مشتهى من المشتهيات فان من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة وفي طبيعته الإيثار بالرغائب وهكذا اذا استقريت جميع ماعده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الاثر الناشيء عن تلك الفضيلة فاذا اجتمعت الفضائل أوغلبت فى شخصين مالت نفوسهما الى الاتحاد والالتئام في جميع الاعمال والمقاصد أو جلها ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيهما وعلى هذا النحو يكون الامر في الاشخاص الكثيرة فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد تميل بكل منها الى الآخر وتجذب الآخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم يتحرك بارادة واحدة ويطلب في حركته غاية واحدة .

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده في عمله لا يتجاوزه بما يمس حقا للآخر فبه يكون التكافؤ والتوازر .

لكل شخص من أفراد الانسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الالهية

---

*) نشرت في العدد الثامن من جريدة العروة الوثقي بعنوان الآية الكريمة

من القوى ما به يحفظ وجوده وما به التناسل لبقاء النوع وهو في هذا يساوي سائر أفراد الحيوان لكن قضت حكمة الله ان يكون الانسان ممتازا عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر ووجود أرقي وأعلي وهو كون الاجتماع حتى يتألف من افراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد والافراد فيها كاعضاء تختلف في الوظائف والاشكال وانما كل يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي كما أودع الله في أعضاء أبداننا و بنيتنا الشخصية. والفضائل في المجتمع الانساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على اداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الإبصار والعين بها الابصار وتمييز الاشكال والالوان وليس من وظائفها البطش والكل حي بحياة واحدة وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات و بالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها . كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الاجل المحدود و يثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله .

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع، والحارس والوازع، والجالب والدافع، وجميع من يدبر أمورها و يسوسها في شؤونها أمامهم افراد منها من هاماتها أو من لهازمها (من الاعلياء أو الأوساط بل سائر الاطراف) ويكون كل واحد منها قائما بحق الكل ولا يختار مقصدا يعكس مقصد الكل ولا يسعى الى غاية تميل به عن غاية الكل ولا يهمل عملا يتعلق بالأمة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولا تدكه الزلازل و بقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة تحفظ بها موقعها وتدفع بها عن شرفها ومجدها وترد غارة الاغيار عليها فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل واستعلت فيها مكارم الاخلاق .

ان أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها الا للتآلف ولا يتغايرون الا للاتحاد

فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثالهم في تغاير مآخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ففي جذب أحدهما لصاحبه ابعاد لنفسه عنه من وجه وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر فلا يفترقان ولا يتباينان ولا تفنى منفعة احدهما في منفعة الآخر . أما ان مسالك الافراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية وانهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

يرى كل واحد منهم ان ماتبتهج به النفوس البشرية وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة انما يمكن نيله اذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها فضلا عن هيئتها العامة وإلا فقد خان نفسه لأنه أبطل آلة من آلات عمله وقطع سببا من أسباب غايته ولا يحتقر واحداً من الآحاد ولا يزدري بعمله ويحسب الشخص من الأمة وان كان صغيرا بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لوسقط منها تعطلت الآلة بسقوطه .

عليك ان تنظر في حقائق هذه الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي بيناه — التعقل والتروي وانطلاق الفكر من قيود الاوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة (لين الجانب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والايثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والامانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة — أترى لو عمت هذه الصفات الجليلة أمة من الامم أو غلبت في افرادها يكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام هل يوجد مثار للتنافر والخلاف بين عاقلين حرين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين . أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه

الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحيتها أو قفرا لأنبتها أو جدبا لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ولأقامت لها من الوحدة سياجا لا يخرق وحرزا منيعا لا يهتك وان أولى الامم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيهم « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » . الفضيلة حياة الامم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

وأما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والأدب من الكلام) والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق فأي صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لا يبقى أمل في الوفاق فان طبيعة كل واحدة منها اما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق وإما السقوط الى ما لا يمكن معه للشخص اداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملية أو القبيلة أو العشيرة أو بأي نوع من أنواع التعامل والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها وان شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين (كل يمنع الآخر حقه) شرهين حاقدين حاسدين متكبرين (كل لا يستحسن الا فعل نفسه) لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هل يمكن ان يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بانتباذ كل من صاحبه وان لم تكن داعية وكفى بخلقه وصفته باعثا قويا للتنابذ .

هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها وبددتها شذر مذر واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة . هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم

بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للأجنبي عنهم، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم، و يفتخرون بالانتماء اليهم، يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم، و يمكنون مخالب المغتالين من احشائهم، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا، وكل جليل منهم حقيرا، اذا نطق أجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم، واذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع، وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم ليس في الامكان ان يكون منا عارف، ومن المحال ان يوجد بيننا خبير. ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب وينغمسون في سفاسف الأمور ودنياتها، يرتابون في نصح الناصحين، وان قامت على صدقهم أقطع البراهين، يسخرون بالواعظين، وان كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شأنهم وجمع كلمتهم، و يقعدون له بكل سبيل يقيمون في طريقه العقبات ويهيئون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم، وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج لا تنتظم لأعضائه حركة ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم فتنفلت أعمالهم عن حد الضبط، وتخرج عن قواعد الربط. فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعا للشر ومبعثا للضر، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي، بل كالمبتلي بجنون مطبق أول ما يفتك بمربيه ومهذبه، ثم يثني بطبيبه ومعالج دائه، تكون الآحاد منهم كالامراض الأكالة من نحو الجذام والآكلة يمزقون الأمة قطعا وجذاذات بعد ما يشوهون وجهها ويشوشون هيئتها. أولئك قوم يسامون في مراعي الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم فينتفخون على أبناء جلدتهم و يذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم لمن دونهم و يطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الاعداء الألداء، من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفنى في أمة أو ملة أخرى، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية .

بقيت لنالمحة نظر الى مابه تقتنى الفضائل، وتمحص النفوس من الرذائل، حتى تستعد الجمعيات البشرية بالاتحاد وتصون به أكوانها من الفساد : كل مولود يولد على الفطرة مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه ؟ انى يكون لهم حظ منها وقد كانوا ناشئين على مثل مانشأ عليه وليدهم . يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها انما يكون بالدين ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظا وافرا مما يرشد اليه فينعموا بحياة طيبة وعيشة مرضية الا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير الساهين عن هديها . أما اذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالهم ضعف اليقين فى النفوس وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية وتسلطت الحاجات المعاشية ومال ميزان الاختيار مع الهوى فحشدت الى الانفس أوفاد الرذائل فيحق على الناس كلمة العذاب ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقا .

هذه علل الخراب في كل أمة ولقد ظهر أثرها في أمم لاتحصى عددا من بداية كون الانسان الى الآن ولم يزل بقايا بعضها يشهد على مافتكت به الرذائل فيهم بعد ما بدلوا وغيروا كما في طائفة الدهير و(منك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأورببين بطائفة (ياريا) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) . فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزهم وألقاها على هامات قوم آخرين واليوم ينازع طوائف أخرى ولانخاله يتغلب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف ولا يكون ناشئا الا عن شيء من الاهمال في اتباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيه بحكم قول الله فى كتابه (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك وربما لاينكر الآن

ان كثيرا من عامــة المسلمين وان صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد الا أنهم لا ينهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء وهذا ممـا يحدث ضعفا في قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ٠)

الا ان المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن اسلافهم ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم وسـنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم فليس ماطرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضا لا يبقى وحالاً لا يدوم ٠

انظر نظرة انصاف الى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله تجد من نفسك حكماً باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) و بالحض الالهي المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن و يذكرونهـم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسـلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة لرأيت الامة الاسلامية ناشطة من عقالها متضافرة على اعادة مجدها وصـيانة ولايتها العامة من الضعف و بيضة دينها من الصدع كل ذلك في أقرب وقت وان تكون الا صيحة واحدة فاذا هم قيام ينظرون ٠

ولا ريب ان الراسخين في العلم من أهل الدين الاسلامي يعلمون أن ما أصيب به المسلمون في هذه الازمان الاخيرة انما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا وليس للناس على الله حجة فالرجاء في هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية ان يوجهوا العناية الى رتق الفتق قبل اتساعه ومداواة العلة قبل استحكامها

فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ويحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه و يبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ويقنعوهم بأنه لا ييأس من لطف الله الا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ويوحد وجهتهم ويقوي فيهم اباءة الضيم والنفرة من الذل و يحرك فيهم روح الانفة حتى لا تسمح نفس أحدهم ان يأتي الدنية في دينه و يكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق في قوله : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)

الوحدة الاسلامية (*

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال و بين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب . أخذ بصوالجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الارض الا قليلا . ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصيهم متلاقية ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) واخيافهم (الاراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات حالية باصناف الاشجار صنع أيدي المسلمين ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها بشموس الفضل وبدور العلم ونجوم الهداية من رجال كان لهم المكان الاعلى في العلوم والآداب . كان في نقطة الشرق من حكمائهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشا كلهم وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومما ثلوهم وما بين

---

*) نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى في بيان مفاسد أمراء المسلمين وفي دعوتهم الى الوحدة

ذلك أمصار تنزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطلب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية هذا فضلاعن العلوم الشرعية التي كانت عامةفي جميع طبقات الملة . كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا . ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان وفى الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الأبيض والاحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البلاد الى زمن غير بعيد . كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم . والمسلمون اليوم هم هم يملؤن تلك الاقطار التي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن مئتي مليون (*) وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالاوهام ويدعو الى الفضائل وعقائل الصفات وأودع فى أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنا وأشد استعدادا لنيل الكمالات الانسانية وأقرب الي الاستقامة فى الاخلاق وبما يرون لانفسهم من الاختصاص بالشرف وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ولا يحوم بفكر واحد منهم ان يخضع لذي سطوة من سواهم وان بلغت من الشدة واللين ما بلغت . ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه . ذلك احساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليا . وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم اليها دينهم ونالوا

(*) هذا بحسب الاحصاء لذلك العهد وقد تبين أخيرا أنهم ٣٠٠ مليون أو يزيدن

منها النصيب الاعلى في عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل ذلك شأنهم الاول وهذا وصفهم للآن ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد ان كانوا فيها أساتذة العالم وأخذت ممالكهم تنتقص من أطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته (١) هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون ؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لاعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لالا . ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة في اراداتهم وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم . نعم يوجد للتقصير في إنماء العلوم للضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم لأنا بينا ان لاجنسية للمسلمين الا فى دينهم فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلاطين في جنس واحد مع تباين الاغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم خصمه وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض فأدّت هذه المغالبات وهى أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع فضلا عن التقصير في طلب مالم ينالوا منها والإغسار دون الترقي في عواليها ونشأ من هذا مانراه من الفاقة والاحتياج وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عند ما كانوا

(١) جامع الكتاب : كل أمة وكل دولة تتمنى لو يكون العالم كله تابعاً لها في جنسيتها ودينها ولكن الاوربيين ينقمون علينا هذا الاعتقاد الذي لا نعمل بمقتضاه وهم يعملون ويسمونه تعصبا وما التعصب المذموم الاهضم حقوق المخالف في الدين وايذاؤه لأنه مخالف أو إكراهه على ترك دينه وكل هذا يحظره الاسلام ويذمه

(٣٦ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

منفردين في ميادين الوغى لايجاريهم فيهاسواهم من الملل ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى وضلت عنهم غايات المجد المؤثل وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل .

هذا الذى أباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية ودهورتها أمانيهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون . أولئك اللاهون بلذاتهم العاكفون على شهواتهم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها وأوقفوا مسير العلوم فيها وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيها . ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ماأشد ضررهما وماأسوأ أثرهما: نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضا من أعظم فروضه فاختلفوا والعدو على أبوابهم وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم ثم لهم أن يعودوا لشؤنهم . ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة وشقاء أبديا بعد الممات وسوء ذكر لاتمحوه الأيام . اما وعزة الحق وسر العدل لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أوملك ولو على قرية لاأمر فيها ولا نهي . هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب . الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين لايحتاجون

فيه الى أستاذ يعلم ولا كتاب يثبت ولا رسائل تنشر .

ان رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الأمراء ذوي المطامع فى السلطة بينهم لاجتمع شرقيهم بغربيهم وشماليهم بجنوبيهم ولبىّ جميعهم نداء واحدا . ان المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم الا الى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشيء عن احساس بما يطرأ على الملة من الاخطار .

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الاصول الثلاثة . هي أمة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا وليس في ممالكها ينابيع للثروة ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الاعمال الصناعية فهي مصابة بالحاجة والإعواز غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسي أوربا . لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ما عليه جيرانها الا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الامم الأخرى لتعليم عساكرها حتى صار لجيشها صولة تخيف وحملة تخشاها دول أورّبا

فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا في ما هو أيسر الأشياء علينا ونحن أشد الناس ميلا اليه من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ؟ ما ردّ الافكار عن الحركة وما أقعد الهمم عن النهوض الا أولئك المترفون، يحرصون على طيب في المطعم ولين في المضجع وتطاول فى البنيان وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون في حرصهم ما بعد يومهم ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع يقنعون منه بالاحتفال لهم في الموسم والاعياد وهز الرؤس وثني الاعطاف تعظيما وتبجيلا ثم تذييل الاوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنيئة هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم ما لا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل

وأغلالا يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب لا حول ولا قوة الا بالله .

أيا بقية الرجال ، و يا خلف الابطال ، و يا نسل الاقيال ، هل ولى بكم الزمان؟ هل مضى وقت التدارك هل آن أوان اليأس؟ . لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . ان من أدرنه الى بيشاور دولا إسلاميـة متصلة الاراضي متحدة العقيدة يجمعهم القرآن لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا وهم ممتازون بين أجيال النـاس بالشجاعة والبسالة أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الامم ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم فالاتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله « إنمـا المؤمنون اخوة» فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هـذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب . لا ألتمس بقولي هـذا ان يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحدا فان هذا ربما كان عسيرا ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهـده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه . الا ان هذا بعد كونه أساساً لديانتهـم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات . هذا آن الاتفاق . هذا آن الاتفاق . الا ان الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . ان البكاء لا يحيي الميت . ان الاسف لا يرد الفائت . ان الحزن لا يدفع المصيبة . ان العمل مفتاح النجاح . ان الصدق والاخلاص سلم الفلاح . ان الوجل يقرب الأجل . ان اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف . «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . ألا لا تكونوا ممن كره انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . احذروا ان تقعوا تحت قول الله « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهـم فهم لا يفقهون » ان القرآن حي لا يموت ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ومن أصيب بسهم من مقته فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه وحكموه في أحوالكم وطباعكم (وما الله

بغافل عما تعملون) ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بتلافاة أمرهم قبل أن يقضى عليهم بما رزئ به المفرطون من قبلهم ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث الى الوحدة وتوقظ من الرقدة تصدر عن اعلاهم مرتبة وأقواهم شوكة ولا نرتاب في ان العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هـذا العمل الشريف والله يهدي من يشاء ولله الامر من قبل ومن بعد

الوحدة والغلب (*

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ويهدي اليهما الدين تارة أخرى وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب وكل منهما يطلب الاخر ويستصحبه بل يستلزمه وبهما نمو الامم وعظمها ورفعتها واعتلاؤها وهما الميل الى وحدة تجمع والكلف بسيادة لا توضع . واذا أراد الله بشعب ان يوجد ويلقي بوانيه (يثبت ويقيم) الى أجل مسمى أودع في ضئاضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين فانشأه خلقا سويا ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله .

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منهـا بالغلب ما تنمو به بنيتها ويشتد به بناؤها فلا بد يوما ان تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض . ان التغلب في الأمم كالتغذي فى الحياة الشخصية فاذا أهمل البدن من الغـذاء وقفت حركة النمو ثم ارتدت الى الذبول والنحول ثم أفضت الى الموت والهلاك . وليس من الممكن لأمة ان تحفظ قوامها وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها الا ان تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج اليـه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم . اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات

---

*) نشرت في العدد العاشر من جريدة العروة الوثقى بعنوان الحديث الآتي

البشرية: حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب. وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند لهوهم بما في أيديهم وقناعتهم بما تسنى لهم ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء وما أهلك الله قبيلا الا بعد ما رزئوا بالافتراق وابتلوا بالشقاق فأورثهم ذلا طويلا وعذابا وبيلا ثم فناء سرمديا

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من افراد الأمة بمنافعها ومضارها وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم وبما تفقده من ذلك فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته فيجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة ثم لا يكون نظرا عقيما حائرا بين جدران المخيلة دائرا على اطراف الألسنة بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر والدرجة الأولى من الاعتبار والشؤون الخاصة في المنزلة الثانية منها . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ويخترطون سيوفا من الهمة ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونوادّ من المكنة، ويستخرجوا دفائن من الثروة، ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده . وان الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية وبدء الكمال فيما يليه فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة .

اذا بلغ الأحساس من مشاعر افراد الأمة الى الحد الذي بيناه رأيت

في الدهماء منهم والخاصة هِمما تعلو ، وشيما تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل يطلب السيادة والغلب فتتلاقي هممهم وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم كما تندفع السيول على الوهاد ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقا من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية الا فى إعداد وسائل الفوز والظفر . هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية وفرضان محتومان على من يستمسك بهما ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزي فى الدنيا والعذاب في الآخرة . جاء في قول صاحب الشرع ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وان المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مسّ أحدها ألم تأثر له الآخر وجاء في نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » . وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ونهاهم عن التفرق والتغاين وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا اعداء ونطق الكتاب الإلهي بإنما المومنون إخوة وطلب من المخاطبين بآياته ان يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف ثم شدد فى وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغي فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ الى أمر الله) وانما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بان من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرا .

وفي أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى ولا برّ أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق واعلاء منار الامة وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم ان يد الله مع الجماعة وكفى بالقدرة الإلهية عونا اذا صح الاجتماع وصدقت الألفة

وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاعن حكم الله وما في علمه وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين وعد جحوده مروقا من الدين وانسلاخا عن الايمان ومن عناية الشارع بامر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت » (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم وسمي حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعوعند احد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم الا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه ٠ هذا اجمال الادلة على وجوب الاتفاق وخطر المنابذة والمغابنة بين المسلمين بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه *

وأما السعيُ لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف الا وهي داعية اليه جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء المفروض منه ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عدها هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته ٠

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب الا به فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا ٠ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين وأيسر شيء علينا اقامتهما وعديدنا مئتا مليون أو يزيد ؟ هل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

لكل هذه الرزايا التي حطت باقطارنا ووضعت من أقدارنا ما كان قاذفنا

بيلائها ورامينا بسهامها الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقا تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بها ألسنتنا وتطمئن قلوبنا بذكرها وهي كلمة الله العليا هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا وهل كنا نشيم نيران الاعداء الا وأقدامنا في صياصيهم ، وأيدينا على نواصيهم . ان لأبناء الملة الاسلامية يقينا بما جاء به شرعهم لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين ؟ «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب الا الصدق في العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة في الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يحترم شريعتنا ولا يرقب فينا الا ولا ذمة بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته . لا . لا . ان المخلصين في ايمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فاين المفر . المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه الا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة ولا نجتمع على كلمة وندعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام

ان الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه في

أعداد ماضية فألهاهم عما يوحي به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم فسهوا وما غووا وزلوا وما ضلوا ولكنهم دهشوا وتاهوا فمثلهم مثل جوّاب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة كل يطلب عونا وهو معه ولكن لايهتدي اليه وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال أصوات بعض المسلمين الى مسامع بعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الارض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هي الا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الارض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فاذ أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الاجانب وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي ذهبت الى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ويهيئ لهم فوزا ونجاحا بعون الله الذي ماخاب قاصده وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب

الأمل وطلب المجد (*

إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبئ عن سر عظيم ، اختص الله به الانسان ، ورفعه به على سائر الاكوان ، ليبلغ به المقام المحمود ، ويحوز ماأعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد في وجدانك ميلا قويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها تجد مثل ذلك في كليتها كما هو

---

*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

فى آحادها تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها . ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعا : ليس من السهل على طالب المجد أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقي في الوصول اليه وعرا في السبل ، وعقبات تصد عن المسير، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله . يقطع شعابا ، و يعاني صعابا ، حتى يرقى ذروة المجد ، و يتسنم شاهق العزة ، ولو قام فى وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ و يتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء . لوسبر الحكيم الخبير أعمال البشر ونسب كل عمل الى غاية العامل منه رأى أن معظمها فى طلب الكرامة وعلو المقام كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الامر والنهي كل ينافس أهل طبقته فى أسباب الكرامة بينهم ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على ما يحله في قلوبهم محل الاعتبار حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ونافس أهلها في الجاه ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر في بسيط الارض . ذلك لان الكمال الانساني ليس له حد ولا تحده نهاية وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية . سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان وماذا ملكت من أهوائه . يعده ثمرة حياته وغاية وجوده حتى انه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه، أوعند مسه والخوف من سلبه . أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة تهينه أوقذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التى هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت وان القذف أو الاهانة مانقصت من طعامه ولا شرابه ولا خشنت مضجعه في مبيته . آلاف مؤلفة من الناس في الاجيال المختلفة والاجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك وماتوا دفاعا عن الشرف أوطلبا للكرامة والمجد . جل شأن الله لا يهنأ للانسان طعام ولا شراب ولا يلين له مضجع الا أن يلحظ فيه ان ما نال منه أعلى مما نال سواه مع وقوف بعض من الناس

على ذلك ليعترفوا له بالاعلوية فيه كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة فما ظنك بسائر اللذائذ . كم يعاني الانسان من التعب البدني وكم يقاسي من مشاق الاسفار وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات وكم يحتمل في الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخارا أو ليحفظ ما آتاه الله منه . ماأجل عناية الله بالانسان لايعيش الا ليشرف فيشرف به العالم وكل لذة له دون الشرف فهي وسيلة اليه بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها الحي الى مايستطيع من المجد وفي نهاية الاجل يفارقها قرير العين بما قارب منه، آسف الفؤاد على ماقصر عنه.

ماهو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالالهام الالهي ويخوض الاخطار في طلبه ويقارع الخطوب في تحصيله؟هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد وتذعن له بالاعتلاء وتلقي اليه قياد الطاعة يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ كلمته وكلمة المتصلين به والملتحمين معه في شؤون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الاوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الاولى . فما كان يحسبه طالب المجد عائدا الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واها! تلك حكمة بالغة اذا نال الواحد من الامة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد نعم وهل نال ما نال الا بمعونة سائر الآحاد منها « ذلك تقدير العزيز العليم » . ماذا يستطيع الجاهد وحده وماذا يكسبه من سعيه ان لم يكن له أعضاء من بني قبيله فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ويرقى الى ذروة السيادة فعليه أن يهيئ نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل مايعد في العالم فضيلة وكمالا . ماأصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والالهام الالهي وماأشد ماتحتمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ماتميل اليه من هذا الامر الرفيع . ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الارواح كل صعب ويقرب كل بعيد ويصغر كل عظيم ويلين كل خشن ويسليها عن جميع الآلام ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة فضلا عن بذل كل نفيس والسماح بكل عزيز؟

هذا الباعث الجليل وهذا الموجب الفعال هو الامل ·

الأمل ضياء ساطع فى ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق في بهماء الكروب ، وعلم هاد في مجاهيل المشكلات ، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها فترة ، ومستفز للهمم ان عرض لهاسكون ، ليس الامل هو الامنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى و يعبر عنهما بليت لي كذا من المال وكذا من الفضل مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش واللهو بما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة فيسوق اليه مايهجس بخاطره بدون أن يصيب تعبا أو يلاقي مشقة · انما الأمل رجاء يتبعه عمل و يصحبه حمل للنفس على المكاره ، وعرك لها في المشاق والمتاعب ، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ في مداركها ان الحياة لغو اذا لم تفذ بنيل الارب فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذي لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون · وكما كان الميل للرفعة أمرا فطريا كذلك كان الامل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة · غير ان ثبوتهما في فطرة عموم البشر كان داعيا للمزاحمات والممانعات فان كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر فكلٌّ طالب مطلوب ولم يبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعين لكل فرد من الافراد عملا تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس غير مايكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم امجادا شرفاء بما يأتون من أعمالهم ولكنهم تزاحموا في الأعمال كما تزاحموا في الآمال والاهواء ومسالكهم ضيقة ومشاربهم ضنكة فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا و يعلم الصابرين · فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد في هذين الخلتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الاخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يؤل الضعف الى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منهما)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم؟ يحكمون على أنفسهم بالحطة، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ولا ينفرون من الاهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول مايوجه اليهم من ذلك ايّا كان فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام فيرضون بما ترضى به البهائم فلا يهتمون الا بحاجات قبقبهم وذبذبهم ثم يالبتهم يكونون همـلا وسوائب يرعون النبات ويتبعون مواقع الغيث ولكنهم وان تركوا العمل لأنفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم فيكونون كالنمال الحمالة لاتستفيد ممـا تحمل شيئًا وظيفتها ان تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح فيلجؤن العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفســه ثم لاينالون مما يعملون شيئًا . ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم (هذا الذى يتجشمه الذليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضًا منــه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عنـد من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة فإن السائدين يشعرون بحكم البـداهة أن هؤلاء أسقطوا انفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وايداعهم ما اودع في أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بمـا لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ولنا على ذلك شاهد العيـان فى الامم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب ....

ونظن أن يوجد أقوام أخرسامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لاتسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .

عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحي أثر الفطرة؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل والامل وحب الكرامة طبيعيان في الانسان . بعـد إمعان النظر نجـد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله انما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وان قوته هي سلطان أعماله

وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر فاذا صادفته الموانع مرة بعد اخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الي قدرته فوجدها فانية، وقوته فرآها واهنة، فيعترف بوهنه، و يسكن الى عجزه ، فييأس و يقنط ، ويذل و يسفل، اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ومتي كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي .
أما لو أيقن بان لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس وتغتال آماله غائلة القنوط فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها في أعماله ولا يجد اليأس الى نفسه طريقا فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا في مدافعتها معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب فلا يمل ولا يكل ولا تدركه السآمة لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلقي قيادهم الى الاذلاء وان يدك الجبال ويشق البحار ويمكن الضعفاء من نواصي الاقوياء وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الاولى والآخرة وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته ان يقنط و ييأس ولهذا اخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين «انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » و بما حكى من قول نبيه ابراهيم « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ومن اين يطرق اليأس قلبا عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة . لهذا نقول ان المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله و بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ان يقنطوا من رحمة ربهم في اعادة مجدهم مع كثرة عددهم ولا يسوغ لهم ايمانهم أن يرضخوا للذل ويرضوا بالضيم و يتقاعدوا عن اعلاء كلمتهم وهم الى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الامم فانه

لهم ملوكا عظاما ولا يزال في ايديهم ملك عظيم على بسيط الارض وان من الحق ان نقول ان ابواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وان روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى ان يستنشقوها ، والفرص دائما تمد ايديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبيه غافلهم وتوقظ نائمهم وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول الا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم وذلك أيسر ما يكون عليهم بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم فاي موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين ايديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغي فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا ؟ ماذا يبتغون من الحياة ان كانت في ذل واهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ يطمئنون وهم بين اجنبي حاكم وبغيض شامت ومقبح غبي ومشنع ذي ومعير خسيس يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمة في عداد الامم ؟ اذا لم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات أينسون انهم كانوا الاعين في الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ، ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض ؟ ان كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ؟ لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم ؟ لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على ارواحهم . بلى ان قوما شرح الله صدورهم للايمان قاموا بهذا الامر في مواقع مختلفة من الارض بجمع التواصل بينها عقدة واحدة الا ان أملنا في بقية المسلمين ان يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم ليتمكن الجميع من نصر الله « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

رجال الدولة و بطانة الملك

كيف يجب ان يكونوا (*)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لايَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

قالو اتصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والأهب الوافرة والاسلحة الجيدة قلنا نعم هي أحراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلاصيانة بها ولا حراسة الا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة واولو رأي وحكمة يتمهدونها بالإصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة يوطئون طرق الامن و يبسطون بساط الراحة و يرفعون بناء الملك على قواعد العدل و يوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الاجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة الى أسمى مكانة تمكن لها ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجرا عما لايليق بهم وغضاضة وألماموجعا عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر و يوجس عليها من خطر ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي و يصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة ، يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب

*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى بعنوان الآية

ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين اشرنا اليهم عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم . لا بد ان يتبع في هذا الامر الخطير قانون الفطرة و يراعي ناموس الطبيعة فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق وقلما يخطئ في رايه أوتيأوّد في عمله من أخذ به دليلا وجعل له من هديه مرشدا . واذا نظر العاقل في انواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية انما تكون لمن له في الامة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها هذه فطرة فطر الله الناس عليها ان المتحم مع الامة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه و يراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيرا حتى بين العامة عندما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر او دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه خصوصا ان كان بيده هامات امورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذي يلحق الامة أكبر فيكون إهتمامه بشؤون الامة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة .

فعلى ولي الامر في مملكة أن لا يكل شيئا من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين

الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الاجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أوجرفه السيل أو دكته الزلازل هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الاجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الامة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه بل لا يجد باعثا على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه . هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخر فما ظنك بالاجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فرارا من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلبا للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لاممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الإسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الامم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها و بسطتها ما كانت مصونة الا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط الا عند دخول العنصر الاجنبي فيها وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في أعمالها فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار

خصوصا اذا كان بين الغرباء و بين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة : نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينتقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك اذا كان ولي الامر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الامة ويضرب فيها الفساد ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب الى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الاجانب لهامات الأمور في البلاد لأن صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا ان ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى وان ماشذ بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها و يميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم و وكلوا أعمالهم من كتابة وادارة وحماية للأجانب عنهم بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعد ما رأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من أجيال بعيدة و بعد ما علمتهم التجارب انهم اذا ائتمنوا خانوا، واذا عززوا أهانوا، يقابلون الاحسان بالاساءة، والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران، و يجازون على اللقمة باللطمة، والركون اليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة . اما آن لامراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقض؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا الى حسهم ووجدانهم؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بايديهم وأيدي أعدائهم . ألا أيها الأمراء العظام ما لكم وللأجانب عنكم «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم «إن تمسسكم

حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها» سارعوا الى أبناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خيرعون وأفضل نصير. اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم ومانهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين، ألم تروا ألم تعلموا ألم تحسوا ألم تجربوا الى متى الى متى انا لله وإنا اليه راجعون .

كم حكمة لله في حب المحمدة الحقة (*

العالم الانسانيّ كتاب المعتبر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أوجملة، ولنا في كل ماخطه القلم الالهيّ عبرة،

أول مايفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة وأدوارها المتبدلة فنرى اممًا علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ولم يبق لها أثر الا في الروايات والأحاديث . ومنها أجيال كانت في ثني العدم ثم اكتست حلية الوجود وأخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأخنت عليها أمهات قشعم . ومنها مانراه الى اليوم يسحب مطارف العزّة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهق القوة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشؤون وتلك الأطوار كما تعرض عليه الصور والتماثيل ينبسط لبعضها اذا أعجبه وينقبض للآخر اذا أنكره وهو في غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها . فان سئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون وماهو الا بخت يسعد فيسعد به السعداء وينحس فيتعس به الاشقياء

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التي تتبعها أحوال الامم في صعودها وهبوطها ويعلم أن ماسيق من الخير لأمة انما كان بأيدي آحاد من أماثلها جدوا وجاهدوا وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا

---

*) نشرت في العدد الثاني عشر من جريدة العروة الوثقى

بتأصيل المجد لشعوبهم و بني جنسهم ويرى لأولئك الأعلام ذكرا يرفع ومكانة من القلوب تحمد وتميزا عند الخلف بالكرامة وهم لم يخالفوا الناس في جسومهم ودمائهم وانما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة فى اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر فاذا أخذ مأخذهم واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره حتى تتعثر أقدامه في أياد مقطعة ورؤوس مجذوذة وأشلاء مبددة وشعور منثورة وصدور مدقوقة و يشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين في مناهجه ولامحيص له عن سلوكها وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم ولا بد له من اختراقها

هكذا تتكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة المخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة يخور عزمه ، و يضعف همه ، فينكص على عقبيه ، و يرتد الى أسوإ حاليه ، و يرتع في مراتع أمثاله حتى يروح الى عطنه الاولى به وهوالعدم ، وتارة يوحي اليه الالهام الالهي أن الشخص في خاصته والامم في هيئاتها ونوع الانسان في مجموعه تطالبها صورة الابداع بأعمال شريفة دونها اجهاد الانفس في السعي وحملها على مالا تهوى ومغالبة الاهوال والغوائل وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية والخواص السامية أكبر مساعد على ماتندفع اليه الهمة وتنبعث له العزيمة .

ان من أحياه الله بالحياة الانسانية كلما هاجته المصاعب لايزداد الا حرصا على قهرها كما ان صاحب الشمم لا يزيده الخصام الا حدة في الجدال واصرارا على اقناع المخاصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الانسان فى ابراز مزايا الانسان . ان صاعد الجبل ربما يجد شيئا من التعب ويخشى مفترسة الكواسر ولكن قد ينجو منها و يستريح على القنة و يعتصم بمكانة من الرفعة وتقصر عنه يد المتناول . أما من أخلد الى السفل فحظه من الحياة خوف لا ينقطع واشفاق لايزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل،

مات من الناس كثير في طلب العلا ولم ينالوا ، و بلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا ، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رئموا الخمول ورضوا بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين الى أشرف المقاصد فاما وصل واما مات كما يموت الكرام

لم تنل أمة من الامم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر سواء في العلوم والمعارف أو الآداب والفضائل أو القوانين والنواميس العادلة أو العسكرية وقوة الحماية حتى خرج آحاد منها الى ما تخشاه النفوس وتهابه القلوب وسلكوا تلك المسالك الوعرة فبلغوا بأممهم ، أقصى ما بلغت بهم هممهم ، مع الاعتماد على العناية الالهية في جميع سيرهم

ماذا يريد العاملون في خدمة الامم أو النوع الانساني والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركهم في النوع ! أليس قد جعل الله لكل شيء سببا ؟ أليس من سنة الله في عباده أن لا تتجه الارادة البشرية الى حركة تصدر عن المريد الا بعد تصور غاية تعود الى ذاته و بعد اليقين أو راجح الظن بانه يستفيد الغاية من العمل ؟ فان كان الاجل يذهب في مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية ، فماذا يقصدون من أعمالهم ؟ ان كان يوجد في أبناء جلدتهم ، وذوي ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على ايلامهم ، ويمانعهم في مقاصدهم ، وصدهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين و يثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة فما الذي يبتغون من جدهم وكدهم ؟ لا لذة تجتنى ، ولا ألم يتقى ، فما هذا الباعث القوي الذي غلب الاهواء ولم يضعفه جهد البلاء ؟

نعم أودع الله في الانسان ميلا أقوى من كل ميل وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الانواع وهو حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق — أقول هذا تفاديا من حب المحمدة من أي وجه حقا كان أو باطلا

وطلب الثناء بالزور والغش والرياء والظهور بمظاهر الاخيار، مع تبطن سرائر الاشرار، فان هذا من أسوإ الخلال وانما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة. المحمدة هي الغذاء الروحاني، والمقوم النفساني، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات وازدرى اللذائذ الحسية وقوي فيه الميل الى المحمدة الباقية وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الاعمال * تأمل * ان الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين أقصاهما الاجل المحدود من يوم ولادته الي نهاية العمر المقدر والآخر أبعد من هذا نهاية وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانساني وغاية هذا الاجل عند ما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ. فللروح الفاضلة وجودان وجود في بدنها الخاص ووجود في جميع الابدان وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل ولا ريب أن هذا الاجل الطويل وهذا الوجود العريض خير من ذلك الاجل القصير والوجود الكز (١) وحقيق بالانسان أن يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير

يطول بي الكلام فأقصر: ان الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في جبلة البشر ميلا الى الحمد وألهمهم تأدية حقه لمستحقه. ألم تر انطلاق الالسن في كل أمة بالثناء على من كان سببا لها في مجد ورفعة أو نهوض من سقطة أو توحيد كلمة أو تجديد قوة أو كمال في فضيلة أو تقدم في علم أو صنعة ويرسمونه في الالواح ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ويرفعون له الهياكل والتماثيل ويحفظون له ذكرا حميدا يتناقله الابناء عن الآباء حتى ينقرضوا أو ينقرض العالم. اذا جحدت الامة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ضعفت الهمم وقل السعي في المصالح العامة وانقبضت الايدي عن تعاطيها فهبطت شؤون الامة فافترقت وماتت

ان الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب فاذا استوى لدى الامة الحسن والقبيح والطيب والخبيث والفضيلة والرذيلة والمصلحة والمفسدة وفقد منها التمييز ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ولم تعرف معروفا ولم تنكر منكرا سلبت

(١) الكز اليابس والمنقبض. وكز اليدين بخيل والمراد هنا الاخير فيه

آحادها الميل الى المعالي والكمالات وكان هذا أشد نكاية بها من جور الظالمين، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم وسطوة الغالب لا تثبت اذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف والفضل بالحمد فانه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وانقاذها . أما فقد هذا الاحساس الشريف فهو أشبه علة بالهرم لاعقبى له الا الموت والهلاك .

كيف لا تكون المحمدة الحقة نعمة على النفوس الانسانية يسعى لها الأعلون من بني الانسان وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك)

وكيف لا تكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الاعمال الصالحات كما سوغ ذلك لنبيه في قوله « وأما بنعمة ربك فحدث »

قلب طرفك في تواريخ الامم أقصاها وأدناها تجد برهانا قاطعا على ان الأمة متى بخست قيم الاعمال العالية وازدري فيها بشأن الفضيلة فقدت ما به قوامها وانهدم بناؤها وذهبت كما ذهب أمس ولا جرم أن الكفران مقرون بزوال النعم .

يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة التي أقدمت في هذه الأوقات النحسة ووقفت على شفير الخطر وكتبت على نفسها السعي في توحيد المسلمين ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها انه نعم المولى ونعم النصير

الشرف (*)

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس الا ان أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون . فئة ترى الشرف في تشييد القصور والتعالي في البنيان وزخرفة الحوائط والجدران ووفرة الخدم والحشم واقتناء الجياد وركوب العربات وفئة أخرى

---

*) نشرت في العدد الثالث عشر من جريدة العروة الوثقى بتوقيع محمد نجيب الاسكندري الحسيني وقد سألت الاستاذ الامام رحمه الله عن محمد نجيب هذا فقال انه اسم مستعار فالمقالة من انشائه رحمه الله تعالى

تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب والتزين بألوان الألبسة وأنواعها والتحلي بحلي الجواهر الثمينة مرصعة بالاحجار الكريمة كالماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا أو في الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالاول من الصنف الفلاني والثاني من الدرجة الفلانية . حتى انك ترى الرجل يسلب مال أخيه و ينهب ثروة أقاربه وذويه أو بني ملته ومواطنيه ليشيد بما يصيب من السحت قصرا و يرفع ويزخرف بيتا و يقيم له حراسا من المماليك وخفرا من الغلمان و يظن بذلك انه نال مجدا أبديا وفخار سرمديا وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الاول ليكتسي برفيع الثياب و يتزين بأجمل الحلي أو ليكون له من ذلك مايفاخر به أمثاله ويتخيل انه بلغ به درجة من الرفعة لا يدانى فيها و يعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف و يتوهم انه وصل الحقيقة من معناه . ومنهم ثالث يسهر ليله و يقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقبا من تلك الألقاب أو يحصل بها وساما أو يستفيد وشاحا وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها وان أفضت الى خراب بلاده أو تذليل أمته أو تمزيق ملته وعنده انه رقي الذروة من معني الشرف . نحن نري هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم حتى عموا عن إدراك خطئهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم . ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره، وولدانه وحوره، ألا يحس من نفسه انه وان حاز منها أعلى مايتصوره العقل فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيأ من الكمال وان جميع ماحصله فهو أجنبي عنه وليس له نسبة اليه الا نسبة العناء في تحصيله الا يرى أن كثيرا ممن بلغ مبلغه أوفاقه سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم فاصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم فأن لم تكن على جانب من الكمال الإنساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة .

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه اذا تجرد منه وخلي بنفسه ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء ؟ أولا يجد

من شره عند المفاخرة انه يجول مع الغانيات وربات الخدور في ميدان واحد؟ ماذا يتصور الزاهي برتبته المعجب بوسامه ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته على حال تجل أو كمال يبجل . أليس يشعر انه لو سلب الوسام أونزع عنه الوشاح يعود الى منزلته من الاحتقار فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به ؟ الا تكون هذه الكرامة عارضا سريع الزوال بل رسما ظاهرا لا يمس بواطن القلوب ؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه وكان اللقب دليلا عليه أومشيرا اليه كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشري وكان الوسام واللقب عنوانا على ما اقترف كاسبه وعلامة على ما اجترم . انظر وتدبر ولا تخطي فما أنت من الصواب ببعيد ان عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد بلاونه نال رتبة ومنح لقبا وحظي بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته وجاهد في اعلاء كلمة دينه بما شهد له به الأعداء والأصدقاء * وان بعض الامراء في ديار اسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانكليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم لافتتاح بلادهم حتى مكنوا الانكليز من ديارهم وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في ايجاد لوسائل لخروجهم منها * أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه . ماذا غر أولئك الواهمين على اختلافهم ألا يعلمون أن الثياب المعلمة بالدم الموشاة بالنجيع الملونة بالمهج هي التي حفظت للابسيها ذكرا حسنا لا ينقطع وأثرا مجيدا لا يمحى . ان الذين ضرجوا بدمائهم في طلب المجد للمتهم هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب ، ألم يصل إليهم أن الذين قضوا نحبهم في غايابات الجب وانتهت حياتهم في ظلمات السجن لطلب حق مسلوب ، أوحفظ مجد موجود ، هم الذين سما ذكرهم الى شرف الشمس الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء . أظن ان الذين كانوا في الغرفات

العالية ينظرون الى جنانهم وحدائقهم و يشرفون على الناس من شرفات قصورهم وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم في حياتهم شأن الا ماهو محصور في دوائر بيوتهم ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم وارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاؤا الى الدنيا ومتى انكشفوا عنها * هل سمعنا أن أحدا يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا نعم يقولون علم وعمل و بذل ورفع ووضع وجاهد وكافح وأباد وأبقى وما يشا كل ذلك من الأعمال التي لها أثر ثابت . اذا ذكر الاسكندر الأكبر هل يخطر بالبال ان كان له قصر أولا . أي أبله يطلب سيرة نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه أوفى خرق ثياب كان يلبسها؟وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ماشيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا أوكان جميع ماينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصي * خدع قوم بالأحلام ، وغرتهم الأوهام ، ففرطوا في شؤون بلادهم وباعوا مجدها الشامخ بتلك الأسماء التى لامسمى لها وزعموا وان لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا مكانة من الشرف وان كان خاصا بهم بعد ماعلموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها ونالها غير أهلها فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم وتعنفهم به خواطر أفئدتهم ورمقوا بأبصارهم مايحيط بهم لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه .

* لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم وما لصق من الذل والعار بذراريهم لطرحوا الوشاحات ونبذوا الوسامات ولبسوا أثواب الحداد ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقي .

* الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع وحددتها عقول الكاملين من البشر وليس لذي شاكلة انسانية أن يرتاب في فهمها الا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

* الشرف بهاء للشخص يحوم عليه بالأنظار ، و يوجه اليه الخواطر والأفكار ،

وجمال يروق حسنه في البصائر والابصار *

ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته أوفي النوع الانساني عامة كانقاذ من تهلكة،أو كشف لجهالة، أوتنبيه لطلب حق سلب، أوانقاذ كبير بمجد سبق،وسؤدد سلق،أوانهاض من عثرة،أو ايقاظ من غفلة، وارشاد لخير يعم،أوتحذير من شر يغم،أو تهذيب أخلاق، أوتثقيف عقول، أوجمع كلمة وتجديد رابطة، أواعادة قوة،وانتشال من ضعف،أوايقاد حمية أوحضو لغيرة*

من أتى عملا من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وان كان يسكن الخصاص والأكواخ،ويلبس الدلوق والأسمال،ويقتات بنبات البر،ويبيت على تراب القفر، ويتوسد نشز الأرض،ويضرب في كل واد،ويتردد بين الربا والوهاد . هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله،وبهاء من كماله،وضياء من جده يهدي اليه ضالة الألباب وتائهة الافئدة تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره،وتكتنفه ذرات القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصل عنه* له من روحه قصور شاهقة،وغرفات شائقة ومناظر رائقة، وجمال باهر،ونور زاهر،لايكاد يخفى حتى يظهر،ولا يكاد يستر حتى يبصر،اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه الى أعلى عليين *حياة طيبة في القلوب وعزة مشرقة في جبهة الزمان وفي ذلك فليتنافس المتنافسون *

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه فيسلقونه بالألسنة ويرشقونه بسهام اللوم ولا تروق في انظارهم ازهار أعماله ولا أنوار مزاهره لبعدها عن فهمهم وغرابتها على حواسهم لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة التى عدوها شرفا وحسبوها مجدا وقد بيناها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء وانما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد ويألف روائح القذر * لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لاخلاق لهم أو يقصده بالاضرار من لاذمة له ولكنهم بأنفسهم يهزؤن، وبمصالحهم يضرون . ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ويطعموا من جناها ولا يسعهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة،وحافظ الثمرة،وان كان دونهم في تلك الزخارف التي لاقيمة لها في نظر العاقل . ثم يكون عقابهم على

١٠افرط منهم ندم على الخطيئة وأسف على السيئة وألم فى قلوبهم يهيجه ذكرى ماقدموا من سوء عملهم وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم . هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حيا فاذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات و بدو رمنيرات * نعم انه يموت و يتواري خلف حجاب العدم بجسمه ولكنه قائم في الافئدة شاهد على الألسنة حي" يرزق عند ربه ونعمت الحياة حياته ولمثل هذا فليعمل العاملون.

دعوة الفرس الى الاتحاد مع الافغان (*

اذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها الى اللسان العذب الفارسي ممـا نظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين واستلفاتا لعقولهم الى مافيه خيرهم فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر خصوصا جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة طهران. وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الاسلامية فان جميعها بعد بلاد العرب وان اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم الا أنهم ينطقون باللغة الفارسية فهي في الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب وكان يودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة وأذهانهم الصافية وترشدهم اليه عقولهم العالية خصوصاً فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين لاسيما في الاتفاق بين الايرانيين والافغانيين. هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم وقد زادهما ارتباطا اجتماعهما في الديانة الحقة الاسلامية ولا يوجد بينهما الا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو الى شق العصا وتمزيق نسيج الاتحاد وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف

*) نشرت فى العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سببا في تخالف شديد. ليس ببعيد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية وتقوية الصلات الدينية كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة.

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم أراضي ايران. أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران. أبو حامد الغزالي حجة الاسلام وابو اسحاق الاسفرايني والبيضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار المسلمين. الفيلسوف الشهير أبو علي ابن سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس * ان أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله وتأسيس فنونه منهم سيبويه وأبو علي الفارسي والرضي ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان اعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية وصاحب صحاح الجوهري من احدى قراهم ومجد الدين الفيروزابادي من احدى بلدانهم الزمخشري والسكاكي وأبو الفرج الاصفهاني و بديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس. الطبري أول المؤرخين والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس. الشبلي كان من نهاوند وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي كان من هراة وكلها بلاد ايران. هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي والآمدي والمرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والأبيوردي وكلهم من أبناء فارس. من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ومير فندرسكي وغيرهم؟ كانوا من بلاد فارس(١) أي فضل كان

(١) ان كثيرا من هؤلاء العلماء كانوا من العرب فنسبتهم الى بلاد الفرس نسبة بلد لا جنس. اه جامع الكتاب

ولم يكن لهم فيه اليد الطولى أي مزية منّ الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس »

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم وانظروا الى آثاركم في الاسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية ، .

أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم في فتوة الاسلام أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم . أظن أنه لا يخفي عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الاوقات لندائكم بالوحدة مع الافغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين ، لتكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين ، .

أظنكم لم تنسوا ان استيلاء الانكليز على الممالك الهندية انما تم بوقوع الخلاف بينكم و بين الافغانيين ....

هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره الى طرف بنجاب ينتظر قدومكم اذا اتحدتم مع اخوانكم الافغانيين .

حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم مع مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة . هذا آن التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق ، أحاط الاعداء ببلادكم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم . فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لا تصادفوها في غيره . الانكليز في ارتباك شديد في المسئلة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكستها لمقاصدهم

الامير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شبوبيته أشد الناس عداوة للانكليز و بينه و بينهم حزازات لا تزول بل نقول ان عداوة الانكليز سارية في عروق الافغانيين عموما ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق

الآن بين سلطنة الشاه و بين امارة الافغان لوجدت قوة اسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة وتتجدد لهم آمال جليلة وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت تنبهت فيه أفكار الافغانيين الى أعمال جيرانهم فى المسئلة المصرية وتحركت فيهم السواكن وهي أعظم فرصة لاهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم

هذا عمل من أجل الاعمال وأجزلها فائدة وان من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين وان لذلك لأثرا عظيما في النفوس خصوصا ان كانت من أقلام العلماء الاعلام والمجتهدين الكرام

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فاحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجل الاثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم وازالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا وكتبوا ونشروا مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية كان فضل الله كافلا لهم النجاح .

أي فرق بين الافغانيين واخوانهم الايرانيين ؟ كل يؤمن بالله و بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ولا نشك أن شاه ايران لما إطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة اليه والسعي فيه . ان البادئ بالعمل في هذا المقصد الاسمي هو صاحب الفضل الاعظم بين المسلمين خصوصاً و بين العالم عموما ويجني ثمرته في وقت قريب . كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية وكثرت عليها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة في سياسة أوربا وعند ما رجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة أرجع اليهم من القوة والشوكة ماصاروا به حكام أوربا و بيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الأصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الايرانية أن يوجهوا أفكارهم الى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحا في جرائدهم وينشروها في بلادهم وبلاد الافغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين وماهي الا أيام ثم نرى علائم النجاح ان شاء الله رب العالمين .

امتحان الله للمؤمنين (*

الٓمٓ. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

من الناس بل أغلب الناس يقول: آمنا : وللايمان آثار . ثم يحسبون ان الله يتركهم وما يقولون، ويدعهم وما يتوهمون، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل ان يبتليهم أيهم أحسن عملا حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأماني وانهم تائهون في أوهامهم يحسبون انهم على كل شيء وهم خلو من كل شيء ولما يدخل الايمان في قلوبهم . الا انهم في حسبانهم لمخطئون فلن يدع الله المغرور في غيه حتى يبتليه في دعوى الايمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة . حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد وبشر وأنذر وقوله الصدق ووعده الحق أن يجازي من بني عقيدته على خيال ليس له أثر وظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدي . ان المغتر بزعمه الحائر في ظلمات أوهامه الذي لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب المخلد . الايمان يغلب كل هوى ويقهر كل أمنية ويدفع بالنفس الى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه .

---

*) نشرت في العدد الخامس عشر من جريدة العروة الوثقى

يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين * انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون *) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الايمان . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون

صدق الله وصدقت كتبه ورسله ان للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال وتأثيراً في الأفكار والارادات لا يمكن للمعتقدين ان يزيحوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هكذا الايمان في جميع شؤونه وأطواره له خواص لا تفارقه ونزعات لا تزايله ، وصفات جليلة لا تنفك عنه ، وخلائق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كان يجحدون عقيدتهم

نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر ايمانهم ذهبا ابريزا صافيا من كل غش وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيما مقيما * ماأصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . نعم ان دون ابتلاء الله خلع العادات وتحمل الصعوبات و بذل الأموال و بيع الأرواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها الا في الايمان فكل تهلكة فيه فهي نجاة وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه ايمانه ولا يخشى الفقر وان كان الشيطان يعده الفقر . ليس في النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل مافي أيدي المؤمنين . ان للمؤمن حياة وراء هذه الحياة وان له لذة وراء لذتها وان له سعادة غير مايزينه الشيطان من سعاداتها * هكذا يرى المؤمن ان كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله * ان الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي . ان الفرار من صدمة جيش الضلال وان بلغت أقصى مايتصور موجب للشقاء السرمدي . لا سعادة الا بالدين ودون حفظ الدين تطاير الأعناق . ان للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء الا على الذين امتحن الله قلوبهم

للتقوى . ان القيام بفرائض الايمان محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكاره كيف لا وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه . لن يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه . أول أحساس يلم بنفس المؤمن أنه في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعي الايمان ولا داعي أرفع صوتا وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعلة مادامت الرجل تمشي والعين تنظر واليد تعمل . ان امتحان الله للمؤمن سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن الى ان تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد فان يطيعوا يؤتهم الله أجرا حسنا وان يتولوا يعذبهم عذابا أليما . فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة وهنالك الجزاء الأوفى. فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان القانعون منه برسم يلوح في مخيلاتهم ان عدل الله يتركهم وما يظنون كلا انهم في كل عام يفتنون فلينظر المفرطون في دينهم ضنا بأموالهم أوصونا لأرواحهم ماذا يكون موقعهم من علم الله هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين . أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم وبصرهم بعاقبة أمرهم .

أسباب حفظ الملك (*

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

أهلك الله تعالى شعوبا وأباد قبائل ودمر بلادا ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين * حكيم سبقت رحمته غضبه جعل لكل عمل جزاء وعين بحكمته لكل حادث سببا «ولا يظلم ربك أحدا» وليست أفعاله جزافا ولا يصدر عنه شيء عبثا * أمر الله عباده بالسير في الأرض (قل سيروا

*) نشرت في العدد السادس عشر من جريدة العروة الوثقى

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف فيطيعوا أوامره و يقفوا عند حدود شرائعه و يفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة * من كان له قلب يعقل وعين تبصر وعقـل يفقه ،وتتبع حوادث العالم وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض في تواريخ الأجيال الماضية واعتبر بما قص الله علينا في كتابه المنزل يحكم حكما لايخالطه ريب بأنه ماحاق السوء بأمة وما نزلت لها نازلة البلاء ومامسها الضر في شيء الا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته ونبذت أوامره العادلة وانحرفت عن شرائعه الحقة وحرفت الكلم عن مواضعه وأولت من كلامه تعالى على حسب الاهواء والشهوات

كما ان للأغذية واختلاف الفصول والأهوية أثرا ظاهرا في الأمزجة بتقدير العزيز العليم كذلك اقتضت حكمة الله ان يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ويتميز النفع من الضر فأرسل الرسل وأنزل الكتب فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة .

ان تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب المـاهر أما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجتماعهم فيسهل الوقوف على سره لكل ذي ادراك ان لم تكن عين بصيرته عمياء

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سببا للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا والتمكن من الوصول لخير الابد في الآخرة . وجعل التنازع والتغابن علة للضعف وداعيا للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ومهيئا لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم . فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ولم يكـن مصابا بمرض القلب وعمى البصيرة أدرك سر أمر الله في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) وسر نهيه في قوله (ولا تفرقوا —وقوله— ولا تنازعوا

فتفشلوا وتذهب ريحكم) أي جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم

ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه والثقة بمن لا تنبغي الثقة به سببا في اختلال الامن وفساد الحال فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ولا تصله به رابطة صحيحة وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته أو كتم سره ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته ودفع المضار عنه فلا ريب يفسد حاله ويسوء مآله وإن كان ملكا ضاع ملكه أو أميرا بطل أمره والحوادث شاهدة وأحوال المغرورين ناطقة فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى في قوله « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » وقوله « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة الى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقته من أمته عمل مفروض عليه وواجب يلزمه القيام به ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ويعد لها مآلا صالحا في الآخرة . وهو انسان له قلب واحد لو جعل معظم همه في شيء فاته سائر الاشياء فلو توغل في الشهوات وبالغ في الترف وبطر فيما أنعم الله عليه فقد أغفل فرائضه وأضر بنفسه وحرم من منافعه وحل به من عقاب الله أشد الوبال وخسر الدنيا والآخرة معا . وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته أو يواطنه في مدينته . وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يعجم الا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى الا على بصيرة كمهاء ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين * حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذاهم يجأرون * لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون * ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) . ما أوتي الانسان

من العلم الا قليلا . لا يمكن الانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها . خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (جعلكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة والقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لاريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء وهو أشد افتقارا الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وارشادا فقال (وشاورهم في الامر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أي بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم . وأي بصيرة لا تهتدي الى هذا المنهج القويم (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة الى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لاطماع الطامعين وان الحرص المودع فى طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه و يستعبدوا أهله ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدهم و يمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله والحكام النائبين عنه في إيالاته وقواد جيشه وعلى كل أرباب الرأي ومن بهم قوام الملك أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان ورفع نوازل الغارات الاجنبية . فلو فرطوا في اعداد لوازم الدفاع أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطماع أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ويقوي شوكتهم بأي وجه كان ومن أي نوع كان فقد عرضوا ملكهم للهلاك وألقوا بأنفسهم في مهاوي الاخطار . هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالي (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة على حسب ما يقتضيه الزمان وما تكون عليه حالة من تخشي غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، و يذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم

لا يكادون يفقهون حديثاً)

اعطاء كل ذي حق حقه ووضع الاشياء فى مواضعها وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان ويشيد بناء السلطة ويحكم دعائم السطوة ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من العلل ، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض وثبت نظام كل موجود وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله كذلك الجور في الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الاوامر الالهية على العدل وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب . العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) . هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

من سار في الارض وتتبع تواريخ الامم وكان بصير القلب علم أنه ما انهدم بناء ملك ولا انقلب عرش مجد الا لشقاق واختلاف أو ثقة بمن لا يوثق به وتخلل العنصر الاجنبي أو استبداد في الرأي واستنكاف عن المشورة واهمال في اعداد القوة والدفاع عن الحوزة أو تفويض الاعمال لمن لا يحسن أداءها ووضع الاشياء في غير مواضعها فيكون جور في الحكم واختلال فى النظام وفي كل ذلك حيد عن سنن الله فيحل غضبه بالخاطئين وهو أحكم الحاكمين ،،

لو تدبرنا آيات القرآن واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضرب به الله لنا وأرشدنا اليه وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان (ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة وقواد الملة المحمدية أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين

ويعلموا الجاهل ويزعجوا نفس الذاهل ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ويستلفتوهم الى ما أعد الله لهم لو استقاموا ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع الى ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) ورفض كل بدعة والخروج عن كل عادة سيئة لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ويقصوا عليهم أحوال الامم الماضية وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه ونبذت أوامره فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون). على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق في قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله اليهم ووكل الى ذمتهم وهم أمناء الدين وحملة الشرع ورافعو لواء الاسلام وأوصياء الله على المؤمنين أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بإرشادهم

سنن الله في الامم

وتطبيقها على المسلمين (*)

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدي الى الحق والى طريق مستقيم، ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد؟ هل كذب الله رسله؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟ نعوذ بالله !! هل أنزل الآيات البينات لغوا وعبثا؟ هل افترت

---

*) نشرت في العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي
(٤١ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

عليه رسله كذبا ؟هل اختلقوا عليه افكا؟هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها واشارات لا يدركونها؟هل دعاهم اليه بما لا يعقلون ؟ نستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربيا غير ذي عوج وفصل فيه كل أمر وأودعه تبيانا لكل شيء ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا * هو الصادق في وعده ووعيده ما اتخذ رسولا كذابا ولا أتى شيئا عبثا وما هدانا الا سبيل الرشاد ولا تبديل لآياته تزول السموات والارض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون – و يقول – ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين – وقال – وكان حقا علينا نصر المؤمنين – وقال – ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا *) هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا ولا ينال هذه الآيات بالتأويل الا من ضل عن السبيل ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده الى تلك الامة المرحومة وان يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة ، وعلو الكلمة ،ومهد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة وما جعل الله لمجدها أمدا ولا لعزتها حدا .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ورفع شأنها الى ذروة العلى حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات،ودكت لعظمتها عوالي الراسيات،وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب . هال ظهورها الهائل كل نفس،وتحير فى سببه كل عقل،واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر معوزة من الاسلحة وعدد القتال فاخترقت صفوف الامم واختطت ديارها ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم،ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك ولا أثر فى همتها اختلاف الاهوية ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ولا راعها جلالة ملوكهم وقدم بيوتهم ولا تنوع صنائعهم ولا سعة دائرة فنونهم ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ولا تقلب غيرها من الامم فى فنون السياسة . كانت

تطرق ديار القوم فيحقرون أمرها و يستهينون بها وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الامم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها وتخضعها لاوامرها وعاداتها وشرائعها لكن كان كل ذلك ونالت تلك الامة المرحومة على ضعفها مالم تنله أمة سواها . نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدا في الدنيا وسعادة في الآخرة

هذه الامة يبلغ عددها اليوم زهاء مئتي مليون من النفوس وأراضيها آخذة من المحيط الاتلانتيكي الى أحشاء بلاد الصين — تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة ، تتغلب الاجانب على شعوب هذه الامة شعبا شعبا، و يتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى ان الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمة، و يمسون في كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم . هذه هي الامة التي كان الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات استبقاء لحياتهن وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف الى تلك الدول الأجنبية . يا للمصيبة ويا للرزية !! أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل، ما سبب هذا الهبوط وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالعهود الالهية؟ معاذ الله! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما أكده لنا ؟ حاشاه سبحانه لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلينا أن ننظر لانفسنا ولا لوم لنا الا علينا ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الامم سننا متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى أن الامم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود الا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة

الفكر واشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله فى الامم السابقة والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة . حادوا عن الاستقامة في الرأي والصدق فى القول والسلامة في الصدر والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على اعلاء كلمته، واتبعوا الاهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات ، خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين . هكذا جعل الله بقاء الامم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا اليها وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ولا تتبدل بتبدل الاجيال كسنته تعالى في الخلق والايجاد وتقدير الارزاق وتحديد الآجال

علينا أن نرجع الى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونسبر أخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح هل غيّر الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا وخالف فينا حكمه و بدل في أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون بل صدقنا الله وعده حتى اذا فشلنا وتنازعنا فى الامر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً فبدل عزنا بالذل وسمونا بالانحطاط وغنانا بالفقر وسيادتنا بالعبودية . نبذنا أوامر الله ظهريا وتخاذلنا عن نصره فجازانا بسوء أعمالنا ولم يبق لنا سبيل الى النجاة والانابة اليه . كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الاجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلنا ويسفكون دماء الابرياء من اخواننا ولا نرى فى أحد منا حراكا .

هذا العدد الوافر والسواد الاعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كل واحد منهم يود لو يعيش الف سنة وان كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة مسكنه الهوان . تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً وكاد يتقطع ما بيننا لا يحن أخ

لاخيه ولا يهتم جار بشأن جاره ولا يرقب أحدنا في الآخر الاً ولا ذمة ولانحترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الالسنة ولا يمس سواد القلوب هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف فان أصابهم خير اطمأنوا به وان أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا أن لا يبتلي الله ما في صدورهم ولا يمحص ما في قلوبهم ؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون في سبيله بمال ولا يشحون بنفس؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان لا بماله ولا بروحه؟ انما المؤمنون هم الذين اذا قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايماناً وثباتاً ويقولون في اقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ممتع بالسعادة الابدية في نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله والله يقول فلا (تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) .

فلينظر كل الى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة وليطابق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين وما جعله الله من خصائص الايمان فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ان هذه أمتنا أمة واحدة والعمل في صيانتها من الاعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز واجماع الأمة سلفا وخلفا فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والمتسمون بسمة الايمان آهلون لكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعرة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية * ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي وتتخذوه اماماً لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة

الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح . ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه : (فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت في وصف من لا ايمان لهم . هل يسر مؤمنا أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة أو غر كثيرين من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).

أقول ولا أخشي نكيرا : لا يمس الايمان قلب شخص الا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان . لا يراعي في ذلك عذرا ولا تعلة وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله

مع هذا كله نقول ان الخير في هذه الامة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضا يزول ولو قام العلماء الاتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين وأحيوا روح القرآن وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة واستلفتوهم إلى عهد الله الذي لا يخلف لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نورا يبهر الابصار ، وأعمالا تحار فيها الافكار ، وان الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الاقطار هذه الايام تبشرنا بأن الله تعالى قد أعد النفوس لصيحة حق تجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريبا فان فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ، صحت لهم الأوبة وصحت منهم التوبة وعفا الله عنهم والله ذو فضل على المؤمنين فعلى العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير وهو الخير كله جمع كلمة المسلمين والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)

الجبن (*

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ — قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض افراد الانسان من اعمال تحير الالباب، وتدهش الأفكار، ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات، وان لم تكن في أزمنة النبوات، ويحسبونها خوارق عادات، وان لم تكن من تحدي الرسالات، وقد ينسبها العقل لى حركات الافلاك وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع . ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق عجزا عن درك الاسباب وفهم الصواب * اما من آتاه الله الحكمة ومنحه الهداية فيعلم ان الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته اناط كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدرة روحانية يكون بهما مظهرا لعجائب الأمور وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب، أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب .

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك وأرشده الفكر السليم الى ان فضل الله قد اعد كل انسان للكمال ومنحه ما يكون به مصدرا لفضائل الأعمال على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق * هنا وقفه الحيرة — استعداد فطري للكمال في خلقة الانسان . ميل كلي في كل فرد لأن يتفرد بالفخار ويمتاز بجلائل الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى لا يخيب طالبا ولا يرد سائلا اذا صدق القاصد في قصده وأخلص السالك في جده . فما العلة في اخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيات

---

*) نشرت في العدد الثامن عشر من جريدة العروة الوثقى

المنازل وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزي خصوصاً ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات، وتعترف بيوم العرض الأكبر — يوم تجزى كل نفس بما كسبت (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره *) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ؟ ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل ؟ اذا ردت المسببات الى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة هي أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل ، — الجبن *

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناها ، هو الذي قطع روابط الامم فحل نظامها، هو الذي وهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن انظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ، يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب اثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عارا دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة علية . يرى الجبان وعر المذلات سهلا، وشظف العيش في المسكنات رفها ونعيما .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له الاعين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحباء، ونفس لا يصعد الا بالصعداء، واحساس لا يلم به الا ألم الادواء . هذه حياته . اضاع كل شيء في القناعة بلا شيء وهو يظن انه أدرك البغية وحصل المنية .

ما هو الجبن ؟ انخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها وهو مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأيناجميعها يرجع الى الخوف من الموت . الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح .

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة ولا يعلمه الا مقدرُ الآجال جل شأنه (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله . نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ماجعله واقيا للحياة وهو الشجاعة والاقدام سببا في الفناء . يحسب الجاهل ان فى كل خطوة حتفا ويتوهم ان في كل خطرة خطرا مع ان نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ومانال طلاب المعالي من الفوز بآمالهم وما ذللوا من المصاعب في سيرهم تكشف له ان تلك المخاوف انما هي أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين، غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدته، ومن كل خير حرمته .

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام ، لتغتال به نفوس الانسان، وتلتهم به الامم والشعوب، هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة، لاشقاء الا وهو مبدؤه، ولا فساد الا وهو جرثومته، ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه، ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ومنكس الاعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانه . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الادنياء لدنيئة الارتشاء أليس هو الجبن ؟ ربما تتوهم بعد المثال فتأمل فأن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان * الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ويؤملون أن ينالوا جزاء لاعمالهم أجرا حسنا ومقاما كريما .

ينبغي أن يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرذيلة (الجبن) فانها أشد الموانع عن أداء مايرضي الله وانهم لا ينتفون

الا رضاه . يعلم قراء القرآن ان الله قد جعل حب الموت علامة الايمان وامتحن الله به قلوب المعاندين و يقول فى ذم من ليسوابمومنين (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذافريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب) الخ الآيات الاقدام فى سبيل الحق و بذل الاموال والأرواح في اعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الالهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدي وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق والعدل الالهي بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده . لا يظن ظان انه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي و بين الجبن فى قلب واحد . كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة و يصور الاقدام وان عماده الأخلاص لله والتخلي عن جميع ماسواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن ان الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه . المؤمن من لا ينتظر بنفسه الا احدى الحسنيين اما أن يعيش سيدا عزيزا واما أن يموت مقربا سعيداً وتصعد روحه الى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين .

من يتوهم انه يجمع بين الجبن والايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان فى شيء . كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . لهذا نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الامر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهي عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ماأوجب الله من ذلك وفى الظن ان العلماء لوقاموا بهذه الفريضة (الامر بذلك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمنا قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف واحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثرا في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر فالمؤمنون بما ورثوا عن

اسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لايحتاجون الا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقودا ويحفظوا موجودا ، وينالوا عند الله مقاما محمودا .

الامة وسلطة الحاكم المستبد (١)

وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

ان الامة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لارادتها في منافعها العمومية وانما هي خاضعة لحاكم واحد ارادته قانون ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من هذه الاحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم . فان كان حاكمها عالما حازما أصيل الرأي عليّ الهمة رفيع المقصد قويم الطبع ساس الامة بسياسة العدل ورفع فيها منار العلم ومهد لها طرق اليسار والثروة وفتح لها أبوابا للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة والشهامة وإباء الضيم والانفة من الذل ورفعهم الى مكانة عليا من العزة ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير .

وان كان حاكمها جاهلا سيء الطبع سافل الهمة شرها مفتلما جبانا ضعيف الرأي أحمق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة أسقط الامة بتصرفه الى مهاوي الخسران وضرب على نواظرها غشاوات الجهل وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار في سلطته عن جادة العدل وفتح أبوابا للعدوان فيتغلب

(١) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي وأخرناها لاختصارها

القوي على حقوق الضعيف ويختل النظام وتفسد الاخلاق وتخفض الكلمة ويغلب اليأس فتمتد اليها أنظار الطامعين وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الامة عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة و بقيت فيها بقية منها وأراد الله بها خيرا اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها و ينقطع الامل من العلاج و بادروا الى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الامة عن هذه الدرجة وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء فانذرها بمضض العبودية وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم جزاء على ما فرطوا في أمورهم وما ربك بظلام للعبيد

الوهم

وكتب في فاتحة مقالة سياسية نشرت في العدد السابع عشر

ألا قاتل الله الوهم، الوهم طورا يكون مرآة المزعجات، ومجلى المفزعات، وطورا يكون ممثلا للمسرات، حاكيا للمنعشات، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة، وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الارادة وحكم على العزيمة فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا والقريب بعيدا والمأمن مخافة والموئل مهلكا الوهم يذهل الواهم عن نفسه، و يصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدوما والمعدوم موجودا الواهم في كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل : اذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام وتسلطت على الارادات فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة فيخبطون في مجاهيل لا يهتدون الى سبيل ولا يستقيمون على طريق اه المراد منه

٥

مقالات جريدة ثمرات الفنون

لما كان الاستاذ الامام في بيروت كتب مقالات كثيرة في جريدة ثمرات الفنون ظفرنا منها بالمقالة الآتية وكنا نشرناها في المجلد الرابع من المنار

الانتقاد

﴿ما وعظك مثل لائم * وما قومك مثل مقاوم﴾

الانتقاد نفثة من الروح الالهي في صدور البشر تظهر في مناطقهم سوقاً للناقص الى الكمال وتنبيها يزعج الكامل عن موقفه الى طلب الغاية مما يليق به الانتقاد قاصف من اللائمة تنفس عنه القلوب، وتنفتق به الألسنة، لتقريع الناقصين في اهمالهم، ودفع طلاب الكمال الى منتهي ما يمكن لهم

جعل الله للحياة قواما وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلي سلطان وجوده العقل فان صلح السلطان ونفذ حكمه صلح ذلك الكون وتم امره . ان الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين أحدهما له والثاني له وعليه أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما ألزمه الصانع من الانقباض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعجه الى الهرب ، وكل منازل العقل صعود الا أدناها فعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الادنى دنوٌّ من الكمال ، غير أن ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل منتجع الكمال الى مقام الا ويرمي بطرفه الى أبعد منه ومساقط العجز وبيئة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها أفاعي الهموم ، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل كلما التفت اليه راعه هول منظرها، فتحفز

عنها ، الى منجاه منها ، ولا يزال يزجيه الخوف وتطير به الرغبة حتى يدنو من رفرف السعادة الاعلى .

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر ختارة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدري أن بها هلكتها ، وفيها منيتها ، فمثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنثور، ويغبى عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع في يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ولا يشعر بما أعد له صائده فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، وأعجله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسيبا لا يهمل ، وكالئا لا ينام، يزعج الواقف ، ويحثحث المتريث ، ويمسك الواجف ، ما سكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : إن ماتطلب أمامك . ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه ، ولا أوضع موضع الى مايضره ، الا صاح به : تعست الجدود ، وأضرعت الخدود ، فخفض من سيرك ، وقوم من سيرك ، والا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ، ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ، ينبث في الفؤاد ، ثم يتجلى في البيان ، على أسلة اللسان، فيفقهه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، « فطرة الله التي فطر الناس عليها » أودع في كل ناطق بصرا بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان أبصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ، وجعل الله الناقدين أقساما فمنهم ناظر الى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة ، ويغض عن المثلبة ، ومن هذا القسم المفرطون في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيوب يروون المساآت ، ويسكتون عن الحسنات ، وفيهم الحساد ، وأهل الاحقاد ، ومنهم ناظرون بالعينين ، عارفون بالوجهين ، يذكرون للكمال نبله ، ويلزمون النقص ويله ، وهؤلاء في أعلى المنازل وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله . ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون ، ويهرفون

بما لا يعلمون ، وهم في أخس المنازل ، وليس في الناس الا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه . وما جعل الله بشرا يسلم منها ويحرم من بعضها فكأنها التي قال فيها « وان منكم الا واردها » وكانها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى ينادي الكاملين أن يستزيدوا ، والناقصين أن يستجيدوا ،

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أي وجه كان حسابه ؟ أو لجاهل ينكر حكمة الله في تقييضه لنا ؟ أو لواهم أن يذهب الى أنه ليس من نظام الفطرة ؟ واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك وأنت غربي مثلا أن ملك الصين غدر بأحد أوليائه أو استصفى أموال رعيته أو كلفهم مالا يطيقون احتماله أو أهمل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها أو جبن عن حادث ألم به وكان يستطيع دفعه ألا ترى من قلبك امتعاضا عليه ،ومن نفسك ازدراء بعمله، وفي لسانك لهجة بلومه،وهو منك على بعد المشرقين ! ولئن وصلت اليك روايات عدله ورعايته حقوق بلاده وحفظه لذمامه وجدت اليه من فؤادك ميلا ، ومن رأيك لعمله استحسانا ، ومن لسانك عليه ثناء

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب ميلك عند ما تنظر في تاريخ لمن سبقك فان مثل لك النظر فضلا في سيرة ، أو خزية في جريرة ، ألست تجد من نفسك انبساطا الى فواضل الغرر ، وانقباضا عن مخازي العرر ، ثم انطلاقا الى نشر ما وجدت ثم رأيت عضدا منك لاحدهما كأنه قائم يستنصر فانت تنصره ،وتغيظا على الآخر كانما يدعوك لعونه فانت تخذله

لاجرم أن النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين وكل نقد فحشوه لوم حتى ما كان منه قاصرا عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة فان حمد الكامل عذل للناقص على التقصير وازعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة الاعياء فكاني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا . ويا أيها المبرزون اركضوا . واحذروا الوقفة فانها بداية القهقرى : تلك أقلام الحق ، في ألسنة الخلق ، لا يصم عن نداءها الا أصم ، ولا يغبى عن انذارها ألا أبهم

على ذلك قام النظام الانساني فلولا الانتقاد ماشب علم عن نشأته ، ولا

امتد ملك عن منبته ، أترى لو أغفل العلماء نقد الآراء وأهملوا البحث في وجوه المزاعم أكانت تتسع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم الحق من المبطل ؟ أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقامع النقد، أكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، أو تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلا ، والنظام خللا ، تلك سنة الله في الاولين . وهي كذلك في الآخرين

فالمغبوط في حاله من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك الحازمون أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم ، بما ينبههم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نفائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ، بل هي عند هؤلاء أجود فانهم يرفعون للمعايب أعلاما بينة حتى لا تعود فيها شبهة لناظر وأحجي بالعقل أن لا يعج من الانتقاد شيئا حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة ، فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح تقام في الثغور زمن السلم حذرا مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها واقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا : فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتا كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقا ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق فى ثلب غيره فقد أفسد نفسه لصلاح عدوه ولله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير فلولاهم مانزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس ، :هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد فظنوا صنع الله فيه عبثا « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابعهم فى صماليخهم (١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وأمره ، وضربوا

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها

بينهم و بين أهل النقد حجبا ، وأقاموا دونهم أستارا . وخيل لهم الجهل أن صممهم عنه ، يقيهم منه ، وان قبوعهم في أهب الغفلة (١) يدرأ عنهم سهام اللوائم كانهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأي الصائد غمس رأسه فى الماء ظنا منه أنه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم تجدهم في عمى عن شؤونهم وتخبط في أعمالهم قد لزموا خطة من الهون لو أبصر عقلهم بعض أطرافها لماتوا جزعا من هول ما فيها كل ذلك وأسلات الالسن واسنة الاقلام لا تألو في تقريعهم بل وصوت الحق الصريح يناديهم من عمائق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لانفسكم لو كنتم تعلمون . وليهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم فى غفلة عن هذا بل لا يشعرون

أولئك الذين ختم الله على سمعهم وطبع على قلوبهم فمرقوا من ناموس الفطرة الالهية فهم أموات الارواح . مضطربو الاشباح . ولا تنشق عنهم قبور الخمول حتى ينشرهم الله في حياة أخري يخضعون فيها للاحكام الكونية . و يعملون على السنن الالهية . فلينتظروا انا معهم من المنتظرين

(١) الاهب بضمتين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ أو أعم

٦

لوائح الاصلاح والتعليم الديني

﴿ اللائحة الأولى ﴾

كتبها في منفاه ببيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى سماحة شيخ الاسلام بالاستانة وذلك في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ ومنها يعلم أنه لم يأل جهداً في النصح للدولة وانها لو عملت بارشاده وصدقت أمله ورجاءه الحسن فيها لأحيت الاسلام وجددت مجده وكانت بذلك ذات سيادة اسلامية حقيقية • وهذا نص ما كتبه رضي الله عنه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لااله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوة وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه * وبعد فقد رأينا وسررنا كسائر المسلمون كافة بما نشر في جريدة الطريق من انه صدرت الارادة السنية الى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الاسلام بأن تؤلف تحت رئاسته العلمية لجنة أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة نوري أفندي أمين الفتوى وحسني أفندي رئيس مجلس المعارف وصاحب العطوفة عبد النافع أفندي وصاحب الفضيلة خوجه اسحاق أفندي وان يناط بهذه اللجنة اصلاح جداول الدروس في المكاتب الاسلامية (١) وتقويمها حتى تكون كافلة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والأخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب. وان حضرة مولانا شيخ الاسلام وحضرات أعضاء اللجنة الكرام وان كانوا في غنى بآرائهم القويمة ومعارفهم الواسعة عن أن يتقدم اليهم أمثالنا بالمشورة ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط مايلوح بخواطرنا الى أولياء أمورنا مع الاعتراف بالعجز والاقرار

(١) لفظ المكتب يطلق في البلاد العثمانية على المدرسة وان كانت عالية

بالقصور عملا بقول سيدنا علي كرم الله وجهه : « من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم ، وليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته ، يفوق أن يعان على ماحمله الله من حقـه ، ولا امرؤ وان صغرته النفوس، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه »

إن من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى ان المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان فى سواها ، وانا والحمد لله على هـذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت

إن للخلافة الاسـلامية حصونا وأسوارا وان أحكم أسوارها مااستحكم في في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحميـة للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ولا موقد للحمية في قـلوب المسلمين الا ما أتاهم من قبـل الدين ومن ظن ان اسم الوطن ومصلحة البلادوما شا كل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين فى إنهاض الهمم وسوقها الى الغايات المطلوبة منها فقدضل سواء السبيل

المسلمون قـد تحيف الدهر نفوسهم ، وأنحت الأيام على معاقد ايمانهـم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الاخـلاق ، وانتكاس في الطبائع ، وانحطاط فى الانفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشـبه بالحيوانات الرتع غاية هممهم أن يعيشوا الى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسـلون ويتنافسون فى اللذات البهيمية وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته أوكانت العزة لسائد عليهم من غيرهم . وهؤلاء الهنديون وسكان ماوراء النهر وقبائل التركمان واشباهم يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ولكن عمت بها البلية حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسـها هذا المرض الخبيث لولا أن تدركها قوة مولانا أمير المؤمنين خلد الله ظله

هذا الضعف الديني قدنهج لشياطين الأجانب سـبل الدخول الى قلوب كثير من المسلمين واستمالة أهوائهم الى الاخذ بدسائسهم والاصاخة الى وساوسهم

فخلبوا عقول عدد غير قليل ثم انبثت دعاتهم في أطراف البلاد الاسلامية حتى العثمانية لتضليل المسلمين فلا نرى بقعة من البقاع الا فيها مدرسة للامريكانيين أو اليسوعيين أو العزارية أو الفرير أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الاوربية والمسلمون لا يستنكفون من ارسال أولادهم الى تلك المدارس طمعا في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم أو تحصيلهم بعض اللغات الاوربية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم. ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامة والجهال بل تعدى الى المعروفين بالتعصب في دينهم بل لبعض ذوي المناصب الدينية الاسلامية . وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون الى تلك المدارس الاجنبية في سن السذاجة وغرارة الصبا والحداثة ولا يسمعون الا ما يناقض عقائد الدين الاسلامي ولا يرون الا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي بل لا يطرق أسماعهم الا مايزري على دينهم وعقائد آبائهم ويعيب عليهم التمسك بعرى الطاعة لأوليائهم ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول لانه من أساتذتهم القوام على تربيتهم بإذن آبائهم ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة ، فذلك أمر أعرف من أن يبين . فلا تنقضي سنو تعليمهم الا وقد خوت قلوبهم من كل عقد اسلامي وأصبحوا كفارا تحت حجاب اسم الاسلام ولا يقف الامر عند ذلك بل تعقد قلوبهم على محبة الاجانب وتجذب أهواؤهم الى مجاراتهم ويكونون طوعا لهم فيما يريدونه منهم ثم ينفثون ماتدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل فيصيرون بذلك ويلا على الامة ، ورزية على الدولة ، نعوذ بالله . ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم مايجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين في العقيدة ، عثمانيين في النزعة ، هذا ما جلبه الجهل على الامة الاسلامية وان غائلته لمن أشد الغوائل وقد كنا نخاف أن تحل بوائقها لو لم تدفعها عزيمة مولانا أمير المؤمنين .

أما المكاتب والمدارس الاسلامية فقد كانت إما خالية من التعليم الديني جملة واما مشتملة على شيء قليل منه لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات مع الجهل بالمدلولات ولهذا رأينا كثيرا

ممن قرؤا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهالا بعقائده منكبين على الشهوات وسفساف الملذات لايخشون الله في سر ولاجهر ولا يراعون له حكما في خير ولا شر وانحط بهم ذلك الى الكاب في الكسب والانصباب على طلب التوسعة في العيش لا يلاحظون فيه حلالا أو حراما ولا طيبا أو خبيثا فاذا دعوا الى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا الى الراحة ومالوا الى الخيانة وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

و بالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم الا من عصم الله وهم قليلون ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية و يطلبون للتخلص منها أية حيلة وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم ونرى غيرهم من الامم يتسابقون الى الانتظام فى سلك جنديتهم مع أنها غير معروفة فى دينهم بل مضادة لصريح نصوصه ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم اذا دعت الاحوال الى مساعدة الدولة والانفاق على مصالح الامة ولا يبخلون بذلك على شهواتهم بعكس مانرى في سائر الامم . هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ولا يهتدون الى جامعة يلجأون اليها وتقطع ما بينهم (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولاحول ولاقوة الا بالله

هذه أحوال نذكر منها القليل والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير نذكرها مقرونة بأنفاس الاسف وصعداء الحزن لما نعلم أن الاجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم وأغلبهم شاذة ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادة ومسارعة الفساد فيهم مشهورة يحس بازديادها كل سنة عما قبلها وان عواقب ذلك لتخشى ولا حول ولاقوة الا بالله

واذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لانجد الا سببا واحدا وهو القصور فى التعليم الديني إما باهماله جملة كما هو في بعض البلاد واما بالسلوك اليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر أما الذين أُهمل فيهم التعليم الديني فجمهور العامة في كل ناحية لم يبق عندهم من الدين الا أسماء يذكرونها ولا يعتبرونها فان كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة من

نحو أنه لا اختيار للعبد في ما يفعله وانما هو مجبور في ما يصدر منه جبرا محضاً فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ولا اجترام السيئات ومثل أن رحمة الله لا تدع ذنبا حتى تشمله بالغفران قطعاً. لا احتمال معه للعقاب فليفعل الانسان ما يفعل من الموبقات وليهمل ما يهمل من المفروضات فلا عقاب عليه وما شاكل ذلك مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم واستل الحمية من قلوبهم ولا منشأ له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم وغفلتهم عما أودع في كتاب الله وسنة رسوله وأما الذين أصابوا شيئا من العلم الديني فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة وفرائض الصلاة والصيام وظنوا أن الدين منحصر في ذلك ومتى أدوا هاتين العبادتين على ما نص في كتب الفقه فقد أقاموا الدين وان هدموا كل ركن سواهما ويشتركون مع الاولين في تلك العقائد الفاسدة . ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب من المعاملات متخذا ذلك آلة للكسب وصنعة من الصنائع العادية وأولئك الاغلب من طلاب الإفتاء والقضاء ووظائف التدريس وماشاكل ذلك لا ينظرون من الدين الا من وجه ما يجلب اليهم المعيشة فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا وهؤلاء لا تختص مفاسد أعمالهم بذواتهم ولكنها تتعدى الى أخلاق العامة وأطوارهم فهذا القسم أعظم الاقسام خطرا وأشدها ضررا في العامة والخاصة وما أفراده بقليل

نعم لا ينكر أن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ماحد الكتاب واستمسكوا في الدين بالعروة الوثقى وأضرم الدين في قلوبهم نار الحمية، واستفز اليقين هممهم للنصرة الملية، الا أنهم قليل والموجود منهم قد يكون خامل الذكر، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في ارشاد الأمة، وبالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافيا في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ولولا مالطف الله بهذه الأمة بسر توجه مولانا الخليفة الأعظم لعجل لها من الوبال مااستحقته لسوء أعمالها ونبذها أحكام الله وراء ظهرها وانحراف قلوبها عن مقاصد ولاة أمورها الصادقين . وقد نظر مولانا أعزه الله ونصره الى عظم هذا الأمر وهول عواقبه فأصدر ارادته السامية بالنظر في وجوه تداركه. فيا للنعمة العظمى

و يالمرحمة الكبرى، هشت لها قلوب المؤمنين، و بشت لورود بشراها وجوه الصادقين، وارتفعت أصوات التضرع الى الله بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين ، وتأييد دولته ، واعلاء كلمته ،

وإنه بعد التأمل في الأحوال المتقدمة وهي ظاهرة مشهورة والوقوف على سببها الذي أشرنا اليه وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الاسلام وأعضاء اللجنة الكرام نعلم أن أمير المؤمنين لم يرد من اصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الاسلامية بعضها الكتب الفقهية مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء فان العلوم العملية اذا لم تبن على عقائد صحيحة وايمان صادق لاتلبث أن تضمحل ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية عن النيات وخاوية من سر الاخلاص فتكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه فلا بد أن يكون مولانا الخليفة أعز الله نصره قد أراد أن يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة و يستحكم سلطانها على العقول ثم الى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن فيكون التذكار مستحفظا لما يصل اليها منه ثم الى فن الفقه الباطني وهو مانعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك منها كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل والمنجي كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة وسائر الفضائل و يضم الي ذلك باقي علم الحلال والحرام على ماهو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الاسلامية . ثم الى تربية تحفظ ذلك وتروض النفس على العمل بما تعلم منه . ثم يكون التعليم فى هذه الفنون المذكورة والتربية على وفق قواعدها مستندين الى الشرع الشريف بحيث تذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة وماصح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله فالمقصد بالذات علمان وهما أصلان ومجموعها ركن من الاصلاح والركن الآخر التربية بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تعمل ثم يتبعهما فن آخر يقوى على الغرض منهما وهو فن التاريخ الديني خصوصا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين

هذا اجمال ما اليه الحاجة منه العلوم الدينية الا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية وكل منها غذاء لطبقة من الناس لا قوام لحياتها الدينية والسياسية الا به

فلهذا نقسم طبقات الناس الى ثلاث ونعين لكل واحدة منها حدا من هذه الفنون

فالطبقة الاولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم . والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة فى تدبير أمر الرعية وحمايتها من ضباط العسكرية وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم . والطبقة الثالثة طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربية ولا نريد بهذا التقسيم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ثم ان الله لا يضيع أجر العاملين

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

﴿الطبقة الأولى﴾ هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادىء الكتابة والقراءة وشيء من الحساب يعلمون ذلك الى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم ثم ينصرفون الى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية والمكاتب الخيرية الاهلية فهؤلاء يهم الدولة منهم أن يكونوا في قياد الطاعة ان جاذبتهم أرواحهم سلموها وان استقرضتهم أموالهم بذلوها محتسبين ذلك في سبيل الله غير ساخطين ولا متكرهين ثم لا يكون لوسوسة أجنبي منفذ الى قلوبهم فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدايات تعليمهم مواقد الحمية ومعاصم الانفة الملية كما كان ذلك فى نشأة الاسلام وبداءة الخلافة العثمانية وكما هو معروف الآن عند الامم الاوروباوية مما تعلموه من أسلافنا ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا الا بعقيدة صادقة واستقامة ثابتة ومحبة خالصة ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي

أولا — كتاب مختصر في العقائد الاسلامية المتفق عليها عند أهل السنة بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الاسلامية مطلقًا مع الاستدلال عليها بالادلة الاقناعية القريبة المنال والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة ومع

الإلمام بشيء من الخلاف بيننا و بين النصارى و بيان شبههم في معتقداتهم لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يردعليهامن وساوس دعاة الانجيل المنبثين في كل قطر

ثانيا — كتاب مختصر في الحلال والحرام من الاعمال و بيان الاخلاق الخبيثة والصفات الطيبة والتنبيه على البدع المستحدثة التى لم يرد في الكتاب فرضها ولا في السنة أثرها وظهر في العامة ضررها مستدلا فيه بآيات الكتاب واحاديث السنة مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الامة ولا بد أن يكون مدار الكتاب تقرير ان الانسان انما خلق ليكون عبدالله فكل شيء دون الله ورسوله مبذول

ثالثاً — كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالاخلاق الكريمة والاعمال العظيمة وفداء الدين بالارواح والاموال مع الالمام بالسبب فى تسلط الاسلام على الامم في وقت قصير مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم وإثبات ان ذلك يسر الصدق في المكافحة والاتحاد في المجاهدة ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عربية ومن الترك تركية ومن غيرهم بلسانهم ان وجدوا وما يذكر فيهامن آية وحديث يفسر باللغة الموضوعة فيها

التعليم الديني الوسط للطبقة المرشحة للوظائف

﴿ الطبقة الثانية ﴾ هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلوها والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها حفاظا لما استحفظوا عليه من شؤونها — الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت ، والحكم منهم بفصل الخاصمات قابض على ميزان العدالة ناظر الى كفف النظام يرجح مارجح فيه ويسقط ماسقط منه فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت ، والمولى منهم آمراً فى ادارة أمور الرعية آخذ لمنظار الحذق والدراية ليستبين ما يخفى من مصالح وما يدق من مسالك أهوائها ليضبط الاعمال ويلزم الحدود ويوفر وسائل العمران فهو يقيم للدولة ما قامت به مصالح رعاياها الا أن يحول دون ذلك الموت فيموت ، فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة

في مبدأ التعليم الديني يزادلها بعد ماتقدم كتب أعلى من تلك الفنون نفسهافتوضع لهم في المدارس العالية والاعدادية على الوجه الآتي

أولا — كتاب يكون مقدمة للعلوم يحتوي على المهم في فن المنطق وأصول النظر وشيء من آداب الجدل

ثانيا — كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي مع التزام التوسط واتيان الطريق الاقرب ومجانبة الخلاف بين المذاهب الاسلامية أيضا الا أن يتوسع فيما بيننا وبين النصارى لايضاح ماتستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح وتفصيل شيء من فوائد العقائد الاسلامية فى تقويم المعيشة المدنية فضلا عن غاية السعادة الأخروية

ثالثا — كتاب يفصل فيه الحلال والحرام وأبواب الفضائل والرذائل ببيان أكمل مما في البداية وتوضيح لاسباب الاخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل وتطمئن به النفس ثم بيان الحكم لبعض الاحكام الدينية وفوائدها في الحياة البشرية مع الاستناد في هذا وفى سابقه الى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم ويكون مدار الكلام في الكتابين على مايضرم الحمية في القلوب ويرفع النفوس الى مقام لا تطلب فيه الا معالي الأمور

رابعا — كتاب تاريخ ديني يحتوي على تفصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والفتوحات الاسلامية العظيمة في القرون المختلفة وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك والاتيان على كل هذا من وجه ديني محض فان ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط اليه سيادة الاسلام من أقطار الارض ويودع فيه من العبارات ما يحرك القلوب الى طلب المفقود فضلا عن حفظ الموجود ثم تبسط فيه أسباب التقدم الاسلامي بأدق مما كان في السابق

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من اخوانهم يكفيهم أن يتعلموا هذه الكتب بألسنة آبائهم وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ولا يلزم لتربيتهم الدينية أن يتعلموا اللسان العربي الا ما يفرض عليهم في العبادات وما

يتلونه من ذلك فلا بد من ايقافهم على حقيقة معناه بالتفسير حتى يكون كل قائل عارفاً بمدلول ما ينطق به ليترك الذكر أثرا في الفكر كما هو مطلوب الشارع وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية اذا وجدت فيهم الاوصاف التي تؤهلهم لذلك من الحمية والدقة ومحبة الدولة والوقوف عند أحكام الشرع الشريف مع التبصر في الممنوعات والمطلوبات وتمييز ما هو من الدين عما ليس منه وإن خالف أوهام العامة

التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل حتى يكونوا عرفاء الامة وهداة الملة فيناط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والاعدادية بل والابتدائية اذا كثر عددهم وبهم يناط التعليم لاهل طبقتهم فهؤلاء لا يكفي لابلاغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية بل يجب أن يزاد لهم على ما تقدم كتب كثيرة يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم ويستوسعون بها القدرة في البيان لافادة غيرهم فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد ما يكفي المسترشد ولأجل هذا نقتصر في بيان ما يحتاجون اليه على ذكر الفنون دون التعرض لاعيان الكتب الا قليلا فلتكن الفنون على الوجه الآتي ان شاء الله

أولا — فن تفسير القرآن وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الأسرار والحكمة فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم الا بإرجاعهم اليه وما لم تقرع صيحته أعماق قلوبهم وتزلزل هزته رواسي طباعهم فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الإبل ممن أنزل القرآن بلغتهم والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه فإن احتيج الى وسيلة أخرى فأولاها مطالعة كتب التفسير

لذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمي النيسابوري ومن أخذ طريقهما

ثانياً — فنون اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث

ثالثاً — فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسرا للقرآن مبينا له مع اطراح ما يخالف نصه من الأحاديث الضعيفة والاجتهاد لإرجاع الأحاديث الصحيحة اليه ان كان ظاهرها يوهم المخالفة

رابعاً — فن الأخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ما سلك الامام الغزالي في الاحياء مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الاصول المشهورة

خامساً — فن أصول الفقه من وجه ما يمكن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية ويوقف على كليات الشريعة ليستأنس بها في فهم الاحكام ونرى أفضل كتاب يفيد لهذا المقصد كتاب الموافقات للشيخ الشاطبي المطبوع في تونس

سادساً — فن التاريخ القديم والحديث ويدخل في ذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بالتفصيل وسير أصحابه وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى وتاريخ الدولة العثمانية وما كان منها في انهاض الاسلام من كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية مع التوفيق في أسباب ما وصلت اليه الملة في هذه الايام ليتبين أنه لا سبب لذلك الا الجهل بالدين والانحراف عن أحكامه وانشقاق عصا الامة بالخلاف الذي لا طائل له

سابعا — فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل لغرض التمكن من تقرير المعاني في الأذهان وتثبيت العقائد في النفوس والزامها الأخذ بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفساف الأمور

ثامنا — فن الكلام والنظر في العقائد واختلاف المذاهب والبحث في أدلة كل لا لتحصيل العقيدة ولكن لزيادة البسطة في الفكر والسعة في الرأي ولا باس بقراءة بعض الكتب الحكمية الاسلامية لتكميل الاحاطة بوجوه المسائل العقلية

فهذا جملة ما يلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيلتي العلم والعمل ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي اذ يضطر اليه كل ساكن في الممالك العثمانية ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه أما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعيات والنظامات وكل ماحددته نظارة المعارف العثمانية فهي على رسمها كل مدرسة تتبع قانونها لا يضر شيء منها بالدين بل الدين يقويها كما أنها تقويه

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الاسلام خاصة وتكون ادارتها تحت عنايته في سلك مخصوص . ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس ادراكا وأذكاهم أخلاقا ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان . ثم لا يعطي الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها وتأهله للتدريس الا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل

التدريس في جميع تلك الدرجات انما يقصد منه اشراب القلوب حب الدين وتوقيره وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين وتأييد حافظه الاعظم المدافع عن بيضته حضرة مولانا أمير المؤمنين فتكون الملة ملة مهيبة يخشى بأسها وتخاف بوائق غضبها ويؤول بالدولة الى علو الكلمة في سياستها الخارجية بعدما عادت بركاته على المسلمين في راحتهم الدخلية، وبالجملة فالقصد من اصلاح الجداول انما هو الى احياء الملة وقد كانت كادت تموت والعياذ بالله

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة خصوصاً في الاخلاق والآداب أشبه شيء بالخطابة ترسل في المعاني الى القلوب لتهزها وتستفزها من مقار الخمول والغفلة الى مقامات التنبه والبصيرة ثم يتبع الدرس رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم ومؤاخذة لهم اذا خالفوا حكما من أحكام ما تعلموه ، أو قصروا

في عمل من لوازم ما اعتقدوه ، وتذكيرهم في ذلك يوثر في قلوبهم ويحرك الساكن من خواطرهم . ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم على أكمل الصفات العقلية وأفضل الاعمال النفسية يراعى فيهم ذلك بقدر الامكان

وإن ثقتنا بوعد الله في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ان الله مع الذين اتقوا) وقوله (ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون) واعتبارنا بقوله (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وخبرتنا بأحوال الامم الاوربية والاسباب التي وصلت بهم الى ما نراهم عليه في القوة والدراية كل ذلك يوجب لنا اليقين القطعي بأن اصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت الى توحيد كلمة الأسلام وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية العثمانية رغماً عن أنف كل مخاصم ومنه رأي هؤلاء العاجزين ان لا حافظ للدولة ولا واقي للملة سواه وأن جميع ما صرف في سبيله من المتاعب والنفقات فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي فانه لا سياسة الا بالقوة ولا قوة الا بالنجدة ولا نجدة الا بالوحدة ولا وحدة الا بالطاعة ولا حقيقة للطاعة الا بالعقيدة الحسنة ولا عقيدة الا بحياة الدين ولا حياة للدين الا بالتعليم حتى يجري على أحكام التجربة وليس ذلك الا ما عرضناه وان جمهور المسلمين ممن يعرف أفكارهم في الاقطار العثمانية بل وفي غيرها لا يرون دواء لدائهم الا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم وان يكونوا يجهلون الوسائل الى ذلك فالحمد لله الذي وفق الدولة حرسها الله لتقريب مرغوبهم وتحقيق أمانيهم

هذا ما نرفعه الى مقام شيخ الاسلام فان صادف قبولا فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون وان كانت الأخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ونسأل الله ان يوفق مولانا أمير المومنين وأركان دولته الى تقرير ما هو أعلى من أفكارنا وأنجح منها في اصلاحنا وإنا في جميع الاحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الاعظم وتأييده وبقائه ظلا لله ورحمة لعبيده آمين

كلام في الدعاة والمرشدين

وبقي في موضوع الإصلاح الديني كلام هو كالتتمة له فنتقدم لعرضه وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية ان لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العثمانيين فالداخل اليها قليل بالنسبة الى عدد الأهالي فان الجمهور الأعظم من سكان القرى والاعراب المتنقلين في أكناف المملكة وأشباههم لا يرون ضرورة لتعليم أولادهم ولا يقدرون التربية الحسنة حق قدرها فاصلاح جداول التعليم في المدارس لا تصيبهم فائدته بل يحرمون منها كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة ولهم وظائف من الأعمال يطالبون بأدائها والحال فيهم من الجهل ماوصفنا والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا فمن الواجب الالتفات اليهم بإصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم

وذلك لا يكون الا بترتيب دعوة تنبههم الى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم وتحملهم على السعي فى تربيتهم وتهذيبهم ثم تخدعهم عن أطباعهم وتلين من قساوة قلوبهم ثم أنهم لو رغبوا في التعليم وكافت الدولة بإنشاء مكاتب لتربية أبنائهم والانفاق عليها لزادت عليها النفقات مع كثرة ما يلزمها من المصاريف فى ادارة شؤون المملكة فلا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والاغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ماينفق على انشاء المكاتب وعمل التعليم فيها ويؤلفوا لذلك لجانا وجماعات في كل بلد وبقعة لتدبيرة والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام فى المساجد والمجامع ليذكروا الناس مانسوا من دينهم ويعرفوهم ماجهلوا منه ويشربوا قلوبهم حب الدولة ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم وعلى ذلك يجب ان يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبثون بين العامة ليقفوهم على أمور دينهم ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التى شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علما وعملا وبالجملة فلا بد أن يكونوا من أطول الناس باعا في الفنون الأدبية الشرعية وأوسعهم علما بعلل الأخلاق وأمراض النفوس وأقدرهم على

الناس منافذ القلوب للدخول اليها بما يصلحها ثم يكونوا أقوم الناس سيرة لا يخالف عملهم قولهم فيكونون مثالا للناس يحتذونه وقدوة لهم يتبعونها ثم لا بد أن يكون في كل قوم بلغتهم بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع

ومن هذا نلزم المبادرة الى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة وتوليتها قوما يحسنونها و يدرجون فيها مايمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة و يبينون لهم مضار الفساد ويهدونهم الى سبل الرشاد كما هومقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة وهذا باب عظيم من الاصلاح اذا وجهت العناية اليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير .

فإن سأل سائل أين الكتب التي توضع للطبقة الأولى والثانية من المتعلمين ؟ وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها ؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في ارشاد العامة وتبثهم دعاة ؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال ثم كيف شرطت فى أهل الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم مع الايغال فيها والوصول الى حقائقها وذلك يستدعي زمنا طويلا

فالجواب: أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة الله عز وجل فى أقرب وقت يمكن متى صدر الأمر بذلك تحت نظر مولانا شيخ الاسلام . وأما الرجال الذين يعلمون في الطبقتين الأولين وفي الثالثة أيضا والذين يليقون لوظيفة الارشاد فهم أن تعسر وجودهم فى بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي الى الكفاية منهم لبداية المشروع متى صدقت النية وخلصت الوجهة لله وللحق في البحث والاختيار وأمثال أولئك الرجال أهل الدين والاستقامة قلما يقفون بأبواب الأمراء أو يتطلبون المناصب الا اذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم فهؤلاء لا يعرفون الا بعد التفتيش عليهم ثم اذا حسنت البداية وتبعها الاجتهاد مع الاخلاص في العمل وصل الامر بتوفيق الله الى الكمال المطلوب

وأما طول الزمان فى التعليم على أهل الطبقة الثالثة فقد علمنا أن الرؤساء

الروحانيين من الطائفة النصرانية يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة بل وعشرين زيادة على الزمن الذى صرفوه في سائر العلوم ومن المقرر عندنا أن ما يشتغلون به هو الباطل فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول على طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه حتى يتمكنوا من نصره وتأييده

وأما المصاريف فانه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين (وهم موجودون في زوايا الخفاء يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما أكد ثقة الناس بهم فلا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من أيدى المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل وأقل تجربة تحقق هذا الذى نقوله متى فوض الأمر لأهله فاننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب الا عن خبرة بأحوال اخواننا المسلمين وطول ممارسة لأخلاقهم والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من اصلاحه فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين وفي التفاصيل ما يطول به القول أضعافا مضاعفة فان دعينا اليه لم نتأخر عن بثه والله الهادي الى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

جمادى الثانية سنة ١٣٠٤

يقول جامع الكتاب : هذه نصيحة الرجل الذي كان يشي به أهل الفساد في مصر للسلطان بأنه يبغض الدولة فليأتنا أحد بمثل نصحه للدولة في هذه اللائحة وفي اللائحة التالية لها .

اللائحة الثانية

في اصلاح القطر السوري قدمها الى دولة والي بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي

ارفع الى مقام دولتكم السامي ان للدولة العلية أدام الله سلطانها وعزز مكانها حقوقا ثابتة على ذمم المسلمين تتقاضاها العقيدة بعد ان قضت بها طبيعة الحياة الملية ولا هوادة بين الله و بين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة و يقوي أركانها وأقصدها بذل ما يستطاع من السعي لدفع مالا يلتئم مع مصلحتها واعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم

وإني على ضعفي — والحمد لله — مسلم العقيدة عثماني المشرب وإن كنت عربي اللسان لا أجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضا أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته والخضوع لجلالته وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت الى ذلك سبيلا وعندي ان لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني فإنما الخلافة حفاظ الاسلام ودعامة الإيمان فخاذلها محادّ لله ورسوله ومن حادّ الله و رسوله فأولئك هم الظالمون فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريبا عن أهلها مفكرا في مجاري أعمالهم ومآخذ مشاربهم وضروب مذاهبهم من وجه ما يتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثني على أن أعرض ما ألممت به من ذلك على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أعزز رجال الدولة علما وأرجحهم حلما وأقومهم سيرة وأشدهم حرصا على تعزيز عرش الخلافة وأصدقهم إخلاصا في خدمة أمير المؤمنين أعز الله نصره وأرفع الى عليّ نظركم مالو ألقي بين يدي سواكم لخشيت إغفاله وتوجست إهماله ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة فان كان ما رجوت فذلك فضل الله وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم وإن كانت الأخرى فما هو

الا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز وقصور الفكر وكلال النظر

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام وموقعها من سائر البلاد العثمانية لا يخفى على نظر دولتكم وقد توهم بعض من تولاها من خدمة الدولة ان فى نفوس أهاليها ميلا للاستقلال وطموحا للانفساخ عن دوحة الخلافة نعوذ بالله فهذا وهم لا أساس له ولا يمس جانب الحقيقة فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل أحوالها ما يؤهلها لأقل شأن بلم بهذه الغاية وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلهم ولا هم لهم الا في استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ولو فرض أن خيالا باليا مثل هذا لاح بذهن أحد ممـا له صلة بالاجانب منهم فليس بخارج عن حد الاماني المستحيلة وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من تجتمع عليه الكلمة أو تعقد على التسليم له العزائم نعم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعد الطغام السذج الذين لا مقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة لتسامحه فيها وعدم مبالاته بها وهي قذفات لا امكان للقصد منها وطائشات كلام لا شمة للرأي فيها وهي بمـا صدر عن الاطفال أشبه منها بمـا يكون عن الرجال ولهـذا لم يكن أثرها فى أنفس العامة فوق وصول ألفاظها الى أسماعهم ثم ترد على قائليها ويحثى بها التراب في وجوههم ولكن مما يوجب الاسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه وجاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخذ أفكارهم وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الاسلامية على قيام أمثالها فى سائر الطوائف

على انه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضررا من هذا الوهم على فرض ثبوته فليس بأقل غائلة منه وذلك أن سكان هـذه البلاد ينقسمون أولا الى قسمين الاول سكان جبل لبنان والثاني سكان ولايتي بيروت وسورية

حالة أهالي جبل لبنان

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عددا وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويليها طائفة الدروز ويوجد نزر يسير من أهل السنة وعدد

قليل من الشيعة وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهواهم للدولة الفرنساوية وصغاهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم والواقية لحقوقهم وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل والحكومة الفرنساوية لاتني في تمكين هذه العقيدة بتأييد الجمعيات الفرنساوية ومساعدتها على انشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنساوية واشراب المتعلمين فيها مذهب الميل الى فرنسا واخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وابعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته الا ما يعلمه بعض السياحين وطراق البلاد من الأجانب ثم بعد استتمام دروسهم لا يرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية في احدى دوائر الاجانب إما ترجماناً لقنصل أو كاتبا في شركة أو ماشا كل ذلك ورؤساء هذه الطائفة لا مفزع لهم يلجؤن اليه الا قنصل الدولة الفرنساوية وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لابلاغ هذا الفساد حده

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند ما صار النظام قاضيا بأن متصرفه يكون كاثوليكياً وأغلب رجال حكومته من المسيحيين وأصبحت قوة البأس لا توصلهم الى المناصب كما كانت في سابق العهد واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقي لهم أو ينالوا شيئا مما يخولهم النظام نيله فانحطت بذلك أحوالهم وقد كانوا ولا يزالون فئتين جنبلاطية ويزبكية فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترا وأخص علائقهم مع قنصل الانكليز واليزبكيون وهم أقرب الفئتين الى الدولة مالوا الى المشرب الفرنساوي وكرعوا منه حتى عموا غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهدا في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولا وبالذات وتربية

غيرهم ثانيا وبالتبع

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرة سذّج كأنهم في بدايات البداوة ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم الى مذهب آخر وانما يخاف على أبنائهم من ذلك وعلى كبارهم من الانقياد السياسي الى دولة الانكليز

أما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم وانما هواهم هوى جيرانهم فالمخالطون للموارنة طوع لهم والمخالطون للدروز تبع لهم وقلما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسا وانكلترا وليس يخاف ما تأتي به هذه المسابقة السياسية بعد ما ظهرت آثار مثلها في بلاد أخر والدولة أعزها الله مع ان البلاد بلادها ليس لها من يروج سياستها ويؤيد كلمتها وأمرها يتبع ميل المتصرف ان صدق في خدمتها كان لها والا صار الى غيرها والمتصرف شخص يعزل ويولى وأهل البلاد هم القوة الراسخة وبهم تؤزر السلطة فيهم

ولكن كل هذه المساعي الأجنبية على ما يحفها من عناية المتذرعين بها تخشى عواقبها وترعد بوائقها اذا جاء المستقبل على أثر الماضي لا يعارض فيه السعي بمثله ولا تقطع الطريق على السالكين فيها أما اذا توجهت من الدولة لمحة نظر الى استقباء قلوب رعاياها اللبنانيين لها وتطهيرها من تلك الأغيان الطارئة عليها فما أيسر أن يتم لها قصدها وتذهب تلك المساعي هباء منثورا ولا سبيل الى ذلك الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم فلا بد من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثماني ولئن دعيت الى تفصيلها بذلت ما في الوسع للفكر فيها

حالة أهالي ولايتي بيروت وسورية

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيهما القرويون وأهل الحضر أما القرويون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة وهم الجمهور الأغلب ومنهم الدروز في حوران ومنهم الشيعة سكان الشقيف وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ومنهم النصيرية في لواء اللاذقية ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك ملكيين وروم ارثوذكس وبروتستانت

الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهبا واحدا في تربية أبنائها

وتهيئتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنجي غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنساوي وهؤلاء هم الموارنة والروم الملكيون يدفعون بأولادهم في المدارس الأجنبية الفرنساوية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشؤا كما ينشأ الموارنة في جبل لبنان واذا أسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت والملكيون في المدرسة البطركية بها ومنشآت أخر في أطراف البلاد فلا يضعونها الا على قواعد فرنساوية واللسان الأول فيها الفرنساوي والهوى والميل فرنساوي ومنتهى أمرهم في التحصيل على ما بينا في الموارنة ودروس تلك المدارس التي يدعونها وطنية انما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الأفرنج مما يمتنع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة وهكذا يعلمون أبناء البلاد الى أن ينتسبوا الى غير أبيهم الحقيقي وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساوي ومذهب من مذاهب الفرنساويين السياسية وما من مكتب من هذه المكاتب الا ولفرنسا مساعدة مادية وأدبية له

ومنهم البروتستانت ومشربهم انكليزي ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالهم فينشؤن فرنساويين وتارة الى مدارس أخر منهم ينشئون على المشرب الذي نموا عليه وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير انها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك عارا عليها في أعين اخواتها من بقية الطوائف فاختارت ما يوافقها في المذهب الديني فانتسبت الى دولة الروس غير ان الروس لم يوجد لهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي (١)

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثماني على قواعد توافق حال أهل البلاد وقام بادارته رجال متبصرون حذاق في إصابة الاغراض والرمي

(١) بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا تنشيء المدارس في سورية والقدس ولبنان

اليها لعزت تربيته جميع تلك التدابير واجتثت أصول تلك المفاسد وانما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السعي استعنت بالله على بيانه

(النصيرية) قوم أجلاف أشداء يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة ولهذا كثيرا ما انتقض أولئك القوم على الحكام وشقوا عصا الطاعة وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الاجانب وبث الوساوس من المرسلين البروتستانت بما أنشأوا بينهم من المكاتب حتى انه من نحو ثلاثين سنة اشتد أمرهم في الشقاق وكان راشد باشا واليا على سورية فذهب بنفسه لإخضاعهم وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين فالتمس من الباب العالي تقرير ستين ألف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة وصدر الامر بذلك الا انه لم يجر العمل به حتى الآن ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة وهم في اللاذقية ولا مكاتب ولا تعليم . وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت الى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة بل لو اعتني بإخراجهم من مذهبهم الى الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك اذا أحكم أساس التربية فيهم وبني على قواعد الحكمة والدربة وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية والاستقامة النفسية

(الشيعة) لا يقرون بالخلافة الا للقائم المنتظر ولهذا وجد الاجانب سبيلا للدخول على قلوبهم لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفي الاسلام ولهذا لا يلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ولكن وكلاء الاجانب وشياطينهم يصورون لهم عمال الدولة في صورة مشوهة وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق مزاعم أولئك المفسدين وكثيراً ما يخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى وليس من البعيد أن تميل أفكارهم الى خلاف ما يرغبه الصادقون في محبة الدولة ولا نؤمن غائلة ذلك واستعمال الشدة في مراقبتهم لا

يزيدهم الا نفوراً ولكن ما أسهل سد تلك المنافذ على أولئك الاجانب بإنشاء معهد للتربية العثمانية بل ما أسهل تذليل شدتهم المذهبية واستصفائهم للدولة بإقامة مهذبين من أهل الافكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصلاح أخلاقهم لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائمهم لا ريب انهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول

(الدروز في حوران) لم يخف حالهم على رجال الدولة غير انه زاد في سوئها عناية الانكليز بارسال رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم حتى انهم عينوا أسقفا فى القدس بمعاش ألف وخمسمائة ليرا فى كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة. ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها

(المسلمون من أهل السنة) هم عماد الدولة وركنها الشديد وهم قومها الحقيقيون وفيهم عصبتها الثابتة . ومن البين ان قوائم الدولة العلية ثبتها الله مستقرة على أديم الدين لأنها دولة خلافة فعمادها في القلوب سلطان الدين فكلما قوي الدين في الافئدة ظهرت آثاره في الاعمال فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ولكل وسيلة خلف منها أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية أيدها الله

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة فى المذهب الديني تمام الاتفاق وهي علاقة من أمتن العلائق في طبيعتها ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ويستدعي دقة النظر وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعدما أهمل التعليم الاسلامي الصحيح وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل في اللائحة المعروضة لدولة شيخ الاسلام وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد فى نظر المسلم فقد تسابقوا ركبانا ورجالا متطوعين الى الجهاد المقدس فى حرب سباستبول المشهورة ثم كانت حالهم أيام الحرب الاخيرة من التقاعد مالا يسر وفي هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل ما لديه للفرار من الخدمة العسكرية وان جاءت لاقدار الله حرب ذهبوا اليها كارهين بعد ان كانوا يذهبون راغبين كل هذا والجهاد من فرائض دينهم

يفيض به كتاب الله في أغلب سوره وما كان خمود الحمية في نفوسهم الا لضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين وإهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر (جي دبليولتيز) مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جريدة الدالي تلغراف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه على لزوم تقوية العقائد الدينية فى قلوب الرعايا الهنديين «لا بد أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان فكما أن كل دولة تخمد الافكار الدينية من نفوس رعاياها يسرع اليها العدم و يقضي عليها الزوال بحكمه و يستحيل عليها أن تدوم كذلك كل دولة لا تسند عقائد رعاياها ولا تعينهم على التمسك بها لا يتسنى لها الى النجاح سبيل» اه فهذا انكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتثبت محبتهم فما أجدرنا بالعناية بذلك والملة ملتنا والقوم قومنا

انتبه المسلمون فى هذه لسوء حالهم من نيف وعشر سنين وضارعوا سائر الطوائف فشكلت منهم جمعيات خيرية كجمعية المقاصد الخيرية لتربيـة أبناء المسلمين واحياء العقائد الدينيـة في قلوبهم ووقايتهم من سطوة الاجانب على أفكارهم وجدّ أعضاء تلك الجمعيات فى رعاية المكاتب الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير فساء ذلك الطوائف المسيحية فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الاسلام ولا يعرفونه فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات وتحويلها الى مجالس رسمية ثم محي أثرها بالمرة والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ولم أر شيئا كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات فخمدت أفكارهم وتقطعت آمالهم ورجعوا الى جاهلية اما لا رغبة لهم في العلم أصلا أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الاجنبيـة وبعض مبادئ علوم لا تفيد في اصلاح الانفس شيئا ولكن تؤثر في افسادها

فالزاعمون انهم من رغـبَـة العلوم يبعثون بأبنائهم الى تلك المكاتب المسيحية فرنساوية أو ألمـانية أو انكليزية أو وطنية بالاسم أجنبية بالحقيقة ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك وكل هذه المكاتب دينيـة أنشئت لغرضين : تحويل

العقائد الى المسيحية وإمالة المشارب الى الدول المنسوبة اليها فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها اما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد مسلمين بالاسم أو دهريين لاعقيدة لهم . ولو دعيت الى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لأوضحتها كما هي عندهم

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها حتى لا يذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم ولا ينحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه

وأول ما يلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت من صنف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم يكون التعليم بالتركية بعد ذلك ولا بد أن يجعل اللسان الفرنساوي مما يقصد تعليمه في باديء الامر حتى يقبل الناس عليه وأن يكون في درجة لاتنقص عن مكاتب الأجانب في شيء . وثالث شروطه أن يكون أساسه على احياء الدين وحب الدولة ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص ورابع شروطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس ينحصر همه في اخذ راتبه الشهري وأن يكون حكيما في تصرفه وفي حال يجلب ثقة الناس به والله بعد ذلك كفيل بان يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضامن لنجاح الدولة في مقصدها منه

ثم تنشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الاساس لافرق الا بالدنو والعلو . والتربية في جميع الاحوال لا بد أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة كما هو جار في ممالك أوربا وكما كان عليه أسلافنا وان تكون الغاية منها طبع هذا الخلق في النفس حتى لا يحوله محول من فقر أو غنى أو ايثار أو حرمان أو ظلم أو عدالة وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة واصطفي له رجال من أهله وما هم بالمعدومين ولكنهم ربما يكونون غير معروفين والبحث يظهرهم

وأما أهل البداوة من الاعراب المتنقلة فى أطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ولكن مما يؤسف عليه أنهم كلٌّ عليها ضررهم أكثر من نفعهم ولبعض رجال الاجانب علاقات خبيثة معهم حتى انني رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لندرا رسائل من بعض مشايخهم توددا وما ذلك الا من اهمالهم وعدم العناية بتربيتهم واذا دعيت الى وضع لائحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لا تنقص عن التركمان بالنسبة الى الروسيا بل تزيد عليها أضعافا مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك

وربما يقال ان هذا الامر وما قبله يحتاج إلى نفقات لا فضل لها في خزينة الدولة فأجيب أن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على الفقراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولا تحتاج خزينة الدولة بعد سنين الى أن تصرف شيئاً في هذا السبيل وطريق الصواب واضح لاهله متى ثبتت العزيمة ولا أطيل القول في هذه العجالة فانما الغرض سوق ما تنبه اليه الفكر اجمالا الى ساحة الفضل والكرم والمرجو شمولي بالعفو عن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الاعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف آمين

اللائحة الثالثة

يظهر انه كتبها لأجل اقناع أولي الامر في مصر بالعناية بالتربية الدينية بعد عودته من سوريا وعفو الامير عنه وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتتحة به وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر

« ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به »

اذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم فما حاجة الحاكم الى صلاحهم بأخف من حاجتهم الى صلاحه فان السلطة سلطتان جيدة ورديئة فالجيدة ما كانت على المحكومين للمحكومين والرديئة ما أخذ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت

اما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي وهو مجموع الروح والبدن فكل يستفيد من الآخر مابه بقاؤه ونماؤه . وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والخمود والجهل ونحو ذلك تحتاج الروح الى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وماشابه ذلك وماذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه

وأما السلطة الثانية فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته فصاحب السلطة صانع والمحكوم آلته في الصنع فهو كاتب مثلا والمحكومون قلمه أو هو حارث والمحكوم محراثه وكما أن الآلة لا تعمل الا بالعامل ولا يظهر أثرها الا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل الا بآلته . وكما يجب أن تكون اليد العاملة قادرة على ادارة الآلة يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل فان فقد أحد الأمرين امتنع العمل أو نقصت ثمرته — فكل من السلطتين فى حاجة إلى صلاح المحكوم فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه كذلك يطلب

صاحب السلطة في أيّ منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث ينقاد الى كل مايحكم به وعلى الصفات التي تنساق به الى الغاية التي يذهب اليها حاكمه

اما مارسخ فى خيال بعض الشرقيين ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الاوربيين من ان صاحب السلطة قوته علوية والمحكوم طبيعته سفلية ولا نسبة بينهما الا أن الأول قاهر والثاني مقهور وأن الثاني في حاجة الى صلاح الأول ليكون به رؤفا رحيما وأن الأول لاحاجة به الى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال فذلك منشأه الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الانسانية ونظامها الفطري. ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لاتدوم لهم دولة ولا يثبت لهم سلطان لتخبطهم فى سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميهم وتصرفهم فيهم على خلاف مايجب أن يصرفوهم فيه وتغافلهم عن استطلاح طباعهم بما يؤهلهم للعمل على مايريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته. فقد يكون ذلك حقًا لكنها آلة ذات شعور وارادة ومالهشعور وارادة فجميع أعماله انما تكون عن شعوره وارادته فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والارادة وتفسد بفسادهما فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل الا اذا كان الشعور والارادة صالحين له، وصلاحهما بأن يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضارّ و بين النظام والاختلال ليكون مايقرره الحاكم من القوانين وأصول الادارة معروفا عند أغلب الرعية وأن تكون الارادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام. فاذا كان الشعور مختلا والارادة فاسدة كانت الاحلام طائشة والاهواء متحكمة ومداخل السوء كثيرة فويل لذي السلطة من تلك الرعية و بعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار وكل مايتخيله اصلاحًا لهم أوله فيودعه في أصول حكومته فهو كالنقش على الماء أو الرسم فى الهواء

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لاتزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من أطرافها بالصحاري الجدبة والمياه

المالحة وليس فيها من الغابات مايعوذ به الوحشي من الحيوان فضلا عن الانسان ولذلك نرى كثيرا من أنواع الوحوش التى كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في أطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولا يمكن أن يتصوروا ذلك مادام في أرضهم نبات ينبت فاذا أمحلت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين وكل قادم اليهم امتزج بهم وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم وانتسب نسبتهم فصار مصريا واحرز جميع خواص المصريين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم ان طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سريعو التقليد أذكياء الاذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم فى ديارهم من أي الوجوه فلا يبيدون من حاجة فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم

فحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آلته فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمي اليه أنظار الدول السامية المقام فى المدنية

أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض وهو ممر أهل المشرق الى المغرب وأهل المغرب الى المشرق وهو في حلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الأمم فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل هذه البلاد

الأمم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضا على التمكن في أرض مصر اوالفوز بإحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لا تنقطع نفثاتها من

أولئك الأحزاب يبثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم. وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) أن يقال ان صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى اليهم كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم فلكل كلمة من هذا القبيل مكان من نفوسهم ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحيانا، غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن ثم لا يلبث أن يعود الى حاله فالله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى اليهم

يقال أن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ انه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم وأثبتهم قدما في المواطن ولا يعلم متى يوجد القائد ومن أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجد سبيلا للاندفاع ثم هم لا يقدرون النظام قدره مهما كان بالغا من الصلاح ولا يبالون به بل يعتقدون ان كل نظام حبر على ورق فلا يستطيع حاكمهم ان يثبت سلطته عليهم على أمر مكين بل هم دائما في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة الا اذا أخذوا بتربية صحيحة فهنالك تنضبط أحوالهم وينشأ النظام احترامه في قلوبهم ويهتدي صاحب السلطة الى طرق تصريفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس اذا لم يكن مبعثهما الحق ينشآن عند المصريين من امرين الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح والثاني حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصر في العواقب ومرجع الأمرين الى سوء العقيدة وظن ماليس بواجب واجبا وظن الواجب غير واجب فمادامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة فلا يصلحون بدنا للرأس ولا آلة لعامل لاختلال المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر وتنفذ بصيرته الى هذه الحقيقة فلهذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنا يعتد به وكل اصلاح نظامي نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء فالسلطة التي تسعى فى أن تجعلهم رعية صالحة

تكون قد فتحت في نفوسهم فتحا جديدا وظفرت ببغيتها منهم ظفرا مبينا وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

اهل مصر قوم أذكياء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية للتأثر لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي ان البذرة لاتنبت في أرض الا اذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ويتنفس بهوائها والا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ولا على البذرة وصحتها وانما ألقيت على الباذر

أنفس المصري بين أشربت الانقياد الى الدين حتى صار طبعا فيها فكل من طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربية التي أودعه فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ويخفق سعيه وأكبر شاهد على ذلك ماشوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي الى اليوم فان المأخوذين بها لم يزدادوا الا فسادا — وان قيل ان لهم شيئا من المعلومات — فلم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لا اتكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام فى مصر فان غير المسلمين فيها العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وان اختلف عنهم في الدين ، وفى آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وارشاده الى مظان الفوائد والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الاخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لان تكون بدنا لرأس أوآلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة الى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظراً في الأمور وأطهر قلبا من التعصب الجاهلي وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة وأسبق الناس الى ترقية المعاملة بين البشر وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه وهذه آيات القرآن شاهدة على ما تقوله اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لا يختلفون عنهم الا في بعض أحكام قليلة ولكن عرض على

الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا مربيا يأخذهم بدينهم فحرموا خيره ولم يبق عندهم الا ما فيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين وليس بدين . على أنه ليس فيهم من ينكر ان القرآن كلام الله وانه ينبوع الدين ولكن ليس لهم من معاهد التربية الا جهتان المدارس الأميرية ومدرسة الازهر الدينية وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول ما يصلحهم

من يتوجه من ذوي السلطان الى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ولا أغلب الخاصة وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك فان بلادا غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد . أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لا غير فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها في المدارس ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ولا يتعرضون لما زاد عنها الا بالنفي ولا بالاثبات وينتدبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على الاذهان عما وقر فيها وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ولا يجدون معارضاً لهم من أهل الدين لأنهم لا يهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة وما دامت الأصول محفوظة فأنظارهم عن غيرها منصرفة وأكبر دليل على ما نقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس على ما فيه من مباينة الدين والانتهاء الى خلعه بالمرة

﴿ المدارس الاميرية ﴾

المدارس الأميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة . هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا بإشارة بعض الفرنسويين لتعليم بعض أولاد الأرنؤط والاتراك والمورلية ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج اليها في نظام الحكومة التي أسسها وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة اما

غيرها من العلوم فما كان الا وسيلة اليها ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما .
أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على بال ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطالبه في الوظائف ادخل في تلك المدارس بعض المصريين جبرا وما كان يدخل مجبورا الا الذين لاقوة لهم من الفقراء وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية فى ثقله على المصريين

ثم جاء خلف محمد على من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرة حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها وزاد فيها من المعارف ماله دخل فى الادارة والقضاء وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير ان جميع ماأتاه من ذلك كان صوريا ليقال ان له في حكومته مثل مالأوربا فى حكوماتها ولم يكن القصد منه تربية العقول ولا تهذيب النفوس ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ولكن من الاعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة يحتاج في الوصول اليها الى بعض الفنون ومن الفقراء الذين لايجدون مايقتات به أبناؤهم فيرسلونهم الى المدارس ليستريحوا من نفقتهم ولم يكن القصد من جميع تلك الاحوال الا أن يتعلم التلميذ مايؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيا من كراسي أقلام الدواوين . اما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحًا فى نفسه يحسن القيام بالعمل الذي يفوض اليه في الحكومة أوفي غيرة فذلك لم يخالط عقول المعلمين ولا من ولاهم أمر التعليم فسرى ذلك من السابقين الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون مايجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته ان كان ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقي اليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح

أوفاسد ، ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار ، وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لاغير ولهذا لايكون تلامذتها في آخر الأمر الا صناعا أوناطقين ببعض الألسنة ولا ثقة فى الأغلب بشىء من عقولهم ولا أخلاقهم الا من كانت له فطرة سليمة وله موهبة طبيعية فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال . فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه فلايؤول ذلك بالمصريين الى أن يكونوا رعية صالحة لان تكون بدنا لرأس أوآلة لصانع

المدارس الأجنبية

وأما المدارس الاجنبية على تنوعها فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين فى الاغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها ومن أرسل ولده اليها داوم نصيحته بعدم الالتفات الى ما يقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده ثم ذلك يحدث من الاضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الاخلاق ما يكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم ان لتلك المدارس الاجنبية أثرا سياسيا أو أدبيا في مصر بل قد أحدثت بعض النفرة فى قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم ولذلك تاريخ في البلاد معروف فهي ضارة بالأمة ، مبعدة للمحبة ، رغما عما يزعمه أربابها ما يخالف ذلك فلا يصح الاكتفاء بها فى التربية عن المدارس الاهلية على اختلافها .

الجامع الازهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة واما طمعا فى بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ولا يزال بعضها الى اليوم ولكن ما يؤسف عليه أنه لا نظام لها فى دروسها ولا يسئل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من استاذه تعود عليه بالاصلاح فى دنياه أو دينه وانما

يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ويطبق على الذهن غفلته ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع اذا كان موافقا لمبدأ التعصب الجاهلي فأغلب الاوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ولا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها

ثم ان المعروفين بالعلماء وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ويؤذن لهم بالتدريس فيها هم قدوة الناس وأئمتهم مع انهم أقرب للتأثر بالأوهام والانقياد الى الوساوس من العامة وأسرع الى مشايعتها منهم وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها .

إصلاح مدرسة الأزهر لابد ان يكون بالتدريج في تغيير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها بحيث يقرر فيها ان كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس والا حرم الامتياز وكل استاذ يسئل عن طلبته ثم يجعل ما ينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالكتب وتغيير بروغرام الدروس ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلاميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الاساتذة والتلامذة في ذلك ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا تستلفت الأذهان الى شيء خلاف المصلحة وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .

ولا بأس ان يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطا بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية ان إصلاح الأزهر لا يمكن لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أثرهم فهذا ظن فاسد لا يؤيده

دليل ولم تقض به تجربة الا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين سنة عند ما أراد ادخال بعض العلوم الصناعية فيه فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء فيئس من الاصلاح وترك الأمر الى اليوم فقد كان ذلك قبل ان تتقلب الحوادث على مصر ولم يكن بالتدريج اللائق اما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الاصلاح بمجرد التوجه اليه وما يعجز عنه من ذلك فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا فوض ذلك اليه على أن العناء في ذلك لا يطول اذا صلحت المدارس الأميرية فان الناس لا يختارون الأزهر الا لسوء ظنهم بالمدارس أولاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم و يصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتاتيب الأهلية

المدارس الأميرية يتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ولا يتم لها احسان النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولا الى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن فانها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الاميرية وللأزهر فان كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فسادا . وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ولكن من الوجه التعليمي واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لا من الوجه التهذيبي والثاني هو أهم مطلوب دون الأول فانما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالمعلمون في تلك الكتاتيب يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظاً بغير معنى . واذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو الا الزائد الضارّ دون الاصل النافع وقد عرفوا بأنهم أفسد حالا من العامة . على ان الكتاتيب يرد عليها أبناء الاهالي جميعاً الا القليل ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آباؤهم فهي منابت للعامة ولكنها لا تنبت الآن الا جهلا

ولا يمكن اصلاح تلك الكتاتيب الا باصلاحهم (أي الفقهاء) واصلاحهم مرة واحدة أو إبدالهم بخير منهم متعسر ولكن اذا وجهت العناية اليهم أمكن

اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالتدريج في بضع سنين ثم ان ذلك الاصلاح يستدعي عملا يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث ان أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب فلا بد أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقدر الامكان وهو يقتضي سعياً حثيثاً وتدقيقاً شديدا وسيرا في أرض مصر أجمعها ونظرا في كل قرية من قراها وهو ليس بعسير على الشخص الواحد فضلا عن أشخاص كثيرين متى وجهت العناية بذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري مما يزاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعرا بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة فاذا دخل المدرسة أو الأزهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة وتعيين مايدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الخديوي وغير ذلك . وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الأمور القريبة من الاذهان والمكان الذي يتعلمون فيه والوقت الذي يخصص لذلك والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين ادارة الاوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لا يزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة سواء نالوا ماقصدوا أم لا الا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعدّ لذلك فيرجع الولد الى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب عارفاً ببعض مبادىء العلوم التي لا يجد لها موضعاً تستعمل فيه فلا يلبث أن ينساها فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ثم انه يعود بأخلاق أشد فسادا من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ويجد في نفسه نفرة وعجزا عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله فيقضي عمره في البطالة أو ما يقرب منها فتزداد أخلاقه فسادا وأفكاره اختلالا ويقف نفسه على عبادة الأوهام وخدمة الدسائس التي تنبهه الى طلب

مايغير الحالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضوا نافعاً لها

فأول ما يجب لاصلاح هـذه المكاتب ووضعها على أساس يفيد العامة ان يراعى في البروجرام إدخال مبادىء العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على المعاملات الجارية في البلاد فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف في المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الاموال في الاوراق والدفاتر وطرق التحصيل لاموال الحكومة ونحو ذلك ويدخل فيها فن الاوزان والمكاييل وان كانت مبادىء هندسية فليدخل فيها شيء من المساحـة على الطريقة المعروفة فى البـلاد أو على أفضل منها وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية والمشارطات المتداولة بين الاهالي حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه

ثم يضم الى ذلك تعويده على بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفلاء التلامذة ان للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة وأنهم اذا لم ينالوا الخدمة فأن لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة ثم يضاف الى البروجرام مبادىء العقائد الدينية على الاصل الصالح وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الالفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة وشيء من تاريخ البلاد وما كانت تعانيه في سابق زمنها وما صارت اليـه من الراحة فى هذه الاوقات وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ليعلم التلميذ انه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مستند فيما يصدر منه ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب وتشديد المراقبة عليهم في ذلك وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحـدد فيها البروغرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض اليه مراقبة أخلاق التلامذة وملاحظة أعمالهم فاذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعليم رجع اليه بشيء نافع ونمت فيه

الاخلاق الصالحة والافكار الحسنة وانطبع قلبه على الخير والسلامة وكانت له بصيرة فى وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ونبت في قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم فى بروغرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لاقامة تلك المدارس وانما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر وغرس مبدأ الصلاح فى نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ما تعلموا

قلنا فيما سبق ان التربية مفقودة في تلك المدارس لا يخطر ببال أحد ان يعتني بها عناية حقيقية وانما الموجود فيها صور ورسوم تغر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح — تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة — إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية — تعليمهم الاجادة في الكتابة كلٌّ في فنه الذي يريد الوصول الى غاية التعليم فيه — تعليمهم أصول النظام العام ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدبير النيل وهو شيء غير الهندسة — وعلى هذا القياس

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم ان القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين وان فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الادلة على ذلك وهي كثيرة لا تعد حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به وائتمن على عمل يفوض اليه وكانت الأنفس مطمئنة من جهته لعلمه ان للنظام علاقة بحياته الروحانية كما له علاقة بحياته الجسدانية فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلا آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط باعمال وطنه فيكون بذلك عضوا صالحا ويقوم بينه و بين الدسائس حجاب منيع

من الاستقامة الفكرية والخلقية حتى لوأن التلميذ بعد ذلك حمله الشطط في الفكر علي خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة

﴿ المعلمون والمربون ، ومدرسة دار العلوم ﴾

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر فى حالتها ، ولم يدقق البحث في مصلحتها ، اما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر مايتصورونها كما أن كثيراً مثلي لايرون ذلك

اما أولا فلأن بلادا واسعة مثل مصر لاتعدم افرادا متفرقين فى أنحائها يعرفون من الدين حقيقته، وللزمان مايلزم له، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب. وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الاطراف ليعرف الصالحين لتوليها على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية الابتداء فى العمل فان لم يكن الموجود بالغاً الغاية فى المقصود فلا أقل من أن يكون قريباً منها — واما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم فى الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي على ان في الرسم نقصاً يجب تتميمه وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدءها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر وان يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروسا لجميع ما كانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتمموه على وجه أجلى وأنفع وأضاف الى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ وقدر غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتمم لدروسه فيها صالحاً لأن يكون أستاذا في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي كانت تنبغي لها ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام

فيها ولهذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والافكار لا يمتازون عنهم الا قليلا وان كانت مع ذلك أنشأت أفرادا من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة ولكنهم أقل عددا مما كان ينتظر

ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسة مع انه لم يكن الغرض منها الا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لا يقيمون عليها من النظار الا جاهلا بالدين واللغة العربية بل غير معتقد بالدين بالكلية كما فعلوا سابقاً ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية الا من يقصد تعيشهم بمرتباتهم وفيهم من لا تجوز معاشرة التلامذة له فضلا عن أخذهم العلم عنه وفيهم من لا يحسن أداء ما كلف به وليس فيهم أهل لوظيفته الا شخصان فقط والكل لا عناية له بأمر التربية ولا يهمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها ، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها ، وتعليمهم الدين على ما هو المعروف في الازهر لا يغيرون منه فاسدا ، ولا يزيدون عليه صالحا ، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلا من الكتب لا يبينون للتلامذة الغاية من تعلمها . وليس العيب في ذلك راجعاً اليهم ولكن الى من لم يضع أصلا لسيرهم في تعليمهم ولم يؤسس قاعدة ترجع اليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين ولم يقم على تلك القاعدة خبيرا بالبناء عليها ، عارفاً بالغاية التي توجه المدرسة اليها ، حكيما في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتى يقيم للتربية بناء معنويا حقيقيا يأوي اليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري ، والديني والخلقي ، ويمكن أن ينتهي أمرها الى أن تحل محل الأزهر وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر ولكن يلزم لذلك أمور

(الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة في الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفن أصول

النظام مع تعلقه بالدين

(الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية

(الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل الى الغاية المطلوبة للمدرسة

(الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قدملأ قلبه وغمر فكره الميل الى المقصد الذي وصفت له المدرسة عالماً بالدين ولغته موثوقاً به عند العامة

(الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر

(السادس) توسيعها الى مايسع مئة تلميذ

(السابع) أن يزاد في مدتهاسنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة

(الثامن) وهو أهم مايجب — أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون

(التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم

(العاشر) أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب

(الحادي عشر) أن يكون للموظف منها فى مدرسة ماسلطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطباعهم وأرقاهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيساً لمن دونه

(الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف

ثم انه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديدا ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء

﴿ نفقات الاصلاح ﴾

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ولكن اذادبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج الى زيادة على انه لواحتيج اليها لا يثقل احتمالها بعد اليقين بأن هذا الاصلاح يؤول الى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس أوآلة لعامل وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل — وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية — أفضل منه في جميع السبل فإن كانوا يصرفون آلافاً

من الجنيهات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار فان التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب ان يقفوا عندها بالنسبة الى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الاصلاح في مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان في الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

شبهة من يعارض المشروع ومكانته في نفسه

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون ان هذه الطريق بعيدة النهاية لا توصل الى الغاية – كما قالوا ذلك من قبل – فنقول لهم ان الطرق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي الى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر فان لم تكن بفائدة فلا خوف من المضرة

ان من يزعم العجز انما يلجأ اليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه فان كانت له أدلة فليوردها ولا نعدم لها من الحقيقة دافعاً فان أبى الا العجز فربما يوجد من لو وكل اليه الأمر قام به ولم يعجز عنه والتجربة مشرق الحقيقة ان شاء الله تعالى . على انه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع وأكفل ان يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر

واني لا أزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة وأن فوائده ربما نقلت الى اقطار أخر فعادت بجزيل الخير على من نماه وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا باصلاحه على قاعدة المحبة والالفة ، لا على طائشة الاخافة والرهبة ، ويكون بذلك قد كوّن لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة ، وينصره في الفتنة ، ويعضده في ساعة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية ، وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى

سلطته وعرض نفسه لغير الزمان وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر وبيده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اه

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾

نقلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة ولا معروضة للنشر كما سبقت الاشارة بل كتبت لأجل أن تترجم وهي مع ذلك آية فى البلاغة وحسن العبارة . ومن كان حديد الفهم بعيد الغوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست سماء الاعجاز أو كادت على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول ، ذلك أنه لا يرى لعقله مذهباً آخر أرجى من مذهب الامام فيها لاقناع السلطة في مثل هذه البلاد بالتربية الاسلامية التي كانت قصده في أمته مع الصدق في القول والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللائحتين قبلها تجلى له معنى « لكل مقام مقال » فغرض إمامنا فى الاصلاح الديني واحد ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد بأقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة وهو ما يجعله موافقاً لمصلحتها وتلك هي الحكمة البالغة والبلاغة السابغة

ناهيك بما تومئ اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ فى علوم العمران كطبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فياليت الاستاذ الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، أكثر مما كان يريد أن يعمله في حياته ، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته

٧

﴿ ما كتبه فى الصحف المصرية * بعد عودته من سورية ﴾

(الرد على هانوتو)

هو الرد الذي سارت به الركبان ، وانتشر ذكره في كل مكان ، وعده له المؤمنون الغربيون والشرقيون ، وأطنب في مدحه عليه الشعراء الراثون ، وسببه ان موسيو هانوتو وزيرخارجية فرنسا من قبل كتب فيجريدة الجرنال الباريسية مقالافي الاسلاموالمسألة الاسلامية ترجمتهجريدة المؤيد ونشرته بالعربية ، وكان من عادة الاستاذ الامام عليه الرضوان أن يتصفح الجرائدفيالوابور بين القاهرة وعين شمس التي فيها داره غدوا وروا حاً فلما كان رائحا بعد العشاء من الأزهر وقد قرأ درس المساء فيه نظر فى المؤيد فاذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه فى الوابور والانفعال يساوره فما عتم بعد وصوله الى الدار أن شرع فى الردعلىماقرأ في فرصة تهيئة طعام العشاء وأتم المقالة الأولى بعدتناول الطعام وأرسلها الىالمؤيد صباحاً فنشرت فيه . واننا ننشر مقال هانوتو قبل الرد عليه وهو

﴿ ترجمة مقال هانوتو ﴾

قد أصبحنا اليوم أزاء الاسلام والمسألة الاسلامية

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لاتجارى حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسيا بل أقرب في الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألاوهيالمدنية الآرية المسيحية ولذلك اضطروا الىالوقوف عند الحدالذي اليهوصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الىافريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقاباً متعاقبة ولكن كان لايزال الهلال ينتهي طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن أخرى ببلدة (فاس) فى الغرب الاقصي معانقاً بذلك الغرب كله

في تلك البقعةالافريقية التي أصبحت مقرملك الاسلامجاءت الدولةالفرنسوية

لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي الي أسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال في مصر وتونس وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية وعاود هذا الخاطر (نابوليون الاول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسويون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التي كانت لاتني في متابعة الغارات على القارة الأوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً

قد وصلت طلائع قواتنا الآن الى أصقاع من الصحراء تنتهي اليها كثبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لانهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً في الفيافي وبطن الخبوت وظنهم أنهم صاروا في أمنع موئل شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى (باقل) (وباماكوا) (وسيجو سيكورو) وتوغلوا في جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت في أيديهم منذ أعوام وأكدلهم هذه الأخبار أيضاً رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانفا) و (نجاوندره) قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الانهار لتنظيم البلاد وترقية شوونها وأن وابوراتهم في (الاصل بابور علي التحريف الشائع عند الامم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الاسود المسترسل خلفها عندئذ كان يطرق الآذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رؤسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدرا مقدورا) .

إذا فقد صارت (فرنسا) بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه

مقام رؤسائه الاولين وهي تدير اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجنـدية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارجاء التي أنشأتها في باطن القارة الافريقية هي الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) (وعرب) من آثار المدنية التى كانت القارة الافريقية منبتًا لثمارها اليانعة

ان شعبًا جمهوريا انباديء يبلغ عدد نفوسه أربعين مليونا لامرشد له الا نفسه لاعائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لايلبث أن ينمو حتى يساويه في المددوهو ذلك الشعب المنتشر في الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات غير التي نعنو لها ونحترمها هو الشعب الاسلامي السامي الاصل الذي يحمل اليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح وروح المدنيـة نعم ان ظروف وشروط هـذه المعضـلة نادرة ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضًا قريب منا فى (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد في الغموض والاشتباه— قريب منا في (طرابلس الغرب) التي تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام في البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسـلامية في باطن القارة الافريقية — قريب منا في (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها في الأقطار الهندية. وهو موجود وشائع في (آسيا) حيث لا يزال قائما في (بيت المقـدس) وناشرا أعلامه على مهد الانسانيـة ويحسب أنصاره وأشـياعه فى قارات الارض القديمة بالملايين وقد انبثت شـعبة منه في بلاد (الصين) فانتشر فيه انتشاراً هائلا حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليونًا مسلماً الموجودين في الصين لايلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لسا كيامو ني) وليس هذا بالامر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً فى الآفاق فهو الدين الوحيد

الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ففي البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الي الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومباديء السلوك في هذه الدنيا كما أن أمثالهم في القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الالوان قواعد الدين الاسلامي ثم هو أي هذا الدين قائم الدعائم ثابت الاركان في أوروبا عينها أعني في الاستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين

فى باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول. هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لايحركون من مقاعدهم ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجيء دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم. وكل المسلمين من مقيم في (الاستانة) أوفي (مراكش) في أرجاء آسيا أو اصقاع أفريقية من بدو كانوا أو حضر واقفين في أماكنهم أوسارين مع القوافل يركعون مع الراكعين اذا حانت الصلاة يتوضؤن أو يتيممون بالتراب مولين وجوههم جميعاً شطر الكعبة وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رؤسهم والذين يضعون السيف واليطقان في نطاقهم أو يتلقون العلوم في مدرسة برلين الجامعة أو يدرسون علوم السياسة فى باريس فانهم يولون وجوههم شطر مكان واحد، هي الارض المقدسة، هي الارض التي تكتنفها الصحراء، هي الارض التي عاش فيها محمد، هي الارض التي تتضمن جسمه المبارك في قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة، هي الارض التي جاء منها الآباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة، هي الحج الأبدي الى بيت الله الحرام. وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ولا يجدون لذة في الحياة إلا أمل

العودة اليه ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة .
وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة بها يدبرون أعمالهم و يوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يبتغونها وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه بل هي القطب الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذي يقولون عنه انه سرة العالم وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً وتقدمهم الامام مستفتحاً العبادة بقوله « باسم الله » فيعم السكون والسكوت و ينشران أجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين فى تلك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة

ولا تظنوا ان هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به لأنه وان كانت البلاد التى تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة « بدار سلام » وانما هي « دار حرب » فانها لا تزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها

ترى في قرانا و بلداننا درويشاً فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية راويا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام انما يبذر في القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا . ان العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لا اعداد لها ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى

الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا وغاية الامر ان العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم حتى إن الفقير منهم لا يرى في إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام . وما ذلك الا لان الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ولان الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما لانها مؤسسة على مبدإ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . وقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر مذهبا خطيرا له اشياع وأنصار ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائما بها هيكل الترجيس آمون وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد في رعاية القواعد الدينية وقد لبثوا زمنا مديد الا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ولكن يظهر ان اخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية غير ان هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ولم يكن الامر قاصرا على وسط القارة الافريقية فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أنها تفترسنا اذا اغمضنا الطرف

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينقادون لأوامر

سرية تناقلوها بالافواه وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح وطي أفكار المقهورين الذين اتبعتهم النكبات التي حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة ففي مسألة علائقنا مع الاسلام تجد المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض وهذا مايجعل حلها صعباً ومتعذرا كما سنبينه

المسائل الاساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي في النفس الاعتقاد بوعورة المسلك في تفهمها مع انها من الامور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أوهو بعبارة اخرى الواسطة في وقوف المخلوق بين يدي الخالق . اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى إرادته السرمدية بحيث لايحيد عما تأمره به هذه الارادة أم للانسان متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لايستمد من اختيار أسمى منه؟ وهل للانسان الذي خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق في ذاته أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التي لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل مع أن البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامي لم يكن بالامر الحديث اذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلا وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين

وغاية ماعرف منذ الاعصر السالفة الى الآن أنه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية في

العظمة والعلو وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن ويذهب الثاني الى رفع مرتبة الانسان ويخوله حق القرب من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه وبث القنوط في فؤاده وتثبيط همته وايهان عزيمته بينما تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني الى ميدان الجلاد والعمل وتلقي به في غمرات التنافس الحيوي ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضي عليهم بالتجرد اذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان في الذات الالهية وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاآله بالانسان في أوصافه المادية يقضي عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو «البطل» يمكنه أن يصير في عداد الآلهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احداهما ربانية والثانية بشرية تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف في التناقض . أما الاولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وان كانت مشتقة منه وغصناً من دوحته ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الآلهية على حين أن الديانة الثانية وهي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى أسفل الدرك وترفع الاآله عنه في علاء لانهاية له»

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا في الاعتقاد الاساسي لكلتا الديانتين وهو أصل الالوهية أما المسيحي فيذهب في هذا الاصل الى الثالوث أي أن الاآله الاب أوجد الاآله الابن واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً وبشراً — هذا الثالوث السري المشتقة أصوله من ضرورة وجود إآله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ويفديه من الخطيئة التي اقترفها برفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة اذ هو يحملهم على اتيان الأعمال التي تقربهم الى الله حيث الوسائط بينهم و بين ذاته العلية موصولة في حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله »

نرى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لها اذهما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب فهما إذا متداخلتان في بعضهما من وجوه عدة ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة في الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين للذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق مباحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والاسلامي فرأى في الاسلام العدو الالد والخصم الأشد قال المسيو كيمون في كتابه (باتولوجيا الاسلام) ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاذريعاً بل هي مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء و يدمن على معاقرة الخمور ويجمح في القبائح وماقبر محمد في مكة الا عمود كهربائي يبث الجنون في روس المسلمين و يلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة الله الى مالانهاية والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحاني والليمانيا أو الماليحوليا وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وان الواجب ابادة خمسهم (كما يقول

أيضاً) والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر (وهذا أيضاً قوله) ٠٠٠٠ وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب انه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلماً وان من الجائز أن يهب هولاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الرأي الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقي مبدأ وأسمى كعباً من الدين المسيحي قال المسيو لوازون (القس باسنت سابقاً) معترفاً ومقرا بأن الاسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحورا ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين في ذلك على مادونه أحد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كردينالا حيث قال « ان الاسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية فليس الواجب والحالة هذه قاصرا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسعى في توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ولكنهما وان افترقا متصل بعضهما ببعض وموجودان في حيز واحد وقد لوحظ كثيرا أن كل فرد من افراد موظفينا أو وكلائنا أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدئين وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لاميالهنحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد باحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ولا وسط بينهما

وتلك الاميال المتعاكسة التي برزت من مكامن الاعتقاد الى مجالي الفعل والتنفيذ هي التي أحدثت التناقض في اعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية

وأدت الى الشكوك والريب ونقض ما أبرم وابرم ما نقض الى غير ذلك مماجرت عليه حكومتنا ولاسيما فى البلاد الافريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا و يتضاعف خطره كل يوم اذا فكر الانسان فى انه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم اربعة أو خمسة ملايين فقط بل يسري على نصف قارة بأكلها عديدة السكان وسيزداد و يتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الاهالي وابطال التجارة في الرقيق

فالمسئلة اذا خطيرة جدا ولا بد من الاعتماد على امر واحد في حلها إذ لا يكفي للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات ولذلك خيرت ان أعرضها على محك الرأي العام مبينا أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب للوصول الى نتيجة فعلية ومورداً شيئاً واحداً هو من ألزم الاشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدها ارتباطا به

قد سبق لي وقتما تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما ان سألت — ولا زلت أكرر هذا السؤال — الحكومة أن تبحث بحثا علميا في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلي هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

ان الراغب في الاستعمار من ابناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال فيجد نفسه في اتصال مع العربي أو بعبارة أعم مع المسلم إذ منه يشتري الارض التي يريد استنباتها ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شؤنه المعيشية فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه اكثر خطرا اذا كانت العلاقة بين الاهالي و بين الموظف أو الحاكم أو القاضي أو الضابط أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل في خصوماتهم والقيام على شؤنهم وتنفيذ قوانيننا بينهم وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيرا ، ربما لا يوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر في خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع ان الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسؤلية على عواتقنا ونلنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونمعن النظر في طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومبادئ علاقاتنا مع العالم الاسلامي. ان فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون في اتصال بالمسلم وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم. ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبؤننا بما نجهله من يقين أخبارهم فهم اذا سئلوا أجابوا واذ أجابوا أفاضوا وقد كثرت الابحاث في كل موضوع حتى في الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد في الامر الذي نحن بصدده وهو من أكثرها غموضاً والتباساً فلماذا لا نستعين بالوسيلة التي تفيض علينا أنوار الحقيقة ونطرح من هذه الانوار شعاعاً على من يريدون اتباع الصراط المستقيم حتى اذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الالسنة وتتداولها أيدي الموظفين والمستعمرين وتنتشر بين الطلاب في المدارس فتنمحي بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة وتزول العقبات القائمة وتقال الاقدام من العثرات وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجري على نهجها كل عامل فيعم نفعه وتجتنى ثماره وربما كان سبباً في أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة، يواصلون الصباح بالمساء في الندم والحسرة من عواقب هفوة هفوها أو زلة سقطوا فيها وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم

ولست أظن أحدا يرتاب في نتائج ذلك التحقيق. وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات اخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من أقوم طرقها. أشرت سابقاً الى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامي، والمسلمون في الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قوياً بايمانهم العام غير أن ادراكهم مبهم من حيث الجامعة السياسية وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية إذ ينحصر

الوطن عندهم في الاسلام . وهم يقولون ان السلطة مستمدة من الالوهية فلايجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم ولم تدخل في رؤسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التي تمكنت من آفئدتهم وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ فكان ذلك سبباً في حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على أنه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس والمحافظة على مركز الباي وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الاهلون ولم تنخدش له احساساتهم إذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها وتركت ازمة الاحكام بأيدي القواد والقضاة ولم يغير شيء من القوانين الاهلية الابرضى وتصديق من الاهالي ور بما كان يطلب منهم وقام باعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين وجملة القول ان انقلابا عظيما حصل بدون ان يجر وراءه ألماأوتوجعا أوشكوى بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير ان يلحق بالدين مساس ونسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون ان يتألم منها الايمان المحمدي واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر

اذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه و بين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض، اذاً توجد أرض تتفلت شيأ فشيأ من مكة ومن الماضي الاسيوي . أرض نشأت فيها نشأة جديدة انبتت في قضائها وادارتها وعاداتها واخلاقها أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه

ونموذجا ينسج على منواله ألا وهي البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجة ورومية و بيزنطية والعرب وسانلو يس وشارلكان فأصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان حتى تأكدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الاحقاد من الصدور رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الاراضي الخصبة والسماء الصافية الاديم التي ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ما تعاقب في الاقطار التونسية من المدنيات القديمة لم تندثر تماما ولم ينمح أثرها كي تهتز لاستقبالنا و يوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات سلسلة الدهر الماضي والزمن الغابر

ان مسجد القيروان الجامع شيدت عقوده على الاعمدة القديمة وبنيت كنيسة الكردينال لافيجرى الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التي عبدت فيها تانيت . وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب في هذه الارض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش فى خلال الجيل الذي نطرق الآن أبوابه للزنوع فى واسع رحابه اه

رد الاستاذ الامام

١

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدتكم نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميا لبحثه السابق

بحثه السابق وشيء من تتمته انما هو دافق من غيرته على شؤون دولته يريد أن يدعو قومه الى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم أو يجاورونهم فى ممالكهم وذلك لايتم على مذهبه الا بالبحث فى طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين و به يفضل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنساوية . فان أمكن تلقيح ماعليه المسلمون بالولاء الفرنساوي وسهل الجمع بين ماوقر فى نفوسهم و بين الخضوع الاعمى لسلطان فرنسا وطاب الجوار في قلوب

الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصـدر من آخر فرنساوي في طبقته صح للدولة الفرنساوية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الارض والا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم الى قارة أخرى

ولهذا جره البحث الى النظر في أصول دين المسلمين والمضاهاة بينه و بين الدين المسيحي بل بينه و بين أديان كثيرة أشار اليها في كلامه ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما في نفوس معتقديه

اما غايته من البحث وتناوله بيده محضاء يحرك به نيران العداوة في قلوب الفرنساويين لتثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون مسيوهانوتو للأمة الفرنساوية اليوم مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة فذلك أمر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية ونلفت اليه ذكاء بعض شبابنا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية ويتجملون بآداب الامة الفرنساوية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنساوية

ولولم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن في أصل من أصول الدين ماحركت قلمي لذكر اسمه وكان حظي من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار — حظ الناظر في أحوال الامم وأعمال رجالها — حظ المورخ الذي يقرأ ليفهم ويفهم ليعلم ويحكم. ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب

أما ماجاء به في التحكك بأصول الدين فهو الذي أغمزه بما أكتب اليوم

يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لاول وهلة أنه مقلد في التاريخ كما هو مقلد فى العقائد وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها الى ذهنه ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنساويين وهو جمهورهم

أكثر من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي والتفريق بينهما وان أحدهما قهر الآخر وان التمدن الآري هو الذي ظفر بقرنه التمدن السامي وما يشبه ذلك

ان مهد التمدن الآري ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التي يحبها مسيو هانوتو في أغلب أنحائه . ولكن أهلهم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها مادامت الارض

أرضاً . ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة ولا يباح له أن يرتقي الى طبقة ما فوقه الى انقضاء العالم وهو الجمهور الاغلب منهم . وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لاهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم وانه لا يليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبني عقائدهم

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامي وهو لم يعرفهم الا في آخر الزمان . ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم كما لا يخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذي وصل اليه الاوربيون حمل الى أوربا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية؟

ألم يخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها وانما جاءها بمخالطة الأمم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الاقدمين وهم أساتذة الاوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو ماهذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون؟

هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء واشهار الحرب بين الدين والعلم وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل؟ نعم!!! هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا وماهي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والاوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الامم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصعاً يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون

اني أكيل لمسيو هانوتو إجمالا باجمال والتفصيل لا يجهله قومه وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت

من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الاندلس على ماجاورها وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة

يحار القاريء لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التي جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته هو الذي قصر به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الامة الفرنساوية التي تنقاد بذكائها الى الاذكياء والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها وانما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم

ان الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان ذلك ما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الاديان بما يشاهد في أحوال أهلها وقت الحكم جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة فان الانجيل بين أيدينا نقرأه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصاً أن يعطوه الرداء أيضاً ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الايسر، وأن يفنوا بكليتهم في الاب ، ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني ملكوت السموات وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التي تليق برسول الهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجمل مالله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل وهل رأى مثالا لذلك في المدنية الآرية التي تآخت مع الدين المسيحي؟!!

العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية انما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم والليرا عند قوم آخرين ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الاميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لاول هبوطه على المنارة المشهورة وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة؛ فان كانت هذه هي المدنية الآرية التي صارعها الدين الاسلامي فأنا أول من يسلّم لحججه ويقتنع بأدلته

من الساميين الفينقيون وهم أساتذة القوم في الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين وما كان الغربيون لينكروا فضلهم في ذلك . ومبادئ الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية في سلم الانسانية واحدة وانما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الامم يأخذ بعضها عن بعض في المدنية لا فرق عندهم بين آرى وسامي متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورة الحياة أو استكمال شأن من شؤونها . وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد والدين الآري يعنى به ما يقابله

وأني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهي أن

دين التوحيد ليس ديناً سامياً بل هو دين عبراني فقط عرف به ابراهيم عليه السلام و بنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب وفينقيين وآراميين وغيرهم من الامم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعدائهم الآريين وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته اليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الانساني وسنأتي على الكلام فيها وهي المقصد من مقالتنا غداً ان شاء الله تعالى

وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه اني أن صغرت شأن هانوتو في معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيها حقيقة وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير في العلم الا العلم والسلام.

٢

تحرش مسيو هانوتو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين — القدر والتوحيد أو التنزيه . و بعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديماً وانهم انقسموا إلى فريقين قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لا عمل لارادته في فعله وذاهب الى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال ان الرأي الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف والثاني يرفعه الى ذروة القوة ثم وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الازلي والثاني بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الآلهة بالانسان في أوصافه المادية وان الاول قعد بأهله والثاني ارتفع بمعتقديه الى مراتب الكمالات الانسانية !! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين أي مذهبي الناس في القدر وأن الأولى ربانية ورثت ما ترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون، وان الأولى ترقي بالانسان الى المقام الالهي ، والاخرى تنزل به الى أسفل درك حيواني، ويظهر ميل كل من الدينين ظهورا بيناً في الاصل الذي بني عليه كل منهما فأصل الأول هو إيجاد الاله

الاب للاله الابن حتى كان الهاً بشرا واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل في المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب؟ أدع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الامم وآرائهم

لم يختص الكلام في القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ولا دخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف في المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة في رأي مسيو هانوتو وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الايام ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما — أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشياع (لو يولا) وهم قدرية اختيارية ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا) انه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب؟ لكن سمعنا بذلك فى الاديار وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا في زمن من الازمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادئ الفلسفة — ذلك المذهب الذي يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله وهو مذهب القائلين ان الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن في وجوده الى سبب . أليس هذا أدخل في باب الجبرية من اسناد كل

أم الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري الى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف وهو الكتاب المنزل بالاسلام يعيب على أهل الجبر رأيهم و ينكرعليهم قولهم « لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شيء » بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الاالظن وان أنتم الاتخرصون » وأثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه مايخالف ذلك فانما جاء في تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسئلة اختيار العبد في أفعاله و بين اثر القدرة الالهية في أخلاق الأمم أوفي تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد في أفعاله ممايقربه الوجدان ولا ينكره إلا من جهل نفسه لكن ماعليه الامم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لاحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك فكان العامل الذي لا يكل ، والدائب الذي لا يمل ، والساهر الذي لا ينام ، والجادّ الذي لم يبلغ شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوما على وسادته وا كتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته قائلا : الذي كفل لي النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ، ولاتجد العصمة الالهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الاولين وكانوا أكمل الناس إيماناً باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتي العقل والاختيار وكانوا أسوة في السعي ومثلا في الدأب والكسب حتى كان من آثارهم في نشر الاسلام مايتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله

هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الارض لم يتلمظوا بشيء من نعيم

الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالامم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها وكشفوا ما كان مستوراً عندها واستخرجوا من كنوز معارفها ماظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية.

ولكن واأسفاه نتأت رؤوس بين المسلمين، كأنها رؤوس الشياطين، واحتملت غثاء من قمش الآريين، وقذفت به في الارض الطاهرة فتدنس بأدينها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره ،

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الأسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد وخالفوا الله ورسوله في النهي عن الخوض في القدر وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً والله يقول لنبيه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان وأخذه عن المسلمين في أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح فنشأ الكسل بين المسلمين بفشو الجهل بأصول دينهم وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم في كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الاولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطغام

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأ دوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم ، واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا مااستطاعوا من قوة ، واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا في صولتهم علماً أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوي من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولا تقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلماً ،

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسئلة القدر عند المسلمين أما التنزيه والتشبيه فانا نوفيه حقه في تتمة لهذا المقال ونشفق على القارىء اليوم من الاملال . والسلام »

٣

اليوم آتي على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى توثبه على الاسلام وما نعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ بالكلام في الثاني ونختم بالحديث عن الاول

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً في أحوال الأمم ونشأة العقائد وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت ولا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط تبتدىء من وثنيي أفريقيا وتنتهي الى بوذيي الصين وبرهمن الهند

كلما ارتقى الانسان في العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله في أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة وانجلى له الوجود الاعلى على تفاوت كذلك في درجات الظهور والانجلاء تنتهي الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه مسيو هانوتو وأمثاله لأن مالا حد له محال أن تحيط بوجوده الحدود

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم نشؤا وثنيين

ولازالت الوثنية ترق وترث بارتقائهم في العلوم وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم فى ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة. وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع في محو ماغشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الاولى ومن قرأ جمهورية أفلاطون التي نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التي كانت تحول بين الامة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها

و بعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه الى الجهل بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متعددة وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الاولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد باهلها الى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره فيرونه عظيمه وحقيره سواء في النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة — الفاضل والمفضول ، والفروع والاصول، وماظهر للابصار ومانفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة، فأي مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه في فهمه، وما أجمل في كليات علمه، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو رب العالمين وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافي الايجاد ولا في الامداد بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الآلهي أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وان يستمد منها المعونة في كل شؤونه

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين أحدهما من يعتقد الالوهية في بعض الموجودات المشهودة و يقف عند ما يعتقد منها والآخر يعتقد بأن باريء الكون يظهر في بعضها

أما الاولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الاكوان فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أوسلطة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم، وأنهم اليه يرجعون في جميع أمورهم، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ماشاؤا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ولا يزالون حيارى في شؤن حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لانها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم، يسارعون في ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم ومن ذلك كانت ترتكب القبائح في هيا كل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل في محار يبها وتقدس الذبائح الانسانية بين يدي التماثيل الحجرية وأي درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا وأمر ذلك معروف في التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة

أما الآخرون فهم أرقى درجة من اولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد؟ كانوا اذا فاقهم انسان في عقل أوشجاعة أوصدر منه مالا يألفون من الاعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهي فدانوا لسلطانه، واستكانوا لقهره، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم، وحق عليهم الصغار ما داموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا في استعبادهم. وكم قاست الامم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط. ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا أنه في ملكوته، كملك في جبروته، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه، ويستصنع عمالا للتصرف فى شؤون عباده، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله، أوصدر منه مايظنونه دليلا على انه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة — منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون فاتخذوه شفيعاً لديه يلجؤن اليه في مهمات اعمالهم ويستجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه. واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا اليه زلفى »

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم في جميع شؤونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهموا انها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق والغرب الى اليوم

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها لا ينكرها مطلع على مبادئ العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشؤا في جوها الفاسد

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالافراد في سلم الفضائل طمعا في نيل مرتبة الألوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم . ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم أنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الالوهية ولا ان الالوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . أما السعي الى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

أما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين أنفسهم . ولكني أقول ان المسيحية بذلت وسعها في بداية امرها لتطهير الارض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدها وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين وانبث رجالها من الوثنيين يدعونهم الى الاله الواحد وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ولم تظهر آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها وتاريخ الامبراطور قسطنطين معروف عند اهل التاريخ وغيرهم لا حاجة الى تفصيل ما كان منه

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ظهرت المظالم وعظمت المغارم واختفى العلم وخسئ العقل وتهدمت أركان النظام واستشرى الفساد في الامم النصرانية حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما سبقه واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم وقد اشرنا الى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الهًا بشرا كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثرا لاحدهم يدل على انه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لامجال للعقل فيها ، فلامكنة له في أن يحتذيها ، وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقا بين مالا يصل اليه العقل ومايناقض حكم العقل وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبيًا مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والاب على الرب الرحيم * وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لهم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم اني أرفع أدبا من أن أطعن فى عقائد المسيحية في جريدة وقد أمرت أن اجادل بالتي هي أحسن . ولكني أرجع الى الكلام في الآثار التي عني هانوتو باتخاذها دليلا

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وإبراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ولم ينكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الاسلام وكانت أكثر عددا وأوفر عددا وأعظم قوة وأشد بأسًا فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب فدخل الناس فيه أفواجًا من كل ملة من هذه الملل فأعتقت الهمم وافتكت العزائم من أسرها وأخذ كل يطلب من الكمال مايعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من

شرفات الايمان على أسرار الوجود ومزقوا تلك الحجب والاوهام واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صدأه وأبرزوه للانظار

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون فى علوم السموات والارض وصححوا الاغاليط ونقحوا القواعد وحرروا الاصول وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ومسحوا الارض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لاهل العلم في ديارنا وديار موسيو هانوتو

اني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الامم الغربية اليوم: أقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين: ومع هذا لا يعد ذلك طعنا في أصول الديانة المسيحية وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له

يظن هانوتو ان الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم في ذلك فان الاسلام افضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه — قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقي اليهما — مقام الالوهية التي تفرد بها ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها . وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان وينالها استعداده لا يحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله أوقصوره في نظره

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ولن تستطيع الى التقدم سبيلا ، هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ فى فهمه مسيو هانوتو فهل يبقى الانسان مع هذا المعنى من الاسلام فى درك من الحيوانية وفي عجزه عن التوسل بالاسباب الى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات .

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه كما يجب عليه ان يطلب آثاره والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون ولو استشم مسيو (كيمون) الذي استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه، ولاحاجة إلى الكلام فيه، فسخافة رأيه وقلة ادبه تكفيه

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه، وممن تعلموا الافتراس وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوهم الاوهام حتى انجروا الى مطارخهم، و باؤا بما كان لهم وما عليهم حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون)

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم، لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه في تنزيله وعلى لسان نبيه ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح، شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى كيمون أن يخلى وجه الارض من الاسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين و بئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهرا ضغنهما و يعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما

أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما ان الاسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل اسحق طيلر وهو قس شهير ورئيس في كنيسة :

« انه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والاقدام من أنصاره، »

و يأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار

دعوة المبشرين بينهم . وقال «انه يختار اسلاماً لاسكر فيه على مسيحية فيها سكر »
ثم هو لا يزال ينتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا وسترشده الحوادث الى
طريق الرجوع الى طهارته، وتنثني به الملمات الى ما كان عليه لاول نشأته، وتدرك عند
ذلك الامم منه خير ما نرجو ان شاء الله

لو أسلمت الامة الفرنساوية بأسرها وفي مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير
الفرنساويين على مانعهده في الجزائر ومدغسكر هل ترجو من سكان مستعمراتها أن
يميلوا اليها وأن لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها . كلا فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف
هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد في اهلا كهم والدأب في إفنائهم

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف
على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ولكن هانوتو وأترابه
من ساسة الفرنساويين لا يعرفون شيئاً من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون
بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون فلينتظروا انا معهم من المنتظرين اه

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾

لما نشر هذا المقال انبرت جريدة الاهرام للمناقشة فيه والرد على كاتبه زاعمة أنه
مبني على تحريف فى ترجمة مقال هانوتو ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية ان
الترجمة صحيحة ومنهم صاحب جريدة اللواء . ولما اطلع موسيو جبرائيل هانوتو على
ما كتب في الاهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى فى جريدة (الجرنال) موضوعها الاسلام
أيضا وترجمتها جريدة المؤيد في عددها (٣٠٦٦) الصادر في ٢٢ المحرم ١٣١٨ (٢١
مايو ١٩٠٠) قال فيها انه لم يرض فيما كتبه أولا النصارى لأنهم عدوه متحيزاً الى
المسلمين ولا المسلمين لان أحداً منهم رد عليه ناسباً اليه أقوال كيمون التي احتاط في نقلها
ولم يقرها ثم قال ما ترجمته « ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن
يدفع باباً مفتوحاً من ذاته سواء قرأ ماسطرته في الاصل الفرنسوي أو وقف عليه من
الترجمة إما انه لم يفهم مرادي وإما أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الامانة
لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره و يصيخون لأقواله على حقيقة
فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ومسالمة وتوفيق »

بسمارك والدين

﴿ نبذة نشرت فى العدد ٤٤ من السنة الاولى من المنار وكانت جريدة ﴾

رأيت في وقائع بسمارك التي نشرت بعد موته بقلم كاتم أسراره موسيو بوش كلاماً جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه يتعلق بالدين فاستحسنت ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شباننا الذين يعدون النسبة الى دينهم سبة والظهور بالمحافظة عليه معرة وليعلموا أن الايمان بالله وبالوحي الآلهي الى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر ولا ضلة عن صحيح العلم ولا عيباً في الرياسة ولا ضعفاً في السياسة

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لاصحابه « كما تنتشر هذه البقعة فى النسيج شيأ فشيأ كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في اعماق قلوب الشعب ولو لم يكن هناك أمل فى الاجر والمكافأة . ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الايمان . ذلك لما يشعر به كل أحد من ان واحدا مهيمناً يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت وان لم يكن قائده يراه ، فقال بعض المرتابين : أتظن سعادتكم أن العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس :

« ليس هذا من قبيل الملاحظات وانما هو شعور ووجدان . هو بوادر تسبق الفكر . هو ميل فى النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها . ولو أنهم لا حظوا لفقدوا ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون انني لا أفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ماعليهم من الواجبات أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي واعتقاد بآله يحب الخير وحاكم ينتهي اليه الفصل في الاعمال في حياة بعد هذه الحياة ».

ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال

« لو نقضت عقيدتي بديني لم أخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان . اذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الارض قاطبة لكن انظروا

اليّ تجدوني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني وارتقيت من المناصب مالا مطمع بعده فلماذا اشتغل؟ ولِمَ أجهد نفسي في العمل؟ ولِمَ أعرضها للهموم والآلام؟؟ لا يعنيني على شيء من هذا الاشعوري بأني في جميع ذلك أعمل عملي لوجه الله. لو لم يكن لي ايمان بالعناية الآلهية التي قضت بأن يكون لهذه الامة الالمانية شأن كبير وأثر في الخير عظيم لطرحت لساعتي ما حملته من أثقال وظائف الحكومة. ماذا أقول؟ بل لولا ذلك الايمان لما قبلت شيأ من هذه الوظائف لان الرتب والالقاب لا بهاء لها في نظري. لولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية. لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهوريا. نعم أنا جمهوري بالفطرة يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين. من هذا يظهر أن ايماني قد بلغ من القوة أعلاها حتى حملني بقوته على ان أكون ملكيًا. أسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني اعلموا انني لو لم أكن مسيحيًا مخلصًا لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الالماني. لو لم أكن مخلصًا في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية ولو وجدتم لي في الغد خلفا يكون أخلص مني في يقينه لا نفلت من المنصب في الحال. ما أعظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون. اني أحب المعيشة في القرى والحقول أحب الآجام ومناظر الخليقة. انزعوا مني هذه الرابطة التي تصلني بالله تجدوني من الغد رجلاً يأخذ أهبته للسفر الى (وارزين) ليشتغل بحراثة أرضه وتنمية غرسه. ان لم أكن خاضعا لامر آلهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه العائلة المالكية مع انها تتصل بأصل ليس بالاعلى ولا بالانبل من الاصل الذي تتصل به عشيرتي»

هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد ان عظائم أعماله انما كانت من مظاهر ايمانه وان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما الى مالم يدركه فيه مفاخر ولم يكثره مكاثر

آثار محمد علي في مصر

﴿ نشرت في الجزء الخامس من مجلد المنار الخامس ﴾

لغط الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الآثار فى مصر وأهلها وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك والله أعلم ماذا بعث المادح على الاطراء، وماذا حمل القادح على الهجاء، غير انه لم يبحث باحث فى حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي. اذكر الآن شيئاً في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع،

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنساوي فيها أنواع من الحكومات التي كانت تسمى فى اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع. وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الامراء يملك كل أمير منهم قسماً يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد فهو حاكمهم السياسي والاداري والقضائي وسيدهم المالك لرقابهم. ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما في يد جاره من الامراء. فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته، وما يدفع به عن حوزته، وان يكون الجميع دائماً في استعداد إما للوثوب وإما للدفاع. ولكن الامراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

حاجة الامراء الى المال كانت تسوقهم الى ظلم رعاياهم وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم، ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة فاضطر الامراء أن يخففوا من ظلمهم وان يتخذوا لهم من الأهلين

أنصاراً يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم و بين خصومهم . أحس الأهلون بحاجة الامراء اليهم فزادوا في الدالة على الامراء واضطروهم الى قبول مطالبهم فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الامر ان قيدوا الامراء والملوك معاً ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية وكانت البلاد متوزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها و يتصرف فيه كما يهوى وكان كل يطلب من القوة مايسمح له بمد يده الى مافي يد الآخر أو يدفع به صولته فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك مااستطاع ليعد منهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ اعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوماً . ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم مايحتاجون اليه فاتخذوا بيوتاً منها أنصاراً لهم عند الحاجة وعرف هؤلاء حاجة الامراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الامر مثل مالهم أوما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى فى البلاد المصرية بيوتاً كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم

ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الامراء أن يصرف زمنه في التدبير، واستجلاب النصير، واعداد مايستطيع من قوة لحفظ مافي يده والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه فى ذلك خوفاً من تعدي أعوان خصمه عليهم فوقعت القسمة بين الأهالي ولاتزال أسماء الاقسام معروفة الى اليوم — سعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شمماً وفي العزائم قوة و يكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حيّ واحد يحفظ كونه ويعرّف العالم بمكانه

جاء الجيش الفرنساوي والبلاد فى هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق وعظمت حوله القلاقل ، أخذت القوى الحيوية الكامنة فى البلاد

تظهر فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانكليزي وخرجت عساكر الفرنساويين من مصر ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر

ما الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر ان يشرق نور مدنيّة يضيء لرؤساء الاحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك الا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ويرتفع الحجاب الذي أسدله الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتي أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها ويأخذ في تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقي بحكم التدريج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى .

ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع ان يحيي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الاحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى اذا سحقت الاحزاب القوية وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الامن سبيلا لجمع السلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الاهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الاسافل و يعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يبق في البلاد الا آلات له يستعملها في جباية الاموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصير البلاد المصرية جميعها أقطاعا واحدا له ولأولاده على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل . وصغرت نفوس الاهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها وانقلب الوطنيُّ غريبا فى داره ، غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان — ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذل سامهم الاجنبي اياه ليصل الى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : أنه اطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم عني بالطب لاجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الاحيان عند ما يراد ايقاع الظلم بمتهم . و بالهندسة لأجل الريّ حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغلّ أقطاعه الكبير ،

هل تفكر يوما في اصلاح اللغة عربية أو تركية أو أرنؤدية ؟ هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الادب ؟ هل خطر في باله أن يجعل للاهالي رأيا في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع و يستقر العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك بل كان رجال الحكومة اما من الارنؤد أو الجراكسة أو الأرمن الموارنة أو ماأشبه هذه الاوشاب وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء وكانوا يحكمون بما يهوون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون وإنما ينفقون مرضاة الامير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة . أين البيوت المصرية التي كانت لهـا القدم السابقة في ادارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندها مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة العماد، الثابتة الاوتاد ؟!.!

أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا ؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل . ووجد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير، والسبب في ذلك ان محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم ما يلزم له من الاعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هي وأين الذين نبغوا من طلابها ؟ فان وجد أحد نابغ فهل هو من المصريين؟ عدوا إن شئتم أحياء أو أمواتاً

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والادب ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الابواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على انها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (الأفناء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش فهل هذا مما يحبب القوم في العلم ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس ؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من

ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الاصفر والموت الاحمر وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ولكن هل حبب الى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم . وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد ؟ أين هم؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم؟ لا بل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بثمرته فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التي جاءت بهم اليه .

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ أسطولاً ضخماً تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الامصار ، فهل علم المصريين حب التجند وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب وحبب اليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها ؟ لا بل علمهم الهروب منها وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين انهم يساقون الى الموت بعد ان كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك . وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها الا بالموت . هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه فهي قوة خصمه . كذلك كان يعدها كل عثماني في مصر او في غير مصر . فليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية الى رتبة البكباشي على الاقل ؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين الا أسوأ الأثر — أثر كله شر في شر لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت . . .

ظهر الأثر العظيم عند ما جاء الانكليز لاخماد ثورة عرابي . دخل الانكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر (١) على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة

(١) الدامر هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان

في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين الى مصر وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الاولى والموت الاخير وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه

لا يستحيي بعض الأحداث من ان يقول، ان محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين . أي دين كان دعامة لسلطان محمد علي ؟ دين التحصيل دين الكرباج دين من لا دين له الا ما يهواه ويريده . والا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامي الجليل؟ لا يذكرون الا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم ان الوهابية غلوا في بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وانما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني وكان معه ما كان مما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى « فائض رزنامة » لا يساوي جزأ من الالف من ايرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الازهر مالو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد لينفي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته ان هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً باسلاً ، ومستبداً ماهراً ، لكنه كان لمصر قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره متعنا الله بخيره وحمانا من شره والسلام

بلرم — صقلية

(نشر هذا الفصل في اجزاء مجلدي المنار السادس والسابع)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

قضت المقادير أن أغير خطة سفري عن طريق مرسيليا الى طريق ايطاليا وكان لي في ذلك خطان من السير أحدهما يمر ببالرم ثم يصل الى نابولي ثم تكون الاقامة في نابولي نحو أربعة أيام و يعدو المركب بنا الى ماسينا ومنها يذهب الى الاسكندرية والآخر ينتهي عند بلرم أو « باليرم » وتكون الاقامة خمسة أيام نذهب بعدها الى ماسينا كذلك وكان بودي لو ذهبت مع الخط الاول فكنت رأيت بلادا كثيرة وآثارا عظيمة تزيد في علمي كثيرا مما لم أعلم الى اليوم غير أن بعض أصحابي قال لي ان بلرم هي عاصمة صقلية ويوجد فيها من الآثار العربية مايهم العربي ان يراه وفيها داران للكتب لا تخلو كل منهما من كتب عربية قديمة ربما يستغرق الاطلاع عليها زمنا مثل الزمن الذي تقضي الضرورة بصرفه الى يوم السفر الى مسينا : ففضلت النزول الى بلرم ولا أذكر الآن شيئا مما لاقيت من الحمالين وغيرهم من مستقبلي المسافرين ولكن أعود اليه

بعد ان أخذت مكانا في نزل سنترال بشارع رومه خرجت لايصال بعض رسائل التوصية الى من أرسلت اليهم فلاقيت منهم ماسرني وكان أحدهم موصى بأن يسهل لي طريق زيارة المكتبة العمومية ودار المحفوظات الرسمية والتمكن من رؤية ما يكون فيها فوعدني المجيء في الغد لمرافقتي الى المكتبة . ثم بعد ذلك بدأت بزيارة قصر الملك ولا حاجة بي الى وصفه فان ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب اظهار البراعة في حسن الوصف وسعة العبارة . وغاية ما أقول انه قصر أو (سراي) واسع كبير البيوت باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوروبا أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية مما تنفق فيه الاموال بحساب وبغير حساب ولا شيء منها من كد الملك أو الامير وانما هي من أموال الرعية وكسب

الحفاة العراة الذين لا يجدون ما به يستترون و يشتهون لو أنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما انفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها — ما أنا بذاكر شيئاً من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر ولكن أذكر ما رأيت فيه مما يحب الشرقي أن يطلع عليه اما لعبرة واما لفكاهة. ذهب بي حارس القصر أولا الى حيث توجد كنيسة الملك ولا حاجة الى وصفها كذلك — الا لو كان الله يحب أن تزين له معابده، وتنقش لمجده مساجده، كما يحب ذلك ملوك الارض — فوجدت في الممر الموصل اليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجرا قد كتبت عليه هذه العبارة :

« خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلية أبد الله أيامها وأيد أعلامها بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة » ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة. والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير) النرمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني. أما ميله في البناء والزينة فكان الى الرسم اليوناني. ولهذا الملك آثار كثيرة في بلرم ويوجد كثير من المحررات العربية والصكوك مما كتب في أيامه. ويقال ان العرب كانوا في زمن النرمنديين ممتعين بحرية تامة في اقامة شعائر دينهم وتصرفهم في شؤونهم وان كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدتها الجميلة الى الكنائس التي رأى تجديدها في المدينة ويظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا النرمندي كان عند ما دخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب في المدينة ولم يحتقر ما وجد من آثار العلم فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية ويساعد القائمين بعملها

رأيت في خزينة الجواهر من قصر الملك صندوقا عربيا في طول نحو ثلثي ذراع وارتفاع ثلاثة أرباع الذراع صنع من نحو ثمان مئة سنة على ما يقول الحارس وهو منقش بالنقوش الذهبية من أجمل ما تراه عين الآن وقيمته عند الدولة خمس مئة ألف فرنك. ورأيت في أحد بيوت القصر بابا من الحديد مطليا بطلاء أصفر جميل

من أجمل ما يصنع من الابواب وهو من صنع أيدي العرب أيام دولتهم

رأيت بيتاً من بيوت القصر فيه صور نواب الملك فى عهد البربون بعد النرمنديين ومع كل نائب منهم كردينال كما كان للملوك كرادلة يصحبونهم ويشركونهم فى كثير من شؤون الملك . لذلك كان النائب عن الملك يصحبه كردينال يرجع اليه في أمور دينه وفي أعماله السياسية أيام كانت الاحكام المدنية والسياسية مما يدخل فيه رجال الدين كما نقول عندنا « المفتي أوشيخ الاسلام » في عهد الملوك الذين لا تسمح لهم أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون الى من يرجعون اليه من علماء الدين . غير أن المفتي وشيخ الاسلام انما يجيب عما يسئل عنه أو يؤدي ما كلف به . اما الكردينال فكان يبتدئ المشورة ويقترح المطلب ويقيم نائب الملك على المذهب ، ويكف يده عن العمل الذي لا يرضاه ، ويحمله على بسطها فيما يتوخاه ، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية فى نظام واحد لا فصل فيه بين السلطتين وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعمالهم من رجال الكثلكة على ارجاعه لانه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم وان كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم

كان مما قيده بعض أصدقائي في جريدة الامكنة التي يرغب فى رؤيتها محل يسمى بالدوم أي القبب فذهبت اليه واذا هو الكنيسة الكبرى التي تسمى كاتيدرال رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس في المدينة أوالولاية وهي من عظمة البناء وبهجة الزينة على ما يطول شرحه وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ما هو عليه حتى بابه الخشبي الجميل غاية ما في الامر انه زيدت فيه الصور والتماثيل ، وضروب أخرى من الزينة الكنيسية ويمكن للناظر ان يتفرس ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر لان رسم البناء على الطريقة العربية في عامة المساجد

زرت بعد ذلك ديرا يسمى دير سانت جواني وهو مما كان قد كتب فى جريدة الاماكن ولم أر فيه شيئا سوى أن أسفل الدير كان مسجدا فلما جاء النرمنديون حولوه الى كنيسة بناها راجار ونقل اليها هذه الاعمدة من المساجد التي خربها لما أعجبه من أعمدتها ، ثم أخذني السادن بعد ذلك الى قبة قريبة من

الكنيسة وقال لي انها على شكل عربي ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها في أماكن العبادة النصرانية سألته في ذلك فاخبرني ان الاسبانيين عند ماغلبوا على سيسيليا سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الموزاييك (زينة من أجمل ماتزين به الاماكن والادوات تصنع من قطع دقيقة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصور بها جميع ما يمكن تصويره من الرسوم والصور) وحملوا ذلك الى بلادهم وقال انهم لم يقتصروا على ذلك بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه ان يفسد شيئا من عمل من سبقه فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه :

عرفت قسيسا حلبيا معلما للعربية بمدرسة دير الكبوشيين في بلرم — وسنأتي على ذكره — فما أرشدني اليه رؤية بقية من قصر يسمى العزيزة وهو اسمه في الطليانية فذهبت معه اليه وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء بنيت على نمط ما كنا نسميه عندنا (القاعات الحرمية) حيطانها مزينة بالموزاييك من أجمل ما تحب عين أن تراه ولم يبق من القصر مكان ينظر اليه السائحون الا تلك القاعة . اما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة وقد دخل بتمامه في ملك بعض الاغنياء . والقصر من بناء الملك راجار النرمندي بناه لابنته عزيزة . وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس انها مسجد عربي فأخذنا نحوها فاذاهي في بستان كبير قد أغلق بابه وقيل لنا ان خادم البستان فيه ، وذهب ذاهب ليناديه ، وطال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف او زحوف ، جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبتها الجبة ، وكلما طردنا فوجا أقبل فوج ، أونجونا من موج علا علينا موج ، الى ان جاء رجل قيل انه هو حارس البستان وبعد قيل وقال في فتح الباب ، واحتياجه الى اذن من صاحب البستان ، رضي بالفتح ، طمعا في النفح ، فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة في فتح القبة فذللناها . القبة من قباب المشايخ التي يقيمها المسلمون على قبور الاولياء أوالامراء على خلاف ما يأمر به الدين وأظن أنها على قبر من هذه القبور وليس فيها من أثر عربي سوى شكلها هذا

كنيسة موريالي، وتساهل العرب، وأين هم اليوم

مما رأيته فى بلرم (صقلية) كنيسة موريالي وجميع سقفها والاغلب من جدارنها مغشى بالموزاييك ألوانا واشكالا من ابهى ما يبهج الناظر وأجمل ما يسرح فيه الخاطر وفي ناحية منها قبـة تعرف بمعبد الصليب فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنه الوصف . وأهم ما يذكر فى شأنها أنها مبنية في القرن السادس من التاريخ المسيحي فيكون لها نحو الف وثلاث مئة سنة والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد لم يجرأ السوس على قرض شيء منها ببركة العناية والاهتمام بالتنظيف ،وأما ما يقول به بعض الحذاق في معرفة طبائع هذه الهوام الدقيقة من انها تعرف الصليب وماخصص له من الادوات وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التي صورت في تلك الاخشاب وانها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية فلا يباح لهـا قرض الخشب المسيحي، ثم ان اعتقادها بحرمة القرض، حملها على العمل فخالفت شهوة الاكل قيـاما بالفرض ، ؛ فلا أظنه في غاية الصحة بل ولافي أولها كذلك . ويقال ان الكنيسـة من بنـاء الملك كيليولمو الثاني وقبره فيها صندوق من حجر فيه جثته

ومن ذلك نعرف ان العرب رحمهـم الله لم يمسوا هـذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم وامتداد ملكهم فى سيسيليا ، وتلمح من هـذا أن العرب ــ وان فسق كثير منهم عن أمر ربهم ــ فروح الدين الاسلامي كانت تنوس في كثير من أعمالهم ، نهى الدين عن هدم الكنائس اذا لم تكن مربضاً لشر يخشى خطره على الدولة فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم ولم يصنعوا بها ما صنع غيرهم ممن جاء بعدهم ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويخرب معابدهم فحيا الله أيامهم . لاجرم ان الاسلام عربي وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده بعد فهم حقيقته هم العرب فأين هم ؟ يمكن ان يقول قائل : أنهم في جزيرة العرب أوفي الشام أوفي العراق أوفي مصر أوفي تونس والجزائر أوفي المغرب الاقصى أفلم يكفك كل هذا العدد، في أكثر من الف بلد، حتى تقول أين هم ؟ ولكني أقول له انمـا يكون القوم أولئك القوم اذا بقيت لهم أخلاقهم وحيـاة

أرواحهم فان كان لم يبق الا الأشباح تشبه أشباحهم فليسوا بهم فلي الحق ان أقول عن العرب فأين هم ؟

﴿ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم ﴾

(وفيه بحث الدعوة الى الدين واحياء اللغة)

للكبوشيين دير في بلرم فيه معبد ومدرسة ومقبرتان . أما المعبد فهو المعبد لا يحتاج الى الكلام عليه ولا يختلف عن غيره من المعابد واما المدرسة فهي لتعليم اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج اليها المرسلون الذين يكلفون بالدعوة الى الدين المسيحي والتبشير بالانجيل ونشر ما تقتضي الغيرة الدينية نشره في الاقطار النائية كبلاد العرب والترك والفرس وغيرها . ومما يعلم فيها اللغة العربية وأستاذها الراهب جبرائيل ماريا الكبوشي وهو من حلب وتعلم العربية في بيروت واخبرني أن من أساتذته صديقنا الشيخ سعيد الشرتوني صاحب (أقرب الموارد) في اللغة . لاقيت ذلك الراهب وحادثته في شأنه والزمن الذي قضاه في أيطاليا والداعي الى الاقامة فيها فتبين لي انه جاء اليها ليخدم دينه هذه الخدمة — تعليم اللغة العربية لنشر الدين في بلاد العرب مثلا . وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الامكان فحمدت منه ذلك . كأنه اعتقد انه انما تعلم العربية لينتفع بها في منطقه وان كان في بلاد ايطاليا وعمل بما اعتقد وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالحلبية كما يكلمني البيروتي بالبيروتية والتونسي بالتونسية ولا يبالي أ كنت أفهم أم لا أفهم كما لا يبالي الكثير ممن ذكرناهم .

وفي هذه المدرسة تعلم العلوم اللاهوتية كذلك للغاية التي ذكرناها ولا حاجة الى ذكر ما فيها من العلوم فان ما تحتاج اليه للبراعة في نشر الدين والدعوة اليه معروف عند من يعرف ما هو الدين و يتصور معنى الدعوة اليه . أما من لا يعرف ذلك فلا نكتب له حرفا واحداً من هذا الكلام فان قال قائل : فلمن تكتب ما تكتب ؟ قلت ان فقد الفاهم فانني احفظه لنفسي والسلام . هل خطر ببالنا — وكل منا يدعي الغيرة على دينه ويرى انه الحق الذي يجب على الناس كافة أن يخلصوا أرواحهم باعتقاده والاخذ باصوله — أن ننشيء فرعا من فروع التعليم لنشر الدين

وتقويم أصوله بين أهله فضلا عن نشره بين من ليسوا من أهله ؟ أريد من أهله أولئك الذين لبسوا رداءه واعترفوا ان الدين دينهم سواء عرفوه حق معرفته وهم في غنى عن الدعوة اليه أوجهلوه وانحرفوا عن طريقه وهم أحوج الناس الى الارشاد وأشدهم افتقارا الى من يحول اليه نظرهم ويعطف عليه اختيارهم ؟ هل مر ببالنا ان نهيئ لهذا الفرع من التعليم ما يلزم له من فنون وأساتذة لتلك الفنون كما يهيئ هؤلاء ما يهيئون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم الى دينهم ؟ ما كان أحوجنا الى انشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف بارشاد من يسيء الى الدين باسم الدين ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه الى الدين ؟

ألا يحق لنا أن نطالب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية الى أسمى المنازل ان يفكروا في هذا الامر ويقوموا بما يجب عليهم منه ان لم يكن لمصلحة الدين فلمصلحة أنفسهم فان في تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم وفي تبصير العامة بشؤون الدين تمكينا لحرمتهم في نفوس الدهماء وتسجيلا لسيادتهم عليها؟ أليس لنا على ضعفنا أن نذكرهم بالامر الآلهي القارع للقلوب المزعج للهمم في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخ فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب ولا يخشوا ان يكون التصام عنه بمنزلة الخروج من مدلول كاف الخطاب ومشعرا بأنهم ليسوا من أولئك الذين خوطبوا به ؟ ؟ لنا بل علينا أن نطالبهم بذلك وأن نزيد عليه مطالبتهم بالنظر في انشاء فرع لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الامم ان كانوا يعتقدون ان دينهم هو الحق فان السكوت عن الدعوة الى الحق رضاء بالباطل . أولئك الملوك والامراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم واخضاع رعاياهم لسلطانهم مثل فضل الدين، لم لا يقتطعون شيأ من مالهم وقطعا من زمانهم ينفقونها في الاشتغال باحياء روح الدين ، ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها أو جلها لا يعرفه الدين ، ؟ أفلا يجب عليهم ان يسعوا في زيادة تمكين قوتهم ، وتعزيز سلطتهم ، ؟ اللهم الا اذا ظن هؤلاء وأولئك ان الدين حيوان يمشي على رجلين يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة اليه ، ويغدو الى مرعاه من النفوس متى

اشتد الجوع عليه ، فاذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات فانما اثمه على نفسه لا عليهم ،

ربما يقول قائل : ولم تستبعد هذا الظن منهم فتعبر في جانبه بكلمة « اللهم » وهم قد يزعمون انهم من أهل السنة وربما طلبوا الدخول في اثواب حماة السنة بهذا الظن الذي تستبعده وما عليهم في ذلك الا ان يقولوا نحن سنيون لا نقول باستحالة شيء وفخرنا أن نجوز المحال ونذهب الى جواز تجسيم المعاني ونعتقد ان الاعمال والعقائد وهي معان نفسية وحركات بدنية يمكن ان تنقلب اشخاصا حيوانات تمشي، وأناسي تتكلم، أليست هذه العقيدة هي مطيتنا الى الجنة ؟ فليكن الدين رجلا عاقلا أوميكروبا متنقلا مفيدا لا قاتلا ، يفعل لنفسه ما كان فاعلا ، ويدعنا نتمتع بالنسبة اليه، وان لم يكن لنا عطف عليه :فنجيب القائل بانهم مغرورون وان السنة بريئة مما يزعمون، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون

خرج بنا الكلام عما نحن بصدده . هذا الراهب استاذ العربية في الدير وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية من الصرف والنحو للايطاليين ـ يضع القاعدة العربية ثم يفسرها باللغة الايطالية بأسلوب يسهل معه تناولها بقدر الامكان وقد رأيت من تلامذة الراهب من يحسن قراءة العربية وان كان لا يحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق وما أحوج كل عربي الى تعلم ما يحتاج اليه من لغته : لكن ما اشق العمل وما أوعر الطريق وما أكثر العقبات في طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه !! يفنى عمره وهو لا يزال يضرب برجليه في أول الطريق أفلا نشعر بالحاجة الى تقريب المطلب وتيسير المذهب في تحصيل ماتدعو اليه الحاجة من لغتنا حتى نستطيع فهم ما أودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد في أنفسنا ونحب ان نسوقه الى بني لغتنا على وجه صحيح ؟ وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟

أما المقبرتان فاحداهما في بناء متسع الارجاء تحت الارض ينزل اليه بسلم وفيه نوافذ يأتي اليه منها الضياء وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتى فمن الجثث

ماهو في صناديق مقفلة من الخشب أو الحجر أو البرنز ومن ذلك جثة موسيو كرسبي رئيس الوزارة الايطاليـة السابق فانه في ذلك المحل في صـندوق مغلق ومنها ما وضع في صناديق من البلور بحيث تظهر الجثة للرائي من داخل الصندوق على الهيأة التي كانت عليها عند الموت . وقد يوجد في الصـندوق الواحد عدة أشخاص بادية هيا كلهم، ظاهرة وجوههم، على أتم مايحزن له قلب وتعتبر به نفس وهذان القسمان من الاموات انما ينالون حظوة الاستيداع في هذا المكان اذا كانوا من الاغنياء الذين يتمكنون ان يدفعوا الى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة . وهناك قسم آخر وهو جثث محنطة قائمة في جوانب المكان عليها ثيابها في الحالة التي كانت عليها عند موتها وهي جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون ان يودعوا في هذا المكان ليسعدوا ببركته ولهم هيئات تنقبض لها النفس و يضيق بها الصدر ولاحاجة بنا الى تعداد ذلك و يكفي القاريء ان يتصور ميتا في أشد ماتكره النفس مما يصوره الموت في البدن

واما المقبرة الاخرى فهي كسائر المقابر على ظهر الارض وان كان الاموات في بطنها وهي من أجمل الاماكن وأنظفها والقبور فيها نظيفة البناء بهجة الظاهر . وقد غرس في المقبرة أشجار السرو بنظام بديع وقيل لنا ان الذين يدفنون فيها هم الامراء والاغنياء اما الفقراء فلهم مقبرة تليق بفقرهم في مكان آخر . وكأنه قضي عليهم بأن لا يساووا الاغنياء حتى في الموت مع أن الموت قـد سوى بين الاغنياء و بين أدنى طبقة من الاحياء بل جعلهم طعمة لا قذر الديدان ، كما جعل ذلك حظ أمثالهم من سائر الحيوان ،

قيل ان الحكومة بعد ان استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الاولى على تلك الطريقة وأمرت أن لا يدفن الميت الا في المقابر المعتادة كهذه المقبرة الثانية ونحوها وانما حفظت الحق في الاستيداع في المعابد للبابا والملك دون سائر الناس فهما وحدهما توضع جثتهما في صندوق وتودع في الكنيسة وقـد أحسنت الحـكومة في ذلك فان من كان محجبا بعظمته عن الناس في حياته ،يجب ان يكون عبرة لعامتهم بعد مماته

﴿ المكتبة العمومية ، ودار المحفوظات ﴾

أما المكتبة العمومية فقدجاءني من أوصي بصحبتي —و يثقل عليّ ذكر اسمه لطوله — فذهبت معه الى تلك المكتبة وهو أخو مديرها وله احترام في نفوس خدمتها وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية فسألته أن يطلب لي فهرس الكتب العربية إن كانت فطلب ذلك فبدت حركة شديدة في الخدمة وكثر الداخل والخارج ، والذاهب والآئب ، ولغطت الألسن،وارتفعت الأيدي بالإشارات، وطال الزمن نحو ربع ساعة ، كل ذلك وأنا لا أفهم أسباب هذا الاضطراب . وآخر الامر جيء إلي بدفتر صغير جداً يحتوي على نحو خمسين صفحة وكانت تلك الضوضاء البحث عنه وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذي يعرف مقره والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته . ولم يرعني عند تصفحه الا كثرة مافيه من كتب الأدعية والصلوات كأنه فهرس خزانة الشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية ، أو مكتبة السادات البكرية ، قدس الله أرواحهم جميعاً وانما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه وكتاباً في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الا أنه لا يمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة لان خطوطاً قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الاصلية وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه فعجبت لذلك وسألت عن السبب فقيل لي ان قسيساً من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة و يطلب الكتاب بحجة انه يريد قراءته وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة ما فيه وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف وزور كتباً كثيرة أفسدها . وقد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين في رواية ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخرى . أما القطعة من شرح ابن رشد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم

والكتاب الفرد الكامل الذى رأيته في المكتبة هو كتاب النخل لابي حاتم السجستاني وهو صغير في نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح .

قرأت منه عدة صفحات ونقلت منــه عدة فقرات في تفسير قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » الخ . ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله : ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل وليس في بلاد الشرك منه شيء : فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعــده عن صحة الحـكم في طبائع العمران وان كان من أفضل أهل السير وأجـل علماء اللغة . والـكتاب مفيـد في اللغة وهو بخط مشرقي تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٤ وقد بلغنا انه طبـع في المانيا وكان الاجدر به أن يطبـع في مصر ولعل ذلك يكون ان شاء الله متى ساوى المصريون أهل ألمانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها .

***

ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدفترخانة) عندنا الا أنها لم تبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فعل بالدفترخانة المصرية بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون لا يفرط في ورقة واحـــدة منها . وقد طبعت الدولة مافي الاوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغـيره من الالسن الشرقية حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الاوراق ويتيسر له بعد ذلك قراءتها في أصولها خصوصاً اذا كان غير متعود على قراءة الخطوط العربية المختلفة فاذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الـكبرى تصنع مثل ذلك في الخطوط المكتوبة على أوراق البردي وغيرها مما كتب بالـكوفية أو النسخ القديم أو ماعفي بعضه القــدم لتتم فائدة حفظ هذه الاوراق والانتفاع بها ان شاء الله

من العادة في المـكاتب وديار حفظ الاوراق ان يجعل لها دفاتر يكتب فيها الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة وهي عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المـكتبة العمومية في بلرم فلم يحفلوا بهذه العادة واكتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع امضائي عليها كما

فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا لكن عمال دار محفوظات الدولة راموا ان تجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدفتر فلم يجدوه فجدوا في البحث والتنقيب وأخذت الاصوات تتقاذف ، والاشارات تنمو وتتزايد ، على نحو ما فعل عمال المكتبة العمومية ،في اكتشاف فهرس الكتب العربية ،وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر فحبست مدة حتى يسر الله ووجد الدفتر ووضعت إمضائي فيه . وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب فى العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين: إما قلة الزائرين لهذه الاماكن العلمية من الاجانب وطلاب النظر فى الآثار العربية وقلة الدارسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها واما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار وقد يتيسر لك الجمع بين الامرين ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ماوقع في مكتبتي بلرم

(حاجة السائح الى معرفة اللغات وأيها أنفع)

ومن الامور التي لا أجد بداً من نقدها أن موظفي هاته المكاتب لا يعرفون من اللغات الا الايطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه ان يؤدي بها مراده وكان رفيقي يترجم بيني و بينهم عند ما كان معي في المكتبة العمومية لكني بعد انصرافه وقعت في وحشة يزيدها لزم الصمت وعدم الفائدة في الكلام وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ولا يوجد السبيل اليه الا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك ان الاشارة انما تصلح للافادة والاستفادة من الاخرس اذا كنت والدة له على ما في المثل « أم الاخرس أعرف بلغتـه » فلا بد من التعود على ضرب من الاشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام . ولهذا لم يمكني ان أستفيد شيئاً فيما ينبغي ان يصنع لاستنساخ شيء من الكتب العربية كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلا . وبعد طول الكلام بفرنسية لا يفهمونها وإيطالية لا أفهمها انصرفت وأنا من الجهل على مثل ما دخلت به لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقاة من أمكنه فهم ما أقول وأمكنني فهم ما يقول من أهل المدينة

يناسب في هذا المحل ذكر ما يقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية يسهل عليه السفر في جميع بلاد أوربا و يتيسر له الفهم والافهام لانها لغة عامة لاتجد نزلا ولا مكانا يرغب في زيارته الا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد. وقد رأيت ان هذا القول اضمحلت صحته في مكاتب بلرم ولم ألق مايقوي صحته في مكتبة مسينا والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الاجنبية ولا ينبغي ان تخلو منهم لمسيس الحاجة اليهم . وقد بت ليلة في لوندرا ونزلت في أكبر نزل فيها يسمى (كيرافنور اوتيل) فيه مايزيد على ست مئة بيت للنوم ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية الا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام . أما خدمة أماكن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحدة والحاجة اليهم أشد فان المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم أو بهن . اذا طلبت ماء أو لبنا أو قهوة أو تهيئة حمام أو نقل متاع من مكان الى مكان أو تصحيح منكسر أو كسر صحيح لم تجد من تطالبه الا أولئك الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية ، غير أنهم لتعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرس صاروا أو صرن كوالدة الاخرس يسهل عليهم أو عليهن فهم الاشارات بدون إتعاب شديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالاشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية) لكن لا يخفي عليك ان من المطالب مالا تعبر عنه الاشارة فماذا تصنع اذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية وعرض لك مثل هذا الطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الانكليزية ؟ لا يسعك الا الاقرار بأن ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لا تصلح ان تكون مقدمة من مقدمات البرهان المعدودة في فن المنطق

أزيدك شيئا في هذا وهو انك اذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم يجدونك طعمة أو هبة من الله سيقت اليهم فهم يكلفونك من النفقات ما يشاؤن ولا يجدون في أنفسهم دانقا من الرأفة بك، أو الرحمة لغربتك، ولايمكنك ان تبحث مع ناهبك في موضوع نهبك ، لأنه لا يفهم ما تقول ، وأنت لا تفهم مايقول ، فينتهي أمرك بدفع مارقم لك رغم أنفك ، وغاية ما يمكنك فعله ان

تنفس الصعداء وتهز رأسك وتلوي عنقك علامة على غضبك ولكن هذا كله لا يوفر عليك ما نقصه منك الجهل باللسان

وفي ظني ان من أراد ان يسافر الى بلد لا يعرف لسانه فأولى له ان يتعلم من لسان ذلك البلد ما يكفيه للتعامل ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك وأجرة الاستاذ المعلم لا تصل الى نصف ما يخسره ببركة الجهل باللسان

أستغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر الى صقلية (سيسيليا) من بلاد ايطاليا فعليه ان يجدّ لمعرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم والا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه أوما يؤخذ منه أجرة على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية يجتمع عليه الحمالون والمرشدون المضلون ويتجاذبون متاعه وثيابه كل يأخذ قطعة فان كان لا يعرف اللسان ، كان ما كان مما لا يسعه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع ، أو أصابه من ذلك مالم يفد فيه الدفاع ، وجد أمامه جيشاً من الطالبين كل واحد يطالبه بقيمة عمله ، وما هو ذلك العمل ؟ هو حمل قطعة من المتاع وكلمة قيلت غير مفهومة في هدايته الى المحل الذي وصل اليه ، مع انه وصل برجليه ، ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس انهم يجاذبونك أعضاءك حتى ان جميع أجزائك لفي خطر من مجاذبتهم اذا لم تكن حريصاً عليها . فاذا كنت في حاجة الى السفر الى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بجمال المناظر خصوصاً أيام الربيع فعليك ان تصرف سنتين في تعلم اللغة الايطالية وما تنفقه في التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت ان الذي يعرف الانكليزية أسعد حظاً في فرنسا ممن يعرف الفرنسية في انكلترا فانك لا تجد نزلا في البلاد الفرنسية الا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي ان أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد الانكليز . أما الانكليز والامريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها ، ويندهشون بالذهب صغارها ورجالها ، فاضطر الفرنسي الى ترويج

الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين ، وليستكثر من الناثرين ،

ويل لك اذا أقمت يوما أو يومين في نزل بسينا من أكبر ما يقصده السائحون . رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها ان يفهمك أن أجرة محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفر الراحة وان كان لا يعمل من ذلك بما فهم منك وانما العمل على ما فهمت أنت منه

تنام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليك نصف ساعة الا وقد أطار نومك صياح وجلبة ودوي حركات تذهب وتجيء خارج منامك فيضيق صدرك وتطلب الفرج ولا تجده فتفتح الباب وتقول كلاما كثيرا يفهم منه انك في شدة الضيق مما تسمع ولا سبيل الى النوم فيقال لك ما تفهم منه ان هؤلاء مسافرون جاؤا الى المحل من جديد وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلا آخر للنوم ويأخذون فراشك من محلك الأول الى محلك الثاني فتحمد الله على الهدو وإقبال الراحة ثم تلقي جسمك على الفراش ويقبل النوم على عينيك بثقله ثم لا يمضي نصف ساعة الا وقد أخذت يداك تحك وجهك وعنقك واليسرى تحك اليمنى واليمنى تحك اليسرى ولا يزال الحك يزيد والمحكوك يتألم حتى تتنبه أعصاب الدماغ والعين ويصبح ذلك النوم الثقيل ، أخف من نفس الجميل ، فيطير عنك الى حيث تبحث عنه ولا تجده ولا يبقى لك الا الحك والحكة : وما هذا كله ؟ هذا هو البق الذي تروعك جمرته ، وتقلقك عضته بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته ، فتطلب الخلاص وماذا تصنع ، مضت مدة من الليل نام فيها الصائحون فتعود الى محلك الاول وقد نام الخادم فتعود الى غير فراش أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فاذا أصبحت حوسبت على شمعتين في مكانين لم تصرف منهما شيئا وعلى شيئين آخرين ، وكدت تحاسب على اجرة مخدعين ،

أظرف ما وقع لي مع خادم هذا النزل اطلبت منه ماء باردا فلم يفهم فاشرت الى فمي ومثلت بيدي صورة اناء الماء فاذا هو يفتح الباب وينظر الي كأنه فهم اني أشرت بيدي الى أن الباب مغلق وبفمي الى فتحه لانه فتحة من فتحات

بدني ، و بعد تعب أعضائي من الاشارة ولساني من التكلم بالفرنسية قمت وبحثت عن كوب وأشرت به اليه ففهم اني اريد ماء لكن لم يفهم أني أريده باردا وما اشد التعب في تصوير الجليد له ! فرغ ماء الغسل فطلبت منه تجديده فرفع في وجهي كرسيا طويلا اشتريته لاجلس عليه في المركب ففزعت لذلك وظننت انه يريد رميي به ظنا منه اني شتمته غير ان ذلك سرّي عني عند مارأيته ينظر اليّ نظر الاحترام ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي ، فاستلقيت من الضحك وذهبت الى موضع الغسل وأشرت اليه ان يجدد الماء ففعل ، أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر الى سيسيليا وان لاتصدق ما يقال لك من ان معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد اوروبا ؟

﴿ مسينا ومقبرتها ﴾

نسيت ان أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة وانك اذا قلت لصقلي: اني ذاهب الى مسينا؛ يقول لك في الحال: لابد ان ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والاعيان مبنية على أجمل نظام وأقربه الى السذاجة وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم . وطريقة الدفن في تلك الاماكن تختلف فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الارض و بعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا تمكن سرقته على ظهر الارض ، و بعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر العريضة وهكذا . والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى انه شيء من كبار الطرفاء لكنها نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع النبات لارادتها فتوجهه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيها على غاية مايرام من النظافة والانتظام ، وهي انظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الاحياء (مسينا) ثم أنها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمل ماتنظر عيناك من اللألاء والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، و بدائع الاعمال الصناعية ،

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلمي في وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها - أعوذ بالله - يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة تقصر وتطول وعلى رأس كل قبر صليب أسود يخيل للرائي من بعيد أنها أجنحة الغربان الجاثمة على بقايا الجثمان . لاازال في وصف المقبرة كما لا يزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة ، عن الادب والكياسة

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر، بديعة المداخل ، بعيدة المخارج ، الداخل فيها أكثر من الخارج منها ،قد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الاشجار لانه في خضرة دائمة وحياة مستمرة كأن ارواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الاجساد فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والخريف والربيع، مدينة زينها الاحياء في حياتهم،ليعدوها لاقامتهم - فيما يزعمون - بعد مماتهم ، وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هيأ تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ليطيب له المقام،ولا يقلق به المكان،لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقرا لجثتك وأنت لا تدري هل تشعر هناك بما زينت، أو تؤخذ عنه اذا مت ،فهل زينت دارا لروحك بالطيبات ،كما زينت دار الجثتك بالزهر والنبات ؟ أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة اليها الا ما يخيفك من الموت وينغصك فيه غمر من الغبار وتلول من التراب تذكر بها انك من التراب والى التراب

اذا بنيت فيها مسكنا فلست تبنيه لنفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الاموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الايام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض أيام من بقية الشهور تأكل وتشرب وتنام ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ولا تستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون ، وتضحك وهم ربما يبكون ، وتلعب وهم لا يلعبون ، تلهو بالقيل والقال ، وملاعبة النساء والاطفال ، وربما أقمت في المقبرة ما تسميه بالموالد

وجلبت بذلك اليها من المغنين ،والمطر بين والعازفين ، ونصبت فيها الخيام ، وصنعت من لذيذ الطعام ، ماتدعوالى تناوله العلماء الاعلام ، والاتقياء الكرام، فيلبوا دعوتك زرافات وحدانا ، مشاة وركبانا ، ويخوضون في غمار اللاهين الى ان يصلوا الى حيث نصبت خيامك ،وهيأت طعامك، على ظهور الاموات، وبجوار تلك الرفات ، وتبيت ليلتك تلهو وتلعب ، وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك ، وكره جوارك ، وفرمن بين يديك ، مشمئزا مما يري لديك، اما مقبرة مسينا فلا ترى فيها آكلا ولا شار با وانما ترى الزائرين فى سكينة ووقار لا يتكلون الا همسا، تماشيهم ولا تكاد تسمع لهم جرسا (١)

﴿ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم ﴾

أهل مسينا من اهالي سيسيليا وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحو مئتي سنة وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين اليه كما كان في العراق والشام والاندلس. وقد ترك العرب آثارا في البلاد منها ماتقدم ذكره وهو ممالا يذكر ومنها كلمات في لسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية وكالقبة والطلعة والشير ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة الى أصلها والى البلاد التي حملت منها . ولا أظن ان الصياح والصخب الذي اختص به اهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله فان اصوات السيسيليين أشد قرعا ، وآلم في الاذن وقعا ، واني لا أشك في ان حناجرهم أشد تمرنا على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس (٢) أو سكان عرب يسار أما العرب فكانوا يصيحون فى الحرب والجلاد، ويسكتون عند الرجوع الى البلاد ،ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك في الحرب كما يفعل بحرية يافا وبيروت من ثغور سوريا أما الاهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

---

(١) الجرس بفتح الجيم وسكون السين هو الصوت الخفي .

(٢) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

ويل لك اذا عرفت بأنك غريب فانه يتبعك السائلون الملحون، والمكندون المجدون، ويلزمونك حتى تعطي شيئاً من النقد ولا فرق في حالك بين ان تجلس في قهوة أو تكون في زيارة معبد أوفى تفقد مكتبة أو دار آثار تجد من ذلك مالا تجده عند المتبولي ولا عندضريح الاستاذ البيومي (رضي الله عنه) ثم تجد الناس في الساحات وقوفا أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون وانما يتقرب الى الغرباء من يظن القدرة في نفسه على أن يفترس منهم فريسة لكن يمكنك ان كان عندك صبر أيوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصريين أو السوريين ان لا تعطي شيئاً أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئاً من الكسل في حكاية ما وقع في فهرس الكتب العربية في المكتبة العمومية ودفتر الاسماء في دار المحفوظات وأزيدك انك اذا ذهبت عند شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام كما يقول بعض أكابرنا (١) فان التشديد يجعل الكلمة موضعا للملح الذي يوضع على الطعام ويتناول أحيانا للاسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة لخفة مراكبها في السفر على البحر المالح وأظن اللفظ يرجع أيضاً الى رفيقه فان في البحر ملحاً أيضاً لكنه ليس يكثر كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلا تجد العامل يحرك يده ببطء كأن بعض أجزائه ينازع بعضاً فاذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه القتال أسرع بمد يده اليك لطلب المبلغ فاذا دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك كادت يده تشل بجانبه وأنت تنظر اليه وتنتظر أن تتناول مالك وتنصرف وهو ينظر اليك كأنه يتمنى أن تنسى مالك عنده أو تمل الانتظار ويأخذك الوقت فتتركه له وهذا ضرب من الكسل في أداء الحق ونوع من البطء في العمل لا تجده حتى في مصر حرسها الله فان العمال عندنا حتى في زمن الصيف لا يسمحون لاعضائهم ان تتعود هذه العادة الرديئة

(١) هو أحد أعضاء مجلس شورى القوانين كان يتكلم في المجلس عن حرية الملاحة ويضبطها هكذا

﴿ رثاثة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين ﴾

اما رثاثة الملبس عند الفقراء ودنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشؤون فذلك مما تجدله مثالا في كثير من الاحياء عندنا . واني أقص عليك فكاهتين وقعتا في النزل الكبير الذي نزلت فيه - رفع الله عماده — كنت أطالع في جريدة خطابا ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس لمناسبة رفع تمثال للكاتب المؤرخ الفرنسي رنان القاه في بلدة رنان التي ولد فيها وكنت مستغرقا فيما يقول الخطيب عن القسيسين وتعاليمهم وعن الاحرار اطال الله في ألسنتهم وما يرونه في فلسفتهم واذا بخادم النزل دخل علي وتحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريبا وقد علا الوسخ وجه الصبي وهجم القذر على عينيه يريد أ كلهما وانفه وفمه يسيلان ذاك بما تعرف وهذا بما لا يخفى عليك وبيده عنقود عنب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شدقيه اذا رأيته امكنك ان تحلف بشيء من الطلاق أو العتاق ان أمكن ان هذا من ذرية (الشيخ الدعكي) رحمه الله من أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره اللطيف واذا كنت واحداً من بعض الاعيان أو بعض من يزج بنفسه في العلماء الذين نعهدهم أقسمت في الحال انه ولي من الاولياء مجذوب من المجاذيب . فاذا ذكرك مذكر أنه ايطالي قلت لا يبعد على الله ان يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها وورزقه من ذلك في صغره مالم ينله الدعكي في كبره والا فكيف تسيل سعابيبه الى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على ان تذهب الى المحمل الذي تعرفه وتستخرج من بحر الانساب ما يصل نسبه بمن لا يصح لاحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بعيشك الى هذا الطباق والتقابل بين ما كنت مستغرقا فيه وبين ما فاجأني من هذا المنظر الكريه هل يمكنك ان تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة دفعت فرنكا واحدا رميته على الارض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الارز وكر راجعا لا يبالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان أتبعه لاخذ الفرنك منه . لا تظن أني أبالغ في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

اما الفكاهة الثانية فقد كنت على مائدة الطعام في محل نومي من ذلك النزل لقلة السياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج الى الملح تنبهت الى الملاحة (هذه المرة بتشديد اللام لان فيها ملحاً) كما سترى . نظرت الى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر من نزغات الشيطان ، في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات ، في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحة وأنشأت أنكت ما فيها من النقط السوداء نكتة نكتة وأصعد نظري في وجه الخادم وأقطب وأظهر التقزز ولا زلت كذلك حتى فهم ان هذا شيء من الوسخ لا أستطيع تناوله فعند ذلك تناول مني الملاحة بغاية الكسل ثم ذهب وأطال الغيبة وبعد ما كدت أغضب مع سعة خلقي في السفر جاء بملاحة أخرى أوسع من الأولى وأطهر منها ملحاً فكأنه يفهم ان الوساخة مما لا يليق لكن لا يتم له هذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر ان النظافة خير منها وان الوسخ شيء تتقزز منه النفس ، وينفر منه الحس ،

اما مثال هذه الواقعة الثانية فمما يكثر في خدمنا بل في بعض سادتنا رفه الله حياتهم فانهم ينظرون بأعينهم الى الخبيث والخبائث ور بما حكوا فيه بوصفه لكنهم لا ينزهون المكان عنه بل ربما لا ينزهون أنفسهم عن التلوث به الا اذا أمرهم بذلك آمر فعند ذلك يمتثلون الامر بغيرة المختار ، وعزيمة الجبار ، ثم يحدثك أحدهم بحسن ما يصنع مما أمر به كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الامر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به وقبحه هو النهي عنه وانه لا حسن ولا قبح للشيء في ذاته فاني على يقين أنهم لا يعنون به ما يجده أولئك الآلات في أنفسهم . وما عليك الا أن تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه أو نفيه فاني الآن لا أكتب كتاباً في علم الكلام ، ولا أكتب أسطري هذه للافاضل من أهل الفن فانهم أعلى من ان يستفيدوا من قراءة أمثال هذه القصص أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهاليهم بلزومهم وسبينا معاً وما ذلك على الله بعزيز

الذي يخطر ببالي من أسباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الامم التي طال فيها زمن الاستبداد وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع مايطرأ على تلك الارادة الواحـدة من الاخلال وفساد المزاج فتأمر بالشيء اليوم لانه من هواها ، وتنهى عنه غدا لانه لم يبق من مشتهاها ، وأمرها واجب الاطاعة ، وفى مخالفته إضاعة أي اضاعة ، فتتعود الانفس على تعاطي الاعمـال لا لأنها مما تختاره ، بل لأنها مما تومر به ، ويخفى عليها وجه الحسن والقبح لأن التعود على العمل مهما كان قبيحاً يزينه للنفس أو يسهل عليها مقارفته . وسهولة المقارفة انما تنشأ عن عـدم الاحساس برائحة القبح ولو بقي نتنه في شامة النفس لعافته ولما أمكنها تعاطيه وكذلك يخفى وجه الحسن في الشيء متى خفي وجه القبح فى ضـده كما لايخفى عليك ان كنت من المدققين خصوصا فى عـلم أصول الفقه الحنفي وقرأت ما كتبه العلامة الغزي والمحقق الحفيد وغيرهما على التلويح للعلامة الثاني سعد الدين التفتازاني حاشية التوضيح على مختصر البزدوي . اذا سألتني عن العلامة الاول فى مقابلة العلامة الثاني فاني لاأتذكره الآن وان صدق ظني يكون هو عبدالقاهر الجرجاني ولكن الافضل لك أن تسأل شخصاً أخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلمين ، وتحديد الفرق بين العلامتين — وربما قال لك ان الاول هو القطب الشيرازي لان سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلاسته تمنعهم من جعله العلامة الاول — وان شئت ان لاتشغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الافضل ويكون أفعل التفضيل الاول على غير بابه والسلام . وانما المهم فيما نحن بصدده ان الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة ، يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ وتعتني بتقديم النظيف الى الضيف من أول الامر ، بدون احتياج الى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الاملاح كالنحو ملح العلم والعلماء ملح العالم وهكذا كل ما يحتاج اليه في اصلاح الاغذية بدنية كانت أو روحية دنيوية كانت أو دينية . اما اذا كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

دور الآثار وبساتين النبات

لا تبخس أهل سيسليا (صقلية) حقهم فانهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها وأظنهم عرفوا ذلك من أخوانهم أهل شمالي ايطاليا وبقية الاوربيين وهي المحافظة على الآثار القديمة والجديدة أما القديمة فتحفظ بذواتها وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها . شوا ملعبا في بلرم فصنعوا له مثالا من الخشب ووضعوه في دار الآثار . مدينة بلرم لها مثال مجسم رسمت فيه البساتين والجبال والكنائس مجسمة مصغرة بألوانها الطبيعية وألوان الارض نفسها وذلك المثال في دار الا ثار . حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمي صقلية وهو زي يشبه الأزياء الاوربية مع ساتر للوجه يدل على أن ستر الوجه كان عاماً حتى في صقلية أيضاً وان كان ذلك قد يغضب قاسم بيك أمين فانه يجد له اضداداً في مسلمي أوربا فضلا عن مسلمي آسيا وأفريقيا

يحفظ القوم في متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ولا يدخرون جهدا في حفظ ذلك حتى اذا وجدت اسم شيء في كتاب تاريخ مثلا أو عرض لك اسم في علم من العلوم كان يدل على معنى في الزمن السابق أمكنك أن تعرف المدلول بالعيان والمشاهدة وتتحقق صحة الوصف والتعريف فما استعمله الاقدمون من آلات وأدوات وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك تجد شيئاً منه في متحف من المتاحف أو في قصر من القصور أو في كنيسة من الكنائس أو في داهية من الدواهي التي هناك . وهذا مما يفيد في تحقيق المعاني التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها إلا من يسمع اسم اللأمة والدلاص والدرع والخوذة والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الالفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعها في القاموس أو غيره من كتب المعجمات وبعد ذلك لا تستقر في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الالفاظ وقد يتخيل صورة لا مناسبة بينها وبين الحقيقة وهو جهل باللغة فاضح وكثير منا يأكلون اللوز والجوز ويطقون باسمه في البيت وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منه وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميزون بينها وبين شجرة الجميز أو الفلفل أما الجلعة فنندم

في بساتين النبات جميع هذه الانواع من الاشجار، ومالا تناسبه درجة الحرارة في الهواء يحدثون له جواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش في جو مثل جوه . ولكل من يريد معرفة شيء ان يذهب ويعرفه بعينه ،ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم ويتيسر للحاذق ان يعرف هذه الاشياء بصورها المرسومة في تلك الكتب أما اذا قال لك صاحب القاموس: الجوزشجرم: أي معروف فماذا تستفيد من هذا وأنت في مصر وليس في قرب الازهر شيء من شجرم الجوز بل ولا في الازبكية نفسها فكيف يصير هذا عندك معروفا وكيف يمكنك ان تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أوشاعراً أوطبيباً أوعالماً أوأديبا

الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ويوجد في دار الآثار عند الامم الكبرى مالا يوجد عند الامم الصغرى كالصقليين مثلا، يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب حتى ان القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلا ربما تساوي مئين من الآلاف في بعض المتاحف ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق وانما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهذه النقوش وعد ما أتقن منها من أفضل ماترك المتقدم للمتأخر، وكذلك الحال في التماثيل وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة وكان القوم عليه أشد حرصاً، هل تدري لماذا ؟

اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك الشعر وضبطه في دواوينه والمبالغة في تحريره خصوصا شعر الجاهلية وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ماتستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المندرجة في هذه الالفاظ متقاربة لا يسهل عليك

تمييز بعضها من بعض ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا يصورونه مثلا في حالة الجزع والفزع والخوف والخشية والجزع والفزع مختلفان في المعنى ولم أجمعهما ههنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد بل لانهما مختلفان حقيقة ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما و بين الخوف والخشية ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . أما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها جسك . اذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك :رأيت أسدا : تريد رجلا شجاعا فانظر الى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا والرجل أسدا ،فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئا فذلك بغيتي أما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهيمك بأطول من هذا وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين ليوضح لك ماغمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي ماحكم هذه الصور فى الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ماذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الاذهان فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما ان ترفع سؤالا الى المفتي وهو يجيبك مشافهة فاذا أوردت عليه حديث: ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون : أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الاول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين والاول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الاسلام لمحوه والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى

المصنوعات وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع ان الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع أما فائدة الصور فما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر (١). وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور طمعا في أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الاقل لا يدخل محلا فيه صور كما ورد فاياك ان تظن ان ذلك ينجيك من احصاء ما تفعل فان الله رقيب عليك، وناظر اليك، حتى في البيت الذي فيه صور ولا أظن ان الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعمدت دخول البيت لان فيه صورا . ولا يمكنك ان تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن انه يقول لك ان لسانك أيضا مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز ان يصدق كما يجوز أن يكذب

وبالجملة انه يغلب على ظني ان الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من وجهة العمل .على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم بالأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة وما يعرضون عليها من الاموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد . ويطلبون منها ما يخشون ان لا يجيبهم الله

(١) ان الذين رسموا الصالحين والأنبياء انما أرادوا التبرك بصورهم وتعظيمها اكراما لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والتماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة وكذلك النصارى كانوا يصرحون بأن تعظيم الايقونات ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصرين عليه يسمي تعظيمها اكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة ، هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها وايقاد السرج عليها وقد فعل المسلمون هذا مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائده مع انتفاء علة النهي عنه افنؤمن ببعض الدين ونكفر بحقيقة بعض ؟

فيه و يظنون أنها أسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى. لاشك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية ،

هل سمعت أننا حفظنا شيئا حتى غير الصور والرسوم مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند اسلافنا ؟ لو حفظنا الدراهم والدنانير التي كان يقدر بها نصاب الزكاة ولا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال الاول موجودا بين أيدينا ؟ ولو حفظ الصاع والمد وغيرهما من المكاييل أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة مايصرف في زكاة الفطر وما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل وما كان علينا الا ان نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف. أظنك توافقني على أنه لو حفظ درهم كل زمان وديناره ومده وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء يتوارثونه سلفا عن خلف كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لا يقدر به الآخر حتى جاء في آخر الزمان أحمد بيك الحسيني يخطيء بعضهم ويوفق بين أقوال البعض الآخر بدون ان يكون بين يديه صاع ولا مد من تلك الآصع والامداد ، وما أصعب التخطئة والتوفيق ، اذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق ،

لو نظرت الى ما كان يوجب الدين علينا ان نحافظ عليه لوجدته كثيرا لا يحصى عده ولم نحفظ منه شيئا فلنتركه كما تركه من كان قبلنا ولكن مانقول في الكتب وودائع العلم هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضيعها !!! ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسه فاذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثر مفيد فاذهب الى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها . أما بلادنا فقلما تجد فيها الا ماترك الاوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والادبية والعلمية وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلا وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة كمبردج من البلاد الانكليزية . ولو أردت أن أسرد لك ماحفظوا وضيعنا من

دفاتر العلم لكتبت لك في ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره وتجده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أوغيرها من بلاد أوربا

نحن لا نعني بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا ولو خطر ببال أحد منا ان يترك لمن بعده شيئا جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفرا بتلك النعمة وأخذ في اضاعة ماعني السابق بحفظه له فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا وانما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والاحقاد تنتقل من الآباء الى الاولاد حتى تفسد العباد وتخرب البلاد ، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد

﴿ أمير وأميرة من الاسرة الخديوية ﴾

البحر هادىء والهواء عليل وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر وانا محبوس في هذا المكان الضيق لتحرير هذه الاحرف اجابة لطلب بعض الناس وبودي لو استنشق الهواء لكن بقيت علي قصة اقصها ولو تركتها اليوم لم يعد اليها القلم في يوم

صعدت الى المركب من مسينا وجلست انتظر مسيره وبينا انا كذلك واذا بأمير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم الى السطح فنهضت للسلام عليه وتساءلنا عن مراحل أسفارنا وفهمت منه ان معه حرمه وهي من أعضاء العائلة الخديوية كذلك . فقلت أمير جليل ربي على الطريقة الاروبية وتعود السفر الى بلاد اروبا مع حرمه وهي كذلك قد ربيت على الفطنة والحرية فلا ريب ان نرى الاميرة مع الامير ولا يقدح ذلك في كرامة واحد منهما فان الاميرات المصونات قد يرين الناس من حيث لا يراهن الناس لا لأنهن من عالم غير عالمهم ولكن لأن الناس يغضون الطرف احتراما لهن ولاحظر عليهن في رؤية من لا يراهن . لكني مكثت مع الامير الى وقت العصر ثم تركته وذهبت الى محل الاكل لاتناول شيئا مما يتناول في هذا الوقت فكان جلوسي مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين في الاسكندرية فبدأوني بالكلام فتكلمت وامتد بي وبهم الحديث الى حالة المركب وازدحامه بالركاب وضيقه عنهم فقال قائل أو قالت قائلة : ما أسوأ ما صنعت الشركة مع البرنسيس فانها وضعتها في قمرة ضيقة لا تتسع لها وهي ملازمة لها ليلها ونهارها

ولو كانت ممن يخرجن و يستنشقن الهواء لسهل الامر ولكن الاميرة لاتخرج قط من يوم ركبت المركب ومن القمرات ماهو أفضل من قمرتها واوسع : فسألت هل بها شيء تألم له لو خرجت ؟ فقيل لي : لا الظاهر انها في غاية الصحة وكمال العافية غير انها لاتحب ان تخرج والقمرة مقفلة في جميع الاوقات :

امكنني بعد ذلك ان اسأل حتى يتم سروري بما فرحت لأوله فعلمت ان الاميرة كانت في اوربا تسدل على وجهها نقابا أزرق على نحو مايسدل نساء الاستانة اوسوريا بحيث لايميز الناظر شيئاً من وجهها ومتى ركبت المركب لزمت قمرتها وأغلقتها عليها الى ان تصل الى غاية سفرها . وكل ذلك تفعله حرصا منها على كرامتها ومحافظة على المعروف من عوائدها من حيث هي أميرة مسلمة فقلت مثل صالح لابد من ذكره والثناء عليه حتى يتعلم أولئك المقلدون ان من أمرائهم وأميراتهم من هم أولى بتقليده . وان خيرا لهم ان يقلدوا أميرا مصريا من العائلة الخديوية الكريمة من أن يقلدوا جماعة من الاروبيين غير معروفين لهم ولا يحسون بتقليدهم ولا يستفيدون من حذوهم حذوهم الا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أومسلمون واختفاءهم في غمرة أولئك الاروبيين لايتميزون عن عامتهم في شيء وسريان مايشكومنه القوم من الفساد الى أنفسهم أوانفس نسائهم فبارك الله في الامير وفى الاميرة وأرشد الله شباننا الى التأسي بهما ان كان لابد لنسائهم ان يذهبن الى اروبا لمداواة علة ، أو ايناس في غربة

لعلك تسأل من هذا الامير ومن هذه الاميرة ؟ فأني أقول لك الامير هو الامير عباس باشا حليم والاميرة هي الاميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حلمي . ومما يسرك ان كنت مثلي تحب العفة ووضع الشيء موضعه ان الامير لاينفق في سفره ان كان وحده اكثر من ثلاث مئة وخمسين جنيها واذا كان مع الامير فلا ينفق اكثر من ستمائة جنيه في مدة شهرين ونصف وهو يعيش عيشة الامراء

تقول: لعله يقتصد ليكتنز ، و يوفر ليستكثر ، فأقول لك اني علمت انه ينفق من ماله في تربية تلامذة في مصر وفى الاستانة وفي انكلترا يتعلمون العلوم العالية في

المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة فما قولك في نفقة مثل هذه بدل النفقة في الشهوات وفوائت اللذات ؟ ألست توافقني على انه من أفضل الامراء عملا ومن انبلهم قصدا فانه يربي اناسا يقومون بشؤون بيوتهم اعرف بعضهم واجهل بعضا؟ ألا يكسب بهذا حسن الاحدوثة وتخليد الذكر خصوصا اذا استزاد من هذا الخير فانه بذلك يقوي عناصر العلم في البلاد وهو الاصل الذي نحتاج اليه لاسيما اذا انضم اليه حسن التربية كما هو مقصد الامير . ولو اقتدى به الامراء لاصبحنا في ثروة من العلم ولم تصب حضراتهم بالافلاس من المال بعد الافلاس من الكمال وفقه الله وأرشدهم والسلام اهـ

(يقول جامع الكتاب) كتب الاستاذ الامام هذا الفصل عن بلرم عند زيارته إياها عائداً من الجزائر وتونس وفيه من شجون الحديث وفنون الاصلاح المفرغ في قالب الفكاهة ما رأيت وأهمها رأيه في التصوير والحجاب . واخبرني انه كتب مذكرات بشأن تونس والجزائر يريد ايداعها في فصول إصلاحية بهذا النحو من الاسلوب وقضى قبل أن يجد فراغاً لذلك ولم توجد تلك المذاكرات في أوراقه الى هذا اليوم

﴿ انما ينهض بالشرق مستبد عادل (١) ﴾

مستبد يكره المتناكرين على التعارف، ويلجيء الاهل الى التراحم، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة الا ونظرته الأولى الى شعبه الذي يحكمه فان عرض حظ لنفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية فهو لهم اكثر مما هو لنفسه .

يكفي لا بلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة وهي سن مولود يبلغ الحلم يولد فيها الفكر الصالح وينمو تحت رعاية الوليّ الصالح ويشتد حتى

---

(١) نشرت في السنة الاولى من مجلة الجامعة العثمانية

يصرع من يصارعه . خمس عشرة سنة يثني فيها اعناق الكبار الى ماهو خير لهم ولأعقابهم و يعالج ما اعتل من طباعهم بانجع أنواع العلاج ومنها البتر والكيّ اذا اقتضت الحال و ينشيء فيها نفوس الصغار على ماوجه العزيمة نحوه و يسدّد نيأتهم بالتثقيف يتعهدها كما يتعهد الغارس شجره بضم اعواد مستقيمة الى سوقها لتنمو على الاستقامة . خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيماً من اعوان الاصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه، وآخرين رهبوه، فاتبعوه وغيرهم رغبوا فى فضله فجاروه

حتي اذا عرفت الافكار مجاريها بالتعريف، وانصرفت الى ماأعدت له بالتصريف ، وصح الشعور بالتعليل ، واستقامت الاهواء بالتعديل ، اباح لهم من غذاء الحرية مايستطيع ضعيف السن قضمه ، والناقه من المرض هضمه، وأول مايكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتي مجالس الادارة لاعلى ان تكون آلات نذار، بل على ان تكون مصادر للآراء والافكار ، ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية . نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد ان يشهد هذا الامر من بدايته الى نهايته ولكن الخطوة الاولى هي التي لها مابعدها و يكفي لمدّها خمس عشرة سنة وما هي بكثير في تربية أمّة فضلاً عن أمّة .

هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله عادلاً في قومه يتمكن به العدل ان يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ؟!!



هانوتو والاسلام

ننشر هنا المقالة التي كتبها موسيو جبرائيل هانوتو بعد وصول رد الاستاذ الامام اليه بلغته . وكنا أشرنا اليها بعد نشر الرد في (ص ٤١١) ثم رأينا ان ننشرها برمتها لئلا يظن ظان ان فيها رداً لشيء مما كتبه الاستاذ الامام في حقيقة الاسلام والنصرانية ، ولنقفي عليها بمقال آخر لهانوتو حدث به صاحب الاهرام (بشاره باشا تقلا) في باريس فكتبه وأرسله الى جريدته فرد عليه الاستاذ الامام وكنا ذهلنا عن هذا الرد فاستدركناه هنا . وهذا مقال هانوتو

الاسلام أيضاً

من المسلم انه يتعذر عليّ الرد في هذه الجريدة على جميع الرسائل التي ترد الي بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ولذا أشكر جميع الذين راسلوني شكرا جزيلا وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به علي وأباتوه لي محفوظ في مخيلتي ولا يبرح عن ذا كرتي وانني أجد في تبادل الافكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع وبالرغم عما يخالجني من الميل الى عدم قصر البحث في نوع خاص من الموضوعات أرى أن لامندوحة لي من العود الى بعض المناقشات التي أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثاً في مسئلة الاسلام والحق يقال انني أصبحت بسببهما كما يقال بين نارين فالمسيحيون أنحوا عليّ بالتعنيف واللوم قائلين انني تظاهرت بالميل للاسلام واتخذني المسلمون خصما لدودا لدينهم وهو مايثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق لولم يعرف من قديم الزمان ان الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصور والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى فيه ضربات المطرقتين

ويجب قبل الدخول في الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل : كان الجهل

بلغتنا وهو في نظري أكثر تأثيرا من سوء القصد سببًا في اتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها فان جريدة المؤيد التي تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الاسلام ولعل القراء يذكرون انني أوردت فيها آراء كيمون التي أبداها في كتابه (باثولوجيا الاسلام) وان ايرادي لهما كان على سبيل الحكاية والنقل اذ أشرت الى خطر شدتها وأبنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثر والانفعال ولكيلا يختلط على الذهن شيء من أقوال كيمون التي أوردتها وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (أنا أنقل) (أنا أنقل) محصورتين بين قوسين دفعًا للالتباس ومنعا للشك

بالرغم عن هذه الاحتياطات نسبت اليّ تلك الافكار التي عمدت الى دحضها واظهار فسادها حتى ان أحد كبار أئمة الدين الاسلامي كلف نفسه مؤونة الأجابة في جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكاري بل هي نقيض ماذهبت الى تعضيده واستحسانه في بحثي ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع بابًا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ماسطرته في الاصل الفرنسوي أو وقف عليه من الترجمة إما انه لم يفهم مرادي وإما ان الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الامانة لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لاقواله على حقيقة فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ومسالمة وتوفيق على ان احدى الجرائد العربية التي تنشر بمصر ولها شهرة فائقة في جميع العالم الاسلامي الا وهي جريدة الاهرام قد أتت بتلك الملحوظات أحسن مما استطيع ايرادها به فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذي يدير في آن واحد جريدة البيراميد الفرنسوية قد اقتفى أثر ملحوظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحذق مجال للكلام أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله على انني أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت في طريق العمر وحبوت نحو الشيخوخة وهي ان منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس سوء

التفاهم والخطأ في معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا اذ كثيرا ما كان الغلط الناشيء من سوء تلاوة كلمة أوالقصور عن ادراك معنى جملة أوفهم مغزى رأي أو مرامي حيلة من حيل المناظرة سبباً في جر مالايحصى من المصائب بل سبباً في انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار وكانوا الى الالتئام والاتفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق

ولو أمكن محو ماترا كم شيئاً فشيئاً حول مايقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التي لا فائدة منها وتيسر العود الى النقطة الاولى التي كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف لاندهش الانسان من السهولة في تذليل الصعاب وتمهيد المشاكل التي جعلت الفارق عظيما ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل ان العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم ان يدرك كيف تكون مقـدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء مبلغا عظيما تافهة واسبابها بسيطة الى هذا الحد حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه عما اذا كان في الامكان اصلاح ماانثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس في فهم مقاصد بعضهم بعضا على فرض ان تبادل المودة فيما بينهم لم يكن من الامور المتاحة لهم

ومن الامور التي كان لايزال خاطري منصرفا اليها ان المسائل المشكلة ولو كانت من أهم المسائل واخطرها تتضمن في ذاتها الحل الملائم لها والمطابق للانصاف والسلام وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيد في المبـاحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الافكار بانه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية وجعلا غايتهما القصوى المسالمة والاتفاق واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر وصدق اجتهادهما في التجرد عن الاهواء فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما

اعتقدت دائما ان للسياسة على الخصوص مهمة في هذا المعنى ينحصر فيها شرفها وترجع اليها كرامتها ليس بما تعلنه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط بل بحسن العمل العقلي الذي يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء في سكون قاعات أعمـالهم أيضا وأما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذي هو

أخص ما يلتجيء اليه القوي فهو من آخر يات الوسائل وأحطها وهو حيلة من لا حيلة له

و يظن الناس في الغالب ان الواجب التخير بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق وهو خطأ بين وغلط ظاهر اذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية اذ للافكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال وليس التسامح من مخترعات هذا العصر بل نقيضه من مخترعاته لاننا اذا نظرنا في أصول المشا كل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التي تعذر التوفيق بعد فيما بينها اعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصة القول ان معيشة بني الانسان مع بعضهم بعضاً بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك و يقصدونه برغبتهم وحسن ارادتهم

وقد حدا بي هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوي بعض المسلمين وليس المقصود به السياسة في هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية وقد انتهت الي رسالتان غريبتان فى هذا الباب احداهما من رجل مشهور الاسم فى فرنسا وهو (أحمد رضا) مدير جريدة مشورت الذي جمع ملحوظاته فى رسالة سماها (التسامح الاسلامي) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامي بالتعصب الديني واستشهد في خاتمتها بكلمات قالها الكردينال لافيجري وهي (أجاهر علانية بانني اعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر في دعوتهم الى الدين المسيحي أثما من الآثام وضربا من ضروب الجنون) وانه ليفيض بي الكلام على الوصف الذي وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ولكني على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التي نقصدها وان الاجتهاد في فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام .

ووردت الى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندي مدحت أ كبر كتاب الترك في الوقت الحاضر واني آسف شديد الاسف من عدم إمكاني نشر مضمونها بأ كمله في هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ولا ريب فى ان القراء الفرنسويين كان يسرهم ان يتلذذوا بتلاوة إنشاء شرقي مكتوب بلغة فرنسوية

صحيحة غير ان في المباحث الدينية ولو كانت متعلقة بالاسلام شيئاً من الاكفهرار والتجهم . على ان هذا لا يمنعني عن ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامي وهاهي « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم قس نفسه فهو لا يقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا بدون واسطة حسابه عن أقواله وأعماله ولم ير النبي محمد عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى فيها لنفسه حقاً أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس في الديانة المسيحية بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين امام عدالة الحق سبحانه وتعالى وهو ما يؤخذ منه انه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام لأجاب المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف — فالديانة القرآنية لا تهوي بالانسان باقصاء الاله عنه في نهاية الفضاء — اذ جاء في القرآن الشريف : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد). هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادبية والمادية فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشري » ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعاً عن الدين الاسلامي يراه أرقى وأحسن مايدفع عنه به وأخذ يعتب على الكوني اختصرت البحث في المسئلة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسئلة السياسية

وانني اعترف بانني انصرفت أثناء سياحتي في الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها واذا كان القاريء لا يمل حديثي فانني أورد هنا بالايجاز كيفية الاسباب التي حملتني على هذه السياحة وقصر مباحثي موقتا على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ الكردينال ريشليو وصلت الى النقطة التي أفضت الظروف به فيها الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله واستلفتت أنظاره ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في أبان استلامه زمام الاحكام كانت ظهرت المسئلة البروتستانية وسوف أورد كيفية حله لها ولكن ما يعرفه القليل هو انه عرض عليه الحكم في المسئلة المحمدية أو بعبارة أهل ذلك الوقت في المسئلة الصليبية

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف

الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشليو الذين أخذوا بناصره في خطاه الاولى ووالوه بنصائحهم وسطوتهم ومنهم الدوق دي نيفير والاب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذي انطوى معهم في أفكارهم قلباً وقالباً حتى لقد بدىء في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ويمكن القول بان حزب الملكة ماري دي متديسي الذي أجلس ريشليو على منصة الاحكام وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين ٠

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة مع أصدقائه رافضاً أن يكون آلة بأيديهم بل كان منه أن جذب الاب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهه عن الاسلام لحارب — كما هو مشهور — الاسرة النمساوية والحق يقال ان الكردينال كان من أقل الناس تعصبا فانه قبل أن يأتي بما عمل به بنى عمله على أسباب تأمل لها طويلا واستخبر وقارن وان هذه الاسباب هي التي كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها وايقاف غيري عليها ٠

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال في اسبانيا وأفريقية الى حيث تلك البقعة التي تم بها الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي أريد بها تونس، هذا هو السبب الذي استحثني مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الاصقاع باحثاً ومفكرا٠ شاهدت فيها اطلال قرطاجنة أي اطلالها في عهد انيبال والقديس اونمستان وفي عهد سان لويس وشارلكان فتجلى لي وأنا واقف على تلك الطلول ان الارض التي كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضاً مهبط السكينة والسلام

أما الاسباب التي حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف أبينها في يوم ما ٠ ولكنني بالبحث في الماضي والمشاهدة العيانية في الحاضر قد توصلت الى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام في عين المكان الذي اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الاسباب فاشرت الى السلم الناشىء من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس كان لا يظن انهما يجتمعان في وئام واتفاق باحترام كل منهما معتقدات الآخر ، لما لاحظت

هذه الامور كنت أود مداراة العواطف والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ولكن يظهر ان هذا صعب المرام اذ الجميع لم يفهموا مرادي ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدي ومهما يكن من الامر فان من الامور المهمة قيام الافكار في البلاد المسيحية والاسلامية قياماً اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الابعاد والتفريق

(يقول جامع الكتاب) هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشي مما خطأه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ولكنه تنسم من الكلام ان الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح . وقد كان بشاره باشا تقلا يدافع عنه وينحي على المؤيد وعلى الامام ثم سافر الى باريس واقيه ونقل عنه الحديث الآتي فنشر في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الصادر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ بالعنوان الآتي وتلخص مقدمة صاحب الاهرام للحديث وهو

حديث مع المسيو هانوتو

رأيت وأنا في باريس ان أقابل المسيو هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام وعلى الغاية التي قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسي الواقف على أحوال أوروبا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مرارا وتكرارا ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية توخيت ان انشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لي . قال

انتم تعرفون من تاريخ اوروبا ان أممها ماتقدمت علما ومدنية واختراعا الا يوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وانا لم أكتب الا الى ابناء وطني الفرنسويين ولم استشهد بكيمون وهو يوناني الجنس الا لافند أقواله

التي لم ينفرد بها فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسويين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لان الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة وهي انه كلما تقدمت أوروبا تأخر الشرق لان الوقف يتأخر بقدر مايسير الماشي وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوروبا علما ومدنية فنجحت مع ان العثمانية وافغانستان ومراكش والعجم لاتزال على ما كانت عليه في السنين الغابرة وانا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ولأ فند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادي ان الاسلام لايحول دون الاصلاح والمدنية واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالي وسياستي . هذه هي روح كتابتي السابقة وانها ستكون روح اللاحقة

والذي دعاني الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لايخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان في الاعصر الخالية وما دفعهم في الايام الاخيرة الى ذلك إلا الحوادث الارمنية وغيرها ولما كنت قد وقفت نفسي لدرس حياة ريشليه السياسي الشهير وسرت في أكثر أعمالي وكتاباتي على منهاجه وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء سياسة الصليبيين وحال دونها بدهائه المعروف مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأروبا معا فاذا كان هذا السياسي الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه في تلك الاعصر أي السياسة الصليبية فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها . لا لعمري فلهذا عارضت بالامس ولهذا أعارض اليوم ولحسن الحظ ان الرأي العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم فهو لايريد حربا تشب نارها اعتداء ولا سيما الحرب الدينية فهي عدوة المدنية بل هي أفظع الاعمال

على أن معارضتي لأمثال هؤلاء الكتاب أي نقضي لاقوالهم لايمنعني عن ان أقول لكم الحقيقة لانه يستحيل عليّ ان أقول ان شرقكم سائر على منهاج

حكومات أوربا في العدل والحرية والمدنية كما انه يستحيل عليّ ان أقول ان في حالتكم الحاضرة ضماناً لمستقبلكم السياسي فاعلم ان أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد بل لنفصلها عن السلطة المدنية فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ولكن أراد افراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا ان تكون الكلمة الاولى للسلطة المدنية في احوال الحكومات وشؤون الشعب وان يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بان يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله

واعلم ان الذي أيد هذه السياسة ايضا في بلادنا فرنسا هو اعظم تلامذة رومه واحد اقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي الكردينال ريشليه فهو الذي قال بفصل السلطتين ولم تنسه واجباته الكنيسية الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطتين اشرف خدمة اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبا واعتزت السلطة الدينية ايضا وعاشت السلطتان بوفاق وسلام

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسويين في مستعمراتنا بان يكون الامر المطلق للسلطة الحاكمة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ما سرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسوية

واني لا اكلمك كمسيحي بل كمؤرخ أو ككاتب حر الضمير لا شأن لغيره في معتقده الخاص ولكنني احترم ادبيات كل دين ومعتقد واقدر تلك الادبيات قدرها ولكن الماديات غير الادبيات والاولى من شؤون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحيي به وكل أمة لم تتقدم في مادياتها لابد ان تموت اذ لا حياة بلا مادة والهكم انتم الشرقيين اله أوربا واله اميركا. اذ ان اله الجميع واحد ولا يمكن أن يكون اكثر انعطافا على الاوربي منه على الاميركي فالشرقي بل ان الشرقيين عموما اكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين وقد علمنا ان أوربا فاقت شرقكم بمراحل ونرى اليوم اميركا تزاحم اوربا وكثيرا ما فاقتها في اختراعاتها وفنونها ولم يكن ذلك لان الله سبحانه وتعالى اميل الى الاميركي منه الى الاوربي أو الشرقي ولكن لان الاخير مستميت والاول حي هذا يشتغل مجتهدا وكلما زادت

اروباه زاد نشاطا واقداما وذاك يقضي حياته بين القنوط واليأس مستسلما ولهذا تقدم الاوربي وتأخر الشرقي وضيق اوربا باهلها دفعها الى الاستعمار في كل صوب فصادف ابناؤها ارضا واسعة وشعوبا لاحراك بها فقبضوا على الاعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له اذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون في تونس فهل تعتقد ذلك في اهل الجزائر ولماذا لاتسأل الحكومة الفرنسوية ان ترى في احوال هؤلاء

قال اما التونسيون فلا خلاف في انهم مسرورون بحالتهم ونحن قد دخلنا بلادهم وهي قاع صفصف مزق شملها افراد حكموها واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم واحوالهم الشخصية ولم نسألهم الا امرا واحدا أي احترام سلطتنا السياسية فادركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ولهذا كان النجاح عظيما في مدة قريبة وانت تعلم أن مذهبي في الاستعمار وضع الحماية كما هو في تونس لاضم المستعمرة الى فرنسا كما فعلنا في مدغسكر بالرغم عن معارضتي ذلك ،وقد رضيت به منقادا لاوامر اكثرية دارا لندوة ولاانكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر وقد شرعنا في ذلك وسأكتب كثيرا في هذا الموضوع لأني ذهبت بنفسي الى تلك البلاد ودرست احوالها واملي أن لايمضي طويل زمن حتي ترى ذلك الاصلاح الذي طلبه غيري قبلي وشرعت حكومتنا في انفاذه

قلت اني اعرف ماسردته لي عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية في أوربا وعن احوال شعوب البلادين ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولاسيما في الحكومات الاسلامية والذين يقولون به من الاجانب ليسوا الاخصوما للمسلمين لاعتقاد هؤلاء أن في فصل السلطتين ضعفا ترومه اوربا لتنال بغيتها منهم

قال هانوتو انا لااسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ولكن اعتقد ان اوربا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين وجعل الكلمة الاولى للسلطة الحاكمة كما اني اعتقد أن جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع ان تخسروا في

الحروب الماضية واعتقد ايضاً أن صاحب السلطتين ولاسيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها و يعلم المسلمون ان جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس، وانكلترا من التهام الهند ،وروسيا من اخذ خيوى وغيرها الى حدود أفغانستان ، كما انه لم يمنع استقلال مراكش و بلاد فارس والمملكتان اسلاميتان فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيدا سياسيا يستحيل ايضاً توحيد سلطتها الدينية وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة له

وإذا كان الاسلام كما قلتم و يقول كتابكم (وأود أن أعتقد انا مثلكم أيضاً) انه لا يحول دون التقدم العصري فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون و بماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادي واعتقادكم فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أوروبا تحول دون تلك الاصلاحات. أجابوكم ان أكثر الدول كانت دائماً معكم الى سنة السبعين و بعدها فلم تأخرتم واليابان لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ماوصلت اليه اليوم فأصبحت أوروبا تقدرها قدرها في جميع مسائل الشرق الاقصى

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بان أوروبا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة في أوروبا والقريبة من أوروبا كسوريا مثلا سألتكم هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم . أيظن رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربي ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين

وأنا أعرف ان امثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ولكن قدحان لكم ان لا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبي مادام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها كأني بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين

واني أقول لك هذا بعد الذى قرأته في جرائدكم ردا على ما كتبته فقد جعلوني خصما لهم ونسوا خدماتي لهم وأنا في منصة الوزارة الخارجية فى أيام المسألة

الارمنية فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث في المستقبل فيستحيل على وزير أوربي ان يرتأي مثل تلك السياسة ولا أقول هذا من باب العداء بل لما نراه من تعديل أوروبا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية فأن الدول ستكون واحدة في المستقبل كما ترى الآن في مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأممه فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة أجنبية أو أوروبية والذي ينفر الشرقي هو ظلم أوروبا في سياستها هذه وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لانها عودتنا حماية الضعيف من القوي

فقال الوزير بعبارة صريحة: ان هذه الاقوال خيالية لا تنطبق على حالة أوروبا فى هذا الزمان فهي بعد ان كانت لا تهتم بغير قادتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها واعلم ان فرنسا مضطرة ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري الى الاقتداء بالدول المذكورة واني أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون في غالب الاحيان بافكار صبيانية فيستعبدون الالماني لنكاية الانكليزي و ينتصرون للفرنسوي على الالماني ولكن اما حان لهم ان يعلموا ان الاوروبيين مها اختلفت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقهم على الشرقيين لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أوأغراض تلك الامة لاصلاح شؤونهم بل لمعارضة دولة ثانية وهي سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوروبا اليوم وانت تعلم ان ألمانيا أكثر الدول في أوروبا استقرارا وأبعدها استعمارا هي التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ في الصين وهي التي سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد مما يدلكم على ان أوروبا لا تسعى إلا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك فضلة عندها أوصعب على طبعها

ثم قال لي أنت تقول لي ان الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوروبا كلها أو بعضها ولهذا يخافون من مصافأة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لانهم

وان أكثر الدول طامعات في املاكهم وحضرتك اكدت ذلك في كلامك الآن عن سياسة أوروبا

والمسلمون يعتقدون أيضا ان مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد ادى بهم فقدان هذه الثقة الى ان لا يأمنوا مسيحيا عثمانيا ولو اخلص لهم الخدمة وصدق معهم وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل اوربا في أعمالهم ومن أفعال الموظفين غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء في بلاد الدولة أو في سفاراتها وأنت تقول لي ان في ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون

فهذا الذي تقوله لي اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لي بعض العثمانيين في الاستانة وباريس ولكن تفنيده أمر سهل واليك البرهان . لا يسعك والساسة المسلمين ان تنكروا ان بعض دول أوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية في أوربا فان هذا حصل قولا وفعلا في حرب القريم فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول أوروبا عن نيل اغراضها في المسألة اليونانية وهذه الدول الثلاث خدمن سلطنتكم أجل خدمة في المسألة الارمنية بالرغم عن هياج الرأي العام الاوربي وتصريح بعض الدول بمعارضتكم وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضا ان فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على ان ضالة أوروبا مصلحتها الاقتصادية فالسياسية ولا دخل للاعتقاد البتة في أعمالها ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية ان تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين . وألم تحارب ايطاليا أوستريا وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكي من ان تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسي وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البرتستنتي الالماني والكاثوليكي النمسوي والايطالي وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكسوني وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها . كل هذه شواهد

قديمة العهد وحديثه تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق واذا وجب ان يلوم المسلمون سياسيا مسيحيا يخدمهم فكم يجب ان يلوم ساستهم العديدين . أفي مرا كش مسيحي موظف وهل غير المسلمين قابضون علي سياسة العجم ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية في غير أيدي المسلمين؟ (٭ فاذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه أو ان رأيه مضر ببلاده فلما اذا أبقي عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الاعظم؟ وهل قام ولاتكم ووجيهوهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الامة ومصلحة الوطن؟ نعم لا انكر ان تداخل أوربا أوبعضها نفركم ولكن بعض الحوادث التي حدثت في جهات عديدة من بلاد الشرق هي التي كانت سبب ذلك التداخل

واني أتساهل معك وأقول ان بعض دول أوربا يريد لكم سوءا وان هذا ولد فيكم عدم الثقه بنا نحن الاروبيين ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي في أوج مجدها وشامخ عزها أن تتحد وتوحد كلمتها فهل يسهل ذلك عليها اليوم !! . واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام لان أوربا مسيحية « وهو زعم باطل » فهلا كان ماينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ويمنعها عن انفاذ ماينتهيها به المسلمون . وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم . أترضى به أوستريا ولها البوسنه والهرسك وهي طامعة فى غيرها ؟ أم تقبل به فرنسا مع املاكها الافريقية الواسعة أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم !!! أم تعضده روسيا، أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأني بهم هم الذين يريدون انفاذ مايطلبه كيمون وغيره من كتبة أوربا وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب ان يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الاوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأي العام الاوروبي اليهم

أماما كان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا في أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها

٭) الجواب فى كل زمن ولا يزال أ كثر سفرائها وقناصلها وموظفو نظارة الخارجية من المسيحيين

وسياستها فهو ان يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم وان يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بان يتخذوا اقدام أوربا واجتهاد ابنائها مثالا يسيرون عليه وانموذجا يعملون بموجبه أي كما فعل اليابانيون في السنين الاخيرة . وأنت تعلم ان الذي نبه اليابان هو خوفها من أوربا وهي لم تنعزعن ضعفها باحتقار الاوربي وذمه والمباهاة بمجد الآباء ولم يقل ياباني بتحقير الاجنبي لانه عنصر غريب أولا نه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ولكن بسلاح أوربا أي بان تتشبه بها في العلم والمدنية والاقدام ولهذا فازت في مطالبها وحالت دون فتوحات الاوربي الاقتصادية أولا فالسياسية ثانيا ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتي منذ حرب القريم لما شكا مسلم من أوربا ولما شكا كاتب أوربي من حال الشرق وأهله بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم في السياسة الاوربية سواء في أوربا أو في الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية

وأراني في هذا الشرح قد بلغت ماقصدته من تفنيد مايزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن وقد كان يجب عليهم ان يجهروا بها خدمة لامتهم ولوطنهم لاان يتجاهلوها ويكذبوها

وتقول لي ان النهضة العلمية بدأت في مصر وان بعض الافراد انشأوا المدارس وان الجناب السلطاني قداهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف في البلاد العثمانية وان أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة والامل وطيد بالنجاح . ولكن الطفرة محال وهذا أمر يسرني ويشرح صدري لاني أرغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم ولكن يجب ان تعلم ان العبرة ليست فقط في اقامة المدرسة بل في وضع البروغرامات المدرسية كما ان العلم وحده لا يكفي وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب فاني لا أجهل ان كثيرين من أبناء الشرق درسوا في أوربا وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا في أوربا أيضا ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ولعلنا نراها

عموما لأني اعتقد ان رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أومذهبية لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ولكن الاعتقاد وحده لايجمع الا عنصرا واحدا وأنت تعلم ان الفرنسوي يشمل الكاثوليكي والبروتستنتي والمسلم واليهودي و لوثني وغيرهم من سائر رعايا فرنسا ولكن الكاثوليكي الفرنسوي والفرنسوي الكاثوليكي أو الكاثوليكي أو المسيحي لايشمل كل فرنسوي

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية وهي التي كانت قاعدة أوربا الاولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد اجبتك على جميع ماأردت ان تعرفه مني عن رأيي في الشرق .

هذا آخر مانقله مدير الاهرام عن هانوتو ويليه رد الاستاذ الامام عليه وهو

هانوتو والاسلام (١)

١

ألقت اليّ المصادفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة في القطر المصري جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة في الاسلام ولم أشك في ان كثيرا مما جاء في هذا الحديث صادر عن رأي مسيو هانوتو لأنه لايصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوروبا وكثير من أحوال المشرق ولهذا رأيت ان حرمانه من حظ النظر فيه وتركه يمر بلا مناقشة معه في بعض ماتضمنه يعد ظلما له وجورا عليه خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع في أذهان الناس أثراً لايحسن السكوت عنه

وقد جاء في كلامه مايدل على انه قد أصيب بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكره حضرته في مقال له سابق . فلا يليق بذي غيرة على

(١) نشرت في العدد ٣١٢٠ من المؤيد المؤرخ في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣١٨

الحق، ان لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق، وأرجو ان يترجم ما أكتبه في جريدة المؤيد الفرنساوية وان يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء ويعتبرون بمثل لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هانوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم انكارها ، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها، وصرح لهم بان الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخبال، وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للمحال، وما على المهتم بحماية ذماره، وطالب الطهر من عاره، الا ان يدركهم ويعمل عملهم، ليبلغ من الحول حولهم، فيفوقهم في القوة أو يكون مثلهم ، فيتعاوض في المنافع معهم معاوضة المالك مع المالك لا أن يتسلى بالاعاليل، ويلهو بالاضاليل ، ويقنع بالأماني، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري واللفظ الطلي، وهو من روح قائله خلي، حتى اذا دهموه وهو في غفلته، وأخذوه في نومه او يقظته، بسط يده يلتمس الرحمة منهم، ويرقب ان يفيض عليه سيب العدل عنهم، فهذا عمل الجاهل الأحمق، وهو بالذلة والاستعباد أحق

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به السيف بالسيف والرمح بالرمح »

ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسه فيما هو عماد الحياة فهي جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسة فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة ،

فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين ان تتفق ، وسهل على كل منهما ان يرتفق ، والا استحال الاتفاق ، واستبد القوي بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف ان ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الاحياء ،

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى)

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد ان كانت لا تشتغل الا بما يجري فيها اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه الا قوة الامم التي تريد الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شؤونها الداخلية ، وما أعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد اذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها برهان القوة ان تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق وكان على المسلم ان يعرفه من قرون وله في كتابه المنزل خير هاد وارشد مرشد وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الاعداد يطالبه ان يبلغ منه حد المستطاع ولا حد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له وأطلقت له القوة وهي كل ما يقوى به خصم على خصم، و يقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ما حفظ به الحق، وعظمت به المنفعة، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده، حتى يستقر السلام بينهم ،وتشمل الطمأنينة شؤونهم ،

وقد تألفت قوى الامم الاوربية من عناصر هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة لان مسيو هانوتو لا ينكر ان أوربا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار وان المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها وتهيئة نفوس الامم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلهم، وفي فتح المغالق التي لا يستطيع السلاح وحده ان يفتحها وتمهيد السبيل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده ان يمهدها . وهو من الامور المسلمة التي لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو فلا حاجة للاطالة في بيانه غير أني أذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها في هذا المقام

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية في تلك البلاد وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم وطالع غدا من

مؤلفات كتابهم وامتلأ قلبه بحب فرنسا واستقر فى ذهنه انها منبع نور العلم والحرية وانها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنساويين ومؤلفات بعض السياسيين فعظم عنده الاعتقاد بان هذه الامة الجليلة انما يهمها فى سياستها ان تنشر المعارف في العالم لتهذيب العقول وتكميل النفوس لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ورأى ان من الزلفى عند الحكومة الفرنساوية ان يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنساوية وطلب منه ان يكون وسيلته في نيل ما يرغبه من معونة الحكومة فسعى الذكي سعيه ثم عاد الى صاحبه وقال له ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وان الحكومة الفرنساوية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة فى سلطتها لكن سياستها في الخارج دينية محضة ويمكن ان تعرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملك في المساعدة قريباً . والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من رحمه من أصدقائنا اذ ذاك وكان لي حظ فى مساعدته كما كنت شاهدا الحديث الذي رويته

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفا لكتابه ولقول الصديق رضي الله عنه ومستحقاً للوم مسيو هانوتو ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة

بقي عليّ الكلام مع هذا الوزير فى أمرين الاول فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الايام وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد . والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية بل بالمسيحيين أجمع حتى وصل فقد الثقة بهم الى ان لا يأمنوا

مسيحيا عثمانيا في عمل من أعماله وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره . وموعدي بذلك عدد آخر اه

٢

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية

أؤكد لموسيو هانوتو ان هذه الدعوة ولم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله ان يشير الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبني عليها حكما وان ما علق بالاوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ثم انعكاس ذلك في اذهان سياسيي المغرب وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها

وإني أعرض الحقيقة كما هي لا يغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس وأرجو ان يكون في هذا البيان ما يقنع موسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم وأهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا

لا أنكر ان طائفا من الدين طاف في هذه السنين الاخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الارض وان نسمة من نفس الرحمن مرت بانفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم، وأثارت هممهم، الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين، وفيما صاروا اليه، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالا يعلمون ويهرفون بما لا يعرفون ولا كلام لنا في هذر المقلدين وانما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا، بل انسانيا وسطا بين ذلك أخذا من كل من القبيلين بنصيب فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ولذلك سمي نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة

الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدينة . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع مالقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله و يأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب منصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاما ، امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كالا للشخص وألفة في البيت ونظاما للملك . وظهرت بها آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم ولم يفت العلم حظ من عنايته بل كان قائده في جميع وجوه سيره فان شاء قائل ان يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه ان ينكر انه أوجب عليهم السعي الى مايقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم ان يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لوان سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول خليفته الرابع « أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أوأكون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ أي خشونته » يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الاغنياء في الاحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال وتقويم الافكار وعاطفا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها وكان من أمرهم وأمره ماهو معلوم

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت مامقته؟ أيدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقد سائغا في دينه وان كان فيه ملك الارض أوملكوت السموات بعد ماشهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد؟ لاعجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الامر بنفسه

بحكم سنة الله في خلقه

وآ سفا !! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه اما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه، وتبدلت في فهمه حقيقته، وانطمست في نظاره طريقته ، وحق فيه قول علي كرّم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لا أبحث اليوم في الاسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ماذكرت ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ماليس منه، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر مالا يتصل بأصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العقائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله .

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أولم يصح فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكان سواء في علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام، وخصال الايمان، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم فظن الرجل ان غاية مايفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها أما مايتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك ممالا يخطر له ببال الا القليل النادر، اما آداب الدين وتهذيب الروح واشكال الخصال الجليلة مما جملة الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع انه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه ارادة، اللهم الامن أشخاص قلائل منثورين في أطراف الارض لاترقى بهم أمة، ولا تسمو بهم كلمة، اما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا بجملة منها فقد انقسموا الى فريقين —

الاول من يظن انه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قل افراده في معظم البلاد الاسلامية ولم يبق منه الا رسوم لا يكاد لا يدركها نظر الناظر والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكي منهم وقليل ما هو ان ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذلك المعنى ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينه منه ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث ويزعمون ان الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ومن رأي هؤلاء ان لا شأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمروا بمعروف ولا ان ينهوا عن منكر وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ وللكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين ما لا حاجة الى عده ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى أثر في صلاح الامة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيؤه اولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أوسافل وافراد هذا الفريق ان كثروا أوقلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذي يعده له والده على ان ما يحصل اما لفظ يحفظ أوخيال يخزن والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة ومن هؤلاء من يذهبون الى اوروبا لاستعمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها وحصر همه على العمل فيها ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها فاذا مل الانتظار أوتقضي زمن العمل وجدته في قهوة أوملهى يسرف في أوقاته ويفسد في أدواته والصالحون منهم وقليل ما هم لا يهمهم شأن العامة شقيت أوسعدت هلكت أوقامت فاي أثر لما نعلمه هؤلاء يظهر في الامة واستثني منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم يرجى ان ينمو عددهم وتجني الامم ثمار اعمالهم . هذا شأن الرجال مع العلم

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أودنياهن

بستار لايدرى متى يرفع ولا يخطر بالبال ان يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام وحشو اذهانهن الخرافات وملاك احاديثهن الترهات اللهم الا قليلا منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعدها الجنة ويمنيها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل وقعد عن العمل ووكل الامر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن انه بذلك يرضي ربه ويوافي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من ان المسلمين خير الامم وان العزة والقوة مقرونتان بدينهم ابد الدهر فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم وان رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه فان اصابته مصيبة أوحلت به رزية تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب بدون ان يتخذ وسيلة لدفع الطاريء أو ينهض الى عمل لتلافي ما عرض من خلل أومدافعة الحادث الجلل مخالفا في ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لأولي الامر والانقياد لاوامرهم فالقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف في شؤونه ثم ادبر عنه حتى ظن ان الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون ان يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه ومن رأى حزن الآباء اذا طلب ابناؤهم لاداء الخدمة العسكرية وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها حكم بان ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل وعرف ان ثقتهم بالحاكم قد بلغت الى حد التأليه من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من احد وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلي عنه من حيث انهم تركوه وشأنه لايساعدونه في حادث ،ولا يعينونه في أمرهم، اللهم الا اذا ارغموا على ذلك ومن ذا الذى يحسن عملا اذا ألجيء اليه بالرغم عنه ومن هنا انصرفت المسلم عن النظر في الامور العامة جملة وضعف شعوره بحسنها وقبيحها اللهم للامايمس شخصه منها

اما الحكام وقد كانوا اقدر الناس على انتياش الامة مما سقطت فيه فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الاعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الابدان لاهوائهم واذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الاموال لانفاقها في ارضاء شهواتهم لا يرعون في ذلك عدلاً ، ولا يستشيرون كتاباً ، ولا يتبعون سنة حتى افسدوا اخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة الا حل بها العذاب

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد، وطرق متخالفة في السلوك ، وآراء متناقضة في الشرائع ، وتقليد أعمى في جميع ذلك، فتفرقت المشارب، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على ارباب النزعات المختلفة ، كل يجذب الى نفسه ، لا ينظر الى حق، ولا يفزع من باطل، وانما همه ان يظفر بخصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له في الاسلام في معرض التشدق بالكلام

وزد على ذلك وهذا اكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم وهي بدعة اليأس من انفسهم ودينهم وظنهم ان فساد العامة لا دواء له وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له وانه لا يمر عليهم يوم الا والثاني شر منه . مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار أو خطائهم في فهم ما صح منها، وتلك علة من أشد العلل فتكا بالارواح والعقول وكفى في شناعتها قوله جل شأنه «انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

تبع هذه البدع جميعها واخرى يطول ذكرها هزال في الهمم ، وضعضعة في العزائم ، وفساد في الاعمال، يبتدىء من البيت وينتهي الى الامة ويمر في كل طبقة ويجول في كل دائرة خصوصا من دوائر الحكومات وما يرمي به المسلمون من التعصب الديني الاعمى فانما عرض على اقوام في بعض البلاد الاسلامية تبعا لهذه البدع الضالة على اني لا اسلم انهم بلغوا فيه ادنى درجاته في الامم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم واعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله، وجهلهم بادنى أبوابه وفصوله، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم تقوموا بشكرها ونزل بهم من عقوبة الكفران مالا قبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم الله بلطفه وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه، ويعده حجاباً بين الأمم والمدنية، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في اواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم في مصر وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم واعلهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية ان شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ويمكن ان يقال ان الغرض الذي يرمي اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد وازالة ماطرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الافراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم الى الامة فاذا سمعت داعياً يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو منادياً يحث على التربية الدينية فهذا غرضه، أو صائحاً ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته، وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يجد من عماله أحدا ، واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ولاهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا المام لهم به فلم العدول عنه الى غيره!!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين سواء في مصر أو غيرها ان يثير فتنة على الاوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين غير ان بعض

المسيحيين اذا سمع قولا في الدين أعرض عن فهمه، وأنشأ لنفسه غولا من خياله، يخاف منه و يخشى غائلته يسميه باسم الدين و بعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شؤونهم، ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم، واستغنوا على تقويم أمورهم بأنفسهم، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فانه يظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر، وسالب متلصص، وسوء ظن بالمسلمين أيضاً فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال وغاية الامر أن ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال الا بحق والاجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المائة يرجع الى الاعتدال في الكسب، ويحتاج الى شيء من التعب في استيراد الربح، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها، والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها وهي في أرفع مقام من عزتها

نعم يعرض في طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بافغانستان أو بغير هذه الاقطار لان مرض الجميع واحد وهو البدعة في الدين فاذا نجح الدواء في موضع، كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر اما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم يمر بعقل أحد منهم ولو دعا اليه داع لكان أجدر به ان يرسل الى مستشفى المجانين

يكتب بعض ارباب الاقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول انه صلة بين المسلمين في جميع انطار الارض ومن افضل الوسائل للتعاون بينهم فعليهم ان يستفيدوا منه وهو كلام حق لكن لا ينبغي ان يفهم على غير وجهه فان الغرض منه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من اعمالهم وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء وهو امر معهود عند جميع الامم التي تدين بدين واحد خصوصاً عند الاوربيين

يذكر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته (* وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له وهذا امر لا ينبغي ان يدهش أحدا فان هذه الدولة هي اكبر دول الاسلام اليوم وسلطانها افخم سلاطينهم ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم وهو أقدر الناس على اصلاح شؤونهم وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية فأي شيء في هذا يزعج أوربا حتى تعدعلى هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول موسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه موسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد ان فصلت السلطه الدينية من السلطة المدنية وهو كلام صحيح ولكنه لم يدر مامعنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا على الامم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ويصنع لها القوانين الالهية وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقاً للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ولاهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم ان أمكن وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاماً لطريقة الحكم وعدد الحاكمين وما لهم وسمحت بأن يكون في محاكمها اعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها وكذلك حكومة مصر انشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك في الدين فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب موسيو هانوتو ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين بل كان الأمر معكوساً فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب

---

*) كانت للآمال فيه بقية عند كتابة هذا المقال ولم تلبث ان زالت

المظالم والمغالاة في وضع المغارم والمبالغة فى التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

ان فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في الشرق وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت وامبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد ان يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين

لا أظن ان موسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الاسلامية الفرنساوية اذا وجد فيها من يقوم بها وانا أضمن له بعد ذلك ان تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين فان المسلمين اذا تهذبت اخلاقهم بالدين سابقوا الاوربيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله

٣

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها وعدم ثقة سياسيهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى ان لا يأمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله موسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة ومن بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ثم أخذ يبرهن على ان سياسة أوربا اقتصادية ملكية لا دينية لاهوتية

لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانوتو ومن أبلغه اخبارهم أهم الهنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا تزال ترى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرقه

هل هم مسلمو الروسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد حتى ان الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الاورثوذكسي

هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من ان يذكر ولا ينفي اخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسية الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعا شغل بعضهم ببعض فلا ينفكون يتقاتلون و يتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه

هل هم التونسيون وقد أثنى عليهم موسيو هانوتو بما هم أهله وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية لمجرد ما اطلقت لهم الحرية في دينهم

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله ان لا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين و بالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الاقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ولكل من الفريقين اصدقاء وأحبة في الفريق الآخر ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم في دينهم أو في منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الاعمى ولا نطلب على ذلك شاهدا اقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه موسيو هانوتو إنه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية و بعد ان أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم كما افتخر بذلك مرارا في جريدته وان كانت له اليهم هنات لا تزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحي عثماني ؟؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحي عثماني؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه، أو وصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه، بل أزيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها ان يتولى تحقيق مظلمته انكليزي كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر

وهو ليس بحاكم رسمي فأي دليل على الثقة أكبر من هذا

ليتني بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ومن له بينهم اصدقاء يركن اليهم ويعتمد بولائهم ومونسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان

كثيرا ما اغرى الاوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الاجنبية وأحرقوا كبد والديه ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون في مدارس الجزويت وكثير من أبناء الاعيان في مدارس الفرير فأي ائتمان يفوق هذا الائتمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا في المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ما كان بأيديهم ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ويغالون في الاستنامة اليهم ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم فماذا يطلب من الثقة فوق هذا !!

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص أو غش من صدق او كذب من أمانة أو خيانة من قناعة أو طمع حتى آل الامر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها ايده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في اداراتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة ما لم ينله مسلم وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته والاحتفاء اليه برتبة الخاطبة لا ينقطع

ذكره من الجرائد، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة الجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين أثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها فما هي الثقة ان كان هذا فقدها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الانكليزية ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ثم إنا نراها اليوم تتراجع وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم وإنما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة وفي أخريانها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوربية

امبراطور المانيا جاء الى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به الى الحد الذي اشتهر وبهر بمجيء الامراء المسيحيين من الأوربيين الى الاستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان ان يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها ولكن عهد في معاملته بما يفوق الرسمي بدرجات فإن سلمنا إن سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

فان قال قائل: ان حوادث الارمن لم تزل في ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الديني بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب

أمكن ان يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ومع ذلك فان كثيرا من الارمن في خدمة الدولة الى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية انعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بانفسنا ولو أنصف الاوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمنا بعد زمن في تلك الاقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لا في آسيا

لا يغث علي أن أقول ان المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون ان يساووهم فيه فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل مارواه فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا واني اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب فلا ينبغي ان يعول على مثله في أحكامه وعليه ان يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه ان يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم وقوله فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ماسبق الى فهمه . لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ماهو صحيح أو غير صحيح ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها في المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر وبين سوء ماجرت اليه فيهم وهو بذلك يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين وهو مالا يرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشؤونهم وغفلتهم عن مصلحتهم كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده لما وجد من المسلمين إلا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام

الرجل الكبير في الشرق (*)

قرأت اليوم سطوراً تحت عنوان « رجال الشرق » كتبها قلم كاتبها عند ذكر موت (لي هنغ تشنغ) رجل الصين وقارن فيها بين الرجل الكبير في نفسه يظهر في بلاد الغرب ومثله في عقله وهمته يوجد في أرض الشرق وكيف يشرق النور من عقل الأول في أفق بلاده فيكون شمساً في الفائدة والشهرة وتظلم الآفاق في عين الثاني فينطمس ما فيه من نور ويخمد ما يطويه من نار ويموت غير معروف أو مشيعاً من اللعنات بألوف

ما كان لساني لينطلق بشيء في هذا الموضوع ولقد كان يبقى كل معنى فيه مقبورا في نفسي لولا انك بما قلت وصلت شرارة بنار كامنة لم تطفأ بعد فهجت ساكنا ، وأثرت كامنا ، فطارت اليك هذه الكلمات القلائل لعلها تجد في بعض صفحاتك ما يحملها الى من ظننت أنهم يقرؤن كلماتك

حقاً ماقلت ؟ فهل لك في شيء من تفصيل ما أجملت ، ان الكبار من الرجال هداة في أممهم وانما يظهر أثرهم في ارشادها والسير بها في الطريق المؤدية الى الغاية التي تطلبها وليسوا بخالقين ولا ناشرين من موت وانما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره الى المطلب وعرف انه أبعد عما هو فيه فتهيأ للسفر وتحفز للرحلة وأخذ لأمره أهبته، وأعدله عدته، واستقام على أول الطريق فاذا السبل متفرقة، والاعلام كثيرة ، والصوى متعددة، فيقف المسافر، وقفة الحائر، فيأتيه البصير بالمسالك، فيدله على خيرها ، ويختار له أقربها وأبعدها عن المهالك ،فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته ولكن لأنه رسم له الغاية التي يطلبها، والطريق التي يختارها لها، وبقية الطرق على جوانبها ، فرأى الدليل قويما ،والصراط مستقيما، فيسير والرجل الرشيد أمامه ،الى ان يمس الغاية بيده ،ويلمس الطلب بأصبعه : نعم ،الرجل الكبير موقظ من نوم ، أو منبه من غفلة ، وليس بمحيي الموتى ولا بمسمع من في القبور

---

*) نشرت في العدد ٣٥٠٩ من المؤيد الصادر في غرة شعبان سنة ١٣١٩ و ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠١ ونسبت الى « أحد أفاضل الكتاب المجيدين » لتنكير الكاتب

فان كانت الأمة في منخفض من المنازل قد ضاق أفقها فلا تعرف جوا غير جوها ،ولا دوّا غير دوّها ، ولا بوّا غير بوّها — بوها رئيسها — فان كان هواء منزلها و بيئا ،وكان مسكنها وبيلا،فهي تشملها في مكانها، وتعتقد ان لا منقذ لها من هوانها ، واذا هاجها الطامعون ليستصلحوا لأنفسهم ما أفسدته ، ويستجيدوا لها ما استو بأته ،تقلصت من الاطراف ظنّا منها ان لا متسع لها في الارض، وان ليس بعد طول مكانها طول ولا وراء عرضها عرض ،فاذا وجد فيها الرجل الكبير فأول مايخطر له ان يفعل هو ان يمد بصره الى ماوراء أنفها حتى يعرفها ان وراء منزلتها مذهبا لمن يريد النجاة مما هو فيه وكيف يمكن لطبيب ان يحدث في البصر امتدادا ان كان قد خلق قصيرا ،وكيف يتيسر له ان يجد له حدة ان كان قد جبل حسيرا ،

الرجل الكبير يحس و يتألم ، ويدفعه الألم الى ان يتكلم، بل تحمله شدة الألم على ان يجاهد قومه وهم أحب الناس اليه ، و يقاتلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه ، ولكن قد يبلغ بهم العمى أوقصر البصر ان يعدوه عدوا لهم وكلما دعاهم الى الحركة دعوه الى السكون ، وأخذ بهم الى الفزع جذبوه الى الركون، وهم أكثر منه عددا ، وأوفر عددا ، فلا يمضي طو يل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح ، و ينقطع نفسه من الدعوة الى الاصلاح ، وتضعف عزيمته ، وتضمحل همته ، فاذا جاءهم عدوهم، وقد خدعهم بوّهم ،وأحسوا بشدة الصدمة،صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة ، تنفس الصعداء ، وحسرة تصعد الى السماء ،لكن مع القعود في المساكن ، والخلود الى أخس المنازل ، فينتهي بهم الامر إلى الاضمحلال ، وما بعد الاضمحلال الا الزوال ،

ان كان ما بالامة ليس نوما فيزول بالايقاظ ، ولا غفلة فتذهب بالتنبيه ، وانما هوخدر شلت به الاعصاب،وذبلت به العروق، فماذا يكون فعل الرجل الكبير؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء ، و يستعمل مالديه من قوة في معالجة الداء ، وهيهات ان يشعر به المريض بل هوتارة يضحك ضحك المستهزىء ، وأخرى يبكي بكاء اليائس، وثالثة يضرب الطبيب بما حضر لديه ، أو بيديه ورجليه ، حتى يقضي عليه ،

هذا اذا ذهب الطبيب نحو الامة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ، فاذا حمله اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه الى صاحب السلطة عليها، والحكم النافذ فيها ، لعلمه أنه يتمكن من ازعاجها عن موطنها، وسوقها الى ما ينجيها من هلكتها، وذلك قد يكون فان الملوك والرؤساء لهم في الامم ما للجهل فيها ، فكما ان للجهل فيها حكما لا معارض له ، فللسلطان عليها قول لا يرد ، فيمكن للحاكم أن يداويها بدائها والاستبداد الذي يستعمله ليسوقها الى الشر ، يمكنه ان يستعمله فيها ليقودها به الى الخير ، والرتب والمناصب التي يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى يسهل عليه ان ينوط بها ما يريد من وسائل المنفعة الثابتة والمصلحة القائمة — اذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد ؟ يجد ما لا سبيل الى شرحه الآن .. (*

اذاً فما الذي يصنعه الرجل الكبير ؟ يسعى ويجد ، ويدأب ويكد ، ثم يموت محروما من ثمرة عمله ، باكيا على خيبة أمله ، ومن للرجل الكبير في أمة مثل أمم المشرق بمثل امبراطور اليابان ، أو الامير عبد الرحمن خان ، ان صح ما جاءت به الانباء ، وصدق ما روت عنه صحف الاخبار ،

ولكن هل ذلك كله يقضي على الكبير بأن يصغر ، وهل يحكم على العظيم في نفسه بأن يحقر ، كلا فهو انما يؤدي واجبا عليه ، وعلى الله ما وراء ذلك والمرجع اليه ،

اكتب اليك هذا ولا أجد من الوقت ما أبث به ما أجد فان سمح لي الحال بأوسع من دقائقي هذه فسأوافيك بأوسع من هذا في بيان أسباب ما الشرق فيه من مساواة الكبار للصغار ، في ضياع العمر وفساد الآثار ،

(يقول جامع الكتاب) اننا نكتفي بما نشرنا مما كتب رحمه الله تعالى في الجرائد المصرية من المقالات . وترى في جزء الترجمة شيئاً مما قضت الحال بنشره فيه

---

*) قد حذف المؤيد ههنا كلاماً من الاصل في وصف حكامنا هو أبلغ ما كتب فيهم

كتبه ورسائله

طائفة من كتبه الاصلاحية والدينية الى العلماء والفضلاء من أعضاء جمعية { العروة الوثقى } ٠ولا نذكر اسماءهم اذ لا حرية في بلادهم

١

لله الحمد على هبته من الاخلاص ومنحته من الانابة اليه ، واشكر الله اليك على ماوفر لك الحظ منها ، ما أبطأ بي عن مواصلتك غفلة عن ذكرك ، أو اهمال في الواجب عليّ لحقك، فلي من همتك منبه لا يغفل، ولديّ من مروءتك جميل لا يهمل، لكن صرّفني القدر الالهي فيما أراد الله ، وصرفني الى حيث سبقت مشيئته ، تعاظمت حوادث الشرق خصوصاً ما مال منها نحو الجنوب فشغل الاهتمام بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فلقيتُ من الامر الجديد ان أكون على مقربة من الضوضاء، ومسمع من النداء ، لعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات، فتعرف أنفس ما ادخر لها العمل، وتلحظ أبصار ما دنا من الأمل، وتنبعث عزائم لتناول ما حضر لديها، وابراز ما كمن فيها، فعناية الله باسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم، وهم في غشية من الجهل لا يصاخونها، وغطيط من الغفلة لا يسمعونها ٠ هذا ما اندفع بي الى بلاد استعين الله فيها على تجديد عهوده، والتوقيف على حدوده، عسى ان يتواصل المتقاطعون، ويتناصر المتخاذلون، وما توفيقي الا بالله وما اعتمادي إلا عليه فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عق الشباب تمائمي   وأول أرض مس جسمي ترابها

غير انه لا يراني من أهلها الا المخلصون، ولا يعرفني فيها الا العارفون ، وان لك بينهم ذكراً يليق بهمتك، ومكانة تجدد بها عزيمتك، ولقد أبلغت السيد من خبر صنيعك ما وفّر لك شكره ، وأخلص لك سعيه، ورجائي ان يوافيني من لدنك ما يطمئن به القلب على صحتك، وما يتروح به الفؤاد من أنباء مساعيك بين الاخيار من

قومك، أحيا الله بك موات الهمم وأقر بك نواظر الفضل وسلامي عليك وعلى أنجالك وآل ودك والله يديم رعايته عليك والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٢

طال العهد من فراقك ولم يجر القلم بمراسلتك حتى خيل مكان الظنة ومثار الريب. استغفر الله، لي من شمائلك روح بروحي ومن همتك قالب بقلبي فلست أنساك حتى أكون بمعزل عن نفسي ولكن حولتني مهمات الشرق عن الغرب بما رآه المولى السيد من فرصة العمل في هذه الحوادث المتتالية فخليته عونا لنا حيث هو وتحولت الى مقربة من معاقد العروة ومكامن القوة فكانت المدة من يوم فراقك متبددة في أسفار متلاشية في هواجس اخطار واليوم أكتب اليك من وراء ستار فلا تهملوني من التذكار ورجائي ان يردالي من قلمكم ما يرجوه القلب من ودكم وسيدي السيد يهديكم أتم التحية والوسيلة تصل اليكم وسلام الله عليكم وعلى كل مخلص والله يحفظكم ٧ ج ١ ـ سنة ١٣٠٢

٣

فارقتك ولم يفارقني مثال من كمالك وضياء من عرفانك واني على البعد عنك لم أنس ما افادني القرب منك ولي في كل لحظة شوق اليك وفي كل بقعة حللتها ثناء عليك ورجائي ان أنال حظا من الاطمئنان على صحتك وسلامي على حضرة السيد أخيكم ومن سعد بمحبتكم والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ جمادى الاولى ـ سنة ١٣٠٢

٤

أشد ما أجد من فراقك حرماني من محاضرة آدابك والاقتباس من أنوار فضلك وتعرف الصواب من صائب رأيك وانما يخفف ألم البعد عنك ان أكون بمكان من فكرك وأصيب حظا من مراسلتك وجدير بكرمك ان تصل واصلا وتجيب سائلا. وسلامي عليك وعلى أنجالك الصالحين والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام ٧ جمادى الاولى ـ سنة ١٣٠٢

٥

أيد الله بك الحق وأعانك على العمل بما وهبك عرفان تنير به أفئدة السذج من قومك وترد به جماح الغاوين من عشائرك ويقين في الدين ينهضك اذا قعد المرتابون ويشد عضدك اذا ضعف الواهمون ومكانة في قلوب اشياعك تمكن الثقة بك والاستمساك برأيك وسعة في البيان تقطع بها طريق الشيطان فوجه عزمك للنصيحة وجادل بالتي هي أحسن واذا أخذت من أحد بحبل فلا ترسله ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه وصل حبالك وحبال المهتدين بحبل الله وكن على ثقة من الفوز ويقين من النجاح ما دام هدي النبي هديك وسعي الاصحاب سعيك وان أشكل عليك أمر او اشتبهت لك المنافذ فاخوانك كثيرون وهم بمعونة الله في عونك كما انه لاغنى لهم عن الاستعانة برأيك. ومقامي اليوم في بلد ما كنت أحتسب الذهاب اليه .وان كان أوفر لهفي عليه ولكن مكاتيبك تصل الي ان شاء الله بالطريقة التي تراها صحبة هذه الاسطر وسلامي على قلبك الطاهر وشوقي للاجابة وافر والوسيلة تصل اليك والسلام ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٢

٦

أكتب اليك والله أعلم بما أثبت فضلك في قلبي من الود وما يهيج أدبك في فؤادي من الشوق وبودي لو ان عبارة تحمل ما في نفسي اليك ولكن حكمة الله في قصور العبارات ان يكون الفضل لثقة الكريم وفراسة الحكيم

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك وحاشا ان يكون تساهلاً في الحق أو تغافلاً عن فريضة الود وانما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فمزقها وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها . من يوم فارقتك ما استقر بي مكان حتى الآن ذهبت الى باريس فما عبدت ان تلقيت من الرأي الجديد ان أتحوجه الشرق حيث مسيل الحادثات ومخرق الذاريات فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) عملت في جميعها على احكام المروة وتمكين عقودها ثم انضمدت بعد ذلك الى

﴿ بلد خلعت به عذار شبيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني ﴾

وأنا اليوم فيه أتعرف الوجوه وأتنكر العيون وأسأل الله نجاح العمل واقبال الامل .

ان لي في حميتك رجاء عرفه المخلصون وهم لتحققه منتظرون فادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فان فناء في الحق لهو عين البقاء وان نعيما في الباطل لهو الشقاء فاستكثر من الاخوان ونقهم من الخوان واثبت بهم على أصول الشريعة وأرجع بهم الى سيرة صاحبها عليه الصلاة وأتم التسليم . وليكن القول من مولاي الصادق تاسيساً لا تدر يساً ولا تكونن كلمة الا وغايتها عقد يبرم ورباط يحكم استغفر الله ان انبه يقظان أو أهدي البيان لمعدن العرفان ولكن ذلك حديث نفسي لنفسي وخطاب قلبي لقلبي ومنّ عليّ بأنبائك وما يكون من آثارك .

ألهاني مشهدي منك عن طلبي لترجمة حياتك فلو تفضلت بارسالها من قلم أحد تلامذتك لتثبت في صحائفي ذخيرة لي ولخلائفي .

واذا رأيت ... فبشره ان قوة الاتحاد في الجنوب أفزعت قوة النيران في الشمال وان نيران القلوب اذابت مدافع الكروب وما النصر الا من عند الله يؤتيه الصادقين ويوليه المخلصين « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » اما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ولكن (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا) .

السيد يهديك السلام وقد أخذت في ترجمة رسالته في نقض مذهب الطبيعيين وعند تمامها أبعث اليك بها فان حسن لديك طبعها في حاضرتكم فذلك لكم والوسيلة تصل ان شاء الله اليكم وسلامي على روحكم الزكية وعلى كل نفس صادقة ورجائي سرعة الاجابة والسلام ٧ جمادى الاولى — سنة ١٣٠٢

٧

تهيبي من جلالك يمنعني الدنوّ من كمالك وكل ما عددت من فضائلك . فهو دون الحقيقة من حالك وغاية ما أعددت لك من نفسي مقاما لم يحله سواك ومنزلة لم يسم اليها غيرك وما أنا بالمختار في ذلك وانما فضلك أنزلك حيث شئت وصرفني فيما اخترت . لا أذكرك بما افترقنا عليه ووجهنا وجوهنا اليه فذلك الدين وما افترض والحق وما اقترض « ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر

لكم والله شكور حليم * قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * عسى الله أن يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » ان الزمن من يوم فراقك كان في سفر لم تسنح لي فيه فرصة لأداء حق المواصلة ورجائي في عفو هو أقرب اليك من الظنة وأجدر بك من التهمة وان كتابي هذا يصلك من خلوة يستضاء فيها بهديك وتتلى فيها آيات ذكرك وان هذا الداعي والمخلصين في السير على طريقك يؤملون وورود الخبر من جانبك وارجو ان يكون فيما تكتب الي شيء من حال الشيخ ... والشيخ ... ومن وصل اليه سعيك وكتبي سر لديك وسيدي الاستاذ حيث تركته يهديك أزكى السلام والله يحفظكم برعايته ٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٨

ما فتر حب اثارته صنائعك ولا خمد شوق هاجه ذكرى شمائلك ولكن تعس زمان شغل يدي وأخذ بأصغري وأكبري حتى أبطأ بي عن مواصلتك وقصر بي عن مراسلتك هذه مدة من فراقك نهبتها الاسفار وغالتها مقارفة الاخطار حولتني صروف الحوادث عن الغرب الى الشرق حيث يقصد إحكام العروة وتأييد القوة بالقوة ولي في ذكر حضرة الوالد شأن وفي تعديد أوصافه كما سمعت بيان وسيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام وأنا في انتظار لنبأ منك عن صحتك وصحة السادات اشقائك والوسيلة واصلة اليك ان شاء الله وسلامي عليك وعلى سيدي ...... وسيدي الشريف ومن تودون والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٩

لله ما أودعت نفسي من الود لك وما ملأ قلبي من الاجلال لقدرك ذلك أثر من كمال روحك وجمال صفاتك زادك الله قربا اليه وتعويلا عليه لم أكاتبك من يوم فراقك لان المدة تقضت في سفر وانتقال وهذه أول فرصة سنحت لاداء حق المودة وفريضة الاخوة ورجائي أنه لا يزايل فكرك ما تفارقنا عليه وسبق الكلام فيه مرارا وان يرد الي من سيادتك ما يبشرني بسلامة حالك ويجمل

الحاصل من سعيك. قدم سلامي الى حضرات الاميرين الجليلين وسأكتب اليهما واليك على وجه آخر عند ورود خبر من جانبك انشاءالله حولتني الحوادث من الغرب الى الشرق لتكون المواجهة أشد أثرا من المكاتبة وهذا ماعاقني عن مباشرة ذلك العمل المعهود في هذه الايام ولكن الحمد لله على وحدة القصد وسلامة الغاية والله يسمعني عنك أفضل ما احب لك والسلام

١٠

وكتب الى صاحب الكتاب (٢) من الكتب السابقة جوابا

لااله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم تحية أخ يهزه الشوق اليكم وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك فشممت منه ريح الحمية، والنعرة الدينية، وأرجوان تصل بك بدايتك الى مايختار الله لك من حسن النهاية ولم يكن ظني في همتك دون ماتبينت من عبارتك فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على دينك. وحركة ميلك للأخذ بيده، وتقويم اوده، فانما هو الدين المتين الذي أطلق العقل من قيده، وأخذ على الوهم في كيده وهز النفوس الى نيل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل، حتى ساد به الضعفاء ، وذلت لسلطانه الاقوياء ، وسبق وعد الله بان يظهره على الدين كله ، والله منجز وعده لاهله ، وانما خلقنا الله وكلفنا بصرف همومنا اليه ، وتعويلنا في شؤوننا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا ، الامانبذله في تأييد ديننا، ولا حاجة لله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب

داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي وحاذر النظر الى وجوه التفاسير الا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه، أوارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب الى مايشخصك القرآن اليه، واحمل بنفسك على مايحمل عليه، وضم الى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقفا عند الصحيح المعقول ، حاجزا عينيك عن الضعيف والمبذول ، واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله وما ركبوا من المتاعب، وما احتملوا من المصاعب ، على ماتعلم من درجة قربهم الى

الله وغفرانه لهم ماتقدم من ذنبهم وما تأخر. واجعل عيشك للآخرة واستعد لما وعد الله فان سعادة أبدية، لاتنال الا بسيرة محمدية ،ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممهد ، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، واللحظة من لحظاتك، ان صرفتها لاعزاز دينك كانت لك ، والا كانت عليك، وارجو ان يكون كل سعيك خيرا يجعله الله نورا يسعى بين يديك ان شاء الله. اما ماذكرت من مسألة الشيخ الصغير فبودي لو توجه الى الله كل مسلم واعتصم بحبله كل مؤمن فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ماذكرت. ومن علو المنزلة على ما بينت، فان تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته وادخل اليه ابتداء من طريق لايعرفه وتلطف له فى القول وان شئت أطلعته على شيء من مقالات العروة الوثقى فاذا انتهيت به الى مايعرف وآنست منه الميل والرضاء فاما أن يكتب الي واما ان يستعد لتلقي كتاب مني ثم سراع الي بالخبر ثم نبئني عن الشيخ ... واسأله ان يكتب الي بالعنوان الذي به تصل اليه كتبي فانني قد أذنت ان أبعث اليه ببعض المواد الاصولية التي يجب اعتبارها أساسا للبناء كما اعتبرها المستمسكون بالعروة في كل قطر ليتحد المسير والى الله المصير ثم انني الآن في بيروت وأقيم بها زمنا فاذا كتبت فليكن العنوان ... ولا حاجة لما يزيد عن ذلك فانه يصل الي بمجرد هذا العنوان و بادر للكتابة والسلام

١٥ ذي الحجة — سنة ١٣٠٢

١١

وكتب الى صاحب الكتاب (٥) من الكتب السابقة جوابا

لااله الا الله وحده لاشريك له و به الحول والقوة

السلام عليكم وعين الله ناظرة اليكم وبعد فقد وصلني اليوم كتابك يحمد منك اخلاصا طويته واختصاصا بالله حويته و يشكر منك استعدادا لمالأة الله على أمره ومظاهرة لاقامة الحق ونصره ويثني على معرفتك ما آتاك الله من الحول وما رزقك من الطول ونزوعك لشكرك اياه على ما آتاك بالعمل فيه لآخرتك ودنياك ولم يفتك الاعتبار بقوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة» : الآية : ولا بقوله « ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب

ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ٭ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ولن يعجز مؤمن وان ضعف حاله وقل ماله ان يأتي واحدة مما ذكر الله فكيف بك وقد آتاك الله بسطة جاه في قومك تستطيع بها تقويم طباعهم وتهذيب عقولهم وردهم الى ما انحرفوا عنه من طريق الشرع القويم وتنبيههم لما غفلوا عن رعايته من طلب الشهادة وعدها افضل ذخائر السعادة وان لله يدا عندك بما آتاك ولست تأمن مكره في حفظ نعمته عليك لعقبك ان امنت ذلك لنفسك الا أن تؤدي حق الله فيها ولا تؤدي حقه حتى يكون معظمها منصرفا لاعزاز دينه واعلاء كلمته والجهاد للحق حتى يظهر وفي الباطل حتى يدحر فاوصيك وما أنت بمحتاج للوصية أن تجعل كتاب الله امامك وأن تأتمر له كما كان نبينا وأصحابه يأتمرون له فلم يكلفهم الله دوننا ولم يسامحنا الله دونهم وليس بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في فريضة فرضها أو سنة سنها واياك وتعلات النفوس واهاويل الاوهام فانها من مضلات العقول ومداحض الملكة وجند الشيطان وليس بينك وبين الحق الا أن تهم وتخلص لله همك فيكون يد الله على يدك يؤيدك ويأخذ الحق بك والله لا يعين خاذله ولا يضيع عملا أخلص له .

الا أيها الشيخ الجليل ان الله قد اشترى منا حياة دنيئة لو طلبت من عاقل لجاد بها بلا عوض لقيامها على قواعد الاتعاب وقوائم الاوصاب بدايتها ضعف ونهايتها عجز وما بينهما خروج من أحدهما دخول في الآخر ما فات من لذاتها يولد الاسف على فواته وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه والالهف الدائم على تحصيل ما يؤمل منها فليس فيها حال تخلو من آلام وقد وعدنا دينا حقا أن يعوضنا عنها سعادة أبدية في حياة ابدية لا يشوب لذتها ألم ولا يمازج صفوها كدر وذلك عند ما تسلم له السلعة تامة في نهاية الاجل فان لم تقبل بيعة الله في ذلك كنا المغبونين وان لم ندفع له سلمته خالصة كنا الخاسرين حياتنا ذاهبة الى الفناء رغما عنا وليس لنا من امكان الخلود فيها فانظر الى رحمة الله في شرائها منا واجزاله

العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكا لنا وفي سعتنا ان نستبد به عليه ونمنعه مراده منه جلت عظمته ووسعت رحمته الا فلنثق الله ولا نبخل عليه بما هو له ولا نغتر باملائه لنا ومطاولتنا عليه . فشمر عن ساقك واحسر عن ذراعك واذهب الى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين وتأليبهم على تلبية داعي الايمان والله يتولى ارشادك في جميع الاحوال . اما حادثة الشيخ فقد مسنا منها ما مسه ولم يكن ما وجدنا منه أقل ما وجده ولم يغب عنا شيء من أطرافها وقد جهدنا فيها ما استطعنا وربما رأيتم أوسمعتم بما أطالت به جرائد باريز في المدافعة عن الشيخين وتعنيف الحكومة على ما فعلت وذلك بمحاورة من تعلمون هناك ولقد تنازعني في هذه الحادثة مسرة وحزن اما المسرة فلأن الشيخ قام على طريق الصديقين يتلقى من الاختبار الالهي ما تلقوه لينال من رضاء الله اذا احتسب ما نالوه واما الحزن فلما عسى ان يكون قد خالط قلبه من ألم المحنة والاسف على المصيبة والحمد لله على رجعة من غيبة واسأله وقايتكم جميعا من كيد الغادرين وعدوان الظالمين وأن ينزع بخواطركم اليه ويؤلف قلوبكم عليه . وبعد هذا فنبئني عن العنوان الذي به أكتب اليك واخبر الشيخ أن يكتب الي بعنوانه فقد أذنت بان أبعث اليه ببعض القواعد التي ينبغي ان يرفع البناء عليها واذا كتبتم الي فليكن بعنوان . . . وعجل بالاجابة ما استطعت والسلام ١٥ الحجة سنة ١٣٠٢

١٢

وكتب الى ش ي صاحب الكتاب (عدد ٢)

لا آله الا الله وحده لا شريك له وبه الحق والقوة

حضرة الاخ العزيز

ورد الي كتابكم والحمد لله على صحتكم وكنت اود المبادرة باجابتكم من يوم وروده لولا ان رقيمكم صادفني على علة في عيني كانت تمنعني النظر في الكتابة والكتب ولله الحمد على ماخف منها . اشتد اسفي على فقد الشيخ الصالح اوسع الله له من رحمته ونفعنا بطيب نيته . اسفا على فقد حمي لدينه مخلص في يقينه وان كان لا اسف على من يلاقي ربه بمثل ما لاقى الشيخ انتهت دنياه بغضب الشيطان

وانفتحت اخراه برضى الرحمن ولولا رجاؤنا في مثل ما أقبل عليه الصالحون لضاقت بنا منازل الحياة وغصصنا بأهنأ لذاتها وشرقنا باعذب كؤوسها اما ماذكرت عن الشيخ الصغير فقد كان كتابك السابق يشير لي رغبة منك في تعليق الامر بك على انه لولم يكن فيه مثل ذلك لما خطأت الظن فيما كلفتك ولم تستسمن ذاورم بل على المليء به سقطت وان ظني بك لفوق ما تروي عن نفسك ولكن دع عنك ما استصعبت من الامر واخبرني عن اسم الشيخ المشهور به واسم بلده والقطر الذي تغلب اقامته فيه واكتب ذلك بالحرف الفرنساوي الواضح وأستعين الله في مخابرته بنفسي بأسلة قلم أو لسان رسول ولا تبطئوا علي في الافادة والسلام عليك وعلى اخوانك الابرار والله يتولى اعانتكم والسلام

٢٢ ربيع أول سنة ١٣٠٣

١٣

وكتب الى س . س صاحب الكتاب (عدد ٦)

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون

كتبتم الي بانكم اجتمعتم جملة من الصادقين وأهل الحمية للنظر في تقويم ديننا والاخذ بما يرضي إلهنا و يقر عين نبينا ثم حدثت بعد ذلك الاحداث وتلك سنة الله في الاولين والآخرين عنه بداية كل عمل صالح مقبول لديه محفوف بالعناية منه ولم يمنعني حدوث ما حدث عن مخابرة من أنوب عنهم بما كان من اجتماعكم ثقة مني بهمتك وصدق عزيمتك فورد لي الاذن بتسمية مجتمعكم وارسال بعض القواعد التي يبتدأ بها العمل . واليوم ابعث بها اليكم وأملي أن تكون في حرز الصيانة وان تكون مرجع الاعمال ان شاء الله فاذا وصل اليكم ذلك فخذوا عهدكم على القسم المذكور وانتخبوا رئيسكم وعجلوا الخبر بما انتهيتم اليه وفصلوا اسماء من معكم وألقابهم ومواضع اقامتهم وسموا لنا رئيسكم وكتمان السر أوله

وصيتي اليك وهو نهايتها والسلام على أهل العقد الرابع من عقود العروة الوثقى والله يتولى اعانتكم رسالة الرد على الدهر بين أشرفت على نهايتها من الترجمة وستطبع فى بيروت ان شاء الله ومتى تمت أرسلنا اليكم منها

١٤

وكتب الى ش صاحب الكتاب (عدد ٢)

أيها المؤمن حقا

لا أدري هل أخاطبك بالاخ الصالح أو بالابن البار ولكني اعلم انك مؤمن بلادك هيأك الله لرشادك تلقيت بيميني يمينك وضممت الى يقيني يقينك بارك الله لك في عزيمتك وحاطك باليمن فى نيتك ولقد اتيت في عملك هذا سنة المؤمنين من قبلك سارعت الى مغفرة من ربك ممتثلا أمر كتابك المنزل على نبيك وسابقت الى جنة من الله ورضوان .

رويت لي عن صاحبك دون ما أملت فيه ولكني أرى رأيك في استبقائه والارجاء باليأس منه فلعل بارقة من العناية الآلهية تنزع به الى ما هو خير له ان شاء الله

(ومنه) والله انا لنتصفح قلوب المؤمنين في هذا الامر تصفح الناشد مواضع الضالة لعلنا نصيب من قلب حكمة، أو نستفيد من عقل بصيرة، وانا لنتبع في ذلك أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأثر أصحابه ولآخذين بسنته ألحقنا الله بهم . فما باله يرحمه الله يضن بما يراه ان كان للحق طالبا ولكن لا تحزن ان الله معنا ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

ان اخلاد مغرور الى حضيض الجبن فانما رضي لنفسه درك العدم، وانحدر عن ادنى درجات الوجود، ولم يزد في حاله أن يكون كأشباه جبناء يفوقون عدد الحصباء عاشوا في اغلفة من الخمول لا يهتدي اليهم الذاكر ولا ينصرف نحوهم شكر الشاكر هذا بعد أن يكون قد أصاب حظه من المقت الالآهي الكامن فى قوله « رضوا بان يكونوا مع الخوالف فطبع على قلوبهم » واني لأشح بمثله عن هذه المنزلة هداه الله

ذكرت اسم الشيخ القاضي نحبه فلم تذكرناسيا ولم تنبه لاهيا زادبذلك اسفي واشتدعلى مثله لهفي وهمل دمعي وغشي على بصري وسمعي امطره الله غيوث الرحمة وتوفانا على مثل نيته فذلك كان من الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . قم على مذهبك وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وذكر بآيات الله فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم .

١٥

وكتب اليه أيضاً هذا الكتاب المطول وهو من أجل كتبه الدينية

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

سرني ما نقل اليّ كتابك أنك استجبت لربك فيما دعا اليه عموم خلقه بقوله « قل سيروا في الارض » وانما يستجيب اليه أهل الرغبة فيه، ولقد حمدت الله أنك لم تجعل سيرك سير الغافلين ولم تمر على ما لاقاك مرور الذاهلين بل استعملت بصيرتك ونظرت فيما قام لك من أحوال الناس لتعلم ماذا أبقت الحوادث فيهم من الاستعداد لقبول الحق والميل للرجوع اليه، وما أظنه ذهب عليك، أيام كنت تقلب عين اعتبارك في اطوار أولئك المحجوبين ان ما هم فيه لا تختلف عن عواقب المكذبين الذين يأمرنا الله بالنظر كيف كان عاقبة أمرهم وما أحل الله بدارهم من بوار وما الحق بعمرانهم من دمار وما ألصق بذكرهم من عار وشنار كيف يختلف الحال عن الحال وانما التكذيب أثر غين يغشى عين القلب فيواري عنها وجه الحقيقة فتعمه ظلمة أشبه بظلمة الخسوف تعلو وجه القمر فاذا أظلم القلب وهو مستودع السر الذي به كان الانسان انسانا فقد أظلم الانسان كله ، وذهبت قواه تخبط في أفاعيلها على غير هدى وتعسر عليها ان تلزم طريق الحق والصراط المستقيم وهذه الحال كما تراها فيمن ينكر الحق بلسانه ويكذب الداعي اليه بانكار بيانه تراها بعينها في هؤلاء المخدوعين الذين يزعمون انهم آمنوا بالله وبرسوله وبكتابه ثم هم في أعمالهم وآمالهم أبعد الناس عن سَنَنه وسُنَنه وأشدهم التواء على أمره ونهيه وقد علمت أن الله لم ينظر الى قوم

يقولون بافواههم ماليس في قلوبهم وأن اليهود لم ينفعهم أن آمنوا بموسى وخلفائه من الانبياء أو بما جاؤا به من الوحي الالهي ايمانا يحاكي مايدعيه المسلمون في هذه الاوقات كان اليهود يعرفون موسى نبيا لهم والتوراة وكتب الانبياء هدايات من الله لعقولهم كما يعرف المسلمون ذلك في كتاب الله تعالى ولكن الله نعى الينا أحوالهم في مزاعمهم فقال « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين » فقد جعل تأويلهم التوراة وصرفهم لألفاظها الى غير ما أراد الله بها وحيدانهم عن العمل بما دعت اليه تكذيبا بآيات الله، وجعل نقضهم لما حملوا من أحكامها مروقا منها حيث قال لم يحملوها وجعل تصديقهم بها على هذا الوجه بمنزلة احتمال حمار لاسفار فهو فى عناء من ثقلها على بعد من فائدة ما أودع فيها . أفليس هذا النبأ بعينه يحدث عن أحول المتحلين اسم الاسلام في هذه الايام وأنهم حملوا القرآن ثم لم يحملوه الى آخر الآية ألم يكن في ظلم أهل هذا العنوان وجمودهم عن حدود الله مايستحقون به تسجيل الضلالة عليهم كما سجلت على اليهود في قوله « والله لايهدي القوم الظالمين » وأشد الظلم ظلم النفس بعدولها عن سنن الحق . الا يصدق عليهم انهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون !! الا ينعى حالهم « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » الا يحكي جهلهم « ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا اماني وانهم الا يظنون » أي أنهم لا يعلمون منه الا أن يتلوه تلاوة بغير فهم فأن طلبوا شيئا من المعنى لم يكونوا فيه على بصيرة إن يظنون الا ظنا

اني استلفتك الى أولئك الذين يتناولون مصاحف القرآن الكريم بأيديهم خصوصا فى شهر رمضان ثم يطفقون يلوكونه بألسنتهم ويزعمون أنهم يتقربون الى الله بترنمهم ويصعدون الى منازل القرب عنده بنغماتهم وترنين أصواتهم ويجعلون كل همهم في هزؤوسهم والتوفيق بين لهزات وتموج النغمات وما شا كل ذلك من لواحق الصور والهيئات مما قد يعجب له عرفاء الدين ويستغرب حدوثه في المسلمين أهل اليقين لبعد النسبة بينه وبين دينهم والمنافرة الثابتة بينه وبين مقتضى ايمانهم حتى اذا انصرف أولئك القارئون والتمسوا من قلوبهم عبرة مما قرأوا أو عظة مما سمعوا لم

يجدوا من ذلك قليلا ولا كثيرا بل رجع كل منهم الى هواه وأوى الى قعيدة نواه وما كان قد انصرف عن وساوسه ولا انقطع عما استحكم سلطانه في نفسه من شياطين أهوائه الا في ظاهر ما يرى الناظر واذا سئل أحدهم عن شيء من معنى ما قرأ التجأ الى الجهل أو خبط في مضلة من الوهم واذا قيس عمله الى احكام ما يقرأه وجدت تباينا كما بين الاسلام والكفر فبالله الا ما اجبتني هل تجد فرقا بينهم وبين اليهود فيما قص الله عنهم في قوله ومنهم اميون الخ الا تجد الوصول الى الفرق نزر الوسائل متعذر الذرائع؟ ولو سردت من أحوال اليهود والنصارى والمشركين التي قص الله علينا تحذيراً لنا من التدنس بمثلها ووضعتها مع أحوال المسلمين في كفتي ميزان الا ترجح أحوال المسلمين سوءًا على أحوال أولئك الضالين.

أصبح المسلم في هذه الأيام حجة للكافر على كفره وفتنة له يضل بها عما أقام الحق من اعلامه فاذا قيل ان الاسلام خير الاديان بل هو دين الله الذي أخذ به الأمم السابقة فضلوا فضربهم بأنواع من عذابه في الدنيا واستدق لهم ما لا نهاية له من الشقاء في الآخرة ظهر فيهم بصور مختلفة ثم جاء في أكمل صورة ببعثة خاتم الانبياء مستتما لنوره مكملا لأمره لتقوم به الحجة وتتضح به المحجة وأصحب هذا القول بألف دليل كلها أوضح من الشمس وأنفى للشك من ضوء البدر لظلام الليل — رأيت علة واحدة تهدم كل ما في من الادلة وهي: لو كان الاسلام دينا صحيحا ما وجدنا أهله المتمسكين به (في زعمهم) على ما نرى من فساد الاخلاق وسقوط الهمم وضلال العقول هكذا أيها الحبيب أصبحنا فتنة للذين كفروا والله ينبهنا على ما صرنا اليه بتعليمه ايانا كيف ندعوه اذ يقول « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » وما كان تعليمه الدعاء الا لنتوسل بالعمل الى ما نطلب منه ثم ندعوه المعونة على ما نقصد من موافقة رضاه فلو فقه المسلم لابتعد جهده عما يجعله فتنة للكافرين وجعل ورده ليله ونهاره « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » ولكان همه في ان يكون بكماله قذى في عين اعدائه لا أن يكون حقيراً في أعينهم ضحكة لهم في محافلهم.

ولقد حدث في هذه الأيام الأخيرة ان قيسيسا انكليزيا جداه البحث الى

شيء من محاسن دين الاسلام فأخذ يبث ماعلم في الجرائد الانكليزية وفي المحافل الدينية في انكلترا الا انه يصعب عليه ان يعلن اسلامه و يصرح بحقيقة إيمانه لانه يخاف ان تطول اليه أيدي الاعتداء من قومه وهو يدعو الى الاسلام تحت حجاب انه لايخالف المسيحية الحقيقية بل هو متمم لها وله فيما يدعو اليه شيعة تنمو في لندرا وبيننا و بينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره وله معارضون كثير من الانكليز وغيرهم واذا تقصيت البحث في جميع حججهم لاتجد فى مقدماتها الا مايكون راجعاً الى ماعليه المسلمون الآن من الاخلاق والعوائد والأفكار وكلما جاء الرجل لهم بشيء من أحكام كتاب الله أو بأثر من آثار المسلمين الاولين رأيت أولئك الجاحدين يقابلونه بأحكام يعدها المسلمون من حدود دينهم ويعولون عليهافي أعمالهم وهي مقصية لهم عن الكمال ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال فكلما ردهم الى الله ورسوله ردوه الى أحوال المنتسبين الى هذا الدين القويم وهم عاره وبهم يهدم مناره وتخفى آثاره لو بقي في أيديهم أمره غير اني أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبّسوا على أنفسهم وانقلبوا فتنة لغيرهم ثم ينتقم منهم بأيدي الظالمين والصالحين « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين — وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فهنيئاً لمن أعد نفسه وسبق نعسه فشحذهمته وطهرنيته وقوّم إرادته واستجمع عزيمته للقاء ركب الله الذي سيفد عليه فيكون اماراجلا في مشاته أوفارساً من كماته أوخادماً في حاجاته أو سيدا في رياساته ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه وحاشا كتاب الله ان يشهد الالمن لبى دعوته وقبل شهادته ونصبه امامافي محراب الوجود يتبعه بصره ويحذوه في سيره يقوم اذا قام ويقعد اذا قعد. يعظم ماعظم ويحقرما حقر ويطلق ما اطلق ويقيد ما قيد ثم أقام له من زواجره خطيباً على قلبه وواعظا يصدع بأمر ربه على منبر لبه يعلمه اذا جهل ويوقظه اذا غفل ويذكره اذا ذهل ويحثه اذا كسل ويسرع به اذا أبطأ وينهضه اذا تلكأ ويستلفته الى الصواب اذا أخطأ يهديه اذا تحير ولا

يهدو به الخير اذا تخير يرد جماحه اذا جمح ويكف من غربه اذا طمح حتى يقيمه على الصراط السوي ويصعد به الى المقام العلي وكيف يستعمر القرآن قلبا تشغله الاهواء الباطلة وتستوكره الرغائب الزائلة . ان القرآن طاهر لا يجاور الا طاهرا وقويم يأبى ان يساكن جائرا زكي لا يأنس للارجاس علي يأنف من مقاربة الادناس فلا عجب اذا استوبل المقام في هذه القلوب المحتشية بالعيوب وتركها وشياطين الوساوس تخبط بها في مخازي الدنيا ومهالك الآخرة .

ياعجبا لمن يدعي الاسلام وهو يعرف من نفسه ان أمراً لوجاءه من أصغر الحكام عليه بلغة غير لغته لما قرت له راحة، ولا اطمأنت به نفس ،حتى يقف على ترجمته ولا يكتفي بمترجم واحد حتى تكون ثقته به كثقته بنفسه والا راجع ثانيا وثالثا لدقائق المعاني حتى لا يفوته شيء مما حواه امر آمره فيقع في مخالفته الى غير هواه وكلما عظم مكان الآمر اشتد الحرص على استجلاء مراده خشية الوقوع في حداده أو ما يبعث الظن الى التحرش بعناده وقد يكون الامر مما يضره ولا ينفعه ويخفضه ولا يرفعه كل ذلك للبعد عن مساخطه والارتياح الى مراضيه هذا وهو يزعم الاعتقاد بأن القابض على ناصية أمره هو الله سبحانه وتعالى وهو المقلب لقلبه والآخذ بعنان ارادته . ثم هذا أمر سام ورد له من علي متعال رب الارباب ومخضع الرقاب قهار السموات والارض الذي لا ترد مشيئته ولا تخالف إرادته . الكتاب المجيد يتجلى به في منازل الرحمة ويستفيض منه ديم النعمة ويقيم به على السعادة اعلاما ويضع لاجتناء ثمر الكرامة احكاما ويعد المستجيبين لامره هذا وهو القادر على كل شيء ان يمكن لهم في الارض ويخدمهم أهلها ويجعلهم الاعلين فيها وان تكون عزتهم مقرونة بعزة الله ورسوله وأن لا يبيد سلطانهم ،ماثبت ايمانهم، ولم يشبه كفرانهم، كما قال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون)

وليس في المواعيد السماوية اصرح مما وعد الله في كتابه المبين ولا أقطع للشبهة

منه ثم زادهم على ذلك نعيما أبديا واوعدهم في المخالفة خزيا دنيويا وشقاء سرمديا. والذين يكفرون وسجل عليهم أنهم الفاسقون هم الذين تبطرهم النعم فتستزلهم عن مقامات الشكر ثم تنتابهم الغفلة فيعدلون عن سبيل الذكر الحكيم ومن فسق عن أمره أحل به غضبه وانفذ فيه عامل انتقامه وسلبه ملابس انعامه أما بشقي مثله أوولي من أهله ثم ضاعف له العذاب يوم القيامة وأخلده فيه مهانا الا ان يتوب فيغفر له ماقد سلف. ويعلم المخدوع ان صاحب هذا الامر العلي مطلع على السرائر بادية لعلمه صفحات الضمائر ومع هذا وذاك لا يتفهم أحكامه ولا يتبع اعلامه وينبذه وراء ظهره كان لاعلم له بنهيه وأمره ويمني نفسه ان ينال ما ادخر الله لاوليائه اذ قصرت همته عن نيل سعادة الدنيا ليتنعم به فى الآخرة شهوة تحول دونها اعماله وأحلاما تنافي صدقها احواله وما أعجب حال من يزعم الايمان بالله ولا تفنى اهواؤه في ارادته ولا تضمحل نشزات طبعه لمهابته ولا تتضاءل عزائم نفسه لعظمته ولا يجعل القسم الاعظم من حياته للسعي في مرضاته ولا يبذل من نفسه وماله مالا يخسره في ماله

حدثتني عن اليائسين من علية ق (وذكر بلدا من قطر المخاطب) واشباههم فهؤلاء لم ييأسوا من الله حتى ساء به ظنهم وما ساء ظنهم حتى انتقض ايمانهم فحالهم حال القائلين « ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا ». وروبت لي عن أهل النفرة سكنة ص (وذكر بلداً آخر) فهؤلاء بقيت فيهم بقية لابد ان يؤيدوها بالعمل ولا مكمل لما بقي فيهم الا رجوعهم الى الله ورسوله ولن يرجعوا اليه حتى يكون مزاج وحدتهم وحبل اعتصامهم كتاب الله يهزون به هممهم ويلمون به شعثهم ويشهدون الله انهم نصروه في الاحوال والاعمال فينصرهم في مواطن الجلاد ومواقع الجدال.

ان كنت وثقت بشيخ الاسلام الذي ذكرته لخذ العهد عليه وسق اليه ببعض كتابي هذا أو بكله ان رأيت ذلك ملائما لحاله والا فزدني فيه بصيرة فاكتب اليه بما يلهمه الله

وافني بكتبك بما أمكن من السرعة ولا تبطئ علي بعد الآن والسلام.

١٦

وكتب اليه أيضا

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

أيها الاخ الصادق ايده الله

طال عهدنا بك لم نر منك كتابا، ولم نتلق عن لسان اخلاصك خطابا، وابطاؤك عنا، مما يقلق الخواطر منا، لاخوفا على ايمانك، ولا ريبة في درجة احسانك، (نعوذ بالله) ولكن خشية ان يكون عرض لك من العوارض الجسدانية، أو خالطك في الاحوال المعاشية، ماقبض من يدك، أوفت في عضدك، (حماك الله) فرجاؤنا ان لاتفوت فرصة تمكنك من سوق خطابك الينا حتى تنتهزها، فان لسكون القلب بالاطمئنان على سلامتك قيمة علية في نفوسنا، فقد لايخفاك أنكم في مكان مخافة، ومحل مضيعة، تضطرب عليكم منه القلوب، وتذهب وراءكم فيه النفوس، وان صادقا مثلك لجدير ان يحرص عليه، وان تعنى الأرواح بالتطواف حواليه.

كان لكتابك المفصل وقع جميل، ولك على القيام بتحرير مثله الشكر الجزيل، فليكن العمل على ذلك المذهب، حتى يصفو المشرب، ويتضح المطلب، ان شاء الله. أما وصيتي اليك فاقتصر منها اليوم على ماأوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا رضي الله عنه إذ قال له «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الامل (في الدنيا) وقصد العمل ولزوم الايمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح واياك أن تسب حليما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما أو تعصي اماما عادلا أو تفسد أرضا، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر وان تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية» اه

هذا جماع من مكارم الاخلاق يعم ما نحن فيه وما وراءه والخير في جمعه. فالدين بناء وهذه اعراقه ولا يتم اعلاه حتى يتم ادناه. ثم لاتنس قول عائشة الصديقة رضي الله عنها: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن. فقد أبقى الله سبحانه في نبيه صلى الله عليه وسلم مظاهر من صفات البشرية تبدو لها آثار، تلحظها البصائر والابصار

ثم حددها في كتابه، وهذبها في محكم خطابه، تعليما لامته، وارشاداً لتبعة ملته، فكان في ذلك أعظم فخره صلى الله عليه وسلم حيث قال « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ولا بركة لنا في شيء من أعمالنا الا باتباع سنته، والسير على المأثور من سيرته، والتحقق باخلاقه والتماس خلاقه، واقتفاء أعلاقه، هذا اصلاحنا وهو سلاحنا (ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم — قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وعلى هذا فليكن دأبك حتى يظهر الله أمره، و يعلن سره، واياك والملل، فالخطب جلل، وقضاء الله أجل، ومع هذا كتاب من الامير أوصله الى صاحبه حسب رأيك والسلام عليك وعلى كل صادق الايمان ثابت الجنان ٦ صفر سنة ١٣٠٥

١٧

وكتب الى أحد شيوخ التصوف المرشدين . م . ت

بسم الله الرحمن الرحيم ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم

الحمد لله وبه الهداية في البداية، وهو الغاية في النهاية، والصلاة والسلام على سر العناية، وحقيقة كنه الولاية، وآله حماة الدين، وأصحابه الهداة الراشدين

أما بعد فان من نعم الله عليّ ، ولطف احسانه اليّ ، ما أودعه في فطرتي ، من الميل الى الخيرة من أهل ملتي ، فلا ازال لهم طالبا ، وفي الصلة بهم راغبا، خصوصا من تجمعني بهم وحدة التربة ، وتضمني اليهم جامعة النسبة ، وقد بلغت الي شهرة عرفانكم، ومارفع الله في مقامات القرب من مكانكم، فألهمت ان افتتح اليكم باب التعارف ، وشنشنة المؤمنين التراحم والتعاطف ، قال صلى الله عليه وسلم « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » واما الاخوة التي عقدها الله بين المؤمنين ، وان أهملت عند كثير من الغافلين ، إلا انها لم تزل والحمد لله تلحظها بصائر العارفين ، وتصبو للاعتصاب بها قلوب الصادقين ، فانما الاخوة مظهر سر المحبة ، والمحبة تجلّي سرّ الجذب الالهي الذي يجمع الله به أرواح الصديقين الى حضرته القدسية — هذا الى ماناط الله بها من قوة التعاون قال صلى الله عليه وسلم « من

أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ان نسي ذكره وان ذكر أعانه » وكما يكون التعاون والاماكن دانية ، يكون والاقطار نائية ، وخير المونة ماعاد على الارواح ، بتزكية وصلاح ، ولا أعود على الروح من علم تستفيده ، أونصح تستجيده ، أوصلة بين متحابين تأنس اليها ، ووحدة بين متواصلين تعوّل عليها ، وأرجو ان يجعل الله في مكاتبتنا بركة ذلك كله ان شاء الله فسركم ظاهر ، وضياؤكم باهر ، وميلي اليكم غير معلول ، واهتمامكم بالاجابة مأمول ، واذا كتبتم الينا فليكن عنوان ظرف الكتاب . . والله ينفعنا بالتواد ، ويبلغنا به غايات المراد ،والسلام عليك وعلى من يرتبط بعهدك ورحمة الله

١٨

وكتب الى أحد العلماء جوابا عن كتاب له يقول فيه انه فهم من قسم الجمعية انها تدعو الى مذهب الظاهرية

لااله الا الله وحده لاشريك له وبيده الحول والقوة

ثم وصلني كتابكم وكتاب أخي الفاضل محمد ش وقد آسفني والله يعلم مابلغ الاسف مني خبر وفاة سيدي الشيخ والدكم الا ان ذلك مصير لابد من الانتهاء اليه، وان عظم الاسف عليه،وفيما عندالله سلوة الابرار. اماما ذكرت في كتابك من اسم الظاهرية فلم يكن ليخطر على بالي توجه فكركم اليه فان المذكور فى القسم تحكيم كتاب الله فى الاخلاق والاعمال بلا تأويل ولا تعليل ومن الظاهر البين ان المراد من الأعمال عزائمها من الجهاد في الله حق جهاده وبيع النفس فى مرضاته والسعي لاعزاز دينه والقيام بحفظ أوامره ونواهيه التي يكفر جاحدها ويفسق الحائد عنها ويشهد بذلك اقتران الاعمال بالاخلاق فكيف ذهب خاطر سيدي الى العقائد أو أعمال الفروع وليعلم سيدي اننا سنيون أشعريون أوماتريديون واننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب الاربعة فمنا المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي وفى المعاملات على مذهب حاكم البلاد ان وافق واحدا منها فان كان على غيرها توقينا المرافعة اليه ما أمكننا وانما ذلك القيد ليخرج الداخل معنا من حكم قوله تعالى (يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض) وليمتاز المؤمنون بالكتاب

عن الذين يزعمون الايمان به ولا يأخذون بشيء من أحكامه الاصوراً من الاعمال لا ينظر الله اليها ، وأولئك قوم عرفناهم وعرفتموهم يهونون على أنفسهم ضيم الدين لا يحزنون لذله ولا يعملون لحمايته ويتملون باليأس ، و يحتجون بالبأس ، يفرون من الله فيما ألزمهم عمله ، ويسألونه المعونة على مانهاهم عنه ، و يركنون في ذلك الى التأويل والتفسير ولو أن شيئاً من المكروه أصابهم لرأيتهم يطيلون الأحزان ، ويحشدون الاشجان ، ولو عنّ لهم حطام من الدنيا رأيتهم يشدون المآزر، ويشمرون عن السواعد ، كأنهم للدنيا خلقوا وكأنهم فيها يخلدون

لعل في بياني هذا كفاية، ولو وسع الوقت أطول منه لأتيت بما عملك تلاوته، وأما ماذكرته في أمر المواد من أنها لا توافق بلادكم فلم أعرف له سبباً فانها مواد عمومية جرب العمل بها فى أقطار مختلفة والحمد لله صادفت نجاحا . فان كان ذلك كما ذكرتم فابعثوا بها اليّ في أول بوسطة، وأقسم عليك بالله الآخذ بناصيتي وناصيتكم ان تنقلوا لها صورة، ولا تنسخوا من موادها مادة، لأردها من حيث جاءت، ثم ابعثوا اليّ بما تجدونه موافقا لكم لنطلع عليه فان رأيناه موافقا سألنا لكم إقراره والسلام عليكم وعلى من يتصل بكم

١٩

وكتب الى بعض أعضاء الجمعية في بعض الاقطار الخارجية

بسم الله الرحمن الرحيم

(ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ذلك الذي وفد اليكم من القسم الذي سماه رسول الله صلى الله المنافق العليم اللسان وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء لا يتبين منه علكم بحاله، وتحفظوا منه كل التحفظ وإياكم ومكاشفته بشيء مما أنتم عليه، فلقد وجدته يدنو من السيد أيام إقامته بباريس و يسعه من السيد لين جانبه، وحاجته الى ترجمان في بعض شؤونه، فلما كثر اجتماعي به تبينت فساده، فأقصيته من السيد، وباعدته عنه و بعد أن كان ترجم لنا بعض الاخبار في بداية اشتغالنا بنشر آراء العروة طردته استعاذة من خبث سريرته فنعوذوا منه

تعوذكم من الشيطان حتى يفرق الله بينكم وبينه

أما قولكم في كتابكم اني كاتبت الشيخ بتوبيخ فقد راجعت له نسخة الكتاب التي كتبت من صفحة كتابي فلم أجدني الاعزيت الشيخ أولا ثم كشفت له عن وجه الشبهة فيما استفهم عنه ثم قلت — واني لصادق — انه ما كان يخطر ببالي توجه فكره الى الرأي الذي يسأل عنه وما قصدت بذلك والله توبيخاً ولا لوما ولكن نبهت على ما أعلم وليس وراء ذلك غاية، وفي الحق اني لو كنت أعلم ان العبارة توهم ما استفهم عنه، لكنت وضحت المراد في كتابي الاسبق ولم أحوجه الى الاستفهام، هذا ما أردت، ولعل تطويلي في بيان المراد أوهم شيئاً مما قلتم ولست منه في شيء. ثم انني طلبت منكم نسخة المبادي ان لم تريدوا اعتمادها وهذا ما يوجبه علي عهدي الذي أنا فيه

اما عدم ثقة الشيخ بهمة من ذكرتم فيما له الحق فيه، وهكذا أمر هذه الامة في جميع اقطارها، ولهذا احتجنا الى معاناة الاضمار، ومقاساة الاسرار، والاستخفاء بما أمر الله ان يعلن ويظهر، غير ان القليل ممن يكون على الشرط كثير وقد صرحت تلك المبادي، بان الرشد والنصيحة العامة من الواجبات على القائمين بأمر الحق لتستعد النفوس وتتهيأ العقول وليس في هذا حرج على المتعاطي ولكن أهل العقد وهم بمنزلة القوة العاقلة في البدن لابد ان يكونوا على الشروط المعروفة عند أصحاب الرابطة فسلموا على الشيخ سلاماً طيبا وأكدوا له انني لم أقصد في بياني السابق شيئا مما أوهمته العبارة واني أعيذ نفسي من توجيه اللائمة على من من دون منزلة الشيخ من أهل الايمان الصحيح وأعود الى تحذيركم من الجاسوس الجديد فلا يتسقطكم بظاهره الى علم شيء من سرائركم والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٠

وكتب الى ش وهو من أجل كتبه وأحاسن مواعظه

لا إله الا الله وحده وبه الحول والقوة

تلقيت رقيمك على قلق من تباطي، أخبارك، فقر خاطري بالاطمئنان على صحتك، تأكد الثقة من خلوص ارادتك وما كنت لأرتاب في عهدك بعد ما أعطيت ميثاق

بيمينك وأنت مؤمن قد جعلت الله عليك وكيلا . لوعرض لي الشك فى وفائك لكان غمزا مني على ايمانك، وأعوذ بالله أن أغمز على مؤمن وهو مخلص في إيمانه، أما حنوي عليك ، وإحفائي السؤال عنك، فهو مما توجبه عليّ صلتي بك والارتباط بميثاقك بل ذلك أيسر الحقوق عندنا وأوجبها فى ذمتنا وما أنا بالمتفضل فى أدائه، وما أنا بمنجاة من اللوم ان قصرت في ايفائه، ستعلم الحقيقة من هذا اذا سنى الله لمصابته ان تظهر، واذن لها أن تسفر

بعد هذا هل أنت على ما أوصيتك سابقا من مداومة النظر في كتاب الله ووعده ووعيده وقصصه وعبره ؟ هل ذهبت بنفسك الى ما قبل ألف وثلاثمئة سنة ووقفت بين يدي سيد النبيين، وهو يتلو كتاب الله على خلص المؤمنين، فسمعت كما سمعوا ، وفهمت على مثال ما فهموا، وزججت بروحك في مجامع تلك الارواح الطاهرة التي آزرته وآوته ونصرته؟ هل خرقت حجاب المحدثات وفرقت ستائر البدع وخالطت أهل النور وصافحت قوما صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؟ ان لم تكن فعلت فاليك ان تفعل والوسائل متوفرة لديك ــ عقل وحسن يقين وكتاب الله فيه تبيان كل شيء وفيه سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم والذين معه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

لا يميل بك عن طريق الحق قلة السالكين فيه، فوالله اني لأرى المؤمن في جيش من يقينه ، وحصن من ثقته بربه ، يثبت بهما فى المزالق ، ويدرأ بمنعتهما غائلات المهالك، وانه لفرح به اذا حزن الناس ، ومبتهج فيه اذا اشتد الباس، واستحكم اليأس ، واني لأرى المنافق في مزعجات من وساوسه ، وموحشات من خسائسه،

كريشة في مهب الريح ساقطة لا يستقر لها حال من القلق

وانه لسريع الهزيمة، قليل الغنيمة، وما كنت لآتي في وصفه شيئا بعد ما قص الله عنه في كتابه وكتاب الله حي لا يموت شاهد على الأحياء كما شهد على الاموات وما كان المنافقون زمن نزول القرآن ليختلفوا فى الحقائق والصفات، عن أشباههم

من أهل هـــذه الاوقات،فتوخ من نفسك ماأثنى الله عليه ، وتنح بها عما وجه باللائمة اليه ، وإياك والأعاليل وفاســد التأويل ،فانها حبائل الشيطان ومذهبة الايمان، نعوذ بالله

كنت سألتني عن العمل في العقد المالي فأشرت اليك ان تبعث به الينا فى بيروت ثم لم يكن له ذكر في كتبك من بعـد وإني أعيذك من الضن بيسير مثله في سبيل ربك ترجو ثوابه وتكتفي حسابه وأبعدك عن مرامي النداء الالهي فى خطاب قوم (هاأنتم أولاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) ولكنني ألتمس لك من نفسي أعـذارا تخيلها الثقة وتمثلها المحبة فلو علمت الحق فيما أبطا بك أفهمت القوم عذرك

أما ذلك الشيخ فان نكث فانما ينكث على نفسه،غرته الحياة الدنيا وغره بالله الغرور،فقطع ماأمرالله به ان يوصل،وواد من حاد الله ورسوله،وباع نفسا شريفة بثمن بخس،وأضاع سعادة أبدية بمتاع قليل (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم في بعض الامر والله يعلم أسرارهم * فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) بشره بأن سيؤخذ من مأمنه ، ويزلزل من مسكنه ، ومن أعان ظالما سلط عليه ، ومن يخذله الله فلا ناصر له ، ولئن أمهل أياما فوالله ماأهمل،ولقد كان خيرا له لو ابتعد ولم يعد،وباعد قبل أن يعاهد،ولكنه اقبل ثم ولى، وأمسك ثم خلى،فلصق به عار الغادرين،وحقت عليه جريمة الناكثين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وما ضره لوسالم القوم بظاهره،وبقي مع الله بباطنه، فأخذ حظا من دنياه وحظا من آخرته ؟ هل ظن أنهم أشد سلطانا عليه من قهار السموات والارض ؟ أم أنهم أنفذ الى باطنه علما من عالم الغيب والشهادة، فأعطى القوم قلبه، وأبقى لله سلبه

٢١

وكتب الى أحد أمراء المسلمين في بعض الاقطار عند تأسيس جمعية العروة الوثقى

لوندرا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٠١

سيدي الامير الاخطير سعادتلوا أفندم حضرتلري

السلام على نفسك الزاكية وهمتك العالية وأفكارك السامية اني عهدت فيك مالا أتوسمه في سواك لهذا وجهت اليك روحي في هذه الاسطر تندب همتك، ما هو من أحكام ذمتك، لا انبئك بما فرض الدين فني علمك به أصدق الانباء، ولا أنبهك لما غفلت عنه عين سواك فاني أجل نظرك عن الاغفاء، لا أعرفك بما أوجب الوطن في صراحة نسبك، وعلو حسبك، ما يلهمك الاحاطة بحقوقه، ولا أذكرك بما نسي غيرك فني شهامتك أنفع الذكرى

ساق اليقين جماعة من المسلمين الى السعي في خير هذه الملة المغلوبة واعتصموا بالله وليس على الله بعزيز ان ينجح سعيهم يسعون في ارجاع الوحدة الملية وتنبيه الحاسة الدينية ليمكن للملة ان تتقي الضيم وتخلص من الذل ولهم في هذا السعي طرق عديدة منها ما ندبونا اليه وقد علمت خبره ولله الحمد على ظهور ثمرته في اقطار كثيرة أفلا ترى من الواجب ان يكون لهمتك نفحة في مساعدتهم وتعضيدهم في سعيهم؟ انت تعلم ان الأعمال العظيمة في هذا الزمان وفي كل زمان تحتاج الى التضافر في الافكار والتعاون في النفقات كل بما يقدره الله عليه ولست أخشى ان أقول لك انك سيد القادرين على الامرين لا يخطر على بالي ان يمنعك من الدخول فيما دخلوا فيه بأس، كيف وأنت مؤمن والمؤمن لا ييأس، وقد رأيت العالم وقرأت التاريخ وشهدت مساعي الأوربيين ووقفت على حقيقة لا يكابر فيها أحد .. ان الكثير من القليل والكبير من الصغير وان النجاح مقرون بالأمل والثبات في العمل فان لم يكن يقيننا بالله كافيا في حياة آمالنا انه يكفينا النظر في شؤون أعدائنا وهم لا يمتازون عنا في شيء من خواص الخلقه وغاية ماعندهم انهم لا يحقرون عملا ولا يقطعون املا ولا يأخذ أحدهم رهبة فى أداء مايوجبه عليه دينه أو وطنه

لا أتوهم خيبة في سعيي الى همتك، ولا تقصيرا منك في القيام بخدمة ملتك،

بعدما رأيت مانزل بها، واستطلعت ماسيطرأ عليها ، والله لا يضيع أجر العاملين، انني اليوم في لندرا دعيت اليها مرارا فتمنعت و بعد الالحاح أتيت والمأمول ان يكون في الامر خير

الرجل الذي نالت مصر في عهده ما نالها يحاول الآن ان يعود اليها ولا أظن ان هذا يوافق مصلحة مصر وأحب ان أقف على رأيكم فيه فان جزءاً من عملي في لوندرا متعلق بالسؤال عنه والمخابرة تكون بالعنوان الآتي الى باريس ومنها يصل الي، سيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام وسلامي عليكم وعلي من تحبون والله يحفظكم

٢٢

وكتب من بيروت الى القس الانكليزي الذي خطب في لوندره مبينا محاسن الدين الاسلامي وكان الاستاذ الامام كلف مرزا باقر ترجمة خطابته وصححها هو ونشرت في جريدة ثمرات الفنون وقد نشر خطبته منها في مجلد المنار الرابع (راجع ص ٩٤٦ منه)

كتابي الى الملهم بالحق، الناطق بالصدق، حضرة القس المحترم اسحق طيلر أيده الله في مقصده، ووفاه المذخور من موعده

وصل الينا من خطابتك ما ألقيته في المحفل الديني بمدينة لوندرا متعلقا بالدين الاسلامي فاذا للحق نور يلمع من خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة وتشيمه أعين العقول النيرة رفعتك هداية الله الى مقام الانصاف فرأيت الاسلام في طبيعته السليمة ووقفت عليه في مزاجه الصحيح فأدركت أثره في النفوس البشرية وعلمت انه أفضل ما يعد الروح الانسانية الى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ودافعت عنه دفاع العارف به وجليته للغافلين في أجمل صورة يمكن ان يلمحوها بأبصارهم ويتصفحوا دقائقها بأنظارهم ثم دعوت ابناء ملتك الى كلمة السواء بينهم و بين المسلمين وصدقتهم النصيحة أن لا يحنقوا المسلمين بتكذيب نبيهم ولا تكفيرهم في الاعتقاد بدينهم ووعدتهم ان قبلوا نصحك بإصابة المسيحية في الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذا بعضد المسيح باعلاء كلمة دينه الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك وآيات حق ساقه الله اليك وإنا لنهنئك على

هذه البركة العظمى التي اختصك الله بها من بين قومك ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتنهزم له ظلمات الغفلة فيصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الألفة فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين .

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته والك لتجد الك مؤيدين وان كثيرا من ذوي الألباب ليجدون في قولك مواقع الصواب وان هذا الأمر الذي قمت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية وانك ان كنت واحدا فكل شيء مبدؤه الواحد ثم يكثر حتى لا يحصر وان كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه فيؤازره الدهر حتى يغلظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتبا متوافقة وصحفا متصادقة يدرسها ابناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين فيتم نور الله ولو كره المشركون ويظهر دينه الحق على الدين كله واني لا أشك في ان لك الرغبة التامة في نشر مذهبك هذا وترويجه بين الامم الشرقية والغربية وقد سعينا في ترجمة خطابك ونشره في الجرائد الغربية فان كان عندك مقالات أخرى فنرجو ارسالها لنعمل على ترجمتها ونشرها بين أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم ولكن تمام الأمل انما يكون بارسال رجال ممن وافقوك في المشرب الصحيح لينشئوا مدارس في البلاد المشرقية خصوصا بلاد سوريا وليطبعوا هذا الرسم الشريف في النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة فتنمو بركته وتجزل ثمرته وانني على عجزي مستعد لمشاغلتك فيما تقصده من تقريب ما بين الملتين بكل ما يمكنني والسلام على من اتبع الهدى .

٢٣

وكتب اليه ثانية جوابا عن كتاب ارسله اليه وفيه يدعوه الى الاسلام والى الدعوة اليه في انكلترا .

عزيزي حضرة خطيب السلام القس اسحق طيلر

كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثة وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هي الدين الحق تفرعت عنها اغصان متعددة لا يضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها ما يرى في اختلاف أوراقها وفرج انشعابها ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحدة لونها وطعمها قد انحصر في الدين الاسلامي الذي ينشق من جميع عروقها وجذورها فهو قذالكتها والغاية التي قد انتهى اليها سيرها لأنه يصدق الكل و يعظم الجميع ويدعو الى التوحيد المحض والفردانية الصرفة التي اليها مرجع الخلائق وان بلغ اختلافها الى مايفوت الحصر و يتجاوز حدود النهايات

و بعد رجوعي من بيروت رأيت من جنابكم مكتوبا بعث بواسطة صديقي جمال الدين بك وجدتكم تذكرون أمورا كالطلاق وتعدد الزوجات والرق وتظنون انها أهم ماعليه اختلاف أهل الدينين مع ان أمثال هذه المسائل لا يعدها المسلمون من أصول الدين ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ماتحبون من ذلك بدون حاجة الى فتوى شيخ الاسلام والمسلمين فيما دون في كتبهم ماليس لهم في فتوى شيخ الاسلام فهذا أمر لا مقام له في موضوع بحثنا و بحثكم

أما أصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وان محمدا رسول الله وان القرآن كلام الله فأعظم شيء تتشوق اليه نفوس المسلمين الصادقين ان يسمعوا التصريح من حضرتكم بقبول ذلك والتصديق به كما أشرتم اليه في خطابكم المتعلق بمسلمي أفريقيا وان يروا علامات التصديق في الأقوال والأفعال (و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وكل ما تظنه من المصاعب يذلل وما تتصورونه من الموانع يزول ، ولا أظن يوما يمر او يعز على الانكليز يكون أسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد اذ يصبح العالم خادما لهم وجند الله الاعظم ناصرا لأهله منهم ويتم لهم ما أرادوا من اقرار عين الصين وارضاء قلوب النساء وهما مما يدعو اليهما الدين الاسلامي على اتم الوجوه وأكملها ، فهلم بنا ياعزيزي الى الاتفاق على الأصول ليتيسر لنا الوفاق على الفروع والاتحاد في الأدب ليتبين لنا

الاتحاد في الابن فانما تؤتى النتائج من مقدماتها ولا تؤتى المقدمات من نتائجها وقد سرني كل السرور مابلغني من انكم استحسنتم ما وصل اليكم من صديقنا ميرزا باقر وإن شاء الله تجدون مايسركم اذا داومتم مكاتبته ان شاء الله والسلام على أهل السلام

٢٤

وكتب الى بعض العلماء جوابا عن كتاب سأله فيه عن انكاره على من قال ان لفظ الرحيم فى البسملة توكيد للفظ الرحمن وانكاره ان يكون في القرآن ألفاظ زائدة للتأكيد وفيه وصف علماء السوء

حضرة الاستاذ الفاضل

أثابك الله على صدق مودتك، ونفعني باخلاص الصادقين من أمثالك، ووفقني الله وإياك للعمل فيما يفيد هذه الأمة، التي نهكتها البدع، وقتلها الزيغ عن الطريق المتبع، واني أحمد الله على هذه البقية فى المسلمين بقية صالحة في نفوس مستعدة تنشد الحق وتتلمسه فاذا عثرت عليه حنت اليه أمدها الله بالسعي الدائب والغذاء الصالح حتى تنمو وتكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها، لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبه الاشراك وغرور اليأس والأمل وجراثيم التواكل والكسل ثم نشر ذلك بكل وسيلة تمكن منه، ثم بالصبر على مايقول المقلدون ويهذي به المتكبرون ممن يلقبون بالعلماء وهم لايعلمون ففي مثلهم يقول الله (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وان يروا كل آية لايؤمنوا بها، وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا) ولا يكون كبر في الارض بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب وتظهر في سرابيله هذه التماثيل التي ينحلها الناس ماليس لها ويسمونها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان وما هؤلاء القوم الا أولئك السادات الذين سيقول المغترون بهم (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) أسأل الله أن يعينك على من يليك ويوفقك لتأييد كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

أما مسألة التأكيد فالأمر فيها سهل ونعلم انني ممن يكتب، ويقال ان لي حظاً من معرفة دقائق البلاغة، وان كنت لا أحسب لنفسي في ذلك حساباً، ولا أزال استعمل التوكيد في كلامي وأذوق لذته وأعرف موقعه من كلام غيري وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة اليه وهو معنى من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كلفظ ان واللام ونحوها

ثم من الالفاظ مايكون فيه شيء من معنى الآخر فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزيد بما انفرد به كالسيف والصارم كل هذا لا أنكر شيئاً منه ولكني أنكر الذي يلجؤن اليه بدون بيان صحيح فيقال كلمة كذا توكيد بدون بيان وجه التوكيد أولفظ كذا زائد كما يقول الجلال في قوله تعالى (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ان لفظ مثل زائد، تعالى الكتاب عن ذلك، فالجلال والصبان قالا ان الرحيم توكيد لظنهما انلامعنى في الرحيم سوى مافي الرحمن واني أنزه القرآن عما ظنا حتى لوقصد التوكيد فانه يكون بمنزلة الرحمن الرحمن وإنما غاير اللفظ للتحلية وهذا ماأبريء القرآن منه . والذي صرحت به في هذا المعنى سبقني اليه ابن جرير الطبري فقدصرح بأنه لايوجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود وهو الذي عنيته

اما احتمال التوكيد والوجه الذي ذكرته فانيلاأراه لأنه لاعلاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ولو ذكر جميع الألفاظ المترادفة في هذا المعنى لم يفد شيئاً في نفي التعدد ولم يسبق في التاريخ أن احدا ذهب الى ان الرحمن معبود والرحيم معبود آخر حتى يرد عليه بأنهما شيء واحد ولكن الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شؤونهم باسم الآب والابن والروح القدس وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد مع أنها واحد فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان الأول ذات والآخران صفتان فلفظ الجلالة هو الذات وهو يقابل الآب عندهم والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهي التي يرجع اليها الفعل المتجدد وباعتبارها يصدر ويتجدد وهو يقابل روح القدس فانه

عنـدهم الصلة بين الآب والابن وان حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات فأراد الكتاب ان يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ولا يفوتنا المعنى الذي يحتج بقصده من الآب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وافاضة النعمة وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة والندب الى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ولكن غفل كثير من المسلمين عن مرامي اشارات الكتاب فأتوا من عند انفسهم بما ليس من معناه في شيء .

لا أجد وقتا لاطالة البحث فيما ذكرت عن السعد وغيره وأظن ان فيما كتبته كفاية لذكر مثلك وارجو ان لا تنقطع عن مراسلتي والسلام

٢٥

وكتب الى من سأله عن القدر والاختيار واختلاف العقل والوجدان في ذلك

حضرة الفاضل الاديب

وصل الي رقيمك ، ان كنت لم اعرفك فقد عرّفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد لله على ان في المسلمين من يميل الى منهج الحق من دينه مثلك كثر الله من امثالك ووفقك الى العمل بما تعلم والدعوة الى ما تفهم

لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة القدر فان كليهما يتفقان على صحة الاختيار ونفي الاضطرار فيما هو من الاعمال البشرية المعروفة ولا يتنازعان في حكم من احكام هذا الاختيار ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بان صانع هذا الكون محيط بدقائقه علما : وهاتان العقيدتان هما ركنا الايمان بالله ورسله وشرائعه ولم يبق الا نزعة من نزعات الوهم تستفز العقل الى اكتناه حقيقة العلم الالهي وليست مما يصل اليه من طريق الفكر فاذا كبح العقل جماح الوهم وقف عند حده وذاق حلاوة الايمان الصحيح والاوقع فيما لا مخلص منه من الريب والشكوك

اما اختلاف الامم بل الاشخاص في الآراء ووجوه العلم فذلك لازم لطبيعة البشر تلك الطبيعة التي بها الانسان انسان طبيعة العلم من طريق التعلم والفكر مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان وما يستقر

منه في العقل . ولكن ذلك لا يرفع التبعة عمن كان خلافه الى باطل لمكان الاختيار والهداية الى النجدين بمقتضى تلك الفطرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن احكامها فترى الاختيار في عجز عن ترجيح جانب الخير على جانب الشر كتوارث الاخلاق السيئة وليس الوارث مختارا فيما يرث ولكنه مادام شاعرا بفعله وانه يريد ان يفعله فاختياره هو صاحب السلطة عليه وتبعته لازمة له ولو أنه طلب الادب لتأدب والكلام يطول في تفصيل ذلك ولكن يكفي ان العقل والوجدان لا يختلفان في الحكم بصحة الاختيار وشمول العلم الالهي ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه وفي هبة قوة الاختيار نفسها ولعل ذلك يكفيك . ولو كان عندي سعة في الوقت لكتبت رسالة في هذه المسألة خاصة ولكن الاجمال فيها خير من التفصيل على كل حال والسلام

في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

٢٦

وكتب من بيروت الى مولوي محمد واصل أحمد علماء حيدر اباد الدكن (الهند) الذي سأل السيد جمال الدين عن النيشرية في الهند فأجابه برسالة الرد على الدهريين

حضرة الهمام الفاضل بقية الافاضل وتذكرة الاوائل العالم الفاضل مولوي محمد واصل

لم يسبق لي شرف معرفتك ولا فضل مكاتبتك ولكن تجلت لي أوصافك العلية وفضائلك القدسية في قول اصدق الناس لسانا واثبتهم بيانا حضرة أستاذي السيد جمال الدين أيده الله بعنايته فكنت بذلك اشد الناس تعلقا بمزاياك واشوقهم لنيل الحظ من مرآك وقد كنت حفظك الله كتبت الى عارف افندي ابي تراب تسأله عن اختياري في زيارة البلاد الهندية واظنه كتب اليك بميلي الى ذلك وترقب الفرصة للمسير اليه ورجائي ان يسعدني التوفيق الالهي ببلوغ الغاية لما أرتقب ولو لم يكن لي في بلاد الهند سوى رؤية مثلك والاخذ بالنصيب من معرفتك لكان ذلك اقوى باعث على السعي اليها واحث داع للاقبال عليها

وقد يلوح بخاطري ان اهيء نفسي لذلك في الخريف الآتي من هذه السنة فمتى عقدت العزيمة بعثت اليك بالخبر ان شاء الله

ان مادعوتني اليه في كتابك لعارف افندي من كتابة رسائل في تنبيه الامة الاسلامية الى ثلا في امرها ومبادرتها الى جمع كلمتها صونا لنفسها عن التهلكة وحفظا لما بقي لها من غول الفناء فذلك عملي ان شاء الله وقد رايت ان اتقدم لك برسالة تبين حال العرب في الجاهلية على وجه الاجمال ثم ماساق الله اليها زمن فيض الخير ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ثم اتقدم بعد ذلك الى ذكر سيرة النبي وخلفائه الاربعة ثم اختم الكلام وبعد هذا نأخذ في نشر رسائل ندعو بها الى الالفة ونزعج بها عن الخلفة ورجاؤنا في كل ذلك نجاح اعمالنا وصلاح احوالنا ان شاء الله

ورسالة النيشرية قد نقلناها الى اللغة العربية وبدأنا في طبعها وقد ترجمنا كتابكم الى السيد وكتاب السيد اليكم وقدمناهما في صدر الرسالة ومتى تمت نبعث بها اليكم ان شاء الله

ونهج البلاغة قد تم والحمد لله طبعه وسيرسل اليكم مائة نسخة على حسب طلبكم. نبعث بها الى بومباي ثم ترسل من بومباي الى حيدر آباد وثمنها يرسل الينا مائتان وخمسون روبية ورق بنك نوط هندي حيث انه لا يتيسر الارسال بطريقة اخرى ثم ليكن في علم حضرتكم ان أثمان هذا الكتاب مخصصة للانفاق في طريق خيري والاعانة على امر عام اسلامي لانريد منها ربحا ولانطلب كسبا والله الموفق ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة بتواتر المراسلة والله يتولى رعايتكم والسلام



٢

طائفة من كتبه ورسائله الودادية

كتب وهو في سجن القاهرة متهما بالاشتراك في الحوادث العرابية الى أحد أصحابه . وهو من أصدق الآيات على علوّ أخلاقه وسلامة صدره رحمه الله

١

عزيزي

تقلدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي !! اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر فأخذت صخوره من مركز الارض الى المحيط الاعلى واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت الى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين * انتثرت نجوم الهدى وتدهورت الشموس والاقمار وتغيبت الثوابت النيرة وفر كل مضيء منهزما من عالم الظلام ودارت الافلاك دورة العكس ذاهبة بنيراتها الى عوالم غير عالمنا هذا فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله وكانوا على ذلك قادرين * (١)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على اطرافه في ليلة داجية غطي فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف ركاما ركاما لا أرى انسانا ولا أسمع ناطقا ولا أتوهم مجيبا أسمع ذئابا تعوي وسباعا تزأر وكلابا تنبح كلها يطلب فريسة واحدة هي ذات الكاتب والتف على رجلي تنينان عظيمان وقد خويت بطون الكل وتحكم فيها سلطان الجوع ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين * تقطع حبل الامل وانفصمت

---

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر يراد به عوامل الخير والشر وأسبابهما وخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين كما يقال اغتالتهم الغيلان فيمن هلكوا بأسباب مادية تجوزا مبنيا على المعروف من خرافات العرب ويعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » — راجع البيضاوي وغيره

عروة الرجاء وانحلت الثقة بالأولياء وضل الاعتقاد بالاصفياء و بطل القول باجابة الدعاء وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء وحقت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين * سقطت الهمم وخربت الذمم وغض ماء الوفاء وطمست معالم الحق وحرفت الشرائع و بدلت القوانين ولم يبق الا هوى يتحكم وشهوات تقضي وغيظ يحتدم وخشونة تنفذ تلك سنة القدر والله لايهدي كيد الخائنين * ذهب ذوو السلطة في بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب اصداف من الشبه ومقذوفات من التهم وسواقط من الهم ليموهوها بمياه السفسطة و يغشوها باغشية من معادن القوة ليبرزوها في معرض السطوة و يغشوا بها أعين الناظرين * لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه أو لمستور يكشفونه أو لحق خفي فيظهرونه أو خرق بدا فيرقعونه أو نظام فسد فيصلحونه كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين * وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة وفاسدي الاخلاق وخبثاء الاعراق رضوا لانفسهم قول الزور وافتراء البهتان واختلاق الافك وقد تقدموا الى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الاباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين * كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ولم تحل قلبي وحشة بل انا على أتم أوصافي التي تعلمها غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء عالما بأن كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه لان الله يعلم — كما أنت تعلم — انني بريء من كل ما رموني به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبا أو كنت من الضاحكين * نعم حنقني الغم وأصمى فؤادي الهم وفارقني النوم ليلة كاملة عند ما رأيت اسمك الكريم واسم بقية الابناء والاخوان المساكين تنسب اليهم اعمال لم تكن واقوال لم تصدر عنهم قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن قلبي وسكن جاشي عند ما رأيت تواريخ التقارير متقادمة ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر فرجوت أن الحكومة لم ترد ان تفتح بابا لا يذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان (١) تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ولم

---

(١) هـا . ر . — و — ه

يتركا شيئاً من التخريف الا قالاه وذكرا اسمكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها لكن لا حرج عليهما فاني أراهما من المجانين * ولم اتعجب من هذين الشخصين اذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ولكن أخذني العجب كل العجب غاية العجب بالغ ماشئت في عجبي اذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (١) الذي أرسلت اليه السلام وأبلغته سروري عندما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين * الى هذا الوقت لم يصلني التقرير ولكن سيصل الي انما فيما بلغني انه شهادة بأقبح شيء لا يشهد به الا عدو مبين * هذا الشيم الذي كنت أظن انه يألم لألمي ويأخذه الاسف لحالي ويبذل وسعه ان أمكنه في المدافعة عني فكم قدمت له نفعاً ورفعت له ذكرا وجعلت له منزلة في قلوب الحاكمين * كم سمعني اقاوم هجاء الجرائد وأوسع محرريها لوما وتقريعا واهزأ بتلك الحركات الجنونية وكان هو عليّ في بعض افكاري هذه من اللائمين * كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعا لرأي فلان واعارضه اشد المعارضة ثم لم أنقض له عهدا ولم ابخس له ودّا وحقيقة كنت مسرورا لوجوده موظفا فما باله اصبح من الناكثين *

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملي هذه الاحرف! ما اشد حفظه للولاء ما اغيره على حقوق الاولياء ما اثبته على الوفاء ما ارقه على الضعفاء ما اشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ما اعظم اسفه لمصائب من بينهم وبينه ادنى مودة وان كانوا فيها غير صادقين * ما ابعد هذا القلب عن الأيذاء ولو للاعداء ما اشده رعاية للود ما اشده محافظة على العهد ما اعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذمم الطاهرة ما اقواه اقداما على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين * هذا القلب الذي يؤلمونه يا كاذبيهم هو الذي سر قلوبهم بالترقية وملأها فرحا بالتقدم ولطف خواطرهم بحسن المعاملة وشرح صدورهم بلطيف المجاملة ودافع عنهم ازمانا خصوصا هذا الشيم افتنشرح الصدور وهم يحرجون الى ونشفي القلوب وهم يؤلمون!! ونفرحها وهم يحزنون!! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الاسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه

(١) [illegible]

التقلبات وما ينشأ عنها من فساد الطباع الذي يجعل العموم في قلق مستديم وما بقي من هــذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته فان تسللوا جميعا بمثل هــذه الاعمال واصبحوا من مودته خالين واتخذوه وقاية لهم من المضرة وجعلوه ترسا يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيبون به اغراضهم فينالون منها حظوظهم فقد اراحوا تلك البقية من الفكر فيهم. والله يتولى حسابهم وهو اسرع الحاسبين * آه ما اظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة وان جاروا في تصرفهم ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز اذا اتصل بذي الود وان كان خشنا فصعب ان ينفصل ولو مزقته خشونته وان هذا القلب في علاقته مع الاوداء كالضياء مع الحرارة اما حادث يحدث واما كيماوي يدق لا يجد التحليل بينهما سبيلا واظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين *

أي عزيزي

الآن وصلني تقرير اللئيم فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان انسانا ولكن نصادف فراغ الحبر من الدواة فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

* *

رددت على التقرير وكان كل ما فيه الغش والتغرير وذكرت فيه فلانا بأشنع ما يؤاخذ به انسان في هذه المسئلة كما ذكره الخبيثون قبله ولكن دفعت ما قاله في جانبه أيضا وأخذت على نفسي كل مسأولية تنسب اليه أو اليكم فما عليكم ان سئلتم الا ان تكونوا منكرين * ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكاري وأقوالي التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ومن كانوا لها من الطالبين * الى هذا الحد قفوا فان سئلتم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام بعالمين *

في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشرا ببقائكم في مركزكم فقمت ورفعت يدي ورجلي وناديت الحمد لله رب العالمين * وأخذني الأسف على حبس فلان لكن دل اطلاقه على

حسن حالة الباقين * ياعزيزي أعود الى ذكرما لأولئك القوم كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤسهم فغشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم فقاموا ينطقون بما لايعون و يتكلمون ولا يفهمون * ما بالهم يقذفون من افواههم اخلاطا اقذر من البلغم وأمر من الصفراء وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت امعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم اخبث ما يحملون * مابال دنان قلوبهم تفيض من اللوم اشد من فيضان بئر برهوت تقذف بسائلات بشعة الطعم خبيثة المنظر كريهة الرائحة تضطر معانيها الفرار منها لـكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لايشمون ولا يذوقون ومن ظلماتها لايبصرون * هل بطل ياعزيزي ما جاء على لسان النبوات « الانسان أسير الاحسان » هل نقض ماجاء من ذلك « المعروف بذر المحبة يغرسها في اعماق القلوب » هل هدمت قاعدة « إن الحيوان يقاد بالزمام والانسان يقاد بالصنيعة ؟ » هل كان خرافا ماقرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث ؟ هل كان خرافا ماحوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون *

هل اتأسف ان كنت سباقا الى الخيرات؟ هل اتأسف ان كنت مقداما في المكرمات ؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل اتأسف ان كنت أبيا أغار ان ينسب مكروه اوذل لأولي صلتي ؟ هل استحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون؟ * كلا والله لن يكون ذلك ولم ازدد في سبيل الفضيلة الا بصيرة ولم ازدد في المحافظة عليها الا ثباتا ولئن عشت لأصنعن المعروف ولأغيثن الملهوف ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم ولأتجاوزن عن السيئات ولأتناسين جميع المضرات ولأبينن لقومي انهم كانوا في ظلمات يعمهون * ولأظهرن الصديق في اجمل صوره ولأجلونه للناس في ابهج حلله ولأثبتن لهم ببرهان العمل انه فكرك الثاني في روحك الواحدة وانه جسمك الآخر في حياتك المتحدة وانه صاحبك اذا طال ليل الكدر ومصباحك اذا أغسق دجى الهموم تستضيء به في حل ما انعقد وتستعين بقوته في تيسير ماتعسر وتذهب به الى أوج المعالي والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

انني اليوم اعجز من المقعد عن طلوع النخل ومن المفلس عن حرية التصرف وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن فينحف الجسم ويغير اللون ويقلص الشفاه ويضعف القوى ويقعد عن الحركة ويبعد عن نيل المطلوب ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض ويسئمهم ان طال من معاناة العلاج فيصبح المريض منهم في ادنى المنازل وقد كان ربا وهم له ساجدون * يذهب عنه البهاء وينكسف من وجهه الضياء وتنكره عند الرؤية اعين العشاق وتمجه طباع ذوي الاذواق وتمحى من جبينه تلك الاسطر الجلية العبارة الصادقة النسبة الناطقة بالحق القائلة : ههنا كنز الرغبات ههنا منال الحاجات ههنا ما يروح الروح ههنا مايقضي وطرا في الانفس ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة: فينحرف عنه السالكون اليه وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن اقول لكم ان الحوادث المريعة سوف تنسى وان هذا الشرف سوف يرد ولئن ابت طبيعة هذه الارض بخستها ان يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها . ولأجذبن الى المجد احبتي ومن الى المجد ينجذبون * كل ذلك ان عشت وساعدتني صحة الجسم ولا اطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس و بعضهم له منكرون * أطلت عليك الكلام فلا تسأم واظنه آخر كتاب مني اليك في السجن الا ان يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة اخرى فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة ازكى والا كانت المراسلة أجل واعلى ولا تجزع فليس في الامر مايفزع وهو اهون مما يتوهمون * واسأل الله ان يغض عنكم ابصار الظالمين ويحفظكم من نكاية الخائنين ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين

٢

ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر الى بيروت

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول وأذل بها شوامخ المصاعب وأتصرف بها في خواطر النفوس . ومنحت من لدنك عزمة أتثبع بها

الثوابت وأصدع بها شم المشاكل وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق ، وكنت أغنى أن نفدي غير محدوده ومكنتي لامبتوتة ولا مقدوده فاذا انا من الايام كل يوم في شأن جديد تناولت العلم لأقدم اليك من روحي ماأنت به أعلم فلم أجد من نفسي سوى الافكل والقلب الأشل واليد المرتعشة والفرائص المرتعده والفكر الذاهب والعقل الغالب

(ومنه) اني يامولاي لا أحدثك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك فقد تكفل ببيانه أخي العزيز ابراهيم افندي اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك وتحول أحوالهم بعد نزول مانزل بك فقد تغلب أعوان الشر وانصار السوء بقوة جاههم وشدة بأسهم فأرغموا العقول على الاعتقاد بالمحال وألجؤها التصديق بما لايقال حتى انهم غيروا قلب دونتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياما معدودة ركن فيها للعمل بالشدة والأخذ ببادرة الحدة لكن لم يلبث ان وصلنا اليه وجلوت الأمر عليه وكشفت له ماأغمض من الحقيقة حتى زال ما لبس المبطلون وبطل كيدهم وما كانوا يعملون ونزلت عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلماء والأمراء ورجال الحكومة وقعدت من كل أمير مصعد النفس فلا ينطق الا بما تريد حكمتك ولا يعمل الا ماتشاء ارادتك فكأنك وحقك كنت بين أظاهر المصر بين ساعيا فيهم الى مقاصدك العاليه طالبا بهم اوج السعادة وذروة المجد والفخار وهكذا ضممت الي كل من كان ينتسب اليك صادقا في الانتساب اوكاذبا حتى اني لم أتأخر عن مساعدة أولئك الاشقياء الأدنياء . . . . وأمثالهم من اللئام تحسينا للظن وايثارا لجانب العفو فأصلحت لهم القلوب وفسحت لهم من الصدور وفتحت لهم ابواب التقدم الى المنافع الغزيرة لكنهم لم يرعوا ودا ولم يحفظوا عهدا ولا حاجة الآن الى إيضاح ماصدر عنهم خيانة ولؤما . . . . وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلا ليس بالقليل يجلون قدرك ويعرفون لك فضلك وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندي

ولكن هذا لم يلهني عن طلب الانتصار لك وكدت أصل الى ذلك من طريق مألوف ومذهب معروف ولكن غلبنا على الأمر قطاع طريق الخير اللابسين

ثياب الانبياء السالكين مذاهب الجبارين انتحلوا طريقتنا في الدعوة الى الحرية وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من إقناع العامة بكونهم دعاة الحق وحماة القانون وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصبا عليك وعلى تلامذتك واشتد سعيهم في التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم عند مارأوا بعض رجال الحكومة يميل الى أهوائهم ويمدهم في بعض غيهم ولم يدم ذلك الا قليلا حتى محصنا من قلوبهم وجلونا عن بصائرهم فكادوا يشيمون ضياء الحق لولا أن أدركتهم ظلمة الغي والغرور ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ولغاية مانحب بقدر الامكان والاستطاعة الى أن غلبت عناصر الفساد وعم الاختلال فطلبنا بأولئك الثائرين ان تخلص البلاد من الشقاء وينقذ العباد من طول العناء ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الارض والسماء وكدنا ندرك به خلاصا حسنا وانتصارا شريفا لكن لسوء البخت كان احمد عرابي على ماوصف الصابي ابا تغلب بن حمدان عند ماقاتله عز الدولة بن معز الدولة وهزمه حيث قال فيه « انه لم يلق لقاء الباخع بالطاعة المعتذر من سالف التفريط والاضاعة ولا لقاء المصدق في دعواه في الاستقلال بالمقارعة المحقق لزعمه في الثبات للمدافعه ولا كان في هذين الامرين بالبر التقي ولا الفاجر القوي بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره وفضيحة جبنه وخوره فقد ذهب عنه الرشاد وضربت بينه وبينه الأسداد » اه

وأزيد على ذلك مع توفر الاسباب وتفتح الابواب وظهور الأمر للعيان وانجلائه لأذهان الصبيان واجتماع جميع القلوب عليه ونزوع الاهواء على اختلافها اليه فكان ما كان من العاقبة السوءى ولسيرنا في تلك الحوادث نبأ طويل اذا اردت يامولاي ان اقدم اليك به تاريخا ربما يكون مفيدا فأنا رهين الاشاره ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات لالذنب جنيناه ولا جرم اقترفناه فقد قضت حكمتك القائمة منا مقام الالهام في قلوب الصديقين أن ننال الحق ولنا الحجة الباهرة ونصيب الغرض ولنا البراءة الظاهرة والذمة الطاهرة وإنما ذلك اثر الحق القديم ونتيجة الرأي العقيم ووالله ياسيدي لو فصلنا له من جلودنا ثيابا وصنفنا له من لحومنا كبابا وصببنا له من دمنا شرابا لما كان لنا مقر

من غدرته عند قدرته قاتله الله فها نحن سالكون في سننك وعلى سننك وكنا كذلك ولا نزال الى انقضاء الآجال ولولا أطفال لنا رضع ونساء لنا طوّع أبينا لهم الذل وأنفنا لهم الضيم فأتينا بهم هنا الى حيث أقمنا لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس لأسعد بالاقامة في خدمتك وأفخر بذلك على العالمين

ولما أعلم من نفسي وما أتيقن من يقينك وما أبدته أعمالي وأعمالك وأقوالي وأقوالك لاأتكدر مما أشرت اليه في كتابك الى أبي تراب حيث طعنت في ثقتك بالناس أجمعين وبالغت حتى سحبت الطعن الي والى ابراهيم افندي وزدت في الطعن فأنفذت طعنتك بالداهية الزرقاء والبلية الحمراء اما اختلال ثقتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا فقد نقضوا عهدك ...

وما حكم به سيدي على المصريين من سلب الوفاء فذلك قد تتضافر عليه الادلة وتشهد لك ولنا به الحوادث غير أنا لسنا أولئك، فقد اخرجتنا عن طباعنا وحوّلتنا نبتا غريبا لا يغتذي بغذاء تلك الارض ولا ينمون بهوائها وانما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره مايقوى به قوامه ويزهر زهره ويحلو ثمره وإلا ذبل ومات أواستأصلت جذوره ونفي الى خارج البلاد

واني أعلم ان كلامي لا يزيد في يقين مولاي شيئا وعدمه لا ينقصه فلندع عن هذا ونستميح كرمه الواسع ان يمن علينا بنسخة من رسمه الفوتغرافي جديدة فقد كان عندي نسختان احداهما كانت في بيتي على الوضع الذي قدمت والأخرى استجدا فيها سعد افندي زغلول فاما الأولى فقد أخذها أعوان الضبطية عند ما أودعت السجن وفتشوا بيتي وعد وجود صورتك عندي من سيئاتي التي ارادوا وضعها في مجلس التحقيق والأخرى تركتها عند محسوبكم سعد افندي زغلول

ثم يتفضل مولانا بأن يتابع إلينا ارسال ماينشره من الفصول السياسية والادبية في الجرائد أيًّا كانت فقد أعددنا دفاتر كثيرة لنقل مايوجد منها في أي جريدة وكتبنا ما نشر في النحلة وأول مانشر في البصير وانا نبحث بغاية الدقة عن مقالة «الشرق والشرقيون» ولم نجدها الى الآن ثم نرجو ان تمن علينا بأسطر من قلمك الشريف نحفظها حيث نحفظ سرك ونودعها حيث اودعنا محبتك والله يحفظك

ويتمم مقاصدك والسلام

٣

وكتب بعد استقراره ببيروت الى بعض الشيوخ ولعله الشيخ علي الليثي

سيدي الاستاذ الاجل

لله حالي مع الشيخ !! وجدبه مستحر وشغف بحبه مستمر وعهد هوى اليه مستقر وهو بي لا يستقر شغفت من الشيخ بأخلاق زهر ومكارم غر ومروآت حدر وفضائل غزر ذلك الحسن الذي لا يكسف والجلال الذي لا يكشف فاذا عشقته فلست بالغالط وان لحنه بحبي فما أنا بالخابط تعلقت بها الأنفس وهو لذي الأعز الانفس ومشربي في ذاك اصفى المشارب وللناس فيما يعشقون مذاهب انا ني عنك تباين الديار وادناني منك دوام التذكار كلما خلوت بنفسي تمثلت لباطن حسي فروحي اليك آنسة ومن قرب اللقا غير آيسة فان فاءت من غيبة الفكر وأفاقت من سكرة الذكر عاودتها وحشة الفراق وانتابها قلق الى التلاق فان تحفتها عنايتك وتقفتها رعايتك بكتاب تلحظه أوخطاب تحفظه كان ذلك أشفى لدائها وانجع دوائها وبعد فانا اليوم ببيروت في فضل من الله أشكره وجميل احسان اذكره ولا أنكره ومقامي عند جميعهم محفوظ ومكاني بعين التوقر ملحوظ غير انه لا يسوى بقومي قوم ولا كيوم وطني يوم ذلك الوطن الذي أنبتك وغذت عناصره نبعتك لا ريب انه منبت الكرم ومخيم لأطهار الشيم الموت فيه بقاء والحياة في غيره فناء ولكن كان حالي كما قال الاموي

أعز الممات وذل الحياة وكلا أراه طعاما وبيلا

فان لم يكن غير احداهما فسيرا الى الموت سيرا جميلا

هذا الى ان ينجح الله سعيكم ويؤيد في أمري رأيكم فيماط الأذى ويلقي القذى وتمحص الصدور ويبرأ برقياكم المصدور هنالك يعرف النخيل أهله ويصل الفرع أصله

٤

وكتب من بيروت أيضاً الى بعض الكبراء جواباً عن كتاب منه يذكره فيه بالصبر في تلك النكبة

ما أفضل الفضل من مبادئه وما اكرم الكرم من مناشئه وما أكبر التواضع من الكبراء وما أعلى التنازل من الأعلياء جاءت مكارم مولانا عن التقدير وفاتت فواضله حيطة التحرير توجهت عنايته الى ضعيف في وجده عارف بقدره واقف عند حده فأحسن اليه بأمر كريم من رفده يكسوه من الوصف حلة بهاؤها بسديها ويوليه كرامة سناؤها بمهديها وما هي الا كمالاته تبدو مظاهرها وكرائم سجاياه تظهر على المخلصين مفاخرها والا فليس لهذا الداعي ما يستلفت نظر دولته ويستقبل وجه كرامته اللهم الا الاخلاص في ولائه والاحتساب على آلائه وما استواء مولانا على منصة تشرف به على النظر فيما يؤكد نسبتي اليه ويقوي استنادي عليه فأرجو الله أن ترتقي بي الى أعلى ما يؤمل لمثله بمثل فضله حتى يعم فضله المنصرفين الى جنابه والعاجزين عن التقرب من رحابه وقد أرشدني كرم مولانا الى الاعتصام بالصبر واني فيما ارشدني اليه على نحو ما يقول سابقي الى مثل حالتي

تعودت مر الصبر حتى ألفته فأسلمني حسن العزاء الى الصبر

فالحمد لله على توفيقي للأخذ بارشاده ووقوفي عند حد مراده فلا زال يحيي القلوب بحكمته كما يحيي نظام الأمة بعدالته والله يتولى مثوبته على احسانه كما يكفل له في العالمين اعلاء شانه ورفعة مكانه

٥

وكتب وهو في بيروت جوابا عن كتاب لصديق

لك في قلوبنا من الود ما يذكيه سناؤك، وفي مناطقنا من الحمد ما يوحيه كمالك، وفي صدورنا من الاجلال ما يرفعه بهاؤك، ما بيننا من المودة لا تحدده مدة، ولا تخلق له جدة، نعيذه من حاجة التجديد، واستدعاء المزيد، فلا المواصلة تربيه، ولا المماهلة توهيه، نعم ان ما يحفظ لك في الانفس هو تجلي فضلك، ومثال علائك ونبلك، وذلك الخالد بخلود الارواح، الباقي في تفاني الأشباح

تلقيت منك كتابا يبوح بسر المحبة و ينشر طيّ الصداقة فيه تبيان وجدانك مما وجدنا وتأثرك على ما فقدنا فكان نبأ عما نعلم وقضاء بما نحكم ولكن شكرنا لك فضل المراسلة وأريحية المجاملة والله يتولى ابقاءك مشوبة تكافىء وفاءك

٦

وكتب من بيروت الى صديق له من رجال الدولة العظام الذين كان يرجو منهم الخير للدين والملة

وصل الله بالتقوى حبلكم ، وأعلى بصدق الايمان محلكم ، يعلم الله أني وان فارقت عطوفتكم لم يفصلني البعد الجثماني عنكم، وان بانت بي الاماكن ونبت بي الأقطار لم أبن منكم، فلقد يسمو الايمان الصادق بأهله عن مضاجعة الطبيعة فلن تصل اليهم آثارها وينفر بهم عنها فلا تخالطهم أوضارها فتأخذ الارواح حكمها وهي اذا تعارفت جواهرها تواصلت سرائرها ولم تبال بالاجسام ومصايرها

لم يزل يلمع لي بارق من سرّ ذاتكم الطاهر و يذرّ آنا بعد آن شارق من مطلع يقينكم الزاهر ويتمثل لي كلما نزع في القلب اليكم مثال من مزايا سعادتكم ويبدو لي عند الوحشة مؤنس من خصائص عطوفتكم فأنا من معاني حقيقتكم في بقعة من عالم المثال ألهو بها عن هذا العالم عالم الخيال اراكم بين من رأيت من حكام الزمان كوكبا بين أجرام اكوان ان كان لها ضياء تضاءل لضيائه أو كان لها سناء تساقط دون سنائه فالله يحقق نسبتكم اليه ويمتعكم باخلاص الاقبال عليه فتلك السعادة لا تفضلها زيادة ولا أتقدم الى سعادتكم بالرجاء بشيء مثل ما ارجوكم في النظر لإصلاح قلوب الاهالي بالتربية الزكية على أصول المعارف الصافية فلا بقاء للدين الا بها ولا وقاية له الا بنفوس أربابها ولا سعي عند الله أفضل منزلة من السعي الى مثل هذه الغاية ولا أجل عاقبة لديه مثل الانتهاء الى مثل هذه النهاية

ثم أرجو العفو عن تقصيري في عرض عريضتي على انظار عطوفتكم في المدة الماضية فقد كنت بعد مفارقة القدس في أمراض لم أزل الى اليوم في معالجتها وأنتم اكرم من قبل العذر واستقبل بالعفو جزيل الأجر والله يمدكم بإمداد توفيقه ويحفظكم على المحجة من طريقه

٧

وكتب الى من اكرم وفادته وخطب مودته

لوكان في الثناء وملازمة الدعاء وحفظ الجميل والقيام بالخدمة جهد المستطيع مايفي بشكر من يفتتح باب المحبة ويبدأ بصنائع المعروف لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ولكن أنى يكون في ذلك وفاء والمحبة سرّ نظام الاكوان والاحسان قوام عالم الامكان والقائم على كنه جميعه قيوم السموات والأرض والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه فليس لي الآن ألجأ الى الله في مكافأة فضيلتكم على ما كان منكم أيام الاقامة بينكم ثم أسلي نفسي عن عجزي بما أخيل ان كرمكم سيروي

سيكفي الكريم اخاه الكريم ويقنع بالود منــه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة الى المكاتبة لأني شغلت بما شغلني عن نفسي ولكن زالت العوارض والحمد لله وفاتني لهذا العذر تهنئتكم بالعيد وانما للمؤمن كل يوم بر به عيد فنهنئكم برضاء الله عنكم وتقبل صالح الاعمال منكم وسلامي على نجلكم ومن ينتمي اليكم والله يحفظكم

٨

وكتب من بيروت الى بعض الكبراء في الاستانة جوابًا عن كتاب منه

ان خدمت الملة في هذه فما هي أول خدمة وان وفقك الله للنجاح فيها فليست باول نعمة وان شحذت عزمك لاصابة الغرض منها فما هو ببدع منك وان طالت يدك لبلوغ المأمول فيها فما هو ببعيد عنك فالله آخذ بعضدك وممدك الى مقصدك خصوصا وانت مخلص النية مشرق الطية صادق العزيمة شهم الفؤاد اليف السداد ايد الله رأيا افردك في علوه وبارك لك في عزم ميزك بسموه وحقق الرجاء فيك وبلغ الامل منك!! احار قلمي لا ادري بأي بيان يذكرك وعلى أي فضل يشكرك على صدق في خدمتك أو اخلاص لدولتك أوحمية لدينك أوثبات في يقينك أو بعد في همتك أوعلو في مروءتك أوتنازل لاجابة هذا الداعي فيما رجاه وتقريب أمله فيما تمناه كيف يوافي شكر ذلك بيان . أوتصيب الغرض منه اسلة لسان

وافاني كتابك يفوق الغيث في بركته والربيع في نضرته كيف لا والحق في طيه والفضل في ثنيه . واين ما تربو به الاشباح مما تنعش به الارواح واين نضرة الحقول من بهاء العقول هزّني بعد السكون واظهر مني بعد السكون وفتح لي الى الامل بابا وكشف عني من الارتياب حجابا فلا زلت يقوى بك العزم ويؤمى بفضلك الكلم أما ماسبق اليه رأيك من تقديم رسالتي (١) الى حضرة علم العلماء وتاج الفضلاء صاحب الدولة ناظر العدلية الافخم فكأنما رددت غريبا الى وطنه وارجعت نازحا الى عطنه ولئن وقع ما عرضت موقع القبول عنده فانما ذلك تجلي فضله في مرآة علمه والافعلائم القصور ظاهرة فيما كتبت ولوائح الارتباك بادية مما حررت وانما هي نفثات رسمت في صفحات على استعجال خيفة الفوات وما دفعني اليها ـ والله اعلم ـ الا يقيني بأن نجاح هذه الامة انما يكون بحسن التربية ولاسبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها وتصحيح ملكاتها حتى تستقيم بذلك اعمالها وتصلح احوالها وان سعيي في هذا من فرائض الذمة بل مندفع مني بباعث العقيدة آتيه مجبورا في صورة مختار أو مختارا في صورة مجبور

وانني أحمد الله على قوة لا اجد لها مادة وهداية لا ارى لتسيير الناس فيها جادة فان وفقني الله الى مادة عمل وجادة خير بسعيك الناجح ورأيك الراجح كانت اعمالي كلها شكرا لصنيعك وكان الله من وراء ذلك خير مكافيء لك على جميل سعيك واما استشهادك بفلان وفلان فاني اعده تفضلا منك في التأكيد والافمجرد قولك عندي هو الدليل على الواقع والله على ما اقول شهيد، وليكن مني لك الاحترام الدائم والشكر الذي لاينقضي والله يتولى رعايتكم والسلام

٩

وكتب منها الى بعض الاصدقاء جوابا عن كتاب

سيدي العزيز

وافاني كتاب سيد الاحباب وصفوة الانجاب مبتسما عن الدرّ النظيم راويا عن الذوق السليم متهللا بسناء منشيه معجبا ببهاء ممليه جاء بعد ماحل

---

(١) هي لائحة إصلاح التعليم التي سبقت في فصل اللوائح

منازل الجلال ودار دروة الاقبال ولولا رسل من شوقي اليه تزاحمت اقدامها لديه فساقته يد الاقدار وقادته قود الاوطار لطال به التسيار « و برح بي » الانتظار وصل الي بعد اثني عشر يوما من تاريخ كتابته ، واني أقسم به لو زاد في غيبته وجاء زاهيا بحليته ، تائها في جلالته ، متقلدا حسام حجته ، مستشهدا بعدول من حاشيته ، على ما نسبت من المطل الى مودته ، لما اقنعني دليله ، ولا الزمني تعليله ، لقابلته بحسابه ، وسكنت من ضبابه ، ولحاكمته محاكمة الود ، بين يدي حبي المستبد ، ولجازيته جزاء نافر اتعب في الطلب ، وشارد اوغل في الهرب ، ثم عني بحكم الغلب ، أو معشوق بديع الجمال ، بالغ في الدلال ، حتى اعيا المحتال ، ثم ابتلي بغرام العشاق ، فابتغى وهو البغية وصل المشتاق ، ولعملت له من اشعة البصر حبالا ، اوسعه بها احتبالا ، فيعز عليه الخلاص ، ويمتنع المناص ، فلا يبرح عن ناظري ، ما دام ناظري ، ولأبرمت له من مبارم العقل عقالا ، اوثقه به اعتقالا ، وأزيد في قيوده سلاسل من الفكر خفافا وثقالا ، حتى لا يغيب عن الذهن انتقالا ، ولا عن الخيال زوالا ، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه ، فيخشى من توانيه ،

علمني كتابك كيف تناجي الارواح اشباحها ، والجراثيم ادواحها ، أو كيف تحادث العقول افكارها ، والقلوب اسرارها ، تباينت اجسامنا في عالم الكون والفساد ، وتباعد ما بيننا في كون التضارب والعناد ، وترفعت نفوسنا عن معارك الاضداد ، فتعالينا في جوهر الوداد ، عن الانداد ، فاتحدنا وليس بعد اختلاف ، وامتزجنا ولا عن افتراق ، وكان واحدنا من صاحبه في مكان الشرف من الفتوة والكرم من المروة والقوة من العدل ، والكرامة من الفضل والعلم من الرشاد والحكمة من السداد واستغفر الله ان أكون منك في مقام الاستاذ فتفاوت النسب نوع من الجذاذ لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك ولم يذكر ناسيا لسابق ودك ولم ينبه غافلا عن ذكرك ولكن كان نورا على نور وفضلا من كتاب عملك المبرور وسعيك المشكور ونعمة تشتهي النفس دوامها ونغمة يلذ السمع تكرارها

سرني ما دل عليه كتابك من كمال صحة والدك الماجد واخوتك الاماجد

واعضاء عائلتك الكريمة وانجالك بضعة كمالك

١٠

ووجد بين مسودات اوراقه البيروتية صورة كتاب لا يعلم صاحبه ولعله كتبه عن لسان غيره اذ ليس من عادته ان يبالغ فى المدح عن لسان نفسه قال

لو سلكت لمولاي الدرّ في أطواق وحملت اليه البصائر في أحداق أو رصفت له الكواكب في أطباق وطويت له روحي في اوراق لما كنت موفيا حق حمده ولو شيدت له في القلوب هياكل وأقمت له فى النفوس معابد تتلى فيها آيات الثناء على جنابه الرفيع بكرة وعشيا ما كنت قاضيا واجب شكره

مولاي : نظر الله اليك بعين عنايته فقومك من الحق وأقام بك عماد العدل ورفعك حصنا منيعا بين بلادك و بين الفتن وأرسلك اليها غيثا مريعا فأخصب بيمنك الزرع ودرّ الضرع وغزرت الثروة وتمكنت القوة فكانت ذاتك الشريفة نسخة من روح خليفة رسول الله عمر بن الخطاب تفر شياطين الباطل من طريقك وتخر شوامخ المصاعب خضوعا لعزمك وتتزعزع رواسى المشاكل لحزمك وتفري أكباد المعضلات بصائب رأيك حتى أحكم الله قضاءه فكان الخير كل الخير على يديك والشر كل الشر على يد غيرك

سموت قدرا على السابقين وعلا مقامك عن مواقع انظار اللاحقين فالأولون ينظرون اليك من خلال قبورهم يغبطونك على ما أوتيت من همة جمعت اليك أشتات الكمالات وعزمة حشدت عليك أنواع المكرمات والآخرون حملوا اوزار التعب وتجرعوا صاب النصب وتزودوا من الأعوان واستكثروا من الانصار ليخطوا خطوة على أثرك فوقفوا بعد العناء دون البداية من سيرك وحجبوا عن الاهتداء بهديك مع وضوح محجتك وظهور حجتك فضربوا لانفسهم مثلا ضربه الله لامثالهم « رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » وكان غاية ما استفادوا من سعيهم اقامة الدليل على عجزهم وأراهم بذلك وهم فيما يظهر اعداؤك يحسبون من انصارك اضافتهم لنا على تأييد كلمتك والاعتراف

بعلو منزلتك وانك فيما سبقت اليه واحد لا يثنيك طالب لمباراتك ولا راغب في مجاراتك وان ماحللت فيه من المكانة العليا لاتسع قدما لسواك فأي بيان يحيط بمعاليك وأي فكر يسمولفهم معانيك على انني وانا صنيع نعمتك لا أرى وسيلة اليك أنجع من الاعتراف بالتقصير ولا شفيعا أنجح من العجز عن التعبير

مولاي : لم يخف على علمك الشريف ما طالت به الي الايدي الطاغية وصالت علي به الجوارح الباغيـة افتراسا محضا لا يشوبه تأويل وانتقاما صرفا لكامن الغل القـديم او تمسكا بزور واش أوطوعا لتضليل غاش وما بي الآن من حاجة الى توضيح حالي فقد علم الكافة وشهد الله أنني :

ماشققت العصا وما كنت ممن شق لا في خيل ولا في رجل (١)

١١

ومن رسائله الفكاهية الهزلية ما كتبه من بيروت الى صديقه العالم الأديب الشيخ عبد المجيد الخاني في دمشق . وكان رحمه الله محببا اليه والى جميع المصريين المنفيين في بيروت . وكان له ألفاظ وسجعات كثيرا ماتدور في كلامه وكتابته هجيراه منها لفظ الدهشة وما يشتق منه فكان الاستاذ الامام وعبد الله باشا فكري وابراهيم بك اللقاني يذكرون ذلك في كتابهم اليه على سبيل الحكاية . وهذا الكتاب جواب من الاستاذ الامام عن كتاب من الشيخ عبد المجيد رحمهما الله تعالى

لك الحمد والشكر

وفد علي كتاب السيد الاستاذ والموئل الملاذ ينبيء عن سعادة حاله وسعود إقبـاله فحمدت الله أن خطرت بباله وان لم أ كن من ذوي باله ودهشت من مفاجأة هذه النعمة لقصر الهمة عن شكر يستزيدها وحمد يستعيدها وان سروري من السيد بتوجيه عنايته الى أخلص الناس في محبته بل أثبتهم قدما على أبواب خدمته لارق من لذة الوصال لمحبوب بعيد المنال بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال والظفر بالاقبال

---

(١) هذا البيت من قصيدة لابراهيم بك اللقاني في شأن الحوادث العرابية (٦٨ ج ٢ تاريخ الاستاذ الامام)

يشير الاستاذ في خطابه الى لطيف عتابه وليس سروري بما أحسن به الاستاذ من مكاتبته أوفر من سروري بما تحققته من كمال صحته أدام الله سروري بتوارد أخباره وشهود آثاره في أنصاره وشهد الله ان غيبته عن ناظري لم تحجب مثاله الشريف عن خاطري وان تسليماتي متوالية في خلواتي وجلواتي وخواتيم صلواتي لايحيط بها لحظ اللاحظ ولاحفظ الحافظ ولا يأتي على وصفها الشيخ حسين الحافظ (١) وان بلغ في الفصاحة مابلغ الجاحظ أهديها مع الرائح والغادي والحاضر والبادي وما عليّ سوى أن أقول وعلى الله الوصول

يعلم مولاي أني من تبعة القارئين وخدمة الكاتبين وأظن ان حسن الظن أني من مواقع إحسانه ومواضع امتنانه وما كنت أجحد شيئاً من رعايته ولا آلو جهداً في شكر منته ومع هذا لم يتفضل علي بلامعة من درره ولا بارقة من غرره واختص السادة الفضلاء بالمراسلة واكتفى لي بسلام المجاملة فالتمست من حضراتهم ان يحيوه أحسن تحية أو يردوها على أي كيفية ولا أدري بعد ما كان منهم رضي الله عنهم ورأيت من المخاطرة والجرءة الجائرة ان ابتدر الاستاذ بالكلام وهو الامام بن الامام فوقفت عند الحد وقمت مقام العبد ان سئل أجاب أخطأ أوأصاب أليس لمثلي العذر ان يقصر به الفكر عن مكاتبة عبد الحميد هذا العصر وبديع الزمان في النظم والنثر؟ بلى ولولا ثقتي بسعة كرمه ماتمكن قلمي من اجابة قلمه فليعف جناب السيد عما يراه فيما حرر على عجل تحت سلطان الخوف والوجل

شكرنا وملانا سروره بما رأى في جريدة الثمرات غير ان ماذكر فيها انما هو كلمات قذفتها بمصر أغراض فانقضت واستعقبت بالاعراض على اننا اذا حسن التفاتكم الينا في آل خير من آلنا وأوطان أرحب من أوطاننا فلا غربة مع وجود الأحبة ونسأل الله تخليد بقاكم ودوام رضاكم

نوهتم بما حظي به الشيخ أسعد الا . . . من كتاب الصادق الا صدق الناطق

---

(١) كان يحفظ عدة كتب من الحديث والأدب وقد يحفظ القصيدة الطويلة من مرة ، وكان وصافا لايتلعثم ولكنه لايلتزم الصدق في الوصف

بالحق فيما دق ورق ذكر السيد ان الشيخ لم يدر عافاه الله من أين أتي وأرى له عذرا في هذه الفعلة التي .. فقد أتي من وراء حجاب واحتبل بغير احتطاب ودمر عليه من غير باب فلاغرو ان غاب عنه الصواب وخرم وانخرم معه الحساب ابراهيم أفندي جفظه بعد الملاحظة ودلظه بلا معا كظاظ لكن الشيخ جواظ حجب بكماله عن نضلاعن الحاظ وان كان في طبعه لظلاظا وفي هداه جلماظا فتح سر الشيخ على القلم باب الطأطأة ولولا أن تداركه لطف الله لجذبه للبأبأة والفأفأة فلا تؤاخذ مجذوبا ولا تعنت مغلوبا ثم ان القصيدة حائية لاجيمية وكأن غموض معناها أعجم مبناها سبحان الله العظيم وفوق كل ذي علم عليم كركركركركر أنها لإحدى الكبر

ارجو تقبيل أيدي حضرة والدكم ثم ان حسن لديكم فبلغوا سلامي الى حضرات أصحاب السعادة محمد باشا ومحي الدين باشا نجلي سعادة المرحوم الامير عبد القادر أكرم الله جواره وقدس اسراره ويهدي حضرتكم التحيات المدهشات والتسليمات المرعشات حضرات الاساتذة الافاضل الشيخ محمد والشيخ أحمد عبد الجواد وحضرة الحاج محي الدين أفندي حماده وابراهيم أفندي القاني والسيد محمود أفندي الخوجه ومحمد علي أفندي ومن ظني أني سأحضر الى دمشق يوم الخميس ١٦ شعبان لارفع الى الاستاذ ما استطيع من شكره على مباداة (عبده) بالاحسان رفع الله قدركم وأعلى ذكركم والسلام

١٢

وكتب اليه أيضاً

سبحانك اللهم وبحمدك

ياحميد علمني ماأخاطب به عبدك المجيد جلببته مجدك وأشمرته ودك وأغزرت عليه في البيان نعمتك وانبعت من جنانه حكمتك فبذّ القائلين بفصاحته وملك مشاعرنا ببلاغته ثم يصفني وصف الاصفياء ويومىء إليّ باشارة الأولياء واست مما قال في رطب ولا عنب ولا كوب ولا ركب فاجزه اللهم عن حسن ظنه نورا يواصل السعي بين يديه واثبه عن صدق ولائه صفاء يكشف من سبحات وجهك عليه

أخي : الحمد لله، ما أظن ان اثنين تواصلا على ما تواصلنا تواصلنا، على لجة روحانية لم تخالطها أهواء حيوانية وحكم الارواح يتبعها في الدوام لا تؤثر (عليه) عوارض الاجسام اللهم الا أن الحواس الظاهرة يوحشها البعد عن طلعتكم الزاهره ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة فروحي من روحك في نعيم مقيم وسرور بلذة الصفو مستديم وحسي من حسك ما بين وحشة تكدره ودهشة ان شاء الله تغمره وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم عيد ولنا في كل سماع عن صحتكم سرور جديد

١٣

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي جوابا عن اعتذار

وصل كتابك يحمل من العذر مقبوله ويرتاد من الرضا مبذوله ولقد كنت تعلم اني ما أردتك الا لنفسك فالحمد لله اذا أرجعك اليها وله الشكر على ما عطفك عليها وما أنا بالمقصر بك عما سألت ولا الذاهب بك الى خلاف ما طلبت وغاية قولي لا تثريب عليك اليوم يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين حيا تناشبح روحها المحبة والمحبة شبح الاخلاص فما أسعد وقتا نرى فيه حياتك منتعشة بروحها زاهرة بسر الاخلاص فيها وليس بذاهب عنك انك كما تكون يكون الناس لك وأسأل الله ان ينفي عنك خواطر السوء ويزيح عن روحك الطيبة وساوس الغرور ويمنّ علي برؤيتك عند الغاية التي أحب لك وسلامي عليك وحدك من بين أهلك ولتكن مواصلتك دائمة والسلام

١٤

وكتب اليه في ١٥ صفر سنة ١٣٠٦ بعد رجوعه من الشام الى مصر

عزيزي صفوة البلغاء ونخبة الادباء حفظه الله

تماديت في التقصير حتى عجز العذر عن التعبير وخجل القلم من التحرير ولكن في علمكم بحال منتقل الى بلاد قد انكره هواؤها وتعرفت اليه ادواؤها مالا احتاج معه الى بسط عذر يشفع اليكم ويقبل لديكم ليت يوما بعدت فيه عنكم كان يوما قربت فيه منكم فلولا مثال من أدبكم يؤنسني اذا استوحشت ويشفعني اذا انفردت لكان سهمي اقصد ما يصيب المحرومين

١٥

وكتب اليه في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

هامة الفضل وجبهة الادب حفظه الله

اكرمني الشيخ بايفاد كتابه يمثل لي مالم انس من آدابه ويبشرني بتوفر النعمة على سلامته ويزيدني يقيناً باتصالها في مودته وسرّني استقرار الشيخ على رخاء البال وان كدرني ذكر ماهب لديه من عاصفة البلبال لاترك الله لها مهباً ولاادام لها مربّاً وأبلغ الله حضرة الاخ (يعني الشيخ خليلا اليازجي وكان مريضاً) غاية الشفاء ووقا كم الله وآلكم من الاسواء

لاأبرىء نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده واجالة الاقداح فيما عسى ان يكون سبباً في تأخر وفوده واستكانتي في ذلك لسلطان الوحشة وانهزامي لغارة جيش الدهشة حتى كان الكتاب فيصلاً لحربنا وناصراً بل منقذاً لحزبنا ولا يوفى حق شكره الاشغل بذكره

عجبت لمصير ذلك العقد وانحلاله قبل ان يشتد وتغيظ المفسدين عليه والتفاتهم بالسوء اليه وهو في مهده وعلى قرب عهده كأ نما حتم على هذه البلاد ان تكون حطباً لنيران الفساد وان يذلّ فيها العلم ويضل في ابنائها الحلم ولا ينجح الفضل في مسعاه ولا يخيب الجهل في مبتغاه ولا حول ولا قوة الا بالله ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ويديل من هذا العسر يسرا

١٦

وكتب اليه من مصر

عزيزي الفاضل أيده الله

لمثل أدب الشيخ الفاضل تغني الاشارة عن طويل العبارة . وصلت مصر ومثال الشيخ آخذ بجناني وذكره مالك لساني ورجائي أن تدوم مواصلته وتحيي النفس مراسلته والسلام على من يحب من ذوي الالب

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠

١٧

وكتب وهو في بيروت الى من مدحه نثرا ونظما

أنت الذي سما بك استعدادك وزها بك اجتهادك . فأعذبت النثر سناءه ووردت الشعر بهاءه فلنا المسرة بمكاتبتك ومنا الحمد لمبادئك . أتتني منك فوائد منثورة تتبعها لآلىء منظومة أعلاها حسن اختراعك وأغلاها جودة إبداعك وكنت جديرا بحليتها مبتهجا بزينتها لو أديت للحق فرض خدمته وطالت يدي في تأييد كلمته ولكني على ميلي الى الحق لم تساعدني القدرة على اسعاده ولم يسعفني الحول والقوة على انجاده فأين انا منه وهذه حالي من جليل ما وصفت بل من قليل ما أغزرت . وأرجو الله ان يرشد العقول الصافية ويجمع القلوب الحازمة ويصرفها الى فضل ما أعدلها فتجود أعمال وتثبت آمال وتبدو آثار يحمدها الحامدون ويعرف قدرها العارفون فهنالك تحقيق ما ظننت وتصديق ما حدثت ان شاء الله والسلام

١٨

وكتب وهو في مصر الى صديق جوابا على تنصل من هفوة بعد عتاب شديد

لو عرضت علي نعم الله وفيها عزة الامراء وبزة الأغنياء ووفاء الاولياء لما اخترت منها غير الوفاء ولعددت نفسي به اسعد السعداء هذه خلتي تقبلها الله وفيها لمهجتي احياء بهذا تعلم ما ادخلت من السرور علي فيما كتبت الي ولو جعل الله للمحبة شكرا اوفي بحقها منها لبذلته ولو قدر لها اجرا اجزل عائدة منها نفسها لالتمسته وقدمته . ونعم كنت وجهت كتابي الى شيطانك فلاقى الكتاب أكرم نفس فيك فانصرف والحمد لله عنك الى حيث لا اراه فاهنأ بكرم محتدك وزكاء منباك والسلام

١٩

وكتب الى بعض علماء الشام جوابا عن كتاب هنأه فيه بمنصب الافتاء وهو من ألطف كتبه وفيه من الشكوى والتحدث بالنعمة ما ليس في غيره

انصفني قومك اذ سروا بتناولي منصب الافتاء ولعل ذلك لشعورهم باني أغير الناس على دين الله واضراهم بالدفاع عن حماه وادراهم بوجوه الفرض

عند سنوحها واحذقهم في انتهازها لا. بلاغ الحق أمله. أو يبلغ الكتاب أجله على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ولا يتقاذف باهوائهم اللدد وكل ذي دين يشتهي ان يرى لدينه مثل ما أحث اليه عزيمتي واخلص في العمل لتحقيقه نيتي خصوصا ان كفي فيه القتال ولم يكلف بشد رحال ولا بذل اموال

أما قومي فابعدهم عني أشدهم قربا مني وماأبعد الانصاف منهم يظنون بي الظنون بل يتربصون بي ريب المنون تسرعا منهم في الاحكام. وذهابا مع الاوهام وولعا بكثرة الكلام وتلذذا بلوك الملام. أقول فلا يسمعون وأدعو فلا يستجيبون واعمل فلا يهتدون واريهم مصالحهم فلا يبصرون واضع ايديهم عليها فلا يحسبون بل يفرون الى حيث يهلكون. شأنهم الصياح والعويل والصخب والتهويل. حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا

واقول ولا من الخير

وانما مثلي فيهم مثل أخ يجهله اخوته أواب عقته ذريته. أوابن لم يحن عليه ابواه وعمومته مع حاجة الجميع اليه. وقيام عمدهم عليه يهدمون منافعهم بايذائه ولو شاؤوا لاستبقوها باستبقائه وهو يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب على أني أحمد الله على الصبر. وسعة الصدر اذا ضاق الامر وقوة العزم وثبات الحلم وان كنت في خوف من حلول الاجل قبل بلوغ الامل خصوصا عند ما ارى ان العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطرا لما انبتت زرعا ولا اطلعت شجرا. افزع لذكرى ذلك واجزع ويكاد قلبي يتقطع ثم ارجع الى الله فاعلم انه مع الصابرين وانه لا يضيع اجر العاملين فيثلج صدري. وامضي في جهادي الدائم ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

ممن اشتكي؟ لو ان ما القى كان من لغط العامة ولقلقة الجاهلين لهان الامر وتيسر المخرج ولكن البلاء كل البلاء ان أشد الناس عداوة لانفسهم هم أولئك المعلمون الذين يبعدون عن الدين مدعين انهم دعاته ويمزقون احشاءه زاعمين انهم حماته ومامنهم الا أحد شخصين شخص ركب هواه فاعماه فهو يرى الحق

باطلا والصواب خطأ وآخر غرته دنياه وأضله جشعه فران على قلبه ما يكسب وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة ما يكذب ولم يعد للحق الى قلبه سبيل

ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين وحمق المعلمين في مثل الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو احكامها وازالة أيامها تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيدا ولكن كان فهم القوم حديدا لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى ابصروه وعند ماقرع اسماعهم صوت الداعي اجابوه كان القرآن يصدع افئدتهم فيلين من شدتهم ويفل من شرتهم ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة وما كان اهل العناد فيهم الا قليلا عرفوا الحق فانكروه وطائفة كانوا يفرون منه خوف ان يعرفوه ولو سمعوا لفهموا ثم لم يجدوا بدا من ان ينصروه وان الجحود مع الفهم كاليقين في العلم كلاهما قليل في بني آدم اما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم وضعف العقل واختلال نظام الادراك وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة وغاية ما يطلبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا وان يوصفوا بالعلم وان لم يعقلوا وان تقضى حاجاتهم اذا سألوا وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا وان استعداد السامع للفهم يستدر المقال ويسدد الفكر للنضال في الجدال اما عيشك فيمن لا يفهم فانه ينضب منك ينبوع الكلام ويطمس عين الفكر ويزهق روح العقل

جعلني الشيخ عبد الرزاق البيطار ثالث الرجلين وما أنا في شيء من أمرهما الا نزر من الهمة وكثير من معرفة قدرهما

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه واشكره واشكر نعمة مرجعها اليه واذكر من نعمه أكبر نعمة أمدني بها وأكرمني باسبابها احسانه الي بعطف قلب الاستاذ علي وتقريبي من فؤاده واحلالي مكانا من وداده كرمت نفس الاستاذ فكرم فيها مثالي وكملت سجاياه فتخيل منها كمالي نسب الي الشيخ الجليل شؤونا كلها من سرائره وألبسني من الاوصاف ثوبا نسجته مظاهره جعل لي السيد من حسن ظنه معينا وأفادني بثقته ركنا ركينا وسندا أمينا فاسأل الله تحقيق ظنونه وان يعدني دائما بدقائق فنونه وان ينصرني بولائه وان يسلكني في عقد أوليائه والسلام

٣٠

وكتب من مصر الى مولاي عبد العزيز سلطان المغرب الاقصى ما يأتي

وصل الى اسماعنا ونحن في ديارنا أنباء ماوجه المولى اليه همه وشحذ لبلوغه عزمه من النهوض ببلاده الى الاصلاح والسير بها في منهج الفوز والفلاح وتلونا مانشر من أوامره الكريمة ووعينا ماتضمنته من القواعد القويمة فتجددت في سلامة تلك البلاد آمالنا واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا ولما كان الاصلاح الذي يقصده المولى انما يتم برعاية الدين والرجوع اليه في كتابه المبين وسنة صاحبه الامين ثم النظر في اقوال واعمال السلف الصالحين لتعرض على ذلك كله اعمال الخلف المحدثين تعلقت الآمال بأن يكون لمولانا لفتة الى العلوم الدينية واحياء مامات منها ونشر ماطوي من كتبها لتتأدب النفوس بأدبها وتحيي القلوب اذا اتصلت أسبابها بسببها فثقة بهذه المقاصد الجليلة ألهمني الله أن اعرض على حضرتكم العلية انه قد تألفت في مصر جمعية لاحياء العلوم العربية وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف وتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما اندرس من علوم الاولين واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب علي بن سيده الاندلسي في اللغة المسمى بالمخصص وسيتم عن قريب وهي الآن تبحث عن نسخ مدونة الامام مالك حتى تحصل لها نسخة صحيحة ثم تطبع هذا الكتاب الجليل وقد وجدت من هذا الكتاب قطع في مصر وقطع أخرى في تونس وصارت هذه القطع في أيدي الجمعية ولكن لم توجد الى الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها وقد تأكد الفقير ان نسخة كاملة من الكتاب توجد في جامع القرويين ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به الدين أن يعدنا في عملنا ويعيننا على مانبتغي من الخير باصدار أمره الكريم ان ترسل الينا هذه النسخة اما بتمامها لنقابل عليها ماعندنا ونتم منها ماينقص نسخنا ونعيدها اليه ونهدي الجامع عشرة نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه ان شاء الله تعالى واما مفرقة جزءا بعد جزء فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل الى مقره وفي كلا الحالين سنقوم لمقامكم السلطاني بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامي الذي

سنراه كأن الله حققه ونسأل الله أن يؤيد بكم ملته وينصر بعزمكم شريعته

(يقول جامع الكتاب) ليتأمل الناظر كيف ان الامام لم ينسب الى نفسه عملا مافي الجمعية وهو رئيسها وأكبر مؤسسيها

٢١

وكتب بذلك أيضا الي مولاي ادريس بن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس

بسم الله والحمد لله وحده

حضرة الاستاذ الفاضل العلامة العالم العامل الكامل مولاي ادريس بن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة حفظه الله

بلغنا من كمالكم وكرم اخلاقكم وميلكم الى نفع العامة من المسلمين وايصال الفوائد الى خاصتهم ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة والتوسل بكم في الوصول الى ما يرجى ثواب السعي فيه ان شاء الله

نبشركم أن في مصر من أهل الفضل من وفقهم الله لنشر ما أماته الاهمال من آثار سلف الأمة ودواوين علومهم وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب المخصص في اللغة للامام الجليل عليّ بن سيده النحوي لشدة الحاجة اليه ولأشراف نسخه على العدم والانمحاء من الوجود وبعد أن بلغ الطبع معظم الكتاب رأى اولئك الفضلاء أن يبحثوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم فرأوا من أفضل الامهات واحقها بالعناية وأشدها تعرضا للضياع والاختفاء من الديار الاسلامية مدونة الامام مالك فاخذوا يبحثون عن نسخها فتحقق ظنهم في تعرضها للضياع لانهم لم يجدوا نسخة كاملة في الديار المصرية ولافي الديار التونسية وحملهم ذلك على الجد في الطلب والبحث في زوايا المساجد لعلهم يعثرون على ما يتمم لهم نسخة صحيحة فهم كذلك اذ بلغهم ان في مسجد القرويين بمدينة فاس نسخة من الكتاب كاملة فحملني الحرص على الوصول الى تلك النسخة على ان رفعت عريضة رجاء الى مولانا السلطان المعظم مولاي عبد العزيز ليأمر بارسال النسخة اما جملة واما جزأ جزأ وعلينا بعد طبع الكتاب ان نرسل منه عشر نسخ الى

جامع القرويين

بعد ان ارسلت العريضة حضر عندي من تفضل علىّ بذكر صفاتكم الجليلة وسجاياكم الفاضلة واكد لي ان حضرتكم تكون عونا لي على ما اطلب لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم اليكم راجيا من همتكم ان تساعدوني في الوصول الى تلك النسخة أو غيرها من نسخ المدونة ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة اما للجامع القرويين أو لمن يتفضل بارسال نسخة الينا مع الشكر الخالص والدعاء الدائم ان شاء الله

٢٢

وكتب من مصر الى الفيلسوف تولستوي الروسي عندما حرم من الكنيسة الروسية

أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك الله الى معرفة سرّ الفطرة التي فطر الناس عليها ووقفك على الغاية التي هدي البشر اليها فأدركت ان الانسان جاء الى هذا الوجود لينبت بالعلم و يثمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه وسعيا يبقى به ويرقى جنسه وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها الا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ماهداك الله اليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء والفقراء وان أرفع مجد بلغته واكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والارشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد فليس ماحصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله

على ان فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم

هذا وان نفوسنا الشيقة الى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وانا نسأل الله ان يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس الى التأسي بك في عملك والسلام

٢٣

وكتب الى محمد بك صالح رئيس محكمة الزقازيق (الآن) لما رقي الى قاض من الدرجة الثالثة

ولدي النجيب

انت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك وليس عندي من عبارة تفي بما تعلم من ذلك وهذا ان شاء الله أول سلم ترقي به الى غاية ما يسري اليه استعدادك والسلام سنة ١٨٩٣

٢٤

وكتب من مصر الى بعض الاصدقاء الفضلاء

تناولت كتابك ولم يذكرني ناسيا ولم ينبه لذكرك لاهيا فأني من يوم عرفتك لم يغب عني مثالك ولا تزال تتمثل لي خلالك

ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لفتنت بها ولحق لك ان تتيه بها على الناس أجمعين ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها لتزينها بالتواضع وتجملها بالوداعة ولتسعى الى ما لم يبلغه ساع فتكون قدوة لاخوانك في علو الهمة وبذل ما يعز على النفس في نفع الأمة زادك الله من نعمه وأوسع لك من فضله وكرمه ومتعني بصدق ولائك وجعلك لي عونا على الحق الذي أدعو اليه ولا أحيا الا به وله والسلام

٢٥

وكتب اخيرا من مصر الى بعض علماء سوريا الاعلام جوابا

مولانا الاستاذ العلامة نفعنا الله بمحبته

وصل الي كتابك تسطع فيه آدابك ويفيض منه العقل ويضيء منه

الاخلاص والصدق وما أعظم فضل الله علي في توجه عنايتك الي تعين اظهار الحق بعد خفائه وهدم الباطل بعد شموخ بنائه ولقد أوسع مولانا في التفضل على العاجز عن شكره المقيم على نشر فضله وإعلاء ذكره وأسأل الله ان يتكفل بإثابة مولانا الاستاذ على ما يغمرنا به من نعمة الخطور بباله وجريان ذكرنا فيما يخط قلمه أو ينطق لسانه

٢٦

وكتب منها الى عالم آخر منهم

حضرة الاستاذ

كان القدر يريد ان يكون مابيني وبينك سرا مكتوماً ومضمرا يأبى أن يكون مرقوماً فقد حاولت مثين من المرات ان أكتب اليك وكانت تأتي العوائق تحول دون ذلك كانني كنت أحاول فتح قلعة أو محو بدعة وهاأنا اليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لا أقوم من مجلسي هذا حتى أكتب اليك أشكر لك صنيعك على ما تدخله علي من السرور بايفاد كتبك علي بما تكتب الي من وقت الى آخر واعتذر اليك في الابطاء عن الجواب بما تعلم من كثرة الشواغل وأرجوك ان لا تحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به وان لا تجعل لفضلك في ذلك نهاية والسلام.

٢٧

وكتب منها الى الاستاذ السيد عبد الحميد الزهراوي بحمص جوابا

ولدنا الفاضل

تمنيت لو تمتعت بقربك كما قدر لي المتاع بأدبك ولكن أحمد الله الذي يرينا مانختار في غير ما يقع عليه الاختيار فأنت حيث انت أنفع ماتكون لقومك تجعل لهم حظا من عمل يومك تزحزح عن أبصارهم حجب الغفلة وتعظهم بما أوتيت من الحكمة وتهيء نفوسهم لقبول الحق اذا أقبل وتعدها لمدافعة الباطل اذا أظل واسأل الله ان يشد ازرك ويخفف من ذلك وزرك ويرفع بعملك قدرك واما صلتنا بك فصلة آمال وأعمال وهي خير صلة وأوثقها عند الرجال بارك الله لك في أيامك

ورزقك الخير والسعادة في أعوامك والسلام

٢٨

وكتب من مصر الى فرح أفندى أنطون صاحب مجلة الجامعة جوابا عن كتاب منه يقول فيه انه احتقره

لواحتقرتك ماكتبت اليك كلمة وانك سيء الظن بنفسك اكثر مما يسيئه بك غيرك وكنت أود لو كنت لنفسك أنضل مما أنت لها اليوم ولكن اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا فذلك اللهم أنفس ماتعطي وأفضل ماتهب والسلام

١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣

٢٩

وكتب الى الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبد الرازق ما يأتي ومنه يعلم سببه

ولدنا الاديب

خير الكلام ماوافق حالا وحوى من النفس مثالا تلك أبياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعا في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة وما بقي كأنه الشهب نور للاحياء رجوم للاشقياء ماسررت بشيء سروري بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك فلله أنت ولله أبوك ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء مايملأ عليك الفضاء ولكني اكتفي بالاخلاص في الدعاء ان يمتعني الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك وأن يخلص للحق سرك ويقدرك على الهداية اليه وينشط بنفسك لجمع قومك عليه والسلام

٣٠

وكتب من مصر الى محمد بك نجيب بكار جوابا

ولدنا الفاضل

أشكرك لما كتبت الي أولا ولما كتبت وأهديت ثانيا وأحمد الله على نعمته الجديدة في معرفتك وفضله العظيم في إخلاص مودتك وأسأله ان يجعل ذلك كله في سبيله وان يجعل ثمرته خيرا للاسلام والمسلمين والسلام م؟

نموذج من كتبه لواضعي الكتب النافعة ومترجميها

١

كتب الى من ألف كتابا نافعا لا اتذكر من هو ولا ماهو كتابه

حضرة الفاضل المحترم

ابطأت في اجابتك وقصرت في الاسراع بشكرك لما اتحفت به أهل لغتك من ذلك الكتاب الذي تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة لم تفتك فيه فضيلة الابداع ولم تحرم من حسن الاتباع اقتفيت أثر سلفك من تجويد الرأي واحترام مقام العقل فلم يهبط بك التقليد الى ما يحط بالعمل ويسقط من قيمة الكد في الجد ثم ابدعت في ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم وأدنى الى التقريب من حقيقة العلم وكأني بك وقد وقفت على ذلك السر الذي خفي عن الجمهور الاعظم ممن سبقك وهو ان القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير ومهد لهم سبلا جديدة لصوغ الاساليب ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه وينعد بك منهم عن تكلف كانوا رئموه ولهذا قوي عندك كل ما بني عليه وضعف لديك كل مالم يستند اليه جزاك الله عن نفسك خير ما يجزى به عامل عن عمله وجزاك عن أهل لغتك خير ما يجزى به محسن عن احسانه والسلام

٢

وكتب الى سليمان أفندي البستاني مؤلف دائرة المعارف ومترجم الالياذة كتابا قرىء في الحفلة التي اقامها له فضلاء السوريين في القاهرة

عزيزي الفاضل سليمان افندي البستاني

دعاني أصدقاؤك وأصدقائي الى الانس بك ساعة تهنئتك بالنجاح في ذلك العمل الادبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين دعوني الى الاشتراك معهم في شكرك لما دأبت في السعي وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء في اختبار مسالك النظم لتهدي الى ابناء لغتك العربية من احاسن الصناعة الادبية ما يعد زينة للناظرين

وكنت أكون أسرع الناس الى اجابة الدعوة لولا مانع ذنبه اليّ ذنب العاذل الى عاشق الحسان منعني الانس بهم وبك ولكنه لم يمنعني ان أشاركهم في شكرك

تمت لك ترجمة الالياذة لنابغة شعراء اليونان هميروس المشهور نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة فاذا هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية فسبت خرائدها وغنمت فرائدها وعادت الينا في حلل من آدابها تحمل الى الالباب قوتاً من لبانها وما أجمل ذلك الغلب في زمن ضعف فيه العرب حتى عن الرغب في نيل الادب ماينال منه عن كثب فضلا عما يكسب بالتعب فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ماوفقت لا كماله من العمل فقدسددت به ثلمة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون أغار قومنا على دفائن الفنون اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده فنثروا منها ما كان مخزوناً ونشروا بين الناس ما كان مدفوناً ولم يدعوا غامضاً الاجلوه ولا بعيدا الا قربوه ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك ما لم يكن في حسبانها فقد صارت لسان العلم والصنعة كما كانت لسان الدين والحكمة

لكن كان أولئك الاساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك ما يفرضه الحق عليهم في جانب العلم الذي لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ولا يتخالف على حقائقه الاعجم والمعرب وظنوا أن ماوراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم لبعد ما بين انساب أولئك وانسابهم فلم يعدوا نظرهم الى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء وما صاغته قرائح البلغاء فلم تنل اليونانية من عنايتهم ما نالت الفارسية والهندية وكان مؤمل اللغة منهم أن لا يحرموها نفائس ما اخترع اليونانيون كما زينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر حتى أتيت ترفع عنه الستر وجئت تقول للناس انني أتمم في دولة عباس ما نقص في ملك بني العباس فما أقر عين العربية بنيل طلبتها وظهور ما كان منتظراً لشيعتها أرجو أن ينال كتابك من الاقبال عليه والانتفاع به مايكافيء تعبك ويبعث هم العاملين على ان تتبعك والسلام

٣

لما ترجم حافظ أفندي ابراهيم الجزء الاول من كتاب (البؤساء) بالعربية اهداه اليه بهذا الكتاب

الى الاستاذ الامام

انك موئل البائس ، ومرجع اليائس ،وهذا الكتاب - أيدك الله - قد ألم بعيش البائسين ، وحياء اليائسين ــ وضعه ــ صاحبه تذكرة لولاة الامور وسماه كتاب (البؤساء) وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة «الرحمة فوق العدل»

وقد عنيت بنعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه الى مقامك الاسنى ، ورأيك الاعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث — أولها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك ــ وثانيها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف مهر الكلام ومقدار كد الافهام — وثالثها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي الى فتاه بقبوله والله المسؤول أن يحفظه للدنيا والدين ،وأن يساعدني على اتمام تعريبه للقارئين . . اه

فأجابه الاستاذ الامام بهذا التقريظ وهو :

لوكان بي ان أشكرك لظن بالغت في تحسينه ، أوأحمدك لرأي لك فينا ابدعت في تزيينه، لكان لقلمي مطمع ان يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجري في الشكر الى الغاية مما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا ، و بسطته على القريب والبعيد من ابناء لغتنا

زففت الى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملكت فيهم يومها ، ولاتزال تنبه منهم خامدا ، وتهز فيهم جامدا ، بل لاتنفك تحيي من قلوبهم ما أماته القسوة ، وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيه الاسوة ، حكمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى الي التقاطها رجلا منا فجردها

من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الاديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها للطالب ، بعدما أصلح من خلقها ، وزان من معارفها ، حتى ظهرت محببة الى القلوب ، شيقة الى مؤانسة البصائر ، تهش للفهم ، وتبش للطف الذوق ، وتسابق الفكر الى مواطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم ، الا وهي من النفس في مكان الالهام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك ، فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق ، ووصل منهم فريق الى ما يحب من مقصده ، ولكنه لم يعن بأن يعيد الى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويرد اليها ما سلبه المعتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه . أما أنت فقد وفيت من ذلك مالا غاية لمزيد بعده ، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده ، ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت الى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الارواح فظهرت لك اليوم في صورة أبدع ، ومعنى أنفع ، ولعلك قد سننت بطريقتك في التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ، ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الابناء ، كما أجملت في الصنع مع الا باء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمة سوى ما هو في الاسماء — أسماء الاماكن والاشخاص ، لا أسماء المعاني والاجناس . ومثلي من يعرف قدر الاحسان اذا عم ، ويعلي مكان المعروف اذا شمل ، ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً
فلا هطلت علي ولا بارضي سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك وما أحقك بأن ترضى من الوفاء بالفاء

تقول أن الذي وصل سببك بسر صاحب الكتاب ووقف بك علي دقائق من معانيه اشتراكك معه في البؤس ، ونزولك منزلته من سوء الحال ، وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة ، فإن كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة ، ثم كان سبباً في امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة ، سألت الله ان يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ وان يجملك في بؤسك أغنى من أهل الأثراء في نعيمهم والسلام

نموذج من كتبه في التعازي

١

كتب وهو في سوريا الى أحد أصدقائه الكبراء معزيا

ان كان للحادثات غالب من الهمة ودافع من العزيمة ففي همتكم مايعرك أذن الدهر ويضرب ناصية الزمان وانما أنتم بمكان من منعة النفس تمر الملمات دون أدناه تتهيب النظر اليه فضلا عن الوثبة عليه فلا يفزعكم جائشها ولا يستفزكم طائشها هذا الذي يعزيني بعض التعزية اذا طاف عليّ طائف الكدر مما ألمّ بكم من فقد صاحبة العصمة عقيلتكم . على ان يقينكم بالله وتسليمكم لقدره هو أعلى وأكمل من أن يخالطه جزع من الفراق وإن كان مرّ المذاق فإن من سار عنكم أقبل على رحمة من الله ورضوان فهو في جوار ربه متمتع بلذة قربه وان له لفخرا بين السابقين ورفعة بين المقربين بما أسستم من مجد شامخ وشرف باذخ فضاعف له النعمة في حياته الأبدية جنة بالصالحات وبهجة بالباقيات ولقد اختار واختار الله له دارا لوخير بين ساعة فيها والتخليد في هذه الدار الفانية لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير نعم يأسف لما أسفتم ويألم بما ألمتم فعزوا أنفسكم تسروه وطيبوا بالقضاء نفسا تفرحوه واذكروا منزلته في الصديقين تغبطوه

هذا ماأقدمه اليكم وهو نزر مما تطو به معارفكم غير أنه مما أناجي به نفسي تصبرا واحدثها به تجلدا والله أعلم بما شعر به وجداني عند ما بلغ اليّ الخبر ولقد كان من الفرض أن أبادر بعرض إحساسي قبل هذا الوقت الا أن عقابيل العلة كانت تمنعني النظر في الاخبار حتى انقشع عني سحابها من مدة قريبة وما أنا بالناسي وان أنست الحوادث ذكري وما أنا بالقاطع وان زينت الأيام هجري فصبر جميل وما العفو عن تقصيري عليكم بعزيز ومأمولي عرض تحياتي على مقام دولة الباشا والله يحفظكم للمحبة و يبقيكم للشرف م

٢

وكتب منها معزيا عن الأمير عبد القادر الجزائري

اعلام السيادة وأصحاب السعادة حضرة سعادتلو الامير محمد باشا وحضرة

سعادتلو الامير محيي الدين باشا

هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون * الا الى الله تصير الأمور * « انما الصبر عند الصدمة الأولى » اليوم غشيتني غاشية الغم ودهمتني داهية الهم اليوم بلغنا ما أصابنا وأصاب المسلمين ولم يخص الاقربين حتى عم جميع الموحدين ولم يمس ذوي الارحام حتى زعزع مجد الأسلام اليوم شاع على الالسن وتحدث الكافة ان جناب الامير الشهير صرف نظره العالي عن مظاهر الحياة الدنيا واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء الى ما أعد له من منازل الكرامة في دار البقاء قد اختار لنفسه ما اختاره الله له من الاختصاص بجواره الكريم والاتصال بنور وجهه العظيم نظر الله الينا بعين الجبروت ليصعد بجناب الامير الى أعلا الملكوت سار الامير الى ربه وترك المؤمنين بلاقيم عليهم ولا وصي يعيد مجدهم اليهم ولولا اليقين بأنكم اشباله ولم تفتكم مزاياه وخلاله لما تعزت الأنفس في البقاء بعده ولحقنا به اختيارا لما عنده كل قول يقال فهو دون محيط الفكر والنظر ومقام الامير اجل من أن تصل الى سرادقاته أشعة البصائر والفكر وليس من كلمة أجمع لكلماته ولا قول أوفى بفضائله سوى انه الأمير عبد القادر الجزائري فهي منتهى وصف الواصفين وغاية مدح المادحين وكفى في مصيبة أهل الايمان ان يقال أصبحوا بلا أمير وحسبهم تعزية عن مصابهم انكم بنوه وورثة فضله ومعززوه

٣

وكتب منها الى بعض أصدقائه الكرام معزيا عن كريمته

بسم الله المحمود في السراء والضراء

هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون * كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون * لاحيلة في القضا ولا انجع في تلطيفه من الرضا وان في قوة ايمانك وسطوع يقينك وكمال عقلك لكفاية في الأنابة الى الله تعالى والرغبة فيما لديه من عظيم الأجر وجزيل الثواب والتطامن لاحكامه بقلب شاكر ولسان ذاكر وإن مصيبة الفقد وإن جل خطبها وعظم على النفس خطرها الا ان الله تعالى

اعد عنده للصابرين اكرم المنازل . وارقى مراتب القرب لديه وكفى بالصبر فضلا أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون يقول الله تعالى « و بشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » والموت سبيل تزاحم عليه السابقون واللاحقون ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون

وما الدهر والأيام الاكما ترى رزية حر أو فراق حبيب

ولقد كان حضرتكم في غنى عن تعزية الأحياء وتسلية الأصدقاء بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الايام وثبات يهزم غوائل الزمان وكان يمنعنا الحياء ان نذكر سيادتكم بما أنتم به أعلم وان نقدم اليكم ما هو لديكم أعلى وارفع لكن هذه كلمات نسلي بها خواطرنا على ما ألم بها من الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم وابتلى به ايماننا وايمانكم « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ونسأل الله تعالى ان يجعل لكم من مثوبته عوضا على ما أخذ منكم وان يفرغ عليكم الصبر وان يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة وان يرفع مقامها في أعلى عليين وأن يطيل بقاكم و يديم عزكم ومجدكم وعليكم مني مزيد السلام والى جنابكم الرفيع فائق الاحترام

٤

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي معزيا عن أخيه الشيخ خليل

جناب الشيخ الاروع والبليغ الابرع ايده الله

لو كانت بالدهر ثقة لكانت لابنائه ولوحفظ له جوار لصح لحلفائه ممن درجوا على سننه واخذوا باحكام سننه وله فيهم كل يوم غدرة ولجيشه عليهم كل آن كرة فكيف يرجى لمن نابذته طباعهم وخالفت اوضاعه اوضاعهم فهو يتقلب وارواحهم في الفضل ثابتة و يتغشمر ونفوسهم للحق مخبتة فالفضلاء - وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة والعرفاء - وأنت هامتهم - في مقارعات معه متفاقمة لكنهم يرون له انكى من نكاياته التدرع بالصبر في ملاقاته وردوثباته بسكون الجنان وثباته ولست اذكر الشيخ بمثل ما قال ارسطو « ما اشد ظلم الناس يستقبلون القادم الى

الدنيا بالفرح والسرور ويتبعون الراحل عنها بدعاء الويل والثبور ولو انصفوا في أمرهم لعكسوا في حكمهم » وان مصيبة الراحل عنا عظيمة ورزيئة اليأس من لقائه جسيمة وحرماننا من آدابه يذهب بالنفس حسرات وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات ولكن سئم العناء وداره وكره الباطل وجواره فاستقبل وجه البقاء وخلص الى ما اليه التجاء فما الحيلة !! التصبر اجمل من التحسر والجلد اجدر بنا من الكمد واني وان وجهت الخطاب اليك لم اقصر الوصية عليك فلي نفس تشارك نفسك وحس يشاطر حسك وهذا حديث نفسي اتنه وما يخالج صدري ابثه وان العناية بالراحل عنا في تربية ولده خير لديه واوفى بحقه من مطاوعة الاسف لفقده وأنتم موضع الرجاء لخلفه كما كنتم منتهى المجد لسلفه وأسأل الله لكم حسن العزاء وصرف البأساء واقبال النعماء

٥

وكتب منها أيضاً جواباً عن تعزية

لم يلاقنا الدهر الا بما ألفناه وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه وقد جبل الله هذه الحياة من الشوب وأقام حوباءها من الحوب فلا تخلص لها منفعة من مضرة ولا تخلو لها مبرة من معرة سيطت فيها الحسنات بالسيئات ومزجت الطيبات بالخبيثات واني والزمان عركني وعركته وضرسني وضرسته فلئن ضعفت عن كسر شوكته فلا والله ما فلني بقوته ولئن صدعني فما صدعني وماذا يصنع بمن ينزل ارزاءه حيث ينزل الناس نعماءه لا يلاقي الرضاء الا ما يرضيه ولا ينال الجزع مني الا ما يرديه أعطيت من اليقين مذبة أطرد بها ذباب الهموم ومن العزيمة جنة لا تخترقها الغمم هذا اذا لم أجد من المصيبة خلفاً ولم أملك لها من العوض طرفاً فكيف وقد وفر الله علي النعمة في بنوتك وأجزل لي الخلف في اخوتك وأسأل الله أن يطمس عين السوء ان تصل اليك

(يقول جامع الكتاب) ان للاستاذ الامام في عهده الأخير تعازي ابلغ من هذه وأحسن بيانا وأعلى منها عظة وعرفانا ولكننا لم نظفر بشيء منها ورأينا أن لا يخلو الكتاب من شيء من هذا النوع من المنشآت فاكتفينا بما وجدنا

شذرات من كتبه الى جامع الكتاب

ان لديّ من شيخنا الاستاذ الإمام كتباً كثيرة لكن أكثرها في الشؤون الخاصة كما يكون عادة في كتب الوالد الى ولده ولأمين سره ولكن قلما كان يكتب شيئاً يخلو من الحكم العامة أو الطرف الادبية وانني أختم هذا الجزء بشذرات من كتبه إلي

١

من ذلك قوله في كتاب أرسله الي من أوربا اذ كان عائدا من الاستانة بعد ذكر شيء عن الاستانة منه أنه صادف أحد تلاميذه السوريين هناك يطلب عملا ولا يجده وانه أوصى به أحد انجال عزة بك العابد « لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو يصيب خيرا في الاستانة وعلى كل ذي دين ان يفر منها بدينه وبقية نفسه . تعلمت في الاستانة مالم يكن يعلم الا بالمشاهدة وستسمع منه ما يمكن التعبير عنه عند اللقاء ان شاء الله تعالى »

٢

وكتب في رقيم أرسله الي من رمل الاسكندرية في شأن إرجائه الرد على مجلة الجامعة « أخذت القلم الآن لأكتب واذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لا فائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي افرغ فيه لما أريد وهو يفرّ مني فرار الخير من أيدي المسلمين »

٣

وكتب في رقيم أرسله الي من السنبلاوين ايام كان متنقلا يوزع الاعانات على المصابين بالحريق وكان وعدني بأن يتم مقالات الاسلام والنصرانية في تنقله « الى الآن لم أكتب شيئاً في الموضوع لاني في شغل شاغل من هؤلاء المرزوئين في عقولهم أولا وفي بيوتهم ثانياً »

٤

وكتب في رقيم من رأس البر « كنت انتظر ان يصل إليّ المنار هنا ليكون مما ألقي عليه نظري إذا أرجعته عن أمواج البحر الابيض ولم اطلقه الى بساط النيل

الاحمر فأنا جالس طول يومي بين البحرين »

٥

وكتب في رقيم آخر من رأس البر : « رأس البر لاعقل فيه ولاعمل وذلك لا يمنع من ارسال ملازم التفسير فكلام الله يرد الفار من العقول ويعمر الخرب منها »

كلمة له رضي الله عنه في المنار

وكتب الي جوابا عن كتاب أرسلته اليه وكان في المنصورة جاء فيه كلمة تشعر بالشكوى من قلة الاقبال على المنار : « الناس في عماية عن النافع وفي انكباب على الضار فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ولكن ذلك لا يضعف الامل في نجاح العمل »

خاتمة للكتاب في بعض حكمه المنثورة

«١» العلم ما يعرفك من انت ممن معك «٢» العدل للاسعاد كلمة الله للايجاد «٣» العفة ثوب تمزقه الفاقة «٤» أشد أعوانك الحاجة اليك «٥» انما تتم نكاية الاعداء بخيانة الاصدقاء «٦» هلاك العامة فيما ألفت «٧» جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس «٨» إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه «٩» الرجوع عن الحق بعد العلم به محال «١٠» من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما «١١» لا يكون أحد صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا «١٢» الشباب يحمل ما حُمّل «١٣» ما وعظك مثل لائم ، ولا قومك مثل مقاوم «١٤» ما دخلت السياسة في شيء الا أفسدته «١٥» الذل يميت الارادة «١٦» من لا صديق له فهو عدو نفسه وعدو الناس «١٧» حسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه

هذا وان له رضي الله عنه حكما اخرى كما أن له رسائل ومنشآت كثيرة منها ما جعلناه في سيرته وهي الجزء الاول من هذا الكتاب واذا اجتمع عندنا شيء كثير منها بعد فاننا نودعه في جزء رابع نجعله ذيلا لهذا التاريخ . ونسأل الله تعالى ان ينفع بهذه الآثار ويتغمد صاحبها بالرحمة والرضوان

(تم الجزء)





الجزء الثالث

يحتوي على تأبين الجرائد وبعض الكبراء والفضلاء ونموذج
من تعازي أهل الاقطار والامصار ، ومراثي الشعراء

﴿ مؤلفه ﴾

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(بمصر)

﴿ طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز في سنة ١٣٢٤ ﴾



قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(الانعام ٦ — ١٦٢)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الجاثية ٤٥ — ٢١)

كانت حياة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في جميع اطوارها وأدوارها خالصة لله تعالى من شوائب الرياء، وزعزعة الاهواء، ومات كذلك خالصاً مخلصاً لله، لا يرجو غيره ولا يخشى سواه، لذلك كان في محياه ومماته آية في العلم والعمل لله وللناس، وحجة على أهل الجهل والجمود والجحود من جميع الأجناس،

رأينا في عصرنا كثيراً من أهل الشهرة والظهور في أمتنا، من المرشدين والعلماء، والملوك والامراء، والشرفاء والاغنياء، قد حيوا مكرمين، وماتوا مبكيين، وما كانت حياة أحد منهم كحياته، ولا مماته كمماته، — ما رأينا أحداً منهم في حداثته فطرياً زكياً، وفي شبابه متعلماً صوفياً، وفي كهولته فيلسوفاً اجتماعياً، وفي شيخوخته حكيماً ربانياً،

ما رأينا أحداً منهم يعمل لترقية الناس في الدين والدنيا، من حيث لا يطلب لنفسه الا الحياة الاخرى،

ما رأينا أحداً منهم كان يرجوه الفقير لنيل نواله ، ويسترشد به الغني ليفيد ويستفيد بماله ، ويرجوه المتعلم ليقتبس من حكمته وفهمه ، ويستهديه العالم الذي يريد ان ينفع بعلمه ، ويرجوه المحكومون لما يريدون عند الحاكمين ، ويستفيد منه الحكام كيف يعدلون في المحكومين ،

ما رأينا أحداً منهم كان قبلة آمال المصلحين ، في السياسة والعلم والدين ، قد أتلعت الاعناق وامتدت الابصار من جميع الامصار والاقطار ، ترقب آثار اصلاحه ، وتنوط فلاحها بفوزه ونجاحه ، فالمصري في وطنه يرجوه لمصر ، والمسلم في كل وطن يرجوه للاسلام ، والشرقي غير المسلم يرجوه للشرق ، —

هكذا كان مرجوا في حياته للعالمين ، اذ كان محياه خالصاً لله رب العالمين ، وهكذا كان مرثياً من الناس أجمعين ، اذ كان حتى مماته محباً لخير الناس أجمعين ،

ثم ما رأينا منهم أحداً مات فبكاه السني السلفي وغير السلفي ، وحزن عليه الشيعي والاباضي ، ورثاه اليهودي والنصراني ، وابنه الشرقي والغربي ، واستوى في التعزية عنه القريب بالأجنبي ،

ما رأينا أحداً منهم مات فنعته الجرائد كنعيه ، وأبنته بمثل ما أبنته به ، على اختلافها في العقائد والمذاهب ، وتباينها في المنازع والمشارب ، وعلى ما كان له في عالم الاجتماع من الزعامة ، وفي عالم الدين من مرتبة الامامة ، وهما المزيتان اللتان يتحاسد عليهما الكبراء ، وينبري لمباراة صاحبيهما العظماء ، بل يسلطون الالسنة والاقلام على من يخطب واحدة منهما ، فما بالك بمن تمكن من الجمع بينهما ، وما كانوا عن الاستاذ الامام

بغافلين ، ولا عن النيل منه بساكتين ،

ما رأينا أحداً منهم مات فعدّ موته موتاً للفقراء ، موتاً للعلم والعلماء ، موتاً للبلاغة والبلغاء ، موتاً للصدق والوفاء ، موتاً للاخلاص والصفاء ، ورزؤه رزءاً للمصريين ، بل رزءاً للمسلمين ، بل رزءاً للانسانية ومصابا على أهلها أجمعين ،

ما رأينا أحداً منهم مات فتجاوبت الاقطار بالتعزية عنه ، وتناوحت الأمصار بالرثاء فيه ، وشهد له القريب والبعيد ، والغوي والرشيد ، والذكي والبليد ، بأنه امام الزمان ، وسدرة منتهى العرفان ،

هكذا كان وقع موته في العالمين ، لانه مات كما عاش خالصاً مخلصاً لله رب العالمين ،

ليس هذا الذي أقول من خيالات الشعر ، ولا من باب الاطراء في المدح ، ولا هو من قبيل شهادة القريب للقريب ، ولا من اعجاب الصديق والوديد ، ولا من اجلال التلميذ أو المريد ، وانما هو الحق اليقين ، الذى دونته أقلام الكاتبين ، املاء عن ألسنة الناطقين ، وهذا السفر بعض ما دونوا ، وما دونوا الا بعض ما علموا ،

ترى في هذا السفر اثباتاً لاعتقاد قوم من المؤبنين والمعزين والراثين ، وتصويراً لشعور طوائف من العلماء والفضلاء والشعراء والكاتبين ، قد تقاربوا بل اتحدوا على تباعد الاقطار ، واتفقوا على اختلاف اللغات والمذاهب والديار ، في اثبات المعاني التي أثبتنا ، مع تفصيل لما أجملنا ، وذلك هو التواتر الحقيقي ، المفيد للعلم اليقيني ،

تواتر لم يعهد له عندنا مثال ، دونته الطبقة الاولى في الكتاب ، عن تواتر

سار مسير الامثال ، به عرفه البعيدون من الشعراء والكتاب ، لا بتوارد الخواطر ، كما يقع الحافر على الحافر ، ولا بوحي من آحاد متواطئين ، الى جماعات غير متعارفين ، اذ لا سبيل إلى التواطؤ ، ولا ذلك الاعتقاد والشعور مما يكون بالتوارد ،

يدور الكلام في تلك التآبين والتعازي والمراثي على أربعة أقطاب - (١) بيان الاعتقاد الذى تتبعه الآمال ، و (٢) تمثيل الشعور و (٣) ذكر الاعمال ، و (٤) تخيلات الشعر ، وإن هي تخللت النثر ، وانما يأتي توارد الخواطر ، في هذا القسم الآخر ، كقولهم لو كان يفدى لفديناه بكذا ، وان الحياة بعده أسى وأذى ، وانه كان بحرا في الجود والعلم ، وطودا في الثبات والحلم ، فأما ماهو من قبيل الاعمال ، أو من إثبات الاخلاق والخصال ، فهو مما لا يكاد يتفق فيه خاطران ، فكيف تتفق فيه خواطر الزرافات والوحدان ،

ترى في هذا السفر أقوالا للافريقي والاسيوي ، والامريكي (المقيم في أمريكا) والاوربي ، ولك أن تقول للعربي والتركي ، والفارسي والملاوي ، والافرنجي والبربري ، وان شئت قلت للمسلم السني والشيعي ، وللنصراني واليهودي ، تتفق هذه الاقوال في معانٍ يجزم كل من رآها انها ناشئة عن اعتقاد ، سببه انتشار فضل الرجل في جميع الاقطار والبلاد ، حتى كان جديرا بقول الشاعر

وسار مسير الشمس في كل بلدة وهب هبوب الريح في البر والبحر

هذا مايؤخذ مما نشر في هذا الكتاب ، واليك كلمات مما قاله بعض المشهورين في هذا الباب ، منها ماقيل في حياته ، ومنها ما قيل بعد مماته ،

قال ابراهيم باشا نجيب وكيل نظارة الداخلية ان الناس لا يعرفون قدر الشيخ محمد عبده الا بعد ثمانين سنة (يعني ان كل ماظهر من اجلال الامة له حياً أو ميتاً دون قدره) .

وقال لي المشير أحمد مختار باشا الغازي : انني أعتقد أن دماغ هذا الرجل هو أعظم دماغ عرف وانه لو وزن لرجح بكل دماغ من أدمغة الرجال العظام الذين عرف الافرنج وزن أدمغتهم . وقال لما قرأت في الجرائد خبر موته (وكان في أوربا) ضاق علي المكان الذي كنت فيه لان الخسارة بفقده لا عوض عنها

وقال رياض باشا وزير مصر الاكبر للشيخ عبد الرحيم الدمرداش وكان ملازماً لفراش الفقيد في مرض موته : اننا كلنا شاكرون لك فانك لا تخدم رجلا وانما أنت تخدم الامة في هذا الرجل — وقال في موته : خسارة لا تعوض: وقال اللورد كرومر ان هذا الرجل لا ذنب له الا انه أنور أهل بلاده . وقد قال له بعض وجهاء المصريين مرة ان كل أعمال جنابكم محصورة في إصلاح الحكومة فنرغب اليكم ان تعملوا عملا لترقية المسلمين في مصر فانهم لم يتعودوا الأعمال الاجتماعية . فقال اللورد اعملوا أنتم وعلي أن أساعدكم فمن لا يرقي نفسه لا يرقيه غيره . قال المصري انه ليس عندنا رجال يهمهم أمر الامة ويقدرون على العمل النافع لها . فقال اللورد بل عندكم رجلان غيوران مقتدران وهما الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدوهما بالمال وهما يعملان للبلاد ما تحتاج اليه من الترقي : أو ما هذا معناه وبلغنا انه قال في جواب من قال ان الشيخ محمد عبده متهاون بالدين : انه بالعكس متعصب للدين ولكن بعقل

وقال الشيخ محمد توفيق البكري على مسمع مني ان الفراغ الذي تركه الشيخ محمد عبده لا يملأه شيء فقد كان كما قال المتنبي (ملء السهل والجبل) وقال عجبت للموت كيف تجرأ على الشيخ محمد عبده . وقال لو ترك الشيخ محمد عبده منصبه واشتغل بنفسه للأمة لأحدث انقلاباً عظيماً . وكان هذا رأي كثير من الناس

وسمعت الدكتور يعقوب أفندي صروف يقول بعد ان سمع المؤبنين عند القبر يكررون كلمة فقيد مصر وفقيد الاسلام : اننا لا نرضى ان يكون فقيدكم وحدكم بل نقول إنه أكبر من ذلك انه فقيد الشرق كله

هذا بعض ما سمعنا وما روينا ، على أن الامة لما تعرف كنه من فقدنا ، كما يقول العقلاء المنصفون ، وسيثبت الزمان حقيقة مايقولون ،

فاتتونا بعالم نحرير ، أوملك أو أمير ، اعترفت له الامم بهذا الفضل الكبير ،

ينقسم هذا الجزء الى أقسام (الاول) أقوال الجرائد العربية وفيه فصول (١) للجرائد اليوميـة المصرية و (٢) للجرائد الاسبوعية و (٣) للمجلات و (٤) للجرائد التونسية و (٥) للجرائد السورية فى أمريكا الشمالية والجنوبية . أما جرائد سورية في سورية فقـد منعت من تأبين الامام بل من ذكر خبر موته بأمر من السلطان (وهو من ص٩ الى ١٥٠)

﴿ القسم الثاني ﴾ أقوال الجرائد الافرنجية وفيه فصلان (١) للجرائد التي تصدر في القطر المصري وقد ترجمنا أكثرها و(٢) للجرائد التي تصدر في أوربا ولم يصل الينا الا قليل منها(وهو من ص ١٥١ — ١٨٤)

﴿ القسم الثالث ﴾ أقوال الجرائد التركية والفارسية ولا تركية الا مايصدر في مصر لانها هي الحرية بما لها من الحرية باظهار شعور فضلاء الترك واعتقادهم بفضل هذا الامام العظيم دون التي في بلادها(من ص١٨٥ —١٩٨)

وقد فاتنا ما كتبت الجرائد الهنـدية اذ لم يتيسر لنا جمها وترجمتها في مصر وكنا رغبنا الى عظيم من عظماء مسلمي الهند وأعلمهم بقيمة الامام وأشدهم له حباً بأن يترجم لنا أهم ما كتبته جرائدهم فحالت الموانع —من مرض وسفر— دون اتحافنا بما كان يحب من ذلك

﴿ القسم الرابع ﴾ نموذج من تأبين بعض العلماء والفضلاء كان نشر بعضه في الجرائد (من ص ١٩٩ —٢٣٥) بعد الوعد به

﴿ القسم الخامس ﴾ ماقيل في حفلة التأبين والرثاء عند القبر (٢٣٦-٢٧٤)

﴿ القسم السادس ﴾ التعازي وهي نموذج مما كتب بعض المصريين الذين كانوا خارج مصر ونموذج مما كتب المسلمون من

سائر الاقطار (من ص ٢٧٥ — ٣٠٠)

﴿ القسم السابع ﴾ مراثي الشعراء مرتبة على حروف المعجم وقد اختصرنا أكثرها (من ص ٣٠١ — ٤٢٢)

﴿ القسم الثامن ﴾ ملحقان في الاول منهما استدراك شيء تابع لقسم التعازي وهو تعزية مجلس شورى القوانين لاسرة الامام وما كتبه حموده بك في جوابه وجواب تعزيتي محكمة الاستئناف والمستر براون . وفي الثاني استدراك آخر تابع لتأبين العلماء والفضلاء وهو تأبين اللورد كرومر في تقريره الرسمي عن حال مصر الادارية والمالية وتأبين المستشار القضائي في تقريره الرسمي عن القضاء في مصر (ص ٤٢٣ — ٤٢٨)

رتبنا تأبين الجرائد في كل فصل على ترتيب أسمائها بحروف المعجم وكذلك رتبنا تأبين المؤبنين على حسب أسمائهم الا ما شذ . وأما المراثي فرتبناها على حسب حروف قوافيها قصائد كل قافية على حروف ناظميها ، وماشذ عن الترتيب فالسبب فيه تأخر وزود ما حقه التقديم ، أو الخطأ من المرتبين ، وقد وردت الينا تآبين ومراث أخرى بعد الفراغ من الفصول الذي قضى الترتيب بوضعها فيها فأهملناها ، ورأينا بعضها غفلا من التوقيع المعرف لصاحبها فأغفلناها ، وقد حذفنا كثيرا من الاطراء والزهديات في القصائد التي اختصرناها ،

وانا نقدم الى الامة هذا السفر بالنيابة عن مؤلفيه ، من ساسة العصر ومؤرخيه ، وعلمائه وفضلائه ، وكتابه وشعرائه ، احياء لذكرى نابغتها الاستاذ الامام ، عليه من الله الرحمة والرضوان ﴿ محمد رشيد رضا ﴾

منشيء المنار

أقوال الجرائد العربية

(١)

(أقوال جرائد القطر المصري اليومية مرتبة على حروف الهجاء)

قالت جريدة الاهرام الغراء في عددها ٨٣٠٣ الصادر في يوم الاربعاء ٩ جمادي الاولى سنة ١٣٢٣ و١٣ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥

موت المفتي

الشيخ محمد عبده

البقاء لله وحده

مصباح أضاء في عالم الادب والفضل والعلم ٢٧ سنة ثم انتابته الاسقام منذ اربعة شهور حتى اطفأت منه في الساعة السادسة من مساء امس نورا ساطعاً كان يضأل يوماً فيوماً بضؤول جسمه والناس تروع في كل صباح ومساء بقرب انطفائه وساعة اظلامه ولقد كان تسقط الاخبار عن صحة الشيخ محمد عبده في هذا الاسبوع وما قبله الشطر الاكبر من مشاغل الامة المصرية. لان الشيخ محمد عبده رجل « والرجال قليل » فتم انطفاؤه امس في منزل صديقه محمد بك راسم في رمل الاسكندرية بعد آلام تحملها بالصبر والجلد فلم تهدم عزيمته قبل انهدام بنيته، ولم تضع رشده وارشاده قبل ان تضع نسمة الحياة منه

فمات الشيخ الكبير، والاستاذ النحرير، والعالم الشهير، مفتي الديار المصرية و « كل ابن انثى وان طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول »

فطار نعيه بعد آخر نفس لفظه الى جميع انحاء البلاد فعرفت مصر انها خسرت رجلا عظيما مقداماً عالماً عاملاً وتردد عليه الاسف من كل لسان . ووقف الجميع

مكلومي الافئدة وانظارهم موجهة الى تلك الجثة الخامدة . ولقد كانوا يختلفون فيه وهو حي فهم مجمعون الآن وهو ميت على أن المصاب به مصاب اليم والخسارة بموته خسارة قد لا تعوض — والمرء مذكور بحسناته — بل كيف لا تكون الخسارة كبيرة وقد كان في الشورى صاحب الفكر النقاد والرأي الصائب المقدم على كل رأي وفي اللجنة التشريعية صاحب المقام الاول ، وفي المجلس الاعلى للاوقاف الهادي المرشد ، وفي الجمعية الخيرية الاسلامية الرئيس المحيي ، وفي مجلس ادارة الازهر المصلح الهادي ، وفي عالم الادب العلم الذي يشار اليه بالبنان ، وفي اصلاح المحاكم الشرعية الاهلية العامل المجد العاقل ، وفي كل امر كبير الرجل المقدم المفضل ، فلا يتم في مصر عمل كبير الا ويده فيه قبل كل يد ، وسعيه فيه قبل كل سعي . فاذا كان اختلاف في سياسته بدءا او نهاية فلا خلاف في فضله وعلمه وجده وقد عرك السياسة دهرا طويلا حتى سمعناه في الايام الاخيرة يردد عبارة مأثورة عنه : « مادخلت السياسة عملا من الاعمال الا افسدته »

ثم ذكرت الاهرام مجملا من تاريخ حياته نذكر منه هذه الكلمة عن شأنه في الثورة العرابية قالت

وفي سنة ٨١ بدأت الحوادث العرابية فتولى الفقيد رئاسة المطبوعات وعلت منزلته حتى قيل ان العرابيين كانوا لا يبرمون امراً دون استشارته وكان الفقيد ينكر كثيراً من اعمالهم وهو الذي حمى سراي رياض باشا وقتئذ

ثم قالت : للفقيد آثار ادبية كثيرة تتداولها الايدي وترددها الالسن والاقلام ويضيق عن ذكرها المقام وجل آثاره العلمية الدينية تفسير القرآن وتطبيق العلم على الدين وهو مطلب صعب نسج فيه على منوال علماء الدين فى اوروبا ردا على الدهريين الذين يتهجمون على الدين بالعلم ولقد نقل الينا احد مريديه أنه نظم على فراش الاسقام في الاسكندرية قصيدة منها قوله

ولست ابالي ان يقال محمد ... أبلّ او اكتظت اليه المآتم
ولكن دينا قد اردت صلاحه ... احاذر ان تقضي عليه العمائم

وللناس آمال يرجون نيلها وان مت ماتت واضمحلت عزائم
فيارب ان قدرت رجعى قريبة الى عالم الارواح وانفض خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضيء النهج والليل قاتم

ثم ذكرت ما تلقته بالتلفون من الاسكندرية عن كيفية الاحتفال بالجنازة فيها وفي اليوم التالي نشرت لمكاتبها في الاسكندرية في ذلك ما نصه

(مشهد الامام)

ابتلى الله مصر بل الانسانية والضمائر الحرة والعلم والدين الصحيح بداهية تصفر منها الانامل . فقدت مصر بعد ظهر امس كبير أئمتها ورئيس الافتاء فيها وواحد علمائها الاستاذ الكبير الشيخ (محمد عبده) فلما وقع القضاء واسترد الله وديعته فطارت في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر تلك النفس الكبيرة الى بارئها انتشر الخبر في الرمل والاسكندرية انتشار البرق ووقع فيهما وقوع الصاعقة لان الناس على توقعهم لهذه الفاجعة كانوا يحسبون ان بنية الاستاذ رحمه الله تسمح للرجاء ان يبقى وطيدا بأن يكون يوم نعيه بعيداً . فخاب الرجاء وما هي بأول مرة يخيب الدهر فيها الرجاء

ولما كانت الساعة العاشرة من صباح اليوم ماجت محطة الرمل في الاسكندرية بالمئات والالوف من الجنود والعساكر البوليس والبحارة وتلامذة المدارس والمشيعين من موظفي الحكومة وكبار العلماء والذوات والاعيان من كل عارف بفضل هذا الفقيد العظيم معترف به ثم جيء بالجثة من الرمل يحفها الوقار والهيبة والاحترام فحمل النعش على اكتاف الرجال وتألف موكب الجنازة فسار في المقدمة العساكر والجنود والبحارة وتلامذة المدارس وكان يتقدم النعش ويحيط به عدد من خيالة البوليس والسيوف مشهورة في ايديهم ويتلوه رجال الحكومة وموظفوها وفي جملتهم عطوفتلو فخري باشا وعباني باشا وبينهما صاحب الدولة رياض باشا ثم مظلوم باشا وأرتين باشا وغيرهم من كبار الموظفين واصحاب المناصب السامية وكل ذي مقام ورتبة في المدينة ودلائل الاسف والحزن الشديد بادية على كل وجه

وسار الموكب على هذا النظام من محطة الرمل الى شارع النبي دانيال الى محطة الباب الجديد فأودع النعش في المركبة المخصصة لنقله الى القاهرة حيث يقام المشهد الكبير الرسمي رحم الله هذا الفقيد العظيم وألهم حضرات ذويه ومحبيه وعارفي فضله الصبر الجميل على فقده اه

ثم قالت في الاخبار المحلية من هذا العدد ما نصه

جنازة المفتي الشيخ محمد عبده

في الساعة الرابعة تماماً سارت الجنازة من محطة مصر على النظام الذي كان يشور به الفقيد استنادا على قوله « اكرام الميت بدفنه » فسار في مقدمة الموكب فرسان البوليس بقيادة اثنين من ضباطهم ويلي الفرسان فرقة من مشاة البوليس بقيادة ٤ من ضباطهم ويليهم نعش الفقيد محمولا على الاكتاف وهو مغطى بشال من الكشمير والى جانبه الايسر شقيق الفقيد حموده بك عبده مع بعض الاصدقاء ووراءه شقيقاه الآخران وبينهما صديقه الحميم ورفيقه وزميله في كل ادوار حياته العلمية والسياسية الشيخ عبد الكريم سلمان . فالجنازة الحقيقية كانت مؤلفة من النعش وحامليه والمحيطين به . اما الجنازة الرسمية فكانت مؤلفة من البوليس الماشي امام النعش فرساناً ومشاة ومن الذين يسيرون وراء النعش فضيلة قاضي القضاة يحيى افندي ووراءه قضاة المحاكم الشرعية وفضيلة الاستاذ الشيخ محمد الشربيني شيخ الاسلام(١) ووراءه شيوخ ادارة الازهر والاروقة ثم جمهور كبير من العلماء الاعلام من شيوخ احنى الدهر صعدتهم وكهول تجل الامة قدرهم وعلمهم وشبان غذيت عقولهم بعلوم الفقيد ودروسه وكان عدد العلماء وطلاب العلم الذين يسيرون وراء النعش نحو ثلاثة آلاف شخص على اقل تقدير ويليهم مستشار الداخلية المستر متشل ووراءه رؤساء اقلام الداخلية والمالية وجناب اللورد سسل وكيل حكومة السودان ووكيل نظارة الحربية ووراءه الضباط الكبار ورؤساء اقلام الحربية والسودان ووكيل محافظة

---

(١) الشيخ الشربيني اسمه عبد الرحمن ولم يشيع الجنازة لانه كان مريضا كما سيأتي في المؤيد . وقد عبرت هذه الجريدة وغيرها عن أخوته بالاشقاء وهم اخوته لأبيه .

مصر وحكمدارها ورئيس الضبط وكبار العمال والكولونل كولفيل قائد جيش الاحتلال وقنصل جنرال دولة ايران ومدير مصلحة الصحة وسعادة حسن باشا عاصم وكيل الجمعية الخيريه الاسلاميه التي كان الفقيد رئيسها . وكبار عمال ديوان الاوقاف واعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية الخ الخ

ويليهم سعادة ناظر الحقانية ابراهيم باشا فؤاد وسعادة وكيل الحقانية إسماعيل باشا صبرى والمستر برونيت نائب مستشار الحقانية وصفوت بك الافوكاتو العمومي ووراءهم حضرات قضاة المحاكم الاهلية ومستشاري محكمة الاستئناف الاهلية بازياتهم الرسمية التي يرتدونها في ابان عقد الجلسات ورجال النيابة وحجاب المحاكم ويليهم طائفة المحامين امام المحاكم الاهلية وهم يتشحون ارديتهم السوداء الضافية . ويليهم جمهور لا يدرك الطرف آخره من كبار الامة واعيانها وادبائها وافاضلها وكان البوليس واقفاً على ممر الموكب من محطة مصر حتى الازهر بقيادة ضباطه لحفظ النظام فكان كلما تقدم الموكب زاد عدد المشيعين حتى اذا ما دخلت الجنازة الموسكي اقفلت المخازن الكبيرة ابوابها ووقف التجار امام مخازنهم للاشتراك في المأتم ووقفت قطورات الترمواي نحو ساعة حتى لا تقلق الموكب في سيره

فلما وصلت الجنازة الى الازهر اذن المؤذنون من كل المساجد دفعة واحدة فزاد الخشوع وزادت العبرة في جنازة كبيرة لم تر مصر أكبر منها لاشتراك الشعب كله بجميع طوائفه بها ولم تسمع فيها ضجة الفقهاء والعميان ولكن ذلك السكوت الذي كان سائدا كان أدعى الى العبرة واظهر لهيبة الموت واوعظ للنفس

وبعد الصلاة على الجثة في الازهر انتظم المشهد ثانيه وسار الى قرافه المجاورين حيث ألحدوا الفقيد ولم يسمع بعد اضراحه ودفنه الا صوت واحد لاحد الشعراء اذ قال وهو ينظر مودعاً ذلك القبر

قد خططنا للمعالي مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا

ولم تقم ليالي المآتم عملا بوصيه الفقيد وآرائه فنسأل الله ان يجزل ثوابه وان يلهم آله وذويه واصدقاءه وامته بل كل مصر عزاء عنه وان يرزقها من ابنائها خلفاً له

وذكرت في مكان آخر من هذا العدد ما نصه

عن موت المفتي — مات الشيخ محمد عبده مفتي مصر اول امس وورد تلغراف روتر بان السير وليم موير مات اول امس ايضاً والسير وليم موير رجل من كتاب الانكليز كان في كتاباته واقواله اعدى عدو للاسلام كما كان يعد الشيخ محمد عبده اكبر مدافع عن الاسلام . وورد من بلجكا خبر وفاة الدكتور سيدناي سميث المثري الاميركي اصدق صديق للاسلام ومن اكبر اصدقاء الشيخ محمد عبده

وحدثنا احد افاضل الايرانيين بان فلكياً مصرياً تنبأ عن وفاة المفتي في هذا العام في نتيجة فلكية تعرف بنتيجة الزرقاوي وقد طبعت منذ ثمانية شهور فاخذنا تلك النتيجة الصغيرة فاذا فيها اقوال على شكل القصيد فيها هذان البيتان

الا يارحمة الرحمن صبي على قبر حوى روح الامام
وياذا الازهر اندب ليث غاب فمن يفتي اذا الاستاذ نام

والمتعارف بين الكتاب الوطنيين ان المفتي كان يعرف بينهم بلفظة الامام وبالاستاذ الحكيم فما اغرب الصدف

وقالت جريدة البصير الغراء في عددها ٢٣٧٣ الصادر ذلك اليوم

رزء عظيم

تحزن للبلاد المصرية في هذا اليوم بل العالم العربي بأسره حزناً شديداً لوفاة العلامة المفضال الشيخ محمد عبده مفتي القطر الذي عرفت روحه الطيبة بقدر عزتها ووجوب بقائها فأقامت مدة تردد منه بين السحر والنحر حتى غلبها قضاء باريها، واستردها منه معطيها، فراح تندبه الصحائف والاقلام، وتنوح عليه صحة المدارك والافهام، وتأسى على عمره بواقي الايام ،

ألمت بهذا الفقيد الحميد علة ما كان أحد يتوقع انها تفضي الى هذه النتيجة المحزنة وقد جاء من أجلها الى هذا الثغر فعالجه فيه نطس الاطباء فما أغنى علاجهم شيئاً ولا دفع طبهم مقدوراً فمات منتزعاً من بين آمال ألوف كانوا يرجون له

طول البقاء وامتداد الاجل ليستفيدوا من اصلاحه ويستنيروا بارشاده لانه رحمه الله كان فى مقدمة العاملين على أصلاح شؤون المسلمين بالخصوص وسائر بني الشرق بالعموم ولهذا يعد فقده خسارة حقيقية لو يدري الغافلون

ومصيبة حمل الخليفة شطرها * والمسلمون وشطرها الاسلام

أما الشيخ محمد عبده من جهة اصلاحه الديني والدنيوي فمشهور جداً حتى يمنع اشتهار أمره عن ذكره ثم هو مشهور أيضاً بالبلاغة والفصاحة وحسن الانشاء والترسل وصحة الادراك وسلامة الذوق وله من قلمه على ذلك أدلة كثيرة وشواهد عديدة حتى انه لو لم يكن يشغل منصب الافتاء لكان يشغل اسمى مركز بين أولي الآداب وحملة الاقلام ولهذا يندبه المستهدون والمسترشدون، ويتطلعون فيرون قد بكى بكاءهم الكاتبون والمتأدبون، وناح نواحهم الشعراء المجيدون، ذلك هو الشيخ محمد عبده الذي فيه يمترون، نسأل الله تعالى ان يتلقى روحه الطيبة باحسانه وكرمه فلقد كان محسناً كريماً، وان يتغمده بفضله ورحمته فلقد كان فاضلا رحيما، ولا نسأل لقومه الكرام وحدهم الصبر والعزاء، فاننا قد غدونا جميعاً في المصيبة شركاء، وقد تقاسمتها الاقطار العربية بالسواء، وتألمت لها جميع المذاهب والاديان اذ ليس للفضل الصحيح مذهب ولا انتماء

اما مشهد دفنه فقد كان نادر المثال فقد حمل من رمل الاسكندرية على الكهرباء يصحبه المئات من ذوي الوجاهة ولم يبلغ محطة الاسكندرية حتى تكوّف السكان جميعاً في محطتها وفى مقدمتهم عطوفتلو فخري باشا القائمقام الخديوي ونائب رئيس النظار مع حضرات النظار ودولتلو رياض باشا ونجله محمود باشا ورئيس محكمة الاستئناف الاهلية وقضاة محكمة الثغر الاهلية بشارة المحكمة الرسمية اذ كانت قد أوقفت الجلسة حدادا عليه ثم سعادة ناظر الاوقاف ووكيل نظارة المعارف ووكيل خضرة اللورد كرومر وبعض مستشاري محكمة الاستئناف المختلطة وغيرهم من كبار رجال الحكومة وفضيلة شيخ علماء الاسكندرية وقاضيها وجميع علمائها الافاضل وكل ذي مقام محترم في الاسكندرية عدا كبار القوم الذين حضروا من العاصمة وسائر جهات القطر لوداع الفقيد الوداع الاخير لحمل نعشه المجلل

بالكشمير الثمين على اكتاف القوم يتقدمه بعض رجال البوليس بين خيالة ومشاة ومن ورائه شقيقاه الاسيفان وسائر هذا الجمع الذى يعد بالالوف بين صفين من العساكر ورجال البوليس واولاد المدارس من شارع الرمل فشارع النبي دانيال فشارع محطة مصر حيث اودع نعشه عربة خصوصية واخذ المشيعون يذرفون الدموع ويعزون بعضهم بعضا على هذا المصاب الاليم ثم تفرقوا آسفين وقد شيع الفقيد الى العاصمة وفد مؤلف من ٦٠ وجيهاً من وجهاء الاسكندرية يتقدمهم شيخ علماء الثغر والقاضي و بعض العلماء الكرام الخ

وقالت جريدة الشرق الغراء في عدد ٥٥٠ الصادر يوم الاربعاء ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ و١٢ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥

الامام الحكيم

ودعناه

ودعناه وقد نال منه المرض وأطبق عليه الموت وأذابت كبده الأوجاع والآلام فلا والله ماوجدنا مثل وجهه اشراقاً

ودعناه والذي أصابه لو نزل بالدنيا لكانت كلها دمعاً ودماً . فما سمعنا للامام الحكيم توجعاً ولا أنيناً وما وجدناه الاشجاعاً بطلا

أخذ سقراط كأس السم فشربه مبتسماً . فقالوا مات سقراط كريماً، وانما أخذ سقراط السم مكرهاً قضي عليه به قضاء محتوماً ،

وأخذ الامام الحكيم كأس الهم من الأزهر لم يحكم عليه بها من شعب ولا من حكومة ولم تقدم له الا من أيدٍ أثيمة ذميمة فكان وهو يجود بنفسه الكريمة يستغفر للذين قتلوه، و يشفع لهم عند الذين أحبوه وأكرموه، فالامام مات كما عاش كريماً حكيماً

نعم مات الامام

مات العلم والعمل والهمة والاقدام . مات الاستاذ الأعظم والمصلح الأكبر

الشيخ محمد عبده فانطفأت بموته أشعة العلم والذكاء، وباتت من بعده سوداء ظلماء،
نبكي الامام الحكيم ماذكرناه، ونبكي مصر ما بكيناه، ان حزننا عليك يا امام المسلمين، وكبير المفكرين، لتهون في جنبه جميع الاحزان، وتخف بازائه كل مصائب الانسان،

نشفق على مصر لانها فقدت بموت هذا الامام، أغلى درة فى تاج الاسلام، نشفق عليها لأنها فقدت الرجل الذي قال عنه وكيل فرنسا السياسي في الجزائر سابقاً انه لو كان فى المسلمين عشرون شيخاً مثل الشيخ محمد عبده لاعتز الاسلام جانباً وكبر شأناً ولرضيته لي ديناً

أضعناك يا أستاذ وأي الرجال أضعنا . أضعنا النفس الشريفة والروح العالية. أضعنا الذي كان يخرج من منزله في كل صباح وفي جبينه بيان حاجات الناس فلا يبرح عن سعيه هنا وهناك حتى يقضيها ثم يعكف على خدمة الجمهور فينسى نفسه بها ويفني حياته فيها

أيها الامام انك قد مت شهيداً ، ولكن يكفيك انك قد حاربت الجهل وخدمت الأمة فأنت تغيب اليوم في السماء مستريحاً، فيارجيم الخطوب ان أفق العلى بغير شهاب، ويا فقيد العلم والآداب لقد شقت عليك مرائر العلم والآداب ، ويامن حملوك على الرقاب ، لقد كان فضلك طوق تلك الرقاب

عليكم سلام الله ما ذكر اسمكم   وذلك بين الناس آخره النشر

لبى دعوة ربه فى الساعة الخامسة من مساء أمس

فساوى قلوب الناس فى الحزن رزؤه   كأن صدور الناس في حزنه صدر
فان أظلمت أرض الشآم لحزنه   فلم يخل من ذاك الصعيد ولا مصر

وقد أحاط به الآسون يبغون طبه، وراموا بأنواع العقاقير برءه، فلم تنجع فيه حيلة وكانت وفاته بعلة استحكمت من مدة بعيدة وهي تورم في الكبد طغي على البطن بكبر حجمه واختلطت علته بالدماغ بسبب تسمم الدم بما يسمونه «اسيدتونومي» أي العلة الخلية فأصيب بالسهو والغيبوبة وسائر الاعمال العصبية ولما فاضت روحه الكريمة أسرع عطوفة وكيل قائمقام خديوي الى نعيه للجناب العالي في ديفون

ثم عقد مجلس النظار في سان ستفانو للمداولة فيما يجب اتخاذه من التدابير لتشييع الجنازة في الاسكندرية ومصر وحضر جناب وكيل المالية خصيصاً لحضور هذه الجلسة فتقرر أن تكون النفقات على الحكومة وأرسل عطوفة وكيل قائمقام خديوي رسائل برقية الى محافظ العاصمة لاتخاذ التدابير التي تقررت في جلسة النظار وللتحتيم على جميع موظفي الحكومة بحضور تشييع الجنازة وأرسل الاوامر الى المديرين لاستقبال الجثة في المحطات التي تمر بها مع عمد البلاد ومشايخها

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم وصلت الجثة من الرمل الى الاسكندرية فشيعت الى محطة مصر من شارع المسلة الى شارع النبي دانيال فالمحطة بموكب حافل مهيب يتقدمه ثلة من فرسان البوليس فتلامذة مدرسة الشيالين ففرقة من البوليس المشاة ثم النعش يتقدمه اخوة الفقيد وأصهاره ويتلوه عطوفة فخري باشا بالنيابة عن الحكومة المصرية ودولة الوزير الخطير رياض باشا ثم أصحاب العطوفة والسعادة عباني باشا ومظلوم باشا ويعقوب باشا أرتين وعبد الحليم باشا عاصم وابراهيم باشا نجيب وصالح باشا ثابت وجميع رجال القضاء الأهلي والشرعي والعلماء وغيرهم من كبار رجال الأمة وجميع أعيان الاسكندرية تسير وراءهم جموع لا تحصى

وكان يسير على جانبي الموكب جميع تلامذة مدارس العروة الوثقى وجنود خفر السواحل وفي آخر الموكب فرقة ثالثة من فرسان البوليس حتى وصلوا الى المحطة فنقلت الجثة الى قطار خاص سار بها الى العاصمة وكان يتولى ادارة الموكب جناب وكيل المحافظة

وقد ورد الى شقيقه حموده بك عبده كتاب من متولي أعمال الوكالة البريطانية أعرب فيه عن أسفه بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن جناب اللورد كرومر وأصدر سعادة ناظر الحقانية أمره الى قضاة المحاكم الاهلية والمحامين أن يشيعوا الجنازة بكساويهم الرسمية

ترجمة الفقيد

وُلدَ الفقيد الكريم من أبوين فقيرين من أهالي محلة نصر بالغربية كان يضرب بهما المثل في الورع والشهامة واكرام الضيف حتى كان بيتهما بغير باب وكان الاستاذ يفتخر بذلك كثيرا . ومما يؤثر عن كرمهما ان ضيفاً وفد عليهما صباح يوم ولم يكن عندهما شيء من الزاد لفقرهما فقدما له اللبن الذي كان معدا لغذاء الفقيد وهو صبي فى المهد فأمضى الفقيد نهاره جائعاً باكيا

وُلدَ رحمه الله عام ١٨٤٥ . فلما بلغ السابعة من عمره ظهرت عليه علائم النجابة والذكاء فلم يشأ أبوه له أن يكون فلاحاً كاخوته بل شاء أن يعلمه فأدخله الى كتاب في القرية فاختلف اليه الفقيد مكرهاً ولم يدع أحداً من أهل القرية الا توسل به الى أبيه أن ينظمه في سلك اخوته فلاحاً فكان يأبى عليه ذلك ويصر على تعليمه اصرارا . وكانت النتيجة من هذا وذاك ان الفقيد رحمه الله لبث بهذا الكتاب ثلاث سنين لا يحفظ مما يلقي الفقيه حرفا

وفي عام ١٨٤٨ أدخله أبوه الى الجامع الاحمدي فلبث به ثلاث سنين أخرى كانت النتيجة منها مثل الاولى . فلما أعيى أباه أمره أرسله الى الجامع الأزهر فمكث فيه عامين ولا يدري مما يلقن شيئاً

قال الاستاذ في تعليل ذلك ان الذي كان يعوقني عن تفهم المقصود من هذه الشروح والمتون ثلاثة أمور . الاول رغبتي في أن أكون مثل اخوتي فلاحاً وعدم وجود الوسائل التي ترغبني في العلم . والثاني اخلال نظام التدريس بحيث كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية . والثالث ما اتفق عليه الطلبة من مضايقة معدهم بالاغذية الضارة مما يكون منه اعتلال الجسم والفكر معاً

فلما لم يجد الاستاذ مناصاً من ارادة أبيه خلا بنفسه واجتمع بفكره وذكائه فهان الامر بعد ذلك عليه وأصبح ما يحصله رحمه الله في يوم واحد من هذه الدروس المعقدة المشوشة مثلما يحصله سواه في عام أو عامين . ومما يروى عن ذكائه انه لم يمر عليه شهر في درس كتاب الكفراوي في النحو حتى بدا له شيء من غلط

الكتاب وتناقضه فى بعض المواضع فنبه شيخه الى ذلك فاعترف معه به ولكنه قال انما ندرس هذا الكتاب تبركا

ثم جاء السيد جمال الدين الافغاني الى مصر فاجتمع به الفقيد وأخذ عنه كثيرا من فلسفته وعلمه وكان السيد جمال الدين يقول عنه انه أنجب تلاميذه وانه لمصر أقوى من اسطول وأعز من جيش . ولقد لبث السيد جمال الدين بمصر عشر سنين فكان فقيدنا ساعده الايمن لا يكتب السيد موضوعاً علمياً الا بروح الفقيد وقلمه ولا يجادل جدالاً فلسفياً الا كان فيه شيء من ذكائه وفكره . ولما طرد السيد جمال الدين قال وهو فى سجن السويس منتظراً الباخرة التي تحمله منفيا انى تركت الشيخ محمد عبده وكفاه لمصر عالمًا

وكانت اولى الوظائف التى تولاها الفقيد رحمه الله تحرير الوقائع المصرية وكانت في عهده آية الاعجاز في الانشاء ثم عين مديرا للمطبوعات المصرية . ولما عزل المغفور له اسماعيل باشا وتولى رئاسة النظار دولتلو رياض باشا قرب الفقيد اليه واتخذه مستشاراً فالذي تراه الآن من آثار رياض باشا الحسان انما هو من فكر الاستاذ رحمه الله . حتى كان ما كان من تلك الثورة العرابية فبذل جهده في اقناع اهلها بسوء عاقبتها حتى هموا كثيراً بقتله وهو مع ذلك لم ينفك عن النصح والارشاد ومما يرويه التاريخ دليلا على جهل الذين قاموا بهذه الثورة وعلى بعض ما بذله الفقيد من العناء في سبيل الاقناع انه لما جاء الاسطولان الفرنسوي والانكليزي الى مياه الاسكندرية اجتمع الثائرون في منزل عرابي يضحكون من اوربا ويهزأون بقواتها فوقف الاستاذ رحمه الله خطيباً فيهم وعرفهم ماهي اوربا وما هي فرنسا وانكلترا وما هي قواتهما البرية والبحرية فقاطعه عضوان من اعضاء مجلس النواب حينئذ وهما عبد المجيد بك البطاش العضو النائب عن الاسكندرية وسائر الثغور المصرية والسيد احمد محمود العضو النائب عن مديرية البحيرة وقالا له ان اهالي السيالة وابي حمص وحدهم ليقاومون قوات الدولتين اللتين تذكرهما فاخرج من مجلسنا او قتلناك صبرا

ثم هدأت الثورة بعد الاحتلال فاتهم الفقيد ظلماً انه كان من رجالها ففي

الى الشام فلبث فيها عاماً ثم دعاه السيد جمال الدين الافغاني الى مدينة باريس فاصدرا بها جريدة العروة الوثقى ثم عاد الفقيد الى مصر بعد ان تبينت براءته للحكومــة المصرية فعين قاضيا جزئيا فى المحـاكم الاهليـة ثم مستشارا في محكمة الاستئناف ثم عين مفتياً للديار المصرية فكان في جميع الوظائف التى تقلدها بحراً من العلم والفضل

اما اعماله النافعة فكثيرة لا يحيط بها بيان نذكر منها تدريسه القرآن الشريف بما لم يسبقه اليه احد حتى كان شرحه له وتفسيره شرحاً علمياً عصريا خاليا ممـا حشاه السابقون . ومنها اعماله في مجلس الشورى وهي كل حسناته وغاية غاياته . هذا عدا الافتاء والتأليف الذى منها رسالة التوحيد الشهيرة وتفسير جزء «عمّ» والرد على الدهريين . ولم يقف عند هذا الحد رحمه الله من الاعمال النافعة بل وجه نظره الشريف الى الازهر فاصلح ماقـدر على اصلاحـه وكان والمرض يساوره يشتغل بمشروع مدرسة تخريج القضاة الشرعيين ثم انه كان فوق هذا الاشغال الكبير يكاتب المجلات باعظم الموضوعات الادبية والعلمية مما كان له شأن كبير في العالم كله . نذكر من ذلك رده على المسيو هانوتو وعلى بعض مقالات ظهرت في الجامعة . وله عدا ذلك كله مساع مشكورة واعمال انسانية انتفع بها خلق كثير هم الآن يبكونه معنا و يذوبون عليه حزناً

هذه اعماله اجمالا . اما اخلاقه فاخلاق عمر . انه كان حليما واسع الصـدر كريم النفس الى درجة متناهية . فما قصـده ذو حاجة الا سعى له سعيها حتى يقضيها له وما اساء اليه انسان الا اجتهد ان يقابل الاساءة منه بالاحسان

نذكر من ذلك ان السيد عبد الرحيم الرمرداشي جاءه يوماً فقال ياأستاذ ان عدوك فلاناً حقد عليّ لقربي منك فهو ساع للايقاع بي فاجابه المرحوم اصبر عليّ الى غد . وان الرجل في منزله الساعة الحادية عشرة اذا الاستاذ يطلبه بالتلفون فلما رآه قال انك اوجدت في نفسي شيئاً من الذي شكوته اليّ ولم اتعود ان ابيت ليلة وفى نفسي السوء لاحد . ومنها ان دولة البرنس سعيد حليم زاره في مرضـه الاخير غير مرة فكان يلح عليه الاستاذ رحمـه الله ان يعطي للعلماء استحقاقهم

مع ان علماء الازهر كما تعرف عا كسوا الشيخ وحاربوه بكل سلاح

ولقد كان انجال المشايخ في الازهر يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الاستاذ في ذلك غبناً للعلماء لان هذه المرتبات انما هي وقف عليهم فاعاده الاستاذ اليهم وعوض انجال المشايخ عنها بما كان يجمعه لهم بسعيه في رأس كل شهر من امواله واموال محبيه . ولقد شوهد وهو ساع هذا السعي عقب اعتزاله الازهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين فاعظم بهذا كرماً وحلماً

ولقد كان رحمه الله وطنيا بحقيقة معني الوطنية وكان لا يني له عزم فى كل ادوار حياته عن ترقية الامة واصلاح شؤونها . وانا رايناه في مرضه فما سمعناه يذكر عن مرضه شيئاً وكأنه غير مريض . وما سمعناه الا محدثاً باحسن المواضيع النافعة للامة والبلاد وله حسنات غير ذلك كثيرة لا تحصى ولا تعد وهي تدل على ان الرجل رحمه الله كان كبير الهمة واسع العلم شديد الغيرة على الامة والبلاد

وقالت جريدة الجوائب المصرية الصادرة في ذلك اليوم (*)

هو الحي الباقي

لا اغراق اليوم فى قول الرائي قد انهد ركن للعلم ودك طود للفضل

مات الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الذي كان بلا خلاف اذكى القوم فؤاداً وأشد عارضة واجمع لمعرفتي الدين والدنيا واعمل عالم لقصده وقصده فوق مطلب زمانه

استأثرت به رحمة ربه البارحة في نحو الستين من العمر وكان متين البنية ولولا العلة العارضة لعاش دهرا طويلا ولكن لكل أجل كتاب

وكان أحسن الله اليه سمح الوجه حلو الحديث جهوري الصوت حاده في الخطبة . اذا تكلم في الجمع رقي في معناه ورق في مبناه واطرب برنته وأثر بنفاذ نظراته الساطعة .

(*) تأخر تأبين الجوائب عن تأبين الشرق سهوا

وكان كاتباً اذا استل القلم في غارة شعواء كغارته الاخيرة فى الدفاع عن الاسلام ومقاتلته المتهجمين عليه لم يبق نادّة من قضايا الكلام ولم يذر شاردة من مستحدثات الجدل الا استثارها من مكمنها وأرسلها على خصمه حججاً دامغة وبراهين قاطعة

فأما في الشرع الشريف فله تفسيره للقرآن العظيم وهو على كونه لم يخرج عن تفاسير المتقدمين في مضمونه الا انه بلغ فيه الغاية في سهولة التعبير مع حسنه ومن جدة الترتيب مع القرب الى الاجتهاد .

وأما في الفقه فله من محكمات الفتيا مايدل على إلمامه بأطراف المسائل المتشعبة وأخذه بالاوطد أو الارجح منها في الغالب من الامر .

وله رسالة في التوحيد من طالعها علم مقدار فضل الرجل ورأى آثار ذكائه وبحثه في كل صفحة من صفحاتها

ومن غرائب عصره انه خرج منه على ذلك التوسع في العلوم الشرعية وعلى ذلك الاقتدار في التحرير والتحبير وقلما اتسقت لسواه هاتان المزيتان فى الغابرين من سابقين ولاحقين .

وكانت له فيما عدا الآنف ذكره مشاركات عظيمة النفع فى العلوم الطبيعية كما أشرنا الى ذلك وفي الفلسفة على ضروبها وفي القوانين الموضوعة

تعلم اللغة الفرنسوية بعد الاكتهال فلم تكن الا بضعة شهور حتى أحسنها تكلما وكتابة ولم يكن الا زمن بعد ذلك حتى كان يخيل لسامعه انه تلقن ذلك اللسان وهو رضيع في المهد لتصريفه الخطاب فيه على أغرب وألطف ما امتاز به أهله في مكالماتهم .

أما أخلاقه

فقد كان وافيا لصديقه شديدا على عدوه وعلى خصمه وكانت معه رصانة وتؤدة . وربما لان لحاجته الى الضعف وربما قسا لها الى الصلابة (١)

---

(١) يراجع الكلام عن أخلاقه في كل تأبين وفي جزء الترجمة . نعم ان

وكان مدفوعاً بفطرته الى العمل العظيم . بدأ بهذه الخطة منذ عهده بالسيد جمال الدين الافغاني في مصر معاون لسان وفي باريس معـــاون قلم وتابعها في الحوادث العرابية التي كان له وحده فيها مرام أبعـد من مرامي نظر الآخرين فلما عاد من النفي وقد عظمت فيه صولته الفكرية بما لقي من اجلال أكابر الشام واعلامها تولى منصب قاض جزئي فلم يأنف منه لعلمه أنه درجة له في سـلم رقي بعيد الشأو ثم نهض الى ان نصب قاضيا في الاستئناف فشرع في تمهيد الحركة الجديدة للازهر .

وبعد ان أصبح عضوا في مجلس إدارته وألقيت اليه مقاليد الافتاء كشف عما ينويه وهو جليل .

كان ينوي ان يجعـل الازهر منارة للعالم الاسـلامي كله لا في علوم الدين وحدها بل في علوم الدنيا منضمة لها معززة اياها في قتال الحياة .

وقد لقي في هذا الميدان الاخير من ميادين جهاده ما أربت مصاعبه ومتاعبه على ماسبق له الاضلاع به فلم يفلح الا في إلقاء كلمة الاساس الفكري وسقط مجهودا قتيلا لاسباب ليس مقام التأبين محل ذكرها ولكن سيقول المؤرخون لهـا بعد حـين ان عدتها لا تقع الا على رقاب بعض الذين تقربوا اليـه متسلحين على كياسته وكرم أخلاقه بسماجة الغلظاء وعبودية الارقاء (١)

*
* *

فالرجل الذي فقدته مصر اليوم رجل حزم وعلم وعمل . رجل نسيج وحده الفقيد كان يستهين بكل عظيم يقف في طريق الاصلاح ولكنه لم يعاد أحدا عداوة شخصية وكان يخـدم مبغضيه لا سيما اذا لجأوا اليه فكان أعظم من عرفنا حلما وكرما وصفحا

(١) لم يجد الاستاذ الامام من الاعوان على عمله في الازهر من ينهض معه به وقد تقرب منه أناس فكانوا آفة العمل لا آلته ولصاحب الجريدة هوى فيما قال وان وافق معنى صحيحاً في الجملة

في كثرة معارفه وشدة سعيه الى غايته . اذا جاوره بعضهم في المرتبة العليا من
العلم بالدين أو جاراه بعضهم في حب العمل وتذليل كل عقبة دون الخدمة العامة
التي آثرها فلا مثيل له في الجمع بين تلك العلوم الواسعة وتلك الخلال العظيمة
لهذا نبكيه كما يبكي كل عظيم راحل ونسأل الله ان يرحمه كثيرا وان لا يجعل
فقدانه وفقدان امثاله من قادة الامة وسراتها تماطويلا لهذه الامة المحتاجة الى
العلم والى العمل خليل مطران
(ثم ذكرت الجريدة شيئاً عن الاحتفال بتشييع الجنازة وتلغرافات من
الجهات تنبئ بالحزن العام)

وقالت جريدة الظاهر الغراء في عدد ٤٩٩ الصادر في ذلك اليوم

الخطب الجلل

وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

أرأيتم كيف تزلزل الأرض زلزالها ، أعرفتم كيف تقذف الأقدار أهوالها ،
أسمعتم كيف ينفخ في الصور ، أشهدتم كيف ترتجف بأهلها القبور ، يوم أمس وما
أدراك ما يوم أمس ، يوم صوّح نبت مصر وغاض نيلها وانقطعت روح هوائها ،
ولطمت كف أرضها وجه سمائها ، وصاح جامدها ، وأخرس ناطقها ، وبكى كل
ذي حياة فيها فقدان جوهر الحياة وأدب الحياة وعلم الحياة وفضل الحياة
أجل نعق ناعق العدم ، بما القضاء به حتم ، من قبض نفس حكيم الأمة
ورب الشمم صاحب قلم الحكمة مفتي الديار الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

فكأني بعلم العلم وقد هوى، وكوكب الفضل وقد خوى ، ورفعة المجد وقد
خرت منكبة على وجهها خاشعة ، وعزة الحمد قد لبست شعار الحزن ومهجتها
متصدعة وشؤونها هامية هامعة، فلا وربك ما ألم الاسلام في عصرنا هذا برزء
ألم كرزئه بفقيدنا اليوم

فقيدنا اليوم كان الوقور الأعلى فى منازل الرئاسة، الدليل الاذكى في طرائق السياسة ، الجليل الاكمل في مواطن الكياسة ،

نهض الفقيد باعباء خدمة الاسلام واصلاح حال الامة المصرية نهضة تزرح دونها رجال العصور على تطاول كرورها فما ونى ولا فتر ولم توقفه اللائمات ولم توهن عزائمه الصعاب فضرب من أجل ذلك بكل سهم من أسهم السعي المحمود فما ترك شأناً من الشؤون الا وأجال فيه رويته ،وأمضى فيه عزيمته ، حتى كأنه وهو فرد مجموع أمة بما فيها من مصالح دينية وأدبية ومادية وعلمية وسياسية :

تقلد القضاء فظهرت على يديه العدالة ناصعة راجحة وبسط يد التدبير الى أوقاف المسلمين فكان أحفظ حفيظ على اليتامى والمساكين وأصحاب الحقوق وبعث في صدور الناس الحمية لإقامة مباني المدارس وتثقيف الافهام وتهذيب النفوس فهبت الآداب والعلوم من مكامن خمولها وكان هو القائد لنهضتها وما اكتفى بذلك حتى أقام نفسه مقام المدرسين فالقى فى أجل الجوامع وأكبر المجامع على الالوف من التلامذة أنواع العلوم العالية

وأما مآثره فيما عهد اليه من أعمال مجلس شورى القوانين ومجلس ادارة الأزهر والجمعية العمومية ورئاسة الجمعية الخيرية الاسلامية ورئاسة لجنة اصلاح المحاكم الشرعية فذلك بما يعجز القلم مهما بلغت بلاغته عن احصاء القليل الاقل من قطره فضلا عن الكثير . وحسب الامة المصرية قولا ان جميع ما يعنيها من الشؤون الهامة والمصالح العامة لم تكن لتوجد وان وجدت لم تكن لتتقدم فى فلاح لولا أن أتاح الله لها تدبير فقيدنا الحكيم . ولو لم تذكر له من جميع هذه الخدم الكبرى الا قيامه دون سائر علماء الاسلام بالرد على رسالة هانوتو التي جاءت مشنعة على الاسلام والمسلمين ، وتمنى فيها هانوتو أن ينقض قبر سيد المرسلين ، لكفاه ذلك عند الله ذخراً وأجراً ، وبين الامم الاسلامية فضلا وفخرا ،

وكان مجاده الله غيث رحمته من أكرم الناس خلقاً وأرفعهم نفساً . وأخص ما عرف فيه من محامد الصفات الصفح والتجاوز وذلك لا يكون من مثله على رفعة مقامه وقوة كابته الا لاحدى خلتين كلتاهما من أشرف الخلال- الشمم المستلزم

لعزة النفس واحتقار الانتقام . أو لين العريكة المستلزم للحلم والأناة والتواضع

تلقى علوم الشريعة في الأزهر الشريف على مذهب أبي حنيفة النعمان فنال منها ما أصبح به أهلا لتقلده منصب افتاء الديار المصرية وتلقى فيه من علوم العربية وفنونها ، ما وصل به الى الغاية التي لم يدركها الا القليل من أساطينها ، وتلقى علوم الحكمة على حكيم الشرق المرحوم السيد جمال الدين الافغاني فكان أسبق النابغين من تلامذته وما زال يزاول فروع الحكمة حتى وصل فيها الى الشأو البعيد»

(ثم ذكرت الجريدة ترجمة للفقيد في ثلاثة أنهار من أنهارها نستغني عنها بما تقدم في الجزء الاول وما سيأتي من تأبين ذكرى الاربعين)

ثم ذكرت من أنباء الاسكندرية ما يأتي

بينا الناس عندنا يسألون الله سبحانه وتعالى أن يمن بالشفاء التام على فضيلة مولانا المرحوم الاستاذ الاكبر والعلامة الجليل الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ويدعون له بطول العمر والبقاء اذ فاجأهم النبأ المشؤوم في منتصف الساعة السادسة بعد الظهر بانتقاله من الدار الفانية الى تلك الدار الباقية فعم الحزن والاسف جميع القلوب وسيحتفل بتشييع جنازته في صباح الغد احتفالا عظيماً يليق بقدره الجليل الى المحطة حيث تنقل جثته الى العاصمة على قطار خاص . فرحمه الله رحمة واسعة وعوض الامة الاسلامية فيه خيرا

هذا وقد اهتم جناب الحكمدار وحدايه بك بترتيب المشهد رسمياً بالصفة الآتية

(١) جيء بالجثة من الرمل الى محطة المسلة فمحطة الباب الجديد عن طريق شارع النبي دانيال فأقلها القطار الخصوصي الى مصر وعينت القوة الآتية للمحافظة على النظام .

(٢) الضباط وجميع الصف ضباط والعساكر الخالين من خدمة بلوك السواري

(٣) من ضباط وخمسين صف ضابط وعساكر من بلوك الخفر (بلوك السواري تكون امام وخلف السرير)

(٤) عشرة سواري تلازم سرير الفقيد خمسة على اليمين وخمسة على اليسار

(٥) الشوارع تكون مصطفة بالبوليس والمسافة بين كل واحد منهم ٢٠ خطوة

(٦) القوة الآتية اجتمعت بقسم العطارين للخدمة وهي

اليوزباشي علي أفندي فهيم — اليوزباشي حسين أفندي لطفي — واليوزباشي فافيرو والملازم الاول ديدمان

ومن الأقسام القوة الآتية :

من محرم بك	١٤	كونستابل	وصف	ضباط	وعساكر
العطارين	١٥	«	«	«	«
المنشية	١٥	«	«	«	«
الجمرك	١٤	«	«	«	«
اللبان	١٤	«	«	«	«
مينا البصل	١٥	كونستابل	وصف	ضباط	وعساكر
كرموس	٩	«	«	«	«
أساس المخازن	٦	«	«	«	«
أساس الورش	١	كونستابل			
مراسلات المحافظة	٨		صف	ضباط	وعساكر
السكة الحديد	٤		«	«	«
البوستة	٣		«	«	«

وفوق ذلك جميع بوليس المجلس البلدي — كل هذه القوة تحت امرة جناب مساعد الحكمدار وبمعاونة الصاغ (أوكلهم) والصاغ ريماندا

وتقرر أن يقوم مأمور قسم العطارين مع الجثة في القطار الخصوصي الى محطة مصر وان يلبس الضباط كساوي التشريفة والعساكر الالدوانات والمداليات

هذا ماورد الينا اليوم بالتلفون من وكيلنا الاسكندري

(وقالت في عدد ٥٠٠ الصادر في اليوم التالي مانصه)

فقيدنا بالأمس

من أشرف على مشهد الفقيد رجل الأمة الاسلامية وواحدها ساعة برز

النعش بجثته الطاهرة من المحطة يوم أمس تحمله عواتق الجلال والكرامة ، وتسانده اكف الوقار والشهامة ، ويحف به كبراء اهل العلم والفضل ، وتتبع خطواته امراء ارباب الرئاسات والنبل ، وعاين ماانتشر هناك من الوف الخلائق في رحبات الساحات ، وما انتظم من صفوف المواكب في الطرق البعيدة المسافات ، واستشعر مهابة ذلك الموقف وجلالة تلك الحضرة علم أن الأمة المصرية ومن في منازلها يمشون في جوانب عميدهم ورئيسهم الاكبر وأن الاسلام يشيع اعز انصاره ، وأمنع من يذود عن حوزة دياره وشرف شعاره ، مما لم يسبق له مثيل في جيلنا هذا . وكذلك مراتب المجد ، ومنازل الحمد ، ينالها فى الحياة ، وتبقى لهم حديث صدق بعد الممات ، من تصدق عزائمهم في إسعاد البلاد ، وتزكو سرائرهم في ارشاد العباد . ويقضون انفاس الوجود في إعلاء كلمة الدين وتقوية شوكة الأمة . فلا غرو إن نال الاستاذ الحكيم فقيدنا اسنى تلك المراتب ، فانه أعطي اجمل هذه المواهب ، و «لمثل هذا فليعمل العاملون»

قبضت الى رضوان ربها روح فقيدنا الزكية فما من يتيم الا وبكى منه كفيلا . وما من ملهوف الا وتوجع للمصاب بمنجد مغيث ، وما من جاهل الا وتحسر على مرشد شفيق ، وما من عالم الا وجزع لفقد استاذ عظيم ، وما من عاقل الا وأسف لخسران افضل حكيم ، وما من إداري الا وحزن على احذق رئيس ، وما من سياسي الا وألم لقضاء ابرع الرجال ، وأنهد من مارستهم الاعمال ، واثبت من جالوا في نضال ،

أجمعت الصحافة على اختلاف اهوائها ونزعاتها ، وتباين مللها ولغاتها ، أن فقيدنا الذي فقدنا أمس جمع من خصال الشرف ، ومعالي الهمم ، ومزايا الشيم ، والسبق في العلوم ، ومحاسن التدبير ، وثبات الجأش في حب أمته ، مالم يجتمع لأحد ممن نبغوا في مدى هذا الزمن . ولم يكن ليحول دون هذا الإقرار العام الشامل لجميع الصحافة ما كان بين الفقيد الرئيس وبين بعض الصحف كاللواء والظاهر من الخلاف في بعض المسائل فان كلا من الفريقين المتخالفين كان يرى الصواب فيما يظن ويسعى في استخراج الحقيقة من أغوار البحث مع حفظ ارباب تلك

الصحف للشيخ الاستاذ مقامه الكريم ، وشرفه العظيم ، والاعتراف بفضله العميم ،

(بعد هذا وصفت المشهد وصفا مسهبا)

وقالت في عدد ١٥٠ الصادر فى ١٢ ج ا سنة ١٣٢٣ و ١٥ يوليو سنة ٩٠٥

جزع الأمة

على عميدها ووحيدها

من الحكمة التي تجلت بها مخيلة الاستاذ الاكبر المرحوم عميد الأمة ومفتيها وحكيمها على عالم الحقائق قوله رضوان الله عليه « كل موجود يوجد بوجود العلم وكل مفقود يفقد بفقده » ومن الحقائق التي سارت بها ألسنة الأمة الاسلامية اليوم حتى تجاوزت ملأ الاشباح الى عالم النفوس الخالصة الذكاء قولها وهي والهة من الحزن « كل المصالح كانت مكفولة النجاح للدين والأمة بوجود الاستاذ الحكيم وكل الرجال فقدناه بفقده »

وهذا الاحساس العام المتدفق بهذه الكلمة الجلى ليس بالاحساس الذي وقف عند حد مصر ولم يتجاوز نفوس اهالي طبقاتها بل طار على لمحات البرق جائلاً في اقطار العمران ضاربا في نفوس الأمم شرقيها وغربيها ، خالبا عقول قريبها واجنبيها ، فاما الأمم الشرقية كافة والأجيال الاسلامية منها خاصة فانها تصدعت افآدها ، وتفطرت اكبادها ، وسالت بدموعها الوديان لهفة لفقد الرجل الذي كان مبعثا لروح حضارتها ، ومصدرا لرجاء تآلفها ، وقطبا لرحى مهماتها ، وموئل ظنونها في مستعصيات مشكلاتها ، وسيف حمى دينها ، وكوكب دنياها . واما الأمم الغربية فانها بهتت وحسرت عن رأسها خاشعة اكبارا للخطب العصيب ، واجلالا للموقف الرهيب ، وكانت هذه اولى المرات التي خلصت صدور الغربيين من الشماتة في الشرق في مصاب جلل اصيب به ، وصدقت نفوسهم في الاسف مع الشرق على فقد نصير من اعز انصاره ، وما كان ذلك منهم رحمة بالشرق ولا إشفاقا عليه من الضياع كلا ولكنهم عرفوا في الفقيد من معالي الشيم ، والنهضة

بإباء الشمم ، والوفاء بما عليه لأمته ودينه والشرق من العهود والذمم ، ما لا يراه الغرب في كثير من رجاله ، وندر أن يراه الشرق في كرور الدهور على أجياله ، فوقروا في الفاجعة صاحب الرئاسة ، وتوجعوا الحسرة الفضل والنبل والعلم والحكمة والسياسة

تلك حال الأمم جمعاء في توديعها لفقيد حضارة مصر ، وحكيم أقطار الشرق ، فما تكون حال الأمة المصرية من بين تلك الامم في توديع رافع معالم مجدها ، ودليل طرائق جدها ،

هذا شأن جليل يقصر القلم الواحد دون بلوغ غايته ، وحصر دائرته ، ولما كان الفقيد من خواص الرجال الذين قلّ أن يسمح الدهر بمثلهم رأينا أن يشترك معنا في مجال تعداد مناقبه ، وتدوين مآثره ومحامده ، أقلام الفحول من الشعراء ففتحنا لهم باباً لرثائه لم نكن لنفتحه من قبل ولن نفتحه من بعد وسنبتدئ بنشر ما نختاره مما ورد الينا ويرد من القصائد منذ يوم غد ان شاء الله

(وذكرت في أخبار هذا العدد أيضاً مانصه)

مأتم فقيد الأمة

كانت ليالي مأتم المرحوم المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أسكنه الله فسيح الجنان غاصة بجمهور المعزين آناء الليل وأطراف النهار على اختلاف أجناسهم وتنوع طبقاتهم وكانت قطارات سكة حديد المطرية مزدحمة بهم ازدحاماً هائلا حيث أقيمت ليالي المأتم بمنزل الفقيد العزيز في عين شمس وكان مشاهير القراء يرتلون آيات الذكر الحكيم ترتيلا شرعياً والناس في حزن عظيم وسكوت تام رحم الله الفقيد رحمة واسعة وألهم الأمة جميل الصبر على فقده

(وذكرت في هذا العدد أيضاً لمكاتبها بالمنصورة مانصه)

طفت ساحات المدينة ليلة الخميس الماضي فاذا الناس منكبون على مطالعة الجرائد وهم بين متأسف ومتوجع ، وحزين ومتفجع ، على ما أصاب المسلمين من تلك الحادثة الرائعة ، والكارثة الفادحة ، هذا والسكوت شامل الجميع فلا تسمع الا أنيناً منبعثاً من قلوب واجفة وصدور ملؤها الحزن والكدر حيث اندك طود

العلم ، وخبا بدر الآداب ، أجل قد هوى كوكب الفضل ويا ليته ماهوى ، وثوى نجم المجد ويا ليته ماثوى ، فجدير بالقلوب أن تتشح بأثواب الهموم ، وخليق بالعيون أن تطلق أسراب الدموع ،

(وفيه أيضاً لمكاتبها بكفر الزيات)

كان لنعي فقيد الأمة والوطن مولانا مفتي الديار المصرية في بندرنا تأثير شديد لم يعهد له مثيل فقد استوجب الحزن فؤاد الخاص والعام من سكانه ولا عجب فان سعي الاستاذ الفقيد في ترقية الأمة كان عظيماً وبموته فقدت الأمة أستاذا حكيماً ومرشدا نبيلا فحق عليها أن تمتلىء حزناً

وذكرت أمثال هذه الرسائل من جهات القطر في أعداد أخرى ولا حاجة لاستقصاء مانشرته هي وسائر الجرائد في ذلك لانه في معنى واحد وهو شعور جميع طبقات الأمة في جميع البلاد المصرية بالحزن العظيم لفقد امامها الحكيم

وقالت جريدة اللواء الغراء في عددها ١٧٦٩ الصادر في ذلك اليوم

خطب جلل

(انا لله وانا اليه راجعون)

الموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

أنبأنا التلفون الاسكندري البارحة بوفاة الرجل الجليل والاستاذ الكبير العلامة النابغة المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي هذه الديار في الساعة الخامسة مساء وما ذاع نعيه بين العالم المصري حتى بدت الكآبة على الوجوه وانقبضت النفوس واندملت الافئدة لان الموت انما اغتال رجلا في العقد السادس من عمره وصل بذكائه المفرط وعلمه الغزير ومواهبه الوافرة الى مركز سام قل ان يناله غيره في العالم الاسلامي من عظماء الرجال

اقتطفت المنية زهرة يانعة من أزهار العلم المثمرة فاذبلتها،وعادت البيان فابكته، وانقضت على جيب الجود فمزقته،وطعنت الطفل الصغير في رئيس الجمعية الاسلامية فيتمته،ولكنه القضاء المحتوم فلا مرد له

ولد الفقيد فى سنة ١٢٦٦ هجرية بقرية «محلة نصر» من أعمال مديرية البحيرة فهو الآن غير متجاوز السابعة والخمسين من عمره وكان أبواه صالحين فأدخلاه كتاب القرية فتعلم فيه القراءة والكتابة وحفظ القرآن ثم قصد الازهر الشريف وانخرط ضمن طلابه فكان بينهم حاد الذهن سريع الخاطر يفهم الصعب لاول مرة وقد امتاز على معاصريه بالميل الى اقتناء الاحسن من كل فن فكان أمهر الواصفين،وأقدر الكاتبين،اذا شرح أفهم،واذا جادل أفحم .

وقد شهد له أستاذاه الكبيران المرحوم الشيخ حسن الطويل انبغ أهل عصره والمرحوم الشيخ البسيوني المالكي بسرعة البديهة وتوقد الخاطر وبعد ان حضر مذهب الامام مالك عكف على دراسة مذهب الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان وأدى الامتحان فى المذهب الحنفي ونال شهادة العالمية

ومن الاسباب التي أظهرت مواهب الفقيد الكبير انه درس الفلسفة على المرحوم السيد جمال الدين الافغاني يوم حضر الى هذه الديار على عهد المغفور له اسماعيل باشا فتخلق بالكثير من اخلاقه وتشبع بالغزير من افكاره وعلمه وكان من أقرب المقربين اليه حتى ان السيد جمال الدين كان يخاطبه مرارا بقوله « إن الذكاء يتوقد في عينيك والشهرة مرسومة في جبينك فلا تكثر من أسئلة الشباب فانها تتعب الشيوخ »

وقد وقع ماقاله السيد جمال الدين وصحت نبوءته حيث نال الفقيد أعلى مقام بين علماء الاسلام في عصره

وأول نجم اضاء في سماء حظ الفقيد أن المرحوم على مبارك باشا ناظر المعارف ترجم رسالة « في الروح والجسد » ثم اعطاها للاستاذ الفقيد ليكتبها في قالب فصيح لما بلغه عنه من زيادة الاقتدار فكتبها بعبارة بليغة أعجب بها على مبارك باشا واراد ان يكافئ الفقيد فعينه معلما لاولاده ثم محرراً للوقائع المصرية في وزارة

دولة رياض باشا الاولى(*) فبقي بها يكتب الفصيح والبليغ حتى قامت الحوادث العرابية فكان ضمن المنفيين من اجلها الى الشام ولكن علمه الواسع وفضله وجدا له فيها وطناً عزيزا فالتف حوله الادباء وأرباب الافكار وعين استاذ المدرسة السلطانية في بيروت وهناك خدم العلم والادب واللغة خدمة تذكر له على مر الليالي والايام وقد مكث بها نحو ست سنوات عند ماطاب له المقام ثم سافر الى باريس بعد ان تعلم اللغة الفرنساوية (*) واجتمع فيها بالسيد جمال الدين الافغاني مرة ثانية واصدر معه جريدة العروة الوثقى فكان له شهرة ذائعة وبعد أن سعى بعض أعضاء العائلة الخديوية للعفو عنه عاد الى هذا الوطن(*) مودعا من محبيه في منفاه بما لا يقف عند وصف مستقبلا من مواطنيه القدماء واصدقائه الاوفياء بما لا يقل عن واجب الاخ لاخيه أو الابن لابيه وما لبث قليلا حتى استدعاه القضاء الاهلي فلباه وأخذ بناصره حتى صار موقفه فيه مهيبا ورقى منه الى وظيفة مستشار بمحكمة الاستئناف ثم نقلته سنة الترقي الى مقام الافتاء وهو آخر منصب تولاه في هذه الحياة الدنيا

فالفقيد كان من المشهود لهم بسعة الاطلاع وسمو الادراك فكان فصيحا طلق اللسان وكاتبا متين البيان رد عن الاسلام مفتريات كثيرة — افتراها عليه أعداؤه — بأسلوب بديع جديد، وما حادث هانوتو عنا ببعيد

أخذ المرحوم في تفسير القرآن ففسر بعضه وكان في عزمه رحمه الله أن يتممه في راحة هذا العام (*) ويعجل بطبعه فعاجلته المنون وأحرم المسلمين من ثمرات فكره وآيات بنانه فلا حول ولا قوة الا بالله

خطب الفقيد وهو شيخ كبير ود اللغة الافرنسية فأقبلت عليه ليتعلمها فملكها بعد أن ذلل صعابها ووقف على مكنون اسرارها حتى صار يقرأها ويتكلم بها كاحد أبنائها المجيدين فكان يخرج الاجنبي من حضرته حاسداً الاسلام عليه، مقتنعا بعد ان كان ساخرا ببنيه، ولم يعقب من الابناء ولدا ذكرا وانما أعقب بنات أربعاً ولكن قد أعقب آثاراً علمية تخلد ذكره فالذي مات بالامس انما مات

(*) غلط تاريخي في المواضع الاربعة كما يعلم من الجزء الأول من التاريخ

بموته العلم المصري اليوم فياله من رزء جسيم ومصاب اليم ٠مات بموته انفس كان يمد لها في الظلام من جيبه الخاص يد المعونة والاحسان والله شهيد عليم .

تولى رحمه الله رئاسة الجمعية الخيرية الاسلامية فأحسن أسلوبها وأكثر ايرادها ووسع دائرة الاحسان ونظم مدارسها ورفعها في زمن وجيز بعلمه وفضله الى شأو بعيد من النور والعرفان

فالفقيد فقيد البلاد، فقيد العلم، فقيد اليتامى، فقيد البؤساء، فقيد الاسلام والمسلمين ٠ وقد فقدت بفقده مصالح كثيرة عضواً عاملا وعالما نحريراً فالافتاء يرثيه،والشورى تبكيه،والجمعية تندبه،والاوقاف تتحسر عليه،والازهر يشهد له، وذلك الجنين (مدرسة القضاة والمحامين الشرعيين التي وضع نظامها) حرمت مساعيه والله يرحمه ويحسن اليه

انا لم نكن مع المرحوم متفقين في بعض النقط السياسية ولكن الموقف موقف عميم وخطب عظيم وانه مهمارثاه الرائي فلن يستطيع أن يوفيه حقه من العلم والشهرة والفضل ٠ فهو آية الامس ومصيبة اليوم الخ

(ثم ذكرت الاحتفال بالجنازة بنحو ماسبق)

وقال في اليوم التالي مانصه

جنازة المرحوم المفتي

كل من عليها فان

صدرت البارحة جرائد القطر بين عربية وافرنكية وكلها موشحة بالسواد وانهارها فائضة بعبارات الرثاء المؤثرة نعياً لكبير من اكابر العلماء وعالم الكبراء المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورئيس الجمعية الخيرية الاسلامية والعضو في مجلسي شورى القوانين والاوقاف العمومية ومع ان كل هذه الجرائد تختلف في المشرب والمذهب والاميال والغايات فانها اتحدت بالامس على ان موت هذا الفقيد الكبير خسارة كبرى على المصريين عموما والمسلمين منهم خصوصا وقد تخاطف القراء نسخها من أيدي الباعة ومن اداراتها لمعرفة الطريق

الذي يسلكه موكب الجنازة ليودعوا ذلك البحر الذي اقترب غيضه، وجف فيضه، الوداع الاخير وما انتصفت الساعة الرابعة بعد ظهر الامس حتى نسل الناس من كل حدب بعيدا كان أو قريباً الى محطة العاصمة مشاة وركبانا لافرق بين كبير أو صغير ولم تتم الساعة الرابعة الا وكان الطريق ما بين السكة الجديدة والمحطة عن طريق ميدان الاوبرا غاصا بعشرات الآلاف رغماً عن انتشار عساكر البوليس انتشارا زائدا لمنع الزحام وحجز المركبات في افواه المنعطفات وقواطع الطرق»

ثم وصف الاحتفال بالتشييع بمثل ما تقدم وخص بالذكر الألوف من الازهريين الى أن قال :

ولم يكد موكب الجنازة يصل الى الازهر حتى ازدحمت تلك المنطقة ازدحاما هائلا وتلاحم الناس لضيق الطرق تلاحما شديدا وتصببت جباههم عرقا وكابدوا من المكافحة في المسير مايشهد لهم بتقديرهم فضل الفقيد وعلمه الغزير حق قدرهما»

وقال في عودة المشيعين ما نصه :

ثم عاد المشيعون يصعدون الزفرات ويمطرون العبرات ذاكرين ما للفقيد من الاعمال الحسان تغمده الله برحمته وعوض البلاد فيه خيرا وألهم آله واصدقاءه الصبر والسلوان

ثم ذكر بعض ماورد الى الجريدة من جهات القطر ومنه :

وقد ورد علينا من مينا القمح تلغراف صباح اليوم هذا نصه

« القلوب والهة والعيون باكية لفقد فيلسوف الشرق الوحيد »

وقالت جريدة المؤيد الغراء في عددها ٤٦١٢ الصادر في ذلك اليوم

الفاجعة المؤلمة

انا لله وانا اليه راجعون

وفاة المغفور له مفتي الديار المصرية

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء

قضى الله أن يفدح الحادث، وينزل الكارث، وتقع المصيبة العظمى، والفاجعة الكبرى، المؤلمة للنفوس، المبكية للعيون، المقرحة للأكباد والجفون، بعد ما خانت الراقي رقيته، والحكيم حكمته،

وأقر الطبيب عنه بعجز وتقضى تردد العواد

قضى الله ان يرزأ العلم وأهله بوفاة عالم عصره، وحجة زمانه ومصره، أبلغ البلغاء اذا كتب، وأفصح الفصحاء اذا خطب، بل أقوى العلماء بيانا، وأجودهم بالحكمة لسانا، واوسعهم في معاريض الكلام باعا، وأوفرهم في مفاهيم العلوم اطلاعا، وابعدهم في نظر الاشياء مرمى، وأسدهم في المناظرات سهما

قضى الله ولاراد لقضائه بوفاة ذلك العالم العلامة الاستاذ المغفور له (الشيخ محمد عبده) مفتي الديار المصرية ورئيس الجمعية الخيرية الاسلامية. صاحب الايادي البيضاء على الكثيرين، والفوائد الجلى على المسلمين، فكم دافع عن الدين (في مسئلة هانوتو وأضرابها) بما لم تستطعه الجماعة الكثيرة من العلماء، وكم سعى لفائدة الفقراء بما لم يأته الجمع من الاغنياء، وكم اسدى معروفا، وأغاث ملهوفا، وكم ساعد عاملا فنفخ فيه روح الثبات بالطيبات، وكم كانت له من أمان يضرب بخطواتها في الآفاق، غير خاش من اخفاق

كان عظيم الهمة كبير النفس يحاول أن يغالب الدهر ان عارضه، ويستهين بكل صعب اعترضه، ومما يؤثر عنه في مثل هذا قوله.

«انني لاأخشى شيئا سوى الموت لانه يقطع علي خط السير»

ولكن ما الحيلة. وما كان يخشاه قد حل. وما كان يتقيه قد نزل. حيث

لا ينفع الانسان حول . وحيث يظهر عجز المخلوق المتناهي في جنب قدرة الله التي لا نهاية لها

فبينما المرء يرفل في ثياب مجده وعلائه، وصحته ووفائه، ونعيمه ورفائه، اذا بنذير الموت يسطو بالصحة فينقض بنيانها ، ويطغى بآلامه عليها فيهدم أركانها ، ويذهب بدعوى الطبيب فيما يدعي ، وبوعيه فيما يعي ، فلا يجد له حيلة سوى الاذعان للقضاء والقدر ، كما لا يجد أهلوه واصدقاؤه وسيلة سوى الاستسلام للحزن والكدر

اذا كانت الدنيا كذاك فخلها ولو أن كل الطالعات سعود

(ثم ذكرت كلاما عن مرضه من بدايته الى نهايته وقالت)

ففاضت الروح الى خالقها ونعاه النعاة بالتلغراف الى جميع ارجاء القطر وفي الساعة السابعة أصدر المؤيد ملحقا ينعيه به الى قرائه في القاهرة فلم تكن الا ساعة وأختها حتى كان ذكر اسم الفقيد يتردد على كل لسان بين كلمات الاسف العام، وألفاظ الدعاء له والاسترحام عليه من الملك العلام

قضى هذا الفقيد العظيم رحمه الله رحمة واسعة عن نحو ٦٢ (*) من عمر أمضاه في خدمة العلم بين مظاهر الحياة المختلفة وقد بلغ أقصاها من الشهرة ورفعة الذكر في خدماتها ولسنا الآن في بيان تاريخ حياته ولكننا ننعيه نعياً بسيطاً ونرجىء ترجمة حياته الى فرصة أخرى .

(ثم ذكرت الاستعداد لتشييع الجنازة وقالت)

فنسأل الله تعالى أن يشمل هذا الفقيد العظيم فقيد العلم والبلاد والاسلام بواسع رحمته وأن يهطل على جدثه صيب الرضوان والغفران وأن يمنح كل مصاب فيه جميل الصبر وخير السلوان

وذكرت بعد هذا ما جاءها من الاسكندرية عن الاحتفال بالتشييع فيها وقد مر ذكره فلا نعيده وذكرت تلغرافات عن مرور القطار المقل للجثة في المحطات

(*) قد علم من الجزء الاول انه لم يبلغ الستين

ثم قالت في اليوم التالي مانذكره مع حذف وصف الاحتفال الا قليــلا وهو

تشييع جنازة المغفور له

(الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده)

ظهــرت الجريدة أمس ونعش الفقيــد المغفور له مفتي الديار المصرية بين الاسكندرية والقاهرة يســير به قطار مخصوص على نفقة الحكومة من الاولى الى الثانية . يمر على عواصم المديريات فيزدحم على محطاتها الجموع الكثيرة من الموظفين والاعيان باكين آسفين . وأكثر ما كان من ذلك على محطة دمنهور عاصمــة مديرية البحيرة التي درج من احدى قراها هذا الفقيد الجليل فلا غرو أن يقف الالوف من أهليها على تلك المحطة مشيعين اليوم من كان فخارهم بالامس باكين لمصابه الفادح من كانوا يقصدونه في شدائدهم وكربهم فيفرجها بمساعيه الحميدة. ولما وصل القطار الى طنطا كان سعادة مدير الغربية الهمام حسن رضوان باشا وكبار موظفي المديرية وعلماؤها وذواتها وقوفا على محطتها وعليهم مظاهر الكآبة والحزن فودعوه الوداع الاخير واستدروا على جثمانه رحمة الله ورضوانه . وهكذا حتى وصل الى محطة القاهرة في منتصف الساعة الثالثة وهناك نقلت الجثة من العربة التي كانت مودعــة بها الى قاعة من قاعات الاستقبال في المحطة وظلت بها الى الساعة الرابعة تماما وكان الناس من علية القوم يأتون في خلال ذلك أفواجا أفواجا

فلما جاء الوقت المحدد لتشييع الجنازة حمل النعش على الرقاب وسير به الى خارج المحطة وأخذ في ترتيب المشيعين صفوفا فتقدم وراء النعش أولا حضرات العلماء الاعلام يؤمهم حضرات أصحاب الفضيلة مولانا قاضي مصر والاستاذان الكبيران الشيخ حسونه النواوي والسيد علي الببلاوي شيخا الجامع الازهر الاسبق والسابق (وتخلف فضيلة شيخ الجامع الحالي لانحراف طرأ على صحته صباح أمس) وحضرات العلماء الاعلام اعضاء المحكمة العليا وشيخ علماء الاسكندرية وقاضيها وقاضي قضاة السودان الخ

(وذكرت فيما حذفنا من وصف التشييع ان جميع الضباط المصريين والانكليز كانت على ايديهم شارة الحداد)

ولما وصلت الجنازة الى الجامع الازهر كان كثيرون من علمائه وطلبته قد سبقوا اليه استعدادا للصلاة على الفقيد وهناك وقف الجمع العظيم من المشيعين بشارع السكة الجديدة ودخل جمع كبير مع النعش الى المسجد والمؤذنون فوق منائره يرتلون سورة الابرار . وما زالوا به حتى وضعوه عند القبلة الجديدة ووقف المشيعون هنيهة أراد فيها من اعتاد تأبين العلماء أن ينشد قصيدة قالها أحد الشعراء رثاء للفقيد فأبى فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان أن تجري هذه العادة التي كان الفقيد رحمه الله أبطلها في حياته ثم دعا للصلاة عليه فتقدم للامامة فضيلة الاستاذ الشيخ حسونه النواوي وصلى الناس خلفه . وبعد أدائها شهد الجمهور للفقيد بالخير وحمل النعش بعد ذلك الى قرافة المجاورين حيث ووريت الجثة التراب وأراد بعض الادباء تأبينه عند قبره بالخطب والقصائد فوقف صاحب السعادة حسن عاصم باشا وقال ان كثيرين من أصدقاء المرحوم يرون أن يرجأ تأبينه الى وقت ومكان آخرين . وعند ذلك وقف الجمع وتهيئوا للانصراف وأخذوا يعزون حضرة الفاضل حموده بك عبده شقيق الفقيد وفي الحقيقة انهم كانوا يعزون أنفسهم لان المصاب مصاب الجميع . والرجل الذي دفن تحت أطباق الثرى لم يكن رجل أهله وعشيرته بل رجل الامة والاسلام في عصره فرحمه الله رحمة واسعة وعزى كل المصابين فيه خير العزاء

هذا وقد وعدنا حضرات القراء أن نذكر تاريخ حياة الفقيد ولكن لما كان هذا يستدعي بحثاً لجمع كثير من الحقائق الغائبة عنا الآن فسننجز وعدنا في ذلك ريثما نستوفي الملاحظات في هذا الشأن حتى يكون تاريخه خير مثال مذكر للقارئين اه

وقالت جريدة مصر الغراء في عدد ٤٣٨٢ الصادر في ذلك اليوم

سبحان الذي لا يموت

خسر القطر المصري اليوم بل العالم الاسلامي كله خسارة لا تعوض إذ نكب في أعظم رجل عصامي نبغ فيه بعلمه وفضله حتى صار رجله في هذا العصر ، وزان بظهوره العالمية حتى صار علمها في مصر ، هو المبكي عليه الخالد الذكر الاستاذ الاكبر المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية . اجاب نداء خالقه امس عند الساعة السادسة مساء فما فاضت روحه الطيبة عقب ذلك المرض الذي عرفه القراء من قبل حتى طير البرق منعاه الى سائر جهات القطر والى اصحابه ومعارفه الكثيرين في البلاد الخارجية وابلغته المعية السنية ايضا للجناب الخديوي العالي في ديفون فما سمعت الآذان خبر وفاة هذا الشيخ الجليل والعلامة الكبير حتى عم الحزن طبقات الشعب المصري كله على اختلاف درجاته ولا عجب في ذلك لان الفقيد رحمة الله عليه يعد نابغة القطر في هذا العصر وزعيم نهضته العلمية المصرية الحديثة بلا امراء

توفاه الله عن سنين عاما او تزيد (كذا) ملأ بها الوطن علما وأدبا كما ملأ البلاد اصلاحا واجتهادا فملأ بموته قلوب المصريين حزنا وأسى وعد موته خسارة كبرى ومصابا فادحا ليس على مصر وحدها بل وعلى الشرق كله ايضا

يعرف الناطقون بالضاد في مشارق الارض ومغاربها ذلك الفقيد العظيم ويستشهد أناس منهم بأقوال له ذهبت مذاهب الامثال ولكن الذين يعرفون ترجمته ليسوا كثيرين . فقد تلقى رحمه الله علومه على السيد جمال الدين الافغاني فيلسوف الشرق العظيم وكان يتوسم فيه مخايل النجابة فاكبر مقامه حتى اتخذه صديقا له حميما يركن اليه في معضلات المسائل العلمية والفلسفية . ولما مات الافغاني بقيت روحه وعلومه في شخص فقيد اليوم فشب كاتبا من أرسخ الكتبة ، ومؤرخا من أصدق المؤرخين ، وفيلسوفا تثبت فلسفته مقالاته العلمية وتفاسيره لآيات القرآن الشريف تفسيراً علميا عصريا وحكيما تثبت حكمته مثات من الحكم والامثال .

ثم ان العارف بحوادث حياته لا يصدق انه هو الرجل الذى وصل الى اسمى مقام في حكومة مصر بعد ان كان من رجال الثورة العرابية واختفى منها في أول الاحتلال واهتمت الحكومة بالبحث عنه فلم تهتد الى مكانه فنشرت عنه في جريدتها الرسمية يومئذ انها تمنح عشرة آلاف جنيه لم يمكنها من ضبطه وظلت تنشر اعلانها هـذا على المـلاء نحو ستة اشهر بينما كان الفقيد يدرس اللغـة الفرنسوية وبعض العلوم العصرية الاخرى في باريس(١) على ان الحكومة التي اعلنت عنه بمثل هذه الطريقة لم تلبث حتى عرفت فضله وقلدته اكبر مناصبها القضائية والعالمية والشرعية ولا عجب في هذا فانه من الافراد القليل عديدهم بين طبقات الرجال

وقد بقي رحمه الله زهاء العشرين عاماً الاخيرة من حياته خادما لوطنه محبا لبلاده ساعيا فى ترقيتها باذلا جهده في تهذيب ابنائها بكل واسطة ممكنة . فاذا كانت النهضة المصرية قائمة في ترقية العقول فقدرقاها أو فى الصحافة فهو اول من خـدمها في الجريدة الرسمية حينما كان شأنها الادبي غير شأنها اليوم او في عالم التحرير على الاطلاقه فقد كان كاتبا كبيرا او في الخطابة فقد كان خطيبا مفوها . بل اذا كانت النهضة فى تربية الفقير والاحسان اليه فقد كان اب البائس وعضد اليتيم او في الجمعيات الخيرية فقد كان عضدها وساعدها الاقوى بايجاده الجمعية الخيرية الاسلامية وفروعها واهتمامه بترقيتها الى الحد الذي وصلت اليه . وبالجملة فانه رجل ولا كل الرجال العظام فقدته مصر لسوء حظها وشاركتها في فقده الامة العربية من الشام الى بغداد الى الجزيرة الى العراق الى تونس الى سائر الاقطار التي فيها ناطقون بالضاد

(ثم ذكرت الاحتفال بتشييع الجنازة بنحو ماسبق فى غيرها)

وذكرت بعد ذلك هذا التلغراف لوكيلها فى طنطا

طنطا ١٢ يوليو الساعه ٢ و١٥ دقيقة بعد الظهر

---

(١) الاستاذ الإمام الفقيد لم يختف بعـد الثورة كما هو مقرر في الجزء الاول والذي ذكرته الجريدة هو رجل آخر فهذا كغلطها فى سنه فهو لم يتم الستين

مر بنا القطار المقل لجثة فقيد العلم والفضيلة المرحوم الخالد الذكر الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وذلك في الساعة الاولى بعد الظهر وكان سعادة المفضال حسن باشا رضوان مدير الغربية قد انبئى بذلك من حضرة الدمرداشي فأعلن سعادته ذلك العلماء وأعيان طنطا ولم تأت تلك الساعة حتى كانت محطة طنطا مزدحمة بالوجوه والاعيان يتقدمهم سعادة المدير المشار اليه وأصحاب العزة وكيل المديرية ورئيس المحكمة ووكيلها وقضاتها ورجال النيابة ومأمور قسم الضبط وباشكاتب المديرية ووكلاء القناصل والعلماء الاعلام وكلهم بالملابس الرسمية ثم فرقة من الجند تحت قيادة مأمور بوليس البندر ثم رجال المحاماة ونظار المدارس وأساتذتها ووكلاء الصحف اليومية والاسبوعية وأعيان الامة القبطية وغيرهم بحيث لم يبق وجيه ولا عميد في طنطا الا وحضر المحطة لمشاركة الامة المصرية في اظهار الاسف والاحترام على فقيدها الكريم ورافع لواء العلم الشريف ولما رسا القطار قوبل من الجميع بالتكريم والتعظيم وارتفعت الاصوات بالبكاء والنحيب وعلت الضجة الصادرة من قلوب ملؤها الاسف على هذا المصاب الجلل . وقد ودع القطار بين زفرات الدموع من الاهل والاصدقاء وكل ابناء الامة جميعا ولا عجب فان موت هذا الفاضل الكريم يعد خسارة كبرى على البلاد المصرية عموماً وعلى العلم خصوصا عوضها الله فيه خيرا وعزى قلوب قلوب الله والمصريين اجمعين وكيلكم

(وذكرت في العدد الصادر في اليوم التالي كيفية الاحتفال بالجنازة في مصر مبتدأة الكلام بقولها):

« أقبل القطار المخصوص الذي يقل جثة فقيد الشرق وإمامه الأوحد المرحوم المأسوف عليه الشيخ محمد عبده فى الساعة الثانية ونصف بعد ظهر أمس ومن ثم توافد جمهور المشيعين من الاعيان والكبراء والعظماء » ... الخ ما مر نظيره وختمت ذلك بقولها

« ونحن نكرر لحضراتهم عبارات العزاء ونسأل الله أن يتغمد الفقيد برحمته

ورضوانه، وان يسكنه فسيح جنانه، ويلهم الشرقيين عموما والمصريين خصوصا على فقده جميل الصبر وجزيل السلوان ·

هــذا وقد أخذت تتوارد علينا قصائد الشعراء تترى لرثاء الفقيد نأتي على نشرها تباعا

وقالت جريدة المقطم الغراء في عددها ٤٩٥٢ الصادر في ذلك اليوم

مصاب القطر بفقيد مصر

كان بيننا وبين فقيد القطر المرحوم الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، وزعيم حزب التقدم بين علماء الملة الاسلامية، وداد نشأ قبل الفتنة العرابية ايام كان محرراً للوقائع المصرية، وتجدد عهده ايام اجتماعنا به في سورية، وتوثقت عراه وتقوى رباطه بعد رجوعه منها الى الديار المصرية، غير ان هذا الوداد القديم العهد لم يكن مبنيا على الصحبة والمعاشرة والملازمة والممازجة ونحوها من الاركان التي يبنى عليها الوداد في المعتاد حيث كان كل منا مشتغلا بشأن غير ما يشتغل به الآخر ومقيماً في مكان بعيد عن الذي يقيم فيه الآخر· بل كان مبنياً على اتفاق في بعض الآراء العمومية والافكار الجوهرية التي يتعلق كثير منها بخير الامة المصرية· وعلى مشاركة في تحمل السخط من الذين ظلوا مدة من الزمان يخالفون تلك الآراء ويضطهدون الذين يجاهرون بها

على اننا نذكر ماتقدم رغبة في اطلاع الجمهور على وداد عزيز عندنا اذ معظم الجمهور يعلم ذلك· وانما ذكرناه لغاية أخرى وهي ان العالمين به يعلمون انه كان وداداً مبنيًا على حكم العقل لا على مجرد ميل القلب وهذا التمييز أمر يهم الشاعر والخطيب والرائي والمؤبن اذ الواجب على الصحافي ان يكون بالنسبة الى الرأي العام، كالقاضي بالنسبة الى العدل في الاحكام لايراعي الصدقة بل يراعي الحقيقة ولا يبني حكمه على الاميال والعواطف، بل على الادلة والقرائن، فاقتضى ان نظهر للقراء اساس ودادنا حتى لا يحسبوا قولنا من قبيل المدح في الرثاء او اظهار

الحسنات والمناقب والفضائل والفواضل في التأبين بل من قبيل النقد الذي يراد به اظهار الحقائق وتقرير الواقع وقول مايعتقد القائل صدقه مجرداً عن الاميال والعواطف

وعلى ذلك نقول اننا لا ندعي للفقيد اكثر مما ميزه الله به ولا نقول انه كان مثال الكمال الذي تفرد الله تعالى به ولا ننكر انه لما كان انساناً كان محل الضعف والقصور والتقصير في اماكن كثيرة مثل سائر بني الانسان ولا نضعه الموضع الذي ترفعه اليه مخيلات الشعراء ، ولا ندعي أننا نباهي به الذين نبغوا في ممالك العالم من الاقطاب والعظماء ، وانما نقول ان مصر خسرت بفقده اليوم اكثر مما خسرت تلك الممالك بفقد الذين نبغوا فيها من اولئك الاقطاب لان حاجة مصر الى مثل الفقيد الكريم اعظم من حاجة تلك الممالك الى الاقطاب ووجود من يقوم مقامه في مصر اعز عليها من وجود من يقوم مقام اولئك الاقطاب في بلدانهم

اما وصف اوصاف الفقيد وبيان مزاياه وكمالاته فخير مكان له ترجمة حياته ولا يوفيه المنصف حقه من ذلك الوصف في عجالة مثل هذه ولذلك عزمنا ان نفرد لترجمة حياته فصلاً او فصولاً ضافية الاذيال في المقتطف وانما نذكر الآن مزاياه التي خسرت مصر بفقدها خسارة لا تعوض ولا يعلم الا الله مؤداها

فاول مزية امتاز بها الفقيد انه كان في مقدمة كل فريق من الفريقين اللذين انقسم اليهما المصريون في هذا العصر . فقد كان علماً يهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين لا يروقهم غير ماجرى عليه المتقدمون كالعلماء والائمة وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم . وكان قائداً للآراء ومديراً للافكار عند الفريق الذي جعل شعاره التقدم والارتقاء من أبناء هذا العصر الذين يرون ان القديم لا يغني عن الحديث وان من لا يتقدم يتأخر والسكون المطلق محال . ونقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان الفقيد فاق الاقران كلهم في هذه حتى انفرد فيها اوكاد .

والمزية الثانية انه كان من ابعد اهل القطر نظرا في حقائق الامور وعواقبها ومن اشدهم غيرة على ارتقاء الامة المصرية وخيرها ومن اعظمهم جهداً في انهاضها

فكنت تراه تارة مدرساً يعلم شبانها وتارة شارحا يشرح العلوم لطلبتها . وتارة مؤلفا لتنوير اذهان خدمة العلم والجمهور . وتارة مديرا ومنظما للمدارس المصرية القديمة حتى تجاري الحديثة في الترتيب والتحسين واصلاح الادارة وتسهيل التعليم وتكثير ما تدرس من العلوم ونحو ذلك . وتارة رئيساً للجمعيات الخيرية الساعية في اعانة الفقراء وانشاء المدرس لتعليم ابنائهم . وتارة مقداماً للذين يشيرون على الحكومة في مجلس الشورى بفعل ما يصلح القطر وينفع اهله . وتارة مباحثاً ومناقشا لاقناع رفاقه في ذلك المجلس بالمشروعات النافعة للبلاد واهلها وجمع كلمتهم على تأييد الحكومة وشد ازرها علي الذين يعارضونها في مقصادها الخيرية لمآرب خصوصية ولمقاصد ظاهرة وخفية . وتارة مجادلا يدافع عن دينه بأدلة مأخوذة من علوم المتأخرين التي جدت بعد عهد المتقدمين . وتارة صانع خير وفاعل بر وجامع اموال لاغاثة المنكوبين بالنيران وغيرها من المصائب والرزايا . وتارة متصدرا الحفلات الادبية وجالساً في مجالس الانس والصفاء يزيل الوحشة والجفاء بين الوطنيين والاجانب ويؤلف القلوب بين الجماعات والمعاشر المختلفة في المبادىء او الآراء او العادات . وتارة قارعا ابواب ولاة الامور لاعانة طلبة العلم بالمال وبذل المال لاصلاح الجامع الازهر ونحو ذلك من الغايات الحميدة . وكل ذلك بعد قيامه بحقوق وظيفة الافتاء وادارته لشؤونها وقضائه لمهامها على ما بها من المصاعب والمتاعب .

والمزية الثالثة ان الفقيد كان في قلب بلاد الشرق بلاد الخوف والرهبة والاستبداد رجلا جريء الفؤاد حر الضمير يجاهر برأيه ويثبت عليه ولا يخشى بأس متسلط ولا يهاب صولة كبير وقد جر عليه ثباته على رأيه وجراءته وقلة خوفه ورهبته اهوالا كثيرة ومصايب ومحناً عديدة ولكن لما استبدل الاستبداد بالدستور في هذا القطر اوصلته هذه المزايا الى ما وصل اليه من التقدم والعز والنفوذ والسطوة وصيرته فى اعتبار الجمهور الخصم العنيد للاقوياء والناصر الشديد للضعفاء والركن الوطيد للاحرار والعضد القوي للساعين في تنوير العقول والافكار

هذه بعض مزاياه واذا اضفنا اليها سعيه في سبيل الاصلاح وميله الى فريق

المحافظين حتى يجاري فريق المتقدمين حكمنا ان مصر فقدت بفقده عالمًا من اكبر علمائها ورجلا من اعظم رجالها ومصلحًا من اعظم رجال الاصلاح بين اهلها وحرا هماماً مقداماً قوالاً فعالا لا يكاد يكون له نظير من بنيها فمصابها به اعظم مصاب وخساراتها اشد خسارة فارقها الى رحمة ربه ولسانه يلهج بما في نفسه وقلبه فنظم هذه الابيات قبيل ان تدركه الوفاة قال

(ونشرت الابيات التي ذكرت في تأبين جريدة الاهرام كما روتها . ثم ذكرت في الاخبار المحلية من هذا العدد نحو ماذكره غيرها من احتفال الحكومة والامة بتشييع الجنازة في الاسكندرية ونذكر من عبارتها الطويلة ما يأتي)

وكانت الشوارع التي مرت الجنازة فيها مزدحمة كلها بالناس ازدحاماً عظيماً وعلى وجوههم لوائح الحزن والكآبة والاسف ومما زاد ذلك الاحتفال تأثيرا في النفوس اذان المؤذنين في المآذن والجنازة مارة وكذلك قرع رهبان الفرير للاجراس والنواقيس في محطة باكوس قرع الحزن ايذاناً بحزنهم وأسفهم فكان لذلك وقع عظيم في النفوس

وذكرت في اليوم التالي لوكيلها في الاسكندرية مانصه:

الخطب الجسيم

لم تأذن شمس أمس بالمغيب حتى كانت شمس حياة الاستاذ الكامل والامام الاكبر العلامة المفضال المفتي الحكيم الشيخ محمد عبده قد آذنت وأسفاه بالمغيب . . حياة كانت كلها خيرا وفخرا وذخرا للوطن والعالم الاسلامي وسائر البلاد الشرقية . حياة ملؤها حب السلام والاصلاح والخير لكل الناس

اجل لقد هوى ركن عظيم من اركان العالم الاسلامي ركن متين من اركان الهيئة الاجتماعية وطود شامخ من أطواد العلم والفضل والنبل فاهتزت له سائر الامصار الشرقيه ولقد اظلمت الدنيا في عيون اسرته الحزينة وذويه وجميع اصدقائه ومعارفه

وسائر اهل البلاد المصرية والسورية على اختلاف الملل والنحل فأعظموا خطبه ايما اعظام ، وطارت نفوسهم لهوله شعاعاً ، وذرفوا الدموع السخينة اسى واسفاً ، على فقده ، فقد كان محباً لخير الكل يتوقد غيرة على مصلحة الكل وهذا الكل في المصاب سواء

يبكيه عهد الاصلاح فقد كان عضده ، تبكيه العلوم والمعارف والفضائل فقد كان قطبها وامامها ونبراسها ، تبكيه المحابر والاقلام فقد كان مشكاتها ومهبط وحيها ، تبكيه الفضيلة والانسانية فقد كان شعارهما ونصيرهما ، تبكيه الأيتام والأرامل والفقراء والبؤساء فقد كان عضدها ومجيرها ومغيثها

واخيبة آمال آله ومريديه فطالما تضرعوا الى الله ان ينقذه من خطر الداء ، ويمن عليه بالشفاء ، ولكن حكمة الله التي لاتدرك شاءت ان تنقله الى جنة الخلد فرحمه الله رحمة واسعة عداد مناقبه وفضائله وحسناته ، وألهم آله الكرام والسادة المسلمين وسائر من تعرف به او سمع بفضله عزاء جميلاً

(ثم ذكرت كيفية الاحتفال بالجنازة هناك فنستغني عنه بما تقدم كما نستغني عما نشرته في أخبارها المحلية من وصف الاحتفال بتشييع الجنازة هنا تفادياً من التكرار وانما نذكر خاتمته قالت :)

هذا وقد بات حضرات اشقائه وذويه ومريديه واصدقائه احسن الله عزاءهم داعين للجناب العالي والحكومة المصرية لما ابديا من الرعاية والمجابرة فانه حالما بلغ نعيه سموه ارسل الى سعادة نائب القائم مقام الخديوي ان ينوب عنه في تشييع جنازته والحكومة أسرعت فقررت من تلقاء نفسها وعملا برأي رؤسائها ان تحتفل بتشييع جنازته على نفقتها والامة ايدتها فى ذلك الاحتفال فجاء احتفالا فائق الكمال نادر المثال

(وقالت جريدة الوطن الغراء في العدد ٣٢١٨ الصادر في ذلك اليوم ما نصه)

مات المفتي

أهي الصاعقة انقضت فصمت الآذان ، أم زلزلت الارض زلزالها فاصطكت لها الاسنان ، أم الشمس صافحتها يد الكسوف فاغبر اديم السماء، لا هذه ولا تلك ولكن يد المنون أنشبت أظفارها بعلامة مصر وأستاذها فعم الخطب والبكاء .

أينما سرتَ وحللتَ اليومَ في عاصمة القطر وسائر بلاده، سمعت أنينًا صادرا من صدور أولي الفضل قائلا مات المفتي « فلا حول ولا » بعد بعاده ، فكان موته خطبًا شاملاً استذرف العيون دموعها ، ومصابًا عامًا أسف له سكان القطر من نزيلها ودخيلها ، ولا بدع فقد كان له في كل فؤاد منزل كبير ، نظرًا لما عرف عنه من الفضل الرائع والاطلاع الغزير ،

لا بدعَ انْ عظمَ المصابُ بفقدِهِ　　وَتقطَّعت لمماته الاحشاء
قد كانَ في ذا العصرِ مفردعصرِهِ　　ومنارَةً تُجلى بها الظلماء
ولذا ارتدى الافتاء ثوبَ حدادهِ　　من بعدِهِ اذ لم يعد افتاء
والحزن عمَّ مريدَهُ وبغيضهُ　　«والفضل ما شهدتْ به الأعداء»

حمل البرق نعيه الى محبيه في العاصمة عند منتصف الساعة السادسة من مساء أمس ، فراح بعد ان كافح المرض كفاحًا هائلاً لم ينجه من النزول الى الرمس ، دب في جسمه السرطان فلم ينقطع دبيبه حتى قطع حياة رجل يتمنى الكل لو عاش أبد الدهر ، وكأنه استطاب السكنى في جسم بحرنا الفهامة فظل يسبح فيه أيامًا ولا عجب ان استطاب السرطان سكنى البحر

مات المفتي وأي يراع يقدرُ على ايفائه حق رثائه ، بل أية عين يمكن لها الانحباس عن بكائه ، اننا نخط هذه السطور يدفعنا اليها الواجب ، ولكن الحزن الشديد جعل اليراع كالتائه في فيافي البطاح والسباسب ، فهو يسود بمداد الاسف صفحة طالما سودها بذكر مجيد أعماله ، ويذكر اسم المفتي مقرونا بالاسف على فقده بعد ان ذكره مرارا مقرونًا باذاعة فضله ونشر حميد خصاله ، فلكل كاتب

عرف المفتي عذر على ما يرتكبه اليوم من الزلل اذا كتب ، ولكل شاعر معذرة اذا زاد في ابياته خبب او نقص سبب ، فلقدخيمت فوق الابصار غشاوة الاسى الشديد ، ومن ذاالذي لا يبكي لموت المفتي الذي كان لمصر اكبر نصير كما كان لها اعظم فخر من طارف وتليد ،

***

مات المفتي فشيعه النبل والفضل ، وقضى بعد ان قضى على بنا من جهل ، وسار للقاء ربه الاعلى بعد ان جاهد في سوق هـذه الحياة الجهاد الكبير ، فربحت تجارته وما اربح تجارة الذي يخرج بالناس من الظلمات الى النور ، فقد كان في حياته مشكاة يهتدي الناس بضيائها في دياجير الظلماء ،وستبقى آثاره الخالدة مدى الدهر كعبة الفضلاء والنجباء ، وكما كان تغمده الله بواسع حلمه ورضوانه ، دراكة دهره وعلامة زمانه ، كان مثال الفضيلة وعنوان كرم الاخلاق والنزاهة والاباء ، حتى امتاز بفضائله الخصوصية على سائر العلماء ، لذلك لاعجب اذا كان موته خطباً لا ينفع فيه العزاء ، واي عزاء عن المنتصر على هانوتو وشارح القرآن ورافع لواء الافتاء ،

ولو اردنا ان نصف للقراء اخلاقه ومعارفه لطال بنا المقام دون ان نتمكن من الالمام بما عرف عنه من الاطلاع والمعارف ، فقد كان جنة علوم دانية القطوف ثمارها العقل الكبير وازهارها العوارف ، ولكن اشهر ما اشتهر به الاقدام والثبات في العزم ، والميل الى فقراء الادب وشدة الحزم ، فقد كان مقداماً على كل امر خطير ، كما كان منزله العامر ملجأ كل اديب فقير ، حتى لقب في اخريات ايامه بابي التعساء من الادباء ، وكان من آثار فضله تعريب حافظ ابراهيم لكتاب البؤساء ، الذي عدّ معجزة الكتاب لما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة في الانشاء ، فلا غرابة اذا لبس لموته الشعراء والكتاب اثواب الحداد ، ولا غرو اذا ظهرت الصحف اليوم وفيها ما فيها من السواد ، فلذلك دين واجب الاداء ، على صحافيي مصر وجمهور الكتاب والشعراء ،

***

قضى القدر الجاري ان ترحل عنا يا مفتي الديار ورجل الشرق وعلم مصر المفرد ،

فلا حول ولا قوة في رد ذا القدر اذ ليس له من مرد ، رحلت عنا على حين غرة فامست مغاني الصبر بعدك بلقعا ، واستجدينا العين دمعها لبكائك فوجدنا دمعها طيعا ، فشقت عليك القلوب قبل الجيوب ، وبدت عذارى البيان محاولات الشعور تندب مولاها واميرها ، وعم الاسف على موتك العدو والحبيب ، كما شمل الحزن كبير مصر وصغيرها ،

كيف لا نبكيك وقد جاهدت في خدمة ربك وخدمة العلم خير جهاد ، وعرضت نفسك في سبيلهما لكل طعن وانتقاد ، ولم تكن تهز من طعن او انتقاد ، ولكن الذين انتقدوك قبل اليوم ووجهوا الطعن اليك ، باتوا اليوم وهم اشد العالم حزناً عليك ، وهكذا جرت عادة القوم ان لا يعرفوا اقدار كبار الناس ، الا واجداثهم داخل الارماس ، فلا يحزننك ماقيت من جهل المفسدين ولغط الاعداء ، فلك اسوة ربك الاعلى ان لم تكن لك اسوة الانبياء .

***

من لنا بيراعك السيال ايها الاستاذ الحكيم لنفيك بعض ما يحق لك من الرثاء ، ذلك اليراع الذي كان اذا كتب خال العالم ما خطه وحياً هابطاً من السماء ،

قضى نابغة الافغان فكنت لنا من بعده خير من يستهدى بهديه اذا تفاقمت المشكلات ، ولكننا بموتك لا نجد من يخلفك في حل المعضلات اذا استحكمت حلقات ، غير ما خطته يدك الكريمة من كل أثر كريم يسرك في القيامة ان تراه ، لانك علمت المسلم واجباته نحو نفسه في هذا العصر وواجباته نحو الله ، ولسوف يأتي يوم يعرف فيه الناطقون بالضاد عموماً انك كنت امامهم ، وأنهم لولاك لظل الجهل مخيماً بغشاواته فوق ابصارهم ، وانك كنت في حياتك خير نصير واكبر ظهير للاسلام ، فارقد الآن بسلام وعليك من الله وبني آدم الف سلام ،

هذا ما وسعنا الكتابة عن فقيدنا العظيم هذا النهار وسنأتي في مقالتنا الافتتاحية غدا على اهم ما يجب ذكره عنه . وستصل جثته فى قطار مخصوص بعد ظهر اليوم عند الساعة الثالثة وربع الى محطة العاصمة ومنها يسير موكب الجنازة الرسمي في الساعة الرابعة تماماً مما سنأتي على وصفه غدا تفصيلا .

وصدرت العدد التالي بهذه المقالة

الاستاذ العظيم

« الشيخ محمد عبده »

ان فقيد الامس كبير من أعظم ابناء مصر في تاريخها الحديث ولعله اعظم علماء الاسلام في هذه السنين شهرة وقوة وتأثيرا في شؤون المجتمع الانساني لا ريب ان مصر لم تخرج مثله من عهد عهيد وانه قليل نظيره في الاقطار الاسلامية على وجه الاجمال . نقول ذلك ونحن لا دخل لنا بمذهبه او درجة علمه في هذا المذهب ولكننا ننظر الى الرجل من الوجه الادبي والوطني معاً فنرى انه كان اكبر كبير في مصر بين علماء الدين الاسلامي في همته وجده ونفوذه الادبي وحركته الاجتماعية وتأثيره على ابناء عصره وسعيه في التأثير والاصلاح ولا سيما في الفترة الاخيرة من عمره حين تولى منصب الافتاء . ولسنا ننظر اليـه في هذه المقالة بصفته الدينية المطلقة ولكننا نورد هذه الخواطر الآتية عن حياته وأعماله بصفته الادبية والانسانية عامة عالمين ان ما نورده هنا قليل من كثير وان الحكم على الرجال وأعمالهم لا يسهل حال وفاتهم ولكننا نرى ان مصر فقدت رجلاً من أكبر رجالها وان الشرق خسر عميداً من أهم أبنائه بفقد المرحوم الشيخ محمد عبده فصدر جريدتنا اليوم خص بذكره على سبيل الاختصار

على اننا لا نقصد سرد حوادث رجل عظيم مدة حياة كثـيرة الحوادث والآيات انما نحن نذكر القراء ان فقيد الوطن الكبير كان من نوابغ الشرق وفلاسفته بلا مراء وانه مثل أستاذه الشيخ جمال الدين الافغاني وغيره من قادة الافكار لم يترك آثاراً مكتوبة كثيرة العدد ولكن آثاره باقية في قلوب تلاميذه وأتباعه وعشاق فلسفته وهم كثر في القطر المصري وغيره من أقطار الشرق فهم سيتممون عمله بين الناس وينشرون أفكاره . لا تمر أعوام على حادث الأمس المحزن حتى تعم آراء هذا المصلح الشرقي ويقل الجاهلون الذين اشتهروا بمضادته على غـير هدى في حياته وما هو بأول مرشد قام يهدي الاقوام الى طرق الصواب ويردهم

عن البدع والتعصب لحاربوه وعادوه وهم لا يدرون انهم يحاربون أنفسهم و يضرون بجيلهم وأمتهم ضررا لا يزول الا بعد زوال الاجيال والاحوال . وما كان مثل هذا الشرّ قاصراً على بني الشرق أو أهل الاسلام بل ان الناس جميعهم من كل ملة وفي كل صقع مازالوا أميل الى الغباوة والخطأ منهم الى الصواب في كل زمان . وما قام مصلح في الناس الا وقام له الاعداء والمبغضون

« وعهدنا بفقيد الامة القبطية الايغومانوس فلتاؤس فان جهاده في وجوب الاصلاح الداخلي للامة القبطية أقام ضده كثيرين يناصبونه العداء و يناهضونه في كل رأي ونظام »

ولقد بدأت شهرة الفقيد الكريم في الأزهر و بلغت أوجها في هذا الجامع المشهور فهو كبير أزهري وقطب من أقطاب الاسلام ومصلح شرقي عظيم . كان طالباً للعلم يمتاز بالذكاء وقوة العقل على بقية الطالبين فلما اشتهر الفيلسوف جمال الدين الافغاني بين الازهريين بتعاليمه وفلسفته التف حوله جماعة من اذكياء المصريين والسوريين والمغاربة وسواهم وكان فقيد مصر اكبر المعجبين به والناحين نحوه حتى انه اصبح رفيقاً وصديقاً لذلك الفيلسوف الشرقي واشترك معه في الكتابة زماناً حتى انه كتب معظم الفصول في جريدة العروة الوثقى وهي تعد الآن من نفائس الكتابات العربية ودلائل ماوعى صدر محررها من العلم وسحر البيان .

واشتغل الفقيد بعد ذلك زمانا بتحرير الوقائع الرسمية فكان ثاني العلماء الاعلام الذين تولوا تحرير هذه الجريدة وذاعت شهرتهم في الآفاق والاول منهما صاحب الفارياق والجوائب وغيرهما نريد به الشيخ احمد فارس الشدياق اللغوي الشهير .

على ان تحرير الوقائع الرسمية لم ينل فقيدنا الشهرة التي يستحقها فلما حدثت الحوادث الكبيرة التي يظهر فيها النوابغ وقادة العقول ظهر الشيخ محمد عبده بمظهر المرشد والقائد للحزب الوطني في اوائل الثورة العرابية حين كان الثائرون سائرين على خطة المصلحين وطلاب العدل والمساواة وقبل ان ساروا محاربين مثيرين للأحقاد وهم لا يعلمون الى اين هم سائرون . في تلك المدة كان الشيخ محمد عبده استاذ العرابيين وقائد افكارهم يحلفون قسم الطاعة للوطن ومصلحته بين يديه حتى أنه عد من

زعماء تلك الثورة مثل عبد الله نديم وبقية الزعماء المشهورين فنفي على اثر انتصار القوة الخديوية بمساعدة الاحتلال مع الذين نفوا في سنة ١٨٨٢ ثم صدر أمر الخديوي السابق بالعفو عنه فعاد الى القطر غير محرض ولا مهيج كما عاد عبد الله نديم وأرادت الحكومة أن تستفيد من معارف الرجل فجعلته قاضياً في محكمة الاستئناف الأهلية حيث جلس على كرسي القضاء أعواماً كان فيها ممتازا بقوته العقلية واشتهر بين قضاة الاستئناف بشكله العلمي وعمامته حتى أنه جعل لهذه العمامة ذكرا في تاريخ القضاء المصري لانه تعود حركة عرفها المتقاضون عنه اذ كان ينكس العمامة الى الامام اذا أراد الحكم بالعقاب على المتهم ويدفعها قليلا الى الوراء اذا كان حكمه بالبراءة . واتفق انه رجع الى كرسي القضاء يوماً بعد المداولة ولما قعد نكس العمامة فتطير المتهم وتشاءم وصاح به أن بحقك الا زحلقت هذه العمامة الى الوراء قليلا يامولانا الشيخ . ويقال ان استغاثة الرجل افادته في تلك القضية وكانت آخر ما يروى عن تلك الحركة المذكورة في تاريخ القضاء المصري

ولما كثرت اشكال الخلاف بين الحكومة ومجلس شورى القوانين ومفتي الديار المصرية من بضعة أعوام وهو يومئذ الشيخ حسونه النواوي أحد مشايخ الاسلام السابقين وأصبح هذا الخلاف خطرا على الصلة الكائنة بين الحكومة والرعية أجهد أولياء الامر قرائحهم ليجدوا مفتياً وعضوا دائماً في مجلس شورى القوانين من بين العلماء الاعلام لا يكون معوانا لحزب الشقاق والفتن(*) وكان الفقيد في ذلك الحين قاضياً ومدرساً في الأزهر يفسر القرآن ويلقي آيات الحكمة على السامعين وقد خلف جمال الدين الافغاني والتف حوله مئات من الطالبين وجعلوا يرتلون بحمده ويتباهون باقتباس العلم عنه حتى هيجوا بذلك احقاد البعض وصيروا الاستاذ عدواً لفئة من العلماء على كره منه وهي عادة الناس مع الفلاسفة والمصلحين في جميع الازمان

ولما تولى الاستاذ مسند الافتاء وأصبح عضوا دائماً في مجلس شورى القوانين سطعت كواكب علمه وظهرت أدلة ذكائه واقتداره وارتقى في العيون ارتقاء عظيما حتى أنه أصبح كبير القطر من بين العلماء ونواب الامة لأنه بعث روحاً جديدة

(*) لم يذكر جواب «لما» فلعله سقط سهوا وهو «لم يجدوا غيره» اوما هذا معناه

في مجلس الشورى وصار رئيس كل لجنة مهمة فيه فتغير سير هـذا المجلس وانقلب من العداء للحكومة على غير جدوى الى مساعدتها فيما يفيد لان مجلس الشورى كان قبل أيامه مجتمعاً لفئة كل علومها تنحصر في طلب الجلاء ومعاندة الاحتلال معاندة لاقيمة لها ولا تأثير فلم يكن في وسع الحكومة أن تحل قوله محل الاعتبار. وأما بعد أن صار الشيخ محمد عبده أهم الاعضاء في هذا المجلس وكلف بمراجعة اللوائح والقوانين التي ترسلها الحكومة الى هذا المجلس فانه أصبح مجتمعاً للتشريع يصلح مافات الحكومة و يقدم الآراء السديدة تعمل الحكومة بهاو ينقح القوانين و يقترح آيات الاصلاح فكان تعديل قانون العقوبات وتوسيع دائرة المعارف وتعليم الفقهاء والقضاة الشرعيين ومصالحة الحكومة ومجلس الشورى وغير هذا من نتائج وجوده في المجلس المذكور وآثار سعيه وقوة عقله ونفوذه بين النواب والحكام فهو كان أكبر صلة فى عهده الاخير بين الرعية والحاكمين

وأما عمله في منصب الافتاء فانه كان الجوهرة الكبرى في تاج فخره والذروة العليا بين درجات عمله الكبير مدة العمر الطويل لأنه جعل للمركز شاناً وتأثيرا لم يعرفها عنه من قبل وأخرج مقام الافتاء من دائرة الخمول والنطق بالفتاوى في ما يعرض عليه الى مقام التعليم والارشاد والتأثير على العالمين فصير المفتي من الكبار الحاكمين بقوة المنصب وقوة العلم والادب على السواء وأفتى في كثير من المسائل العصرية على ماأقر العلماء الاعلام فلم يحفل بما قال الجهلة والمسوقون الى المعارضة بحض أصحاب الغايات والاغراض. وقد كان صدقه في مركز الافتاء وقيامه بواجب الدين والذمة من دواعي الحقد عليه وقيام الذين لايريدون الاصلاح لمناهضته ومحاربته فاشغلوه زماناً بدسائسهم وأقوال الذين وقفوا يلقنونهم السفاسف والسخافات عنه ولكنهم لم يحملوه على اهمال مهمته القصوى وغايته الكبرى وهي ترقية شأن الازهر والازهريين، ورفع مقام الذين يعيشون بخدمة الدين الاسلامي كالفقهاء وخدمة المساجد والقضاة الشرعيين . ولو ان الله مد أجله أعواماً أخرى لصير القضاء الشرعي في مصر آية الكمال بدل أن يكون بؤرة الخلل والجهل كما هو الآن باقرار جميع العارفين

هذه زبدة الحياة التي قضت حكمة الله بختامها من يومين وهذا هو الرجل الشرقي الذي فقدته مصر في هذا الاسبوع. وأما عن تأثير حياته وخلاصة آرائه الادبية والاجتماعية ونتائج أعماله ومساعيه فاننا سنضع مقالة أخرى في صدر الجريدة ان شاء الله اهـ

(ونشرت في هذا العدد نفسه مقالة ضافية عن الاحتفال بتشييع الجنازة في الاسكندرية ومصر هي مثل ماذكر في غيرها معنى ختمتها بقولها)

وما حانت ساعة الدفن حتى سالت الدموع وتقطعت الاحشاء ووقف الكل خاشعي الابصار مطأطئي الرؤوس احتراماً واجلالا لمنار الاسلام فى الشرق فدفن والقلوب تشيعه بخفقانها المضطرب والعيون بدموعها المنسكبة

ولقد كان مرأى الذين كانوا يلازمون الفقيد من أهل العلم والآداب مؤثرا في النفوس كثيرا فقد كانوا في أشد حالات الاسى والحزن على فقد امامهم وعلامتهم ونصيرهم في هذه الديار

وبعد ان تمت حفلة الدفن عاد القوم وكل صدر نفثة حزن وأسى على ذلك الفقيد الكريم تغمده الله بالرحمة والرضوان ، وأسكب على ضريحه شآبيب الصفح والغفران . وأسكنه فسيح الجنان . وألهم آله ومصر من بعده جزيل الصبر وجميل السلوان

(ثم نشرت مرثية لاحمد أفندي نسيم الشاعر المصري المشهور ستأتي في باب المراثي وانفردت بعد ذلك بما يأتي

وقد نعي المرحوم الى الجناب العالي الخديوي تلغرافياً في ديفون فأرسل سموه رسالة برقية يعزي بها عائلة الفقيد على موت الاستاذ الحكيم وأظهر الأسف الشديد ونظم حضرة الاديب خليل افندي فوزي صاحب جريدة الانسان التاريخ الآتي

مات ذخر الاسلام خير البرايا صاحب الفضل والمقام الممجد
ما ارتضى داره بارض ولكن في سماء النعيم أضحى محمد
سنة ١٣٢٣ ١٠١٩ ٢٢١ ٨١٩ ٩٢

بيان من جامع الكتاب ، للنائين عن هذه البلاد

صاحب جريدة الاهرام جبرائيل بك تقلا نجل أحد مؤسسيها بشاره باشا تقلا ورئيس تحريرها الآن داود أفندي بركات وصاحب جريدة البصير رشيد أفندي شميل، وجريدة الجوائب خليل أفندي مطران، وجريدة الشرق حنا أفندي جاويش وطانيوس أفندي عبده ، وهؤلاء هم وأصحاب المقطم — يعقوب أفندي صروف وفارس أفندي نمر وشاهين بك مكاريوس — كلهم من كتاب السوريين المختلفي المذاهب في النصرانية .

وصاحب جريدة الظاهر محمد بك أبو شادي وجريدة اللواء مصطفى باشا كامل وجريدة المؤيد الشيخ علي يوسف وكلهم من كتاب المصر بين المسلمين

وصاحب جريدة مصر هو شنوده بك المنقبادي وجريدة الوطن جندي بك ابراهيم كلاهما من قبط مصر

وسنبين فيما ننقله عن الجرائد العربية غير اليومية والمجلات أسماء أصحابها والغرض من هذا البيان أن يعلم الناؤن عن هذه البلاد وأهل القرون الآتية ما يعلمه أهل هذا العصر من اتفاق كلمة أصحاب الجرائد الذين هم مؤرخو العصر على أن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان نسيج وحده وامام وقته في العلوم والفضائل والعمل والاصلاح . وانا لم نر هذه الجرائد قد اتفقت على شيء قط كما اتفقت على اجلال فقيدنا العظيم على تباينها في الاديان والمذاهب ، والسياسة والمشارب ، وعلى مراعاة أكثرها للكبراء الذين يجاهدهم الامام لاجل الاصلاح ، وعلى ماسبق لبعضها من التعريض أو التصريح بالانتصار لحزب الجمود القديم عليه وهو — رحمه الله — زعيم حزب الاصلاح ، وانك لترى المتحامل في الزمن السابق، و باغي المجاملة لمقاومي الاصلاح في اللاحق، على تحريهم القصد في القول ، والاحتراس في الثناء ، والسكوت عن لقبه المشهور والاتيان بلفظ « مِنْ » بدل اسم التفضيل في بعض المواضع، قد اعترفوا بان الفقيد لا نظير له يعرف، ولا عوض له يخلف،

(٢)

أقوال جرائد القطر المصري غير اليومية مرتبة كسابقتها

(قالت جريدة الاتحاد المصري الغراء التي تصدر في الاسكندرية في عددها (٢٤٧٧) الصادر في ١١ جمادى الاولى بلسان صاحبها روفائيل افندي مشاقه الكاتب السوري المسيحي ما نصه)

رزء وطني

لبست مصر اثواب الحداد على اعظم مصلح واكبر حكيم ظهر في هذا العصر مات الاستاذ الحكيم والامام الكبير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية فوقع منعاه في النفوس وقع الصاعقة واشتد الجزع عليه لانه كان نبراس العلم ودعامة الفضل وطود الفضيلة فانطفأ بموته ذلك النبراس ومادت تلك الدعامة ودك ذلك الطود

كان الاستاذ الحكيم علماً للمكارم وسيداً للاخلاق الفاضلة رحيما بالفقراء والمساكين، برا بالمحتاجين غيوراً على البائسين، مجتهداً فى افادة ابناء وطنه واخوانه في الجنسية لا ينظر الى الاجناس المختلفة الضاربة فى وادي النيل الا نظر الاخ الذي يعتبر جميع الناس اخوانه فى الانسانية

قام اعداء الانسانية يعتدون على الاستاذ الحكيم ويفترون عليه بما توحيه اليهم ضمائرهم السافلة فتأثرت نفسه الكريمة من تلك الحملات الشعواء ولكنه كان يعرض عن قائلها إعراض ذوي الانفس العظيمة ولا نقول الكبيرة لأن الاستاذ رحمه الله كان عنوان التواضع واللطف

اصابته في المدة الاخيرة علة جزع لها محبوه ومريدوه وكل الناس أولئك المحبون المزيدون وما كانوا يقدرون ان المنية تختطف ذلك الامام الحكيم وهو لم يضع بعد اصلاحه الكبير على اساس متين فمات وخلف الحسرات وقطع بموته الآمال

هيهات ان يأتي الزمان بمثله .. ان الزمان بمثله لضنين

كان الاستاذ رحمه الله اول عامل على الاصلاح الديني بدون المساس باصول الشرع الشريف فانما كانت غايته من الاصلاح ضرب تلك البدع الهائلة التي شوهت وجه الدين والتي لم تكن من الدين في شيء فكان هو الجريء الوحيد الذي وقف في وجه الملأ يرفع الرأس بقوة سلامة نيته وطهارة ضميره لايخشى في الحق لومة لائم شأن أعاظم المصلحين الذين يضحون ذواتهم ومصالحهم على مذبح الانسانية والخدمةالعمومية

تولى الشيخ منصب الافتاء فاعتز المنصب به وهابه اعداؤه ولم يجسر عظيم على الوقوف في تيار ارادته العظيمة

ولقد كان سبب العلة التى أودت الآن بحياته العزيزة دسائس بثها الغافلون ضده فكانت النتيجة تأثر نفسه العظيمة واشتدت العلةعليه وبتنا مدة بين اليأس والرجاء حتى انقطعت الآمال وردت الوديعة الطاهرة الى خالقها العظيم فكان موت الشيخ رزءا وطنيا عظيماً وليس مصيبة اسلامية لان الشرق الادنى عموماً وكل البلاد العربية كانت تعتز بالاستاذ وتتيه به اعجاباًوترجوان تصل بحسن مساعيه الى اعلى درجات المدنية التي لاتجعل الدين فاصلاً بين ابناء الوطن الكبير

(ثم ذكر كيفية الاحتفال العظيم بتشييع الجنازة)

وقالت جريدة الاخلاص الغراء الصادرة (في القاهرة) في ١٤ يوليو بلسان صاحبها ابراهيم بك عبدالمسيح الكاثوليكي السوري الاصل مانصه

الفاجعة الكبرى

فقدت مصر بل الشرق أجمع بموت من كان للعلم نبراسا، وللآداب والكمال مثالا ، وللعدل والرحمة والشفقة والانسانية تاجاً ، العالم العلامة المفضال ، المرشد النصوح ، المحب الودود ، المتواضع المحبوب ، الاستاذ الحكيم الاكبر ، الطيب الذكر الخالد الأثر ، شمس الملة والدين . الشيخ (محمد عبده) مفتي افندي الديار المصرية .

بينما كان هذا الفقيد العظيم عازما على السفر الى جهات اوربا ترويحا (للنفس) من عناء الاشغال التي قد تراكمت عليه لاسيما في المدة الاخيرة قصد الاسكندرية للاستراحة يومين ومنها يبحر الى اوربا فيعود منها قرير العين منشرح الصدر بما يقوم به من الخدمة المقدسة للاسلام والمسلمين ولكن أبى الدهر الخؤون ان يتمم ماوعد وهكذا كان اصاب الفقيد العزيز في الاسكندرية اسهال بسيط اولا ثم تغيرت عليه الحالة بألم شديد في معدته ثم عقبه انتفاخ في الكبد فحار به نطس الاطباء ولم يروا في علاجه حيلة حيث تعاظم الداء وعز الدواء وكان يزداد يوما فيوما بل ساعة فساعة الى ان صعدت تلك النفس الطاهرة الزكية الى خالقها في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الثلثاء الغابر ١١ يوليو الجاري في محطة باخوس برمل الاسكندرية .

وما ذاع هذا الخبر الهائل حتى طيره البرق الى سمو الخديوي المعظم في ديفون فصدرت الاوامر الى سعادتلو أفندم حسين فخري باشا وكيل قائمقام خديو بان ينوب عن سموه في السير بمشهده ثم صدرت أوامر الحكومة المصرية للمراكز الرسمية بأن يحتفل بمشهده رسميا وهكذا كان حيث احتفل بجنازته في الاسكندرية احتفالا فائقا لم يسبق له مثيل اشترك فيه المسيحيون عموما فانه بينما كان المؤذنون يبررون على المنابر كالعادة بموت امام الدين كانت الاجراس والنواقيس تضرب ضربات الحزن في كنائس محطة باكوس اعترافا بان الفقيد ليس بفقيد الاسلام والمسلمين بل فقيد الجميع فمن كان اعتباره بين الامم هكذا كيف لا تبكيه العيون وتذرف عليه عوض الدمع دماء؟ كيف لا تنفطر عليه القلوب حزنا واسفاه ؟ . وان شئنا ان نعدد مآثر هذا الراحل يضيق عنها الاخلاص بصفحاته الاربع اذ يقتضي لها مجلات كبيرة ومهما نعته الجرائد بالنعوت ومهما اطنبت في مدحه واظهار اعماله لاتكون قد قامت بعشر معشار ما قد خصه الله به من المحامد والصفات الكمالية التي يمتاز بها على من عرفناه الآن من حيثية طهارة الذمة وحرية الضمير ونقاوة القلب وبالاجمال فانه كان علما يهتدي به طلاب الدين والدنيا

الفقيد الجليل قد خدم الصحافة خدمة تذكر فتشكر وهكذا كان خادما

امينا للقضاء اذ كان رجـلا عادلا لا يراعي صاحباً او عزيزاً في احكامه بل كان الدستور امامه والعدل رائده ومتى خرج من كرسي وظيفته كنت تراه سمح الوجه حلو الحـديث بشوشا لطيفاً واذا خطب في قوم كان يسكر السامعين واذا كتب مقالة في أي موضوع كان فهو الا كتب الفريد بين اقرانه

ومن اكبر مزاياه المحمودة ايضا انه كان أحرص رجل على اموال الايتام والارامل (ولنا معه رحمه الله أدوار مهمة كان لنا فيها الساعد الاكبر والمرشد الاعظم الى المقاومـة لصيانة مال اليتيم ونلنا المراحم على يديه وأعداؤنا أصبحوا مخذولين) فـلا غرو اذا لقبه الواصفون بأبي البائس وعضد اليتيم ومغيث الملهوف والساعد العامل لـكل من يقصد رحابه فينفخ فيه روح القوه والشجاعة والثبات لانه كان عظيم الهمة كبير النفس يقاوم الدهر ومعانديه اكبر مقاومة حيث كان يفكر على الدوام بالاصلاح والتقدم لاهل بلاده وكان دائما يقول (كما ذكره المؤيد الاغر أيضا) — انني لا اخشى شيئا سوى الموت لانه يقطع عليّ خط السير — ومع كل هذه الخصال المحمودة كان دأبه أيضا الصفح والتجاوز عن كل من عاداه حتى اننا فى ذات يوم قصدنا ادارة المجلس بالازهر المنيف لامر مهم مكدر لم نذق النوم ثلاثة ايام من أجله فلما حظينا بمقابلته عرضنا عليه الامر فكان جوابه لنا (يا نار كوني بردا وسلاماً على ابراهيم) وأوضح لنا كيف يلزمنا من الصبر والثبات لننال بغيتنا ثم تعهـد باننا اذا سرنا على ما أشار لنا به سنفوز باذن الله وان لم نفز فهو يكون المسؤل امام الله واليتيم فقمنا من حضرته وقلبنا مطمئن يطفح بشرا وزال عنا كل كرب وما آن الاوان حتى نلنا الظفر بعناية المولى عز وجل واشارة فقيد الامم

(ثم ذكر كيفية الاحتفال بالجنازة وعدد بعض المزايا)

(وقالت جريدة الجاسوس الغراء الصادرة بمصر في ١١ جمادى الاولى بلسان صاحبها حافظ أفندي حلمي الارناؤدي مانصه)

مات العلم والفضل

(انا لله وانا اليه راجعون)

الموت نقاد على كفه   جواهر يختار منها الجياد

رزىء الدين والعلم بوفاة عيلم الامة وامام هديها صاحب الفضيلة الداعي الى الرشد والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وفيلسوف الشرق فقد حل به القضاء في منتصف الساعة السادسة بعد ظهر يوم الثلاث الماضي بثغر الاسكندرية وكان قد ذهب اليه على أمل السفر الى الاقطار الاوربية فعاجله المنون وطير البرق نبأ وفاته في جميع الارجاء المصرية فاهتزت له صروح الدين وبكت له العيون وحزنت منه القلوب فما كنا نرى الا حزناً وأسفاً باديين على وجوه الكافة مصريين ونزلاء وطفقوا يحوقلون ويستمطرون الرحمة والرضوان على نفس ذلك الفقيد الذي ذهبت معه آمال المستقبل وأضحى الدين في مصرنا وحيداً لانصير له بعد ذلك الرجل الذي طالما ذب الردى عن حوضه ورد جماح المعتدين عليه وحفظ كرامته من عاديات المتهورين من النزلاء والدخلاء

مات رحمه الله وأمطر على جدثه الغفران على أثر مرض عضال أوقفه على شاطىء البحر الابيض واجتمعت حوله نجباء الاطباء ولبثوا يوالون تحرير نشراتهم الطبية فتحملها صحف الاخبار على أمل الرجاء تارة واليأس أخرى وكنت ترى تهافت الناس على مطالعتها رجاء تبريد غلة حزنهم ولكن قدر فكان ولا راد لقضاء الله

(وبعد ان ذكر الاحتفال بالجنازة قال)

والآن نذكر للقراء بعض أبيات قالها فضيلته عند النزع الاخير قد وصلتنا

بعد وفاته من أحد أخصائه وهي مع طلاوتها و بلاغتها وتأثيرها في النفوس تشهد بثباته وصبره و رضوخه لآلام المرض وهي .

(أورد الابيات زائدة عما في الجرائد بيتاً ثم قال)

هذا ور بك أيها القارئ قول ذلك الفقيد وهو فى شدة كان يشعرمعها بدنو أجله واقتراب ساعته فأفاض الله عليه غيث إلهامه وأنار قلبه بنور الغيرة على الدين والوطن حيث كان رحمه الله لايرهب الموت بقدر ما كان يخشى على الاسلام و بنيه من صروف اللأواء واختلاف العلماء من بعده

فمن لنا ياقوم بعد ذلك الرجل الحكيم يصلح أمرنا ويقوم اعوجاجنا ويحمي ديننا ويحرص على كرامتنا و يدافع عن حوزتنا و يكبت أعداءنا و يخمد أنفاس حسادنا كما فعل فقيدنا مع «هانوتو» الذي كبا به جواد الرد فكسر قلم عناده في محبرة أباطيله .

فاللهم ارزقنا الصبر على هذا المصاب العظيم والرزء الجسيم والخطب العميم وألهم مصر و بنيها والاسلام ورجاله فضيلة السلوان وابعث لنا من يتولى شؤوننا انك بنا رؤف رحيم .

ثم ختم الكلام بالتعزية والدعاء

وقالت جريدة الحرية الغراء في عدد ١٢٩ الصادر في ١٣ ج ١ وهي تصدر في طنطا بلسان صاحبها محمود افندى فهمي

مصاب أليم

انا لله وانا اليه راجعون

غاضت ينابيع الحكمة وانهدم ركن البؤساء وملاذ الضعفاء والحفظ على أموال اليتامى والمساكين مات العلم ودفنت الفضيلة قضي على حكيم الامة الاسلامية فى سائر بقاع الارض الذي كان يدافع عنها بقلمه وبماله و يفديها بحياته فيسهل الصعاب و يقابل المشقات بصدر رحيب

اختطفت يد المنون عالم عصره وفيلسوف دهره الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية فسلام على الاسلام والمسلمين

ساروا به والكل باك حوله صعقات موسى يوم دك الطود

فأي قلب لا يتقطع وأي فؤاد لا يهلع لهذا المصاب الاليم والخطب الجسيم واذا أنكره البعض في حياته فقد عرفوا فضله بعد مماته فكان معهم على حد قول القائل

سيعرفني قومي اذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

احتفلت بجنازته الحكومة احتفالا رسميا مهيبا سار فيه كبار رجال الامة من سائر الطبقات فكنت لاترى الا عيوناً تتفجر منها الدماء حزناً على حكيم الامة ورجلها فى المهمات الذي طالما استضاءت بأفكاره عند الملمات حتى واروه التراب وعادوا يعزون أنفسهم على هذا المصاب الجليل لأنه مصاب عام ووقعة على الامة المسلمة بأسرها

رحمه الله رحمة واسعة وصب على جدثه شآبيب الرضوان عدد حسناته الى امته وألهمنا وآله الكرام الصبر والسلوان

(وقالت جريدة الرائد العثماني الغراء التي تصدر بطنطا بلسان صاحبها محمد توفيق أفندي الازهري في عددها الصادر في ١٧ جمادى الاولى مانصه)

مصاب الاسلام

اندبي ياأرض وابكي ياسماء قد قضى المفتي ولله البقاء

الخطب الجسيم، والرزء العميم، والحادث الاليم، والكارث المقعد المقيم، والنائب الباغت، والمصاب الساحت، والفجيعة الفاجيه، والنكبة الناكيه، والطارقة الطاريه، والملمة المؤلمة والبلية الباريه، والواقعة الرائعه، والصدمة الصادعه، والحدمة اللافحه، والروعة الفادحة، والغمة التي غامت بها الأيام، وغم لها الأنام، واعتلى منها الاسلام، واختل النظام، فقد عدمت المطالع ضياءها .

والمشارع صفاءها ، والعلوم رشادها ، والامور سدادها ، والعيون قرتها والنفوس قرارها ،والقلوب ثباتها والجفون غرارها ، والايدي أيدها والوجوه سفورها ، والصدور انشراحها والاسرار سرورها ، فقد فقدت الدنيا بهجتها ، وضلت العلياء محجتها ، واهتدى الضلال الى الهدى ، واقوى نادي الندي ، وأقفرت مغاني الغنى ، واكفهرت مجالي السنى ، وأمرت مجاني المنى ، وخفيت مناهج المناجح ، وعطلت مناهل المنائح ، وعميت مذاهب المواهب ، وأظلمت مطالع المطالب ، وارتجت أبواب الفتوح ، ودجت أضواء الوضوح ، ودرست معالم المعالي ،وطمست زواهر الليالي،واضطربت الدهماء ، واضطرمت الدهياء ، و بطلت مواسم الحق ، وأبهمت مظالم الخلق ، وانقطعت مسالك الجهاد ، وتفجعت ممالك البلاد ، وأخلفت عدات الاعداء على الاعداء ، وانكسفت أنوار آمال الاولياء ،وامتدت أيدي الاعتساف، الى نهب أموال الاوقاف ، واستطال الكبراء ، الى سلب حقوق الفقراء،وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم ، وأظهره من سر قدره المكتوم ، بمصاب الاسلام ، بموت مولانا الاستاذ الامام ، روح الله روحه ، وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه

فقد عظم الخطب وجل ، وحل عرى الجلد حين حل ، وثلم غرب الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع ، وأذكى كرب الضلوع ، وبت حبل اللاجين ، وشت شمل اللاجين ، وأعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث ، وحباؤها غثاث ، وعقودها انكاث،وسهولها أوعاث ، وقصورها اجداث،وشرورها غرور ومواهبها حداث ، وسكونها قلق ، وأمنها فرق ، وصحتها سقم ، وأملها ألم ، وغبطتها ندم ، ووجودها عدم ، و بقاؤها فناء ، ونعيمها بلاء ، وراحتها عناء ، وملكها هلك ، وسترها هتك ،وأخذها ترك ، وسلمها حرب،وصلحها فتك ووفاؤها غدر ،ووفاقها مكر ،وعرفها نكر ،ووصلها هجر ،وخيرها شر ،ونفعها ضر ،وجبرها كسر ،ومتاعها قليل ، و باعها في التطاول طويل ، وما لمثارها مقيل ، ولا في ظلها مقيل ، ولا أرب فيها لأريب ، ولا الباب فيها للبيب، فان ظلها زائل ، ونعيمها باطل.

أسفا على موت العلوم لفقده   من قاسه بالغير فهو مماري

اليوم فاض من الشريعة دمعها والعلم أمسى في الثرى متواري

قضى الامام فانقضت الآمال ، وتقطعت الاوصال ، وساء الحال ، وبات العالم الاسلامي يرسل الزفرات ، ويردد من أعماق قلوب أفراده الحسرات ، على قبلة الحكمة كيف تهدمت ، وأركان نهضتها الحقيقية كيف تحطمت ،

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا جمل يموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

قضى حكيم الافتاء ، وقدوة كبار العلماء ، وذخر البؤساء ، ومعين الادباء وحصن الفضلاء ، بعد ان جاهد جهاد الابطال ، وأيد دين الله بعزيمة أرسخ من الجبال ، ورفع شأن الاسلام ، وأزال الشكوك والاوهام ، ولم يعبأ بفرقة المبطلين ، الذين ينتسبون الى المسلمين ، حتى تبينوا الصواب ، رضوا من الغنيمة بالاياب .

قضى الامام الذي لم تزعزعه الحوادث ولم تكن لترهبه مدلهمات الكوارث فبلغ بعلمه وفضله وحكمته ونبله مالا يناله غيره من بعده مهما بلغ فى الرياء وتسلق بيوت الامراء .

قضى الامام العظيم والفيلسوف الحكيم وقد ضن الله به على هذه الامة لأن هذه الروح الطاهرة من ادران النفاق والتدليس لا يجب أن تكون فى هذا الوسط المملوء بالارواح الشريرة والنفوس الخبيثة فخليق بالروح الشريفة أن ترقى الى الحظيرة القدسية عند مليك مقتدر .

أسفا على هذه الهمة العالية والعزمة الماضية كيف أصبحت تحت أطباق الثرى .

فمن نرجوه بعدك أيها الامام لحل المشكلات ومن الذي نأتمنه بعد فوتك لحسم الامور المعضلات فسلاما سلاما عليك أيها القبر الشريف الذي ضم رفات رجل الاسلام ومن كان اليه المرجع في المسائل الجسام

وصبرا صبرا أيتها العائلة الكريمة والشقيق العظيم فما ذهب من الوجود من آثاره موجودة بين يدي العالم بأسره

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

حقا أن آثار عميدنا وعميدكم لا يزال ينتفع بها العالم الاسلامي مادامت الارض والسماء

فرحمه الله رحمة واسعة وصب على جدثه شآبيب الرضوان

(وقالت جريدة الصاعقة الغراء الصادرة بالقاهرة في ١٦ جمادى الاولى بلسان صاحبها احمد افندي فؤاد المصري ما نصه مع اختصار قليل بغير تصرف

من شاء بعدك فليمت

اليوم نامت أعين بك لم تنم ... وتسهدت أخرى فعز منامها

اليوم سكن نفس من أشهر الانفاس اليوم مات من لولم يختم الله نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن لبعثه نبي رحمة وأنزل عليه قرآن هدى اليوم مات الاسلام وقبر في ضريح الاستاذ الامام اليوم ذهبت هيبة الدين وقويت شوكة الملحدين اليوم ماتت الآمال واضمحلت عزائم الرجال اليوم مات من لو كان يفدى لافتديناه بالف كبير من كبرائنا وعشرة امثالهم من علمائنا اليوم

قد خططنا للمعالي مضجعا ... ودفنا الدين والدنيا معا

والموت حتم في رقاب العباد فمن بعد الاستاذ الحكيم للتربية والتعليم . ومن يستدر الاغنياء للبائسين ومن يصون أوقاف المسلمين ومن يحمي دين الموحدين فالاسلام الآن يئن أنين المتوجع وينشد انشاد المسترجع

طوى الدهر ما بيني وبين محمد ... وليس لما تطوي المنية ناشر

ومن عجائب الدنيا ان ذلك الذي كان لا يسع نفسه العالم قد وسعه لحد لا يزيد عن ذراعين في مثلهما ثوى فيه وحثي عليه التراب وامسى في ظلمات القبر وطالما فتح لنا ابواب السعادة بجاهه وجميل سعيه وانار بصائرنا بوعظه وارشاده فأصبحنا بعد فقده

لا فانكا (١) آخر في مصر تقصده * ولا له خلف في الناس كلهم

ولو انصف الدهر لكان بيت الله الحرام أحق برفات الشيخ من أرض مصر

ومن عجيب صنع الله ان أحمد المنشاوي نال قسطا وافراً من العافية فلما صار من الاتقياء البررة احاطت به الآلام ونالت منه الامراض والاسقام فلحق بالسابقين الاولين كذلك الشيخ كان مشغولا في أول امره بتحصيل الحكمة فلما بدأ فيما بدأ فيه من اصلاح الدين ومحاربة البدع والضلالات أبدله الله بثوب العافية ثوب المرض وقبضه اليه قبل أن يتم ماشرع فيه وجاهد له . ولله حكمة فيما فعل لان الامة التي تسمى بالامة الاسلامية أمة لا تستحق الا الذل والهوان والله أعدل من أن يمن عليها بمن يصلح أحوالها ويقوم إعوجاجها وينهض بها ويرأف على صغارها ويبر كبارها ثم لا يلاقي منها الا ما يلاقي الحليم من السفيه فدعاه فلبى وودع هذه الفانية واستقبل الباقية وليس معه ما يقابل الله به الا حسن ظنه وقوة إيمانه وثبات يقينه ولا بين يديه ما يقدمه اليه الا رسالة التوحيد التي لولاها ما اهتدى أحد الى وجود الله

ومما يخفف الحزن عن اشياعه واتباعه اجماع اهل التوراة والانجيل والزبور والفرقان على تبجيله وتعظيمه لانه كان يوفق بحسن رأيه بين المتخالفين ويؤلف بين المتنافرين وينتصر لدينه أكبر انتصار من غير أن يغضب واحداً من اهل الكتاب فكانت هذه المزايا التي نزعت التعصب من القلوب ووضعت مكانه التآلف داعية الى الحزن عليه فدقت النواقيس في الكنائس وأذن المؤذنون في الجوامع واقفل التجار حوانيتهم واستقبلوا الجنازة بقلوب موجعة واعين دامعة وعبارات الحوقلة والاسترجاع ، وذم الزمن اقل ما كان يخرج من افواههم ويدور على السنتهم . وهذا الجزع العام من كل الطوائف على اختلاف اديانها وتلون ألوانها لم ينله واحد منذ برأ الله الدنيا .

كان رضي الله عنه شريف النفس عالي الهمة طاهر الذيل نقي القلب واسع الصدر رحب الذراع ، طويل الباع ، جم البر ، كثير الخير ، قوي الايمان ، عويص

(١) اسم رجل

الحكمة ، ثاقب النظر ، سريعا الى المكرمات معيناً فى الملمات ، ماجلس مجلس سوء ، ولا عصى الله في عدوّله ، ولا رأى الى الخيرسبيلاالا سلكه ، ولاللاصلاح بابا الا ولجه . وكان كرم الله وجهه يرى وغبار الموت على وجهه ان الحمام بعيد عنه فاذا سئل في ذلك قال ما كان الله ليقبضني اليه قبل ان انتهي مما بدأت فيه من الخير لدينه فدعوني من ارجاف المرجفين ، وتخرص المتكهنين،فإن امامي عملا عظيما لا بدلي من اتمامه

ولقد كان احسن الله اليه في أخراه ، قدر احسانه الينا في دنياه ، اذا بلغته سيئة من سيئات اعدائه او وصل اليه خبر مكيدة كادوها له استغفر الله لهم منها وقابلها الحسنة ودعا لصاحبها بالهداية ومازال هذا دأبهم ودأبه كلما أسمعوه شرا اسمعهم خيراً وكل ينفق مما رزقه الله . ولو شاء الشيخ نفعنا الله بشفاعته يوم القيامة ان يطعمهم من لحومهم وهم احياء لصنع ولكنه الحلم يجعله العاقل حرزا،ويعده الجاهل عجزا وما كان اعداء الشيخ الجليل الا جماعة من الغوغاء ، وطائفة من الجهلاء ، والا فأي عاقل يعادي الحقيقة ويقاوم البر ويحارب العلم . سئل الاحنف بن قيس أيما أحلم أأنت أم معاوية؟ فقال للسائل ما رأيت والله أحمق منك فان معاوية يحلم مع قدرته وأنا أتحالم لعجزي: وليس من ينكر على فقيد الاسلام قدرته ويطلب الدليل عليها الا من يطالبه على وجود الله وكل شيء دليل على وجوده . ولقد اوصى بحساده وهو فى النزع خيرا واستحلف اقدر الناس على البطش بهم ان لا يسيؤهم وما كانوا ليخالفوه بعد ان عاهدوه ولو لا حق للشيخ في اعناقهم ومنزلة في نفوسهم لبدوا عليهم مطلع الشمس وحالوا بينهم وبين الهواء ، ونجروا لهم ألف آلة حدباء،

امامروءته فليس اقوى للدلالة عليها من خروجه قبل ان تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلىء برقاع امتلأت بحاجات الناس فلا يرجع الى داره الا بعد ان يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه فحارب في سبيلها وانالهم ماشاؤا وأنف المعاكس راغم وكم نظر الله اليه في جوف الليل وهو يمد يده بالحسنات الى الفقراء والمساكين ويعول انفسا ماتت بموته اليوم

اما نشاطه وان جل عن الشبيه فنشاط فتي انكليزي في مستعمرة جديدة

لايتطلع الا الى المجد . فهو يقتل الوقت ويخنق الزمن بالعمل ويرى الراحة فى التعب واللذة في النصب . ومن يشتغل صيفاً وشتاء من الساعة السابعة صباحا الى التاسعة مساء الا الاستاذ الحكيم

اما فضله فقل ماشئت فيه فاعداء الشيخ رحمه الله لاينكرونه (والفضل ماشهدت به الاعداء) وهل يحتاج النهار الى دليل

أما اخلاقه فاخلاق الملائكة فما شئت من سعة الصدر وكثرة المجاملة من غير تكلف مع خفة الروح وكان ليس عنده كبير أفضل من صغير الا اذا قدمه عقله ومع هذا فالناس على تفاوت عقولهم قد وسعتهم اخلاقه . ولوقارنت بين نفوسنا ونفسه لعلمت أنه من غير تلك الطينة فان الواحد منا اذا حفظ قصيدة لغيره ملأ الدنيا ثناء على نفسه وفخرا بذكائه واعجابا بقوة حافظته فكم يكون فخر الشيخ في علمه وفضله لو كانت نفسه الكبيرة كنفوسنا الصغيرة . وما جئنا بهذا الا لأن فقيدنا حكيم الأمة كان يتأفف اذا مدح ويتألم اذا اثني عليه ويرى ان الشكر على معروف ثمناً له وما كان ليصنعه الا ابتغاء مرضاة الله

اما دينه فكانت غيرته عليه غيرة الراشدين ، فما فاته فرض من فروضه لا في سفر ولا فى مرض . حدثني أديب مصر ابراهيم بك المويلحي قال كنت في اوروبا مع الشيخ شتاء فكنا نتسامر الى الساعة الثانية بعد نصف الليل ثم يأخذ كل منا مكانه فكنت لااطبق جفني بعد ان يحتويني مضجعي الا واسمع الشيخ يقول : يا ابراهيم الصلاة : فلما ضاق صدري قلت له بلساني لا بقلبي لك صلاتك ولي كفري . ولكم دينكم ولي دين . وكان يساعد من ماله طلبة العلم الذين قعد بهم الفقر عن الطلب ويبر اصحاب العاهات وابناء السبيل حتى مات عن شيء خير منه لاشيء

فاذا مشى الناس في جنازة الاستاذ وعزى بعضهم بعضا وقالوا الآن ماتت الحنيفية ، فلهم بعض العذر فالمصائب تذهل وما كنا لنتوقع مثل هذه المصيبة ولو توقعناها لذهبنا الى الهند وريضنا انفسنا وتدرعنا بعزيمة قوية فاما وقد فاجأتنا على غرة فالهول جسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

فهلا فديت اللهم الشيخ بنا جميعا فانا لا نرضى له بفدية الذبيح استغفر الله فان الكبش والله ينتفع به اما نفوسنا ففي حيز العدم ومن المحال ان تفدي تلك النفس الكبيرة . فالموجود لا يفدى بالمفقود

فاللهم ارحم ذلك الذي ينسى نفسه ويقول في وقت يذهل فيه المرء عن امامه وأبيه وصاحبته وبنيه

ولست ابالي ان يقال محمد ابل ام اكتظت عليه المآتم

(واورد سائر الابيات)

(وقالت جريدة الصيحة الغراء الصادرة في طنطا في ١١ جمادى الاولى بلسان صاحبها محمود افندي الشاذلي المصري)

مات المفتي

دوى في انحاء القطر صدى نعي الاستاذ الكبير ، والعالم المفضال النحرير ، قطب دائرة الفلسفه ، وملتقى اشعة البيان ، وسيد واضعي القوانين ، ورافع لواء العلم والدين ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، انتقل الى دار الرحمة والرضوان عقيب مرض قصير المدى شخصت في اثنائه الابصار الى ثغر الاسكندرية متطلعة الى فضيلة الاستاذ حائمة حول سريره متسائلة عن حال صحته من ساعة لاخرى متخاطفة أنباء سير مرضه داعية له بالشفاء ولكن هكذا قدر فكان انا لله وانا اليه راجعون

وليس للصحافي المؤرخ في هذا الموقف الصعب غير باب التلخيص والايجاز في سرد تاريخ حياة مملوءة كلها بالمفاخر منزهة عن الآثام والمعايب تزينها الاعمال المجيدة وتحليها الآثار الغراء على العلم والعلماء والتربية والتدريس وتنقيح القوانين الوضعية وتطبيق الدين الاسلامي على العلوم الحديثة والمدنية الاوربية الجديدة فعاش مكرماً من ملوك الاسلام مرموقاً بعين عناية اساطين العلم في كافة أقطار المسكونة كما كثر اعداؤه ومبغضوه وهم حساد النوابغ الراغبون في اخماد انفاس

كل ناشر للحقيقة المجردة عن الزيغ والبهتان

تلقى مولانا الاستاذ الامام دروسه العلمية على كبار رجال الازهر فكان منظوراً اليه من الجميع بعين المهابة على صغر سنه ثم انتظم في سلك رجال النهضة الحديثة التي رأسها الشيخ جمال الدين الافغاني ثم سار في تيار الثورة العرابية فكتب وخطب حاثاً على انقاذ الوطن من مخالب الترك والافرنج ولولا سوء تصرف عرابي وبعض زملائه لأزهر ثمر قول الاستاذ وكانت مصر في غير حالتها اليوم

وبعد ان هدأت زعازع الفتن وعادت مياه الصفو الى مجاريها ولم يجد رجال الاحتلال من يعولون عليه في تدبير بعض المهام الادارية والقضائية استعادوه من الديار السورية (*) وأجلسوه على أحد كراسي المحاكم الابتدائية ومنها الى وظيفة مستشار في الاستئناف ثم تولى منصب الافتاء وهو في كل مركز من هذه المراكز الرفيعة موضع الهمة وعنوان الشهامة ومحط رحال الاجتهاد وحب العمل واستبدال القديم البالي بالجديد الزاهي رغماً عن كثرة ما كان لديه من ادارة الشؤون العمومية والخصوصية فهو عضو الشورى النافذ الرأي المسموع الكلمة وهو الناظر من حين لآخر في اصلاح المحاكم الشرعية وهو زعيم ذوي الافكار الحرة ومدرس علم التوحيد والتفسير والبلاغة بالأزهر وهو مدير دفة اعمال الجمعية الخيرية وهو رئيس كل عمل خيري ومشروع علمي أو ادبي خطير وهو صاحب التآليف الخطيرة والكتب التي افحمت علماء النصارى وأحنت امامه رؤس علماء المسلمين فمن الرد على هانوتو الى رسالة التوحيد الى شرح نهج البلاغة الى تفسير القرآن الحكيم الى العلم والمدنية الى غير ذلك من نفائس الكتب التي لم تساعد الظروف على ظهورها وهو صاحب الفتاوى العصرية التي اقامت الدنيا وأقعدتها وهو ماحق الخزعبلات والاضاليل التي تسكع في ظلماتها المسلمون اكثر من جيل فلا غرابة اذا لبس عليه كل مسلم مؤمن ثياب الحزن وبكته البلاد الاسلامية من باكين الى طنجة احسن الله جزاءه والهمنا على فقده الصبر والسلوان بمنه وكرمه اه

(*) لما عاد الرجل من سورية لم يكن يعرفه أحد من أهل الاحتلال وعفا عنه الخديوي بشفاعة مختار باشا

قالت جريدة العجائب الغراء في عدد ١٩ الصادرة بالقاهرة في ١٦ جمادي الاولى بلسان صاحبها محمد أفندي فوزي المصري مانصه مع اختصار

هل ماتت الامة

بموت المفتي

فزعت أفئـدة أفراد الامة كافة لمنعى فقيدها بل فقيد الشرق كله مفتي أفندي الديار المصرية رحمه الله وظهرت الصحف جميعها مفصحة عما يراه الرأي العام في هذا المصاب الجلل راثية الفقيد ذاكرة غرر أعماله وجليل آثاره وهكذا فعلت الحكومة بان اشتركت رسمياً في تشييع الجنازة وتعزية آل الفقيد ونحن مع حضرات الزملاء الافاضل وكل آسف لهذا الخطب نعزي أنفسنا وزملاءنا في الوطنية والدين على انطفاء هـذا المصباح المنير والمرشد الامين قائلين : انا لله وانا اليـه راجعون

نعم ان المرحوم كان شعلة ذكاء متوقد وعلم في كل فن ومطلب وكانت ميزته الوحيدة هي انه كان همزة وصل بين القديم والحديث والعلم والدين والحكومة وأصحاب العمائم وهو امتياز يقر به الاعداء والمحبون كما لا ينكر أحد واسع علمه وغزارة اطلاعه ولهذا بلغ ذاك المبلغ الذي لم يصله سواه

وعقيب وفاته تطلعت العيون الى من سيخلف فضيلته في منصبه فسمت لنا الصحف اليومية عدداً من فحول رجال الازهر ثم عادت فأخذت في تكذيب بعضها وبالاخير أجمعت على انه لا يتم التعيين الا بعد عودة الحكومة من المصيف. فمتى عادت لا بد من انتخاب أحد الذين سمتهم الصحف ولكن هـذا التعيين لا يغني صاحبه ولا الامة فتيلا ان لم يكن الخلف كالسلف عارفاً بمواقع الداء مدركاً حقيقة الهيئة الحاكمة ونواياها وسمو مبادئها واغراضها نحو هذه الامة التعيسة فان لم يكن كذلك لا يلبث حتى يلحق بسابقيه ممن لم يعمروا في منصب الافتاء سنوات ثم عادوا منه بخفي حنين بعد ان جنوا على ذواتهم وأبناء دينهم شر جناية وهكذا يبقى هذا المنصب الشريف كالكرة بين الايدي حتى يتيح له الحق مثل المرحوم (الشيخ

محمد عبده) عالمًا عصريًا متفقهًا عارفًا الواجب عليه سياسيًا ومدنيًا وحينئذ ترفع الأمـة صوتها قائلة : أعطي القوس باريها وأسكن الدار بانيها : وتردد ما يقوله الافرنج عند موت ملوكهم وتنصيب غيرهم فننادي صارخين: مات المفتي فليعش المفتي

أحسن الله عزاءنا وعزاء المسلمين أجمعين وألهمنا على الفقيد الصبر والسلوان وألهم علماءنا ما يحافظون به على مجد الاسلام والسلام

وقالت جريدة العمران الغراء في عدد ٢٤٤ الصادر في ١٣ جمادى الآخرة و١٥ يوليو بلسان صاحبها عبـد المسيح بك انطاكي من طائفة الروم الارثوذكس السوريين وقد صدرت التأبين بصورته

مات الاستاذ الامام

وخططنا للمعالي مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا

بلى فقد رزئت مصر بل الامة العربية بل العالم الاسلامي برجل ولا كالرجال

مضت الدهور ولم يجئن بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

فلا عجب اذا طار منعاه في الآفاق، وعم الحزن عليه السبع الطباق، وتمنى كل مسلم وكل من يغار على مصلحة الاسلام لو افتداه بما له وروحه

وهيهات ان ترضى المنية فـدية وهيهات ان يرضى الحمام له بدل

مات الاستاذ الحـكيم الشيخ محمد عبده فمن بعده للافتاء ومن بعده للشورى ومن بعده لتفسير الـكتاب الـكريم ومن بعده للجمعية الخيرية ومن بعده لاصلاح المحاكم الشرعية ومن بعده للفقراء والبائسين ومن بعده لمدرسة القضاة الشرعيين وهي جنين ومن بعده للاصلاح والمصلحين ومن بعده للاسلام والمسلمين

ومن بعـده يعنى لاصلاح دينه ليحيي الى الاسلام ما فات من مجد

يحارب من قد ضلل فيه ومن غوى ومن زاغ عن سبل الهداية والرشد

هذا هو الرجل الذي فقدناه، والشجاع الذي بكيناه، والعلامة الذي رثيناه،

فان نشق عليه الجيوب، ونمزق أسودة القلوب، ونستمطر الدموع من المآقي، ونيأس بعده من بلوغ الآمال والاماني، نكون قد وفيناه حقه الواجب الاداء وقمنا بما هو مفروض علينا من الرثاء

سنبكيه ماعشنا ونندب فضله ونشر فيه المرثيات وننظم
وان هو الا كان كافل قومه فيالهف قلبي مات عنهم وهم هم
قضى عمره يرجو الصلاح لقومه فلم ير للاصلاح من يتقدم
وقاموا عليه يطلبون نكاله وحاديهم الجهل القبيح المذمم
فما ثبطوا عزماً له في فعاله ونفس العظيم النفس لا تتقسم

على ان هذا القلم لأعجز عن ان يفي مثل هذا الفقيد حق الرثاء، أو يصف ماحل من هول الخطب على العقلاء، أو يبلغ من القول مايعبر عن تلك المصيبة السوداء، فقد كان للامة نوراً فانطفأ النور وأمست فى ظلمات بعضها فوق البعض، وكان لها هاديا فمضى وتاهت في فلوات من الجهل قد اختلط طولها بالعرض، فاليوم يعلم الناس قدر الفقيد، ويعلمون أنهم فقدوا به الحكيم الهادي الرشيد، ولعمري

لا يعرف القوم الفتى الا اذا مات فيعطي حقه تحت الثرى

نعم مات الشيخ محمد عبده رحمه الله واذا أردت أن تعلم من هو هذا النابغة الذي فقدناه فاسمع ما قال وهو يجود بنفسه عند ما أدركته الوفاه

(ثم أورد الابيات التي تقدمت وقال)

وبعد فقد خلق الشيخ محمد عبده للاصلاح، ومات وهو شهيد الاصلاح ينشد الاصلاح، ويسأل الله أن يمن على الامة بالاصلاح، فالمصاب اليوم مصاب الاصلاح، فان نبكه فانما نبكي على الاصلاح، وان نرثه فانا نرثي الاصلاح،

وقد فقد الاسلام أفضل مصلح وأفضل من قد جدَّ فى سبل المجد

الا ان البكاء لا يغني فتيلا وهيهات ان يخفف العويل والنواح من فداحة الرزء الذي منينا به والخسارة لا تعوض لنرجو لها بدلا وعنها منصرفا وشهرة فقيدنا رحمه الله وجعل في الجنة مثواه أوسع من أن نخوض بتعريفها فما من مسلم فى مشارق الارض ومغاربها الا وسمع به واستفاد من علمه كما ان علماء أوربا ورجال السياسة

فيها كلهم يعرفون الفقيد كما هو و يسمونه ركن الاسلام وأعظم مدافع عن المسلمين

وقد ذكرت الجرائد اليومية فى هذه الأيام طرفاً من ترجمته ومجملا لأعماله التي كان يشغلها وما كان لدفنه من الحفوة والاحترام مما مجمله ان الفقيد توفي في الاسكندرية على إثر علة سرطانية في الكبد وقد ذهب اليها للاستشفاء على اشارة الاطباء فشيع الى المحطة بالاجلال والاحترام ومشى بجنازته كل عظيم وجليل من رجال الحكومة المصرية وأقله قطار خاص الى القاهرة فاستقبله المديرون والاعيان والعمد في محطات دمنهور وطنطا و بنها واذ وصل الى مصر استقبله موظفو الحكومة جملة ومشايخ الازهر عموماً وأعيان القاهرة وما جاورها حتى بلغ عدد المشيعين نيف وخمسة آلاف نسمة على أقل تقدير وصلي عليه في الجامع الازهر ودفن رحمه الله فى قرافة المجاورين

وقد جهلوا قدر الامام فاضرحوا لاجلاده في موحش بفلاة

ولو أضرحوا بالمسجدين لانزلوا بخير بقاع الارض خير رفات

وعليه سقى الله ضريحه بسحب الرضوان

بكى الشرق فارتجت له الارض رجة وسالت عيون الكون بالعبرات

ففي الهند محزون وفي الصين جازع وفي مصر باك دائم الحسرات

أما الذي كان يرمي اليه الاستاذ الامام و يسعى في سبيله وكان يقول رحمه الله انه لا يخشى الا من الموت لانه يقطع عليه طريق السير اليه فهو انه كان يريد أن ينهض بالاسلام بما يعيد للمسلمين ذلك المجد القديم والسلطان الواسع وكان رحمه الله ينظر في الامر نظر الطبيب الذي يشخص الداء و يصف الدواء فكان يرى ان الذي أوقف المسلمين عن التقدم ليس من أصل دينهم بل من البدع التي أدخلت على الدين وقد برهن على ذلك بالحجج الراهنة من آيات القرآن المبين والاحاديث النبوية الشريفة وان أحسن طريق يجب أن يسلكها المصلحون هي فتح أبواب الاجتهاد للمتأخرين كما كانت مفتوحة بوجوه المتقدمين فيقوى حينئذ العلماء العقلاء على التوفيق بين الدين الصحيح والمبادي العصرية الحاضرة وحينئذ ينشط المسلمون في مباراة الغربيين فى العلم والعمل وكانت أعماله كلها في

مدى حياته منصرفة الى هذه الوجهة فعارضه بذلك المقلدون ووقفوا في وجهه وقفة المتعصب الجاهل وساعدهم ذوو الاغراض من المستفيدين من الحالة الراهنة وتولد عن ذلك اضطهاد أدبي للامام حيث اعتقدت العامة بأن الرجل كافر أو يميل الى الكفر بتغرير أولئك المتعصبين والى هذا أشار حافظ أفندي ابراهيم بقصيدته التي رثاه بها حيث قال :

وآذوك في ذات الاله وانكروا	مكانك حتى سودوا الصفحات
رأيت الاذى في جانب الله لذة	ورحت ولم تهمم لهم بشكاة
لقد كنت فيهم كوكبًا في غياهب	ومعرفة في أنفس نكرات
جمعت لهم بين الهداية والتقى	وفرقت بين النور والظلمات

ونعتقد ان الاستاذ الفقيد وان مات مطعونًا بأسنة تلك المقاومات موت شهيد في سبيل الدين الا أن مبدأه لم يمت وان كانت المسيحية قد استضاءت بعد تلك العصور المظلمة بأنوار الاصلاح الذي قام به لوثيروس فان الاسلام لابد عاجلا أو آجلا من أن ينتعش بروح هذا الفقيد وقوة تعاليمه التي بثها في صدور تلاميذه ووضع بعضها في تفسيره القرآن الحكيم والتاريخ يروي لنا حوادث كثيرين كفقيد اليوم نشدوا الاصلاح فلاقوا من الاضطهاد الشيء الكثير الا أن مباديهم لم تضع بل نمت بعد موتهم وتقوت وانتفع الناس بها فخلدت لهم الذكر العاطر على مر الدهور وسيأتي زمان يسود فيه رأي الاستاذ وشريف مباديه ويذكر المسلمون هذا العزيز فيسمونه المصلح العظيم بعد ان كان يدعوه العقلاء في حياته الامام الحكيم

هذا وانا لنسأل الله سبحانه أن يتغمد الفقيد برحمته ورضوانه ويلهمنا جميعًا نعمة الصبر والعزاء على فقده وان يفتح بصائرنا لفهم مباديه العليا وقبول آرائه الصائبة وأن ينفعنا بحكمته ويهدينا بهديه فهو سبحانه على كل شيء قدير

وقالت جريدة الفاروق الغــراء في عددها ١١ الصادر بالقاهرة في ١٣ جمادى الاولى بلسان صاحبها محمد افندي عزت المصري

الى رحمة الله

رزئت الأمة المصرية بفقد المغفور له « الشيخ محمد عبده » مفتيها الاكبر فكان لموته أسف عام وحزن عظيم شمل جميع الطوائف والملل . وقد احتفلت الحكومة بتشييع جثة الفقيد الجليل الى جدثه احتفالاً رسمياً مهيباً لم يسبق له نظير وان الرجل يستحق هذا لأنه كان نافعاً رضيّ الاخــلاق طائر السمعة في العالم الاسلامي كله .

(ثم قالت بعد ذكر الاحتفال بجنازته)

وانا نتقدم بواجب التعزية لحضرة عزتلو حموده بك عبده شقيق الفقيد وباقي عائلته وآله الكرام وان كنا نعتقد ان فقده مصيبة عامة لكافة بني الاسلام ولولا ان الصحف اليومية قامت بواجب تأبينه لأفضنا ولكن هذا ما وسعه المقام الآن والسلام

وقالت جريدة المأمون الغراء في عــددها ٣٦٥ التي تصدر في القاهرة بلسان صاحبها أمين بك حسن المصري ما نصه

رزء جسيم ومصاب عميم

رزئت مصر بل الشرق بل العالم الاسلامي عموماً بدك طود علم من أطوادها الشامخة ، وفقد ركن فضل وأدب من أركانها الراسخة: العالم النحرير ، والاستاذ الكبير ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية عاجلته المنون في مساء يوم الثلاثاء الماضي في منزل صديقه محمد بك راسم في رمل الاسكندرية على أثر داء عياء ، فنيت في مداواته حيل نطس الاطباء ، وما طار نعيه في انحاء البلاد حتى عم الحزن

والاسى كل انسان ، وأخذ الاسف يتردد عليه من كل لسان ، وهذا أعظم برهان على ان مصر عرفت أنها خسرت رجلا عظيما إماماً، وعالماً عاملاً مقداماً، ولوشئنا ان نفي عظم الرزية حقها من الوصف الشافي أو أن نعدد مناقبه وفضائله ومآثره ومحامده لاقتضى لنا مجلد ضخم ولم نبلغ عشر المعشار فنقتصر على القول بما رثاه به بعض الفضلاء حيث قال : إن المصاب به مصاب أليم والخسارة بموته خسارة قد لا تعوض — والمرء مذكور بحسناته — بل كيف لا تكون الخسارة كبيرة وقد كان في الشورى صاحب الرأي النقاد والفكر الصائب والمقدم على كل رأي وفي اللجنة التشريعية صاحب المقام الاول . وفي المجلس الاعلى للاوقاف المرشد الهادي وفي الجمعية الخيرية الاسلامية الرئيس المحيي وفى مجلس إدارة الازهر المصلح الهادي . وفي عالم الآدب العلم الذي يشار اليه بالبنان وفى اصلاح المحاكم الشرعية الاهلية العامل المجد العاقل . وفي أمر كبير الرجل المقدم المفضل فلا يتم فى مصر عمل كبير الا ويده فيه قبل كل يد وسعيه فيه قبل كل سعي : وصفوة القول ان الشيخ محمد عبده رجل لا يعول الاعلى ذكائه الوقاد الثاقب، ورأيه النقاد الصائب، حتى صح أن يقال عنه أنه رجل الشرق وواحده العامل .

هـذا ومما يدلك على أن الحزن في مصر على فقده عظيم وعميم أنه ما كاد القطار الخاص الذي يقل الجثة من الاسكندرية يصل الى محطة العاصمة بعد ظهر يوم الاربعاء التالي ليوم الوفاة حتى أقبل الى المحطة العلماء والعظماء وكبار رجال الحكومة وضباط الجيش المصري وجيش الاحتلال، وكل ذي حيثية ومقام عال، وسمات الاسى بادية على وجوه الجميع

﴿ ثم أفاض فى وصف الاحتفال وختم الكلام بقوله ﴾

فنسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته ورضوانه ويعزي آله وذويه الكرماء بل مصر والشرق والاسلام عموماً عن فقده أجمل عزاء إنه تعالى سميع النداء ومجيب الدعاء .

(وقالت جريدة الممتاز الغراء في عدد ٢٤١ الصادرة بالقاهرة في ١٣ جمادى الاولى بلسان صاحبها الشيخ مصطفى الشاطر المصري وقد صدرت ما كتبته بصورته وتحتها هذان البيتان)

ابا حنيفة لا دمعي بمنقطع حزناً عليك ولا همي بمحدود
قد مزق الموت ثوباً كنت لابسه من نسج حمدك لا من نسج داوود

فقيد الشرق

لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، حم القضاء ، فلا مرد لحكم الواحد القهار ، مات بالامس مولانا المفتي فمات العلم والادب والفلسفة والحكمة والهمة والعمل والرأي والتدبير والشجاعة والاناة وعزة النفس وفقد الاسلام والمسلمون ركن نهضتهم وحامل علم رقيهم وانطفأ المصباح الذي كان يضيء الخافقين وحال الموت بيننا وبين القمر المنير في سماء مصر الذي كان يرسل أشعته نورا الى العالمين فيهدي كل سائر في هذه الدنيا يسترشد به الشيخ ويزداد العاقل تبصرة والجاهل علماً والشاب موعظة والحكيم عبرة والرجل خبرة . ولكن «قتل الانسان ما اكفره» — عاش مولانا المفتي ٦٥ عاماً معلماً مهذباً مرشداً طبيباً للنفوس مصلحاً لادواء العمران فنغصنا عيشه وقتلناه باعمالنا أشد قتلة

أيها الناس : أي عمل قام به مولانا (رحمه الله) ولم نعارضه فيه ؟ أي مشروع أدبي بدأ به ولم نقف امامه حجر عثرة ؟ اي خير فعله ولم نقل انه الشر والاثم والزور والبهتان ؟ أي تعليم له لم نقلبه عليه بدعوى انه يزيد افساد الاخلاق ومخالفة ما قرره السلف الصالح ؟ ولكنها همة فوق السحاب ونفس كبيرة واخلاق شريفة رضية وبحر علم خضم لم تؤثر فيه الترهات أو تمنع ظهور فضله كثرة الاعادي والحساد . فعاش كغيره من الانبياء والحكماء والملوك كثير الاعداء كثير المحبين وهي ميزة كل نابغة عظيم القدر والمقام . واذا كان نصف الناس اعداء لمن ولي الحكم فلا غرابة اذا رأينا ثلاثة ارباعهم مبغضين لمن ولته الزعامة الدينية والادبية علومه ورفعته الى اوج النعمة فضائله وداس على رقاب أخصامه بقدم همته

فكان أينما تحرك تحركت الدنيا وحيثما حل تطلعت اليه الابصار وحامت القلوب والكل بين مقدس لتلك الفضائل مدحاً ، وعامل على اشهارها ذماً وقدحاً ، وكلا الاثنين — العدو والحبيب — كانا في مستوى واحد نحو تلك الحياة الممثلة بالمفاخر والآثار

كم من العلماء تركوا الازهر واشتغلوا بالقضاء ، كم من المصلحين ومحرري الشعوب أقصتهم الحكومة عن البلاد ، كم من رجال العلم تولوا الافتاء ، كم من الافاضل أنابتهم الحكومة عنها في مجلس الشورى والجمعية العمومية، عشرات ومئات تقلبوا في هذه المراكز الخطيرة وأتى بعضهم بكثير من جليل الاعمال ولكن بينهم فرداً واحداً كان طالب علم وكان شيخاً متنوراً طالباً للحقيقة المجردة وكان مدرساً وكان خطيباً بليغاً وكان محرراً صحافياً وكان قاضياً وكان مستشاراً ومات مفتياً وهو في كل مركز من هذه المراكز العضو المتحرك لخير الانسانية والعلم المفرد الساعي وراء ترقية أبناء أمته ودينه والبطل الذي لم يخش في حياته وطنيا أو أجنبياً لتأكده بأنه انما يعمل على ما يقوي ساعد الملك و يوثق روابط الالفة بين الهيئتين الحاكمة والمحكومة — هذا هو الشيخ محمد عبده فقيد الاسلام الخالد الذكر

فى ريفي ألهم الله والده بأن يعلمه فبعث به الى الجامع الاحمدي بطنطا حيث كانت الجوامع دون سواها مواضع تلقي العلم والمعرفة فاختلط بشبان وشيوخ يظنون أقوالهم الحكمة وأراءهم فصل الخطاب ويخيل لهم ان كل العلم والدين منحصر في متن معقد وشرح أكثر تعقيدا وتأويل غامض وتفسير مبهم فاخترق بحاد بصيرته ان علم هؤلاء جهل وصحيحهم غلط فعف عن العلم أياماً ثم آب اليه وافترش صحن الازهر طالبا لفائدة عقلية أو نقلية فلم يجد الا مناقشات وجدالا ومغالطات كان يخرج منها على غير هدى ولكن ذلك كله لم يمنعه عن استئناف بحثه وتنقيبه محكماً عقله في الاستدلال والاستنتاج فرماه سادتنا علماء الأزهر بالميل عن الصراط السوي وادعوا انه يذيع بين الطلاب مذهب المعتزلة وكادوا ينشبون به أظفارهم لولا أن قيض الله له من أخذ بيده ونصيره عليهم وعلى وقته وهو ذياك الحكيم الشرقي الشيخ جمال الدين الافغاني فمازجا روحياً وعرف كل ما يكنه

صدر الثاني من صنوف العرفان والميل لهدم صروح الفساد والجهل المستولي على افئدة المسلمين عموماً والمصريين خصوصاً ولكنهما لم يبدءا بنشر تعاليمهما حتى كثرت الوشايات وعمت السعاية والنميمة واعتصب ضد فقيدنا علماء الازهر ولولا الشيخ العباسي المهدي لما انالوه درجة العالمية . وما كاد ينجو بعلمه من شر الازهريين وغباوتهم حتى وقع مع زملائه أبطال النهضة الفكرية في شرك نصب له وتهمة فظيعة فابعده اسماعيل باشا عن عاصمة القطر الى مسقط رأسه في مديرية البحيرة ولم يعد الا بحسن رعاية الوزير الخطير دولتلو رياض باشا أحد العارفين بفضله الراغبين في افادة البلاد بواسع علمه فولاه منصب تحرير الوقائع المصرية ، وكانت كحالها اليوم عبارة عن اعلانات رسمية مع بعض أخبار ادارية ووقائع محلية ففك قيودها وتوسع في طرق تحريرها أو بعبارة أفصح حررها من سجنها الي فضاء الحرية فنقد الاخلاق والعادات واشار بمواضع الخلل في أعمال الحكومة ودوائرها وفتح للكتاب أبواب التحرير التي كانوا لا يعرفون غير اسمها فكانت نهضته في الانشاء هي الخطوة الثالثة من أعماله التي اظهرت مواهبه وخالف بسيره فيها ما كان يظنه البعض أساساً لا ينقض فهدم ابراج خزعبلاتهم وأبان لهم كيف يجب ان يكون العالم وكيف ينبغي ان يكون الامام المصلح وماذا يفرض على من تلقى اليه ازمة التحرير والتحبير لامة جاهلة وحكومة دستورية اسماً مطلقة فعلا

هبت الثورة العرابية وكان فقيدنا في فجر حياته ومطلع شهرته فلما دعي اجاب وهو يرمي الى غير غرض عرابي وسامي وعبد العال : كان يعتبر هذه الثورة خطوة في سبيل التحرر من رق الاجانب ، كان يظن ان ثمار كتابته وأقواله قد اينعت فجاهد جهاد العقلاء وقدم الرأي عن شجاعة الشجعان ووضع الحكمة والسداد موضع الجهل والرعونة والتسرع ولكن ذلك كله لم يغنه فتيلاً . فلا أقنع غفلاً لا يعرفون غير السيف والمدفع ولا ارضى فئة كبرى كانت تؤيد سمو الخديو والحكومة وكانت نتيجة هذا الموقف الحكيم انه سيق مع العصاة والمتمردين وحوكم كما حوكموا وصدر الامر بابعاده عن القطر ليس بصفة ثائر مثير بل خوفاً من أن يكون لوجوده بعد الثورة تأثير على الاذهان المتأهبة لقبول الآراء الجليلة الحرة التي لا تلائم

الاحتلال وهو في مهده . ولهذا كان الامر العالي الصادر بنفيه ممتازاً بأنه يجوز له الاقامة في أي قطر أراد ويجوز له العودة بامر خديوي وهكذا كان . فحل سوريا حيث لقي القلوب متعطشة لنهلة من بحر علمه واجتمع حوله عدد كبير من الطلاب فأرواهم من وابله وشرح نهج البلاغة وعني بطبعه ثم انتقل الى باريس وقابل فيها السيد الافغاني وهنالك رأيا ان أحسن خدمة تؤدى للعالم الاسلامي توحيد كلمة المؤمنين على اختلاف الملل والنحل فأنشآ معاً جريدة « العروة الوثقى » التي صدر منها ١٨ عدداً هي نموذج البلاغة وحسن البيان وأول ما كتب في اللغة العربية من أساطير السياسة الدينية الدنيوية ولم تشغله هذه الصحيفة عن الاستفادة من مقامه في عاصمة الفرنسيس فدرس لغتهم (١) وترجم بعض كتبهم وقابل كبار وزرائهم فكان هناك سفيراً متطوعاً لخدمة المسلمين واظهار عواطفهم نحو أبناء الغرب فعرف علماء أوربا قدره وأنزلوه مكانته وكانوا يودون لو بقي بين ظهرانيهم يبدد عن سماء اذهانهم ظلمات الجهل بحقيقة الاسلام والمسلمين . ولكن دعته الحكومة المصرية تكفيراً عن ذنبها واعتقاداً بأن البلاد في حاجة له فعين قاضياً بالمحاكم الجزئية المحاكم الكلية ثم مستشاراً في الاستئناف فمفتياً للديار المصرية .

تولى المنصب الاخير وهو (أي المنصب) موضع نقمة الاهالي ونقطة دائرة سخطهم يظن الجميع بان الداء قد استحكم منه ولا يقدر ان يبرئه منه طبيب فخيب الله ظنهم وعاد للافتاء سابق مجده بحسن عناية الفقيد الذي زادت شهرته اتساعاً وشمس فضله نورا وكثر مبغضوه وكيف لا يعادى من تفرد بالحكمة والرزانة والمهابة من كلما أرادت الحكومة أو الامة رجلاً لعمل لم تر سواه ، فبينا هو يدير مركز الافتاء تجده العضو العامل في مجلس شورى القوانين لا تؤلف لجنة لعمل اداري أو اقتصادي أو مالي أو زراعي حتى يكون من أعضائها، تجده كبير المستشارين في ديوان الاوقاف لا يتم عمل صغير أو كبير دون أخذ رأيه واستفساره، تجده مؤسس الجمعية الخيرية الاسلامية جائلاً في عواصم المديريات يحث السراة والاغنياء على

(١) هذا غلط والصواب انه تعلمها بعد عودته الى مصر كما علم مما كتبه عن نفسه

البذل والعطاء لتشييد دور التربية والتعليم ، تجده متربعاً فى الرواق العباسي يلقي دروس الحكمة والمنطق والبلاغة والتفسير ، تجده في منزله بعين شمس وقد التف حوله الراغبون في علمـه يفيض عليهم من نوره ، تجده في تونس والجزائر يداوي أمراض المسلمين ، تجده في اوكسفرد وكمبريدج ينظر كيف ترتقي الامم ، تجده يكتب الفتاوى العصرية التي أقامت الدنيا وأقعدتها فاخرست الاعداء وأفحمت المعارضين وانقسمت لاجلها البلاد قسمين انتصر أصحاب الحق منهما على مدعي الباطل — هذا هو الرجل الذي كان يبتعد عن السياسة ويتحاماها ولـكن أبى مركزه الا أن يرغم القابضين على اعنتها علي الاحتكاك به والوقوف امامه موقف الاعداء حينا والمحبين تارة فلم يخش سلطة أمير أو وزير حتى كان ما كان مما فصـله الممتاز في سنتيه الماضيتين من المنازعات والاختلافات التي قامت بين الفقيد ومبغضيه وأهمها فتوى ذبائح الـكتابيين وتحليل ايداع الاموال بصندوق البوسته ، ومسئلة العلماء ، ورفع رواتب رجال الاضرحة والمساجد ، وحادثة الازهر الاخـيرة التي دوي صداها في ارجاء المسكونة وحملت لنا صحف الهند استياء المسلمين لـكل ماصدر ضد فضيلته رحمه الله .

وقد أمضينا الاسبوعين الفارطين مع جم غفير محتاطين بسريره وكلنا ألسنة داعية لفضيلته بعاجل الشفاء ولكن ما قدر كان فذهب مبكياً علي شمائله مودعاً من الجميع بالاسى والاسف والكل يرددون ان السعادة التي تنعمت بها مصر في حياة مفتيها وامامها العظيم كانت كالحلم الجميل ولـكنه حلم سيبقى أثره فى النفوس وتأثيره على العادات والاخلاق والهيئة الاجتماعية المصرية في كل دقائق حياتها كما يبقي اسم الشيخ محمد عبده الاجيال الطويلة عنوانا للمجد والفخر فنسأله تعالى ان يهبنا نعمة الصبر على فقده ولا يحرم الشرق من ظهور نابغة يحل محله والسلام

(وقالت جريدة النيل الغراء التي تصدر في القاهرة بلسان منشئها محمد أفندي غانم المصري في العدد ٥٩ مانصه وقد صدر بصورة الفقيد)

فقيد الاسلام

ان الذي أطلق من يدي القلم وأنا بين عوامل المرض وفواعل الألم تنتابني الاطباء ، وتشفق علي الاصدقاء ، شيء لم يكن في الحسبان له دبيب في الفؤاد أشد فعلاً من تعلق الداء العضال بموضع العلة من المرض

هذا الذي غلبني على كل شيء من أمري فهاج أحزاني وحرك أشجاني في حين اني لا أستطيع حراكا وانساني الألم الذي أنا فيه حتى تركني صريع الأسى بعد ان لقح هذا القلب الحزن بدم هذا الخطب الجسيم

فسلام على الفضيلة وأهلها ، والحكمة وطلابها ، والمروءة وأصحابها ، سلام على العلم والسياسة والأدب والبر والتقوى ، سلام على الأزهر وتلاميذه وعلمائه الى يوم يبعث فيهم حكيم آخر من المسلمين تهون عليه حياته في طريق تعليمهم وارشادهم واصلاحهم . سلام على هذه الديار الأسيفة . التي لا يكاد يبدو في سمائها نجم الا عاجله الأفول تأديبا لها وعبرة «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

« سلام على الاسلام بعد محمد سلام على ايامه النضرات »

« على الدين والدنيا على العلم والحجى على البر والتقوى على الحسنات »

(وذكر عدة أبيات أخرى من مرثية حافظ وستأتي في موضعها ثم قال)

مات المفتي ولم يمت . مات شكلا ولم يمت معنى لانه رحمه الله أدرك ان الحياة غير مأمونة العاقبة فبادر في حياته الى غرس الكثير من الغراس الطيب النافع الذي ابتدأ يظهر ويثمر في آخر عمر الاستاذ وبعين منه فكان ذلك يخفف عنه احتمال ما يهذي به الجهلة بشأنه وأكبر ما يعزيه في مرضه وغاية ما يقال ان شخص الاستاذ الامام لم يفن وانما هو قد توزع في أشخاص سيبصرون بنوره فيمشون على أثره ويعملون بعمله ليكون فيهم الأثر النافع لهذا الأثر الخالد وخير خلف لذلك السلف الصالح

على انه حق على العاقل بعد ذلك ان يفكر في الكيفية التي يقضي بها العاملون من أهل الفضل حياتهم بين ظهراني هذه الأمة العجيبة في أخلاقها الغريبة في أطوارها فقد كان المرحوم مفتي الديار المصرية موضوع احترام واكرام العظماء والمفكرين وموضع اعجابهم به في كل بلد يحله من باريس الى بلاد الانكليز الى الشآم الى الجزائر الى أمثالها ثم أنظر كيف كان الحقد عليه من فئات في مصر يدخل فيها — وا أسفاه — فئة كبرى من الأزهريين وجماعة من الصحافيين الذين يعلمون الأمة . . .

والآن وقد اشتمل عليّ المرض فى أشد أدواره حتى ضعفت يدي عن احتمال القلم فاني أعزي الأمة عن فقد أثمن درة في تاج حياتها واستودع الله تلك الجوهرة اليتيمة التي جاءت الى عالم وذهبت منه ولم يعرفها الا القليل

(يقول جامع الكتاب)

هذه أقوال أشهر الجرائد العربية فى القطر المصري استقصينا منها اليومية جميعها لأنها في الغالب أرقى من غيرها وأكثر ماتركنا من الجرائد الاسبوعية فلم نحفل بالاطلاع عليه ولا بحفظه هو مما يسمونه بالجرائد الساقطة والهزلية . ومن غير الاكثر جريدة الرأي العام فهي محترمة الا انها لم تكن تصدر في أيام الفجيعة بالفقيد ومنها جريدة العصر الجديد فقد منا العدد الذي نشر فيه تأبينه ولم يتيسر لنا عوض عنه وسننشر قولا لها في شأن حفلة التأبين العامة

واننا نرى الجرائد التي تصدر في هذه الأيام لاتخلو من ذكر فقيد الاسلام والشرق واننا نذكر على سبيل النموذج منها ماقالته جريدة (الارشاد) التي أصدرها بالقاهرة في غرة ذي القعدة الشيخ علي أحمد الجرجاوي المصري قال

فقد العلماء في هذا العام

في هذا العام فجع العالم الاسلامي بوفاة خمسة من أكابر العلماء ونابغي رجال الفضل وعلو الهمم وجلة المشائخ العالمين العاملين أعلام الهدى وشموس العرفان بكت عليهم

الدروس والطروس وعطلت منهم نوادي المحاضرات وربوع الفضائل ومكارم الاخلاق

فأولهم المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الذي شهد له العدو قبل الصديق بسبقه في حلبة العرفان، وتفسير القرآن، وخدمة الاوطان، والذي أظهر لاهل أوربا عموماً انه لايزال في الأمة الاسلامية رجال يعرفون كيف يذودون عن حوض دينهم بأوضح حجة وأعظم برهان، وانه لم يزل فيها من يعرف قيمة الاوطان، فيعمل على ترقيتها بكل ماوهب من حول وقوة. شغل رحمة الله عليه عدة مناصب كبرى وعهدت اليه الحكومة اصلاح شؤون كثيرة مختلة معتلة فكان في ذلك مثالاً للهمة السامية والجد الفائق والحزم الصادق رحمه الله رحمة واسعة . وثانيهم المرحوم السيد عبد القادر الرافعي الذي أسندت اليه وظيفة الافتاء فلم يلبث فيها الا عشية أوضحاها حتى عاجلته شعوب أجله فكان لنعيه رنة حزن وصدى أسف عم طبقات المسلمين لما كان عليه رحمه الله من طهارة الذيل وعفة الميل والتمسك بعروة الدين وسعة المدركة ووفور الدراية وحسن المعاملة وحب العشيرة. وثالثهم الشيخ أحمد الجيزاوي أحد كبار علماء السادة المالكية كان رحمه الله واسع الاطلاع دقيق البحث في علوم الدين أفاد الطالبين افادة عظمى تشهد له بالاخلاص في العمل وحسن الدراية وما كاد الحزن على هؤلاء الافاضل يخف حتى فوجئنا بفقد مثال الشرف وعنوان الفضيلة المرحوم السيد علي البيلاوي شيخ الجامع الازهر ونقيب السادة الاشراف بالديار المصرية سابقاً فوقع منعاه في الاسماع والنفوس وقعاً مؤلماً لما عرف به بين الخاص والعام من حسن الطوية وحب الاصلاح والرغبة التامة في جلب الخير للازهر الشريف عرف ذلك فيه في عهد توليته المشيخة الازهرية حتى نال انعطاف الجناب العالي الخديوي بصفة امتيازية وقد أسندت اليه وظيفة نقابة الاشراف قبل المشيخة فحمدت سيرته في المنصبين وفارقهما مرضياً عنه وتوفي مأسوفاً عليه رحمه الله رحمة واسعة »

﴿ وانما ذكرنا ما قالته هذه الجريدة في غير صاحب التاريخ لنجعل قولها نموذجاً للفرق بين مايقال في فقيدنا وما يقال في غيره من أكابر علماء العصر على أن ذكره هنا كان مقدمة لا مقصداً ﴾

٣
اقوال المجلات المصرية العربية

قالت مجلة الحكمة العلمية الطبية التي يصدرها في القاهرة الدكتور عبد العزيز أفندي نظمي المصري في ص٣٨٢ من السنة الاولى ما نصه

انا لله وانا اليه راجعون

رزىء العالم الاسلامي في السابع من جمادى الاولى رزءا لم يذق مرارته مذطوت الايام حماة الاسلام الاول :

رزىء في امام عظيم وعليم حكيم جمع الى جهاد الخلفاء الاربعة في اقامة الدين والدنيا اجتهاد الائمة الاربعة في تقويمهما ... رزىء في خير من سعي بعد رسول الله وخلفائه الراشدين فى اعلاء كلمة الله وتجديد ما أخلقت الايام من فضائل الاسلام ودفع مفتريات اعدائه عنه ونفي البدع منه .... رزىء فيمن كان للهدى علمًا، وللعلم منارًا، وللتشريع حجة، ولمصالح الامة حافظًا ، ولأيتامها أبًا وأي أب ... رزىء في فضيلة الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وأرضاه

جاءته دعوة ربه وهو على سفر الى أوروبا للتداوي من علة أصابت كبده بل اصابت الاسلام فيه فألقى عصا الرحلة واستقر بالاسكندرية ريثما حانت ساعة لقاء مولاه ثم لباه : كريمًا يقدم على كريم فتلقاه في جنة ونعيم .

عم الرزء فيه فاشترك في الحزن عليه أمة محمد وامة عيسى فكان أولئك ساعة تشييعه يبررون على المآذن في المساجد وهؤلاء يضربون النواقيس حدادا عليه فى الكنائس ولاغرو فقد كان الفقيد فقيد العالم لا فقيد أهله

نقلت جنازته ثاني يوم وفاته من الاسكندرية الى العاصمة في مشهد رسمي حافل بألوف المشيعين من سائر اجناس الناس ونحلهم وطبقاتهم سواء في الاسكندرية ومصر وصلى عليه فى الازهر ودفن في قرافة المجاورين والعيون تبكيه والقلوب تذوب أسى على معارفه وعوارفه تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته وألهمنا الصبر على فقده

هذا وقد كنا نود ان نأتي للقراء بملخص تاريخ حياة الفقيد ولكن المؤيد والمنار وعدا باستقصاء هذه الترجمة وايفائها حق شرحها وهما ولا شك ادرى بها واقوى على جمعها فنكل الامر لهما

وقالت مجلة الثريا الادبية التي يصدرها في القاهرة ادوارد أفندي جدي المسيحي السوري في الجزء الثاني من السنة السابعة (وقد تأخر عن سابقه سهوا)

فقيد الشرق

ليست المصيبة التي تذهب بالدمع تذهب بالامل ولكن المصيبة التي تذهب بالامل تذهب بالحياة وما الحياة الا كطائر حذر رنقت عيونه سنة من النوم فأدركه صياد حريص فسلبه حياته . أصابت الايام في اخرياتها عالم الشرق ونبراس الفلسفة ومنار الدين وحجة الفقه وإمام اللغه مفتي الديار المصرية إثرداء نجيس لو أصاب الأيام لذهب بضيائها ، ولو أصاب البحار لغاض بمائها ، فاتفقت الامة في الحزن واختلفت في الصبر وكادت الشمس تحترق من الاسف ، والمهج تذوب من التلف ، حزناً على عالم أبى الدهر أن يبقي على حياته الطيبة لينهض بالشرق بعد ما كبلته العلماء (الجهلاء) بقيود لو كبل انسان به الليل لمحا الله آية النهار

أخرجت الارض ذلكم العالم كما تخرج النحل الشهد من بطونها فافتخرت الارض على السماء كما يفتخر الصباح على المساء فعكف على الدرس في ادوار متباينات وأيام مختلفات وكان في إبان نشأته كالغصن الرطب فأثرت فيه الاعصار الازهرية وكادت تميل به فأنكر طريقة التدريس وعاف التمسك بالقديم فآض الى بلده وشغل بالزراعة بعد ماتصور ان الانسان لايمكنه ان يجتاز بحر الظلمات بغير دليل ولا قبل له باجتيازه في ذلك العهد وما زال كذلك حتى ألان قناته أبوه فعاد الى الازهر مكرهاً ففتح الله عليه وذلل له الصعاب فاغترف من بحر المعقول ماشاء أن يغترف ، وقطف من روض المنقول ماشاء أن يقطف، وكان

الازهر في ذلك الحين يضم بين جوانبه عالماً نبغ في الفلسفة وعرف بالمنطق وهو الشيخ (حسن الطويل) فلزمه الفقيد ملازمة اللفظ للمعنى ووافقه موافقة الروي للقصيدة وأخذ عنه ماجعله في أيام قلائل يعبر عن أفكار الشيخ ومقاصده فكان بين اقرانه كالنجم يهتدى به في غياهب الظنون ولما قصد مصر روح الفلسفة ولسان المنطق السيد جمال الدين الافغاني مشى الاستاذ تحت سمائه المنيرة فصارت معارفه تنقل من صدر الى صدر، ومواهبه تنقل من عقل الى عقل، حتى نبغ نبوغاً لا يشاركه فيه ناطق بالضاد فرأى جمال الدين أن روضته أزهرت وشجرته أثمرت ، فافتخر به وأدناه منه وقال وهو بين عالم الارواح وعالم الاجساد لمريديه انني خرجت من الدنيا وما ألفت كتاباً ولكن تركت لكم أثراً يغني عن جميع الكتب. وبعد ما برع المفتي تنفس صدر الثورة العرابية فألزمته الظروف ان يكون من اعوانها كما ألزمت فقيد الشعر وصاحب دولتي السيف والقلم محمود باشا سامي البارودي ولما سكنت ثائرة الثورة غضب عليه الامير فنفاه الى الشام فرأى مكاناً رحباً بين علمائها ، ومقاماً سامياً بين امرائها ، فاغترفت العلماء من بحر فضله، واستضاءت الامراء بنور علمه ، ولم يقعد به الحزن في منفاه عن افادة الدين والأدب ، فطفق يفسر الغامض من الخطب ، ويشرح الصعب من المتشابهات حتى أفاد من استفاد

ثم شخص الى مصر بعد عفو الخديوي عنه فشرع في كتابة الوقائع الرسمية بلفظ فحل ومعنى أنيق وتراكيب كعقود الجمان في عهد كانت اللغة فيه تتراوح بين الموت والحياة وكان الذي يفتح الله عليه بسجعة يعد نفسه من أئمة المنشئين، والذي يفتح الله عليه بنوع بديعي يعد نفسه من أئمة النابغين، فحل الشيخ عقدة الألسن ، وأطلق في رياض المعاني طائر الفكر ، بعد ماهدم صروح البديعيين . ولم ير الفقيد أهلاً لمساعدته في القيام بذلك العمل الجليل غير الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الكريم سلمان فصارا ينتقدان على الجمل الركيكة والتراكيب الفاسدة ويرشدان الحكومة الى محجة الصواب وكانت الحكومة في ذلك العهد تعمل برأيها ثم عينته الحكومة قاضياً فأسس للعدل داراً ، ورفع للقانون مناراً ، وما رأيت

قاضياً يحكم بالقانون على القانون سواه . ولما أسكت الله نأمة المفسدين انتدبته الحكومة مفتياً للديار المصرية فأظهر فيها من الفتاوي العقلية الشرعية ماجعل علماء الدين ينظرون اليه بعين الحقد

وصل الى ذلك المقام الذي هو نهاية الرفعة فكثرت حساده فكان كل يوم في جدال ، وكل آن في نضال ،وكان الاستاذ رحمه الله يرى أن التمسك بالجديد(١) ضرب من الظنون ، وكانت العلماء ترى ان التمسك بالجديد ضرب من الجنون، فخذل العلم الجهل وأخذ له بناصره . ثم رأى ان يفسر كتاب الله تفسيراً معقولاً يدع للتاريخ فيه مجالاً ويوفق بين الحوادث الدينية والحوادث التاريخية ليزيل الشك عن أفكار العامة والسامة فأنكرت العلماء تفسيره كما ينكر الاعمى ضوء القمر .

ثم قام هانوتو وزير خارجية فرنسا وتحكك بالدين الاسلامي وطعن فيه طعناً كاد يذهب بحقيقته فتحفز الاستاذ كالاسد من مربضه وسدد قلمه في صدر ذلك الوزير فثاب اليه رشده وبان له الخيط الابيض من الخيط الاسود كل ذلك والعلماء بين الولائم والوضائم يحرفون كتاب الله ويخلقون الاحاديث املاً في ارضاء الجهلاء .

ثم كتب صاحب الجامعة شيئاً من فلسفة ابن رشد فغابت عنه الحقيقة فأنكرها عليه الاستاذ وكشف النقاب عنها ثم قام يحارب البدع كالسجود لغير الله والتبرك بالاحجار وزيارة القبور والتمسك بما تساهل فيه السلف (أي المتأخرون) فقامت قيامة الجهلاء ورموه بكل كلمة عوراء وهو لا يصده عن سبيل الله معارض، ولا يوقفه عند حده كاشح ،

ولما عجزت العلماء عن اثبات الله بالعقل ألف رسالة في التوحيد فلو كان الله سبحانه وتعالى جسماً (تنزه عن ذلك) للمسته الأيدي ولو كان له حيز (تقدست اسماؤه) لرأته الابصار . فلما قرأ الرسالة بعض حساده قال اني آمنت بالله ورسوله ولكن أخشى ان يكون المفتي خدعني ببلاغته وقام وكتب إلى المفتي كتاباً يحمده فيه على خدمة الدين ويعتذر له عما فرط منه فقال الاستاذ الحكيم رحمه الله الحمد لله الذي أوجد من يحبني اذا علم ويكرهني اذا جهل .

---

(١) كذا ولعل الصواب (القديم)

ذلكم هو الاستاذ الكريم الذي غاب عنا ظله ولم يغب ذكره. كان الفقيد رحمه الله يحن الى الفقير ويعذر الجهلاء ولا يخرجه الذم من الحلم الى الغضب. وكان في المضاء كالسيف يقطع ولا يقطع ولقد مرت عليه أيام كسالفة الغراب الغدافي ومسائل كذنب الضب فتحمل من الايام مالو تحمله أحد لصار هباءً منثوراً . وماذا يفعل الانسان اذا أوجدته الطبيعة بين عدوين كلما غاب عدو حضر عدو . وكان الاستاذ اذا حضر في مجلس عقد الجلال ألسن القوم فلا تسمع غير قوله ولا ترى غير وجه منير

وكان يميل الى المحاضرات والنكات . زاره مره محمد أفندي امام العبد بصحبة حافظ أفندي ابراهيم فقال الامام لإمام ممازحاً لو كنت في اميركا ماسمح لك لونك بالجلوس بيننا وما هي الا كلمة حتى غشي المجلس أحد الجنود وكان الاستاذ زوده بكتاب الي رئيس القرعة بقصد اعفائه فأهمله الجندي حتى جند في السودان وسلخ فيه عشرين هلالاً ثم عاد الى الاستاذ والخطاب في يده فلما سمع امام بذلك الخبر الغريب قال للاستاذ وهل لو كنت في اميركا لا يسمح لي لوني أن أقعد مع مثل هذا ؟ والله اني لأفضل ان أقعد مع الاحجار اذا كانت اميركا كهذا فما زال الاستاذ يضحك والحافظ يصفق حتى كاد ينطوي بياض النهار في الضحك . وزاره مرة امام أفندي في محل الافتاء ولما همّ بالانصراف قال له الاستاذ اسمعني شيئاً من شعرك الجديد فقال له امام انا كالمتنبي (وكان المتنبي لا ينشد الا واقفاً) فقال له الاستاذ كن كالبحتري (وكان البحتري اذا همّ بالانشاد وقف وتفل يميناً وشمالاً وصفق) فقال له امام انما انا واقف في المحراب فأنجد الاستاذ وأتهم في الضحك ولم يفهم أحد من العلماء مادار بينهما . وكان للحافظ على الاستاذ دالة ما نالها أحد سواه . وكان الاستاذ يذوق الشعر وطالما سمعته يردد بيت البارودي

اسمع في قلبي دبيب المنى وألمح الشبهة في خاطري

ولقد أسمعه الحافظ بيتين قامت لهما الطبيعة وقعدت وهما لاحد شعراء الاندلس:

عليَّ والا ما بكاء الغمائم وفيَّ وإلا ما نواح الحمائم
وعني اثار الجوّ صرخة طالب لثار وهزّ البرق صفحة صارم

لحفظهما الاستاذ بعد ما أعجب بهما وشرحهما لطلابه بالازهر. وكان الاستاذ لا يحابي في الله وقد مدحه الحافظ بقصيدة بزَّ بها المتنبي ولقد مدحه أيضا محمد امام العبد بقصيدة يقول له منها :

ووفقت بين العين والقلب بالحجى فأرضيت عيسى بالدليل وأحمدا
لئن أنكروا هـذا اليراع وربه فقد أنكرت أهل الضلال محمدا
بلوت صحابي بعد عشرين حجة فلم ارَ فيهم صاحباً يحفظ اليدا
اذا غاب عني بت درعاً منيعة وان غبت عنه بات سيفاً مجردا

ولقد أبنته الجرائد على اختلاف اغراضها وتسابقت في رثائه الشعراء فقال الشاعر النابغة المشهور أحمد بك شوقي شاعر الحضرة الفخمية الخديوية :

مفسرَ آي الله بالامس بيننا قم اليوم فسر للورى آية الموت
رُحمت مَصيرُ العالمين كما نرى وكل هناء أو عزاء الى فوت
هو الدهر ميلاد فشغل فمأتم فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوت

ولما بوغت الشاعر النابغة المشهور حافظ أفندي ابراهيم بهذا النبإ الكارث بكت قريحته استاذه وامامه فنظم ابياتاً قطعها الحزن وتجسم فيها اليأس ولم يتمها بعد لاشتداد حزنه قال أجمل الله عزاءه :

سلام على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات

(وذكرت المجلة عدة أبيات من هذه المرثية ومراثي أخرى ستأتي في باب الرثاء . وأنت ترى ان أسلوب تأبينها شعري فحسنت فيه المبالغة في مغالبة الضحك للاستاذ الامام زمنا طويلا . ومثل ذلك مبالغتـه في ملازمته للشيخ حسن الطويل ومافي معناها من التشبيهات الشعرية وفي الكلام في العلماء على انهم لم ينكروا التفسير كما قالت المجلة ولم يعرفوا قيمته الا قليلا منهم .

(وقالت مجلة الشرق والغرب وهي مجلة دينية لدعاة النصرانية بمصر ،وذلك في العدد ال ٢٩ من السنة الاولى)

وفاة الشيخ محمد عبده

لا يسعنا الا ان نبدي أسفنا لوفاة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الذي نعته الجرائد وأبنته الصحف منذ أيام قلائل . فقد حاول أن يكون سراجا منيرا للاسلام باتخاذه العقل مرشدا والضمير دليلا في تفسيره القرآن الذي كان حجته العظمى في أمور الدين . ولكن يُشك فيما اذا كانت الساعة قد حانت للاصلاح الذي كان يحاوله . وأصبحنا ننتظر ان نرى ماذا كانت الناشئة المصرية الجديدة تقتفي آثار خطواته وتسلك بموجب الروح التي كان يحاول أن يبثها فيهم والتي تظهر من خلال الابيات التي نطق بها وهو على عتبة البقاء

(وقالت مجلة الضياء التي يصدرها في القاهرة الشيخ ابراهيم اليازجي المسيحي السوري وذلك في الجزء التاسع عشر من السنة السابعة وقد صدرت التأبين بصورته

البقاء لله

في مساء الحادي عشر من هذا الشهر نعت الينا انباء الاسكندرية الاستاذ العلامة الكبير ، والامام الفيلسوف النحرير ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، وقطب العلوم العصرية ، وافته دعوة ربه في ذلك الثغر وفي الخامسة والستين (١) من العمر ، على أثر علة سرطانية دبت في كبده بل أصابت كبد القطر ، فكان منعاه خطباً لا تقاس به الخطوب ، عمّ الرزء فيه فبكته العيون بدماء القلوب ، وحقّ للامة المصرية ان تبكي فقيداً من ابنائها قد لا يخلفه عليها الدهر ، بل للامة العربية ان تندب أكبر

(١) الصواب انه ولد سنة ١٢٦٦ فموته كان في ال ٥٨

عامل من علمائها في هذا العصر ، وفي اليوم الثاني نقلت جنازته الى العاصمة فسير بها بين الوف من المشيعين، حتى اذا بلغوا بها الى الجامع الازهر صلي عليه ثم دفن في قرافة المجاورين، تغمده الله برحمته وجعل مقرهُ بين جماعة أوليائه المصلحين

أما ترجمته فقد وُلد رحمه الله سنة ١٢٥٨ للهجرة (١) بمحلة نصر من أعمال مديرية البحيرة وتلقى مبادىء العلم في الجامع الاحمدي بمدينة طنطا وفي سنة ١٢٨٢ انتقل الى الجامع الازهر وبعد ان تخرج فيه مدة ثلاث سنوات استوفى فيها ما تدعو اليه حاجة المتعلم من علوم العربية والشرع نزعت نفسه الى العلوم العقلية وكان مدرّسها يومئذٍ المرحوم الشيخ حسن الطويل فحضر عليه شيئاً من كتب المنطق والحكمة. وفي سنة ١٢٨٨ ورد على القطر السيد جمال الدين الافغاني الشهير فاتصل بهِ ولزمهُ وأخذ عنهُ شيئاً كثيراً في الكلام وأصول الفقه والمنطق والحكمة النظرية والهيئة القديمة والحديثة فنبغ في ذلك كله . ولما اشتهر فضلهُ وعلمهُ عيّنه رياض باشا رئيساً لقلم المطبوعات وعهد اليهِ في انشاء جريدةٍ رسمية (٢) سماها بالوقائع الرسمية هي التي لا تزال تصدر الى اليوم وهي أول جريدة في القطر . وفي اثناء ذلك نشأت الثورة العرابيـة واتهم بممالأة الثائرين فنفي الى الديار الشامية ولبث ست سنوات في بيروت فعـرف القوم فيها فضله والتفّ حوله كبراؤها ثم عين استاذاً في المدرسة السلطانية بها فتخرج على يديه كثيرٌ من نوابغ الطلبـة وفي مدة اقامته بها كتب شرحه لخطب الامام علي المعروفة بنهج البلاغة وشرح مقامات بديع الزمان

وفي تلك المدة كان السيد جمال الدين الافغاني قد وصل الى باريز آتياً من كلكتا وكانت المكاتبة بينهما لا تنقطع فسار اليه وانشأ معه جريدة العروة الوثقى ومع انه لم يكتب منها الا ثمانية عشر عدداً فقد أخذت أبعد مكان من الشهرة وحسبك بجريدة يتولى كتابتها مثل هذين الحكيمين . وعلى أثر ذلك سعى بعض آحاد الاسرة الخديوية في اصدار العفو عنه فعاد الى الديار المصرية وبعد أن ألقى بها عصاهُ عينه الخديوي السابق المغفور له محمد توفيق باشا قاضياً أهليا ثم نصب مستشاراً في

(١) راجع هامش الصفحة السابقة (٢) لم يكن الفقيـد هو المنشىء لجريدة الوقائع بل عين محررا لها ثم رئيس تحرير وهو الذي أنشأ القسم الادبي فيها .

محكمة الاستئناف وسمي عضوا في مجلس ادارة الجامع الازهر وفي سنة ١٣١٧ عين مفتيا للديار المصرية وهو المنصب الذي توفي عنه رحمه الله تعالى

أما صفاته الشخصية فكان ربعة أسمر اللون معتدل الجسم قويّ البنية حادّ النظر فصيح المنطق جهوريّ الصوت وكان متوقد الفؤاد ثاقب البصيرة قويّ الحجة ذَرب اللسان بليغ العبارة اذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتلكأ ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيباً سخيفاً حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداهة وجدته كأحسن ما ينشيء المترسلون من الفصحاء . وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول حتى انه تعلم اللغة الفرنسوية وهو فوق الاربعين فلم يأت عليه الا أشهر حتى كان يجيد فهمها ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها ولم يرو مثل ذلك الا عن استاذه السيد جمال الدين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومع بعده عن الشعر وعدم اشتهاره به فانه كان مطبوعاً عليه يجيده متى أراد وقد نظم أبياتاً قبيل احتضاره روتها له احدي الجرائد اليومية ننقل منها البيتين الآتيين

ولست أبالي ان يقال محمدٌ ابل أو اكتظت عليه المآتم
ولكنّ ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وفي هذين البيتين اشارة لا تخفى على المطالع ومن علم ما كان ينويه من توسيع نطاق العلم في الجامع الازهر حتى يكون كاحدى الكليات الكبرى في اوربا ثم ما كان يحاول ابطاله من البدع التي كان يراها من مفاسد الأمة واطلع على ما لقي امثاله من كبار المصلحين فى كل عصر تبدت له تلك الاشارة مشروحة المتن واضحة المغزى سامح الله ذوي المآرب وغفر لهم ما أساءوا به الى هذه الامة الاسيفة بل الى الشرق الاسلامي على العموم ورحم الله تلك النفس الطاهرة واثابها عما نوت من الخير الكبير ولكل امرىء ما نوى .

هذا مجمل ترجمة حياته اوردناه بالاختصار وأما بيان اعماله في القطر وما كان له من التأثير في عقول المتنورين من ذويه فسنفرد له مكانا مخصوصاً في الجزء التالي ان شاء الله اهـ

وقالت مجلة المجلات العربية الغراء التي يصدرها في مصر صاحبها محمود حسيب بك المسلم المصري في عددها الاول لسنتها السادسة الصادر في ذي الحجة سنة١٣٢٣ ويناير سنة ١٩٠٦ وقد صدر بصورة الفقيد

فقيد الاسلام

المرحوم الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية

رزئ الاسلام في العام الماضي (الميلادي) بفقد أعظم ركن من أركانه، اذ استأثرت فيه المنية بالاستاذ العلامة حجة الاسلام الشيخ محمد عبده الذي قضى حياته في خدمته عاملاً على رفعة شأنه ، فقد تجسمت فيه رحمه الله الغيرة على الدين بأجمل ثوب وأبهى رداء، فجاهد في سبيله جهادا لا تذكر في جانبه مجاهدة الابطال في قتال الاعداء، فأظهر الدين الاسلامي للاجانب عنه متحليا بمحاسنه الكثيرة بعيدا عن كل عادة خرقاء . فعرف غير المسلمين فضائل هذا الدين بفضل ما أوتيه فقيدنا من قوة الحجة وسعة الاطلاع و بلاغة الخطابة والانشاء والالقاء . فكان موته خطبا جللاً لا يقبل المؤاساة والعزاء، فشقت عليه القلوب و بكته العيون بالدماء، لان خسارة المسلمين به كانت عظيمة لا تعوض ورزءاً فادحا أذاب القلوب والاحشاء .

لا بدع ان عظم المصاب بفقده ... وتقطعت لمماته الاحشاء
قد كان في ذا العصر مفرد عصره ... ولذا بكاه الدين والافتاء

كان الاستاذ رحمه الله نابغة وعى صدره الرحب ما لم يرو عن غيره من علماء هذا العصر فقد كان خطيبا مصقعا، وكاتبا مقتدرا، وشارحا قوي الحجة واسع الاطلاع، ومدرسا خبيرا، وسياسيا كبيرا، ولهذا أحله العلماء والفضلاء والادباء محلا عظيما من الاعتبار، فلم يكن يذكر اسمه الا بالاجلال والاكرام والاكبار، وكان

مع كل ذلك بعيدا عن حب الشهرة والظهور حتى انه عند ما رد على هانوتو وذلك الرد المفحم المشهور الذي اعترف بقوة حججه وصدق آياته هانوتو نفسه لم يضع اسمه على ما كتبه ولكن كتابته نمت عليه وأدرك الكل انما كتب ليس في وسع عالم ان يسطره غير امام أئمة الاسلام في هذا العصر وأستاذهم الاكبر ولم يكن الاسف عليه قاصراً على المسلمين فقط بل عم سائر الذين عرفوه واطلعوا على كتاباته وشروحه يدلك على ذلك الكتاب الذي أرسله جناب المستر براون أحد كبار المستشرقين الافاضل ومدرس اللغتين العربية والفارسية في كلية كمبردج الشهيرة يعزي به شقيق الفقيد على مصابه الاليم ومما جاء فيه باللغة العربية قوله

« ياسيدي »

«في مدة عمري رأيت كثيراً من البلاد والعباد ومارأيت مثل الفقيد المرحوم لافي الشرق ولا في الغرب . فوالله كان وحيداً في العلم ، وحيدا في التقوى والورع، وحيدا في البصيرة والاطلاع على ظواهر الامور وبواطنها ، وحيدا في البلاغة والفصاحة ، عالما عاملا ، محسناً ورعاً ، مجاهدا في سبيل الله ، محباً للعلم ، ملجأ للفقراء والمساكين ، »

ولم يكن جهاده في الحياة الدنيا قاصرا على خدمة المسلمين بالقاء الدروس النافعة وتفسير آي القرآن الكريم في الازهر الشريف وكتابة المقالات الرنانة دفاعاً عن الاسلام بل كان مجاهداً أيضاً في خدمة الامة المصرية على العموم فان له في مجلس شورى القوانين وغيره من دوائر الحكومة المصرية كنظارة الحقانية وسواها آثارا خالدات أبد الدهر تشهد له بالفكر الثاقب والرأي السديد والحكمة البالغة وكان مع ذلك محباً للفقراء، ميالا الى الادباء، حتى لقب منزله في عين شمس بملجأ البؤساء ، ولكن احسانه كان خفياً عن الابصار لاتدري يمينه بما قدمته يسراه لانه كما قلنا كان يكره المظاهرات العالمية والاباطيل الدنيوية

رأس رحمه الله الجمعية الخيرية الاسلامية الكبرى عدة سنوات فخدم بها البائسين والمعوزين اذ مهد للجمعية كل العقبات التي كانت تعترض سبيل تقدمها حتى باتت أشهر الجمعيات الخيرية وأكثرها نفعاً للمنكوبين من بني الانسان. وسن لها النظامات

التي تكفل بقاءها فهمات ولكن الجمعية لا تزال وستظل الى الأبد باذن الله حية ذاكرة فضله الغزير وبره الكثير .

وقد كان الاستاذ رحمه الله عصامياً ارتقى الى ذروة المجد بثباته العجيب فذلل كل الصعوبات التي اعترضت طريق ارتقائه حتى وصل الى مالم يصل اليه واحد من العلماء فخدم بنفوذه الشخصي وسعة معارفه القضاء والدين والعلم والافتاء

ولو أردنا تسطير كل محاسن الفقيد لملأنا الصفحات الكثيرة وقضينا الايام في جمعها ولكن مثله لا يحتاج الى اظهار حسناته بعد ان ذاع ذكره في المشرقين واشتهر فضله في المغربين واعترف كل امرئ بما أوتيه من العلم

ولقد يجمل بنا بعد ماتقدم ان نثبت في هذا العدد تاريخ نشأته ومبدأ تعليمه مما أثبتته مجلة المنار الغراء بقلم الفقيد نفسه تغمده الله برحمته ورضوانه

(ثم نقلت عن مجلة المنار ماأثبتته عن الفقيد بقلمه)

وقالت مجلة المحيط الغراء التي تصدر في مصر لصاحبها عوض أفندي واصف القبطي المصري في عددها الثامن من سنتها الثالثة الصادر فى أول اكتوبر سنة ١٩٠٥ وقد صدرت الترجمة بصورة الفقيد

الراحل الخالد الذكر

المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقا

أجمع العقلاء من كل أمة في هذه الديار ان انتقال هذا الفقيد الكريم كان أعظم خسارة خسرتها الامة لاسلامية خصوصاً والمصرية عموماً في التاريخ الحديث ولا عجب في هذا فقد كان — رحمة الله عليه — أول عالم إسلامي اجترأ على ما يخالف اعتقاد الجمهور من وجوب المجاهرة بالحرية الفكرية ونبذ الخرافات والرجوع الى الصحيح من قواعد الدين ومجاراة الأمم المتمدنة الراقية في الاخذ باسباب الارتقاء ونحو هذا مما يعود بالنفع على جمهور المصريين من خاص ومن عام

وفي تاريخ حياته وحده وقيامه في سبيل الظهور مخترقاً غدة طبقات ونبوغه في وسط كله مصاعب وضيقات مايكفي للدلالة على عظمته وعلى انه وجد ذا استعداد ذاتي للظهور في ميدان الحياة بذلك المظهر العالي وذا قوة شخصية ممتازه كافية لخدمة ذاته وخدمة كثيرين غيره من اخوانه الناس .

ولد رحمه الله عام ١٢٥٨ هجرية من أبوين فقيرين في قرية صغيرة يقال لها (محلة نصر) وشب في أصغر الكتاتيب ثم دخل الجامع الاحمدي في طنطا فالجامع الازهر فأخذت مواهبه الشخصية في الظهور ونال بذكائه حظاً من العلم وافرا . ولما كان في سن الثلاثين ظهر في مصر السيد جمال الدين الافغاني فيلسوف الاسلام فأخذ عنه من المنطق والفلسفة ما زاد في نور عقله . ثم ساعدته مواهبه على التدريس في المدارس الاميرية وتحرير الوقائع المصرية حتى كان زمان الثورة العرابية فاتهم بانه أفتى بعزل توفيق باشا الخديو السابق ونفي مع المنفيين الى سوريا . ثم انتقل الى باريس وهناك اتفق مع ذلك الفيلسوف على انشاء جريدة دعياها العروة الوثقى وعفي عنه بعد ذلك فعاد وكله أفكار جديدة بما رآه في بلاد الغرب فعين مستشارا في محكمة الاستئناف ثم مفتياً للديار المصرية في سنة ١٣١٧ فكان فوق قيامه بهذا المنصب الخطير عاملا على انارة الاذهان بانتقاد التقاليد القديمة وتفسير الآيات القرآنية حسبما ترمي اليه ونحو ذلك مما قد نعود الى ذكره بعد . وظل منحطاً لاكرام العقلاء حتى دعاه ربه في ١١ يوليو الماضي فعم الاسف كل طبقات الامة المصرية واحتفل بتشييع جنازته احتفالا لم يسبق له مثيل . وقد نسب اليه انشاء هذه الابيات الشعرية ساعة احتضاره

(ثم ذكر الابيات التي ذكرتها اكثر الجرائد)

(وصدرت مجلة المفتاح التي يصدرها في القاهرة توفيق أفندي عزوز القبطي الجزء السابع الصادر في ١٥ يوليو سنة ١٩٠٥ بصورة الفقيد وقالت في مقالة في الانتخابات العمومية (ص٢٤٠) مانصه :

«هذا فقيد الشرق العظيم وامامه الاوحد وعلمه المفرد (المرحوم الشيخ محمد

عبـده) هو أحد هؤلاء الرجال العصاميين وفحول العلماء العاملين رقته الحكومة الى أعلى المناصب وأسمى الوظائف وراعت في ذلك درجة كفاءته ومعارفه الشخصية وانتدبته الأمة رئيساً لاكبر جمعية مليّة فيها وانتخبته في مجالسها النيابية والعمومية فاستفادت الامة والبلاد من علومه ومعارفه الواسعة وتمَّ على يده من الاصلاح في الشؤون الشرعية والعمرانية والاجتماعية في بضع سنوات قلائل مالا يمكن ان يتم على يد سواه في عدة أحوال واجيال

(ثم قالت في باب تاريخ الشهر (ص ٢٧٤)

(فقيد عظيم) ومن مفجعات هذا الشهر وفاة المرحوم المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورجل الشرق الوحيد وسنأتي على ترجمته ومبادئه العالية في الجزء الآتي للمفتاح اه

(ولم ينشر الترجمة في الجزء الثامن ولعله نشرها في جزء آخر وقد عرف اعتقاد الكاتب في الفقيد مما تقدم فلا حاجة الى الترجمة التي لا تخالف في فحواها سائر التراجم)

وقالت مجلة المقتطف الغراء التي يصدرها في مصر صاحباها الدكتور يعقوب افندي صروف والدكتور فارس أفندي نمر صاحبا جريدة المقطم في الجزء الثامن من المجلد الثلاثين الصادر في ٢٩ جمادى الاولى وقد صدرت الترجمة بصورة الفقيد

الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية

تمهيد

كأن المنايا تبتغي في خيارنا لها ترةً أو تهتدي بدليل

شهدنا قبيل كتابة هذه السطور مشهداً قلما يرى مثله في هذه العاصمة تتقدمه

كتيبة من فرسان البوليس وشرذمة من مشاته تسيران في صفين على جانبي الطريق ووراءهما نعش مجلل بشيلان الكشمير يحمله طلبة العلم في الجامع الازهر ووراءه قاضي مصر وشيخ الجامع الازهر والعلماء وقضاة المحاكم الشرعية ووراءهم خلق كثير من المشايخ والمجاورين ثم مستشارو محكمة الاستئناف الاهلية وقضاة المحاكم الابتدائية ورجال النيابة وكلهم بالاوشحة الرسمية ورجال المحاماة بطيالسهم السوداء ثم ناظر الحقانية وقائد جيش الاحتلال ومستشار الداخلية ووكيل الحقانية ووكيل حكومة السودان ومدير مصلحة الصحة واكابر ضباط الجيش المصري من الانكليز والمصريين وكبار موظفي دواوين الحكومة ووكيل محافظة مصر وحكمدارها ورئيس مجلس شورى القوانين واعضاؤه وفضلاء العاصمة وأدباؤها وأعيانها على اختلاف طبقاتهم وكثيرون من وجهاء الارياف . وشهد أهالي الاسكندرية مشهداً مثله في الصباح سار فيه نائب قائمقام الخديوي وسكرتير الوكالة البريطانية ووكلاء الداخلية والخارجية والمعارف العمومية وجمهور العلماء والوجهاء وهم يمثلون الحكومة المصرية والحكومة الانكليزية في مصر والاسكندرية والقطر المصري كله فان مفتي الديار المصرية العلامة المحقق الشيخ محمد عبده قضى وهو في الاسكندرية بداء اعيا الاطباء فحمل منها الى العاصمة واحتفلت الحكومة المصرية بتشييع جنازته احتفالا رسمياً قلما صار لاحد من أعاظم امرائها ووزرائها . ولقد عمّ الاسى عليه الديار المصرية وفقده أهل الاسلام في مشارق الارض ومغاربها واسف عليه غيرهم من الذين يودون الخير لهذه البلاد ونزع الضغائن المتولدة من اختلاف الاديان لما له من الايادي البيضاء والمساعي المشكورة في انارة الاذهان ودفع الوساوس فحق ان يقال فيه

عمت فواضله فعم مصابه ... فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار رنّة وزفير

وهو عصامي رقي الى هذه المنزلة بجده وتوقد ذهنه وحسن نظره في العواقب واقدامه على عظائم الامور. فانه جدَّ حتى اكتسب العلوم اللغوية والدينية وامتلك ناصية الانشاء ونبغ حتى صار من أكتب كتاب العصر ومن أعلم العلماء في العلوم

اللغوية والدينية وما جرى مجراها . ثم تعلم اللغة الفرنسوية لكي يطلع على العلوم العصرية والافكار الحديثة ولا سيما ما تعلق منها بالفلسفة الاجتماعية . وترجم كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في التعليم لكي يستعين بآرائه الفلسفية على اصلاح المدارس المصرية . وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يتهيب الكبراء والعظماء لمجرد ماهم فيه أو ما أدركوه من رفعة المقام فاستطاع ان يكون علماً يهتدي بنور علمه المحافظون الذين لا يروقهم الا ما جرى عليه المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم لانه كان ثقة فيهم . وعضداً قويا لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة . ومرشداً صادقاً للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها . وسيفاً صقيلا على أهل البدع الذين قيدوا أبناء المشرق بقيود تظلم العقل عن التبصر وتغل الايادي عن العمل . وملجأ أميناً للذين يودون نزع أسباب الشقاق التي أودت بطوائف المشرق وليس لها أصل راسخ بين أصول الدين ولا هي مما تقتضيه مطالب العمران

ثم إنه كان عالي الهمة شديد الغيرة يستسهل الصعاب ويذلل المشاق سعياً الى خير أمته وارتقائها فكنت تراه تارة مدرسا يعلم شبانها وتارة مؤلفاً يؤلف الكتب او يشرحها وينشرها لتنو براذهانها . وتارة مفسراً قواعد الدين تفسيرا يقبله العقل المستنير وتصلح به شؤون الامم وينطبق على مطالب الزمان . وتارة منظماً للمدارس المصرية القديمة حتى تجاري الحديثة في انتظامها وفي ما يعلم فيها من العلوم القديمة والحديثة . وتارة رئيساً للجمعيات الخيرية الساعية في اعانة الفقراء واصلاح شؤونهم وتعليم أبنائهم . وتارة مقداماً للذين يشيرون على الحكومة في مجلس شوراها بفعل ما يصلح القطر وينفع أهاليه . وتارة مباحثاً ومناقشاً لاقناع رفاقه في ذلك المجلس بالمشروعات النافعة للبلاد وأهلها وجمع كلمتهم على تأييد الحكومة وشد أزرها على الذين يعارضونها في مقاصدها إما لغرض في نفوسهم أو لان وجه النفع الذي تتوخاه لم ينجل لهم . وتارة مجادلا يدافع عن الدين بأدلة مأخوذة من علوم المتأخرين التي جدّت بعد عهد المتقدمين . وتارة مبيناً بالحجج القاطعة ان الدين لا يمنع الارتقاء والاخذ

بأسباب العمران بل يحث عليهما ومظهراً الشوائب والبدع التي دخلت فيه فاضرت أهله وهي ليست منه في شيء بل يتبرأ منها وينهى عنها . وتارة صانع خير وفاعل بر وجامع أموال لاغاثة المنكوبين بالنيران والاوبئة وغيرها من الرزايا يقصد المصابين بنفسه ويوزع عليهم الاموال بيده . وتارة متصدراً في الاندية العلمية والحفلات الادبية يبين مزايا العلم وفوائد التربية ويشرح الاسباب التي رقت أهالي أوربا وأوصلتهم الى ماوصلوا اليه من العزة والمنعة وينعش الافئدة بذكر ما كان عليه اسلاف الشرقيين وما يمكن ان يصيروا هم اليه اذا تعاونوا وتناصروا وأخذوا بأسباب الارتقاء . وتارة جالساً في مجالس الانس والصفاء يزيل الوحشة والجفاء من بين الوطنيين والاجانب ويؤلف بين الجماعات والمعاشر المختلفة في المبادىء والآراء والعادات . وتارة قارعاً باب ولاة الامور لاعانة طلبة العلم وبذل المال لاصلاح الجامع الازهر وما أشبه من الغايات الحميدة . وتارة جالساً في بيته وحوله جماعة كبيرة من تلامذته ومريديه وهو يطرفهم بالاحاديث المفيدة ويشرح لهم بعض ما عثر عليه حديثاً في كتب المتقدمين أو المتأخرين — كل ذلك بعد قيامه بحقوق وظيفة الافتاء وادارته لشؤونها وقضائه لمهامها على ما بها من المصاعب والمتاعب

وكتبه الى اصدقائه والذين يدعونه الى الحفلات العمومية ويمنعه انحراف صحته أو كثرة اشغاله عن اجابة طلبهم آية في البلاغة وحسن السبك حتى لقد يحار من يدعوه بين ان يمتع بمشاهدته أو ينال منه كتابا بخطه يحفظه تذكاراً له ويتلوه على الحضور فتسكرهم طلاوته . وكذلك تقاريظه للكتب فانها كانت تدعو الى ترويجها لثقة الناس بعلمه وبانه لا يكيل الكلام جزافاً

ولم تكن مشاغله الكثيرة لتقعده عن السعي في مصالح الناس فيقصده ذوو الحاجات وهو لا يذخر وسعاً في اغاثتهم بما في الامكان اذا تبين أنهم محقون في طلبهم . وكان مسموع الكلمة مقبول الشفاعة فكثر مريدوه على شدة المقاومة له من الذين كانوا يفارون منه

ولقد لقي كثيرين من أعاظم الرجال في ممالك أوربا وفي بلاد الشام وتونس

والجزائر وحادثا كبر فلاسفة العصر ووقف على آرائهم وأوقفهم على ما يجهلونه من أحوال الامم الشرقية فزاد اختباراً وحنكة . واستفاد من ملازمة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وقرأ عليه دروس الحكمة الشرقية والاصول والمنطق وجاراه في المجاهرة بما يعتقده صواباً ولو خالف فيه الجمهور

وكان في قلب بلاد المشرق بلاد الخوف والرهبة والاستبداد جريء الفؤاد حر الضمير يجاهر برأيه و يثبت عليه ولا يخشى بأس متسلط ولا يهاب صولة كبير. وقد جر عليه ثباته على رأيه وجرأته في نصرة الحق وقلة خوفه ورهبته أهوالاً كثيرة ومحناً عديدة ولكن لما أبدل الاستبداد بالدستور في هذا القطر أوصلته هذه المزايا الى ما وصل اليه من المقام والسطوة وصيرته في اعتبار الجمهور الخصم العنيد للاقوياء، والناصر الشديد للضعفاء ، والركن الوطيد للاحرار ، والعضد القوي للساعين في تنوير العقول والافكار

هذه بعض مزاياه واذا أضفنا اليها سعيه في سبيل الاصلاح وميله الى فريق المحافظين حتى يجاري فريق المتقدمين حكمنا ان البلاد الاسلامية فقدت بفقده عالماً من أكبر علمائها ومصلحاً من أعظم رجال الاصلاح بين أهليها حراً هماماً مقداماً قوّالا فعالا فمصابها به أعظم مصاب وخسارتها أكبر خسارة فارقها الى رحمة ربه ولسانه يلهج بما في نفسه فنظم هذه الابيات قبيل ان تدركه الوفاة

(ثم ذكر الابيات التي ذكرتها أكثر الجرائد)

ولسان عارفيه ومريديه وكل الذين انتفعوا بنصحه وارشاده أو تمتعوا بالنفع الذي نالته البلاد على يده ينشده قائلاً

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة   اثنى عليه السهل والاوعار
سلكت بك العرب السبيل الى الهدى   حتى اذا سبق الردى بك حاروا

وسنعود الى ذكر ترجمته بالتفصيل بعد ان نتمكن من جمع المواد اللازمة لها اه

(ثم نشرت هذه المجلة ترجمة له في جزئين من أجزاء هذه السنة)

وقالت مجلة المنار الاسلامية التي تصدر في مصر لصاحبها السيد محمد رشيد رضا الحسيني السوري (جامع هذا الكتاب) وذلك في الجزء العاشر من المجلد الثامن الصادر في ١٦ جمادى الاولى

مصاب الاسلام بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبر النفوس وطهارة الارواح وعلو الهمم مما يحول دون الموت لما مات أبدا ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم « إنا لله وانا إليه راجعون »

مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع ، والحكمة البالغة ، والحجة الناطقة ، والمعارف الكونية والالهية ، والعلوم الكسبية واللدنية ، مع البيان الساحر ، والأدب الباهر ، والبلاغة التي تمتلك العقول والقلوب ، والفصاحة التي تستهوي الاسماع والنفوس ،

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاخلاق القدسية ، والشمائل المحمدية ، والصدق في القول والفعل ، والاخلاص في السر والجهر ، والوفاء في القرب والبعد ، والسخاء في العسر واليسر ، والعفة في الشباب والكهولة ، والحلم عند الغيظ والمغاضبة ، والعفو مع القدرة على المؤاخذة ، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين ، والشهامة والترفع على المنافقين والمستكبرين ، واللين للحق وأهله ، والشدة على الباطل وجنده ، والشجاعة التي تهابها الأمراء والعظماء ، والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء ،

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاعمال النافعة ، والمشروعات الرافعة ، والمساعي الجديدة ، والوسائل المفيدة ، والاجتهاد في ترقية الامة ، والدفاع عن الملة ، والدعوة الى التوحيد والتأليف ، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب ، والتربية الصحيحة للمريدين ، والجمع بين علوم الدنيا والدين ، ومواساة البائسين والمعوزين ، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين ،

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الآمال البعيدة ، والمقاصد الحميدة ، التي كانت مطوية في ذلك الجرم الصغير ، الذى انطوى فيه العالم الكبير ، تلك الآمال التي تتضاءل دونها همم الملوك والأمراء ، و تتصاغر أمامها نفوس الزعماء والاغنياء ، الذين هم عن استعمال مواهبهم مصروفون ، وعن الثقة بربهم محجوبون ، وعن سنته في خلقه غافلون ،

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس ، من جميع الطوائف والاجناس ، فعلم علماء الدين ، أنهم فقدوا ركنهم الركين ، الذي تحمل عنهم رد الشبهات ، وغير ذلك من فروض الكفايات ، وعلماء الدنيا ، أنهم خسروا ركنهم الاقوى ، الذي يدفع عنهم مطاعن المتعصبين ، وتكفير الجامدين ، ويثبت ان الاسلام جمع بين المصلحتين ، ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين ، وشعر طلاب الاصلاح بأنهم فقدوا امامهم العظيم ، الذى كملت فيه صفات الزعيم ، وأحس الفقراء والمساكين ، بأنهم رزءوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين ، ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة ، شدة وقع هذه الطامة ، وانهم نكبوا بصاحب الرأي الثاقب ، والعمل النافع ، مربي الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية ، صاحب اليد البيضاء في الاوقاف الاسلامية ، المضطلع باصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، الناهض بأعباء الجمعية الخيرية ، الموفق بين الحكومة والرعية ، واعترف أهل الملل بأن مصابه مصاب الانسانية ، والخسارة الكبرى على العلم والمدنية ،

مرض هذا البر الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء و يبحث عن مساكن القواعد من النساء ، ليواسيهم بالبر ، من وراء الستر ، وقال لي ان فلانا الغريب قد انقطع عن السفر بدين عليه ، واني مستغن الآن عن مئة جنيه فان كانت كافية ارسلتها اليه ، ولكنه غاب عن الوجود ، قبل ان يقضي لبانته من البر والجود ،

مرض هذا المصلح العظيم فاضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت الدار التي يمرض فيها كعبة العائدين من العلماء والامراء ، والوزراء والادباء ، والفضلاء والفقراء والأغنياء ، وكان البرق يناجيها كل يوم مع البريد ، بالنيابة عن العاجز

والبعيد ، سائلين عن صحته ، أو مهنئين بما يقال عن راحته ، فكان يحمد الله ان جعل الدهماء من أمته يعرفون لخادمها خدمته ، ويشكرون للعامل لها عمله ، ويقول لئن شفيت لاجهدن النفس في خدمتهم أجمعين ، حتى أكون حرضا أو أكون من الهالكين ،

مرض الاستاذ الامام ، فلم يعقه المرض عن خدمة المسلمين والاسلام ، واحتضر الاستاذ الامام ، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام ، ومات الاستاذ الامام ، وهو يلتهب غيرة على المسلمين والاسلام ،

نقول مات الاستاذ الامام فنبدئ القول ونعيده ننصر الحس ، ونكابر النفس ، فقد كادت تحسب ان موته رؤيا منام ، وأضغاث أحلام ، وما هو الا الحق اليقين ، ومصير الاولين والآخرين ، « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون * » مات أستاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء فلا تفتنا بعده ، ولا تحرمنا أجره ، واغفر اللهم لنا وله ،

نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه ، وما آثره وعوارفه ، فلقد ربى أرواحا ، واصلح إصلاحا ، وألف كتبا ، وترك علما وأدبا ، وأمات سننا سيئة له اجر اماتتها ، وأحيا سننا حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها ، وعلمنا كيف نفهم القرآن ، ونقيم شرائع الاسلام ، مع توخي نفع الناس أجمعين ، والاخلاص لله رب العالمين ،

مات أستاذنا وامامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر وعلمنا كيف نتعزى عنه حتى في مرض موته ، فقد كان هجيراه في تلك الكربات والسكرات ، كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات ، (الله أكبر) فلئن كان بفضل الله كبيرا فينا فالله أكبر ، ولئن كان مرضه وموته كبيرا علينا فالله أكبر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم «ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم»

لبى دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى فنعاه البرق بآلاته الناطقة والكاتبة الى العاصمة

وغيرهامن مدن القطر فاضطربت لنعيه القلوب وذرفت العيون واسترجعت الألسنة وحوقلت وطفق الناس يعزي بعضهم بعضا متفقين على ان المصاب به عام ، وأشد وقعه على المسلمين والاسلام ، وما كنت تسمع من القريب والغريب ، والبغيض والحبيب ، والوطني والاجنبي ، والرشيد والغوي ، والعالم والجاهل ، والمفضول والفاضل ، الا كلمة « خسارة لاتعوض » أو كلمة « عوض الله الامة به خيرا » أو قول الشاعر

وما كان قيسا رزءه رزء واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

أوقول الآخر

ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسميا بتشييع جنازته فى الاسكندرية ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة ففعلت وشاركتها الأمة ونزلاؤها والمحتلون بهذا التشييع الذي لم يسبق مثله لغيره حتى كان يخيل للمشيع انه لم يبق أحد من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليودع هذا الامام الوداع الاخير وقد صلي عليه في الجامع الأزهر ودفن في قرافة المجاورين تغمده الله برحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه

ولما كان المنار هو الداعي الى الانتفاع بهذا الامام المصلح في حياته ، فجدير به ان يرشد الى الاستفادة بسيرته بعد مماته ، فلا نطيل في الرثاء والتأبين وان كان بالحق ، ولكننا نقص على القراء ملخص سيرته مع التزام الصدق ، ليظهر لهم كيف تعلم وتربى حتى صار اماما حكيما ، وماذا عمل حتى صار مصلحا عظيما ، وسنضع له تاريخا مطولا نفصل فيه ماأجملنا ، ونشرح فيه مالخصنا ، ونودعه كثيرا من رسائله ومكاتباته ، وخطبه ومقالاته ، وما كتب به اليه بعض العلماء والعظماء ، وما قاله فيه نوابغ الكتاب والشعراء ، وما ابنته به الجرائد ، ومارثي به من غرر القصائد ، ونسأل الله تعالى ان يحسن عزائنا وعزاء الامة فيه ، ويوفقنا في مصابنا لما يحبه سبحانه ويرضيه ، اه

(وقد نشرنا له ترجمة مطولة في عدة أجزاء من المنار وهذا الجزء الثالث من الكتاب الموعود

وقالت مجلة الهلال الغراء التي تصدرها في القاهرة صاحبها جرجي أفندي زيدان المسيحي السوري وذلك في الجزء العاشر من المجلد الثامن عشر وقد صدر الترجمة بصورة الفقيد

أشهر الحوادث وأعظم الرجال

الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصريه

ولد سنة ١٢٥٨ وتوفي سنة ١٣٢٣ﻫ

أصيب الاسلام في أثناء الشهر الماضي بوفاة ركن من أركانه، ورجل من أعظم رجاله، أصيب بموت الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية فابنته الجرائد، ورثاه الشعراء، وبكاه العقلاء، ولا يزالون يبكونه ويرثونه وستحتفل الامة المصرية في يوم الاربعين من وفاته الموافق ١٨ اغسطس الجاري مثل احتفال الشعراء بفقيدهم البارودي منذ بضعة أشهر وقد عينوا لتلك الحفلة سبعة أشخاص يسرد كل منهم شيئا يتعلق به : فالأول يتلو تاريخ حياته و بعض آثاره في الجمعية الخيرية الاسلامية والثاني يذكر طرفاً من اخلاقه ومزاياه والثالث يبين شيئا من مركزه في الهيأة الاجتماعيــة وأعماله في مجلس شورى القوانين . والرابع يشرح مآثره في الازهر وفضله على اللغة العربية واصلاحاته الدينية . والثلاثة الباقون يؤبنونه بالقصائد الشعرية . فنقتصر في مايلي على فذلكة من تاريخ حياته وأعماله ونبسط الكلام في أسباب عظمته وحقيقة منزلته من العمران البشري على العموم والعالم الاسلامي على الخصوص

ترجمة حياته

(نشأته الأولى) نشأ الفقيد في قرية صغيرة (محلة نصر) من أبوين فقيرين فلم يمنعه ذلك من الارتقاء بجده واستعداده حتى بلغ منصب الافتاء وأصبح علماً

في الشرق وقطباً من أقطاب الدهر سينقش اسمه على صفحات الايام و يبقى ذكره ما بقي الاسلام

ولد عام ١٢٥٨ ه وأبوه يتعاطى الفلاحة وقد ادخل فيها أولاده الا محمداً لانه توسم فيه الذكاء وأراد ان يجعله من الفقهاء فادخله كتاب القرية تردد اليه حيناً ثم أرسله الى الجامع الاحمدي في طنطا أقام فيه ثلاث سنوات ثم نقله الى الجامع الأزهر فقضى فيه عامين لم يستفد فيهما شيئاوهو ينسب ذلك بالاكثر الى فساد طريقة التعليم

ثم انتبه لنفسه ولم يربدا من تلقي العلم فاستنبط لنفسه أسلوباً في المطالعة واعمل فكرته في تفهم مايقرأه فاستلذّ العلم واستغرق فى طلبه فاحرز منه جانبا كبيراً على ما يستطاع ادراكه بتلك الطريقة

واتفق ان ورد على مصر سنة ١٢٨٨ه (١٨٧١م) السيد جمال الدين الافغاني فيلسوف الاسلام وصاحب الترجمة لا يزال في الازهر وقد أدرك الثلاثين من عمره وتولى جمال الدين تعليم المنطق والفلسفة فانخرط الفقيد فى سلك تلامذته مع جماعة من نوابغ المصريين تخرجوا على جمال الدين فخرجوا لا يشق لهم غبار كان الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا أعينهم واذاهم في ظلمة وقدجاءهم النورفاقتبسوا منه فضلاً عن العلم والفلسفة روحاً حية ارتهم حالهم كما هي اذ تمزقت عن عقولهم حجب الاوهام فنشطوا للعمل فى الكتابة فأنشأوا الفصول الادبية والحكمية والدينية . وكان صاحب الترجمة الصق الجميع به وأقربهم الى طبعه وأقدرهم على مباراته . فلما قضي على جمال الدين بالابعاد من هذه الديار قال يوم وداعه لبعض خاصته « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً »

وتقلب الفقيد في بعض المناصب العلمية بين تدريس في المدارس الاميرية، وتحرير في الوقائع المصرية ، وكتابة في الدوائر الرسمية ، حتى كانت الحوادث العرابية، فحمله أصحابها على السير معهم وهو ينصح لهم أن لا يفعلوا و ينذرهم بسوء العاقبة . ولما استفحل أمر العرابيين اختلط الحابل بالنابل وسيق الناس بتيار الثورة وهم لا يعلمون مصيرهم . فدخل الانكليز مصر والشيخ محمد عبده في جملة الذين

قبض عليهم وحوكموا فحكم عليهم بالنفي لانه أفتى بعزل توفيق باشا الخديوي السابق . فاختار الاقامة في سوريا فرحب به السوريون واعجبوا بعلمه وفضله فأقام هناك ست سنوات فاغتنموا اقامته بينهم وعهدوا اليه بالتدريس في بعض مدارسهم

وانتقل من سوريا الى باريس فالتقى فيها باستاذه وصديقه جمال الدين وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك فانشآ جريدة العروة الوثقى وكتابتها منوطة بالشيخ فكانت لها رنة شديدة في العالم الاسلامي ولكنها لم تعش طويلا . وتمكن الشيخ في اثناء اقامته بباريس من الاطلاع على أحوال التمدن الحديث وقرأ اللغة الفرنساوية على نفسه حتى أصبح قادراً على المطالعة فيها ثم سعى بعضهم في اصدار العفو عنه فعاد الى مصر فولاه الخديوي السابق القضاء وظهرت مناقبه ومواهبه فعين مستشارا في محكمة الاستئناف وسمي عضوا في مجلس ادارة الازهر وعين أخيراً مفتيا للديار المصرية سنة ١٣١٧ ﻫ ومازال في هذا المنصب حتى توفاه الله في ١١ يوليو الماضي ولم يعقب ذكرا يبقي به اسمه ولكنه خلف آثارا يخلد بها ذكره

مناقبه وأعماله

كان ربع القامة أسمر اللون قوي البنية حاد النظر فصيح اللسان قوي العارضة متوقد الفؤاد بليغ العبارة حاضر الذهن سريع الخاطر قوي الحافظة . وقد ساعده ذلك على احراز ما أحرزه من العلوم الكثيرة الدينية والعقلية والفلسفية والمنطقية والطبيعية وتلقى اللغة الفرنساوية وهو في حدود الكهولة في بضعة أشهر . وكان شديد الغيرة على وطنه حريصاً على رفع شأن ملته وذاع ذلك عنه في العالم الاسلامي فكاتبهُ المسلمون من أربعة أقطار المسكونة يستفتونه ويستفيدون من علمه وهو لا يرد طالبا ولا يقصر في واجب

ناهيك بما عهد اليه من المشروعات الوطنية فقد كان القوم لا يقدمون على عمل كبير الاّ رأسوه عليه أو استشاروه فيه . فرأس الجمعية الخيرية الاسلامية وألف شركة طبع الكتب العربية وشارك مجلس شورى القوانين في مباحثه وآخر ماعهد اليه تنظيم مدرسة يتخرج فيها قضاة الشريعة ومحاموها . فضلا عما

اشتغل فيه من التأليف والتصنيف وما كان يستشار فيه من الامور الهامة في القضاء أو الادارة بالمصالح العامة والخاصة . وبالجملة فقد كان كنز فوائد للقريب والبعيد بين افتاء ومشورة واحسان وكتابة ومداولة ووعظ وخطابة ومباحثة ومناظرة واستنهاض وتحريض وتنشيط وغير ذلك

اصلاح الاسلام

على ان عظمته الحقيقية لا تتوقف على ما تقدم من أعماله الخيرية أو العلمية أو القضائيه وانما هي تقوم بمشروعه الاصلاحي الذي لا يتصدى لمثله الا افراد لا يقوم منهم في الامة الواحدة مهما طال عمرها الا بضعة قليلة . وهذا ما أردنا بسطه على الخصوص في هذه العجالة

﴿ العظمة الحقيقية ﴾ تختلف العظمة شكلا وأثرا باختلاف السبيل الذي يسعى صاحبها فيه أو الغرض الذي يرمي اليه . فمنهم العظيم في السياسة أو الحرب أو العلم أو الدين ومن العظماء من يتوفق الى اتمام عمله ومنهم من يرجع بصفقة الخاسر من نصف الطريق أو ربعه أو عشره . على ان أكثر العظماء انما يأتون العظائم لمجرد الرغبة في الشهرة الواسعة ويغلب ان يكون ذلك في رجال الحرب . وهؤلاء تنحصر ثمار أعمالهم في أنفسهم أو أهلهم أو أمتهم على انهم لا يستطيعون نفعاً لانفسهم الا بضرر الآخرين — اعتبر ذلك في سير كبار الفاتحين كالاسكندر وبونابرت وغيرهما فكم سفكوا في سبيل عظمتهم من الدماء أو ارتكبوا من المحرمات وكان النفع عائدا على أنفسهم أو أمتهم ولم يطل مكثه فيهم الا قليلا

واما رجال العلم فعظمتهم تقوم بما ينيرون به الاذهان من الاصول العلمية أو يكتشفونه من أسباب الامراض والوقاية منها أو يضعونه من النظامات والقوانين أو غير ذلك . ونفعهم يشتمل القريب والبعيد الرفيع والوضيع ولا يسفكون في سبيل نشره دماً ولا يرتكبون محرماً وهو باق ما بقي الانسان وينمو بنموّ المدنية

واما رجال الدين ومن جرى مجراهم من واضعي الشرائع والاحكام فتأثيرهم أوسع دائرة وأعم شمولا لانه يتناول البشر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم رجالا ونساء وكبارا وصغارا وعليهم يتوقف نظام الاجتماع وآدابه وأخلاق الناس وعاداتهم

وعلائقهم بعضهم ببعض وعظماء الدين فئتان الفئة الاولى واضعوا الشرائع كالانبياء أومن في معناهم ممن ينسبون أعمالهم الى ماوراء الطبيعة . والفئة الثانية المصلحون الذين يصلحون الدين بعد فساده — لان الدين اذامرَّ عليه بضعة قرون فسد وتغير شكله وانقلب وضعه تبعا لمطامع الذين يتولون شؤونه فتفسد الامة وينحط شأنها حتى يقوم من يصلحه ويعيده الى رونقه . ووضع الاديان عمل شاق قل من يفوز به والاصلاح الديني لايقل مشقة عنه . وربما كان ادخال دين جديد أيسر من اصلاح دين قديم . فالديانة المسيحية لم تكلف البشر في قيامها من الدماء أكثر مما كلفتهم في اصلاحها . على ان مايضيعه رجال الدين في نشره من الدماء يعوضونه بسرعة انتشاره اعتبر ذلك في الفرق بين النصرانية والاسلام في قيامهما . ويقال نحو ذلك في الاصلاح فقد طلبه وسعى فيه غير واحد من رجال النصرانية فلم يتوفق منهم الى اصلاح كبير غير لوثير لان أهل السياسة نصروه ولا بد من استعداد الاذهان لقبول الاصلاح وتهيئة الاسباب الاخرى . فكم نهض من المصلحين بالسيف فغلبوا على أمورهم وذهب سعيهم عبثا . وأقربهم عهدا منا صاحب مذهب الوهابية في نجد فقد استفحل أمره في أوائل القرن الماضي وأراد في الاسلام نحو ما أراده لوثير في النصرانية فلم يتوفق الى غرضه لان الجنود المصرية غلبته وفلت عزيمته . اما المصلحون بالموعظة الحسنة والتعليم فعملهم بطيء ولكنه أرسخ في الاذهان واصبر على كوارث الحدثان — والشيخ محمد عبده واحد منهم

﴿هو وجمال الدين﴾ نشأ الشيخ المفتي نير البصيرة حر الضمير وربي في الاسلام وتعلم علومه فشب غيورا عليه ثم اطلع على علوم الامم الراقية من أهل هذا التمدن ودرس تاريخ الاجتماع ونواميس العمران فرأى الاسلام في حاجة الى نهضة ترفع شأنه وتجمع كلمته . واتفق اجتماعه بالسيد جمال الدين الافغاني فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة المشرقية وكان جمال الدين غيورا على الاسلام راغبا في جمع كلمته ورفع شأنه فتوافقا في الغاية ولكنهما اختلفا في الوسيلة . لان جمال الدين سعى في ذلك من طريق السياسة فأراد جمع شتات المسلمين في أربعة أقطار العالم تحت ظل دولة اسلامية واحدة وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع

عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسباً وانما جعل همه السعي الى تلك الغاية فلم يتوفق الى غرضه لاسباب عمرانية طبيعية لامحل لذكرها . وكان الشيخ محمد عبده رفيقه في كثير من مساعيه واطلع على دخائل أموره وعرف أسباب حبوطه فعلم ان جمع كلمة المسلمين ورفع شأنهم من طريق السياسة لا يتيسر الوصول اليه فسعى فيه من طريق العلم . فجعل همه رفع منار الاسلام وجمع كلمة المسلمين بالتعليم والتهذيب وتقريبهم من أسباب المدنية الجديدة ليستطيعوا مجاراة الامم الراقية في هذا العصر . ورأى ذلك لا يتأتى الا بتنقية الدين مما اعتوره من الشوائب التي طرأت عليه بتوالي العصور وتغالب الدول واختلاف أغراض أصحابها وأئمتها كما أصاب النصرانية في القرون المتوسطة اذ تمسك الناس بالعرض وتركوا الجوهر واستغرقوا في الاوهام ونبذوا الحقائق . والسبيل الوحيد لمغالبة الاوهام والخرافات انما هو العلم الصحيح على ما بلغ اليه في هذا العهد . وعلم الفقيد رحمه الله ان محور العلوم الاسلامية اليوم مصر ومركز العلم بمصر أو في العالم الاسلامي كافة الجامع الازهر فرأى انه اذا أصلح الازهر فقد أصلح الاسلام فسعى جهده في ذلك فاعترضه اناس من أهل المراتب يفضلون بقاء القديم على قدمه واستنصروا العامة عليه وغرسوا في أذهانهم ان المفتي ذاهب بالمسلمين الى مهاوي الضلال والبدع . فلم يهمه قولهم لعلمه ان ذلك نصيب أمثاله من قديم الزمان — على انه لم ينجح في اصلاح الازهر الا قليلا ولكنه وضع الاساس ولا بد من رجوع الامة الى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون الفضل له في تأسيسها

على ان الجانب الاعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم يرون رأيه في اصلاح الدين ورجاله . وربما سبقه كثيرون منهم الى الشعور بحاجة الاسلام الى ذلك ولا سيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية ولكنهم لم يجسروا على التصريح بافكارهم في غير المجتمعات الخصوصية لئلا ينسبهم الناس الى المروق من الدين — فلما جاهر محمد عبده برأيه وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بألسنتهم وأقلامهم . فحاجة الاسلام الى الاصلاح ليس هو أول من انتبه اليها ولكنه أول من جاهر بها كما ان لوثير المصلح المسيحي ليس أول من انتبه لحاجة النصرانية الى

الاصلاح ولكنه أول من جاهد في سبيلها وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته واما مصلح الاسلام فكانت السياسة ضده وانما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع في الافتاء

﴿الاسلام والمدنية﴾ فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة الاسلام الى الاصلاح انقسم المسلمون الى فئتين فئة ترى بقاء القديم على قدمه وهم حزب المحافظين وفئة ترى حل القيود القديمة واطلاق حرية الفكر والرجوع الى الصحيح من قواعد الدين ونبذ ماخالطه من الاعتقادات الدخيلة وكان رحمه الله زعيم هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه و بكل جارحة من جوارحه . وكانت مساعيه من هذا القبيل ترمي الى غرضين رئيسيين : الأول تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه والثاني تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علمياً وصناعيا وتجاريا وسياسيا. فاهل العصبية الاسلامية يرون هذا التقريب مغايرا لما يرجونه من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية لان مجاراة أهل التمدن الحديث بأسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام على زعمهم و يبعث على تشتت عناصره فيستحيل جمعها في ظل دولة واحدة . ولكن الشيخ المفتي كان يرى ذلك الاجتماع السياسي مستحيلا في هذه الحال فلم يشأ ان يضيع وقته سدى كما أضاعه استاذه وصديقه جمال الدين وان يخسر فائدة تقرب المسلمين من أسباب هذا التمدن فسعي في ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا والموقوذة ولبس القبعة ونحو ذلك مما يقرب المسلمين من الامم الأخرى و يسهل أسباب التجارة

﴿تنقية الدين﴾ واما تنقية الدين الاسلامي من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها انه أطلق لفكره الحرية في تفسير القرآن ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التي يحرم الائمة تبديل شيء منها . فرأى ان يحل نفسه من هذه القيود و يفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر فيجعل أقواله وأراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ولنواميس العمران على ما بلغ اليه هذا العلم الى الآن مع مطابقته لاحكام العقل وأصول الدين كما فعل

النصارى فى تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديدة . وهو أوعر مسلكا فى الاسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه . والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم فيعلقون على تفسيره أهمية كبرى لانه مرجع الفقه وغيره من الاحكام الشرعية والسياسية ولذلك رأي أهل السنة تقييده باقوال الأئمة الاربعة وخالفهم الشيعة باستبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً فلايرون بأساً في العدول عن تفسير الى آخر بشروط يشترطونها في مفسريهم وهم يعرفون عندهم بالأئمة المجتهدين

﴿ التفسير ﴾ وقد توالى على تفسير القرآن أحوال تختلف باختلاف العصور من أول الاسلام الى الآن ترجع الى اربعة أعصر — الأول العصر الشفاهي وهو ينحصر في أيام النبي وأصحابه فقد كانوا عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لانها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها قيلت في أحوال كانت القرائن تسهل فهمها واذا أشكل عليهم شيء منها سألوا النبي فيفسره لهم . وكان التفسير مختصرا بسيطاً لسذاجة الدولة الاسلامية يومئذ

ثانيا العصر التقليدي : ونريد به عصر التابعين أو حواليه وكانت الدولة الاسلامية قد أخذت في النمو والارتقاء فاحتاجوا الى التوسع في التفسير وكان أكثرهم أميين فاذا أعجزهم تفسير بعض الآيات سألوا عنها من أسلم من أهل الكتاب. ولاسيما اليهود المقيمين في اليمن وكانوا قد أسلموا وظلوا على ما كان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاهاً وكتابة مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية

ثالثا العصر الفلسفي المنطقي : ونريد به تدوين التفسير وضبطه بالقياس الفلسفي والحكم المنطقي بعد ان اختلط المسلمون باهل العلم القديم في الشام والعراق وفارس واطلعوا على علوم القدماء وفلسفة اليونان والهند ونقلوا ذلك الى لسانهم واستخرجوا علم منه الكلام . وكان العرب قد وضعوا العلوم اللسانية وضبطوا معاني الالفاظ وأساليب التعبير فنظروا في التفاسير السابقة نظر الناقد ومحصوها بالقياس العقلي بالاعتماد على قواعد المنطق بما تقتضيه الفلسفة اليونانية القديمة على نحو ما فعله لاهوتيو النصارى قبل ذلك

رابعاً العصر العلمي : الذى نحن فيه وهو عصر الفلسفة الجديدة المبنية على العلم الطبيعي الثابت بالمشاهدة والاختبار ويمتاز عن العصر السابق باطلاق حرية الفكر من قيود التقليد القديمة التي غلت ألسنة أسلافنا وأقلامهم وأوقفت مجاري التمدن أجيالاً متطاولة . فالشيخ المفتي رحمه الله أراد ان ينقل التفسير الى روح هـذا العصر فيفسر القرآن بما يطابق أحكام العـقل ويحل الاسلام من قيود التقليد . فسار في هذا الطريق شوطاً بعيداً فالقى على طلبة الازهر خطباً كثيرة في التفسير نشرت في مجلة المنار وطبع بعضها على حدة وكان لها تأثير حسن في نفوس العقلاء ولو مد الله في أجله لأتم هـذا العمل ولكنه قضي آسفاً خائفاً ولسان حاله يردد هذين البيتين — وقد قيل انهما من قصيدة نظمها في أثناء مرضه وهما:

ولست أبالي ان يقال محمدٌ أبلّ أو اكتظّت عليه المآتمُ
ولكن ديناً قد أردت صلاحهُ أحاذر ان تقضي عليـه العمائمُ

على انه خلف جماعة من تلامذته ومريديه أكثرهم من أهل العلم وأرباب الاقلام وفيهم نخبة كتاب المسلمين وشعرائهم فى هذا العصر . وأكثرهم مجاهرة بنصرته واذاعة لآرائه رصيفنا السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي

فالشيخ محمد عبده زعيم نهضة اصلاحية لاخوف منها على الدماء أو الارواح وأكثر نهضات الامم في سبيل اصلاحها لاتخلو من اهراق الدماء ـ فهو رجل عظيم يجدر بالمسلمين ان يبكوه وان يقتفوا آثاره فى التوفيق بين الاسـلام والمدينة الحاضرة وتنقيته مما ألمّ به بتوالي الازمان وذلك ميسور لمن اطلق فكره من قيود التقليد واسترشد بما يهديه اليه العقل الصحيح بالاسناد الى العـلم . على اننا نرجو ان لا تعدم هـذه النهضة من يخلف الامام الفقيد فى الانتصار لها والعمل بها والله على كل شيء قدير

٤

اقوال الجرائد العربية

في تونس

قالت جريدة الحاضرة الغراء التي يصدرها في مدينة تونس صاحبها السيد على بوشوشه وبلغنا ان التأبين بقلم الكاتب المفضال سيدي محمد بن الخوجه الشهير مؤلف الرزنامة التونسية

مات ولم يمت

نعت أخبار الاسكندرية وفاة الامام مفتي الاسلام وعلامة الانام نادرة الدهر الاستاذ الكبير والنقادة الشهير نسيج وحده مولانا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله . كنا على وجل الاشفاق من أخبار صحته التي أخذت في الانحطاط من نحو أربعة أشهر فارطة واضطرته للانتقال من القاهرة للاسكندرية بنية السفر لتغيير الهواء خارج القطر المصري فكنا نستطلع أحواله آنا فآنا ونجدد معه عهود المودة الوثيقة ونستمد من أنوار علومه على بعد الدار فكان الرشيد المرشد لمن قرب أو نأى وآخر العهد به ورود مكتوب منه على أحد أصحابنا ممن لهم معه علاقة علمية ورابطة وداد

سمعنا منه انه ولد رحمه الله في حجة ١٢٦٦ وذلك بمحلة نصر من أعمال البحيرة . ودخل الازهر الشريف لتلقي العلوم متبعا للمذهب المالكي الزكي فأخذ العلم عن اكابر الشيوخ مثل شيخ الاسلام عليش وكان يعده أنبغ تلامذته ومثل الاستاذ الشيخ حسن الطويل انبغ أهل عصره والشيخ البسيوني اللذين كانا يشهدان له بسرعة البديهة وتوقد الخاطر وظل فقيد الاسلام يتفقه ويتعلم بالازهر الى ان وفد على القاهرة أواخر سنة ١٢٨٦ المرحوم فيلسوف الاسلام السيد جمال الدين الافغاني وانتصب للتدريس بالازهر (١) فلازمه الفقيد ملازمة الظل وكان يقول له

(١) الصواب خارج الازهر

(ان الذكاء يتوقد في عينيك والشهرة مرسومة في جبينك) وهو الذي كمل ترقية مواهبه الفطرية ولما تخرج عليه في علوم المعقول أخذت النهضة الادبية العصرية بمصر في الظهور أواخر دولة اسماعيل باشا وكان الوزير الخطير المصلح رياض باشا من أعظم المساعدين لذلك فعين الفقيد مدرسا للعربية بمدرسة الالسن فجمع بينها وبين التدريس العلمي بالجامع الازهر لكن تلك النهضة لم ترق في عين الخديوي الجبار فعزل رياض باشا من الوزارة وأبعد السيد جمال الدين عن مصر وحكم برجوع الفقيد الى مسقط رأسه فمكث بمحلته الى ان عاد رياض باشا للوزارة على عهد الخديوي توفيق باشا وكانت فاتحة وزارته تعيين الشيخ محمد عبده محررا للوقائع المصرية التي هي الجريدة الرسمية بمصر ومن ذلك العهد أي من سنة ١٢٩٧ أخذ أمره في الاشتهار، وفضله في الانتشار، فانشأ بالوقائع المصرية قسمها الادبي الذي كان له في ذلك العهد ذكر ينقل وحديث يسمع بين حملة الاقلام فكان أبلغ البلغاء اذا كتب، وأفصح الفصحاء اذا خطب، وكان أقوى العلماء والادباء بيانا، وأجودهم بالحكمة لسانا، وأوسعهم في معاريض الكلام باعا، وأوفرهم في مفاهيم العلوم اطلاعا، وأبعدهم مرمى، وأسدهم سهما، وكان عظيم الهمة كبير النفس يغالب كرات الزمان بثبات عز عن النظير ويستصغر الكبائر ويستسهل المصاعب ويستهين بكل شيء اعترضه في مسيره ومما يؤثر عنه في هذا المعنى قوله « انني لا أخشى شيئا سوى الموت لانه يقطع علي خط السير » وبالجملة فان الشيخ محمد عبده كان رجلا « والرجال قليل»

عند ظهور الحوادث العرابية بمصر اثناء سنة ١٢٩٩ كان للفقيد يد عاملة في حركة الافكار بما كان ينشره بالجرائد والمجلات وكان يومئذ رحمه الله رئيسا على عموم المطبوعات فعلت منزلته حتى قيل ان العرابيين كانوا لا يبرمون أمرا دون استشارته ولدينا في الحوادث العرابية رسالة من انشائه كنا أخذناها منه عند زيارته الاولى لتونس لكن نعلم علم اليقين ان المرحوم كان ينكر كثيرا من أعمال العرابيين ولما احتل الانكليز وادي النيل قبضوا على الفقيد في جملة الرؤساء المقبوض عليهم وأودعوه السجن الى أن حوكم في ذي القعدة ١٢٩٩ وكان وكيله المستر برودلي

المحامي المشهور الذي كان له ذكر بتونس على أول الاحتلال الفرنسوي فقضي عليه بالابعاد مدة ثلاث سنوات مع منعه عن الرجوع لمصر بدون اذن حكومتها ومما نقموه عليه يومئذ ماقيل من انه أفتى بخلع الخديوي توفيق باشا

بعد الحكم عليه استوطن الفقيد ديار الشام حيث انتصب للتدريس بين الناس فالتف حوله أهل الافكار السامية وأخذ عنه خلق كثير وانتفعوا بعلمه وأجلوا مقامه ثم في حدود سنة ١٣٠٣ التحق بالسيد جمال الدين الافغاني نزيل باريس وأصدرا هنالك جريدة العروة الوثقى المشهورة التي لم يزل صداها باسماع كتاب العالم الاسلامي قاطبة وفي تلك الاثناء تعلم وأتقن اللسان الفرنسوي

وفي سنة ١٣٠٥ عفا عنه الخديوي توفيق باشا ورخص له بالرجوع لوطنه وما استقر بمصر حتى سمته دولته قاضيا بمحكمة بنها ومنها انتقل لمحكمة الزقازيق فمحكمة مصر القاهرة

وفي سنة ١٣٠٨ تعين مستشارا بمجلس الاستئناف و بعد سبع سنوات ارتقى لخطة مفتي الديار المصرية المنحلة عن الاستاذ العلامة الشيخ حسونه النواوي وظل متربعا على منصتها العالية الى أن ادركته المنون

هذا وللشيخ محمد عبده آثار علمية مذكورة، وفضائل مأثورة، منها ما وقفنا عليه كتفسيره للقرآن الشريف ورسائله العديدة في تطبيق العلم على الدين وردوده على الدهريين وزده على الوزير هانوتو الذي تهجم على الاسلام وتآليف أخرى تفوت الحصر ربما نأتي على ذكرها في فرصة أخرى ومن حسناته مساعدته لمجلة المنار التي لم ينسج الناسجون على مثلها في الازمان الغابرة والحاضرة وكان الفقيد رحمه الله عليما بدرجته و بمقدار خدمته للاسلام فكان يردد على فراش موته عبارات الاسف عن عدم بلوغه نهاية المشروع السامي الذي اختطه لنفسه في خدمة وإصلاح الأمة الاسلامية وقد نظم في المعنى قصيدة قبيل وفاته ننقل منها الابيات الآتية

﴿ثم بعد ان ذكرت الابيات قالت﴾

ويقال إن من آخر كلماته أيام مرضه قوله « مادخلت السياسة في شيء الا

أفسدته » وكأنه اشار رحمه الله بذلك لحادثته الاخيرة مع سمو خديوي مصر

حل به الاجل المحتوم وهو على عقيدة حب الخير للاسلام والمسلمين فهو الفقيد الذي يرثيه العلم ، وتبكيه الشورى، وتتوجع عليه الفتوى، وتندبه جمعيات البر، ويتحسر عليه الازهر، وفى الحقيقة ان اسمه لم يمت وانما الميت هو شبحه الذي مات بموته خلق كثير فقد كان نعمه الله اشفق أب لليتامى، وأحن أخ للبؤساء والمساكين وكم من يد كانت تمد له في ظلام الليل فيواسيها بالمعونة والاحسان والله شهيد عليم

عند ما أسلم الفقيد عزيز الروح لرب القلم واللوح طير البرق خبر وفاته لسائر الجهات فكان لمنعاه أسوء وقع في النفوس وتقطبت الوجوه وانقبضت النفوس واندملت الافئدة لان الموت انما اغتال اماما مرشدا ،وعالما جليلا،واستاذا حكيما، وحبرا شهيرا ،ملأ ذكره الخافقين واصدر فخامة قائمقام الخديوي أوامره بأن تتولى الدولة القيام بشئون الجنازة والاحتفال رسميا بها إشعارا بما للفقيد من الجلال والعلم والفضل فاجريت على جثته المكرمة الاعمال السنية ثم ادرج في شال كشمير وحمل على نعشه من الدار التي مات بها بالاسكندرية صبيحة غد وفاته وسار موكب الجنازة في انتظام عجيب يتقدمه فخامة القائمقام خديوي ويتبعه أهل الحل والعقد ورجال العلم ونواب الدول ورؤساء الملل وطلبة العلم وعامة الناس في عد الالوف وقصدوا به محطة السكة الحديد لنقله للقاهرة على قطار مخصوص فوصلها بين مظاهر الحزن العمومي من كافة السكان ولدى وصول القطار انتظم موكب الجنازة الرسمية فكانت عساكر البوليس ركوبا وفرسانا ورجال خفر السواحل والألوف من تلامذة المدارس يمشون حول نعشه ووراءه من خاصة الناس وعامتهم ألوف تلو ألوف ومهما مر موكب الجنازة بسوق أوشارع الا وأقفلت أبوابه اشعاراً بالحداد ولما بلغت الجنازة للازهر للصلاة عليه اذن المؤذنون من منائر مصر دفعة واحدة تبريرا لروحه فزاد الخشوع وزادت العبرة ومابقيت عين لم تمطر دمعا هطيلا لتلك العظة الكبرى بموت فخر رجال العلم والاسلام ثم سير من هنالك لقرافة المجاورين حيث واروه مبكيا من الجميع

ترك الفقيد ثروة متوسطة بالنسبة لسراة مصر ومات عن دون عقب ذكر

وله من البنات الإناث أربع ومن الاخوة الذكور ثلاثة أشهرهم حضرة حموده عبده المحامي بمحاكم مصر واعتنى فى قائم حياته بتعمير محلة تسمى عين شمس أصبحت بفضل كده وعمله من أعمر جهات النزهة حول القاهرة نسأل الله ان يعزي الاسلام بمصابه العزاء الجميل وان يفرغ على جدثه وابلا من الرحمات، ويسكنه بفضله أعالي الجنات ، انه سميع النداء، مجيب الدعاء ،

وقالت جريدة الصواب الغراء التي يصدرها في تونس سيدي محمد الجعايبي ع ٦١ منها الصادر في ٢٥ جمادى الاولى مانصه

فاجعة الاسلام في الاستاذ الامام

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

اجل انه لبنيان شديد أقيم لدين الاسلام زمانا ثم هوى والحاجة اليه جديدة، والنفوس الحية ليست فى صدر عليه بشديدة، هوى هذا العلم فتقطعت قلوب المسلمين من نبأهويه، وسبر العقلاء خلفه فما ظفروا بقريعه أودنيه، فأي رزء أصاب الاسلام، وأي شرف فقده عامة الانام، كان ملجأ عند المشكلات، ومظهرا للآيات الباهرات، فكم مجدأ بان الاسلام من عيون العلماء الغربيين، وكم سمعة نالها منه والدين المبين، أما انه قد زد عليهم مطاعنهم والناس ساكتون، أما انه قد أجلى روح الدين ترفرف على عالم الحكمة والناس عن علمها لاهون، أما انه قام بالعظيم حين فشلوا، ومضى فيه زمان وقفوا، وكان أرفع الناس صوتا، واعلاهم فوتا، ناهيك من قدوة في البلاغة والبيان، ومثال في العمل والعرفان ، فقد كان اماما ناصحا، وعاملا كادحا، وسيفا قاطعا، وركنا آويا دافعا، وخطيبا قوي الحجة، واضح المحجة، يثبت في الخطابة ثبوت الجبل لاتحركه القواصف، ولا تزيله العواصف ، فطار بعنانها ، واستبد ببرهانها ورهانها،

ولولا ان الناس قد اعتادوا المبالغات، في تأبين الاموات، لكان تأبيننا الاستاذ الامام، لا يشبهه تأبين أحد ممن رماهم سهم الحمام، بعد الانبياء (عليهم السلام) ولكنا ربما نرى

فيه ماقد سمعناه من قبل فليعلم القارئ ان هـذا دون الوفاء بالحق ، والآخر فوق المبالغة والصدق

نشأته — ولد رحمه في ذي الحجة سنة ١٢٦٦ هجرية بقرية من قرى مديرية الغربية من القطر المصري وأصله من قرية « محلة نصر » من مديرية البحيرة وفيها تربى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة الا بعد العاشرة من سنه . فأتم حفظ القرآن في سنتين ثم جوده في طنطا سنة ١٢٧٩ ثم في سنة ١٢٨١ جلس في دروس العلم بالمسجد الاحمدي الذي هو ثاني الجامع الازهر فشرع يتلقى شرح الكفراوي على الاجرومية على الطريقة الازهرية فقضي مدة طويلة لم يفهم شيئا لان المدرسين كانوا يفاجئون الطلاب باصطلاحات لايفهمونها ويكلفونهم بحفظ لاعراب من أول الامر غير معتنيين بتفهيمهم المعاني ولا بالتدريج الطبيعي للتلامذة فادرك الاستاذ اليأس من النجاح وهرب من الدروس فرجع الى « محلة نصر » وتزوج هناك سنة ١٢٨٨ ثم الزمه والده بعد ايام بالذهاب الى طنطا لطلب العلم ولكنه أظهر الامتثال فركب وانما عرج على بلدة « كنيسة اورين » حيث يسكن خؤولة أبيه فصادف أحدهم المعروف (بالشيخ درويش) على جانب من العلم والتقي اذ قد كان ذهب الى طربلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور وأخذ عنه شيئا من العلم والطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد فهم مايحفظ فهو الذي جذبه من حال الرحال بملاطفته وأخلاقه الصوفية لكن من التغلب على اعراض الاستاذ عن العلم حتى كان من عاقبة أمره ان ترك كل شغل وصار أحب الاشياء اليه المطالعة والفهم وكانت بعض الرسائل التي يقرؤها مع شيخه درويش تشتمل على معارف الصوفية وكثير من كلامهم في أدب النفس وترويضها على مكارم الاخلاق وتزهيدها في الباطل من مظاهر هاته الحياة . كان هذا طورا جديدا للفقيد وهي اللذة الاولى التي وقعت في نفسه من حب الاصلاح اذ كان سخط على شيء لدناءته ثم رضي بعد عليه لما رأى من حسنه فعلم ان الاصلاح اذا انتاب الفاسد حببه الى النفوس كان هذا الشيخ درويش يعود الاستاذ الفقيد على نقض الحال التي ركبها المسلمون

من ضعف الدين والتساهل في المعاصي ويشرح له تدجيل بعض الغارين وهو الذي جعل له وردا نصف حزب من القرآن يقرؤه عقب كل صلاة مع الفهم والتدبر وشجعه على ذلك بأنه يكفيه ان يفهم الجملة وببركة القرآن يفاض عليه التفصيل ثم رجع الى طنطا بعد أيام لاخذ العلوم ثم الى الازهر في شوال سنة ١٨٨٢ فكان يتلقى دروسه مع العزلة عن الناس وكان الشيخ درويش يحرضه على العلم والفنون التي لا تقرأ في الازهر نحو الحساب والهندسة والمنطق ويقول له ان طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان فأخذ عن شيوخ كان كلهم يشهد له بتوقد الذهن وصفاء القريحة وان تنكر عليه بعد منهم من تنكر لوشايات شيطانية وغايات شخصية

ولما كانت سنة ١٢٨٤ وفد الفيلسوف الشهير داعي النهضة الاسلامية السيد جمال الدين الافغاني الى مصر فلقيه الفقيد في محرم سنة ١٢٨٧ وأخذ يتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية ويدعو الناس الى الأخذ عنه معه فكثرت الاقاويل على السيد وتلامذته زعما ان تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة ولكنه لم يصغ الى هراء المغرورين بل دام مع السيد على مباديه الصحيحة فلما كانت شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ عرض الفقيد نفسه على مجلس الامتحان فلقي بلاء شديدا من التعصب كانت نهايته ان أنصفه شيخ الازهر الشيخ العباسي المهدي الشهير وحلف أنه لم ير مثله ولقي شيخ الازهر خصاما شديدا لكن دمغ الحق الباطل

وفي اواخر سنة ١٢٩٥ عين مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم وللعلوم العربية في مدرسة الالسن مع تدريس الازهر فسلك في تدريس التاريخ مسلكا لم يكن معهودا في مصر اذ مزجه بعلم الاجتماع والعمران ويومئذ ابتدأت حياته الاصلاحية التي سنلم بها بعد

في رجب سنة ١٢٩٦ خلع الخديوي اسماعيل باشا وكان خلعه في الحقيقة بما نشر من الطعن على سيرته المالية في الجرائد فكان من وراء حركة الاقلام حركة عامة خلعت اسماعيل فتولى محمد توفيق وكان الفقيد والسيد جمال الدين

من شيعته وحزبه الا ان الوشاة غلبوهما عليه فقلبوا ما كان من ميله اليهما بغضا اذ كانوا يوحون اليه ان هذين الرجلين يبثان في نفوس التلامذة وغيرهم روح الميل الى الحرية والحكومة النيابية فصدر في رمضان من هاته السنة أمر الخديوي بنفي السيد جمال الدين فذهب الى الهند وبعزل الاستاذ محمد عبده من وظيفتي التدريس في مدارس الحكومة وان يبعد عن العواصم المصرية ويلزم بلده فاختار المقام بسوريا(١) وهناك عين أستاذا في المدرسة السلطانية ففتح سنة ١٣٠٢٠ (كذا) اذهانا وانتج رجالا في تلك النواحي وبعد انقضاء مدة الحكيم سافر الى باريز ومر على تونس وهي سياحته الاولى بها وذلك سنة ١٣٠٢ حيث اجتمع بالسيد جمال الدين الافغاني فانشأ جريدة العروة الوثقى التي كان السيد جمال الدين مدير سياستها وفضيلة الفقيد محررها وفي سنة ١٣٠٥ عفا عنه توفيق باشا الخديوي فرجع الى مصر ثم عين قاضيا بمحكمة « بنها » ثم بمحكمة « الزقازيق » فمحكمة مصر وفي سنة ١٣٠٨ عين مستشارا في الاستئناف وفي سنة ١٣١٧ تولى خطة مفتي الديار المصرية وظل فيها حتى مات فتركها

اصلاحه وأهم أعماله — أصل حياته هاته الشيخ درويش الذي ربى نفسه ووجهها لتربية الناس ثم السيد جمال الدين الذي فتح امامه المنافذ والكوى واشرع له الطرق والمناهج وأصل الاصيل مواهبه السامية التي فطره الله عليها وهيأه بسببها لجلائل الاعمال وكان من مبدأ أمره مهرعا في دروسه للخلق اذ الناس يجدون في كلامه روحا لم يعرفوه، وتطبيقا على حالهم لم يألفوه، ولولا ما كان من ثورة الشيخ عليش وعصابته لحدة كانت في طبعه لامكنه تغيير أسلوب التعليم في الازهر بسرعة اذ كان يجد في جماعة من مدرسيه موافقة على مبادئه ولكن السلطة العلمية بالازهر أمكنها ان تهزم عزائم كثير ممن كانوا يشايعون الشيخ الفقيد وان توقفه مدة من الزمن لا يقري فيها الكتب التي لم يعتادوا اقراءها ولا يجهر بالمسائل

(١) لعله سقط من الكلام شيء وذلك ان الفقيد اختار الاستخفاء في ضواحي القاهرة نهارا مدة ثم رضي عنه الخديو وعين رئيسا للمطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية الى ان حدثت الثورة العرابية التي نفي بعدها فسار الى سوريا

التي لم يألفوا سماعها فسموها مسائل اعتزالية

يلزم الرجل المصلح طلاقه اللسان و بلاغة الكتابه ولم يكن في الأزهر تعليم للخطابة والكتابة فلما جاء السيد جمال الدين والتف حوله من التلامذة من عرف مقداره وكان الاستاذ الفقيد واسطتهم عنى السيد بتكميل نقص البلاغة في تلامذته فحملهم على التحرير على طريقة سنها لهم من حسن الاسلوب فبرع كثير ممن كان يختلف اليه وصاحب الترجمة غرتهم فكانت هاته الحركة العلمية فاتحة أصلاح اللغة العربيه وكانت صحبة السيد جمال الدين قد أفادت الاستاذ المأسوف عليه حرية في الفكر واستقلالا في الارادة و بصيرة بأمراض المسلمين وغيرة دافعة الى السعي في علاجها بقدر الطاقة وجراءة في القول والعمل وأعانه على تحقيق هاته المبادي الاجماعية سلامة فطرته وتكافؤ قواه العاملة من الفكر والارادة والقول والفعل وكان ابتداء عمله في الاصلاح ان عين سنة ١٢٩٧ رئيس المحررين للجريدة الرسمية المصرية « الوقائع المصرية » فاختار لها محررين من خواصه الذين ظهرت آثار أقلامهم في تلك النشاة الجديدة كالشيخ عبد الكريم سلمان الذي كان يوم موت الاستاذ كأكبر أقاربه وأحبهم اليه وهو اليوم عضو في المحكمة الشرعيه العليا وكالسيد سعد زغلول مستشار محكمة الاستئناف الاهلية وكالسيد محمد وفا رحمه الله ثم وضع قانونا لقلم المطبوعات أعطى به ذلك القلم حق المراقبة على جميع مصالح الحكومة ووجه همته الى اصلاح أساليب التحرير في جميع دوائر الحكومة وقد عنى أيضا باصلاح الاساليب العربية في الجرائد التي كانت تنشر في القطر المصري لذلك العهد فلم يكن يسمح للجرائد ان تنشر شيئا بعبارات سخيفة حتى الزم محررا مشهورا بان يترك تحرير جريدته أو يأتي بمحرر جيد العبارة وحدد له أجلا فتم ما أراد

ومن أجل أعماله التي يخلدها له التاريخ ان كان أقوى المؤسسين للجمعية الخيرية الاسلاميه وهو الذي انتشلها من مهاوي السقوط غير مرة بفضل حزمه واعانته وعزمه وارادته ومنها تقاريره الطويلة أين كانت قيدا للعمل في اصلاح المحاكم الشرعيه بمصر وسعيه في اصلاح التعليم بالازهر وهي المسألة التي كان الاستاذ فيها يلاقي المرار من تعاصي كبراء الازهر المحبين بقاءهم على قديمهم ولولا

اعتلاقهم من الحكومة بسبب ما كانوا ليقتدروا على رد عزائم الشيخ ولكنه مع ذلك كله صارعهم سنين منذ سمي عضوا في مجلس ادارة الازهر حتى ساعة تسليمه في هاته الواقعة التي علمها قراء بريد الشرق قبل وفاة الاستاذ بأشهر قليلة وقد كان سعى لدى سمو الخديوي في تخصيص مبلغ ٣٠٠٠ جنيه من الاوقاف للازهر وتخصيص ٢٠٠٠ من خزينة الحكومة وكانت تنفق في تنشيط المعلمين والمتعلمين ووضع قوانين لذلك تمنع المحاباة واستئثار القديمين وجعل لطلبة الامتحان جوائز مالية ظهرت آثارها الحسنة أيام جريانها فلما سعى من سعى في ابطال ذلك لاغراض الله أعلم بها ظهر الضعف في الطالب والمطلوب وكان أكثر شيوخ الأزهر متابعين لتعاليمه ومن أجل ذلك تكرر عزل شيوخ الازهر في السنين الاخيرة ارتيادا لشيخ يقاوم أعمال الاستاذ فلما أيئس الاستاذ من اصلاحهم وعلم ان يدا قوية من وراء الستار تحرك لعبهم بادر الى الاستقالة من هاتيك العضوية وحسبك من مقاومتهم له ان كتب كاتب من شيوخ الازهر ان تعلم الحساب بالطريقة العملية يفسد العقل و يصد عن الدين! وان امتحان طلبة العلم من أعظم عوائق التحصيل !

ومنها ملازمته في سائر تعاليمه لحل الحقيقة وتمحيصها وابطاله لسائر الاوهام والعوائد السخيفة بالقول والفعل وربما كان هذا مبدأ معاداة أهل الاوهام والتدجيلات لتعاليمه .

وخلاصة القول ان مواهب الاستاذ الذي رزئنا بفقده قد ناءت بعقول الملتفين حوله لقصور أو تقصير فأضاعوه وأي فتى أضاعوا ، وقد أصبحوا اليوم من النادمين على ان عصوا أمره وما أطاعوا .

و ينقل عنه انه كان يأمل أن مباديه وذعوته تسمع بعد موته أحسن مما تسمع في حياته ولكنه كان مشفقا ان يحول خط الاجل دون اتمام تعاليمه ومقاصده ولا سيما تفسير القرآن الذي أتم غالبه وكان عازماً على تمامه في هاته العطلة والعجلة بطبعه(١) وقد نظم أبياتا وهو على مضجع الاسقام في الاسكندرية وهي هذه:

---

(١) هذا وهم كما علم من الجزء الاول

(وذكرهنا الابيات السابقة ثم قال)

وآخر القول انه قد انقطع بموته من صفات الرجال العظام مايوجب الاسف الشديد على كل نفس حية مهما تذكرته وسيبقى ذلك منقطعا الى زمان لانعرف مبدأه ولكنا نعرف انه بعيد زمنا فانه رحمه الله من نوادر الدهر الذين لا يسمح بهم الا في ابتساماته النادرة وهو المصلح الوحيد ونصير الاسلام في آخر القرن الماضي وهذا القرن ومتى كان موته كذلك فهو حياة له لا تزول أبدا مادام الناس يقرءون ويعلمون فليس هو من الناس الذين يعيشون على الارض يذكرهم من يراهم فان غابوا عنه ينساهم ويضرب موتهم سد النسيان الابدي لهم فلا تسمع ذكرهم. ومن علم كنه الاستاذ وعلم انه لم يترك الآن مثله في اصابة الرأي وبلاغة الخطابة وقوة الحجة ومضاء القريحة على قران القول بالعمل ثم يجد في خطبه العظيم موضع تعز عنه عاوده الجزع مهما ذكر الدين والاصلاح فانا لله وانا اليه راجعون فانا لله وانا اليه راجعون فانا لله وانا اليه راجعون . ولو أبقى الأسف من نفوسنا بقية لاسهبنا الكلام ثم رجعنا بالعجز والتيئام فان حياة الاستاذ كلها عجائب، ومقداره أعظم من أن يعرب به لسان منطيق أو قلم كاتب، فصبرا لنا اللهم على مصيبة المصائب

تآليفه — التفسير العظيم المعهود لأهل العلم قد بلغ فيه مبلغا عظيما وكان يأمل اتمامه في هذا المصيف وطبعه ولكن ....

رسالة التوحيد معروفة ببلاغتها وسلوكها الى النفس مسلكا لطيفا حتى لقد قال بعض علماء النصرانية حين قرأها «ان كان هذا اعتقاد المسلمين فأنا أولهم»

الرد على هانوتو وزير خارجية فرنسا السابق : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية. تقرير في اصلاح المحاكم الشرعية

ولاشك ان للاستاذ آثارا عجيبة وتحارير حرة ربما كانت ظروف الاحوال تقتضي اخفاءها الى وقتها فنحن نرجو من تلامذته وسائر المنتسبين اليه ان يكونوا يدا واحدة في البدار بنشر تحاريره وآرائه لنعتاض بها عن بعض أيام وجوده وليكون له بها لسان صدق في الآخرين ونعما لو يجعلون اكتتابا في طبع آثاره يشترك فيه أهل العلم الحقيقي من سائر طبقات المسلمين ويكون الله لهم خير الشاكرين

٥

أقوال الجرائد العربية فى أمريكا

قالت جريدة مرآة الغرب الغراء في عدد ٥٩٥ في ٤ آب سنة ١٩٠٥ الصادرة في نيويورك لصاحبها نجيب أفندي موسي دياب السوري

مات الشيخ محمد عبده

رجل مات والرجال قليل

كان اليوم الحادي عشر من الشهر الفائت يوماً انقضّ فيه رسول المنية على عميد الاسلام ومصباحهم المنير، العلامة النحرير، والاستاذ الحكيم الكبير، المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية فانتزع من صدره روحا شريفة ونفساً عالية ترددت في جسم هو مثال التقى والحزم والعلم والصبر على مكاره الأمور . فياله مصاباً تدكدكت لهوله جنبات القطرين المصري والسوري وتضعضع فيهما الشدة وقعه ركن من أركان النهضة الجديدة النامية . فالخطب جسيم، والمصاب عظيم عميم ، وان يكن الفقيد واحدا بالظاهر الا ان أماني كثيرين قد ضاعت بضياعه وفقدت بفقده

كان رحمه الله شديد التمسك بلباب دينه قوي العارضة في تفسير آيات الكتاب العزيز مجتهداً في ذلك بتطبيق الحقائق العلمية على الاصول الدينية من غير تزييف أو محيد عن جادة الحق لغرض في النفس أو غاية يسعى في الوصول اليها ارضاء لمآرب المتعصبين من أمته بل كانت الحقيقة دأبه يجهد فى ابرازها بعامل البحث المنزه عن كل مايشين وله عدا ذلك من المآثر التي لو أردنا سردها واحدة فواحدة لضاق نطاق الجريدة عن استيعابها . فكم له فى دور القضاء من آيات باهرات ازال بها برقع الشك عن محيا اليقين ، وجلى بواسطتها الحق في نور مبين ، وكم له في الجمعية الخيرية الاسلامية من أيد مشكورة وعمل مبرور، يلحقه جزاؤه الى يوم النشور ، وكم دفع في وجه الاستبداد. وسلك مناهج الحق

والرشاد ، ودلّ على جوادّ الهدى والسداد ، وكم له في قلوب المعوزين من أثر يحمد، ويذكر بالشكر ويردد ، ولسنا الآن في مقام المؤرخين المدققين لنبين صنائعه وفضائله التي تكاد لاتقع تحت حصر ولايحويها عدد لتفاني المغفور له في وجوه الخير العديدة وحسبه ما أوتيه من البيان والمقدرة اللسانية على مايرقي الدين الاسلامي وينقيه من الشوائب التي تحط من قدره في عيني الباحثين المنتقدين . هذه صفحات مجلة المنار الاسلامية مرصعة بدرر حكمه وجواهر أقواله تشهد له بفصاحة لسانه وقوة جنانه وجزيل إحسانه

ولد المرحوم عام ١٨٤٥ فحاول في صبوته ان يحترف الفلاحة اسوةً باخوته لكن أباه الذي كان قاطنًا في احدى قرى مديرية البحيرة من القطر المصري قد أرغمه على التعلم وأدخله قسراً الى الكتاتيب الصغيرة ثم جاء به الى الجامع الازهر (١) وهناك قضى المرحوم زمنًا لم يستفد شيئًا وذلك لاسباب منها عدم انتظام طريقة التعليم وسوء التلقين وفساد طريقة الالقاء يومئذ . على أنه لم يلبث ان عاد الى رشده فأكب على درس العلوم العصرية واقتباسها من المرحوم جمال الدين الافغاني بما فطر عليه من الذكاء والفطنة . ولم يمض كبير زمن حتى حصل حظًا وافرا من العلم فجعل ينقلب في وظائف متعددة ناله في اثنائها من المصائب ماينال غيره من ذوي المقدرة ولاعجب فان « أفاضل الناس اغراض لذا الزمن » ولما زار الشام لقي فيها من حسن الوفادة ما يلقاه كل كبير خطير . فالرزء اذن في القطر السوري ليس بأقل أهمية منه في القطر المصري . ومازال يتدرّج في المراتب العالية والمناصب السامية حتى عين مفتيًا للديار المصرية . ثم قصد في أواخر حياته بلاد السودان فأصابه من رداءة الطقس هناك مرض في الكبد أقعده في الفراش مدة طويلة كان يتراوح في اثنائها بين الابلال واشتداد وطأة المرض حتى أشار عليه الاطباء بالسفر الى أوربا ليستشفي من دائه فعوّل على السفر ولما وصل الى الاسكندرية عاقه المرض عن متابعة السير فنصح له الاطباء بالاقامة فيها لئلا يتعجل منيته بيده فأقام فيها على فراش المرض على ما ذكرناه في المرآة الا ان داءه تغلب هناك على

(١) الصواب الجامع الاحمدي التابع للأزهر

طب الاطباء حتى بلغ به طور الاحتضار والناس بين ذلك في هلع وحذر، من ان يناله مكروه و ينفذ فيه حكم القدر ، ومما نظمه في آخريات أيامه بينما كان يتقلب على فراش اليأس قوله

(وذكرت الابيات التي تقدمت ثم قالت)

وأنت ترى من هذه الابيات ان المغفور له كان متفانيا في خدمة ملته قيماً عزيزا على دينه يغار عليه من تلاعب المتلاعبين و بدع المفسدين لايهمه بقاؤه في الحياة الا بمقدار مايتوقعه من الاصلاح لامته على يده ضعيف الثقة بمن يأتي بعده متسما بسمة الدين وهو بعيد عن الأخذ باسبابه المتينة ومبادئه الصحيحة القويمة على ان حذره هذا لم يغن عنه شيئا فقد أدركه الاجل ولاحول ولا قوة

أما مرضه الذي صرع به فهو على ماشخصه أحد نطس الاطباء اعتلال في الكبد السفلى وتضخمها بالمرض السرطاني حتى طغى هذا الورم على البطن وتجاوز الى القلب فابطال وظيفته . وقد تسمم من جراء ذلك دمه فاختل الدماغ وتشوشت القوة المدركة فيه وهذا علة السهو والغيبوبة اللذين كانا يتناوبانه حال المرض

قضى الفقيد وا أسفاه في الساعة الخامســة من مساء اليوم الحادي عشر من تموز الفائت في الاسكندرية ولم يكن الاساعة واختها حتى نعاه الناعون في انحاء القطر المصري فبكته القلوب دماً أحمر لما كان له فيها من منزلة سنية مضى وخلف بعده أربع بنات يندبن سوء حظهن ولم يكن للمرحوم عقب ذكر

ولما كان اليوم الثاني من وفاته (١٢ تموز) احتشد جمهور كبير في الاسكندرية من وجهاء وأعيان وكبار الموظفين ليشيعوا الجثة الهامدة الى القاهرة فسار القطار بها من محطة الاسكندرية عند الساعة الحادية عشرة والناس في ذهول عظيم من هذه الفاجعة المؤلمة فمر في طريقه الى القاهرة على عـدة محطات للقطار وفي كل محطة كنت ترى جمهور النادبين الذين نسلوا من الارياف لتوديع رجل كان لهم عوناً عند الشدة وفرجاً في الضيق . فبلغ القاهرة الساعة الثالثة ونصف وما أزفت الساعة الرابعة حتى ضاقت شوارع المدينـــة بمن ازدحم فيها من الخلق ثم سـير بالجنازة في ذلك الجمهور اللجب الذي لا يدرك الطرف آخره منهم أساطين العلم

وكبار رجال السياسة وشيوخ الازهر وطلبته والجمعيات الاسلامية ورجال البوليس من مشاة وفرسان لحفظ النظام الذي يعز في مثل ذلك المشهد العظيم على ماذكرته الجرائد المصرية . ومازالوا سائرين به حتى وصلو الى الجامع الازهر فأذن المؤذنون وتليت الصلوات المفروضة وقد حاول كثير من الشعراء رثاءه الا انهم منعوا اتباعاً لوصية الفقيد الذي كان قد نسخ هذه العادة وقال بوجوب ابطالها . وبعد الانتهاء من الصلاة واتمام الفروض المقتضاة حمل الى حيث واروه في التراب ثم رجع المشيعون يترحمون على الفقيد وفي قلب كل واحد غصة لا تبرأ وفي عينه دمعة لا ترقأ رحمه الله عداد حسناته وجزاء احسانه وأمطر ضريحه بشآبيب عفوه وغفرانه

والمرآة أحق الناس بالرثاء والاسف لما كان للفقيد عليها من الايادي البيضاء فياطالما تحلت عرائس سطورها بدرر مقاله ورفلت مباهية مفاخرة بما يزينها به من حكمة باهرة ورأي سديد أيام كان صاحب اللواء متحاملا على السوريين يرميهم بكل تهمة شنعاء . وليس ذلك فقط بل كان بين المرحوم وصاحب المرآة مراسلات جاء في بعضها من كلامه المتعلق بصاحب اللواء

« ان مصطفى كامل باشا ليس من المصريين بخل ولا بخمر »

أجل ان صداقتنا مع المرحوم كانت مبنية على الاشتراك بالمبدإ الواحد المبني على أساس حب الجميع وخدمة الجميع بما يعود على الامة بالخير والنفع

وقد قلنا في رثائه ما يأتي :

قضى وقضاء الله لاشك نازل ... امام به عاش التقى والفضائل
وكانت رياض العلم تزهو بعهده ... وفوق غصون الفضل تشدو البلابل
عظيم له في الشرق كل عظيمة ... وأعظم منها لطفه والشمائل
فتى المجد استاذ المعالي لقد ثوى ... فصدر العلى من ذلك المجد عاطل
قد اختاره المولى الذي هو عبده ... فلبى سريعاً لم تخفه النوازل
فهل «لمنار الدين» في الشرق بعده ... ضياء وقد غاضت لديه المناهل
الى الله نشكو فقد أكرم سيد ... يعز له بين الانام مماثل
مصيبته في الأمتين جليلة ... بها الدين والآداب حقاً ثواكل

قضى العمر في الشرع الشريف وخادماً علي الحق لم يقصده عن ذاك شاغل
وجاهد في بث الحقيقة لم يخف ملاما عليها أو ترعه الغوائل
فمهد للاسلام أكبر نهضة حقيقية زالت لديها الاباطل
واحيا موات العلم في صدر أمة بها وعليها للنشاط دلائل
فيا موته أبقيت في كل مهجة ضرام شجون حره متواصل
ويا موته أفقدتنا العضد الذي قضى عمره حتى قضى وهو عامل
سقاك سيول العفو قبر محمد وغيث الرضا هام عليك وهاطل
(وذكرت الجريدة بعد ذلك شيئاً عن بعض الجرائد المصرية)

(وقالت جريدة المناظر الغراء التي يصدرها في سان باولو عاصمة البرازيل نعوم أفندي لبكي الكاتب السوري في العدد ٥٤٧ من السنة السابعة المؤرخ في ٩ ايلول ١٩٠٥ وهو عدد خصصه للتأبين بعدما كتب جملة في عدد قبله وقد صدره بصورة الفقيد تحتها الابيات التي قالها قبل موته . وكتب تحت اسم الجريدة ما يأتي:

﴿اكراما لذكر المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مصلح الاسلام ومصلح الشرق﴾

محمد عبده

كما يفجعنا موت الوالد لاننا أبناء وكما يسقط علينا نعي الوالدة لاننا فلذة من فؤادها وكما تحزننا وفاة الصديق لاننا أصدقاء كذلك فجعنا وسقط علينا وأحزننا نعي الامام لاننا شرقيون. وكما يوجد حب شخصي يوجد حب وطني

وليس لان الامام ذو دماغ كبير . وليس لانه عالم. وليس لانه فيلسوف. وليس لانه كاتب . وليس لانه خطيب . وليس لانه لغوي. ليس لشيء من ذلك ما انتهي الينا ونحن في هذا البلد الطروح الاسف علي وفاته. فكم في الشرق

دماغاً كبيراً وكم عالماً وكم فيلسوفاً وكم كاتباً وكم خطيباً وكم لغوياً ولا نشعر من الا كثيرين بشيء الا اذا كان هـذا الشيء ضررا . ولكن الامام كان يصرف كل قواه وما أعظمها في فائدة الوطن الذي نحبه ونريد له بل لنا صلاحا وطالما شعرنا بمفاعيل اخلاصه

أكبر أمانينا ان يصطلح الشرق وأكبر واجباتنا ان نسعى فى اصطلاحه . نقول ذلك بلساننا ولسان كل مخلص من نصارى الشرق . ولكن لا نحن ولا كل مخلص من هؤلاء النصارى مهما عظم استعداده يستطيع شيئا كبيرا . ذلك الاصطلاح متوقف على اصلاح الاسلام — على الرجوع به الى حقيقته خالصا من كل الشوائب التي طرأت عليه وكانت أصل الفساد الذي دب في جسم الهيأة الاجتماعية الشرقية . وفي هذه النقطة تتجلى عظمة الامام الذي صدرنا باسمه هذه الكلمة . هو صاحب المشروع . هو الذي استخدم كل ما وضعته فيه الطبيعة من المقدرة في سبيل اصلاح الاسلام فهو مصلح الاسلام . ومن أصلح الاسلام فقد أصلح الشرق . فمحمد عبده هو مصلح الشرق . وهذا ما يجعلنا ان نخشع لموته ونكبر المصاب اننا شرقيون وفينا روح وطني

ومتى قلنا ان الامام أصلح فقد وجدت التعزية واستقرت السلوى . نعم انه لو طال بقاؤه لكان ركنا كبيرا في تأييد المشروع . ولكن موته على كون كلامه حيا وروحه منتشرا لم يزعزع شيئا من أساس البناية . ولو كان الخلاف لما كان الامام هذا الرجل الذي دوى نعيه هذا الدوي الرهيب . انه يموت وكل من أحبه تلميذ وكل من احترمه رسول وكل من أعجب به بشير . وما أكثر المحبين والمحترمين والمعجبين وما أكثر الأئمة والكتاب والخطباء فيهم

قد مات محمد عبده وحيي مصلح الشرق

هي المقالة التي نشرناها إثر نعينا للامام فى العدد ١٥٣٥ وقد رأينا ان تكون هي كلمة المناظر في العدد الذي خصصناه بالموضوع فكررنا نشرها

نحن والادباء الذين يشاركوننا بكتابة أو بموافقة فى هذا الاكرام وان نكن

قد تجردنا خارجاً عن المعبد من كل صفة دينية وأنكرنا كل جنسية غير التي تجمعنا بكل من هو مواطن الا ان العالم الشرقي لا يزال يميزنا بنصرانيتنا

ففي الصبغة التي نعرفها لانفسنا رأينا أن نجمع كل قوانا العقلية والاحساسية لاجل اكرام ذكرالرجل الذي كان من نفسه الكريمة أن اخلص للشرق فاستخدم كل قواه الجلى في مقاومة أدواء الشرق

وفي الصبغة التي يميزنا بها العالم الشرقي — بصفة كوننا نصارى نقف باحترام امام الاسم الذي حمله الرسول العربي ورسول الرسول ونكرّم ذكر الامام المسلم قدر ما يشاء التساهل . وانا لنعقد ان اجتماع الامتين بجامعة الوطن متعلق بارادة المسلمين لا ارادة النصارى . ولذلك يجب ان يمسك المسلمون أولا رباط هذه الجامعة . لاننا نرى من جهة أخرى ان النصارى لا يجب ان يلزموا السكون الى ان يروا المسلمين قد أخذوا برباط الوطنية ويجب ان يظهروا استعدادهم للاخذ بهذه الجامعة عندما يرون طرفها الواحد في أيدي اخوانهم المسلمين . فنحن وقد تحررنا من قيود التقليد الذي يفصل بين أهل الوطن الواحد من الشرقيين ، واغلال السلطة التي يلائمها ان يستمر الاستقلال بين الامم نجل عملنا هذا تجاه المجموع المسلم الشرقي تلك الاشارة الايجابية .

ذلك مبدأ إصدارنا لهذا العدد . واننا بالصفة التي نعرفها لانفسنا نتقدم به الى جميع المعجبين بالامام ، وبالصفة التي يميزنا بها العالم الشرقي نتقدم به الى جميع المسلمين الشرقيين ولاسيما الذين تجمعنا بهم الوطنية

وُلد الشيخ محمد عبده سنة ١٢٥٨ هـ . في محلة نصر في مديرية البحيرة

وسنة ١٢٨٢ بعد اذ تلقى مبادىء التعاليم الاسلامية في طنطا انتقل الى الجامع الازهر وتعلم فيه في ثلاث سنوات العربية والشرع

وبعد ذلك أخذ المنطق عن الشيخ حسن الطويل

والعربية والشرع والمنطق تصير في الدماغ الكبير أكثر من ثلاثة . ما كان أكثر المتضلعين من العربية والشرع والمنطق اذ كان الفقيد لم يتعلم شيئاً آخر وقدم جمال الدين الى مصر ولم يكن أحد أقرب اليه من صاحب الترجمة .

واستفاد الشيخ من ملازمته لجمال الدين علما وأدبا

ولم يطل ان عينه رياض باشا ناظراً للمطبوعات وأوكل اليه انشاء جريدة للحكومة. منذذاك تصدر «الوقائع المصرية» أول جريدة في القطر المصري

ثم حدثت الثورة العرابية. ولما استتب الأمر للحكومة نفي الشيخ الى سورية لانه مالأ الثائرين. وبقي فى بيروت ست سنوات وكان صلة بين متنبهي الملتين

ترك بيروت بدعوة من الافغاني وأقام واياه في باريس يصدران جريدة العروة الوثقى

وكان الافغاني يسعى في ضم المسلمين كلهم على اختلاف واستقلال أوطانهم بجامعة دينية تكون واسطة عقدها خلافة تعنى بشؤونهم الدينية دون السياسية. وهذا ما كان غرض « العروة الوثقى ». ولا نعلم اذا كان صاحب الترجمة سعى بعد ما استقل عن رفيقه في هذا المطلب. انما الذي انصرف اليه محمد وظهر سعيه فيه على أكثر أقواله وأعماله تنقية الإسلام من البدع والشوائب التي دخلت عليه وكانت سبباً فى انحطاط المسلمين وانحطاط أوطانهم

ثم توقفت « العروة الوثقى ». الافغاني دعي الى الاستانة حيثما بات أسيرا الى ان توفي وصاحب الترجمة دعي الى مصر وقد عفي عنه

وبعد اذ تولى حيناً القضاء الاهلي والمستشارية في محكمة الاستئناف دخل في الطور الذي ظهر فيه اخلاصه ومقدرته

بعد ذاك عين عضواً في مجلس ادارة الجامع الازهر. وسنة ١٣١٧ عين مفتياً للديار المصرية. وما أنسب الوظيفتين لرجل وضع نصب عينيه اصلاح الاسلام الحاضر. الجامع الازهر مصدر التعاليم الاسلامية والاسلام يكون كما تكون هذه التعاليم ومنصب الافتاء فى مصر أوجه مناصب الافتاء في الاسلام

ماسمعنا صوتا في وجوب توسيع نطاق العلوم فى الازهر حتى يكون كواحدة من كليات أوروبه قبلما كان محمد عبده عضواً فى مجلس ادارة الازهر. وماسمعنا بفتوى تخالف الاسلام الشائع على كونها تنطبق على الاسلام الصحيح وحاجة العصر حتى كان محمد عبده مفتياً للديار المصرية

وماأشدّ مالاقت تعاليم الفقيد وآراؤه ولا سيما فى هاتين الوظيفتين من المقاومات . لم يشأ رصفاؤه في ادارة الازهر جعل الازهر كلية مثل كليات أوروبه لان العلوم التي تدرّس في تلك الكليات لاتنطبق على الاسلام الذي يفهمونه هم وما كان « العلماء » يوافقونه على أكثر فتاويه لانها لاتنطبق أيضا على اسلامهم الا ان المقاومات التي اعترضته لم تثنه ولا أثرت في عزيمته ولا فصلت بينه وبين اغراضه . لبث مع كل ما صدمه في سبيله من المناوأة يتقدم نحو محجته بثبات ونشاط عجيبين . وله في شرح الاسلام الحقيقي مقالات اجتمعت البلاغة والفصاحة والحكمة والسداد على تحريرها وأخصها رسالة التوحيد. إنها مثلت الاسلام تمثيلا. لاعجب اذا أنكره المسلمون المقلدون أوظنوا انه تعليم جديد وما هو من الاسلام الشائع في شيء

وكان صاحب الترجمة حاد البصر حتى لترى الحياة منبعثة من رسم عينيه

وكان على وفرة من جميع استعدادات الخطيب قرأنا له مرة خطاباً دونه صاحب المنار اذ الشيخ يلقيه ونشره فلم نصدق انه بديهي أو ان السيد محمد رشيد ينشره كما لفظ تماما . فقد كانت تراكيب الكلام من البلاغة ومحكم الانسجام مالايصدق معه أنها بنت الحضرة . ولكن الشيخ ابراهيم يقول عنه في «الضياء» « اذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلايتوقف ولا يتلكا ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولاتركيباً سخيفا حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداهة وجدته كأحسن ماينشيء المترسلون من الفصحاء »

وكان قوي الحافظة سريع التناول حتى انه تعلم اللغة الافرنسية في مدة خمسة أشهر وهو فوق الاربعين وأجادها تكلماً وكتابة . وقد أفادته هذه اللغة كثيرا ومما أخذه بواسطتها عن الافرنج كتاب سبنسر في التربية ترجمه واعتمد على كثير من آراء الفيلسوف الانكليزي في النظام الذي هو وضعه للمدارس الاميرية

ذلك مجمل ماعرفناه سابقاً وحصلناه آخرا من المجلات والجرائد المصرية عن فقيد الشرق . وقد تأخرنا باصدار هذا العدد الى الآن على أمل ان يردنا المنار ونتوسع في هذه الترجمة على قدر ما نستفيد من كلام الرجل الذي كان أقرب

الناس الى الفقيد وأعلمهم بمقاصده وسائر أحواله وفاتت المواعيد ولم يرد المنار . قد أصيب بخسوف . عرض الحزن بينه و بيننا . ولكنه خسوف عارض وسيطلع المنار « يضيء النهج والليل قاتم » كما أراد الفقيد . على ان صورة الفقيد ماثلة في هذا الذي قدمناه يزيدها رسمه جلاء فهو اذاً كاف

والله يرحم الامام ويجعل نصيب الشرق من أماني الاستاذ وفيرا

مفتي الاسلام

مات مفتي الاسلام والدين أدرى … من جميع الورى بهول المصاب
و يح هذي الايام هل علمت من … أودعته الايام بطن التراب
أي بدر غشينه بغروب … أي سيف وضعنه بقراب
قد أضاعت به الحنيفة رأساً … كان منه الحياة للاعصاب
فارتمت رجلها التي أوطأتها … بازدهاء على رؤوس الصعاب
وارتخت ذرعها اليمين التي ودّ … ت بها رفع ذاك الحجاب
وعمي طرفها البصير الذي قد … فتحته على معمّى الكتاب
بسلام محمدٌ وأمان … ووراء الرحيل ألف ثواب
حيِّ عنا الكواكبي وأبلغـ … ـه جزيلا تشوق الاصحاب
قل له قوله المعاد صداه … لا شباب لنا بغير الشباب
وتمهد لنا نوايا جمال الد … ين فالعهد قد طال بالانقلاب
ان يوما نشتاقه قد خشينا … بعدكم ان يكون يوم الحساب

﴿ جرجس عساف ﴾

محمد عبده

ما مات (عبده) انما هي نفسه … اذ ضاق عنها منه جسم خائر
طلبت لها اذ ذاك منه مخرجاً … ومضت الى حيث النفوس حرائر
ومتى النفوس غدا كبيرا شأنها … تعبت بها الاجسام وهي ضوامر

* * *

أمحمد والموت فينا سنة مرعية لم ينج منها حاذر
فلئن قضيت بها فلست كمن قضى ومضى وما دلت عليه مآثر
ولئن طوت في مصر جسمك حفرة فبكل مصر منك روح ناشر
ولئن يفت مرآك منا أعيناً فبروحك الكبرى تعيش ضمائر
ولئن تمت فالذكر ليس بمائت ولسوف تحييه الدهور منابر
ولسوف تحييه المساجد والمعابد والمعاهد والكتاب الطاهر

* * *

تبكيك أرض قمت فيها هادياً وبآية الاصلاح كنت تجاهر
ولو انها شعرت بما تنويه لها لأبت وما قفلت عليك حفائر
يبكيك دين كنت حامي حرزه وعليه من أهل الفساد تحاذر
في حدقتيه من مماتك عبرة حرّى ومنهم في حشاه مجامر
والعلم يبكي والمداد مدامع أسفاً لفقدك واليراع محاجر

* * *

نم آمنا وكما حييت مظفراً فلأنت بعد الموت أيضاً ظافر

﴿ طنوس حنا الياس ﴾

نكبة الشرق

أنادي وما كان اليراع يجاوب فما باله والجفن للدمع ساكب
على م أراه شارقاً في دموعه وقد علمته الاصطبار التجارب
على الشرق يبكي ذا اليراع لانه يغالب صرف الدهر والدهر غالب
كأنّ السما قد حالفت صرف دهره عليه لذاك الربّ والعبد غاضب
اذا قام فيه مصلح قام ضده من القوم جرّار الفساد يحارب
فيسقط أهل الفضل بعد جهادهم وتعلو بأرباب الفساد المناصب
بموت عظام المصلحين تحسراً وفي قلب كل مطلبٌ ومآرب
« بذا قضت الأيام ما بين أهلها فوائد قوم عند قوم مصائب »

الا رحم الرحمن كل مجاهد قضى وهو في جيش الفلاح يضارب
واجزل في الاخرى جزاء «محمد» فان جزاء المصلح الحر واجب
امام بدا للمسلمين منارة به يهتدي للحق والنور طالب
اذا ما بكاه المسلمون تأسفاً فدمع النصارى ماحكته السحائب
فتى مثله في الشرق ما قام مصلح قلوب رجال الامتين يقارب
وما علة الشرقي الا تباعد لقد بثه في الناس شيخ وراهب

* * *

دعا الموت (هوغو) ثم مات (سبنسر) ومات ذوو علم بكتهم مكاتب
وكان مصاب الكل مرا وانما لقد ناب عن كل لدى القوم نائب
فسائل رجال الشرق من بعد (عبده) نرجي اذا عزت علينا المطالب

* * *

لقد خسر الاصلاح قائد جيشه وهيهات لا تغنيه عنه الكتائب
فيا راحلا علمتنا الصبر في البلا مصابك ميتاً ماحكته المصائب
وددت لو اني كنت بين أولي الوفا أودع رضوي جللته المناقب
فأسمع نظماً قاله فيك شاعر واسمع نثراً قاله فيك خاطب
واسمع أنات القوافي لحافظ والمنفلوطي فيك شعرا يناسب
واقرأ ما عنك الجرائد سطرت وما دونته في رثاك «الجوائب»
ولكنما هيهات ماحاق شاعر رثاك ولا أحصى صفاتك كاتب
فانعم بلقيا الحق واسأل لنا الهدى عسى لك عند الله تقضى الرغائب

﴿ قيصر ابراهيم معلوف ﴾

ثورة في بلاد اليمن ! تنبه خواطر في سوريه ! يقظة في الاسلام ! تطال أعناق من بلاد الفرس والهند ! مخاوف واضطراب على جوانب البوسفور ! هواجس وقلق في أئمة الاسلام

ذلك أحدثه انفجار الافكار الحرة التي قذفتها أفواه المخلصين وتطايرت شظاياها الى كل مكان وفعلت فعلها

وكما ان الذي يرمي القذيفة على معاقل الظلم والاستبداد لا ينجو عند انفجارها هكذا مات الشيخ محمد عبده وسط الانفجار الذي أحدثته تعاليمه ومبادئه في فى العالم الاسلامي وذهب ضحية مقدسة عن الشعب الذي كبلته التقاليد بسلاسل الظلم والاستبداد

مات محمد عبده ولكن روحه لا تبرح تتفقد الاساسات والمبادىء التي وضعها وسوف يستجاب الدعاء الذي لفظه وهو محتضر و يرزق الاسلام « مرشداً رشيداً يضيء النهج والليل قاتم » ، بل الدعاء قد استجيب وهوذا محمد رشيد يضيء بمناره ربوع الاسلام

يرحم الله تلك النفس التي لم تبرح هذه الدنيا حتى تركب لها أثراً فى كل نفس من نفوس الشرقيين

﴿ شكري الخوري ﴾

الخطب الشامل

من الناس من اشتهر بالفضيلة فكان لها نبراساً، وللاصلاح راساً، وللنهضة الادبية أساسا، ومنهم من اشتهر بالسياسة فكان سياسيا خلاّبا، ورأسا في جسم وطنه مهابا، ومنهم من اشتهر بالعلم فكان عالما مدققا، وفقيها محققا، ولغويا يعوّل في اللغة عليه، ومنطقيا يرجع في تحليل القضايا اليه، ومنهم من اشتهر بالكتابة والنظم فكان كاتبا أديبا يخلب الالباب بأساليبه ودقة معانيه، وشاعرا لبيبا يطرب القلوب برقيق نظمه ومتانة قوافيه ، ومنهم من حنكه الدهر واختبرته الايام فانصرف الى صوالح الامة، يذودعنها ويدفع كل ملمة. واما الفقيد فقد اشتهر بهذه كلها مقرونة بمحبة وطنية وغيرة وقادة على الحرية الادبية، والمشاريع الخيرية، رحم عدادمبراته وحسناته، وعوض الوطن بامثال له يعمرون أضعاف حياته،

* * *

العلم مفطور الحشا يتوقد حزنا وأبيات الرثاء تردد
والفضل مشطور الفؤاد يئنّ من ألم وشخص المكرمات يعدّد

والمجد لاعجب اذا الفيتة دنفا ففارقه امامٌ أمجد
مات العلى والجد والاخلاص والا إقدام لما قيل مات محمدُ
يبكيه أهل الشرق أفضلهم ولا عجب فان فقيدهم متفردُ
ندبته احرار الضمير لانه حر الضمير وغيرةً يتوقدُ
ناحت لمصرعه البلاد وكيف لا وهو الامام لها ونعم السيدُ
جمدت مياه النيل من حزن ومن أسف ونيل دموعها لايجمد
ياهاجرا تلك الديار وانها أبدا تردّد ذكركم وتمجّدُ
قد كنت ترشد أهلها عن غيبهم واليوم من منهم يقوم فيرشدُ
لا بدع في فقد العباد وانما بدع أُولو الاصلاح حالا تفقد
لو كنت أحسن صنع تمثال له درا ومرجانا فلا أترددُ
فرض على أهل الحجى ان يذرفوا فوق الضريح دم الشجون ويسجدوا
لولا النبي كتبت حول ضريحه هذا محج المسلمين الاخلد

﴿ سعيد يازجي ﴾

فقيد الشرق

ان بكيناك ياسميّ الرسول فالبكاء سلاح أهل الخمول
وسلاح الاحرار حزم وعزم واقتفاء الآثار بعد الرحيل
بلغت روحك الجزيرة فاهتزّ ت لها العرب كاهتزاز النيل
فارقت مصر لتحل جسوما(١) في سوى مصر من كبار العقول
عشت في مصر للفضيلة سورا حامي العلم مرشدا للجهول
كنت للشرق مصلحا وللدين الله م نورا وماحق التضليل
حافظ الشرع عاذلا لا يراعي عاذلا لليتيم خير كفيل
عالما عاملا خطيبا جسورا جهبذا كاملا بغير مثيل
شاعرا ناثرا رئيسا حكيما قائد العرب في قويم السبيل

(١) لعل الاصل « كي تحل جسوما » وحذفنا بيتا قبل هذا غير موزون

يذكر الازهر الشهير دروسا منك كانت تُلقى لنزاع الدخيل
وفتاويك لانزال على القر طاس مسطورة كسفر جليل
فهي للشانئيك كبت وللظم آن ماء الحياة مروي الغليل
وتعاليمك الجليلة تبقى مع بقاء القرآن والأنجيل
وكبار الرجال تبنيهم الآ ثار نور الصغار بعد الافول
فاحي بالروح في قلوب ذوي الاحـ ساس يافرد هذا الجيل
وأعاض الرحمن قومك فردا يتلافى الخطوب قبل الحلول

﴿ نخول حنا ﴾

وماأريدان أخالفكم الى ماأنهيكم عنه
إن أريد الا الاصلاح مااستطعت

إن من يتخذ من كتاب ديانته مثل هذه الآية السامية ويجعلها كقاعدة للافعال الحسنة والافكار العظيمة التي ينوي بها مجرد الصلاح متحفا بها أمته. وان من في ساعة مفارقته لهذه الحياة الدنيا أظهر عدم مبالاته بابلال أو اكتظاظ مأتم، وأبان أن حذره الوحيد هو من ان تقضي على دينه العمائم، وان من لم يشغله حب الانسان الغريزي لهذه الدنيا عن الافتكار بها على سرير نزعه وكان معظم اهتمامه في الخوف على آمال كثيرة للناس بقضائه. وإن من كان آخر التماس له من ربه في ان يرزق الدين مرشدا رشيدا ، ان ذاك المصلح العظيم رب هذه المظاهرات لجدير بأن يسرع الكون أجمع لوضع أكاليل التمجيد على ضريحه ويذكره كل لسان بأجل كلام

وإذا وجب وكان لا يتسنى للمعجب البعيد وضع واحد من تلك الاكاليل على الهيكل العظيم فلا أنسب من انشاء ما يقوم مقام الزهر من الكلام فتكون هذه الابيات التالية لتلك الغاية المبينة يشترك بها ناظمها مع مؤيدي تساهل الاستاذ الاكبر والمعجبين بفضائله

مجد فيك الشرق أفجع لا مصر وفيه كما فيها استمد لك الاجر
فقد كنت نجما ساطعا عم نوره وجاوز حد النيل لم يثنه حصر

وقد كنت للاصلاح أحكم قائد سرى في جهات الارض صوتك والفكر
وقد كنت بحرا زاخرا يكتفي به فمن فمك الحسنى ومن صدرك الدر
لذلك لما قدر الامر وانطوت بموتك اسمى صورة وانطوى قدر
تحرك اقوام رأت في سكونها لدى الخطب جحدا بالجميل وذا إمر
فذلك سباق مجيد بشعره وذلك ملسان بليغ وذا نحر
وذا ناثر والكل بالقصد واحد يجلون فيك الفضل قارنه البر
ومثل بنيه القرن يرثيك نادبا بفقدك ندبا كان يرجى به النصر
وان يفتقدك القرن والليل قاتم ففي الليلة السوداء يفتقد البدر
تمادت يد الاحداث بالفتك والاذى كأن يد الاحداث شيمتها الضر
ولكن فلا غرو اذا ساءت العدى محمد في صنع فلم يطل العمر
فان شرارات الصواعق حينما من الجو تهوي قاتلات لما تعرو
بمنفردات النائبات تحل لا يطيب لها الا الفتى المثمر النضر
تميت ولا تدري الضلال بفعلها وأن ثمار الغصن يحتاجها القطر
بذا عرفت أبناء ذا الدهر بل بذا حديثا وفي عهد مضى عرف الدهر
على ان طي الموت شخصك في الثرى محمد من فكر نشا دونه نشر
نعم ان فكرا أنت أنشأت ثابت وسوف به لا شك يصطلح الامر
وإن يستطع غدر البغاة لك الردى فروحك لا يستطيع ارداءها غدر

استفان غلبوني

سألنا خمسة ممن بعثوا الينا بالمقالات والقصائد بهذا العدد بعد ما كنا رتبنا لها ثلاث مقالات وقصيدتين لسبب ليس الظرف مناسبا لبسطه أن لا ننشر لهم شيئا ففعلنا

وبعد ما كنا أنجزنا التصفيح وكاد يحين ميعاد صدور الجريدة وردنا العدد من جناب الشيخ محمد حماده قصيدة جميلة . وعلى شدة رغبة منا في ان يشاركنا في هذا الاكرام مواطن درزي لم نستطع تأجيل اصدار الجريدة لتعديل الديباجة

ونشر القصيدة ولا لنشر القصيدة والاستدراك على الديباجة . هذا كل ما استطعنا لم نستطع مع شدة عناية منا ومن الزينكوغرافي ابراز رسم الامام جليا لانه أخذ عن رسم مطبوع غير جلي على كون الفن يستدعي أخذه عن رسم فوتوغرافي جلي

(اهما جاء في تعدد التأبين الخاص باكرام الامام من جريدة المناظر الغراء)

وقالت جريدة الافكار التي يصدرها في سان باولو (البرازيل) الدكتور سعيد أبو جمرة من أطباء السوريين . وذلك في صدر العدد ١٣٥ الذي صدر في ٢٦ آب (أغسطس) ما يأتي

﴿ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

العنصر الاقوى في الشرق فجع الشرق ومحبوه . والعلم وذووه . بوفاة مصلح كبير . وعالم نحرير . وفيلسوف خطير . « خلقه الله حجة على هذه الامة التي رزئت بالخمول والكسل » على ما قالت مجلة المنار الاسلامي الغراء فعم فيه الخطب كل الناطقين بالضاد . وبكته الامة العربية بل الشرق كله ومثله من يبكى لا بالدموع بل بالدماء . وفي مثل هذه النازلة يحق لنا نحن معشر الشرقيين ان نجهش في مثل هذا البكاء . ليس فقط لان فقيد الشرق كان من أبلغ البلغاء . وافصح الفصحاء وأخطب الخطباء . بل لانه كان رحمه الله يحاول طول حياته الثمينة هدم ما بنته « العمائم » من ابنية تعصب وخيم . وعلم عقيم . وجهل عميم . ورفع مكان العلم والحرية مكانها . واعلاء شأنها ليس في القطر المصري فقط بل في كل الاقطار العربية والاصقاع الاسلامية . ومثلها (من) يحتاج الى العلم والعرفان . إسوة لها بسائر الممالك والبلدان . فكفاها كفاها خمولا مع كبرياء . وانحطاطا مع ادعاء . من جراء ذلك التضليل والتفريق . والتغرير والتمزيق . الذي أوجدته في شرقنا التعيس تلك « العمائم » والقلانس . فأوجدت به الجهل ومن الجهل التحاسد والتباغض والدسائس . وكيف ترجو صلاح الشرق والشرق بسببها قد غاص في بحر ظلام دامس

ومن المعلوم ان الشرق كله ينظر الى الملة الاسلامية كي تنهضه من هذا

النبات العميق وتفك عنه قيود ذبال الخمول . وذلك لأنها العنصر الاقوى بين كل عناصره المتعددة . ومن الاقوى يرجى مالا يرجى من غيره ولو كان ذلك الغير صادق الوطنية كبير الهمة ماضي العزيمة فكلامه صيحة في واد ونفخة في رماد وقد أتاح الله لتلك الامة القوية أن تسعد برجل عرف هذا السر الجليل فشخص داء الشرق أحسن تشخيص ووصف له انجع دواء . ومثله من يلقب بالحكيم ألحي الحكيم وحسب « محمد عبده » ان يكون أخا ورفيقا في هذا الجهاد لذلك الحكيم الكبير السيد جمال الدين الافغاني ذائع الصيت دائم الاثر

عرف الفقيد ان « العمائم » تحول دون العلم الصحيح وكيف لا يعرف ذلك وتلك العمائم هي التي عارضته في جعله الجامع الازهر مدرسة عملية صناعية لا مدرسة مذهبية تعصبية . كما انهـا قد عارضته بشدة فى اصدار فتاويه المتعددة لاصلاح ما افسد من عوائد وتقاليد واخلاق . وأمر « القبعة الافرنجية وأكل ذبيحة يذبحها أهل الذمة واخذ ربا المال الموضوع في الشركات المتضامنة » حديث العهد لا يزال صوته يرن في الآذان . ولعله لا يبرح ولن يبرح من الاذهان

عرف الفقيد ذلك فلم يعبأ بالمقاومات العنيفة التى لاقته . والمصاعب الشديدة التى صادمته . ولم يبـال بتلك الاقاويل السفيهة التى نشرها عنه غلاة المتعصبين المرائين بل كان رحمه الله من العاملين بمغزى المثل الفرنساوي القائل « الصائح يضيح والقافلة تسير » ولطالما صرح بانه لا يخشى من شيء سوى الموت لانه يقطع عنه خط المسير فى ذلك المسلك الوعر مسلك اصلاح الشرق باستئصال علة تأخره من جذورها — ولكن ما امكن تلك الجذور وما أكثرها تشعبا وامتدادا وتأصلا في قلوب الملايين وعشرات الملايين . فانها نجت من معول ذلك المصلح الكبير بفضـل « العمائم » ونفوذها فسمع الشرق صوت « محمـد عبده » القوي يردد لآخر مرة في هذه الحياه الدنيا بعض أبيات « مشروحة المتن واضحة المغزى » منها هذان البيتان الخالدان

ولست أبالي ان يقال محمـد أبلَّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العمائم

ترجمته : ولد رحمه الله سنة ١٨٤٣ م بمحلة نصر من أعمال مديرية البحيرة (مصر) فتلقى العلوم العربية والمنطق والشرع في الجامع الازهر والتقى في سنة ١٨٧٢ بالفيلسوف جمال الدين الافغاني فدرس عليه أصول الفقه وأخذ عنه مبادئ الحرية والاصلاح وظهر ذلك منه اثناء الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ اذ حكم عليه حينئذ بالنفي فسافر الى سوريا فبقي فيها ست سنوات صرف معظمها في بيروت حيث رأيناه في المدرسة الكلية يوم ألقى المرحوم الياس صالح قصيدته الشهيرة في الحرية وبعد ذلك سافر الى باريز فانضم الى استاذه الحكيم جمال الدين الافغاني وأصدر جريدة العروة الوثقى وقصدهما بذلك معروف وهو انهاض الهمم في الامة العربية وإزاحة ذلك الغشاء الكثيف عن عيون الملة الاسلامية غشاء التقاليد وتوابعها . وفي ذلك الحين سعى بعضهم فنجح باصدار العفو عنه من جانب الخديوي السابق فقدم مصر وطنه الأصلي وتقلد فيها أسمى الوظائف القضائية الى ان اصبح مفتي الديار المصرية في سنة ١٨٩٨ م وما زال متقلدا ذلك المنصب السامي حتى وافاه القدر المحتوم في الاسكندرية الساعة الخامسة من مساء الحادي عشر من شهر حزيران الماضي

اعماله : أهم ما اتصل بنا من قلمه شرحه البليغ لنهج البلاغة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . وشرحه لمقامات بديع الزمان الهمذاني . وكتاباته المتعددة في جريدة الوقائع المصرية وجريدة العروة الوثقى . ورده على الموسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا دفاعا عن الاسلام والمسلمين وكتابته الحديثة العهد في التساهل والتعصب بتاريخ الملتين النصرانية والاسلامية . ومن آثاره الادبية شروح القرآن الشريف المدرجة في مجلة المنار الاسلامي الغراء وهي تشف عن رغبته الشديدة في تطبيق العلم العصري ومطاليب التمدن الحديث على آيات القرآن وأقوال كبار الائمة وهو عمل خطير قلما خطر على بال أحد غيره من العلماء والمفسرين . ومن المفهوم ان أعمال المرء لا تقاس فقط على ما يبقى منها بعد مماته كالتآليف وامثالها بل تقاس أيضا على ما يذيعه في حياته العلمية من التعاليم الصالحة والاقوال الحكمية والنصائح المفيدة علاوة على ما يبثه من المبادي القويمة وعما يظهر من صالح القدوة

وحسن السيرة والسريرة . ولا خلاف بأن حياة الفقيد كانت خير مثال لمن يريد نفع ملته واصلاح قومه وخدمة وطنه

صحته ومرضه وموته : كانت صحة الامام جيدة في الغالب . الا انه بدأ يشكو الضعف منذ زار السودان في العام الماضي فتسلط عليه المرض واضطره احياناً كثيرة الى ملازمة الفراش . وقد اشتد عليه الحال مؤخرا فأشار عليه أطباؤه بالسفر الى أوروبا بقصد الاستشفاء وكلهم لم يتحققوا ماهية العلة تماما . ولما وصل الى ثغر الاسكندرية زاره الطبيب السوري الشهير الدكتور بشاره زلزل فكان اول من أصاب كبد الحقيقة في تصريحه باصابة الاستاذ بداء السرطان (١) . وهاك قوله لمراسل المؤيد : ــ

« زرت الاستاذ منذ خمسة أيام فحزنت جدا للحالة التي رأيته عليها . ومع ما كان فيه من خطر الحالة وشدة المرض أخذ فضيلته يشرح لي سير مرضه بالدقة شرحا طويلا ثم بحثته جيدا فوجدت ورما كبيرا عالقا لجهة الكبد السفلى وقد طغى على البطن بكبر حجمه وظهر لي من جسه وصلابته ومن علامات كثيرة انه ورم سرطاني لا شك في انه كان عنده من مدة بعيدة . . وحين مشاهدتي له كان حركة القلب منتظمة والنبض معتدلا نوعا ولا اعلم ماجد بعد ذلك (لان تلك الزيارة الطبيــة كان الاولى والاخيرة) ولكني تعجبت من بقاء مــدارك الاستاذ عالية وعواطفه قادرة على كثرة الملاطفة مع هذه الحالة التي لا تسمح لغيره ببقاء شيء من ذلك » اه

جنازه : كان الفقيد قد أبطل عادة هي انشاد قصائد الرثاء في تأبين أحد العلماء والمشايخ يصلون على الجثة في الجامع الازهر . وكان أوصى بالبساطة في الجناز وعدم التأبين على الضريح أيضا مما يذكرنا بوصايا الاستاذ المرحوم الدكتور فان ديك ولا غرو فالعظيم يهتم بالحقائق لا بالصغائر . ولكن القطر المصري مع حفظه وصية

(١) الصواب ان أول من عرف مرضه الدكتور طلعت بك المصري قبل سفره الى الاسكندريه بيوم او يومين ووافقه على ذلك طبيب فرنساوي ثم اشهر اطباء الافرنج والعرب في مصر والاسكندرية كما علم مما كتبناه عن مرضه

الامام قد احتفل رسميا بجناز رسمي على نفقة الحكومة وكان ترتيبه على هذا النسق
(وذكر ملخص ما قالته الجرائد المصرية ثم قال)

وزبدة القول ان الشرقي يفتخر في هذه البلاد البعيدة بين المتنورين من الاجانب بأعاظم رجال الشرق وكبار مصلحيه . ويشتد به الشعور بهذا الفخر الغريزي كلما طالت الشقة وشط المزار مما يدلك على تغلب الحاسة لوطنية على كل حاسة عند قوم يعقلون . ومن منا لا يطرب به ذكر مدحت باشا وفؤاد باشا وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده وغيرهم من نوابغ الشرق الذين حاولوا اصلاح فاسده وتقويم ما اعوج منه فلم يفلحوا لاسباب قد ذكرنا بعضها عرضا وأغفلنا عن ذكر أهمها ولو أنها لا تخفى عن كل عاقل بصير . ومدرك خبير يعرف داء الشرق فيعز عليه وصف الدواء . لان الحق للقوة والموت للضعفاء . هكذا قدارتأت الطبيعة فقالت ببقاء الاقوى في تنازع هذا البقاء اهـ

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾

هذا معظم ما وصل الينا من الجرائد العربية التي ابنت الاستاذ الامام وترجمته ومنها ما لم يصل الينا . أما جرائد سوريا وسائر البلاد العثمانية فقد منعها السلطان أن تذكر خبر وفاته بل تأبينه وترجمته بل كانت قبل ذلك ممنوعة من ذكر اسمه لان مجرد ذكر اسمه يستلزم تذكر الاصلاح والسياسة هناك تخشى ذلك وتتقيه ولله في خلقه شؤون

أقوال الجرائد الافرنجية

كتبت جريدة الايجبشيان غازت الانكليزية التي تصدر في القاهرة فى عددها الذي صدر فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ ماترجمته

مفتي الديار المصريه

تشييع جنازته بمصر اليوم

انا لأسف شديد الاسف ان نخبر الناس بموت الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في الساعة الخامسة من مساء امس في محطة (صفر) من الرمل مات الفقيد بسرطان في الكبد أصيب به من زمن بعيد ولكن لم يخش من سوء عاقبته عليه الا في الاسبوع الماضي فان الشيخ منذ اسبوع أو اسبوعين كان ينوي السفر الى أوربا ثم الى مراكش على ان العبد في التفكير والرب فى التدبير فقد قضى ذلك الرجل صاحب الاعمال الجمة الذي كان يظهر من حاله انه خلق ليعمل أكثر مما عمل ليضيء عقول اخوانه فى الدين فارق الدنيا وهو في السابعة والخسين من عمره وهو سن صغير بالنسبة لغيره وليس الحزن على فقده قاصرا على مسلمي مصر ولا على أهل الشرق كافة بل انه سيعم كثيرا من أصدقائه والمحبين به ممن ليسوا على دينه

(وبعد ان وصفت الجريدة تشييع الجنازة بالاسكندرية على نحو ما وصفته الجرائد الاخرى قالت):

ولد الشيخ محمد عبده في محلة نصر من مركز شبراخيت باقليم البحيرة سنة ١٨٤٨ وكان والده مزارعا يسمى الشيخ عبده وتربى في الجامع الازهر وفى سنة ١٢٩٥ هجرية نال شهادة العالمية ثم عين محررا للوقائع المصرية ثم اتهم بالاشتراك

مع العرابيين فحكم عليه بالنفي ونفي في سنة ١٨٨١ ولما كان في بيروت تزوج احدى بنات الشيخ حماده (١) وكان هناك يلقي دروسا فى الدين والتوحيد ثم عفي عنه في سنة ١٨٩٢ ولم يلبث بعد رجوعه الى مصر ان عين قاضيا في محكمة بنها ثم نقل الى الزقازيق ثم عين مستشارا في محكمة الاستئناف الاهلية وفي يونيه سنة ١٨٩٩ عينه الخديوي مفتيا للديار المصرية بدلا من الشيخ حسونه النواوي وكان عضوا في مجلس ادارة الازهر من سنة ١٨٩٤ الى أن تخلى عنه أخيرا . اه

(وجاء في العدد الصادر منها في ١٣ يوليه سنة ٩٠٥ ما ترجمته):

المشهد الرهيب

احتشد جم غفير من النـاس بمحطة مصر في الساعة الثانية بعد ظهر أمس ينتظرون وصـول القطار المقل لجثة المرحوم الشيـخ محمد عبده من الاسكندرية لدفنها في العاصمة وفي الساعة الثانية والدقيقة السادسة والخمسين بالضبط وصل القطار ووقف تجاه رصيف عدد ١ وما استقر به الوقوف حتى نزل منه من كانوا يرافقون الجثة من الاسكندرية فازدحم بهـم الرصيف فوق ازدحامه بمن كانوا عليه ثم أحاط هذا الجمهور بالعجلة التى كان فيها السرير ولما فتحت ابوابها وحمل السرير حاملوه عـلى أعناقهـم وعلى وجوههم علائم الكآبة والحزن انفرجت الجموع امامه متحيزة الى الجانبين مخلية الطريق له فنقل الى حجرة مفتوحة على الرصيف وأغلقت عليه ووقف على بابها أربعة من رجال الشرطة

ثم أخذت الجموع تتزايد والشرطيون يمنعون الناس من الوصول الى الرصيف الذى خصص لمن يتألف منهم المشهد وأمسى باب الدخول الى المحطة من الازدحام بحيث كان الوصول الى الرصيف في غاية الصعوبة وبعـد منتصف الساعة الرابعة بقليل انشأ المشيعون يفدون الى المحطة ويكثر عددهم من الساعة الرابعة وقد ناب عن كل نظارة وكل مصلحة من مصالح الحكومة العدد الكثير من رجالها فاشترك عمال الحكومة من المصريين والانكليز في الحضور لتشييع رجل قضى حياته كلها

(١) الصواب احدى عقيلات بيت حماده

في العمل لمسلمي مصر واستحق الاجلال والاعجاب من جميع من دانوه حتى ممن كانوا شديدي المعارضة لافكاره ومقاصده

وفي الساعة الرابعة حمل السرير من الغرفة التي كان وضع فيها و بارح المشهد المحطة من جهة باب الخروج سائرا في طريقه الى المدفن

(وهنا وصفت الجريدة ترتيب المشهد كما وصفه غيرها وذكرت من ذكرهم ثم قالت:)

ولقد كان مشهدا عظيما من اجل المشاهد واشدها تأثيرا وفي أثناء مروره كان يشتد زحامه بجماهير الناس المصطفين على جانبي الشوارع التي مر بها حتى لقد وقفت حال التجارة فيها وكان الناس في سكون واجلال مدة مرور الجنازة وكان يخيل للرائي ان جميع سكان القاهرة الوطنيين قد حضروا ليؤدوا آخر فريضة من الاجلال والاعظام لذلك الشيخ الجليل وكان يوجد بينهم أيضا عدد عظيم من الاوربيين (وهنا ذكرت الجريدة الشوارع التي سلكها المشهد الى المدفن كما ذكرها غيرها ثم قالت) وقد جاءنا من مكاتبنا بطنطا هذه الرسالة البرقية وهي : لقد أحدث موت المفتي هنا نعيا لا يوصف فكل الناس يعزي بعضهم بعضا على خسارتهم التي لا عوض لها ويسألون للفقيد الرحمة الالهية . اه

(وكتبت جريدة (اجبت) التي تصدر في القاهرة بالفرنسية والانكليزية في عددها الصادر في ١٢ يوليو ما ترجمته)

اخبار الصباح المصرية

توفي الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أي أحد من يشغلون أسمى المناصب الدينية الاسلامية وأعظمها نفوذا وكان مصابا بداء مؤلم طالت مدته ومن منذ ثلاثة أيام تتعاقب الرسائل البرقية متناقضة فبعضها مبشر بنقاهته و بعضها منذر باشتداد علته حتى قضي نحبه بالاسكندرية في الساعة السادسة من مساء أمس .

وسيكون خلق الشيخ محمد عبده وما قام به من الاعمال فى السياسة المصرية أو في حكومة المسلمين الوافدين على الازهر طلبا للعلم والدين موضوع مباحثات ومناظرات طويلة

ولا نريد الآن الا ان نذكر القراء بانه تعلم فى الازهر وكان تلميذا شديد الاخلاص للفيلسوف المرحوم الشيخ جمال الدين الافغاني

وأول عمل رسمي تولاه بعد خروجه من الازهر هو تحرير الجريدة الرسمية ثم نجمت الفتن العرابية فكان فيها عاملا نشيطا وقد نفي عقبها الى سوريا فكان فيها محبوبا مبجلا واشتغل هناك بالتعليم في مدارسها الكبرى وتزوج فيها بعد زواجه الاول (١) ولما عفا عنه الخديوي توفيق باشا عين قاضيا بالمحاكم الاهلية ثم رقي الى درجة مستشار في محكمة الاستئناف الاهلية

ولما رأى الجناب الخديوي المعظم ماامتاز به الشيخ محمد عبده من العقل المستضيء بنور العلم وحرية الفكر والنشاط وقدرها قدرها رقاه الى عمل مفتي الديار المصرية

كان المرحوم يتداخل طية نفسه في المناظرات السياسية والفلسفية وله عدة رسائل ومقالات نشرت في الجرائد ولا نزال نذكر مناظرته الكتابية في سنة ١٩٠٠ مع الموسيو جبرائيل هانوتو التى كان لها دوي عظيم فى العالم الاسلامي وله تفسير جزء من القرآن وكتاب في التوحيد

وكان يميل الى نظام الحكومة الحالي ميلا ظاهرا لانه كما كان يقول كان يقدر حريته حق قدرها وكان صديقا حميما لصاحب العطوفة مصطفى فهمي باشا الذي فقد بفقده مستشارا أمينا وناصحا صادقا وكانت الطبقة المتعلمة من الوطنيين تجل الفقيد كل الاجلال وأما العامة فانها لقلة وقوفها على تقدم العلم وحركة الفكر العامة لم تكن مستحسنة لخطته وأفكاره بتمامها

وكان الشيخ محمد عبده في معاملاته مع الاوربيين غاية في جمال المحاضرة وحسن الملاطفة فكان نديما حلو الفكاهة جليسا ساحر المحاورة

---

(١) أي بعد موت زوجته الاولى

وجاء في عدد هذه الجريدة الصادر في ١٣ يوليه سنه ٩٠٥ بقلم حضرة محمد طلعت حرب بك ماترجمته

وفاة الشيخ محمد عبده

لقد خسرت مصر والعالم الإسلامي خسارة كبرى بموت الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريه وسيبكي خسارة هـذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم فانه كان من أكبر رجال الإسلام الذين كانوا يتمنون ارجاعه الى مجده السابق

نشأ الشيخ محمد عبده نشأة رجل عادي فانه ولد من نحو ستين سنة في محلة نصر بمديريه البحيرة وتلقى دروسه الاول بالجامع الاحمدي بطنطا وأتمها فى الجامع الازهر المشهور ثم صار استاذا لنفسه وبما كان فيه من النهم في العرفان انكب على الدرس والمطالعه بقوة يندر وجودها في غيره وأمكنه بما أوتيه من ثبات العزيمه وقوة الادراك التي لا يمتري أحد في سموها ان يصير الى ما رآه الناس فيه وعرفوه منه أعني محيط علم حي فكان برهانا محسوسا على ما يكون لعزيمة الانسان من سعة الإمكان ولاسيما اذا عززتها قوة الجنان وجملة القول ان الشيخ محمد عبده كان هو المربي لعقله والمنشيء لادراكه وكان يخيل للعارف باحوال هذا الشيخ في جهاده المستمر ان أم المسائل التي كانت تشغله وأدعاها الى اهتمامه هي الدين الاسلامي الذي كان يريد إصلاحه لا بادخال مذاهب جديدة أوعبادات أخرى فيه ولكن بتنقيته وتجريده من الاوهام والآراء الفاسده التي أدخلها عليه الجهل أومقتضيات السياسة وجعله بالجملة كما كان قبل تشويه الجهل اياه الدين الحنيفي الذي كان يعلمه لأمته النبي عليه الصلاة والسلام

وقد كان للشيخ محمد عبده حساد ينقصونه كما كان لغيره من كبار المصلحين وأرباب العقول السامية فلم يذروا تهمة الا ألصقوها به بلا سبب، ولا دسيسة ولا وشاية ولا قذفا الا رموه به من غير ما ذنب، ولكن ذلك لم يعقه عن المداومة على سلوك نهجه غير كالّ ولا وانٍ حتى انتهى أمره بان ألزم حساده والجاهلين به كما

الزم خصومه واعداءه احترام آرائه وأفكاره

وهو وان كان قد صرعه الموت قبـل ان يذوق لذة اتمام عمله الشاق الذي فرضه على نفسه قد أوضح السبيل الى اتمامه وخلف عملا نافعا باقيا

وقد كان لمعاشرة الشيخ محمد عبده للشيخ جمال الدين الافغاني الذي هو اكبر فيلسوف شرقي معروف تأثير ظاهر في عقـله فكانت معاشرته لهذا الفيلسوف الذي كان هو نفسه الثانية مبدأ طموح نفس الشيـخ محمد عبده الى الافكار التي صارت من ذلك العهد غرضه الذي يعيش من أجل بلوغه الا وهى اصلاح الدين الاسلامي واحياء وطن الاسلام البعيد الاطراف وتجديد وحدته وعظمته

وكان يستعين ويستهدي في هذا العمل الشاق بقوة يقينه

ومن غريب الاتفاق ان نفس العلة التي اودت بالمرحوم الشيخ جمال الدين وهي السرطان هي التي اختطفت منا الشيخ محمد عبده

ولما قامت حوادث الفتنة العرابية كان الشيـخ محمد عبده متقلدا في نظارة الداخلية عمل محرر الجريدة الرسمية فظن ان الوقت قد حان للبداءة في تنفيذ خطته الواسعة في الاصلاح فسلك سبيل الفتنة بقلب سليم لمـا كان يلوح له من خلوها عن الاغراض الشخصية فى بدايتها ثم اضطر آخر الامر الى ان يجاهد فيها بعض الرؤساء ويقاوم طرقهم الملتوية الدالة على اطماعهم لان أفكارهم لم تكن مطابقة لامنيته المجردة من كل شوب وهي مصلحة الوطن والدين

وكان جزاؤه على مخالطته لرؤساء الفتنة ان حكم عليه بالنفي ولما رأى خيبة آماله اذ ذاك لجأ الى سوريا غير انه لم يكن ممن يسهل عليهم الاستكانة للغالب فلم يلبث ان استأنف جهاده السلمي لبلوغ أمنيته ولما عين استاذا في المدرسة السلطانية كان يعـلم فيها آداب اللغة والبيان وغيرها من الدروس العربية وهذا غير دروس تفسير القرآن التي كان يلقيها في المساجد

ثم دعاه السيد جمال الدين الى باريس فكان يعينه على تحرير العروة الوثقى ولما عاد الى سوريا استأنف دروسه التي لا يزال السوريون يحفظون لها أجل ذكر ماحل الشيـخ محمد عبده في مكان الا ترك له فيه معجبـين بعلمه وفضله

وإينما نزل صار كل من دانوه أحبابه وأصدقاءه

ولما عفا عنه الخديوي توفيق باشا عاد الى مصر فرجعت اليه جميع المحبات القديمة مع احترام كافة الناس وتبجيلهم ثم لم يلبث ان نوه به فضله وولعه الشديد بخير بلاده للقائمين بالامر فعين بعد قليل قاضيا في المحاكم الابتدائية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف وكان مع وجوده في هذا الميدان ميدان العدالة الفسيح لا يزال يحس بانه محرج وانه لا بد له من ميدان أوسع وأجل منه أي لا بد له من الطرق التي يستعين بها على بلوغ الغرض الذي يعيش من أجله باذلا في ذلك جهده وذلك الغرض هو اصلاح الدين وكان يعتمد حينئذ في الوصول اليه على مخلة كان يلوح له انها هي القادرة على رفع ذلك البناء وتلك المخلة هي الازهر تولدت في ذهنه فكرة توجيه الاصلاح في هذا السبيل الجديد فكان يريد ان يجعل الازهر واسطة في هداية العالم الاسلامي وتبصيره بدينه وان يجرد هذا الدين مما يحول دون معرفته من الصعوبات ومن الآراء الفاسدة التي حشاه بها الجهل وللوصول الى هذه الغاية فكر في أن ينشيء له مجلسا أي محكمة عليا دينية — ان صح تسميتها كذلك — لادارة شؤونه وبث نور العرفان في عقول الامة لمصلحة الاسلام الكبرى وهي غاية نبيلة جليلة وبفضل عنايته شكل المجلس وكان هو من أعضائه وكذلك الشيخ عبد الكريم سلمان صديقه من الصغر الذي كان موافقا له في أرائه وأفكاره

وقد حصل له بتشكيل هذا المجلس الامل ببلوغ غايته بلا عائق فانشأ يجدد ما رث من أصول الدين وينفخ في المسلمين روح العرفان ويرشدهم الى العلوم والفنون وجميع الامور الجليلة والافكار العظيمة التي كانت في سالف الايام زينة ملك الخلفاء

وانه ليسوءنا ان نقول انه مع مساعدات المخلصين التي تيسر له الحصول عليها لم تأت النتيجة مطابقة لما كان يرجوه تمام المطابقة فقد قام روح معاكس له فعوق العمل الكبير الذي كان يباشره بكثير من النزاهة والاخلاص والاقدام نوعا من التعويق

وهو على بذل جل همته في تحصيل الغبطة والسعادة للعقول لم يغفل السعي

فى تحصيل الراحه والرفاهية للابدان فلم ينس الفقراء والبائسين لعلمه حق العلم بان البؤس فى الامم مدعاة الى اضمحلال العقول فاسس الجمعية الخيرية التي كان هو روحها الذي به تقوم والفضل في بقاء هـذه الجمعية ونجاحها راجع الى همته التي لا تغفل واخلاصه الذي لا يتغير

ولما عينته الحكومة مفتيا للديار المصرية أثبت في هذا المنصب أيضا كفاءته للقيام به وكان من مقتضيات توليه ان صار له حق الجلوس في مجلس الشورى فكان عضوا في كل لجنة من لجانه وكان هو المرشد الثقة لرفقائه في بحث جميع القوانين واللوائح أو إعدادها

وكان في مجلس الاوقاف الاعلى هو المدافع عن الحقوق والاصول المقدسة التي بنيت عليها هذه المصلحة النافعة

وقد كان فوق كل ماتقدم كما قلنا شـديد الحب لوطنه مخلصا في اسلامه واذا كان قد وجد له عيابون قادحون بما كان عيبهم مبنيا على الحكم بالظواهر فان مادحيه والمعجبين به اوفر منهم عددا وهم ينصفونه و يعرفون له قدره

وسيذكر من عاشروه أودانوه فقط جميل محاضرته وحسن تلطفه وجاذب ابتسامه الدال على سلامة طويته بل انه كان يعظ أصدقاءه ويوصيهم بلين الجانب والتلطف وكان له فى ذلك كلمة تؤيد هذه الوصية وهي قوله « انك لتصطاد من الذباب بملعقة من العسل أكثر مما تصطاده ببرميل من الخل »

كان الشيخ محمد عبده نهما في الاطلاع والتعلم ليكون أصوب حكما واسد رأيا ولذلك ساح كثيرا فى بلاد أوربا و بلاد المشرق باحثا اينما حل عما عساه ينفع للعـمل الجليل الذي ابتدأه وكان يدرس غير متشيع الى مذهب ضروب الحضارة والاخلاق عند جميع الامم بحرية فى الفكر وجولان فى الرأي يندر وجودهما في هذه الايام وجوابه البليغ على مقالات الموسيو هانوتو فى الاسـلام دليل على اننا سائرون في سبيل التقدم فقد كشف هذا الجواب النقاب عن سعة علمه واضطلاعه وتسامحه الذي عرف ان يدهش الناس به لوقوعه فى جانب التهجم الذي حصل من الموسيو هانوتو

وقد ترك كتابات كثيرة يتيسر للمطلع عليها ان يجد في جميعها المبادىء التي كان يسير عليها في حياته وهي الآن مبادىء تلامذته الذين تبعوا طريقته وسيتنافسون في حفظ ذكراه

اني كنت أعرف الرجل معرفة ذاتية فانا أشد تأثرا لفقده ممن لم يعرفوه ومثل غيري من معارفه الكثيرين في هذا التأثر فقد كان شديد الحب لوطنه ووطننا وفي هذا المقام أرفع له واجب المدح مع مزيد الحزن والاسف على فراقه وأرجو ان يوجد في هذه البلاد التي بث فيها كثيرا من الافكار الصالحة الشريفة عقول وهمم أخرى تستأنف السير على النهج الواضح الذي اختطه لها

بينما كنت أخط هذه الاسطر اذ لقيت رسالة برقية من بلدة إسبا ببلاد بلجيكا تنعي لي وفاة الدكتور سدني سميث وهو موسر أمريكي واسع الادراك والفكر محب للاسلام ومعجب بالشيخ محمد عبده الذي كان من أصدقائه

لا تقع مصيبة وحدها قد فقد انطفأ نبراسا هذين العقلين في يوم واحد وهما على تباعدهما في المنشأ قد تقاربا بالاشتراك في الافكار والآراء

وسيدني سميث هذا الذي جمعتني واياه الالفة الاكيدة كان هو الاستقامة المجسمة وكان له عندي فوق ذلك الخصيصة الكبرى وهي محبته لبلادي وديني وذوده عنهما فانه كان تعلم كيف يعرف الدين الاسلامي ولهذا تراني أجد وقع مصابه مضاعفا وليس في وسعي أن أمدحه بأكثر من اشتراكه هنا في السلام الذي أهديه من قلبي الحزين الى فقيدنا الذي هو نفسه كان يطريه ويعجب به كثيراً . اه

تحريراً في ١٢ يوليه سنة ١٩٠٥ محمد طلعت

حرب

وكتبت جريدة البيراميد الفرنسية (الاهرام) في عددها الصادر بالقاهرة في ١٢ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته

موت الشيخ محمد عبده

قد توفي الشيخ محمد عبده إثر انتكاس قوي وكانت حالته الصحية من بضعة ايام داعية الى قلق ممرضيه واخوانه قلقا شديدا توفي بالاسكندرية حيث كان ينوي السفر منها الى اوربا فمنعه منه عشية الاستعداد له علة مكينة مؤلمة ولما بلغ نعيه المحزن القاهرة مساء امس كان شديد الوقع على النفوس لان تقارير الاطباء في الاسبوع الماضي كانت تؤذن بشفائه فساء الناس ان كان ذلك التحسن الظاهر نذير الموت الذي اختطفه من أوليائه وخلانه. انطفأ نبراس حياة ذلك الشيخ الجليل في الساعة السادسة من مساء أمس

زال بزوال مفتي الديار المصرية رجل من أكبر الرجال في العالم الاسلامي وفقدت مصر فيه سراج علم من أضواء السرج وجميع من عرفوا الشيخ محمد عبده معرفة قريبة أو بعيدة من أي أمة كانوا والى أي دين ينتسبون آسفون أسفا حقيقيا شديدا أن غاب عن مشهد هذا العالم مثل ذهنه المستنير وعقله المثقف ونفسه الكريمة .

ولد الشيخ محمد عبده في محلة نصر (باقليم البحيرة) وتلقى دروسه الاولى في الجامع الازهر على الشيخ عليش الذى كان اذ ذاك شيخا لهذا الجامع (كذا) فامتاز عن جميع اخوانه من الطلبة بحدة ذهنه وهمته في العمل فكان في شبيبته مُعنىً العقل في طلب العلم دائم النهم في تحصيل المعارف غير قانع باغترافها من ينابيعها الأزهرية واتفق في ذلك الوقت ان السيد جمال الدين الافغاني كان يلقي دروسا على نخبة من شبان المسلمين فاسترعت ذهنه فانخرط في سلك تلاميذ ذلك العالم الكبير الذي كان صاحب الدولة رياض باشا استقدمه من القسطنطينية للتعليم في الازهر وقد اقتبس منه أفكاره الحكمية الحرة فكان غرضه الذي يرمي إليه فكرة الانسلاخ عن التقاليد العتيقة والتوفيق بين العلم والدين ولما كانت جراثيم هذا

الاصل قد ألقيت في نفسه كان لابد ان تؤتي فيما بعد ثمارا ثمينة جليلة ·

وفي سنة ١٨٧٩ عين مدرسا في مدرسة الالسن غير انه لم يلبث ان ارتاب في أمره الخديوي اسماعيل باشا فصدر اليه أمره بالابتعاد الى مسقط رأسه (محلة نصر) وأما شيخه جمال الدين فانه نفي من القطر المصري وبعد مضي سنة من ذلك عاد رياض باشا الى الوزارة فاستعاد الشيخ محمد عبده الى مصر وعهد اليه بتحرير الجزء العربي من الجرنال الرسمي فبقي في هذا المنصب الى ان قامت الحوادث التي غيرت أحوال مصر وأفضت الى دخول بريطانيا العظمى فيها وبما اتهم في الثورة العرابية بحق أو بغير حق حكم عليه بالنفي فغادر مصر الى سوريا حيث اشتغل بالتعليم في كبريات مدارسها وأخص ماعني بالقائه فيها تفسير رسائل سيدنا علي بن أبي طالب فطار بهاصيته وذاع بها ذكره

كان الشيخ محبوبا محترما من جميع الناس وكان يعيش عيشة وادعة ويبذل لتلاميذه كنوز علمه الواسع وقد تعرف في بيروت بمحيي الدين بك حماده الذي كان لحادثته الاخيرة اسوأ وقع في القاهرة وتزوج بنت (أخي) هذا الصديق الجديد وبعد ذلك بثلاث سنين سافر الى باريس حيث لقي استاذه القديم الشيخ جمال الدين وكان هذا الحكيم الكبير يأنس من نفسه ميلا اليه لما ادهشه من ألمعيته وفرط ذكائه وقد تجلى هذا الميل في مظهر محبة فائقة له وكان الشيخ جمال الدين يعيش في مدينة النور (يعني باريس) بين عصابة من المعجبين به فقبلوا ان يكون هذا الشاب المنفي في زمرتهم وكان هذا الاختلاط المستمر والاحتكاك الدائم بهم سببا في نمو افكاره الحرة وبلوغها من القوة الى حد ان ظهر أثرها في سيرته بقية حياته وقد انشأ بمساعدة استاذه جريدة عربية سماها العروة الوثقى لم تطل مدة بقائها

ولما عفا عنه الخديوي المرحوم توفيق باشا في سنة ١٨٨٧ بادر بالرجوع الى مصر حيث لم يلبث ان لفت الانظار اليه بفضله ومعارفه الغزيرة في المسائل الدينية والادبية وقد نشر تفسيرا للقرآن يعتبره العارفون وهم محقون انه خير التفاسير وقد حظي الناس منه أيضا برسالة في التوحيد

كان شريفا في تواضعه بشوشا في معاملته للناس فلم يلبث ان استمال قلوبهم

اليه وكثر فيهم احباؤه واصدقاوه ولقد خلب عقول جمع من حظوا بصحبته بسحر منطقه وحلاوة آدابه وبالحسن المنبعث من ذاته كلها ولقد كان يخلص لرائيه جمال لاوصف له من عينيه الصغير تين البحاثتين اللتين كان يخيل لمن يراهما أنهما على الدوام تغوصان في عالم المجهولات

قبل ان يرقى الشيخ محمد عبده لى منصب الافتاء في عام ١٨٩٧ كان عاملا في المحاكم الاهلية فقد ولي القضاء في محكمة بنها ثم نقل الى محكمة الزقازيق ومنها الى مصر و بلغ في سنة ١٨٩٠ بكفائته واستعداده منصب مستشار فى محكمة الاستئناف الاهلية ولكنه لم يبين للناس حرية الفكر والتسامح اللذين بثهما في نفسه جمال الدين الا وهو فى منصب الافتاء وكانت تعاليمه تدور على أمر واحد وهو التوفيق بين العلم وأصول القرآن

كان للشيخ محمد عبده نفوذ كبير في حياة بلاده الداخلية سواء كان ذلك من جهة الدين أو من جهة السياسة فبما كان مفتيا كان يرجع اليه المسلمون في حل مايشكل عليهم من المسائل الشرعية و بما كان عضوا فى مجلس الشورى كان حكما لاعضاء الجمعية العمومية الاجلاء يوضح لهم دقائق المباحثات والمجادلات و يوحي اليهم بالمشروعات القانونية وقد برهن في كلا العملية على ما كان له من سعة الفكر والبصر بالامور الذي يندر وجوده في غيره

كثيرا ما كان الشيخ محمد عبده كغيره من المشتغلين بحياة البلاد السياسية والادبية هدفا لمطاعن لا يسلم منها امثاله غير انه قد وجد له معارضون في بعض طوائف من الناس ولم يكن له بينهم أعداء مطلقا فان ما أوتيه من المعارف وحسن السمت الدال على الشمم والشرف كان يوجب اجلاله وتعظيمه حتى ان معارضيه أنفسهم ما كانوا يأبون عليه أداء مايجب له من الاعجاب والاستحسان

وليس من حقنا ان نتوسع فى بيان عمله من الوجهة الدينية فالكلام فيه من المسائل الدقيقة التي لاحق في الخوض فيها الا لاخوانه في الدين وانما لا يسعنا ان لا نقول انه من حيث كان عضوا فى مجلس الشورى قد أدى واجبه أكمل أداء وأشرفه فقد ذب عن مصالح البلاد بمقدار ماسمحت له به أحوال مصر الآن

ور بما عاب عليه بعض الناس شيئا من الضعف في بعض المواطن ولكن كان له في ذلك عذر فانه كان لا بد له ان يرضخ لصروف الزمن وحوادث الايام

ومن ذا الذي لا يذكر له مقابلته الواجبة التذكار للمستشار القضائي في هذه الايام الاخيرة بسبب انشاء محاكم الجنايات فانه لما كان رئيسا للجنة التي نيط بها درس مشروع قانون هذه المحاكم كان من رأيه ورأي اخوانه المعارضة في تنفيذه غير ان المستشار صرح بان لا يسلم برفض هذا القانون فاضطر الشيخ محمد عبده الى الامتثال لانه لم يكن في وسعه غيره واجتهد في ان يحوز ذلك المشروع التحوير الذي يراه ضروريا وكان أشد من ذلك اقداما في معارضة الحكومة عند المناقشة في مشروع قانون مرسى مطروح وبهمته ومساعدة اخوانه أيضا عدلت الحكومة عن هذا المشروع الذي سيحور تحويرا كبيرا

ولا ينبغي ان ننسى أيضا انه هو صاحب مشروع لائحة تشكيل المحاكم الشرعية الذي عرض في هذه الايام الاخيرة على نظارة الحقانية فهذا المشروع ونظام التدريس الذي وضعه لمدرسة القضاة الشرعيين هما آخر أعماله التي تفضل بها على بلاده وقد دهمه الموت قبل ان يفرح برؤية ثمارهما

للشيخ محمد عبده على مصر اياد كثيرة ومن أجل هذا نرى جميع أهلها في حزن وألم شديد لموته . اه

وجاء في عددها الصادر في ١٣ يوليه سنة ١٩٠٥ وصف تشييع الجنازة بالاسكندرية والقاهرة على نحو ما ذكرته الفارد الكسندري (كما سيأتي) وزادت البيراميد أنه عند قيام الجثة من محطة باكوس أوعز رئيس مدرسة الفرير بدق الاجراس فدقت فكان لاعلان هذا الاجلال والميل وقع عظيم في نفوس المشيعين

جريدة البروجريه

جاء في عددها الصادر في القاهرة باللغة الفرنسية في يوم الاربعاء ١٢ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته

توفي الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في منتصف الساعة السادسة من

مساء أمس وستنقل جثته على قطار مخصوص الى القاهرة فتصلها الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد الظهر ويبقى النعش في المحطة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر وفيها يسير المشهد

وسيتبع المشهد في مسيره هذا النظام وهو أن يمر بشارع كامل امام لوكاندة شبرد فميدان الاوبرا فالعتبة الخضراء فشارع الموسكي حتى يصل الى شارع الحلوجي ومنه الى الجامع الازهر حيث يصلى عليه ثم تنقل الجثة بعد الى مقبرة العفيفي بالقرب من مقبرة الشيخ الامبابي وتدفن هناك

وقد أرسل عطوفة فخري باشا مقام الجناب الخديوي أمره الى جميع كبار عمال الحكومة بأن يحضروا الجنازة . اه

وجاء في عددها الصادر في ١٣ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته:

شيعت جنازة الشيخ محمد عبده كما قلنا أمس في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم وكان يتقدم المشهد فصيلة من فرسان البوليس ويحمل النعش نفر من طلبة الازهر ويتبعه مباشرة مئات من مشايخ الازهر وعلمائه ووراءهم مستشارو الاستئناف والمحامون الوطنيون وعمال نظارة الحقانية والمحاكم الاهلية وعلي بك شاهين من قبل الجناب الخديوي وعطوفة ابراهيم باشا فؤاد عن الحكومة وكان أكثر من خمسة آلاف نفس يمشون مع الجنازة فكان مشهدها مؤثرا ولم يحصل شيء يخل بالأمن والفضل في ذلك لما اتخذه سعادة منسفيلد باشا من الطرق الاحتياطية . اه

جريدة الجورنال دوكير الفرنسية

جاء في عددها الصادر بالقاهرة في ١٢ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته

لاشك ان مصر قد ابتليت في هذه الايام الاخيرة بكثير من المحن ففي شهر دسمبر فقدت محسنها الكبير واليوم فقدت أكبر علمائها وأشهرهم وهو الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ونعي هذا الرجل المبجل لن يقتصر على مصر بل أنه سيكون له رنة في جميع ارجاء العالم الاسلامي كالهند وسوريا والجزائر وجنوب أفريقيا فان الشيخ كان معروفا في كل مكان ومحترما عند جميع الناس وقدمات

وله من العمر ٥٨ سنة

أصاب المفتي داء عضال وهو سرطان في الكبد فكان عازماً على مبارحة مصر الى أوربا لتبديل الهواء ولكن الاطباء المعالجين له منعوه من أي انتقال عشية يوم السفر لان حالة المرض كانت تقضي بذلك فاقام بمحطة شوتس (١) بالرمل حيث قضى نحبه في الساعة السادسة من مساء أمس مع بذل الاطباء جميع مالديهم من العناية في مداواته وقد فقد الناس الامل في شفائه من يومين واشتغلت نظارة الحقانية وحكمدارية البوليس باصدار التعليمات الرسمية للاستعداد لتشييع جنازته تشييعا يليق بمقامه وماعرف خبر وفاته في القاهرة حتى بادر رصفاؤنا الوطنيون باصدار الملحقات الناعية لاهل مصر مصيبتهم بفقده وإنا مقتصرون هنا على ايراد شيء من ترجمة حياة الشيخ فنقول :

تربى مفتي الديار المصرية في الجامع الازهر بعيدا من أهله وذويه وكان تلميذا للفيلسوف المعروف جمال الدين ويقول العارفون به معرفة أكيدة أنه كانت له طريقة عجيبة يهتدي بها في طريق التعليم وقد أتم دروسه في بلاده ثم كملها باسفاره في أفريقيا وآسيا وأوربا وبعد خروجه من الازهر عين محررا للوقائع المصرية واستمر في هذا العمل الرسمي الى سنة ١٨٨٢ وفيها اشترك في الثورة العرابية وبسببها نفي الى سوريا وهناك عين معلما في مدارس الحكومة الكبرى

ثم عاد الشيخ الى مصر بعد ان نال عفو الخديوي السابق توفيق باشا وعين قاضياً بالمحاكم الاهلية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف الاهلية ثم مستشارا في نظارة الحقانية (٢) وفي ٧ رجب سنة ١٣١٣ الموافق ٤ يناير سنة ١٨٩٥ قررت الحكومة انشاء مجلس ادارة للازهر وعين الشيخ مندوبا للحكومة فيه ويذكر

---

(١) ان الدار التي مرض فيها وتوفي كانت قريبة من محطة سوتش هذه ولكنها أقرب الى محطة صفر ولذلك اختلف فيها قول الجرائد

(٢) كذا قالته هذه الجريدة والامر ليس كذلك وانما أخذته من ان المرحوم لما عين مفتيا للديار المصرية كلف نفسه التفتيش على المحاكم الشرعية على عموم القطر فاجابته الحقانية ففعل وقدم تقريره المعروف في اصلاح هذه المحاكم

أنه استقال من هذا العمل في ١٩ مارس الماضي بسبب حادثة طنطنت بها الصحف وتبعه في هذه الاستقالة عضوان آخران.

عين الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية في ٣ يونيه سنة ١٨٩٩ بدلا من الشيخ حسونه النواوي الذي استقال من هذا المنصب

وللمفتي كتاب في التوحيد وتفسير لعدة من سور القرآن وجملة من الفتاوى وكان ينشر ما يلقيه في الجامع الازهر من دروس التفسير في مجلة وطنية مخصوصة ولكن أجل مأثرة كانت له وستكون على ممر الدهور هي اصلاحه للازهر فقد كان في مقدمة الرجال العارفين العقلاء الذين في استطاعتهم ان يعرفوا سوء حالة التعليم في هذه المدرسة لانهم بعد ان تخرجوا منها بادروا بالابتعاد عن تأثير تعليمها بما أوتوه من العقل العالي

كان الشيخ محمد عبده واقفا على حضارة الامم الحديثة وتاريخ الامم القديمة ولهذا وقف جزءا عظيما من حياته على تحقيق فكرة اصلاح الاحوال في الازهر واصلاح التربية الاسلامية برمتها وكان يعتبر من الاصلاح الضروري أن يصل بين الشرق والغرب و بين الحضارة الاسلامية والحضارة الاوربية وكانت هذه الحقيقة دائما تجول في نفسه وهي ان الاوربيين يجهلون حقيقة الاسلام والمسلمون عاجزون عن تفهيمهم حسن عقيدتهم لانهم أنفسهم على غير يقين فيها لا من جهة العلم ولا من جهة العمل ولا من جهة الاخلاق

ابتدأ عمل المفتي في الاصلاح من عهد الخديوي السابق توفيق باشا فانه في ذلك العهد استقل بادخال بعض اصلاحات قانونية فيه ولبغض الازهر بين له تبين له ان لا يمكن الاستمرار على اتمام ما وضعه من أمور الاصلاح بدون مساعدة الخديوي ولم يكن توفيق باشا ميالا لمساعدته ولما تولى الخديوي عباس باشا لم يلبث الشيخ ان شكل مجلس ادارة للازهر مكلف بملاحظة التعليم والتربية فيه وجعل الجناب الخديوي تحت تصرفه مبلغا قرر في ميزانية الاوقاف ونظارة المالية أعدت له أيضا مبلغا آخر وقد جرى الاصلاح جريا حثيثا بهمة الشيخ الذي كان مندوبا للحكومة في المجلس ولم يظهر أحد بمعارضته وان كان أهل الازهر قد طلبوا مرارا

تأجيل تنفيذ بعض الاعمال بحجه وجوب ارجائها ليكون الابطاء فيها أنجح لها

وقد حدثت بالازهر عدة حوادث كان من نتائجها تعاقب جملة مشايخ على المشيخه وهم الشيخ حسونه (١) والشيخ سليم البشري والشيخ علي الببلاوي والشيخ الشربيني وكانت فيه قلاقل اقترن بها اسم الشيخ محمد عبده

وانضم الى تلك الحوادث حوادث أخرى كفتوى الشيخ بحل أكل ذبائح الكتابيين ولبس ملابسهم لعدم تصريح القرآن بالمنع منه خصوصاً لمن هم مضطرون الى معاشرة الاوربيين

كان المفتي يتداخل في كثير من المناظرات الفلسفيه بل والسياسيه وقد كتب عددا وافرا من الرسائل والمقالات في الجرائد

ونحن لا ننسى مناظرته الكتابية في سنة ١٩٠٢ للموسيو جبرائيل هانوتو بسبب مقالاته التي نشرها عن الاسلام فى جورنال باريس فقد كان لهذه المناظرة دوي عظيم في العالم الاسلامي

وقد سافر مفتي الديار المصرية كثيرا الى تونس والجزائر وكتبت جريدة التان الفرنسيه في هذه الايام في ذلك هذه الجملة فقالت: ان المصريين أكثر المسلمين تقدما وسببه اختلاطهم بالاوربيين وجامعهم الازهر ينشر ما سمعتموه الآن من الافكار في جميع انحاء العالم الاسلامي وقد سافر الشيخ محمد عبده حديثا الى تونس لبث هذه الافكار:

وقد حصل بينه و بين رياض باشا والحزب الوطني المصري بعض الشقاق كما هو معروف

كان الشيخ محمد عبده قبل كل شيء رجل همة وعمل وكان صديقاً حميما ومستشارا أصيل الرأي للجناب الخديوي ولرئيس مجلس النظار واللورد كرومر وكانت طبقة المتعلمين من الوطنيين والطوائف المختلفة من الاوربيين جميعهم أحباباً له وربما كان بعضهم غير موافق له في آرائه ولكن يستحيل ان لا يعتقد فيه هذا المخالف حسن النية وثبات الاعتقاد وكان الشيخ رئيسا للجمعية الخيرية الاسلامية بل كان

(١) نسي الكاتب الشيخ عبد الرحمن القطب وكان بعد حسونه

مساعدا لكل عمل خيري فمن ذلك اعانته للحزب المصري الذي أنشيء لمحاربة السل الدرني بكل مافي وسعه من الهمة والنفوذ

وجملة القول ان مصر قد فقدت عالما من أكبر علمائها ورجلا عريض العلم غزير لادب غاية في حسن المحاضرة وليس الاسف على فقده قاصرا على مصر بل انه سيعم العالم الاسلامي باسره

تشييع الجنازة

ستنقل جثة المفتي على قطار مخصوص يبلغ مصر اليوم الساعة الرابعة بعد الظهر وسيجتمع المشهد في المحطة ليسير بالجثة الى المدفن مارا بميدان باب الحديد فشارع نوبار فشارع كامل فميدان الاوبرا فالموسكي فالسكة الجديدة فالجامع الازهر حيث تصلى صلاة الجنازة المعتادة ويدفن بقرافة المجاورين وسيكون تشييع الجنازة على نفقة الحكومة ويقام المأتم ثلاثة أيام بمنزل الفقيد بعين شمس . اه

وجاء في عدد هذه الجريدة الصادر في ١٣ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته:

حياة شيخ — عمله — جنازة المفتي — كمال البساطة في مشهده — مقالات الجرائد فيه — جزاؤه المستحق من المديح

ما برح موت مفتي الديار المصرية يعد حادثة اليوم في مصر وفي جميع العالم الاسلامي فلا حديث للناس الا هو وذلك برهان جديد على ما كان للفقيد من المكانة السامية ولذلك يهمنا ان نثبت هنا شأن تفاصيل حياته وتواريخها .

لم يكن الشيخ محمد عبده من البيوتات الشهيرة فانه ولد في سنة ١٨٤٨ أفرنجية في محلة نصر بمركز شبراخيت (من مديرية البحيرة) وكان أبوه يدعى سليم عبده (١) وهو من مزارعي تلك القرية و بعد ان أتم الشيخ دروسه بالازهر نال درجة العالمية في سنة ١٨٧٨ وكان تلميذا للشيخ عليش وللشيخ جمال الدين الافغاني الذي استحضره صاحب الدولة رياض باشا من الاستانة بمرتب شهري قدره ٢٥ جنيها ليعلم في الازهر الحكمة وعلم الكلام والعلوم الدينية وقد أثبت الشيخ محمد

---

(١) كان اسم والده (عبده) فقط فلفظ سليم زائد

عبده استحقاقه لان يكون تلميذا للحكيم الافغاني كما أثبت ذلك كل من الشيخ عبد الكريم سلمان العضو بالمحكمة الشرعية الكبرى وابراهيم بك اللقاني المحامي والشيخ وفا محمد وقد قاوم طلبة الازهر الشيخ جمال الدين ووقفوا في سبيله وقفة بلغت الى حد أن اضطر شيخ الازهر الى اخراجه مع تلامذته من مسجد سيدنا الحسين (كذا)

وفي سنة ١٨٧٩ عين صاحب الدولة رياض باشا الشيخ محمد عبده مدرسا بمدرسة الالسن ولم يمض على ذلك غير قليل حتى أسقط اسماعيل باشا (كذا) وزارة رياض باشا ونفى الافغاني وارجع الفقيد الى بلدته في البحيرة ولما عاد رياض باشا الى الوزارة في عهد توفيق باشا عين الشيخ محمد عبده محررا للوقائع المصرية (القسم العربي من الجرنال الرسمي) فكان يحرره بمساعدة الشيخ عبد الكريم سلمان وسعد بك زغلول وابراهيم بك الهلباوي والسيد وفا محمد

وفي ذلك الوقت حدثت الثورة العرابية فكان الشيخ محمد عبده فيها مستشار العرابيين المسموع الكلمة على عدم استحسانه لاعمالهم بل أنه حمى سراي رياض باشا من أفعالهم العدوانية

وعند احتلال الانكليز للقاهرة في سنة ١٨٨٢ قبض على الشيخ محمد عبده كما قبض على عدة من اخوان عرابي وحبسوا في المحل المعد للدائرة السنية وفي سبتمبر سنة ١٨٨٢ سيق الى المحاكمة متهما بأن من ضمن أعماله أن نشر فتوى مقتضاها خلع توفيق باشا فعين له صديقه المستر ولفريد بلانت المحامي الانكليزي برودلي وانتهت المحاكمة بأن قضي عليه بالنفي ثلاث سنين بل انه يحكى أن الشيخ لجأ الى الهرب وأن الحكومة أعلنت هربه في الجرنال الرسمي ستة أشهر متتابعة واعدة من يقبض عليه بأن تكافأه بعشرة آلاف جنيه مصرية وكان الشيخ اذ ذاك في باريس (الصواب ان هذا الهارب عبد الله أفندي نديم)

ثم أنه نفي بعد ذلك الى سوريا فعين مدرسا للمدرسة السلطانية ببيروت وأقام في سوريا أربع سنين فى أثنائها عرف محيي الدين حماده بك الذي قبض عليه في هذه الايام الاخيرة عند بلوغه بيروت آتيا من سفرة ولم يفرج عنه الا بتوسط

السفارة الانكليزية في الاستانة وكانت معرفته به سببا في ان تزوج الفقيد بنته

وفى سنة ١٨٨٦ ذهب الشيخ محمد عبده الى باريس حيث لقي أستاذه الشيخ جمال الدين الافغاني ونشر معه جريدة لم يطل عمرها وهي المسماة بالعروة الوثقى التي منع دخولها مصر ثم فى سنة ١٨٨٧ عفى عنه الخديوي توفيق باشا فرجع الى مصر وعين قاضيا في محاكم بنها والزقازيق ومصر وفى سنة ١٨٩٠ عين مستشارا فى محكمة الاستئناف الاهلية وفى ٢٠ يونيه سنة ١٨٩٩ عين مفتيا للديار المصرية

وفوق هذا العمل الرفيع كان الشيخ محمد عبده عضوا في مجلس الشورى وفى الجمعية العمومية وفى مجلس الاوقاف الأعلى وفى اللجنة التشريعية بنظارة الحقانية ورئيساً للجمعية الخيرية الاسلامية وعضوا في مجلس ادارة الازهر وقد قام في جميع هذه المناصب بالخدم الجليلة المشهورة وكان رحمه الله برا من أحسن البارين ومحسنا من أجل المحسنين فكان يبذل جزاء عظيماً من ايراده لمواساة البائسين ومساعدة المحدودين

لم يعقب الشيخ محمد عبده ذكورا بل ترك أربع بنات اثنتان منهن متزوجتان بمحمد بك يوسف وعثمان أفندي يوسف والاخريان تعيشان مع عمهما حموده بك عبده المحامي

مات الشيخ محمد عبده كما قلنا أمس بسرطان في الكبد وهو نفس العلة التي مات بها أستاذه الحكيم الشيخ جمال الدين الافغاني وكان أصابه برد في سفره الاخير الى السودان في شهر فبراير الماضي ومن ذلك الحين ظهر المرض ظهورا شديدا

وقد تكفلت الحكومة بتشييع جنازته فاحتفلت به احتفالا يليق بمقامه

(ثم وصفت الجريدة تشييع الجنازة في مدينتي مصر واسكندرية على نحو ما ذكرته الجرائد الاخرى وزادت ان القطار المقل لجثة الفقيد كلما كان يقف بمحطة كانت تحتشد فيها العامة لاستقباله وهي مكتئبة حزينة — وامتازت هذه الجريدة بان نقلت شذرات مما كتبته معظم الجرائد الافرنكية والعربية في تأبين الفقيد ولكنها أخطأت في مسائل صححنا بعضها وأشرنا الى بعضها بكلمة (كذا)

وجاء في عدد هذه الجريدة الصادر في ١٤ يوليه ماترجمته

مفتي مصر

قلنا بالامس ان جنازة الشيخ محمد عبده كانت كلها عنوانا للبساطة والخلو من البدع موافقة لمذهبه فلم يكن فيها أحد من القراء ولا من حملة المباخر ولا من حملة المصاحف ومما يذكر لهذه المناسبة ان المفتي لما شيعت جنازة احدى اخواته (١) منع كل هذه التقاليد منعا كليا لانه كان يعدها مخالفة للدين

وقد جرى الناس في تشييع جنازته على الاصول التي كان يعلمها في حياته فمن ذلك ان أحد أهل الازهر كان يريد ان يتلو قصيدة في تأبينه فاسكته الشيخ عبد الكريم سلمان قائلا ان الشيخ قد أبطل هذه العادة (من الازهر) في حياته

و بعد ان صلى عليه الشيخ حسونه صلاة الجنازة دفن في قرافة المجاورين ولما أراد بعض الخطباء ان يؤبنوه نبههم سعادة حسن عاصم باشا الى ان كثيرا من أصدقائه يروم ارجاء التأبين الى وقت آخر وجعله في مكان آخر فكان ماقاله

ومما نزيده على ما قلناه ان رصفاءنا أصحاب الجرائد العربيـة قد نشروا مقالات مطولة في هـذه الحادثة وعند كلامهم أمس على الجنازة كانت عناوين مقالاتهم كما ترى: جنازة الفقيد ــ مشهد المأسوف عليه المفتي ــ جنازة الفقيد المفتي: وقد نشر معظمهم قصائد شائقة شديدة التأثير ومن الاتفاق الغريب ان اليوم الذي مات فيه المفتي هو نفسه اليوم الذي مات فيه بانكلترا السير وليم موير الذي قضى حياته كلها محاربا للاسلام في كتاباته ودروسه

ولنختم القول في هذا الموضوع بان ماذكره عدة من رصفائنا من الاخبار عن خلف المفتي سابقة أوانها فانه لايبت شيء في هذا الامر قبل عود الجناب الخديوي الى مصر ورجوع عطوفة رئيس مجلس النظار وجناب اللورد كرومر. اهـ

---

(١) الصواب أمه لا احدى اخواته

جريدة الفارد الكسندري

جاء في عددها الصادر بالاسكندرية باللغة الفرنسية فى ١٢ يوليه سنة ١٩٠٥ بعنوان مفتي الديار المصرية ماترجمته :

نعلن للناس وأسفنا شديد أن مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده كان حضر من بضعة أسابيع الى رمل الاسكندرية على نية السفر الى أوربا تغييرا للهواء فاخترمته المنية أمس فى الساعة الخامسة مساء وهو فى الثامنة والخمسين من عمره وكانت وفاته بمنزل سعادة محمد راسم بك فى صفر بالرمل

توفى الشيخ محمد عبده إثر داء فى الكبد لم يمهله الا مدة قصيرة وقد كان مشهورا في العالم الاسلامي وكان جميع طلبة الجامع الازهر يقدرون معارفه قدرها والمعروف عن هذا الجامع انه يحتوي على أكثر من عشرين ألف طالب (كذا) يفدون اليه من جميع البلاد

وقد تخرج الشيخ محمد عبده نفسه منه فشهره بجدارته ونبوغه وكان تلميذا لفيلسوف الشرق الكبير الشيخ جمال الدين الافغاني شديد الملازمة والاخلاص له وبعد أن ترك الازهر عين محررا للجريدة الرسمية ثم اشترك في الحوادث العرابية فنفي في سوريا فاشتغل فيها بالتعليم ثم عفى عنه الخديوي توفيق باشا وعين قاضيا بالمحاكم الاهلية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف ثم انتهى اليه منصب الافتاء

وقد دخل الشيخ محمد عبده مرارا في مناظرات سياسية متعلقة بالبلاد وكتب جملة رسائل ومقالات وتناظر بالكتابة مع الموسيو جبرائيل هانوتو وزير خارجية فرنسا مناظرة كان لها دوي عظيم في العالم الاسلامي

كان الشيخ محمد عبده كما قلنا عالما من الدرجة الاولى فخسر العالم الاسلامي بموته خسارة كبرى وما ذاع خبر وفاته المحزن حتى قدم الى الاسكندرية مساء أمس ألوف مؤلفة من المسلمين بعضهم من القاهرة و بعضهم من الارياف ليشهدوا جنازته

الجنازة

في نحو الساعة العاشرة من صباح اليوم نقلت جثة الفقيد المأسوف عليه من

منزل سعادة محمد راسم بك بمحطة صفر في عجلة مخصوصة من عجلات الترام يصحبها محروس أفندي عبده والشيخ على عبده أخوا الفقيد وصاحب السعادة مظلوم باشا ناظر المالية وأحمد يحيى بك من أعضاء المجلس البلدي النائب عن مدينة الاسكندرية في مجلس الشورى وعزيز كحيل بك من مستشاري محكمة الاستئناف الاهلية وسعادة محمد راسم بك المستشار بمحكمة الاستئناف سابقا (كذا) وعدة من الاعيان الذين جاءوا من القاهرة ومن القرى لهذا الغرض ولما بلغت الجثة محطة الرمل حملها عدة من الاعيان على أعناقهم في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة وسلك المشهد شارعي الرمل فالنبي دانيال يتبعه تلامذة مداوس العروة الوثقى ومكارم الاخلاق بموسيقا هم ورجال البوليس تحت قيادة اليوزباشي علي أفندي حمدي وفصيلة من عساكر خفر السواحل تحت قيادة البكباشي استاني وفريق من عمال الجمارك تحت إمرة مأمور منها وكان يتبع الجنازة فرقة من عساكر البوليس الفرسان تحت إمرة يوزباشي وأمامها علماء الاسكندرية وقاضيها وطلبة جميع المساجد وشيخ العلماء ومن ورائهم أصحاب السعادة حسين فخري باشا قائمقام الجناب الخديوي ورياض باشا رئيس مجلس النظار سابقا وعباني باشا ناظر الحربية ومظلوم باشا ناظر المالية ووراء الجنازة المستر فندلي متولي أعمال الوكالة البريطانية في غياب اللورد كرومر والمسترانس وكيل نظارة المالية وابراهيم نجيب باشا وكيل الداخلية وعزت باشا وكيل الخارجية وصالح ثابت باشا رئيس محكمة الاستئناف الاهلية وحافظ بك محمد وكيل محافظة الاسكندرية وسعادة الميرالاي هو بكنش بك حكمدار البوليس بملابسه الرسمية وقضاة المحكمة الاهلية والمحامون وزكي بك سكرتير مجلس النظار ويعقوب باشا ارتين وكيل نظارة المعارف وموسيو رالى وكيل المجلس البلدي واسماعيل صدقي بك سكرتير البلدية العام وموسيو برند القائم برئاسة مجلس القورنتينا وزنانيري بك سكرتير هذا المجلس وشاهين بك مكاريوس صاحب المقطم ورشيد بك شميل صاحب البصير ووكلاء الجرائد وحسن بك مظلوم السكرتير الخصوصي للموسيو شيتي بك مدير عموم الجمارك الجليل وميشيل أيوب بك مراقب عموم الجمارك وسعادة عبد الحليم عاصم باشا

مدير الاوقاف وسعادة محمود فهمي باشا مدير أقلام المعية السنية (السابق) وشرا باني بك رئيس قلم قضايا الحكومة وحسين أفندي كامل بالنيابة عن صاحب الدولة جلال الدين باشا

ولما بلغ المشهد مسجد النبي دانيال صعد جميع المؤذنين على المنارات وبرروا روح الفقيد ثم سار المشهد الى محطة الباب الجديد وهناك دخل جميع المشيعين وعزوا أخوي الفقيد الذي لم يعقب ذكورا ثم وضعت الجثة في عجلة مختومة وسار بها القطار المخصوص من الاسكندرية في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر الى مصر حيث يحصل الاحتفال الرسمي بالدفن في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم. اه

وجاء في عدد هذه الجريدة الصادر في ١٣ يوليه ما ترجمته

أتانا من مكاتبنا بالقاهرة هذه الرسالة وهي :

القاهرة في ١٢ يوليه سنة ٩٠٥

شيعت جنازة المأسوف عليه الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بعد ظهر اليوم بمحضر من جميع سكان القاهرة الذين عمهم الحزن وفيهم عدة آلاف من أصدقاء الفقيد ومن المعجبين به ولقد ساعد خلو الجنازة من المظاهر التقليدية وبساطة المشهد على جعلها مهيبين وزادهما مهابة ما كانت تثيره الجنازة في طريقها من عواطف الحزن والاسى في نفوس الناس

لما بلغت جثة الاستاذ امام الشريعة الاسلامية في القطر المصري محطة مصر في الساعة الثانية بعد الظهر على قطار مخصوص نقلها بعض طلبة الازهر الى قاعة استراحة الدرجة الاولى حيث التف حولها جميع أكابر العلماء يقرؤون ويدعون الى ساعة قيام المشهد الذي لم يتحرك من ميدان باب الحديد الا في الساعة الرابعة بالضبط

كان يتقدم النعش فصيلة من عساكر البوليس مشاة تحت قيادة البكباشي أحمد أفندي عفت وكان النعش خلوا من الزخرف يحمله ستة من طلبة الازهر

ويتبعه جميع علمائه وطلابه يتقدمهم الشيخ الشربيني شيخ الجامع (١) ومعهم طلبة مدرسة دار العلوم والمستشارون والقضاة وأعضاء النيابة والمحامون وحضرة علي بك شاهين عن الجناب الخديوي وسعادة ابراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية نائبا عن الحكومة وسعادة محمد باشا صادق رئيس مجلس ادارة الاوقاف (كذا) وسعادة اللورد سسل باشا وكيل نظارة الحربية والمستر متشل مستشار الداخلية والسير هوراس بتشنج باشا ومنسفيلد باشا حكمدار البوليس والقائمقام كولفيل رئيس أركان حرب جيش الاحتلال ووكيل المحافظة وحداد بك وكيل قسم الضبط وكثير من كبار عمال الحكومة ومن وراء هؤلاء الجم الغفير من رجال الدين وفقراء الجمعية الخيرية التي أنشأها الفقيد وسار بها في سبيل الفلاح

سلك المشهد شارع نوبار فشارع كامل فميدان الاوبرا فشارع البوسته فميدان العتبة الخضراء فالموسكي ثم انتهى الى الجامع الازهر حيث صلي على الجنازة وقد كان مرور الجنازة بشارع الموسكي الكثير الزحام سببا في تراكم الجماهير من الوطنيين الى حد ان حركة التجارة فيه كان يخشى عليها وهذا ما اضطر التجار الى اقفال حوانيتهم ولكن لم يحصل والحمد لله ما يؤسف عليه و بعد ان صلي على الفقيد في زمن قصير نقل جسده الكريم الى المقبرة المعدة للمشايخ والعلماء وهي قرافة المجاورين

وقد كان في توارد الجماهير من سكان القاهرة لتشييع الجنازة ما اخمد أنفاس القائلين بان الفقيد لم يكن محبوبا من الامة المصرية

وقد برهن سكان أكبر مدينة اسلامية فى هذا القطر علي أنهم عرفوا أن يقدروا ما كان عليه الشيخ محمد عبده من سمو الادراك وشدة الاستقامة والصلاح وسعة الفكر ورحمة القلب وليس من شأني أيها القراء أن أكتب

(١) لعل الكاتب قرر ما كان يجب لا ماوقع بالفعل فان الشيخ الشربيني يومئذ كان مريضاً وحضر الى المأتم بعد الدفن وحلف أنه كان مريضا معتذرا عن عدم الحضور فى تشييع الجنازة وان الذي كان يتقدم حضرات العلماء هو فضيلة قاضي مصر ومشايخ الجامع الازهر السابقون

لكم ملخص تاريخه ولكني لا أريد أن أختم هذه السطور قبل أن أؤكد على رؤوس الاشهاد ان موت الشيخ محمد عبده قد فقدت به مصر زعيماً من أجل زعماء الحضارة الاسلامية

جريدة البورصة المصرية

جاء فى عددها الصادر في ١٢ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته

« آذنتنا رسالة برقية وردت صباح اليوم بوفاة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في منتصف الساعة السادسة من مساء أمس بالغا من العمر ٦٠ سنة وكان محبوبا عند المسلمين موقرا عند الاوربيين المقيمين بمصر تخرج من الازهر ثم عين محررا للجريدة الرسمية ثم قاضيا بالمحاكم الاهلية ثم مفتيا للديار المصرية

« وقد نشر الشيخ محمد عبده عدة مؤلفات نفيسة منها تفسير بعض أجزاء القرآن ورسالته الحكيمة فى التوحيد

وصلت جثة الفقيد الى محطة القاهرة على قطار مخصوص الساعة الثالثة بعد الظهر »

وجاء في عددها الصادر في ١٣ يوليه سنة ٩٠٥ وصف تشييع الجنازة بمدينتي الاسكندرية ومصر على نحو ما وصفته الجرائد السابقة

جريدة الريفورم

جاء فى عددها الصادر في ١٢ يوليه وصف تشييع الجنازة بالاسكندرية على نحو ما وصفته الجرائد السابقة

وجاء فى عددها الصادر فى ١٣ يوليه سنة ٩٠٥ وصف تشييع الجنازة فى القاهرة مختصرا وهو لا يخرج عن معنى ماذكر وقالت إن المشهد كان خلوا من القراء وحملة المباخر وحملة المصاحف جريا على مذهب الفقيد

جريدة الامبرزيال التليانية

جاء في عددها الصادر فى ١٢ يوليه سنة ٩٠٥ خبر وفاة المفتى وتشييع الحكومة لجنازته كما جاء فى الجرائد الاخرى مختصرا

جريدة الفاردو بورسعيد

جاء في عددها الصادر في ١٣ يوليو وصف تشييع الجنازة بالاسكندرية كما وصفته الجرائد الاخرى

جريدة كايرون اليونانية

جاء في عددها الصادر بالقاهرة في ذلك اليوم بامضاء محررها مسيو كارافياما ترجمته

قضى مساء أمس المفتي الاكبر في الديار المصرية بعد ان تراوح أياماً بين الموت والحياة فخسرت مصر بفقده رجلا من أشهر أبنائها وأكثرهم نورا وعرفانا كما فقد العالم الاسلامي بوفاته عالما كبيرا ممتازا ولا نشك في أن المصريين على اختلاف الاديان والمذاهب سيحزنون حزناً شديدا صادرا من صميم الفؤاد على ذلك الرجل الذي شرف في حياته هذا الوطن المصري . ولا غرو فان الفقيد كان في حياته السياسية وحياته الدينية مستقل الفكر نزوعا الى الحرية . واذا كانت مصر قد ارتقت الى بعض مدارج التقدم الفكري فان معظم الفضل في هذا الارتقاء راجع الى الرجل الذي تبكيه الآن . واذا ظهر أناس يسوءهم ما أبداه الفقيد من سعة الفكر واستقلال الرأي وافراغ الجهد للنهوض بمصر الى أعلى قمة الفلاح واذا كان بين أولئك الناس من أراد أن يوقف مجرى التمدن الذي أراده الشيخ محمد عبده فان عددا كثيرا غيرهم في هذا القطر يقدر قدر خطته و يعرفونه رجلا مصلحا محبا لخير بلاده . ولقد كان في جميع المناصب التي تقلب فيها قدوة يجدر بكل مصري ان يضعها نصب اعينه سواء كان في عهده قاضيا أو استاذاً أو مفتيا

ولد الفقيد في محلة نصر بمديرية البحيرة وقدم شابا الى القاهرة فدرس في الازهر (و) على جمال الدين الافغاني من أكبر فلاسفة المسلمين في العصر الاخير . ثم عين استاذا في مدرسة اللغات سنة ٧٩ على أن المرحوم اسماعيل باشا شك في اخلاصه له فعزله . ولما شبت نار الثورة العرابية اضطر الى مزايلة مصرا والالتياذ بمدينة بيروت حيث علم مدة في احدى مدارسها ونال على شهرة كبيرة ومقام رفيع بين أهلها ثم سافر الى باريس وأنشأ جريدة مع أستاذه جمال الدين . وعاد الى مصر سنة ٨٦ وعين قاضيا في

الزقازيق ثم رقي بأهلية واستحقاق الى وظيفة مستشار في الاستئناف الاهلي ولما خلا منصب الافتاء عين فيه و بقي مفتيا محترم الرأي مستنير الفكر حتى ساعة مماته

٢

جريدة الطان الفرنسية

قالت في عـددها الصادر بباريس في ١٢ أغسطس سنة ١٩٠٥ ما ترجمته :

مفتي الديار المصريه

كتب الينا مراسلنا الاسكندري ما نصه :

توفي الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في هذه الايام برمل الاسكندرية حيث كان يتداوى فكان لوفاته تأثير بليغ فى نفوس الناس من وطنيين وأوربيين لما كان له فيها من علو المنزلة وعظيم الاجلال

كان الشيخ ابن رجل من المزارعين في مديرية البحيرة حيث ولد سنة ١٨٤٨ وتلقى دروسه في الجامع الازهر الذي قدر له ان يكون استاذه الاكبر وخرج منه فى الثلاثين من عمره حائزا لشهادة العالمية

وكان أفضل أساتذته عنده وآثرهم في نفسه الشيـخ جمال الدين الافغاني الحكيم الحر النظر الذي كان لافكاره الراقية تأثير عظيم فى نفوس من تبعوه من ناشئة المسلمين ولما أبعد الشيـخ جمال الدين من الجامع (١) بسبب نشر هذه الافكار تبعه فى عزلته الشيخ محمد عبده الذي كان اذذاك مدرساً بمدرسة الألسن وعاد الى مسقط رأسه فى البحيرة ولما عاد رياض باشا نصير الافكار الجديدة الى الوزارة عفي عن الشيخ محمد عبـده وعين محررا للجرنال الرسمي العربي ولكن اختلاطه بالعصاة العرابيين عن كره منه لاعمالهم العدوانية قد طرق اليه الشبهة في نظر الحكومة الانكليزية فأمرت بالقبض عليه ونفيه ثلاث سنين عن مصر فتوجه الي باريس حيث لقي أستاذه الافغاني وحرر معه جرنالا صغيرا يحتج فيه على أعمال الحكومة

ولما عفا عنه الخديوي توفيق باشا عاد الى مصر ثم عين قاضيا بالمحاكم الاهلية

(١) الصواب من مصر وهو لم يكن مقيماً ولا مدرساً فى الازهر

ثم مستشارا في محكمة الاستئناف ثم مفتشا في نظارة الحقانية ثم مندوبا للحكومة في مجلس ادارة الازهر ثم انتهى اليه منصب الافتاء في ٢٠ يونيه سنة ١٨٩٩ بعد خلوه من سلفه النواوي الذى استقال منه

وسرعان ما ظهر نفوذه في الازهر من حيث حرية النظر فانه أدخل فيه دروسا لبعض العلوم الاوربية كالتاريخ البشري والتاريخ الطبيعي والرياضة والحكمة ونشر رسائل ومقالات في الجرائد والمجلات وتفاسير لسور من القرآن وكتابا في التوحيد ولا يزال الناس يذكرون مناظرته الكتابية المشهورة للموسيو هانوتو عقب مقال له في الاسلام

كان المفتي نير الفكر محبا للاستطلاع فسافر الى تونس والجزائر مختبرا معاهد العلم العربية في تلك الديار وعلى أثر هذا السفر ظهرت فتواه المشهورة بحل أكل ذبائح الاوربيين ولبس ملابسهم فهاج عليه ذلك غضب الحزب المستمسك بالقديم فحصل من الحكومة على عزله من ادارة الازهر فكانت هذه الخيبة قضاء مبرما على صحته (١) وقد كان على أهبة السفر الى كرلسباد ثم الى مراكش لولا ما عراه من أوجاع الكبد المؤلمة فاضطره الى البقاء في الرمل حيث قضى نحبه

وقد كان هذا الرجل جليل القدر يصعب ان تعوض خسارته والمرشحون لمنصبه هم الشيخ حسونه المفتي السابق والشيخ فوده والشيخ سالم بك مدير الجرنال العربي عرفات (كذا كذا كذا)

جريدة التيمس الانكليزية

جاء في عددها الصادر بلندن في ٢٢ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته

كتب الينا مراسل من القاهرة في ١٣ يوليه ينعي لنا مفتي الديار المصريه فقال:

---

(١) انما استقال الفقيد من الازهر للاسباب التي اضطرت شيخ الازهر الى الاستقالة فهو لم يعزل ولم يكن للحزب القديم يد في استقالته ولا للحكومة ولا علاقة لتلك الفتوى بذلك . ثم ان مرضه قد ظهر في أثناء سفره في السودان قبل حادثة الازهر

توفي الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في ١١ يوليه بمقامه على شاطئ البحر قريبا من الاسكندرية وكان ميلاده في مديرية البحيرة سنة ١٨٤٨ و بعد أن أتم دروسه في معهد التعليم المحمدي بالقاهرة وهو الجامع الازهر عين محررا للجرنال الرسمي ثم اتهم بالاشتراك في الثورة العرابية ونفي من وطنه في سنة ١٨٨٢ فأقام بسوريا حيث استأنف مدارسة العلوم الدينية وفي سنة ١٨٩٢ عفي عنه فأعادته الحكومة الى خدمتها بتولية القضاء في احدى محاكم الاقاليم الابتدائية ولم يلبث ان عين مستشارا في محكمة الاستئناف الاهلية بالقاهرة حيث وجد مجالا ملائما لترويض ملكاته الفائقة وفي يونيه سنة ١٨٩٩ اختاره الخديوي لمنصب الافتاء الرفيع وربما لا يوجد في كبار المصريين من يفوق المرحوم المفتي فيما كان يبذله الى اللورد كرومر من المساعدة في سبيل ترقية سياسته الاصلاحية بمصر الاقليلا فقد كان للمفتي تأثير عظيم في نفوس الامة المصرية استخدم مدة وجوده في عمله مع الحكمة والبصيرة

وقد احتفل بتشييع جنازته يوم ١٢ يوليه بالجامع الأزهر بمشهد من جمهور عظيم من الامة لم يغب عنه واحد من الكبراء المقيمين بالقاهرة . اه

الديلي كرونكل الانكليزية

وجاء في عددها الصادر بلندن في ٣١ يوليه سنة ١٩٠٥ ما ترجمته:

المفتي

شيخ مصر العظيم وأمانيه

بقلم هارولد سبندر

قالت جريدة « الديلي بيبر » « توفي مفتي الديار المصرية وهو رئيس علماء الدين المحمدي في مصر وشيخ الجامع الخاقان (كذا) وكانت وفاته في مصيفه بالقرب من الاسكندرية بالقطر المصري . »

هكذا مات المفتي ولقد قضيت مع هذا الشيخ المصري الجليل في شهر

مارس الماضي يوما حقيقا بالذكر في مزرعة المستر ولفرد بلونت الانيقة المجاورة للمطرية بالقرب من القاهرة

كان يوما من أيام مصر المحبوبة في أوائل مارس شرنا فيه الشاي تحت شجرة جميز وارفة الظلال في بقعة تعرف بضريح الشيخ وقد تباحثنا في مسائل كثيرة فانساق الحديث الى ذكر الثورة العرابية وأخذ المستر بلونت يصف احتشاد الشبان المتهورين الذين التفوا على عرابي وسقوطهم بانكساره مبعثرين في وهاد النفي والموت واذ ذاك سألته سؤال الاعمى المتلمس فقلت وهل بقي منهم أحد الى اليوم فكان جوابه نعم يوجد الآن منهم رجل من أشهر رجال مصر وهو جاري وصديق حميم لي ألا وهو مفتي الديار المصرية كان المفتي كالكردينال مانتج يقايض السياسة بالدين وقد بلغ هذا المتصيد من فواقه في الحذق والجدارة مبلغا ألزم الخديوي واللورد كرومر بتعيينه رئيسا لرجال الدين في مصر

الى هنا أمسك المستر بلونت عن الكلام ثم التفت فجأة لسماعه طقطقة حوافر فرس فقال هاهو الرجل عينه فالتفت مثله فاذا أنا بصورة انسان يقول رائيها أنها برزت من كتاب العهد القديم رأيت شيخا حسن البزة جهيرا ممتطيا فرسا عربيا كميتا جميلا مقبلا نحونا على هونه عليه الاردية الطويلة التي لاتزال تمنح الانسان في بلاد المشرق رونقا ورواء وفوق رأسه العمامة الكثيفة التي هي الوقاية الحقيقية من حر الشمس ولما انتهى الينا ترجل وتلطف في تحيتنا وتناول معنا فنجان شاي وأنشأ يحادثنا بالفرنسية الصحيحة.

كان حديثه حديث مراقب مفكر وقف يرقب الحوادث من مكان بعيد وتمنى فيما سبق أماني كبارا ولكنه تخلى عنها تخليا كليا وكنت ألمح في عينيه ذلك الابتسام المشوب بالكآبة والرحمة الذي لايرى الا في وجوه من قاسوا كثيرا من الاهوال والشدائد

ومما قاله لنا « لقد طلقت السياسة فلن أشتغل بها بعد » ولقد كان اشتغاله بها مبنيا على مقصد شريف صدق في المحافظة عليه على أنه قد كان من البين أن نيران غيرته القديمة كانت لاتزال مشتعلة في نفسه وقد كان المفتي من المعجبين

المخلصين بالورد كرومر غير أنه كان يبدو من خلال حديثه حينا بعد حين وميض انتقاد لنظام الحكومة كله ناشيء من انبعاث حبه الغريزي للحكومة الوطنية بعد موته

كان الشيخ محمد عبده زعيم أفكار

كنا نتباحث مثلا في سبب كون الحكومة الانكليزية المصرية تقلد ولاية الاقاليم غير الصالحين من المصريين غالبا فبادر المفتي مجيبا عن ذلك بأن العلة فيه هي أن لاشيء أقرب الى الغش والانخداع من حكومة أجنبية

غير أن هذه المعروضات من آرائه كانت نادرة لان عقله في الحقيقة كان قد مر على هذه الافكار وتجاوزها الى ما هو أدق منها من النتائج فانه كان في سني نفيه الطويل دائم الفكر في عيوب الشرق ورجع من منفاه مملوأ حمية جديدة. وكان يريد أن يؤثر في نفوس الناس بما هو أدخل فيها من السياسة فكانت سياسته عبارة عن دعوة الى الحرب الفكرية. وقد سألنا وهو من المسلمين المستمسكين بدينهم قائلا: لماذا يديم الاسلام العصري محاربة علم الغربيين ولماذا لا يستمسك أهله بآدابهم الدينية بل لماذا لا يرجعون الى ما كان عليه أسلافهم من التمحس في طلب العلم أعني ما كان لمتنوري المغاربة من حرية الاعتقاد الذي صارت به بلاد الاندلس ينبوع نور وعرفان بل لماذا لا يفكرون في مقصد نبيهم نفسه

ان عملا واحدا من أعمال المفتي يدل على شدة سعيه في بلوغ غرضه وفرط ولعه به ذلك انه كان كثير الاعجاب بالحكيم هربرت سبنسر وكانت نفسه تائقة لزيارته وكان سبنسر اذ ذاك شيخا كبيرا ممتنعا من مقابلة الناس بل جافيا في مقابلة المعجبين به غير ان همة المفتي قد ذللت كل هذه الصعاب فأقنعه المستر بلونت بان يقابل هذا المصري القاصد الي زيارته فقطع له المفتي أجواز البحار الى انكلترا لمحادثته ويا له من اجتماع باهر تلاقى فيه الشرق والغرب

ثم عين المفتي شيخا للجامع الهارون (كذا) الذي هو مجتمع عشرة آلاف طالب وفدوا اليه من جميع أقطار العالم المحمدي واذا كانت أفكاره كالتي عرفتها فكيف كان يمكن أن يعمي عن روية قوته في هذا المنصب الجديد فقد كان في

مكانه أن يبث من هذا المجتمع فى العالم الشرقي قوة الافكار الغربية من حيث إنها قوة جديدة محيية وقد ملكته هذه الفكرة وأنشأ يعمل لتنفيذها بهمة متقدة وعزم ماض

غير أنه لم يمض عليه الا ثلاثة شهور من يوم محادثتنا حتى عزل من منصبه بسعي العلماء المضادين لمقاصده وأفكاره فاعتزل العمل في مصيفه حيث قضى نحبه وربما كان موته مسببا عن انكسار قلبه وخيبة آماله لأن القلوب قد تنكسر أحيانا .

مستقبل مصر

يحضرني الآن مشهد ثان جلي من مشاهد وجودي مع المفتي ألا وهو اجتماعنا في الحجرة الداخلة المعدة للضيوف في الشيخ عبيد حيث جلسنا تلك الليلة بعد تناول العشاء وتجاذبنا أطراف الحديث فلا يغيب عن ذاكرتي شيء منه فأرى سجاجيد تلك الحجرة النفيسة وجدرانها العارية من الاستار ومواد الزينة وما فيها من الفوانيس الشرقية الغربية التي تدع بقعا سوداء من الظلام في زواياها ومحيا ذلك الشيخ المتفرّس مجتلى الطلاقة والوقار وهو يحدثنا عن مستقبل مصر

كان قلبه يصبو الى نوع من الحكومة الشورية فى عهد ولاية الحكومة الانكليزية وكان يؤمل أن اللورد كرومر يمن بها يوما على بلاده وقد رسم لنا خطة هذه الحكومة رسما مفصلا أرانا به أنه كان كثير التطلب لها والتنقيب عنها

على أنه لم يكن مغتبطا مطلقا من سوء أثر اقتداء المسلمين بالاوربيين فمما قاله فى ذلك أنهم يرونك تشرب فيقلدونك غير أنهم لا يفهمون اعتدالك في الشرب فاذا شربوا شربوا ليسكروا وقص علينا قصة محزنة عن كثرة شرب الخمر في الوجه البحري .

وآخر عهد لي برؤية ذلك الشيخ البار الكريم اني رأيته جالسا في غرفته الصغيرة بالازهر وهذه الغرفة في برج عال يشرف منه المطل على ذلك السوق العلمي العجيب الواسع الارجاء حيث يتلاقى الطلبة المسلمون من أقصى صحارى الجنوب والطلبة الوافدون من بغداد ويجلسون على بلاط متلاصقين وحيث يختلط

لفظ اللغات المختلفة وترتيل القرآن وارشاد المعلمين بما يكون من المكاء الشديد الذي يصدر من الطلبة حال جوس ذلك الكافر المستطلع المسالم خلالهم

كان المفتي يشرف علي كل، ذلك و يتنفس الصعداء من عمله الموحش الجليل قائلا: «ها أناذا كما تروني وحيدا ليس لي من الاساتذة من يساعدني ولا من دعاة الخير من ينصرني اريد ان اعلم في هذا الجامع شيئا نافعا بدلا من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى التي هي أضرّ من كتبكم القديمة المؤلفة في القرون الوسطى — قال ذلك وهو يشير الى عمود من الكتب الضخمة مستند الى جدار الغرفة — ولكن هل اجد من يساعدني على ذلك وان لم جد فهل أفلح فيه وحد ؟

لم يلبث ان جاءه الجواب عن هذه المسألة فانه قد افرط في بسالته بمحاولته ما كان يحاوله « لان الارض فى غاية الصلابة » على أنه ربما كانت هذه المحاولة غير ضائعة كلها وعلي كل حال فليس الازهر أول مدرسة رجمت انبياءها . اه

يقول جامع الكتاب ان كثيرا من الجرائد الاوربية المختلفة قد أبنت إمامنا المرحوم أحسن تأبين ولكن لم يتح لنا جمعها، بل لم يتح لنا ترجمة جميع الجرائد الافرنجية المصرية وما نشرناه كاف في بيان منزلة فقيدنا عند سائر الامم بالاجمال

أقوال الجرائد

التركية والفارسية

﴿مجلة اجتهاد التركية الفرنسية﴾

جاء في العدد التاسع للسنة الاولى من هذه المجلة لصاحبها الدكتور عبد الله بك جودت ما ترجمته :

﴿الاموات الذين لا يموتون﴾

الشيخ محمد عبده

كنا ذكرنا في العدد السابق عند تعرضنا لسيرة الدكتور كوستاف لوبون مشروع الشيخ محمد عبده العلمي الا وهو نقل كتاب الدكتور المومأ اليه المسمى بمدنية العرب الى اللغة العربية . و بعد نشر العدد المذكور ببضعة أيام أتم الموت عمله المشؤم ولفظ الشيخ محمد عبده آخر أنفاس حياته في مدينة الاسكندرية

كان الشيخ محمد عبده بلا خلاف أحد النابغين الذين لا يدخلون في طبقات الرجال واللانهاية هي الحد الوحيد الذى ينتهي اليه علمهم . وألهم الساكت تردد صداه هيمات التعاسة البشرية في الاجيال المستقبلة ؛ وقد أسعدنا الحظ بمحادثته وسماع كلامه في جنيف سنة ١٨٩٧ ومن العبث أن نحاول هنا تمام التعريف بحقيقة أمر هذا النابغة المملوء علما وغيرة . ومما انتقش من كلامه في ذاكرتنا قوله « الحقيقة التى تنطق بها وحدك بين أربعة جدران لا بد أن يكون لها نتيجة وتأثير في سير الانسانية العقلي »

كفى بهذه الكلمة تقوية لنفوسنا وتشديداً لعزائمنا

الشيخ محمد عبده كان مسلما حقيقيا على قدم النبي صلى الله عليه وسلم وكان يعرف

أن من أراد نفع أمته يلزمه أن لا يقيد نفسه بقيود وأن يكون حرا في أقواله بقدر ماهو حر في أفعاله ·

أهدانا حضرة محمد طلعت بك حرب نسخة من ترجمته الفرنسوية لرسالة الشيخ محمد عبده الشهيرة « أوروبا والاسلام » صدرها بمقدمة سنأتي على ذكرها بخصوصها في محل آخر · وقد ألحق بهذه الترجمة سيرة حياة مفتي مصر الكبير وهانحن نقتبسها بتمامها في مايلي : (ونقل الترجمة وتقدم ذكرها)

وجاء في العدد الحادي عشر من هذه المجلة أيضاً ماترجمته

﴿ الاموات الذين لايموتون ﴾

الشيخ محمد عبده

مضى حين من الزمن على وفاة الشيخ محمد عبده الذي كان مفتياً للديار المصرية والذي كان أول عالم عامل ذي همة علياً في كل العالم الاسلامي فى زماننا هذا وقد كنا نشرنا فى القسم الفرنسي من مجلتنا الاجتهاد رسم هذا الراحل الى الدار الباقية مع نبذة من ترجمة حاله · كان الشيخ محمد عبده مسيحاً ثانياً،منح للعالم الاسلامي الذي كان دويّ سقوطه يصخ مسامع ذوي الوجدان،ويمزق أحشاء أصحاب الايمان،لم يكتف الشيخ بدرس أحوال الشرق فقط بل درس الغرب أيضاً أكثر مما درسه كثير من علماء الغرب نفسه وقد عرف داءنا وأسبابه ودواءه من العلم · وبالجملة فان الشيخ بتدقيقاته واجتهاداته الدينية والدنيوية أظهر وأثبت ماورد في معنى البيت الفارسي الآتي :

طريقت بجزخدمت حلق نيست بتسبيح وسجاده ودلق نيست(*)

كان من أثر صحبة الشيخ محمد عبده لجمال الدين الافغاني وملازمته له أن زادت منه هذه الحكمة البالغة حتى اتخذها ديدناً له وقائداً لفكره ولوجدانه ولذلك

(*) معناه ان الطريقة ليست بخدمة البطن وحمل السبحة ولبس الخرقة والجلوس على السجادة ·

كنت تراه عند مايفسر القرآن الكريم في الجامع الازهر يسرد هذه الحقائق من أحكام الشريعة الغراء الكافلة لسعادة لدارين فكان ينير بصائر الناس بما أنعم الله عليه من نور فيضه الصمداني

وحسبنا في بيان مرتبة هذا الامام فى العالم الانساني ان نقول (انه كان مسلما حتماً) . ولا يخفى ان الاسلام يتلاقى مع السلام والسلامة فالمسلم الحقيقي هو الذي يفكر ويهتم دائما فى راحة عباد الله ونعيمهم في الدنيا والآخرة ويمتاز بالخدمة في سبيل سلامة الناس بما يبذل له من الهمة العالية المقبولة عند الله . قال سيد أصحاب الهمم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (خير الناس أنفعهم للناس) فهذا الحديث الشريف يثبت هذه الحقيقة الجليلة الاجتماعية

مضى كل عمر المغفور له الشيخ في جهاد أدبيّ مستمر فكان يشتغل باظهار الحق والحقيقة والدفاع عنهما ومقاومة العسف والباطل وردهما . فهذا لاريب جهاد أدبي سيجعل من يموت في سبيله أفضل الشهداء . واعاظم الناس هم الذين يقضون أوقاتهم العزيزة وحياتهم الثمينة لايقاظ عباد الله من سبات الغفلة ونشر العلوم بينهم كما فعل الشيخ محمد عبده رضي الله عنه هم من نوادر الدهر وهم احياء وان غابوا من هذه الدار لانه (لايموت من يجود بنفسه في سبيل العلم) نسأل الله ان يكثر من أمثال أصحاب الهمم العالية أمين .

﴿جريدة «شوراي امت» التركية﴾

جاء في عدد ٨٠ من هذه الجريدة التى يصدرها فى القاهرة أحمد بك صائب ماترجمته:

(تأسف عظيم)

بلغنا نبأ وفاة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية فى الاسكندرية فكان أسفنا عظيما

لم يك المرحوم شيخ الديار المصرية فقط بل هو جدير أن يكون شيخ البلاد

لاسلامية كلها،ان عمره الذي تجاوز الخامسة والخمسين كان مقصورا على التحقيق والتدقيق، وكان أمله أن ينور أفريقيا وغيرها من البلاد الاسلامية الخابطة في ظلمات الجهل، ولقد كان أكابر مشهوري علماء أوربا يرجعون اليه في أشياء من العلوم والادبيات الاسلامية، وكان رحمه الله من خير الناس، ولو ترجمت مؤلفاته النفيسة الى لغتنا لاستفيد منها فوائد عظيمة.. ومنذ مدة نرى العالم الاسلامي غير مستعد أن يخرج مثل الشيخ محمد عبده لان أمراء المسلمين ورؤساءهم لا يروق لهم الا الرياء والنفاق ولا يأخذون الا بأيدي المرائين المنافقين فلا ريب هم يكرهون العلوم وأربابها ولذلك كان فقد الشيخ محمد عبده خسارة عظيمة مؤلمة

جريدة چهره نما الفارسية

جاء في العدد الصادر من هذه الجريدة بالقاهرة في ١٥ جمادى الثانية لصاحبها الفاضل ميرزا ح.م عبد المحمد ما ترجمته «والشعر عربي»

يا أيها الدهر الخئون قتلتنا * لما غدرت بفاضل لا يغدر
قد كان للاسلام أكبر ناصر * والآن مات فمن سواه ينصر
أطفأت نور البلاد فأظلمت * مصر وباتت بالنوائب تعثر

من البديهيات ان كل فرد وجد من العدم فمصيره الى العدم لا محالة، ولا بد لكل فرد من البشر أن يتجرع كأس المنون قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) فياطوبى لنفس تسمع الخطاب من رب الارباب بقوله عز وجل (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية) فاذا نظرت الى الرسل والانبياء وغيرهم تراهم شربوا هذه الكاس ولم يكن لهم مفر من الموت وكان عزرائيل يدور معهم أينما داروا حتى أذاقهم من هذه الكأس شراب (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة)

نعم ان الناس وان تساووا في الخلقة من حيث التركيب ولكن منهم اناسا يمتازون عن غيرهم بالعلم والمعرفة ويدركون كنه قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) اي ليعرفون وهؤلاء يتصلون بالعبادة وقوة العلم والمعرفة الى أرقى

درجات الملائكة المقربين كما قيل (فمن غلب عقله على هواه فهو أعلى من الملائكة) وكقوله عز من قائل (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

فحينئذ ترى ان حيوانا ناطقا صار انسانا كاملا وقاد العباد بصائب فكره وساس البلاد بسديد رأيه وأصبح مصداقا لقوله تعالى (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فاذا انكسفت بموت أحدهم شمس من شموس الحقيقة وانخسف بدر من بدور الشريعة تنطفئ الأنوار وتظلم الآفاق ويعتري الناس الذهول كما وقع عندما أن نعى الناعي (الشيخ محمد عبده) مفتي الديار المصرية عند مالبى دعوة ربه ورفرف الى ملاقاة بارئه

وكان المرحوم المغفور له علامة دهره، ونادرة عصره، وكان للشرق فيلسوفا، وللاسلام سندا وظهرا، وبحراً في العلوم المعقولة والمنقولة، وبطلا مغوارا في شؤون السياسة، وكم يمر من القرون حتى يربي لنا الدهر عالما عاملا، فاضلا، كاملا، تقيا نقيا مثل هذا الفقيد ؟

وكان صعود روحه الشريفة الى الحظيرة القدسية في اليوم الثامن من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٢٣ في الاسكندرية وأرسلت جنازته الى مصر بقطار خاص مشيعة من الرؤساء والعظماء من العسكرية والملكية والالوف المؤلفة من العلماء والاهالي بهيئة ملوكانية . اللهم اغفر له وارحمه رحمة واسعة . .

جريدة حكمت الفارسية

جاء في هذه الجريدة التي يصدرها في القاهرة الدكتور محمد مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء في العدد ٨٥٢ الصادرة في ١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ ما ترجمته

انا لله وانا اليه راجعون

وكانت في حياتك لي عظات * فأنت اليوم أوعظ منك حيا

أصيب جسم الانسانية بمصيبة ذهبت بقواه، نعم لقد انطفأ سراج المدنية الاسلامية المنير، نعم دك طود العلم والفضل، نعم قد انكسفت شمس البلاغة والفصاحة المنيرة وتوارت وراء الظلام الحالك، نعم قد سمدت أرض الجودة المنبتة، نعم لقد

انحلت رابطة الوداد والرأفة ، لقد انصدعت مباني المعاني ، وغدا البيان بغير مبين ، وعقل نطق المنطق ،وغدا الفقه بغير فقيه ، واجتثت أصول الاصول ،وصار التفسير بدون مفسر ،والحديث بدون محدث ،وأغلق باب المنقول ،و بات المعقول بلا معقل ، وتفرقت الحكم والحكميات الاسلامية أيدي سبا ، وأصبحت اليتامى والارامل بغير ملجأ ، وفقد مرجع الخاص والعام ، وأمسى الافتاء والفتاوى بغير مفت ، أعني ان الشيخ محمد عبده رفع الى الجنة

كيف لا وشرحه لنهج البلاغة ،وجود ،وكتابه في التوحيد مشهود ، كيف لا وتفسيراته للقرآن المجيد حاضرة ، وأعين المسلمين اليها ناظرة ، كيف لا وكان محب آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وزعيمهم وكان مفطورا على حبهم ، كيف لا وقد كان صاحب عزم متين ،وذا حزم مكين ، كيف لا وقد كان عدوا للظلم والاستبداد ، ومحبا للعدل والرشاد ، كيف وقد كان أنسا للمساكين ،وغوثا للبائسين والملهوفين ، كيف لا وقد كان مؤسس الجمعية الخيرية ومشيد اركانها ، كيف لا وهذه آثاره في القضاء وفتاويه وقوانينه للجامع الازهر ومجلس الشورى والاوقاف الخيرية والعمومية . والمحاكم الاهلية والشرعية كلها ناطقة بفضله ، كيف لا وهو صديق صباي وخلي الوفي لانه في هذه المدة التي تبلغ أربعين سنة لم يجرح لي عاطفة بقول ولا فعل وكان أنيسي في خلوتي وجلوتي ،ومعيني في شدتي ، وكان يتعاهدني في السراء والضراء ، وكان يسوءه ما يسوءني ، ويسره ما يسرني ،

هذا هو الرجل الذى كان أمة في نفسه ،ومفردا علما في أمته ، قد أسلم روحه الشريفة الى باري النسم ومضى يخطر الى جوار ربه باسما

وذلك فى أصيل يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الاولى برمل الاسكندرية

زمن دن تو نمردم چه لاف مهر زنم

كه خاك برسر من باد ومهرباني من (١)

فاجأنا نعيه والجريدة قد تم إعدادها للطبع وسننشرح في الاعداد القادمة ترجمة حياة هذا المرحوم الذي كان المجن الذي يتقي به البلاء الاسلام والمسلمون

(١) ترجمة البيت: ياصديق الصبا كيف أدعي حبك وأنا لم أمت لموتك

ثم قال في العدد ٣٩٧ الصادر في ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٢٤ ماترجمته لوأردنا أن نوفي: الشيخ الاستاذ قدس الله سره حق المدح والثناء، والتأبين والرثاء لطال بنا المقال فالاحسن أن نشتغل بأصل المطالب ونزيح الستار عن وجه المقصد لعلنا أن نصل الى ذلك الامر المقصود و يصير الشاهد عين المشهود

فأشرعنا لنا في ذلك طريقا دليلنا فيه مجلة المنار الشريفة لان اقتفاء أصول وفصول هذه المجلة الصحيحة فى هذا العمل هو — على ما نعتقد — عين اقتفاء المذهب المختار على اننا سنجيل الطرف فى غيرها من المجلات والجرائد حتي لا نغادر شيأ يعتد به فلنشرع الآن في شرح ترجمة حياة هذا الرجل الذي هومستودع غايات العظمة ونبدأ ببيان أصله ونسبه ومولده الشريف فنقول اه

جريدة (أدب) الفارسية

جاء في العدد ١٦٥ من هذه الجريدة التي تطبع في طهران لصاحبها أديب الممالك وقد صدرت الترجمة بصورة الفقيد

هذا الرجل العظيم . والفاضل الكبير الذي يجوز أن نعده مفخر الاسلام والعرب والمصريين ولد في ١٢٥٨ وكان والده من كبار فلاحي محلة نصر لم يكن ذا ثروة معدودة وكان يجبر أولاده على الفلاحة ولكنه كان يرى في جبهة صاحب الترجمة أمارات الذكاء والعقل فلذلك أراد تعليمه دون اخوته فتعلم عشرة أشهر في كتاب بلده ثم طلب العلم في الجامع الاحمدي بطنطا ثلاث سنوات ثم توجه الى الجامع الازهر واشتغل بتحصيل العلوم ولكن لم يصل الى مقصوده وكان ينسب ذلك الى سوء طريقة التعليم في الازهر . على أنه كان بما أوتيه من الذكاء الفطري والاستعداد العظيم كان يستفيد كثيرا من المطالعة وكان دائم الفكر والاشتغال لا يضيع شيئاً من وقته حتى جاء الى مصر السيد جمال الدين المعروف بالافغاني الذي هو من أهالي أسد آباد (همدان) وكان الحكيم الأول في فلسفة الاسلام وذا اليد الطولى في الفلسفة المشرقية والعلوم الدينية وفنون اللغة العربية فابتدأ السيد يقرأ المنطق والفلسفة والعلوم العالية فى

الأزهر (الصواب في بيته) فتبعه قوم من الفضلاء كان الشيخ محمد عبده في مقدمتهم فلم يلبث السيد أن نفخ فيهم روح الفلسفة والعلوم ولكنه كان يخص بعنايته الشيخ محمد عبده و يلقي اليه مالا يلقيه الى غيره لما رآه من كمال استعداده و بتلك لدروس انشق حجاب الجهل الصفيق الذي كان يحول دون العلم الحقيقي وكان صاحب الترجمة مقدما عند السيد على اخوانه من كل جهة وآية ذلك أن السيد جمال الدين قال لتلامذته لما خرج من مصر انني أغادر مصر تاركا لكم الشيخ محمدا فهو حسبكم وحسب مصر

وكان هذا الشيخ الجليل يشتغل بعده بالتدريس والتحرير حتى ظهرت الثورة العرابية فكان رحمه الله يحذر قومه من وخامة عاقبتها فكان دخوله معهم للتمكن من النصيحة ثم كان ما كان مما لاحاجة الى شرحه. ولمكانة الشيخ العالية أخذ في تلك الفتنة ونفي الى سوريا فلما رأى أهلها ما كان عليه من سعة العلم وقوة العقل وكمال الأدب حوموا عليه واختاروه استاذا لبعض مدارسهم.

ثم غادر سوريا الى باريس للاقاة أستاذه السيد وهناك أنشأ جريدة العروة الوثقى التي كانت مكانتها في الاسلام مما لايحيط به الحد وكان الشيخ هو المحررلها

ثم عاد الى مصر وكانت تغيرت الاطوار فيها فكان المرجع العام والكعبة الانام حتى صار رئيسا لمدرسة الجامع الأزهر ومفتي جميع الديار المصرية. وكم تحمل من الايذاء في سبيل الاسلام. وقد صرف معظم همه الى تفسير القرآن المجيد فكان بيانه فيه قائما علي دعائم الحكمة والفلسفة والعلوم الحديثة ومجلة المنار في مصر مظهر لخلاصة تحقيقاته وزبدة معارفه

وقد دعي الى ربه في أواسط يوليو الموافق ٨ جمادى الثانية فلبست الجرائد الاسلامية عليه أثواب الحداد، ونشروا نعيه في كل قطر وواد، ورثاه الشعراء بالقصائد البليغة ولبس الرؤساء لفقده أثواب الحزان واعطوا الرثاء والتعزية حقهما رحمه الله رحمة واسعة

جريدة ثريت الفارسية

جاء في العدد ٣٨٨ من هذه الجريدة التي تصدر في طهران عاصمة العجم لصاحبها زكاء الملك مدير المدرسة السياسية (٣ شوال سنة ١٣٢٤)

جواب سؤال مهم

كل من يسمع نعي المعلم الأول والاستاذ الأجل والفقيه الاعلم والحكيم الافضل والفيلسوف الاسلامي الاعظم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية المعظم رضوان الله عليه ولم يبلغ منه الاسف أقصى درجاته فهو يجهل قدر هذا الرجل الجليل المبرور ومقامه العالي في الشريعة الاهلية أو هو .....

سأل هذا العاجز بضعة نفر من كبار رجال الاصلاح وزعماء الاتحاد الاسلامي عن السبب في ترك نشر خبر ارتحال وترجمة حال عالم معالم الحكمة وعارف معارف الحقيقة وكان من اليسير علي أن أجيب كلا عن هذا السؤال برقيم خاص ولكن أردت بنشر الجواب في الجريدة ان أرفع الشبهة من قلوب سائر الناس لكيلا يقولوا انني غافل أو متغافل

إن من الاخبار ما يورث القلب الهم والغم ويبعث في الفؤاد ما لا يطاق من الحزن والاسف والطبيعة البشرية ترغب عن نشر مثل هذه الاخبار التي يضطرب لها قلب الكاتب وترتجف يداه ولكن تدوين المآثر والآثار الجليلة لعظيم ذي عظمة وجليل ذي جلالة ورفعة مثل هذا الرجل الكبير هو نوع من الحياة الابدية اذ به يخلد ذكره الجميل على مدى الدهور وهو أيضاً فريضة محتمة على الكاتب فكتبنا ما يأتي مجملا فى جواب السائلين الكرام ليعلم القاصي والداني أننا لسنا بغافلين عن مستحبات امورنا بل واجبات أعمالنا وما فرض علينا.

ومع الاسف اننا عند ما سمعنا بهذه الغائلة الهائلة لم نكن نحيط خبرا كما يجب بتاريخ حياة هذا الاستاذ رضي الله عنه وكنا بفروغ الصبر ننتظر وصول أعداد (مجلة المنار) المعظمة التي هي السند الصحيح لجميع الروايات ولكن أضعنا الوقت ولم

تصل . وفي أثناء هذه المدة كنا نشتغل بنشر قانون حمورابي الذى هو أقدم الشرائع في العالم والآن قد وصلت أعداد المنار وفيها الشرح الكافي في ترجمة حياة هذا المرحوم المبرور المغفور له أسكنه الله في ريض السرور فشمرنا عن ساعد الجد وعزمنا على ترجمته ونقله تباعا لان النسبة والمناسبة بيننا و بين المرحوم الاستاذ الاجل الشيخ محمد عبده سقى الله ثراه بجامعة الاسلام أقرب وأكثر من جميع حكماء الافرنج العظام وعلماء النصرانية وغيرهم

ونرجو الله أن يوفقنا لترجمة وكتابة أخبار هذا المقتدى في الاسلام ، والفيلسوف العظيم الشان ، بأحسن وأوفى من ترجمة غيره من الرجال العظام ولم نترك ولن نترك مثقال ذرة من أخبار هذا الرجل العظيم ان شاء الله تعالى

ثم كتب في العدد ٣٩٦ الصادر في ٨ ربيع الاول سنة ١٣٢٤

تاريخ حياة المرحوم الشيخ محمد عبده رضوان الله عليه (١)

من السوانح المحزنة والمصائب الفادحة التي حدثت في العام الماضي ارتحال العالم المقدم والفاضل المعظم الفقيه الاكرم الاكمل الحكيم الامجد الاجل العلامة الاستاذ المعلم النقاد المحقق الفريد المؤيد الوحيد العالم المقدام سند الاسلام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رضي الله عنه الذي تألمت وأصيبت روح المعارف والحكم الاسلامية بفقده وألبس ثياب الحداد جميع العارفين حقائق الاسلام

آه على ذلك الاوقيانوس الكبير والقاموس المحيط ، وأسفي على ذلك القلب الواسع والصدر المشروح ، والهفي على ذلك المقام العالي والقدر الرفيع ، واغوثاه لذلك الغبن الفاحش والكسر الذي عز جبره ، واكرباه من هذه الليالي المظلمة والايام العصيبة

فغان أز ين غراب بين وواي أو * كه درنوا فكندمان نواي أو
غراب بين نيست جز پيمبري * كه زود مستجاب شد دعاي أو

---

(١) من اصطلاح علماء الشيعة أن يخصوا هذا الدعاء بانصار آل البيت من الصحابة

قبل أن تصل سفينة آمال الخلق الي ساحل النجاة انكسر بيت ابوتها الصحيحة (قطب نما) وقبل أن ينتظم دفتر حساب القوم اختلط بعض أوراقه ببعض ، ضاع مفتاح قفل الكرامة وتقطعت روابط صحائف المعرفة فتناثرت أوراقها ، وفقد مقياس الاميال لخريطة آمال العالم فجهلت مسافاتها ، غادرنا الظهير الذى كان يبث فينا حرارة الحياة الطيبة فأصبحت القلوب باردة ، قطعت يد الاجل طريق التقدم على القطر ، وغلت الايدي القادرة وقيدت الارجل الساعية للامة ، اذا بكت عيون العقل بدل الدمع دما حق لها ذلك واذا صارت عيون العلم دجلة وفراتا فما أجدرها بذلك

ياللعجب يظهر أن روح الحكيم (خاقاني) الشرواني العظيم كانت تنظر الى هذه الغائلة الهائلة منذ مئين من السنين إذ قالت (*

آن مصر مملكت كه تو ديدي خراب شد
وان نيل مكرمت كه شنيدى سراب شد
سر وسعادت أزتف خذلان زكال كشت
اكنون برآن وكال جكرها كباب شد
هم بيكر سلامت وهم نفس عافيت
أزد يده نظار كيان درحجاب شد

(و بعد اعتذار عن تأخيره في الترجمة بمثل ما تقدم فى العدد السابق ذكره قال)

ان العلماء والاعلام والفقهاء الاعزاء ذوي الاحترام هم أئمة الدين وعلو مقامهم ورفعة شأنهم محفوظة في جميع القلوب لأنهم حفظة الاحكام الالهية ومبينو أصول العقائد ومظهروا قواعد الفرائض والنوافل وهؤلاء العلماء فريقان أحدهم يرى الانقطاع لعلوم الآخرة التي تقرب الانسان من ربه وترك الدنيا وشأنها والآخر يرى أن الدنيا مزرعة الآخرة وانه لا بد لعلماء الدين من النظر فى العلوم

(* خلاصة مغزاها) اري مصر العلا أضحى خرابا ونيل المكرمات غدا سرابا
وذا سر السعادة صار جمرا عليه قلوبنا تشوى اكتئابا
نعم وعلي السلامة والعفاء يد المقدور قد ألقت حجابا

الدنيوية التي ترقي الامم في العمران والاجتماع والاستعانة بها على حفظ الدين والملة ورفعة شأنهما وكان فقيدنا المرحوم الشيخ محمد عبده رضوان الله عليه من حكماء هذا الفريق المهذبين وعلمائهم المحققين لانه رحمه الله كان يرى أن تحصيل العلوم العصرية من ضروريات الحياة في هذا الزمن وكان يقيس بمقياس رويته هذا الامر طولا وعرضا وسطحا وعمقا فلذلك كان باذلا جهده وهمته لتقريب أسباب السعادة للملة والملك ووسائل الرفاهة والامان لآحاد البرية وأفراد الرعية وكان يجاهد جهادا كبيرا عاما في سبيل اسعاد المسلمين عامة والمصريين — ابناء وطنه — خاصة

تارة كنت تراه يسعي الى بلاد الافرنج يستشير محققي الغرب السياسيين في الامور السياسية ، وتارة كنت تراه يبحث وينقب عن مستحدثات العلوم والاعمال العصرية ، وطورا كنت تراه يغشى المجتمعات العلمية وأندية الفنون، وآونة كنت تراه ممازجا لارباب الحل والعقد ، وكان قصده من ذلك كله كشف الحقائق للامور ذات البال وإدراك الكليات واستنباط الجزئيات في الاعمال النافعة كيما تفوز أمته وأهل بلاده فوزا مبينا

ومن أعظم أعمال هذا الاستاذ الحكيم والفيلسوف العظيم بيان الطريقة المثلى لتحصيل العلوم والفضائل فميز بين الصفو والكدر وبين الجوهر والخزف فشيد بناء محكما جديدا للدرس والتعليم حتى سهل الحزن وقرب البعيد بيمن قدرته ونفاذ اشعة بصيرته وسلامة سليقته وصفاء قريحته فبذلك ارتقى ذروة الكمال في المعقول والمنقول وأشرع لغيره من المستعدين منهجا واضحا وطريقا لاحبا

وكان في عزمه رحمه الله أن يذلل جميع العقبات ويقيم للمعارف دعائم لا تقوى عليها فواعل الدهر مدى الدهر ولكن — وا أسفاه أصابته عين الكمال فاقعدته عن المسير وايصال هذا العبء الى منزل السلامة فأطاحت عثرة رجله رأس الحكمة عن بدنها — ولكن لا يزال أهل الاستفادة والاستفاضة يتمتعون بما تركه من الرياض النضرة الى يوم القيامة ويحصدون من مزارع علمه سنابل الخير والبر

كتب ترجمة حياة هذا الاستاذ المعظم والشيخ الاجل قدس سره وحيد

عصره صدر الافاضل وفخر الاماثل محيي رسوم الادب أعلم محرري العرب سند الفضلاء حضرة السيد محمد رشيد رضا محرر مجلة المنار المصرية الغراء فأعطى الترجمة حقها كما ان سائر الصحف المصرية كمجلة المجلات العربية ومجلة الهلال والمؤيد وغيرها كتبت أيضا ولكن ما سطره القلم الاستاذي المعتبر للسيد محمد رشيد رضا وفقه الله له امتياز وشأن ليس لسائر الاقلام لأن هذا الرجل هو الداعية لذلك الاستاذ الفياض والفيلسوف المرتاض فكان في حياته ولا يزال بعد مماته يقتفي أثر سيرته السنية ويسلك جادة طريقته العلية وآدابه الباهرة ورسومه الفاخرة ويرشد العطاش لمعين المعرفة والكمال الى عين حياة الحقيقة ويدعو المستعدين الى الاستضاءة من مشرق أنوار الحكمة والعرفان، والاستفاضة من أسرار الفضل والاحسان، والانتظام في سلك مجمع الحقائق اللاهوتية والاندماج في مستودع الودائع الملكوتية كما قال الواقفون على رموز حقائق الطبيعة، والكاشفون لأسرار فيوضات الحقيقة

درغوا باشد أكرصد نوحه كر آه صاحب دردرا بأشد أثر (١)

وفي الحقيقة ان النائح الثاكل في هذا المصاب هو السيد محمد رشيد رضا .

والخلاصة ان ارتحال هذا الشيخ الهمام سقى الله تربته هو من جلائل خطوب العالم إذ كوى جميع القلوب وتركها حسرى وكتبت جرائد جميع الممالك والاقاليم عامة والاسلامية خاصة عن هذه المصيبة العظمى ما علمت وقالت ما قدرت ولكن من ذا الذي يقدر أن يعلم ما فوق علمه حقيقة وكما وكيفا . كتبوا ما أملاه حسن الظن وصفاء العقيدة أو ما فيه اداء رسوم التحرير والتحبير أو ما فيه أداء حق الصحافة في بيان الوقائع وتدوين الحوادث واين هذا كله من بيان حقيقة المصاب وقدر الرجل على أنهم ساروا بقدم الصدق وخلوص النية ونحن أيضا نقول من بعدهم ما نوفي به الرثاء حقه على قدر العقل الضعيف والدراية الناقصة والفهم العليل والبصر الكليل

اين قدرهم كر نكويم أي سند شيشهٔ دل أز ضعيفي بشكند «٢»

(وقد بدأ بعد ذلك في ترجمة مطولة نشرت في عدة أعداد فجزاه الله خيرا)

«١» معناه : لو كان في المآتم مئة نائحة لما كان لها تأثير آهة واحدة من الثكلى

«٢» معناه : اذا لم نقل ما نقدر عليه ولو قليلا تنكسر زجاجة قلبي الضعيف

جريدة الديبا الفرنسية

لم نكد نتم تأبين ما وصل الينا من الجرائد التركية والفارسية حتى عثرنا على ترجمة ما كتبته هذه الجريدة التي هي من أشهر وأقدم جرائد فرنسا بل أوربا فرأينا أن نختم به أقوال الجرائد وها كه مترجما من عددها ٢٣١ الصادر في ٢١ أغطس سنة ١٩٠٥

توفي الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الكبير الذى اشتهرت حياته بأمياله الحرة فى تعاليمه التي كان يلقيها في الازهر . والذى فاز بفضل اجتهاده ومساعيه المتلاحقة على بعض علماء المسلمين ذوي الافكار القديمة فاختط للتعليم في الازهر خطة حرة تخالف أفكار أولئك العلماء فقد ذهبت به رحمة ربه في الوقت الذي بدأت تظهر فيه ثمار اجتهاده وتعاليمه

وقد كان لوفاته رنة أسف عند جميع عقلاء المسلمين المستنيرين بنور العلم الذى علموا أن تلك المدارك الواسعة راغبة فى أن تختط لأبناء دينها خطة تكون أكثر موافقة للمدنية والتقدم الحاليين ولا يخفى على أحد تشوق المسلمين اليوم لمعرفة خليفة ذاك العالم الذى خمدت أنفاسه وجرى له مأتم حافل كبير قام به مشايعوه في الاسكندرية ومصر واشتركت به الحكومة الانكليزية المصرية اشتراكا أرادت به تأدية آخر واجب لهذا العالم الذى خدم الاسلام حقا خدما جليلة فى تغييره خطة مجراه ودفعه اياه الى الامام دفعة نظن انه يسير عليها من بعده

و يود المسلمون ذوو الغيرة على مصلحة لاسلام أن يكون المفتي السابق الشيخ حسونه شقيق الفقيد بأفكاره الحرة خلفا له من بعده . لانه لا يوجد من هو أصلح منه لاكمال ما بدأ به الشيخ محمد عبده أو أقدر منه على انجاح الافكار الحرة التي تطابق روح القرآن وتفيد بهاء الاسلام

(يقول جامع الكتاب) ان الشيخ حسونه النواوي كان مواتيا للفقيد في الأزهر لم يعارضه فى أصل الاصلاح ولكنه كان يرجئ ويسوف فيه ومع ذلك وصل صيته الى أوربا وكان الشيخ عبد الكريم سلمان وسطا بينهما وهذان الشيخان أمثل أهل الأزهر وثانيهما أقرب الى الفقيد فى رأيه واصلاحه

القسم الثاني في التأبين

نشر التأبين الآتي في جريدة المقطم الصادرة في ١٧ يوليو سنة ٥٠٩ وهو

ذهب الذي كانت معلقة به حدق العفاة وانفس الهلاك

تشوقت لدار الآخرة الى عظيم من عظماء الدنيا اعلاها همة وامضاها عزيمة وارقاها فكرا وابعدها رأيا واعلمها بالدين واقضاها بالحق ومن اذا وعظ كان هاديًا او ادلى بحجة كان قاضيًا لا يظلم الضعيف ولا يضعف عن القوي امار بالمعروف نهاء عن المنكر لا يخشى فى الحق لومة لائم فبعثت رسول الموت ليختار لها من ارادت و يفرزلها من اختارت فأخذ فى وجهه يضرب في الارض يعدو الاقوام ويخطي الرقاب حتى وضع يده على اشهر مشاهير الاسلام واعظم عظمائها واكبر ائمتها

فلله انت ايها الرسول اما علمت انك روعت اهل العلم وفجعتهم فيه بل سلبت به النفوس وطأطأت الرؤس وقضيت على العلم والسياسة والافتاء واللغة العربية والكتاب والسنة وعلى انفس كانت حياتها معلقة بالرجل . اما رحمت نفوسًا تغولت بها الارض وضاقت عليها وشقت جيوبها وعافت حياتها . اما رحمت البائس اما رحمت العاني اما رحمت اصحاب النهم الى العلم اما رحمت من يرجو مستقبلا حسنًا وحياة طيبة فكل هؤلاء والله قد ماتوا بموت الامام شلت يداك ايها المرض مالك سادرا في عملك قاسيًا اذ لم ترحم هذه الانفس اما وقرت الاستاذ وايم الله انه لرزء مفحم ونبأ مؤلم

فرحمك الله فقيد العلم والدين من علم بليغ اذا قال بذ القائلين ونقع غليل السائلين واذا كان قدر الرجل على قدر همته وحسن نيته ومراجعة فكره ومماخضة رأيه فما بال الثريا لم تكن للشيخ وطاء وما باله ومكانه من العلم والهمة مكان القطر من الرحمة ينحدر عنه السيل ولا يرقي اليه الطير قد تنزل للسائل ولبى الطالب الا ان القدر السابق قد وقع والقضاء الماضي قد ورد وأمر الله يجب ان يقابل بالرضاء والتسليم ويترك لاجله الهلع جانبًا اواه على امام ذبلت لمصابه الشفاه وصمتت الافواه وقرحت العيون وسالت الشؤون

عبد الرحيم سلام
من تلامذة الفقيد

(ويلي ذلك ثمانية بيوت شعر جيدة النظم مؤثرة)

ونشرفى العددالصادرمنهافي ١٦ يوليو للدكتور محمدافندي توفيق صدقى الطبيب بسجن طره ماياتى

أردت أن أعزي الامــة المصرية عن ذلك المصاب الاليم فخانني قلبي بالبكاء وقلت في نفسي كيف يعزي الحزين الحزين . اغرورقت العين بالدمع فسال على الوجه وارتعشت اليد وتلعثم اللسان فجاهدت نفسي ولا صبر لي على هذا الجهاد حتى هدأت قليلا ولكنها مالبثت الاهنية فاستحضرت في مخيلتها اعمال هذا الرجل الجليــل فاختنقت بالبكاء ثم تجلدت لحظة فاعتقــل اللسان وانفطر القلب وصاحت آه آه على هذا المصاب الاليم . فقدناه على حين غفلة قبل أن يتم الاصــلاح في أمورنا وأحوالنا فالى من نلجأ لتقويم مازاغ من عقائدنا وما فسد من أفكارنا؟ من يرد عنا الشــبهات ويدرأ الترهات ويحيط الدين بحصون من الحجج البينات ؟ الى من نذهب لاغاثة المنكوبين واعانة الضعفاء والمساكين من يرأس جمعياتنا ومجالسنا بالحزم والعقل والارشاد والنصح بالقول والفــعل ؟ من يرفع من شأننا بين الاجانب حتى يعرفوا أنه لم يزل بيننا رجال عــلم وأدب وفضل . تركت مجلس شورانا وقد كان لك فيه الفكر النافــذ والرأي الصائب تركت اللجنة التشريعية ومجلس الاوقاف الاعلى والجمعيــة الخيرية الاســلامية والكل في أشد الحاجة الى ارشاداتك . تركت الازهر من غير مصلح ولا هاد . تركت المحاكم الشرعية والمدارس الاهلية قبل أن يتم نظامها واصلاحها . تركت العلم والادب والانشاء وهي في غاية الاحتياج الى آرائك . تركت الدين وأهــله يخبطون فيه خبط العشواء في الليلة الظلماء . تركت التفسير قبل ان تزيل ما فيــه من الخرافات والاضاليل والترهات . تركت الفقراء والمساكين ولا معــين لهم سواك . تركت مصر والمصريين والاســلام والمسلمين ولا مرشــد لهم غيرك فوامصيبتاه وامصيبتاه . لكني أرجع وأقول تصبري أيتها النفوس الحزينة ولا تيأسي من روح الله فهو القادر أن يعوضنا في مصابنا خيرا ويرزقنا المرشد الرشــيد كما دعا لنا قبل أن تركنا . وأنت أيها الجسد الطاهر استرح الآن في قبرك الى يوم بعثك وها أعداؤك قد أخذوا يقرون بفضلك بعد لحدك كما أنبأت به قبل موتك . فامطر اللهم عليه من سحائب رحمتك وأنزل على قبره من غيث فضلك ونعمتك وأسكن روحه جنانا وألهم كل مصاب به صبراً وسلوانا انك سميع النداء مجيب الدعاء

وكتب الفاضل الشيخ محمد القلقيلي في جريدة النيل ما يأتي

يا ساكن اللحد

ويا نزيل الثرى

رحماك يا ساكن اللحد ويا نزيل الثرى يامن تركت قلوب محبيك تتفطر جزعاً ، وأكباد مريديك تذوب حزناً وفزعاً ، رحماك لم يبق لى صبر ولا جلد اقدر بهما على أن أمسك هذا القلم الذى طالما أرهفته لان اطعن به عداتك ، وشحذته لان أحارب به خصومك ، لا تستطيع يداي ان تقبض على هذا القرطاس الآن لانهما لم تعرفاه الا لذكر فضائلك وكمالاتك ، ونشر مآثرك ، والاعجاب بشمائلك ، عفوا ان قصرت فى رثائك وعذرا ان سبقوني في تأبينك

يا ساكن اللحد ويا نزيل الثرى ان بكاك الناس باقلامهم فانا الذى ابكيك بدموعي ، وان وفاك المخلصون بالمقالات فانا الذي أفي لك بتردد الحسرات ، وتصاعد الزفرات ، وان ندبك النادبون بالافواه والشفاه فانا الذي أندبك بفؤاد ملآن بالاحزان ، ونفس تحيط بها الأشجان ، وان ناح عليك النائحون باللسان ، فانا الذى انوح عليك بالجوارح والجنان ،

يا ساكن اللحد ويا نزيل الثرى لولا دين كنت عضده ونصيره وظهيره نهانا عن شق الجيوب ولطم الخدود لشقت عليك جيوب الرجال ، ولطمت من أجلك خدود الابطال ، ولكنهم استعاضوا عن ذلك بشق القلوب وتقطيع الأكباد

يا ساكن اللحد ويا نزيل الثرى اتدري ماذا خلفت بعدك . خلفت عشرات الالوف من العقلاء تبكي علمك وفضلك ومكارم اخلاقك وعلو همتك وغيرتك على هذا الدين الذي لعبت به ايدي الجاهلين ، وعبثت بعقائده خرافات الضالين المضلين . تبكي جميتك على اصلاح هذه الاخلاق الفاسدة والنفوس المنحطة والعادات القبيحة . تبكي دفاعك عن كرامة الاسلام ونضالك عن مصالح اوقاف المسلمين . تبكي تفسير القرآن المجيد و بيان حكمة الله من تعاليمه وارشاداته وهدايته اذ لم يبق بعدك مفسر غير مفسر الالفاظ والحروف ، ولا مبين غير مبين الاختلافات

والمجادلات ، فى الاشياء التافهات الحقيرات ، تبكي ذلك الصدر الملآن عقلاً وحكمة ، تبكي تلك الذات الشريفة التى كانت قبلة لجميع الموحدين فى مشارق الارض ومغاربها شمالها وجنوبها . تبكي تلك الحجج الدامغة والبراهين الساطعة اللاتى افحمت المعارضين ، واقنعت المجادلين ،

ياساكن اللحد و يانزيل الثرى اتدري ماذا تركت وراءك ؟ تركت مئات الالوف من الارامل والايتام والفقراء والمساكين تبكي احسانك وجودك ، تبكي حنانك وشفقتك ، تبكي برك ومراحمك ، تبكي لانك كنت للارملة خير معين ولليتيم نعم الحنون ، وللفقير افضل مواس وللمسكين اعظم مساعد .

ياساكن اللحد و يانزيل الثرى رحلت عن هذه الدار التى لا تصفو الا لجاهل اوظالم فمن يقف موقفك فى مجلس الاوقاف الاعلى و يردعن اوقاف المسلمين أطماع الطامعين . ومن يقف موقفك فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية و يحفظ كرامتها في عيون الحكومة والمحتلين . ومن يضمن بعدك بقاء الثقة بين الحاكمين والمحكومين . ومن للاقتراحات الساقطة التى يعرضها بعض اعضاء الجمعية العمومية للغايات والاغراض — يفندها و يدحضها و يفضح نيات أصحابها

ياساكن اللحد و يانزيل الثرى رحلت وخلفت بعدك اصلاح المحاكم الشرعية جنينا لم تدب فيه روح ولم يسر فى عروقه دم ولا نفس فاذا تكاملت خلقته غدا وأمضى مدة الحمل وخرج من بطن امه الى هذا المعترك الذى اصبح بعدك معتركا للفساد والافساد فمن يكفله و يربيه ويجعله عاملا نافعا يفيد الشريعة فى أحكامها والامة فى أخلاقها وعاداتها وعائلاتها . آه وأواه كلما تذكرتك — وأنت لا تغيب عن ذاكرتي .. وكلما تذكرت مساعيك الخيرية وآثارك الطيبة وهي نصب عيني يغيب صوابي ويزيد حزني واكتئابي لاني كلما أجلت نظري فى هذه الامة الاسلامية لا أرى لك مثيلا فى دينك و يقينك بربك او شبيها فى اخلاقك المحمدية وهممك العالية كنت كالناقش على الماء او الكاتب في الهواء وهناك تزيد نار الحزن استعارا ، وتجري دموع العين مدرارا

ياساكن اللحد و يانزيل الثرى انت تعلم قبل كل الناس انى احببتك

وأخلصت لك المحبة فى السر والنجوى وليس لى غاية غير غاية الاهتداء بهديك، ولا غرض غير غرض الاسترشاد برشدك ، فاذا بكيتك وندبتك ونحت عليك فانما ابكي تلك الفضائل والكمالات واندب تلك الاعمال الصالحات ، وأنوح على تلك الآثار الطيبات المباركات ، فاعرني ثوب الصبر الذى كنت لابسه في حياتك التى امضيتها وانت تكافح نائبات الدهر وتدافع حادثات الزمان بقلب اقوى من الحديد وجأش اثبت من الجبال . لأحشر فى زمرتك يوم البعث والنشور

ياساكن اللحد ويانزيل الثرى ارقد في قبرك مستريحا ونم آمنا مطمئنا وان اتعبت وأقلقت بموتك الاحياء فقد جاهدت في سبيل الله جهاد الانبياء والمرسلين وأوذيت في هذا السبيل كما أوذي من قبلك من قام بالدعوة الى الله وبذلك سينزلك الله منزلة الابرار ، ويثيبك ما أثاب به الكرام الاخيار، وهذه الامة سيحفظ لك تاريخها تلك المآثر والفضائل ويبقى ذكرك مرددا بكل لسان ، مرسوما في الاذهان ، كما ان رسم شخصك لابد وأن يبقى محفوظا في طيات القلوب ان لم يكن فى طيات الجفون ، ولابد ان تبقى آيات اصلاحك وفضلك وعلمك مرجعا للأدباء والكتاب ومثالا ينسج على منواله المصلحون الى يوم الحساب فرحمك الله باامام الاسلام والمسلمين وغفر لك يا فقيد الملة والدين وأجاب مادعوته به فى قولك

فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضيء النهج والليل قاتم

محمد القلقيلي

هذا ما اخترناه من التأبينات التي نشرت في الجرائد لغير اصحابها وقدمناه على ما يأتي لتقدمه فى التاريخ ويتلوه نموذج مما لم ينشر فيها أوله ما كتبه الاستاذ الشيخ عبد الله دراز المدرس في الاسكندرية وهو

يالله للمسلمين ـ رزء الاسلام فى عميده

كأن المنايا تبتغي في خيارنا لهاترة او تهتدي بدليل

لقد فجع المسلمون بأفول الكوكب المنير ، وبطل العلم الشهير ، ملاذ البؤساء ،

وماجأ الضعفاء ، رجل الهمة ، وعنوان المروءة ، الامام الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الذي كنا بالامس شفقة على الناس ورحمة به نتمنى على الزمان محالا ان يرزق المسلمون بمن يدانيه فيساعده على القيام بمهام الناس ومصالح العامة حتى يتاح للمسلمين منتهى السعادتين الذى قضى حياته الغالية في السعي وراءه وجدجده املا في الحصول على ذلك المقصد الاسمى ثم اصبحنا والكل قد ملكته الدهشة واستولى عليه فرط الاسى والحزن بفقده فاكفهر الافق واظلم الجو وغشي الوجوه جلباب الحسرات ، واعشي العيون انهمال العبرات ' فلا انقضاء لزفرات تتردد ، وحسرات تتجدد ، ولا صبر على كارثة اصابت كبد المجد فمزقت فؤاد الفضل ' صاعقة نزلت على ربوع العلم وميادين الادب ، مصيبة آلمت الايتام في مهدها ، والأرامل في خدرها ، خطب اضطربت له مجتمعات السياسة العامة ونوادي النظامات' رزء دهم مجالس التهذيب والارشاد، فصدع مستودعات الحكم ، ومجالي أسرار الشريعة فغاض ماء الحكمة بعد ما فاض ' وماذا تغني الاطلال والانقاض ؟

من معيري مصة وشل من بحر بيانه فألمع الى طرف من عنوان مقاصده النبيلة ، وأرمز الى شيء من نواياه الجليلة ، لبني دينه واهل وطنه ، من لي بأن أرطب لساني بذكر فهرست أعماله الكبرى ، او احرك قلمي لتلك الآثار الضخمة ، التى قام بها في حياة كلها تعب ، حياة أتى فيها بالمعجز من الاعمال في الزمن الوجيز ، وميدان الاعمال أمامه ممتليء بالحواجز ، مسدود النوافذ ، وجو السياسة كله ضباب يكاد يسد عليه هواء التنفس

(ياالله للمسلمين) في رجل طالما دافع عن دينهم وحده وهم نيام إلا عن مجالدته مع خصومهم الالداء الاشداء ، خصوم تحمسوا للفتك بالاسلام ، ومست نفثات اقلامهم كرامة أعز عزيز لديناً ، فانتضى عزمه الثابت، وجأشه الرابض، واستجمع من غزير حكمه، وواسع علمه ، ما مزق به جيوش أباطيلهم 'ورد كيدهم في نحورهم، وكفى الله المؤمنين القتال بوجوده 'ولم يريقوا فيها دما ' ولا أنفق سراتهم درهما'

(ياالله للمسلمين) في رجل وجدهم نياما لا يتحرك منهم عصب ، ولا يجري

فيهم نفس ، ولا يرفع لهم طرف ، ولا ينطق لهم لسان ، يتخطفهم الناس من حولهم ، حولهم أعداء أيقاظ مجدون فى حركة الحصار عليهم قد كادت تتم لهم دائرته فصاح فيهم بأعلى صوته : الا فانتبهوا وقوموا من سباتكم العميق ، فانتبه لمقصده من سلمت فطرته ، وقوي استعداده ، ولما لم يجد بدا من استعمال منبه الاعصاب مع الباقي حرصا على حياتهم ، واستبقاء لوجودهم، قاموا فى وجهه : ألا فاتركنا نستكمل نومتنا : فقاوموه على ان يتركهم وان كانت النهاية و بالا عليهم وهو يأخذهم تارة باللين وطورا بالشدة حتى نزع منهم الى اليقظة خلق كثير وعدد عظيم جرى فيهم نفس الحرية في القول والفعل المنبعثين عن الارادة الصحيحة ، تحركت أعصابهم الى العمل لما فيه صالحهم، نطقت ألسنتهم بل تفصحت فى كل معنى يراد فنظرة واحدة الى ربوع العلم من الازهر (انظر كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر المطبوع حديثا) الى أصغر مدرسة أنشأها بابعاث النفوس الخامدة والقلوب الجامدة تكفي لادراك ما قام به فى هذا السبيل سبيل ايقاظ المسلمين من هذا السبات العميق

(ياالله للمسلمين) فى رجل رأى البدع والمستحدثات قد تجاوزت الحد وأبعدت الناس عن دين الله (عز وجل) بمراحل وهى آخذة فى الزيادة وأهلها فى النمو و بمقدار ظهورها يستتر الدين في ثناياها ولم يقف ذلك عند حد الافعال والاقوال بل سرى داؤه وطغى تياره على كثير من العقائد وأصول الدين حتى عند بعض من ينتسب الى العلم فهاله الأمر وأخذ يطارد تلك البدع ويهدم فى معالمها بمطارق من حديد حتى أنحى على الكثير منها وهو لا يبالي بوقوف هذا النفر من المتفيقهين أمامه يدافعون عن البدع بحجة الدين ، ويتمسكون بالشبه فى مقابلة اليقين ، ولا همَّ لهم الا تحريف اقواله ، والتلبيس على الناس فى مرامي افعاله ، وقد كان لا يثنيه الخوف على عرضه عن الدفاع عن دينه و بيانه على وجهه ورد البدع فى وجوه أربابها مهما كان لهم من التصدر والمناصب مما أفضى به فى كثير من الاحيان الى الشغب ، ومزيد التعب والنصب ، واليك مثالا من تحريفهم او تخريفهم بشأن تعليماته ودعوته الناس الى عقائد الدين الصحيحة

وهو من أكبر ما لبسوا به على العامة فى شأنه ومالوا ببعضهم عن الانتفاع به نقموا عليه انه ينكر الشفاعة وهى فى كتاب الله والاحاديث الصحيحة مفعمة بها والاجماع قائم عليها وهي من المعلوم من الدين بالضرورة وجعلوا ذلك مقدمة صغرى ان ثبتت على اي انسان والكبرى سهلة الحصول فالنتيجة أشنع شيء والعياذ بالله تعالى وقد تطرفوا بذلك في مجالسهم الخاصة والعامة وتناقلها بعض الاغبياء حتى وصلت بلاد الريف والمدن النائية عن مشاغباتهم وحتى كاد بعض العقلاء البعيدين عن مجالس تعليمه وسماع تقريره تأخذه فيه نعرة النفرة ويرتاب في أمره ومن العجيب ان المجلس الذى قرر فيه هذه العقيدة ولا يقل السامعون فيه عن الالف من كبار الطبقات فى القاهرة وأنجب النجباء من الازهر بين بين طالب علم ومدرس كان فى منتهى الاعجاب وهزة الطرب بهذه البيانات الجليلة ، والاستدلالات القوية ، وقد كنت فى مجلسه تلك الليلة كغالب مجالسه فى التفسير (وا أسفاه على مجالس كانت ذات قيمة يستقي فيها من كتاب الله حكمه العالية أعالي الطبقات ، مجالس كان يختص فيها بعض رؤساء الديانات الاخرى فيخرج مضطرب الفؤاد متزلزل العقيدة في دينه ولقد جاهد بعض هؤلاء الرؤساء بأحقية الدين الاسلامي والحط من كرامة دينه في الجرائد المصرية وما عهد خر يستوف جباره ببعيد)

قلت اني حضرت مجلس الشفاعة الذى استمر يقرر فيه نحو الساعتين على ما كان به من قوة البيان وجودة التعبير وفضيلة التأثير وقد قال في نهايته : ومجمل القول ان الشفاعة ثابتة لا يسع مؤمنا انكارها بعد الكتاب والسنة والاجماع ولكننا لا نقيسها بالشفاعة اللغوية المعروفة بين الناس (وساطة الشفيع عند من يملك الانتقام ليرجع عما أراده وعلمه من معاقبة مجرم فى نظره مستعملا فى ذلك أنواع التلطف والتخفيض من حدته حتى تنكسر ثورة غضبه او تنطفىء فيخفف العقوبة او يتجاوز عنها) لانها بهذا المعنى محالة علي الله تعالى كما قرر في علم الكلام ان ارادته على وفق علمه وانه اذا أراد معاقبة زيد فقد علم ازلا عقابه فلو توسط شفيع بعد ذلك وارجعه عما علمه واراده على قياس ما تقدم فى الشفاعة المعروفة بين

الناس لا نقلب العلم جهلا والقول بذلك كفر بالاجماع فلتكن الشفاعة الثابتة لا بهذا المعنى بل على معنى ان الله يعلم ويريد انه لا يعاقب فلانا المجرم بل يعفو عنه بمحض فضله وكرمه ولكن اظهارا لفضل الشفيع فى يوم القيامة يوقف ظهور العفو عنه على صورة الشفاعة التى تحصل من الشفيع في ذلك اليوم : فقد أثبت الشفاعة ونزه الله عما لا يليق به وفي ظني انه لا يسع عاقلا سمع مجمل قوله الا ان يتضرع الى الله ان يبلل ضريحه بصبيب الرحمة والرضوان لا أن يصغى لهؤلاء الغلاة المارقين عن جادة الصواب ولكن هو الحقد غلت مراجله فى صدور هؤلاء المتحذلقين فشنعوا ولبسوا وقالوا اذ ذلك ما قالوا وطاروا بذلك شعاعا

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا منه وما يعلموا من صالح دفنوا

حتى علق باذهان بعض العوام بالنسبة للاستاذ شيء والله يجازيهم على صنيعهم اسوأ الجزاء لأنهم فى الحقيقة ما كانوا يضرونه بمثل ذلك ولا كان يتأذى بسماعه لأن همه وهمته كانا أجل من ان يؤثر عليه القدح او المدح على غير وجه ولكنهم قد أضروا بكثير من العامة بالقاء هذه الوساوس فى صدورهم ضررا بينا شوهد الكثير من آثاره

بربك قل لي اذا سمع العامي ممن ينتسب الى العلم ان الاستاذ الكبير الطائر الصيت في العلم قال بإباحة تحريم او بافساد عقيدة مع كون هذا المتعالم لا يقدر ان ينتزع من قلبه ان القائل بذلك من اساطين العلم وانه فى مقدمة العلماء ماذا يكون حال العامي بازاء هذا المحرم اوهذه العقيدة؟ قاتلهم الله انى يؤفكون (يا لله للمسلمين) فى رجل جمع بين علوم الدين الصحيحة ادراكا وعملا وتوسع فى أصولها وفروعها حتى كان زملاؤه اذا تحككوا معه فى أي فن حسبوه بعيد العهد به تورطوا وحصل لهم مزيد الخجل واطرقوا رؤسهم ريثما ينبههم على ما غفلوا عنه فى هذا العلم طول اعمارهم

هذه العلوم التى قطع زملاؤه اعمارهم فيها وعرفت مقدار نسبتهم اليه فيها قد أضاف اليها تلك العلوم الجمة والمعارف الكثيرة علوم الفلسفة العصرية، علوم الكائنات الطبيعية بفروعها الكثيرة،علوم القوانين الوضعية وقد حصل على ذلك

كله بما منحه الله من الاستعداد الفطري الذى شهد له به اساتذته « الطويل والبسيونى وجمال الدين » وكان من الاسباب الواضحة فى اظهار آثار مواهبه الالهية اتقانه للغة الفرنساوية حتى درس بها تلك العلوم ووصل بها الى تلك المعلومات التي اضافها الى علوم الدين وفلسفته الاولى فكانت عنده مجموعة العالم الاسلامي والغربي وأمكنه بحذقه ولباقته ان يتصرف فى الثاني بما يؤيد به الاول و يظهر قواعد الدين على بياضها الناصع بما كان يطبقها على النواميس الكونية التى خبرها ووقف على اسرارها و بذلك كان الرجل الوحيد فى العالم بأجمعه الذى أمكنه أن يكون عالما أزهريا وقاضيا قانونيا وحكيما فلسفيا ومفتيا شرعيا ورئيس كل نظام تدعوه اليه ضرورة الحكومة في نظاميها الشرعي والوضعي ومحاضرا فكاهيا لجلاسه من كافة الطبقات والاقطار .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

هذا الى سمو مداركه وجودة ذهنه وقوة عارضته واختلاب بيانه وكبير همته وعزة نفسه وتواضعه ولينه وصفاء سريرته لكل انسان حتى ألد اعدائه . لقد كانوا يملكونه بكلمة او بزورة لينالوا من وافر حسناته ، واني لأعرف واحدا منهم كان يتحكك فيه ويريد مناظرته فى كل عمل حتى فيما يدرسه من العلوم « وليس التكحل فى العينين كالكحل » وكان من المحرفين عليه جاه وقد زلت قدمه فى منصبه العالي وقد تورط ورطة كادت تقضي عليه فتمسح به وتضرع اليه ان يصفح عما كان منه ويخلصه من هذه الورطة والفقيد يعلم ان هذا السائل لئيم وأنه لايلبث ان ينقلب عليه كالافعوان ولكنه ماعتم ان اجهد نفسه عند المقامات العالية حتى استنقذه من زلته ' وانتشله من ورطته ، وبهذا تقيس مقدار اهتمامه بمصالح العباد الذين كان يخصص لهم وقتا من يومه في كتابة التذاكر الى روءساء المصالح والدواوين وأصحاب التفاتيش والتجار والعمد بما يرفع الظلم عن هذا و يفتح بيت ذاك و يصل عيش هولاء و يحمل الاضطهاد عن أولئك حسبة لله تعالى . لقد كان ترى عليه محبة قضاء المصالح للكافة ' من يعرفه ومن لا يعرفه فوق محبة غيره للمال والولد يرى أنه ماخلق الا لذلك وهذا في كرم نفس وسخاء

بماله وجود بما تصل اليه يده فى السر والجهر — أعرف أنه عادمريضا عالما وعند خروجه وضع عشرة جنيهات تحت وسادة المريض ـ (ولمثل هذا سن الله العيادة) وكم بيتا فى القاهرة كان عالة على ماليته الخاصة فاللهم رحماك بعبادك الذين أخذت منهم عائلهم وبأيتامك الذين حرمتهم مبرة خير أب وباصدقائه الكثيرين الذين أصبح كل منهم يقول

وفقدت اخواني الذين بعيشهم قد كنت أعطي ماأشاء وامنع

فلمن أقول اذا تنم ملمة أرني برأيكام الى من أفزع

فبأي دمع نبكيه ، وبأي لسان نرثيه الجمعية الخيرية الاسلاميـة التي وضع عملها على أساس متين فأكثر ايرادها ووسع دائرة الاحسان فيها على المعوزين ونظم مدارسها ورفع منارها في زمن وجيز الى شأو بعيد ؟

من يترأس بعده على كل المجالس الخصوصية التي تنتخب من اعضاء مجلس الشورى ليقرروا ما يرونه في مصلحة الامة بأزاء مشاريع الحكومة ؟ من يحسن الفكرة بعده و ينعم النظر فى أحوال الاوقاف تنمية وحفظا وصرفا في أوجه البر الحقيقية؟ لهفي عليك أيها الامام

فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ماقدمت بالامس يسبق

اللهم لطفا بعبادك ، ورضاء بالقدر المحتوم ، لقد انزوت الآمال ، وهان انقضاء الآجال ، فانا لله وانا اليه راجعون . اللهم انك تعلم ان الفقيد فقيد الاسلام ، فقيد العلم ، فقيد المروءة ، وانه جاهد في سبيلك أشق الجهاد ، وانه لم يدخر وسعا في نفع عبادك ، ولم يأل جهدا فى سعادة خلقك ، وقد أدى وظيفته فيهم بكل صدق واخلاص ، وصبر وتحمل ، لما كان يلاقيه من مضايقات الدهر ومكايده ، وقد غرس بيننا غراسا كثيرة من أنواع الفضائل وانبت بيننا نباتا من أفضل ما يستنبت . اللهم فاسق نباته واحفظ غرسه حتى ينضج ما أراده و يثمر ماغرسه وقو من يقوم بأود هذه الفضائل بعده وسدد آراءهم وثبت عزائمهم وأقدرهم على المحافظة والقيام على آثاره وصبرنا على مالاقيناه في فقده من البلاء الجسيم ، والمصاب الاليم ، وتغمده بواسع رحمتك وصيب احسانك ونعمتك واشمله بغفرانك العميم ورضوانك العظيم

عبد الله دراز مدرس بمعاهد العلم باسكندرية

﴿ تأبين جمعية غرس الفضائل ﴾

هذه الجمعية يعقدها أبناء بيت عبد الرازق فى دار عميدهم حسن باشا عبد الرازق ليلة الجمعة من كل أسبوع وكان أول اجتماع لهم بعد موت الفقيد لتأبينه وهذا محضره:

(المحضر الرابع عشر من محاضر السنة الرابعة لجمعية غرس الفضائل)

انتظمت الجلسة فى الساعة الثانية العربية من ليلة الجمعة ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ هـ ٢١ يوليه سنة ١٩٠٥ م

وبدأ الرئيس — حسن عبد الرازق بك — ببسم الله الرحمن الرحيم ورتل سورة الفلق الكريمة على جاري العادة

وذكر الامين — مصطفى عبد الرازق — اعمال الجمعية في اجتماعها السالف ثم نهض الرئيس الى مقام الخطابة فقال: أيها الاخوة

لم أقم هذا المقام فى منبت شعبتنا وموطن أهلنا وعشيرتنا من عامين سالفين لاني قضيت عطلة السنة الفائتة في الاسكندرية كما تعلمون كما أمضيت شطرا من عطلة هذا العام فى القاهرة لاعمال حكمت بذلك وها نحن — والحمد لله — اجتمعنا في ديارنا وبين أهلينا هذا وقد كانت عادتي معكم أن اذكر لكم فى نهاية كل عام دراسي مجملا من عملكم في ذلك العام تنشيطا للعامل وتنبيها للغافل لكن وقع تلك المصيبة الاليمة التي أصابت مصر فأثكلتها خيرة أبنائها فقيد العلم والاسلام الاستاذ مفتي الديار المصرية قضى علينا بأن يكون اجتماعنا الليلة لتأبين الفقيد ورثائه واستمطار الرحمة له وفاء بالذمة وعرفانا للجميل .

اننا نرثي الليلة رجلا عظيما، وعليما حكيما، وصديقا حميما، وأبا بارا رحيما. نرثي الشيخ محمدا عبده صاحب الايادي البيضاء، والمآثر الغراء، والاعمال الجليلة، والمقاصد النبيلة، نرثي خادم الامة الامين، وركن الاسلام والمسلمين، وساعد العلم والمتعلمين، ذلك الرجل الكريم الذي ماتت بموته آمال واضمحلت عزائم والذي ترك من حسن الذكر ولسان الصدق ما هو حياة باقية وأثر لا يفنى . ويا ليت لي براعة فى

البيان وحولا وطولا فى القول حتى اوفى الفقيد حقه واقضي واجب الذكر الجميل لاعماله الطيبة وحسناته التى لا تحصى . على انني أترك القول لاخواننا الازهريين طلبة الاستاذ الفقيد وأبنائه فهم أحق بالكلام في هذا المقام وان كانت المصيبة بيننا سواء . واني أسال الله تعالى ان يرحم الفقيد الكريم رحمة واسعة وان يرزقنا على مصابه صبرا جميلا .

ولما أتم الرئيس مقاله دعي الى الخطابة بعده — علي عبد الرازق فقال:

وما أحد يخلد فى البرايا ... بل الدنيا تؤل الى الزوال
أطاب النفس أنك مت موتا ... تمناه البواقي والخوالي
وهذا أول الناعين طرا ... لاول ميت في ذا الجلال

ايها السادة

لقد اسودت صحيفة الاسبوع المنصرم بذلك الحادث المشؤم الذي صدم القلوب فصدع أركان الصبر، وهد منازل الجلد، وطير النفوس شعاعا، وقضى على حشاشة ثبات نسيتها القلوب مصائب الليل والنهار . اغبر أفق الحوادث واضطربت في دورتها الافلاك، واصطدمت النجوم، وانقضت على الرءوس صواعق المنون فغيبت شمسا كان يسطع على العالم لألاؤها، ويشرق في الوجود ضياؤها، واغمدت سيفا كان مسلولا بيد الدين، يقطع ألسنة المتهجمين، ويذود عن حياضه كيد الخائنين،

دفعنا بك الايام حتى اذا أتت ... تريدك لم نسطع لها عنك مدفعا

خطب أصاب الاسلام جسيم ومصاب الله يعلم أنه على العلم وأهله عظيم ولكن ما العمل وقد حم القضاء ووقع البلاء وانقطع الرجاء وحال قضاء الله دون كل قضاء وأبت الاقدار الا ان تظفر المنون فتحتكم في النفوس وتلعب بالارواح وتصدع نصالها أكباد من تشاء ويا ليت المنية اذ قبضت على زمام العالم واستبدت بأرواحه فدت ذلك المصاب عن شاءت، وقبضت اليها غيره من أرادت، ولكن الامر كما قيل

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ما العمل وقد ضاعت الآمال وجلت الخطوب، واشتدت الكروب، وأبت

المنون أن ترمي بسهمها الذي لا يطيش الا سيدا يصدع موته الفؤاد، ويقطع الاكباد، ويدمي العيون، ويجرح الجفون، فانا لله وانا اليه راجعون

محمد لو نفس فدت نفس ميت　　فديتك مسرورا بنفسي وماليا
وقد كنت أرجو ان أملاك حقبة　　فحال قضاء الله دون قضائيا
ألا ليمت من شاء بعدك انما　　عليك من الايام كان حذاريا

مات الاستاذ الامام وما كنت أحسب العلم كله يموت والجود جميعه يضمن في جوف أربع أذرع في خمسة وما كنت أدري كيف يضم اللحد الصغير فى جوفه جبلا اشم كبيرا

فياقبر خبر كيف واريت جوده　　وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت　　ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

أنعى اليكم فى هذا المقام الاستاذ الامام وكلكم يعرف من هو الاستاذ الامام، أنعى الى العلم سيده والى الدين مصلحه والى الازهر ظهيره والى الادب نصيره

أنعي فتى الجود الى الجود　　مامثل من أنعى بموجود
أنعى فتى مص الثرى بعده　　بقية الماء من العود
وانثلم المجد به ثلمة　　جانبها ليس بمسدود
فالآن تخشى عثرات الندى　　وصولة البخل على الجود

أنعى اليكم هذا الامام الذي لفت الى الاسلام عزيمته، ووجه اليه ذكاءه وفطنته، فوجده قد وقع بين شرذمة لا يعون

فمن مشايخ طرق (نعوذ بالله تعالى) ينقضون فى بنيانه ويقربونه ما استطاعوا من ان يكون وثنية لا اسلاما

ومن حملة عمائم يحرفون ما يشاؤن، ويلعبون ما يلعبون، ويقولون انما نحن مصلحون، ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون

وجه الاستاذ همته الى الدين فوجده درة قد غطاها الغبار، وبدرا حجب سناءه الغمام، وجوهرة لعب بها طغام الاحلام، فما زال الاستاذ يكر بجيش بلاغته، ويدافع بفصاحته، حتى أظهر الدين للانام جوهرا لامعا، ونورا ساطعا، وعروسا

جليت فى أفخر حللها وابهى ثيابها فجزاه الله عن الاسلام احسن الجزاء .

أنعى اليكم رجلا نظر الى الازهر بعين الاصلاح، فأخذ طلابه ليطير بهم الى حيث تكون السعادة والفلاح، وحيث يعمل المرء لدينه ودنياه، وآخرته وأولاه، ولو ساعد الاستاذ القدر، وطال له العمر، لرأيتم الازهر اليوم خير معهد دينى يهذب الافكار ويربي الرجال

سأبكيك مافاضت دموعي فان تغض　　فحسبك منى ماتجن الجوانح
وما أنا من رزء وان جل جازع　　ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حي سواك ولم تقم　　على احد الا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها　　فقد حسنت من قبل فيك المدائح

***

مات الاستاذ الامام ومن ذا يكون بعده للعلم والدين، والازهر والازهريين، اللهم انك قبضت الاستاذ اليك ونحن فى اشد الحاجة اليه فالدين لايزال شبكة صيد عند قوم لايعرفونه والازهر وهو مشرق الاسلام وكعبة الآمال لم تنتظم بعد حاله ولم يستقم أمره . اللهم بمن نستضئ وممن نتعلم وهذا امامنا قبضته اليك بعد ان اتجهت اليه الآمال، ونزلت بساحته الرحال . اللهم انا طلبة الفقيد ظلمنا بمصابنا فيه الدهر، وخاننا الثبات والصبر، وانك سبحانك وعدت بقبول دعاء المظلوم فكلنا نبتهل اليك، ونشفع في استاذنا احب الانبياء عندك، سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم فى ان تتجاوز عن زلاته، وتغفر هفواته، فانه عبدك وانت مولاه، وانه فقير الى رحمتك وانت غني عن عذابه، فقربه الى جنابك، واجعله فى جوارك، وأسكنه فى مساكن الصديقين والابرار، وارزقنا ذلك المرشد الرشيد الذي يضيء لنا النهج ويبين لنا السبيل وهب لنا من لدنك صبرا .

وعلى اثر هذا الخطيب قام الامين فقال

أيها السادة

فى أصيل يوم الثلاثاء لثمانية أيام خلت من شهر جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ هـ قبضت روح طاهرة وختمت حياة صالحة وغربت فى بلاد المشرق شمس الحكمة

وذوى أنضر غصن فى دوحة الاسلام وطارت الينا الانباء بهذا المصاب العظيم والخطب الجسيم فأستكت الاسماع وملئت الجوانج غما

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت فيه بآمالى الى الكذب
حتى اذا لم يدع لى صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

مات الشيخ محمد عبده ومن ذا الذي لا يموت «كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون»

وكل امرئ يوما سيركب كارها   على النعش أعناق العدا والاقارب

لم ير أهل هذه البلاد حزنا كاملا، وأسفا شاملا، ومصيبة طارت لها النفوس شعاعا، وانصدعت لها القلوب انصداعا، كما رأوا يوم رزئ الاسلام، بموت الاستاذ الامام

عمت فواضله فعم مصابه   فالناس فيهم كلهم مأجور

وارحمتاه لهذه البلاد. تنشأ فيها النفوس الزاكية والهمم العالية فلا تكاد تمتد أعناقها الى ما استعدت له من اصلاح شأن الامة و يتمهد لها السبيل حتى يخترمها الاجل و يقطع عليها الموت خط السير. ولقد كان العام الحاضر أشد الاعوام محنة لهذه البلاد وأكثرها لها تعاسة وشقاء

يا أيها العام الذي قد رابني   أنت الفداء لذكر عام أو لام

قضى في أوائل هذا العام (المنشاوي) وهو وان لم يكن أكثر أبناء هذا القطر نشبا، وأوفرهم فضة وذهبا، لقد كان أكثرهم خيرا، وأوفرهم برا، وأوسعهم ذراعا، وأمدهم فى المعروف باعا

له نار تشب على يفاع   اذا النيران ألبست القناعا
ولم يك أكثر الفتيان مالا   ولكن كان أرحبهم ذراعا

وقفى على أثره (الشنقيطى) وكان رجلا غريبا من هذه الديار ثم حل بها فى آخر عمره وهو واحد عصره فى العلم بالمنقول فانتفعت من معارفه البلاد واغتنم عشيرته من اغتنمها من اهل الفضل

ولم يمض الا قليل بعده حتى أوهقت المنية حبالها بالبارودي صاحب السيف والقلم والذى كان اذا قال انقادت له ازمة القول واذا صال تخاذلت الجماجم والرقاب والقائل

من النفر الغرّ الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر
اذا استلّ منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

ثم جاء بعد ذلك الدهر بالخطب الفادح والرزء الجلل ودهانا بفقد من احتشدنا الليلة نبكيه ونرثيه ونسأل الله أجر المصيبة فيه

كأن المنايا تبتغى فى خيارنا لها ترة أو تهتدي بدليل

من أمارات الانحطاط فى الامم وفقدانها مقومات الحياة ان يموت النابغ من أبنائها فلا يلفى له بدل فيما نبغ فيه ولا يشعب ما انصدع بموته من بناء الامة ومصر فى هذا الدور من أدوار الضعف والانحلال فاذا ثكلت واحدا من بنيها النافعين فقدت معه فضيلة من الفضائل التى لا تحيا بدونها الامم حياة طيبة

والمرحوم الشيخ محمد عبده رجل جمع من مزايا الرجال وصفات الكمال ما لا يحويه رجل واحد اللهم الا أفذاذ متفرقون يشير اليهم الدهر باصابع الاجيال

لو يبعث الناس أدناهم وابعدهم فى ساحة الارض حتى يحرثوا الابلا
كى يطلبوا فوق ظهر الارض لم يجدوا مثل الذي غيبوا فى بطنها رجلا

فالبلاد انما فجعت بمصائب عظمى جمعت فى مصيبة ودهمت بنائبة تهون من دونها النوائب

وكانوا غياثا ثم أضحوا رزيئة ألا عظمت تلك الرزايا وجلت

كان الاستاذ رحمه الله على جانب من حسن الخلق يكاد يعلو به عن مراتب البشر

خلق كمثل الماء لو افرغته يوما لسال كما يسيل الماء

أبعد الناس عن النطق بالفحش واسماع الخنا

يصم عن الفحشاء حتى كأنه اذا ذكرت في مجلس القوم غائب

كان قريب الخير بعيد الشر

رحيب ذراع بالتى لا تشينه فان كانت الفحشاء ضاق بها ذرعا

يهب الجزيل ويعطى الكثير ولا يضن بالعطاء اذا ضن الاغنياء

أقامت في الرقاب له اياد هي الاطواق والناس الحمام

كان اوفى الاصدقاء وارعاهم للذمة واحفظهم للود

واذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر ايهما ذوو الارحام

كان ذكي القلب حاضر الذهن سديد المرمى

بصيرا بأعقاب الامور كأنما تخاطبه من كل امر عواقبه

كان واسع المعرفة غزير العلم يضرب فى كل فن بسهم ويجري فيه الى غاية لا تلحق وهبه الله ما وهبه من العلم باسرار الدين والاحاطة بمعانى الكتاب الحكيم

كان خطيبا ينفذ بالقول الى أعماق القلوب ويصيب به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

اذا قال لم يترك مجالا لقائل بملتقطات لا ترى بينها فضلا

كفى وشفى مافى النفوس ولم يدع لذي اربة في القول جدا ولا هزلا

كان يكتب فيسحر الالباب و ينطق بالحكمة وفصل الخطاب

له بواتر اقلام مسددة فى حدها الحد بين الجد واللعب

كان اعرف الناس بالله واشدهم مراقبة له . ولقد نظر الى ماسرى في عقائد العامة واكثر الخاصة من الشرك الخفي فأراد ان يرجع بهم الى التوحيد الخالص والتنزيه الحقيقي فنفر الناس من دعوته ثم نفذ شعاع الايمان الى قلوب المؤمنين الصادقين فتبين لهم انه الحق . وكان متفانيا في الدفاع عن الدين وتخليصه من الخلط الذى دسه فيه اعداء انفسهم وصيانة مصالحه ودفع كيد الاعداء المعتدين عنه وجمع كلمة المسلمين وتوحيد اهواءهم ومنازع قلوبهم

وفي هذا السبيل اصابه ما اصابه من اذى اهل الشر كافأهم الله

كان محبا لخير بلاده ساعيا فى ترقيتها ورفع منزلتها .

ولم يحل بينه و بين ما اراده الا الموت فترك هذه الحياة الدنيا وهو يذكر الاسلام و يدعو له لم تشغله عن ذلك نزوات الالم الوجيع، و بوادر الفناء السريع واي دليل بعد ذلك على قوة اليقين، ورسوخ القدم فى الدين

الاستاذ الامام رحمه الله هو ابو تلك النهضة الاسلامية العلميه التى امتد شعاعها في بلاد الهند ومصر ووصل جيش منها الى بلاد المغرب وغير بلاد المغرب

من دول الاسلام ولقد كانت له آمال أسمى وأكبر

فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليلحق ما قدمت بالامس يسبق
قضيت امورا ثم غادرت بعدها بوائق في اكمامها لم تفتق

هذا هو الشيخ محمد عبده الذي واراه بالامس التراب

لعمرك ما وارى التراب فعاله ولكنه وارى ثيابا وأعظما

وماذا يقول فيه القائل وبم يمدحه المادح وكل فعاله كرم وخير

يفنى الكلام ولا يحيط بوصفه أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

واذا كان الذكر الطيب حياة الرجال بعد انصرام الاجل وانقطاع حبل الامل فان للفقيد الكريم من ذلك أوفر حظ واكمل نصيب

فان تك افنته الليالى فأوشكت فان له ذكرا سيفني اللياليا

واني ذاكر لكم أيها السادة كلمات منظومة جرى بها الخاطر في رثاء الاستاذ الامام على غير سعة فى الصدر تحتمل العناية بتهذيبها وتحريرها

رزىء العلم فيك والاسلام يا فقيد الهدى عليك السلام
كنت طودا اذا الخطوب ادلهمت لم تنل همك الخطوب الجسام
رجل كان حيث يسلك فجا تتحامى طريقه الايام
يا دفين القلوب قد هابك الدهر فكيف اعتدى عليك الحمام
ان في قبرك السماحة والفضل وفيه الثبات والاقدام
كان مغناك للعفاة رحيبا نبتت في رحابه الايتام
لم تكن تحمل الضغينة والحقد وان نال من أذاك اللئام
طيب القلب لم تهم بشر طاهر الذيل لم يمسك ذام
كنت حي الفؤاد تصدع بالحق فتلوي عنانها الاوهام
كنت سلم الطباع والدهر حرب ساهر العزم والقلوب نيام
كنت ترمي فى كل علم بسهم لا تباريه في السداد سهام
أنت خلفت في الانام ثناء تتغنى بذكره الاقلام
جئت دار الحياة والدهر كهل وتوليت والزمان غلام

ان قلبا أصفاك بالود حيا صـدعته بموتك الآلام
كان فى هذه الحياة رجاء فدفناه يوم مات الامام
رحم الله منك نفس كريم وقليل من النفوس الكرام

***

وتلا الامين فى موقف الخطابة — عبد الوهاب عبد الرازق — ونص خطابه:

أيها السادة

أصيب الاسلام بهدم عماده ورزىء العلم والمتعلمون بأفول ذلك البدر الذي كانوا به يستضيئون .

هوى من بين أيدي المسلمين بالامس رجل كان نادرة الفلك وواحد عطارد

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

لقد حق لكل قلب ان يتفطر من شدة الحزن لعظم ذلك المصاب الذي اضطربت منه القلوب وطاشت الاحلام، خبر وفاة الاستاذ الامام

فقدناه والآمال ترجو حياته وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

مات الشيخ الامام فلله حياة قضاها في رفع شأن دينه وقوة أنهكها فى خدمة أمته وفكر طالما أتعبه فى ترقية أفكار أبنائه المتعلمين

لاحول ولا قوة الا بالله انا لله وانا اليه راجعون

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب في التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدي الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك حوله صعقات موسى يوم دك الطور
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه فى قلب كل موحد محفور

اللهم اغفر له وادخله فى رحمتك انه كان عبدا شكورا

***

و بعد أن كمل مقال الخطيب انبرى للقول وكيل الجمعية — احمد عبد الرازق وقال:

انا لله وانا اليه راجعون . رجل قام بيننا ينير ظلام الليل والليل قاتم و يأخذ بيد الحق يدمغ بها الباطل و يعيد للاسلام وأهله ثوبهم القشيب . حياته كلها

كانت في خدمة الدين وابنائه، والعلم وطلابه، والحق ونصرائه ، والفضيلة ورغابها حتى اذا ما اوشك أن يتم عمله و ينمو زرعه سلمت عليه المنيـة فافل من بيننا نجمه اللامع، ونوره الساطع ، وذهبت بذهابه آمال عظام

فياليتها اذ فدت عمرا بخارجة فدت عليا بمن شاءت من البشر

ولكن هيهات حم القضاء وأصاب السهم فالى الله نهرع والى كنفه الاعظم نلتجى

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

في غروب ذلك اليوم الذي فارقنا فيه ذلك الروح الطاهر منينا بفقدان علم نافع، ورأي سديد، وجد وعزم، ومروءة وحزم، فما أصعب مصيبته وما أشدها وقعا على النفوس . لله ما اشفق القلب على مصر . ولدت ذلك الرجل وحيدا وليد الدهر اسلمته . فسبر غوره ووقف على شره وخيره فاذا هو والحق يعمر قلبه والیقین يثلج صدره و ينابيع الهدى والحكمة تفيض من جانبيه .

موحد الرأي تنشق الظنون له عن كل ملتمس فيها ومفقود

يلقى المنية في امثال عدتها كالسيل يقذف جلمودا بجلمود

يرفع من شأنها وقد قعد بها كل الابناء ، ويهديها الطريق المستقيم وقد عمي عنها الاقرباء والاصدقاء، فاجاءه ريب المنون وليس لها في غيره مطمع وما في النساء وان أخطأهن العد رحم مثله تدفع

هيهات أن يأتي النساء بمثله ان النساء بمثله عقم

ولئن فات بعضا من افراد امة الفقيد ان تقدره قدره، وتعرف له حقه، فلقد خلف فينا من الايادي البيضاء والمآثر الغراء ما سنبكيه عليه أبد الابيد ونشيد له به ذكرا يزداد طيبا كلما كشفت لنا الايام عن مقاصده الطاهرة وأعماله الصالحة رحمه الله .

* * *

وبذلك تمت أعمال الجلسة وختمها الرئيس بسم الله كما بدأها

وكتب حضرة الفاضل محمد الشاملي الفار نجل سعادة عبد الرحمن بك الفار

فقيد الشرق

لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . حم القضاء فلا مرد لحكم الواحد القهار، مات مولانا المفتي فمات العلم والادب والفلسفة والحكمة والهمة والعمل والرأي والتدبير والشجاعة والاناة وعزة النفس . وفقد الاسلام والمسلمون ركن نهضتهم وحامل علم رقيهم وانطفأ المصباح الذي يضيء الخافقين وحال الموت بيننا وبين القمر المنير في سماء مصر الذي كان يرسل أشعته نورا الى العالمين فيهدي كل سائر في هذه الدنيا . يسترشد به الشيخ ويزداد العاقل تبصرة والجاهل علما والشاب موعظة والحكيم عبرة والرجل خبرة (ولكن قتل الانسان ما أكفره)

عاش مولانا ٥٧ عاما معلما مهذبا مرشدا طبيبا للنفوس مصلحا لاداء العمران فنغصنا عيشه وقتلناه بأعمالنا السيئة

أيها الناس أي عمل قام به مولانا (رحمه الله) ولم نعارضه فيه ؟ أي مشروع أدبي بدأ به ولم نقف أمامه حجر عثرة ؟ أي خير فعله ولم نقل انه الشر والاثم والزور والبهتان ؟ أي تعليم له لم نقلبه عليه بدعوى انه يريد مخالفة ماقرره السلف الصالح ؟

ولكنها همة فوق السحاب ونفس كبيرة وأخلاق شريفة رضية وبحر علم خضم لم تؤثر فيه الترهات او تمنع ظهور فضله كثرة الاعادي والحساد فعاش كغيره من الانبياء والحكماء والملوك كثير الاعداء كثير المحبين وهي ميزة كل نابغة عظيم القدر والمقام واذا كان نصف الناس أعداء لمن ولي الاحكام فلا غرابة اذا رأينا ثلاثة ارباعهم مبغضين لمن ولته الزعامة الدينية الادبية علومه، ورفعته الى أوج الكرامة فضائله ، وداس على رقاب خصمائه بقدم همته ، فكان أينما تحرك تحركت الدنيا وحيثما حل تطلعت اليه الابصار وحامت القلوب ، والناس بين مقدس لتلك الفضائل مدحا ، أو عامل على غمطها ذما وقدحا ، وكلا الاثنين العدو والحبيب كانا في مستوى واحد نحو تلك الحياة الممتلئة بالمفاخر والآثار

كم من العلماء تركوا الازهر واشتغلوا بالقضاء ، كم من المصلحين ومحرري الشعوب أقصتهم الحكومة عن البلاد ، كم من رجال العلم تولوا الافتاء ، كم من الافاضل أنابتهم الحكومة عنها في مجلس الشورى والجمعية العمومية عشرات ومئات تقلبوا في هذه المراكز الخطيرة وأتى بعضهم بكثير من جليل الاعمال ولكن بينهم فردا واحدا كان طالب علم وكان شيخا متنورا طالبا للحقيقة المجردة وكان مدرسا وكان خطيبا بليغا وكان محررا صحافيا وكان قاضيا وكان مستشارا ومات مفتيا وهو في كل مركز من هذه المراكز العضو المتحرك لخير الانسانية والعلم المفرد الساعي وراء ترقية أبناء أمته ودينه والبطل الشجاع الذي لم يخش في حياته وطنيا أو أجنبيا لعلمه أنه يعمل على ما يقوي ساعد الملك ويوثق روابط الالفة بين الهيئتين الحاكمة والمحكومة

هو مولانا الشيخ محمد عبده فقيد الاسلام الخالد الذكر

فى ريفي ألهم الله والده بأن يعلمه فبعث به الى الجامع الاحمدي بطنطا حيث كانت الجوامع دون سواها مواضع تلقي العلم والمعرفة فاختلط بشبان وشيوخ يظنون اقوالهم الحكمة وآراءهم فصل الخطاب ويخيل لهم ان كل العلم والدين منحصر في متن معقد وشرح أكثر تعقيدا وتأويل غامض وتفسير مبهم فاخترق بحاد بصيرته ان علم هؤلاء جهل وصحيحهم غلط فعف عن العلم أياما ثم آب اليه وافترش صحن الازهر طالبا لفائدة عقلية أو نقلية فلم يجد الا مناقشات وجدالا ومغالطات كان يخرج منها على غير هدى ولكن ذلك كله لم يمنعه عن استئناف بحثه وتنقيبه محكما عقله فى الاستدلال والاستنتاج فرماه سادتنا علماء الازهر بالميل عن الصراط السوي وادعوا أنه يذيع بين الطلاب مذهب المعتزلة وكادوا ينشبون به أظفارهم لولا أن قيض الله له من اخذ بيده ونصره عليهم وعلى وقته وهو ذلك الحكيم الشرقي الشيخ جمال الدين الافغاني فتمازجا روحيا وعرف كلٌّ ما يكنه صدر الثاني من صنوف العرفان والميل لهدم صروح الفساد والجهل المستولي على أفئدة المسلمين عموما والمصريين خصوصا ولكنهما لم يبدءا بنشر تعاليمهما حتى كثرت الوشايات وعمت السعاية والنميمة واعتصب ضد فقيدنا علماء الازهر ولولا

ان الشيخ العباسي المهدي أنصفه لما أنالوه درجة العالمية وما كاد ينجو بعلمه من شر الازهريين وغباوتهم حتى وقع مع زملائه ابطال النهضة الفكرية فى شرك نصب له فأبعده اسماعيل باشا عن عاصمة القطر الى مسقط رأسه فى مديرية البحيرة ولم يعد الا بحسن رعاية الوزير الخطير دولتلو رياض باشا احد العارفين بفضله، الراغبين فى افادة البلاد بواسع علمه، فولاه منصب تحرير الوقائع المصرية وكانت كحالها اليوم عبارة عن اعلانات رسمية مع بعض اخبار ادارية ووقائع محلية ففك قيودها وتوسع في طرق تحريرها او بعبارة افصح حررها من سجنها الى فضاء الحرية فنقد الاخلاق والعادات واشار بمواضع الخلل في اعمال الحكومة ودوائرها وفتح للكتاب ابواب التحرير التي كانوا لا يعرفون غير اسمها فكانت نهضته في الانشاء هي الخطوة الثالثة من اعماله التي اظهرت مواهبه وخالف بسيره فيها ما كان يظنه البعض اساسا لا ينقض فهدم ابراج خزعبلاتهم وأبان لهم كيف يجب أن يكون العالم وكيف ينبغى ان يكون الامام المصلح وما يفرض على من تلقى اليه أزمة التحرير لامة جاهلة وحكومة دستورية اسما مطلقة فعلا

هبت الثورة العرابية وكان فقيدنا فى فجر حياته ومطلع شهرته فلما دعي أجاب وهو يرمي الى غير غرض عرابي وسامي وعبد العال. كان يعتبر هذه الثورة خطوة في سبيل التحرر من رق الاجانب، كان يظن ان ثمار كتابته واقواله قد اينعت فجاهد جهاد العقلاء وقدم الرأي عن شجاعة الشجعان ووضع الحكمة والسداد موضع الجهل والرعونة والتسرع ولكن ذلك كله لم يغنه فتيلا فلا أقنع غفلا لا يعرفون غير السيف والمدفع ولا ارضى فئة كبرى كانت تؤيد سمو الخديوي والحكومة وكانت نتيجة هذا الموقف الحكيم انه سيق مع العصاة والمتمردين وحوكم كما حوكموا وصدر الامر بابعاده عن القطر ليس بصفة ثائر مثير بل خوفا من ان يكون لوجوده بعد الثورة تأثير في الاذهان المتأهبة لقبول الآراء الجليلة الحرة لا تلائم الاحتلال وهو في مهده ولهذا كان الامر العالى الصادر بنفيه ممتازا بأنه يجوز له الاقامة فى اي قطر اراد و يجوز له العودة بأمر خديوي وهكذا كان: فحل سوريا حيث لقي القلوب متعطشة لنهلة من بحر علمه واجتمع حوله عدد كبير من الطلاب

فأرواهم من وابله وشرح نهج البلاغة وعنى بطبعه ثم انتقل الى باريس وقابل فيها السيد الافغانى وهنالك رأيا أن احسن خدمة تؤدى للعالم الاسلامي توحيد كلمة المؤمنين على اختلاف الملل والنحل فأنشأا معا جريدة « العروة الوثقى » التي صدر منها ١٨ عددا هي نموذج البلاغة وحسن البيان واول ما كتب في اللغة العربية من أساطير السياسة الدينية الدنيوية ولم تشغله هذه الصحيفة عن الاستفادة من مقامه فى عاصمة الفرنسيس فدرس لغتهم وترجم بعض كتبهم وقابل كبار وزرائهم فكان هنالك سفيرا متطوعا لخدمة المسلمين واظهار عواطفهم نحو أبناء الغرب فعرف علماء أوربا قدره وأنزلوه مكانته وكانوا يودون لو بقي بين ظهرانيهم يبدد عن سماء أذهانهم ظلمات الجهل بحقيقة الاسلام والمسلمين ولكن دعته الحكومة المصرية تكفيرا عن ذنبها واعتقادا بأن البلاد فى حاجة له فعين قاضيا بالمحاكم الجزئية ثم المحاكم الكلية ثم مستشارا في الاستئناف فمفتيا للديار المصرية

تولى المنصب الاخير وهو موضع نقمة الاهالى ونقطة دائرة سخطهم يظن الجميع بأن الداء استحكم منه ولا يقدر ان يبرأه منه طبيب فخيب الله ظنهم وعاد للافتاء سابق مجده بحسن عناية الفقيد الذي كلما زادت شهرته اتساعا وشمس فضله نورا كثر مبغضوه وكيف لا يعادي من تفرد بالحكمة والرزانة والمهابة — من كلما أرادت الحكومة او الامة رجلا لعمل لم تر سواه فبينما هو يدير مركز الافتاء تجده العضو العامل في مجلس شورى القوانين لا تؤلف لجنة لعمل اداري او اقتصادي او مالى او زراعي حتى يكون من أعضائها، تجده كبير المستشارين في ديوان الاوقاف لا يتم عمل صغير او كبير دون اخذ رأيه واستفساره تجده مؤسس الجمعية الخيرية الاسلامية جائلا فى عواصم المديريات يحث السراة والاغنياء على البذل والعطاء لتشييد دور التربية والتعليم، تجده متربعا فى الرواق العباسي يلقي دروس الحكمة والمنطق والبلاغة والتفسير، تجده في منزله بعين شمس وقد التف حوله الراغبون في علمه يفيض عليهم من نوره، تجده في تونس والجزائر يداوي أمراض المسلمين، تجده فى اوكسفرد وكمبريدج ينظر فى كيف ترتقي الامم، تجده يكتب الفتاوى المصرية التي أقامت الدنيا وأقعدتها فاخرست الاعداء وافحمت المعارضين

وانقسمت لاجلها البلاد قسمين انتصر اصحاب الحق منهما على مدعي الباطل
هذا هو الرجل الذي كان يبتعد عن السياسة و يتحاماها ولكن أبى مركزه الا أن يرغم القابضين على أعنتها على الاحتكاك به والوقوف أمامه موقف الاعداء حيناً والمحبين تارة فلم يخش سلطة أمير او وزير حتى كان ماكان مما فصلته الجرائد في سنتيه الماضيتين من المنازعات والاختلافات التي قامت بين الفقيد ومبغضيه وأهمها فتوى ذبائح الكتابيين وتحليل ايداع الاموال بصندوق البوستة ، ومسئلة العلماء ، ورفع رواتب رجال الاضرحة والمساجد ، وحادثة الازهر الاخيرة التي دوى صداها في ارجاء المسكونة وحملت لنا صحف الهند استياء المسلمين لكل ماصدر ضد فضيلته رحمه الله . ولم ننس بعد تلك التهمة الفاسدة التي عزيت الى فضيلته بينما كان يتقلب على فراش مرضه الاخير وسجن بسببها حموه وكانت سبباً في الاجهاز عليه أثابه الله وعفا عن الظالمين وقد أمضينا الاسبوعين الفارطين مع جم غفير محتاطين بسريره وكانما ألسنة داعية لفضيلته بعاجل الشفاء ولكن قدره كان فذهب مبكياً على شمائله مودعاً من الجميع بالاسى والاسف والكل يرددون ان السعادة التي تنعمت بها مصر في حياة مفتيها وامامها العظيم كانت كالحلم الجميل ولكنه حلم سيبقى اثره في النفوس وتأثيره في العادات والاخلاق والهيئة الاجتماعية المصرية في كل دقائق حياتها كما يبقى اسم مولانا الشيخ محمد عبده الاجيال الطويلة عنواناً للمجد والفخر فنسأله تعالى ان يهبنا نعمة الصبر على فقده ولا يحرم الشرق من ظهور نابغة يحل محله والسلام محمد الشاملي الفار
(ويلي هذا أبيات من الشعر حذفناها اختصارا) نجل سعادة عبد الرحمن بك الفار بدسوق غربية

وكتب الفاضل الشيخ محمد فراج الازهري ما يأتي
لا غرو ولا عجب . ولا استنكار ولا انكار . في ذلك الخطب الجلل الذي قد وقع بالمصريين عموماً وأسرع الاسلام والمسلمين خصوصاً ولا أكون مبالغاً اذا قلت بالعالم أجمع (فسبحان من يرث الارض ومن عليها) ولو زلزلت

الارض زلزالها ، وأخرجت الارض اثقالها ، لما تلجلج لسان الاسلام هذا التلجلج ولا تزعزع عن مركزه فى موقفه ، ولما وقف موقف الحيران لا يبدي حراكا عن نفسه ، ولا يدفع خطبًا اذا وقع به ، ولما أصابه ما اصابه من الجبن والوهن الذي لحقه لفقد الامام العلامة النابغة الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده فقيد الافتاء فى هذه الديار المصرية . فلقد اقتطفت المنية غصنا مثمرا ، واختطفت جوهرا من الامة جيدا ، وهدمت ركنا من الدين عاملا ، فكم ناداه الاسلام فلباه ، وكم دعاه الازهر فأجاب دعوته ، وكم طلبه الرأي بالشورى فأسرع اليه وأعطاه حقه ، وكم مد الجمعية بنفسه ونفيسه حتى أحياها بعد ان كانت ميتة ، فأي حادث وقع بالمسلمين كهذا

ولو نظرت ايها العاقل الى هذه الحياة لوجدتها لفراقه اياها متلجلجة اللسان متزعزعة الفكر متقطعة القلب باكية العيون ساكبة الدموع لفقدها حكيما كان يمدها بجياد فكره وسعة علمه وقوة جنانه ، فكيف لا تندبه وقد ماتت بموته ، لفقد الامداد عنها بفقده ، خطب قد ألم بقوم فأفقدهم مسماهم ، وحادث قد وقع بهم فأفقدهم مثواهم ، وزرء جسيم ، ومصاب اليم ، قد الجمهم على غفلة منهم فزعزع اساسهم ، وهدم بناءهم ، فوربك ان اغتيال المنية اياه امر قد صير الخطب بيننا جللا ، والايام بيننا دولا ، فمن لي بعد هذا من يكون من ابناء الدين للدين ناصرا فلقد سقط نجم الاسلام ، وهدمت قوة المسلمين ، واشتد الكرب ، وعظم الخطب ، فالحادث فظيع ولله الامر من قبل ومن بعد وبه الحول والقوة فكم من ضلالة احياها الاجنبي فأماتها ، وكم من صالحة اماتها الغبي فأحياها ، وها هي قضية تلك الغرانيق تشهد له بما قد ابرزه من الحقيقة فيها ومناظرة هانوتو فانظر اليها ترها عروسا بكرا قد زفت الى هانوتو مجللة بضروب الحلي والآداب بعد أن أسس جدارها وشيد بنيانها ورفع اعلامها حتى صارت ولم تزل تنادي له بالفضل والرحمة بكرة وعشيا ثم ارجع الى الازهر وحول النظر ثانية اليه تراه قد انشأه نشأة ما كان ينتظر ان يكون عليها بالامس . فكم خاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وحرك الحواس ، حتى اثرت كلمته في القلوب بعد ان اخترقت حجب الاباطيل ، واعدت عددا

عظيما من الافاضل قد اناطوا انفسهم اليوم باستكناه المعقول تارة وكشف المجهول اخرى، خدمة للدين وقياما بحقوق العالمين ، وذلك النجاح ما كان يمكن ان يناله الانسان قبل ، وما كان يخرج التلميذ عن دائرة التلمذة الا بعد ان يبلغ من العمر ارذله وربما كان بعد هذا الشقاء ، لم ينتظم في سلك العلماء ، بل في سلك اولئك الذين فارقوا الدنيا بعد ان خسروها والآخرة «ذلك هو الخسران المبين» ، فيا تعاسة حظ الازهر والازهريين ، ويا خسوف نجم سعد المسلمين ، فقد الكل رجلا كانت الحاجة اليه ماسة وقضايا الدين اليه داعية ، ومصالح الحكومة له نادبة ، ودعك مما يقوله فيه المشاغبون ، واذا رأيتهم يخوضون، فاعرض عنهم ودع أذاهم وذرهم في طغيانهم يعمهون ، فانك اذا رأيت ثمَّ رأيت نعيما وملكا كبيرا فيه تتمتع روحه السعيدة وحسبك دليلا على ذلك ما قد أعقبه للدين من الآثار

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

فكم استغاث به الفقير فأغاثه وكم أنصف المظلوم فيه وأعطاه الحق ، وكم أدب الظالم لاعتدائه الحدود وانذره ، وكم سار في الارض امتثالا لقوله جل وعلا (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) ولا يسعنا اليوم الا أن نرجو الله تعالى ان يغمره بعميم رحماته ، وأن يهب الاسلام رشيدا بعده ليقوم به حالهم ويصلح به شأنهم ، انه على ما يشاء قدير و بالاجابة جدير آمين

محمد فراج الازهري
المنياوي طالب علم بالازهر
ومن تلامذة الفقيد

وكتب حضرة الفاضل محمد افندي الهراوي بالمعارف ما يأتي

مات الامام ولم يمت

كأنك اذ علوت اليوم نعشا خطيب ان تؤثر من سكات
وان الناس قد جاءوا لوعظ كما عودتهم حال الحياة

هل مات الامام، هل راح أمير الكلام، هل قضى حجة الاسلام، هل توفي حكيم مصر، هل ذهب فيلسوف العصر، هل مضى فاعل الخير، هل انزوى نابغة الشرق، هل ودع نصير الحق، هل بلي لسان الصدق، هل مشى ابن السياسة، هل قبر أخو الكياسة، هل دفن أبو الرياسة، هل عدم شديد الباس، هل آب عظيم المراس، هل بعد قوي الحجة على الناس، هل اختفى الرجل الصبور، هل فقد الشهم الغيور، هل ولى الليث الجسور، هل طوى رب القلم، هل سار ناطق الحكم، هل انتقل الرجل المحترم

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

نعم مات، مات وكان للشرق تاجا، فسقط بموته ذلك التاج، وفقد وكان لمصر سراجا، فانطفأ بفقده ذاك السراج الوهاج، وذهب وكان لدين الله حصنا يرد عنه غوائل المعتدين، فذهب بذهابه ذلكم الحصن الحصين، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. انا لله وانا اليه راجعون.

من تعاسة الشرق وحظ الغرب في كل شيء انه اذا مات بالثاني نابغة في فن قام بعده الف نابغة في كل فن. وان ظهرت بالاول نادرة، لا يلبث ان يؤوب الى الدار الآخرة، ولله في خلقه شؤون

ألم تر اذ ما كان فينا محمد يمثل فضل الشرق والشرق يجهله
وها هو قد ولى لحال سبيله فيارب بعد الشيخ من ذا يمثله

لا أحد والله يمثل بعده فضل الشرق والشرقيين، ولا رجل يخلفه لينهض بالاسلام والمسلمين، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون

مات حكيم الشرق النابغة، وله في كل فن يد بالغة، فكان في اللغات متمكنا، وفي أصول الشريعة أمكننا، وفي الآداب متضلعا، فهو في أحكام الدين أبو حنيفة النعمان، وفي البلاغة والبيان، قس وسحبان، وفي الحكمة لقمان، وفي الفلسفة ابن رشد هذا الزمان، وفي الكرم والسخاء حاتم الطائي، وفي المروءة والوفاء السموأل والطغرائي، هو الكاتب اذا كتب لو أعطى قلمه أميا لأصبح بفضل الله كاتبا بارعا، الخطيب اذا خطب لو أعار لسانه أعجميا لاضحى ما شاء الله خطيبا

مصقعا ' اذا علم فهم ' واذا حاجّ أفحم

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وقد مات واحد الدنيا في المسلمين فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم انا لله وانا اليه راجعون . لو كان ذلك الرجل اليوناني الفيلسوف الذي حمل فى يده مصباحا والشمس تكاد تحرقه واخذ يبحث عن شيء فى الطريق حتى اذا سأله سائل عما يبحث قال انما أبحث عن رجل ـ لو كان هذا الرجل الحكيم ـ معاصرا لفقيدنا المرحوم لا كتفى بأن يراه فى جنح الظلام . رجل فى أبهى مظاهر الرجال العظام ' أما وقد مات الشيخ محمد عبده ودفن تحت التراب فليحمل الشرق بأجمعه فى كلتا يديه الف مصباح ومصباح وليستعن بالشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها ثم ليبحث بين رجاله من بعده على رجل مثله

* * *

اذا صحت دعوى المدعين ' بأن لاولياء الله الصالحين ' من الاجسام أربعين ' فقد صدقت دعواهم على نفس فقيد الامس ' فبينما تراه طيب الله ثراه يدخل حجرته ، يرد على هانوتو فريته ' تجده في دار الافتاء ' يفتي بالشريعة الحنفية السمحة ' فاذا بك تلقاه فى الجمعية العمومية ' يبدي الآراء الذهبية ، فاذا بك تلقاه فى مجلس الشورى يترأس اللجان الفرعية ، فاذا بك تنظره فى ديوان الاوقاف يسوي كل خلاف ، فاذا هو فى الداخلية ' له يد فى الامور الادارية ' فاذا هو في الحقانية ، له الفصل في الامور القضائية ، وترتيب المحاكم الشرعية ، فاذا هو في نظارة المعارف العمومية ' لاصلاح المعاهد العلمية ، فاذا هو فى مجلس الازهر يدخل فيه العلوم العصرية ، فاذا به وهو في دار الجمعية الخيرية الاسلامية ، يفكر في خيرها من الوجهتين المادية والادبية ، فاذا بك تراه يفسر آيات الله تفسيرا ما أحلاه واجلاه ' فاذا انت تبصره فى قرى الاقاليم ' يحتفل بافتتاح معاهد العلم والتعليم ، وانك لتعلم أنه بمدائن القطر ' يوالى دعوة سراة بنى مصر ، لاغاثة منكوبى الجمر بميت غمر ، فاذا أنت تسمع أنه عضو لجان المحكمين ' لتسوية الخلاف بين الاهلين ' و بالجملة فانه ما راح أو حضر ' الا وله فى كل واد أثر . أفما خسرنا فى فقد هذا الرجل الف رجل ورجل فلا حول ولا

قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون

***

تولى القضاء فحكم بين الناس بالعدل، وولى الاحكام فقضى بما يرضى الله والعقل، فتمسكت القلوب به وتعلقت بحبه، وقدره العارفون حق قدره، وشهدوا له برسوخ قدمه فى الفضل والنبل ولم ينفر منه الا الحاقدون عليه لعلمه وفضله وعلو مرتبته أو على رأي المثل

أن نصف الناس أعداء لمن ولي الاحكام هذا ان عدل

وتجاهلوا فجهلوه، وعرفهم فلم يعرفوه، والفضل يعرفه من الناس ذووه، وأحسن اليهم فأساؤوه، و بعلمه أحبهم وبجهلهم عادوه، والجاهلون لاهل العلم أعداء

كان يتواضع كثيرا وهو عال علوا كبيرا، و يعمل المروءة بقصد المروءة ولا يبغى عليها جزاء ولا شكورا

مررت على المروءة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي جميعا دون خلق الله ماتوا

نعم ماتوا ودفنوا تحت الطين فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون محمد الهراوي بالمعارف

وكتب الفاضل الشيخ توفيق ابو خليفة ما يأتي

اكتب هذه الاسطر بدمع عين ملؤها الحزن والكآبة، عين زاغ منها البصر وما طغى، لقد رأت من آيات ربها الكبرى. فسحبت سحابتها الملتفة بالويل فسقت حطيم الآمال التي التوى غصنها، وجف غضها، وانصرم قويها، وبعد مزارها، واتسع خرقها، وطحنتها صروف الدهر طحنا، ومزجتها بكأس من حميم، وجعلتها صورة سوداء مكتوبا على جبينها آية الاستحالة، ووضعتها فى جيب الارض. (اجل) أنها وضعت تحت امامنا الاكبر وتحت ساعده الايمن سيد المفسرين وملاذ العالمين، وملجأ المشتبهين، رضوى زمانه، أبو حنيفة اوانه،

نشيد كل عليم ، وامام كل فهيم ' من لا يسعني أن أصرح باسمه ، حيث استنار العالم بخواصه ورسمه ، ذلك المقدام الذي تدكدك لهوله الطور ، وغاض منه البحر المسجور ، ونكست رأسها الاقلام ، وخرس له كل لسان ، وبكت عليه السموات والارضون ، واظهرت حدادها ' وانقلب كيانها ' وهدأ دويها ' وكثر صريخها ' وندب مريخها ' وبكته الثريا وتفرق شملها ، وانفصمت عروتها ، حيث كانت معلقة بذيله ، وخادمة لنيله ، وطوع اشارته وامره ' وانخسف القمر ' واقتربت الساعة ' وكرت علينا أحزاب الهموم زمرا ، وأخذنا نريق غرب الدموع عبرا ، كما أراقها على يوسف يعقوب ، ونشق الجيوب بباتر الأسى ' والقلوب تتلو سورة الانشقاق ' والصدور كتبت في طيها سورة اللهب ' والجسم عصفت عليه أعاصير النحول الذاريات وتوالت عليه مرسلات البؤس المغيرات ، فعبس جيش الصبر وتولى ، وتركه أسير الاخوان وولى ، فتبا لدهر كسف منا هذا البدر ، وجعل موعد لقائه الحشر ،

دهر ان صفا يوما تكدر أعواما ، وان أضحك شهرا أبكى دهرا ، فها هو قد وقف بالمرصاد ، وعضنا بأنياب حداد ، واستباب منا ما كان نجلا في عينه ، ولعسا في شفته ، وعقدا في جيده ، وعبيرا تتأرج الارجاء عندهبته ، وروحا الجسم المجد ، وانسانا لعين الرفد ، وزندا لكف الدين ، وواسطة لعقد المتقين ، وحرما للآمال ، أبيح فيه صيد المال ، فان انت لامسته لامست شهما ، وان مارسته مارست ضيغما ، وان جالسته جالست امثلا ، وان هاديته هاديت أجدلا ، وتالله كان يومه ينافس فيه امس ، والعالم تفخر به كما فخر عصام بالنفس ،

أها وآه رحمك الله يا عليم الاقطار فلئن عزت حياتك ' لقد هدت وفاتك ' ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك ، ولنعم الروضة روضة ضمت ضريحك ، ولنعم الجنة جنة فيها فسيحك ، ولنعم الحور حور تلقتك بكأس دهاق من الكوثر فطبت حيا وميتا وعشت جليلا ومت جليلا فلنعم الجليل ، فلتهنا بك الجنان ، وليبكك الزمان فهذه الارض قد اشفقت عليك من الاعداء ، فوضعتك في الاحشاء ، فترفق ايها

الجدث فقد نزل بجرعائك القطر ، اللهم الهمنا والامة الصبر . واجعل له بهذا الفادح خير اجر

توفيق ابو خليفة

الجرجاوي بالأزهر

وكتب الفاضل عز الدين افندي صالح ما يأتي

انا لله وانا اليه راجعون

لقد ذوى غصن البيان . وهوى نجم العرفان . على أثر مرض أعيى الاطباء وروع الاوداء . فياعيون تفجري ، و يادموع تحدري

و يامهجتي ذوبي أسى وصبابة وياكبدي عز اللقا فتفتتي

فقد هلعت القلوب ، وتفاقمت الخطوب ، وتزايدت الكروب ، وضعف الطالب والمطلوب ، وبلغت الروح التراق ، اذا انفصمت عرى التلاق

وقد ماتت الفتيا بموت (محمد) واوحش دين الله وازور جانبه

وأظلم هذا الكون بعد ضيائه فقد كان من لفظ (الامام) كواكبه

فنزل بنا ما لو نزل بالجبال لمادت رواسيها ، وبالارض لدكت أعاليها ، و بالبحر لغاض ماؤه ، و بالبدر لذهب سناؤه ، و بالشمس لم تظهر و بالنجم لم يسره

والصبر يحمد فى المواطن كلها الا عليك فانه لا يحمد

لا كان قلب لا يستصغر جمر الغضا لفراقك أيها المفتي ، ولا عين تبخل بهواطلها ، ولا تجود بهواملها ، ولا كان اليراع ان سطر غير مراثيك ، ولا اللسان ان نطق بغير ذكرى معاليك .

سكنت رمسنا و ياليته كان بين جوانحنا ، وتحجبت عنا بالتراب ، وعهدنا بالبدر التقنع بالسحاب .

وقد كان بطن الارض يغبط ظهرها عليك فأمسى البطن يحسده الظهر

يبكيك الافتاء ولا نبكيك ، و ينعيك الاسلام ولا ننعيك ، وتشجر رؤوسها

الاقلام حزنًا عليك ولا نموت جزعا ، ونرى الشورى في ضجة ، وطلبة الازهر في صيحة ، ولا تأخذنا رجفة الفراق

شمس فضل مال بها الزوال الى النزول ، و بدر أدب جنح به التمام الى الافول ، و بحر جف ، وطود خف ، فحمل على الاعناق ، والى ربك يومئذ المساق

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدي الرجال تسير

والله لو ان الموت يقبل الرشا ، او يسمح بالفدا ، لفديناك بأرواحنا وأموالنا أو كان يسمع أو يعقل لافحمناه بحجج دامغة ، وبراهين ساطعة ، حتى لم يجد اليك سبيلا ولكن

الموت داء لا دواء له يمحو من الدنيا امانيها
وطبعه نقص المعالى لذا أفنى محمدها ومفتيها

الهمنا الله وآلك صبرا واسكنك جنات تجري من تحتها الانهار ، وعوض الاسلام فيك خيرا ، ماقال الصابرون ، انا لله وانا اليه راجعون

عز الدين صالح
تلميذ بمدرسة رأس التين
باسكندرية

وكتب الفاضل الشيخ احمد مختار الحنبلي

عظة الدهر برجل العصر

من كان يعلم ما بأمسه ، ورآه أصبح كفين رمسه ، علم ان الدنيا كدرة مبغوضة ، وانها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، غرارة ميالة ، وحلوة قتالة ، خطوبها كثيرة ، وحادثاتها عديدة ، ولا خطب فيها اكبر مما دهانا ، ولا سهم منها اشد مما رزانا ، رزانا بوفاة العالم النحرير ، والفيلسوف النقريس ، ارسطاطاليس زمانه ، وافلاطون اوانه ، من له من سحبان بيانه ، روح هيا كل المعارف والآداب ، وسويداء القلوب ونقطة عين أولى الالباب ، شيخنا العلامة

الشيخ (محمد عبده) مفتي الديار المصرية وناموس أسرار الشريعة الاسلامية

مولاي ننعيك ، ولكن بأي لسان ام باي قلم ؟ نبكيك قدر ما آثرته علينا ، وبما قد اخلفته الينا ، من طرق التربية والنهضة العالية واوقفتنا على كثير من العلم والحكمة ، وارشدتنا الى مطالب الحياتين . فنال كل فريق بك مأربهم ، وشرب كل اناس منك مشربهم ' اذ أنت بحر العلوم وقنطرة الوصول ' ولدتك أمك فسلمت فطرتك وكملت فطنتك . وعلت همتك ' فكنت اماما محققا . ذليقا مدققا . كاتبا مقنعا . وخطيبا مصقعا .

تسنمت حتى عجب منك أخوك المصري ' وبهت منك الهندي والتركي ' وهرع لك البدوي والزنجي ' وشهد لك المسلم والافرنجي ، شهادة معاصرين لمعاصر ، عجبت منك الآباء والابناء بل والامهات ولا عجب (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) شيخ ولكن تقلدت وسام القضاء الاهلي ' وامام بك ارتفع المقام الشرعي ، تزين بك مجلس الشورى والمجلس الاعلى ' وأقيمت بك الجمعية الخيرية الاسلامية والجامع الأسنى ' ففتحت بيوت البائسين ، وضربت على أيدي الظالمين ' فالتجأ لك عداد الفقراء والمساكين . فمن لهم بعدك . فوالله لولا التدين لقلت انك خير من سلف ، واعظم من جاء وأفضل من خلف ، قاومتك الليالي فقاومتها حتى ناجتك المعالي فساعدتها ' فضربت بهمتك الامثال ، وكنت للفضائل خير مثال

مرضت فأمرضت القلوب وابكيت العيون . والناس كما يصبحون يمسون . ولكن جاء قضاء الله ولا راد لقضائه . وفاجأك الموت فلا محيص من لقائه . الا انه لحياتك ارتجت الارض ولموتك اهتزت . فبكاك الاذربي ونعاك الالمعي والقلوب انفطرت . لفراقك أذنت المساجد . ودقت النواقيس في الكنائس اشعارا واعلاما بانك رجل الدنيا وواحدها . تطاير اسمك وعلا ذكرك ورفع شأنك . فنعتك جرائد الشرق وصحف الغرب ببعض ما فيك من شيم . رحمك الله فأنت الذي بمشهدك امشيت المسلم والكافر والرجل المطيع والآخر الفاجر . ذلك المشهد الذي عبر عنه بمشهد افتتاح الاسلام ثانيا واختتامه . أو (أول مشهد رتباط جديد في الخلق) ماسبقت بمثاله فيه رجال الدين والدنيا . كيف وأنت

الذي مهما يكن لا تقدر حق قدرك . وهذا يبننا بقلمك وهذا من عملك . وان آثارك خير مدح وأجمل عزاء . يا عالما لم تجاره العلماء . مت ولم تمت فمن بقيت آثاره لم تمت حياته فرحمك الله ورحمك الله . . احمد مختار الحنبلي

أحد طلبة العلم الشريف

وكتب الفاضل الشيخ محمد موسى الاجرب ما يأتي

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون . لقد نكس الاسلام أعلامه ، وعض بنواجذه بنانه ، وابيضت عيون المناصب حزنا ، وتفطرت قلوبها شجنا ، والكل بلسان الحال ، يندب الاطلال ، وينعي البلاد والابطال ، أسفا على من بموته مات العلم والفضل ، وبفقده فقد القسط والعدل .

الا وهو فقيد الملة والدين ، وحكيم الامة وطبيب المسلمين ، فيلسوف زمانه ونابغة دهره وأوانه ، امام الامة والعلماء ، وشيخ المشايخ والعظماء ، استاذنا الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، تغمده الله برحمته المرضية ، وأسكنه فسيح جنته العلية آمين . فمجلس الاوقاف الاعلى كان يود ان يخلد حياء والآن يندبه ويقول (ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) ومجلس الشورى يدعو اله العالمين (اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين) والمحاكم الشرعية تبكيه بدمع غزير (فالحكم لله العلي الكبير) ومنصب الافتاء يندبه على فقد نظره العميم (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) وأهل الازهر يبتهلون الى الله من الويل المبين (يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) والجمعية الخيرية تنادي الا لا تهضموا حقوقهم (وآتوا اليتامى أموالهم) ورده على مسيو هانوتو ينادي بأعلى صوت شديد (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) والمحاكم الاهلية تبتهل لماضي مستشارها الكبير (اني لما أنزلت الي من خير فقير) وجميع المسلمين يرجون اتمام النساء (١) واحكامهن (ويستفتونك فى النساء

---

(١) يشير الى ان الفقيد لم يتمم تفسير سورة النساء

قل الله يفتيكم فيهن) وجامعة الاسلام اصبحت تتلو على المؤمنين (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) ومدرسة القضاء الشرعي تتضرع الى الله بكرة وعشيا (رب هب لي من لدنك وليا) وزيد وزينب يتبرآن مما ينسب الى نبيكم(١) (ذلكم قولكم بأفواهكم) وتأسيس المساجد يدعو له والمنابر (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وحادث ميت غمر(٢) قد لباه اله العالمين (انا لا نضيع أجر المحسنين) وعلوم التوحيد أصبحت تلبي الها واحدا (فلا تدعوا مع الله احدا) وعلوم البلاغة أقامها من وهدة لا تحطاط فكان لها من الحافظين (ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) وعلوم الحكمة أنقذها من رتبة الجهل فسرت به سرورا (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا) وعلوم الرياضة تطلب من الله جزاءه وما أراده (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) هذا ـ وان مشهده الاعلى يتلو في الوجود (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) وملائكة الرحمة قد احتفوا به فرحين مسرورين (ادخلوها بسلام آمنين)

قد مات الاستاذ الامام وما هو الا مصير الاولين والآخرين ولكنه قد أرشدنا الى طرق الصبر وعلمنا كيف نتسلى ونتصبر نعم انه قد مات ولكن لحياة علومه ومعارفه وعموم نفعه للمسلمين هو حي بتلك الآثار (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) واني لم أزل أكرر آية الصبر لي ولعموم المسلمين ممتثلا قول الله تعالى (و بشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون) ومتمثلا بقول الشاعر

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر اوسع

فعوضنا الله والمسلمين خيرا في عظيم مصابنا ورزقنا وآله الصبر والمسلمين على ما ألم بنا آمين

محمد موسى الاجرب مجاور بالازهر
من محلة فرنوى بحيره

---

(١) يشير الى رده الشبهات فى مسألة زيد وزينب (٢) يشير الى جمعه المال لاعانة الذين اصيبوا بالحريق في ميت غمر وغيرها

حفلة التأبين والرثاء

عند القبر

جرت العادة عند الازهريين بأن يرثى كل عالم عند الصلاة على جنازته في الازهر بقصيدة تنشد على دكة المؤذنين في الجامع وكان الاستاذ الامام عليه الرحمة والرضوان أبطل هذه العادة وقد حاولوا أن يعودوا اليها برثائه فمنعهم صديقه الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان وتقدم ذكرذلك فى تأبين الجرائد وجرت عادة الفضلاء من كل أمة بأن يؤبن بعضهم من يموت من أهل الفضل وأصحاب المكانة عندهم عقب الدفن وقد أراد العمل بهذه العادة بعضهم عند دفن الامام فرأى صديقه حسن باشا عاصم كثرة ازدحام الناس وما هم فيه من الحزن والكرب مع شدة الحر والتعب من طول المسافة التى مشوها من محطة مصر الى القرافة فقام في الناس فقال ما معناه: ان أصدقاء الفقيد ومريديه استحسنوا أن يرجئوا التأبين الى اليوم الاربعين لوفاته فانصرفوا أيها الناس مأجورين مشكورين

وقبل مجيء الموعد علموا أن الذين يريدون التأبين والرثاء من العلماء والادباء كثيرون وان تقديم بعض على بعض أو الاذن لبعضهم دون بعض فى القاء ما أعده لا يليق ولا يحسن فكان الرأي ان يعين المؤبنون والراثون وأن يكونوا بحيث يستغرق ما يلقونه الوقت الذي يجتمع فيه الناس للاحتفال بذلك فاتفقوا على ان يكون المؤبنون والراثون خمسة ــ حسن باشا عاصم يذكر ملخص تاريخ حياته لاسيما عمله فى الجمعية الخيرية في مدة رئاسته لها وقبل ذلك اذ كان الفقيد عضوا مؤسسا وعاملا ــ والشيخ أحمد أبو خطوة القاضي فى المحكمة الشرعية الكبرى وأحد علماء الازهر الاعلام وان يكون أخص ما يذكره خدمته للازهر وللمحاكم الشرعية ــ وحسن باشا عبد الرازق أحد أعضاء مجلس الشورى وأن يكون من أخص ما يذكره خدمته للحكومة وللامة في المجلس ــ وقاسم بك أمين المستشار فى محكمة الاستئناف والعالم البارع في علوم الاخلاق والاجتماع وأن يكون أخص ما يذكره أخلاقه وفضائله واصلاحه فى الامة ــ وحفني بك ناصف القاضي فى محكمة مصر الاهلية وأحد

الادباء المتخرجين على الفقيد في الازهر ودار العلوم ـ وحافظ افندي ابراهيم أشهر شعراء مصر واعرفهم بمزايا الامام كل منهما يرثيه بقصيدة

هذا ما اتفق عليه الاصدقاء والمريدون وأذاعوه في الجرائد ولما جاء اليوم الموعود وكان يوم جمعة اجتمع الالوف عند القبر حتى ضاق بهم الحوش الذي هو فيه والفضاء الذي بجانبه حتى كدنا نظن انه لم يبق في القاهرة احد من علمائها الاوقد حضر بل حضر أيضا كثيرون من وجهاء الاسكندرية وسائر جهات القطر ولما حانت الساعة التي عينت في الجرائد للبدء في الاحتفال تلا بعض القراء آيات من القرآن العظيم خشع لها الحاضرون ثم ألقى كل واحد من المؤبنين ما يأتي عنه

﴿ تاريخ حياته ﴾

لسعادة حسن باشا عاصم

ولد الفقيد في سنة ١٢٦٦ للهجرة الشريفة من ابوين متوسطي الحال ووالده من بلدة (محلة نصر) في مديرية البحيرة ووالدته من بيت عثمان من بلدة (حصة شبشير)بمديرية الغربية وينتمي بيت والدته الى بني عدي من العرب ويقال انهم من ذرية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت أخلاق والديه الفطرية سليمة يغلب على والده الكرم والشجاعة والوقار وتعرف والدته بالبر والرحمة بالمساكين فله في أخلاقه الكريمة اصل يرث عنه ويزيد بحسن التربية التي صادفها ما شاء الله ان يزيد رفعة وكمالا

بدأ في تعلم القراءة بعد ان جاوز العاشرة من سنه فأتم حفظ القرآن على حافظ مخصوص ثم أرسله والده الى طنطا لاجل تجويد القرآن في الجامع الاحمدي فجوده

وفي سنة ١٢٨١ هـ شرع في طلب العلم بذلك الجامع فأقام سنة ونصفا لم يفهم شيئا مما يلقى اليه لوعورة طريق التعليم ومفاجأة المعلمين للطلاب بما لا يعرفون من الاصطلاحات وصناعة الاعراب فسئمت نفسه وترك الطلب وعزم على الاشتغال بالزراعة وتزوج على هذه النية فكان هذا اول برهان على سلامة فطرته وذكائه اذ لم يرض باضاعة زمنه بما لا فائدة منه لكن والده ألزمه بالعودة الى الجامع الاحمدي لطلب العلم كأنه تفرس فيه الذكاء والاستمداد فلم يرض له باضاعتها فأركبه فرسا وأرسل معه رجلا شديد البأس ليوصله الى محطة ايتاي

البارود حيث يركب القطار الى طنطا فاشتد عليه الحر في الطريق ففر من رفيقه يعدو بفرسه الى قرية تسمى (كنيسة اورين) بمديرية البحيرة وانما فر الى حيث يقرع باب العلم والتربية الصحيحة التي كانت السبب في سعادته كما كان يقول محدثا بنعمة الله تعالى . ذلك انه كان في الكنيسة رجل عالم فاضل مستعد لارشاد غيره ولكنه كان يشتغل بالزراعة لا بالارشاد فكأن الله تعالى خلقه لاجل ان يربي فقيدنا اذ لم يرب احدا سواه

ذلك الرجل هو الشيخ درويش خال والد الفقيد وكان قد ساح في الارض فوصل الى طرابلس الغرب فأخذ العلم والطريقة على السيد محمد المدني وتربى على طريقة الصوفية الحقيقية وعني بتفسير القرآن وحفظ الموطأ وكتبا أخرى في الحديث

فلما نزل الفقيد ضيفا في داره رحب به وكلفه أن يقرأ له جملا من كتاب خطي جاءه به فأبى عليه فما زال يلح عليه مع التلطف به حتى قرأ أسطرا فلما قرأها اندفع الشيخ يفسرها له ثم عاد اليه يكلفه القراءة فيقرأ فيفسر له ثم يتركه يلهو ويلعب مع شبان القرية فما جاء عليه اليوم الخامس الا وقد عشق القراءة ومقت اللعب واللهو وهذا دليل على ان تركه أولا لطلب العلم كان لعدم الفهم لا لضعف الاستعداد

لم يكن ذلك مرغبا له في العلم والقراءة فقط بل كان مرغباً له في العمل بالعلم وتربية نفسه وتهذيبها به . فقد كان ذلك الكتاب مجموعة رسائل كان السيد محمد المدني أرسلها الى بعض مريديه يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويرغبهم في تصفية النفس وتحليتها بالكمال . فسأل الفقيد الشيخ درويشا عن طريقتهم مظهرا له الرغبة في سلوكها معهم فقال طريقتنا الاسلام قال الفقيد وما هو وردكم قال هو القرآن مع الفهم والذكر مع الحضور ثم فرض عليه أن يقرأ كل يوم أربعة ارباع مطالبا نفسه بفهمها وكان هو يفهمه مالم يفهم . فأخذ الفقيد ذلك بجد واجتهاد وانقطع للقراءة والذكر وبعد اسبوعين ذهب الى طنطا لطلب العلم ففتح عليه حتى كان الطلاب يجتمعون اليه ليطالع لهم الدروس التي يحضرونها وبعد ذلك انتقل الى الازهر في شوال سنة ١٢٨٢ هجرية فكان يطلب العلم مع الاشتغال بالتصوف . فنهاره تعلم واستفادة وليله تلاوة وذكر وعبادة .

واعتزل الناس فلم يكن يكلم أحـدا الا لضرورة . وكان يعرض كلما يعرض له من احوال الصوفية على الشيخ درويش في مدة بطالة الازهر وكان هذا الشيخ ينتظره في بلدة (محلة نصر) بدارسه القرآن والعلم

كان الشيخ درويش يرغب الفقيد في أن يتعلم كل علم فكان يسأله هل تعلمت الحساب والهندسة هل تعلمت المنطق هل تعلمت كذا فلذلك كان رحمه الله يبحث عن العلوم التي لا تقرأ في الازهر ولم تمض عليه أربع سنين في الطلب حتى رأى نفسه قد حصل كل العلوم الازهرية وطفق يبحث عن غيرها لاسيما العلوم العقلية والرياضية . وكان من عناية الله تعالى به أن ساق اليه ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين الافغاني فأخذ عنه الكلام والتصوف والاصول والحكمة والعلوم الرياضية والاخلاق والسياسة وتخرج على يديه في الكتابة والخطابة ولم يكن شيء من هذا في الازهر وانما قلنا ان الله ساقه اليه لانه لم يحضر عليه جميع ما قرأه سواه على كثرة الذين كانوا يترددون على السيد جمال الدين رحمه الله

وقد عرض الفقيد نفسه في سنة ١٢٩٤ هـ على مجلس الامتحان طالباً شهادة العالمية من الازهر فنال الشهادة رغما عن تشديد اكثر المشايخ عليه لحضوره على السيد جمال الدين فهذا دور التعلم والتربية وأما دور العمل والاصلاح فقد بدأ به في أثناء الطلب . كان يقرأ دروسا في التوحيد والمنطق وغير ذلك يحضرها الجم الغفير من الازهريين فيرون كتبا جديدة من كتب سلفهم وأسلوبا جديدا يتدفق فصاحة وبلاغة وفتح لهم باب المذاكرة والبحث فكانوا يسهرون لذلك حتى مطلع الفجر

وبعد أن صار مدرسا رسميا زادت عنايته بذلك وكاد الازهر لذلك العهد ينهض نهضة تحيي العلم والدين ولكن حال دون ذلك اضطهاد المرحوم الشيخ عليش للفقيد لوشاية مكنها من نفسه حضور الفقيد على السيد جمال الدين

كان يدرس في الازهر وفي بيته فبدأ بكتب العقائد وهو اول من قرأ علم الاخلاق للازهريين في هذا العصر لما له من العناية بتربية النفوس وتخريج الرجال العاملين وقرأ درسا خاصا في السياسة

وكان غرض السيد جمال الدين الاصلاح الاسلامي بواسطة الحكومة لأنه

اسرع فائدة وأينع ثمرة لو تم وقد مهد له السيد بتلاميذه ومريديه حتى كاد ينجح بعد عزل الخديو اسماعيل وتولية الخديو توفيق الذي كان متصلا به قبل ذلك. وكان هو المأمول لتنفيذ الاصلاح ولكن ما كاد يستقر على كرسي الخديوية حتى أوغر الوشاة صدره على السيد وعلى تلميذه الاول ويمينه فى العمل أعني فقيدنا رحمها الله فنفى السيد الى خارج القطر وذهب الشيخ الى بلده (محلة نصر) وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩٦ ه

كان الفقيد قبل ذلك عين معلما للتاريخ في مدرسة دار العلوم واللغة العربية فى مدرسة الالسن فجرى في التدريس على طريقة جديدة كانت مبدأ الاصلاح والنجاح وكان يقرأ في مدرسة دار العلوم مقدمة ابن خلدون ولم تقرأ قبله درسا في مصر وكان يسلك في تدريسها مسلك الاستاذ المجتهد في علم الاجتماع والعمران ولو طال الزمان على درسه هذا اربى رجالا وأحيا آمالا

وفى سنة ١٢٩٧ ه عينه صاحب الدولة رياض باشا محررا فى الجريدة الرسمية ثم جعله رئيس التحرير فيها ورغب اليه فى سن قانون للمطبوعات ففعل. وكان من أحكام ذلك القانون انه يجب على جميع مصالح الحكومة ان تخبر قلم المطبوعات باعمالها واحكامها ومشروعاتها وان لرئيس التحرير حق الانتقاد على مايراه منتقدا منها كما انه له حق المراقبة على الجرائد التي تنشر فى البلاد المصرية ومعاقبتها حتى بالتعطيل الدائم. ومن أحكامه ان ينشئ رئيس التحرير فى الجريدة الرسمية قسما أدبيا تنشر فيه المقالات فى التربية والآداب والتدبير وغير ذلك من الامور النافعة فى الاخلاق والعادات

بهذا القانون صار الفقيد رحمه الله تعالى كالمسيطر على عمال الحكومة والمربي للامة وقد قام بالامرين حق القيام فكانت الجريدة الرسمية تنتقد ماتكتبه مصالح الحكومة حتى اضطر رؤساء الكتاب الى تلقي دروس فى العربية وأنشئت لذلك مدارس ليلية كان الفقيد تبرع بالقاء دروس فى بعضها وتنتقد الاعمال حتى كان ذلك عونا على اصلاحها لما يتوقاه العمال من الانتقاد والتشهير بل من المؤاخذة بعد ذلك اذ المنتقد انما ينتقد بلسان الحكومة — بل كان من القانون ان لرئيس

التحرير الحق فى مطالبة الحكومة بالتحقيق عما تقوله الجرائد المحلية في عمال الحكومة فان ظهر صدق طعن فى احد فعلى الحكومة ان تؤاخذه وكان يؤاخذ الجرائد بفساد عبارتها حتى انذر بعض الجرائد بالتعطيل اذا لم تأت بمحرر بارع يصحح عبارتها بعد أيام حددها ففعلت فكان وجوده فى المطبوعات مبدأ النهضة القلمية فى القطر المصري بعد أن أعده السيد جمال الدين وأفرادا آخرين لذلك. وقد كان من أثر انتقاده على الحكومة انشاء مجلس أعلى لنظارة المعارف هو أحد أعضائه والغرض منه ترقية التربية والتعليم فى البلاد

بعد ذلك جاءت الثورة فاوقفت سير هذا الاصلاح في اللغة والاعمال والآداب كما أوقفت غيره مما كانت الحكومة شرعت فيه بهمة رياض باشا

لذلك كان الفقيد رحمه الله تعالى شديد الانتقاد على العرابيين قولا وكتابة ولكن الوشاية اتهمته فحكم عليه بالنفي ثلاث سنين

اذا أراد الله بعبد خيرا أهله للاستفادة من كل شيء ولقد كانت تربية الفقيد تحتاج في كمالها الى السياحة فى الارض واختبار الامم فتم له ذلك بهذا النفي

ذهب الى سورية وأقام فيها نحو سنة ثم سافر الى أوربا وأقام نحو عشرة أشهر التقي فيها باستاذه وصديقه السيد جمال الدين على موعد وأصدرا جريدة العروة الوثقى التى كان لها أعظم تأثير فى العالم الاسلامي ولكن لم يطل عليها العهد اذ منع دخولها في مصر والهند وهما القطران المقصودان بها اولا و بالذات ثم عاد الى سورية مارا بتونس فأقام فيها عدة سنين

كان في بيروت يدرس العقائد الاسلامية فى المدرسة السلطانية و يقرأ درسا فى التفسير فى الجامع الكبير ودرسا آخر فى جامع آخر وكانت داره ملتقى العلماء والفضلاء من جميع الطوائف

وكان يكتب فى الجرائد بعض المقالات النافعة والنصائح الدينية وقد اختبر حال المسلمين وغيرهم من الطوائف أتم الاختبار

وفى سنة ١٣٠٦ عاد الى مصر وتسابق العظماء الى الشفاعة فيه لدى الخديوي السابق فتكلم بعض امراء الاسرة الخديوية وصاحب الدولة الغازي احمد مختار باشا

وجناب اللورد كرومر فعفا عنه وأمر بأن يعين قاضياً في المحاكم الاهلية فلما علم بذلك استاء وسعى في أن يكون معلما في دار العلوم قائلا اني خلقت لان أكون معلما لا قاضياً على انني ارتقي في القضاء ولا ارتقاء في التعليم فلم يقبل الخديوي الا ان يكون قاضياً فرضي رحمه الله بالقضاء وعزم على ان يجعله وسيلة للتعليم ولاصلاح الازهر

ارتقى في القضاء الى أعلى مرتبة فيه وكان فيه قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم فقد كان لا يحكم بنص القانون اذا لم ينطبق معه على العدل والانصاف بل يعمد الى الصلح وكان يتوخى التربية في أحكامه حتى طهر بعض البلاد التي تولى القضاء فيها من دنس التزوير

منذ اكثر من ثلاثين عاما فكر بعض عقلاء هذه الامة في طريقة لارتقا علماء الدين الى درجة ينفعون بها العالم الاسلامي كما نفعه سلفهم فكان رأي البعض أن لا سبيل لذلك الا بايجاد مدرسة تدرس فيها علوم الدين والعلوم الاخرى وكان من وراء ذلك إنشاء مدرسة دار العلوم سنة ١٢٩٠ هـ والبعض الآخر كان يرى ان أقرب الطرق للوصول الى هذا الغرض هو اصلاح الازهر. وكان الفقيد رحمه الله على هذا الرأي ولذلك ما كان يجد فرصة الا انتهزها لتحقيق امانيه حتى انه لما اتصل بسمو الجناب الخديوي عباس الثاني في أول ولايته ونال الحظوة عنده تعين عضوا في مجلس ادارة الازهر وتمكن من العمل في اصلاح التعليم والتربية الدينية فيه لاعتقاده انه إصلاح اسلامي عام ينتشر نوره في جميع بلاد الاسلام وفي سنة ١٣١٧ قلد سمو الجناب الخديوي فقيدنا منصب افتاء الديار المصرية فكان به لهذا المنصب الشأن العظيم حتى كاد يكون مرجع الافتاء في العالم الاسلامي

وكان من مقتضى منصب الافتاء ان كان رحمه الله عضوا في مجلس الاوقاف الاعلى فكان نبراسا للمجلس يستضيء برأيه في تطبيق أعماله على أحكام الشرع الشريف وفي حل المشكلات ومن اقتراحاته المفيدة أن تشكلت لجنة تحت رئاسته وضعت نظاما للمساجد لو عمل به كما هو لعمرت بيوت الله وبيوت خدمتها ولكانت عونا على احياء علوم الدين

عقب تقلده منصب الافتاء عين عضوا في مجلس شورى القوانين فكان

للمجلس على عهده من الخدمة النافعة والاحترام مالم يكن له من قبل فقد كان رحمه الله عامل التوفيق بين المجلس والحكومة وكان أهم غرض له من التعب الشديد في المجلس تعويد الامة على دقة البحث في أمورها وتربية الرأي العام فيها ولا ننس من خدمته للعلوم الاسلامية رئاسته لجمعية أحياء العلوم العربية فقد أسست هذه الجمعية في سنة ١٣١٨ لاحياء كتب سلف هذه الامة وأفاضل علمائها وكانت فاتحة أعمالها طبع كتاب المخصص لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير له في موضوعه . وقد تولى رحمه الله تصحيحه مع علامة اللغة المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي وان الفضل في خدمة الشنقيطي لهذا الكتاب راجع الى فقيدنا فانه لولاه لما أقام في هذه البلاد . وقد شرعت الجمعية بعد طبع المخصص في احياء مدون الامام مالك رضي الله عنه وللفقيد من الخدمة في استحضار نسخها من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ما لولاه لم يكمل لنا استنساخ الكتاب كله

كان رحمه الله يعتقد انه لا يرجى خير لامة الا اذا دبت في أفرادها روح الاعتماد على النفس بعد التوكل على مسبب الاسباب وعلى التعاون على خدمة العامة الامر الذي لا يتأتى الا بالتربية والتعليم . ولما كان رحمه الله يرى نفسه مخلوقة لتربية الامة وتعليمها فقد كان من المؤسسين للجمعية الخيرية الاسلامية في سنة ١٣١٠ هجرية وله من العمل فيها ما يجعله في مقدمة اعضائها فانه كان يحض الامراء والعظماء والسراة على الاشتراك فيها ويحصل قيم الاشتراكات بنفسه اذا اقتضت الحال ذلك ويعمل كل ما في جهده لارتقائها واتساع نطاقها . وكان يرى ان الفائدة الكبرى من هذه الجمعية هي تعويد المسلمين على الاجتماع لاجل التعاون واشعار قلوب الاغنياء عاطفة الرحمة والاحسان على الفقراء كما كان يصرح بذلك في الاحتفال السنوي من كل عام وله فوق ذلك كله خدمة جليلة في الجمعية ذلك ان ذوي الغايات وشوا بالجمعية عند اولي الحل والعقد لدرجة كادت تقضي عليها لولا انه دافع عنها حتى أزال سوء الظن فيها وحلت محله الثقة التامة بها وقد ترأس عليها من سنة ١٣١٨ لغاية وفاته رحمه الله

اما نجاح الجمعية في عهد رئاسته لها فيظهر من المقابلة الآتية

	سنة ١٣١٧		سنة ١٣٢٢
الايراد	٤٤٣٠	جنيها	١٠٣٩٥
عدد المدارس	٠٠٠٤	مدارس	٠٠٠٠٧
عدد التلاميذ	٠٣١١	تلميذا	٠٠٧٦٦
عدد الاطيان التي تملكها الجمعية	٠٢٨٠	فدانا	٠٠٥٣٣

هذه هي حياة المرحوم الشيخ محمد عبده وقفها على خدمة دينه ووطنه وامته .
فطيب اللهم ثراه واجزه عنا افضل ما جازيت به ناصحا في دينه أمينا على مصلحة قومه . ووفقنا اللهم لاقتفاء اثره في هذه الحياة . انك سميع مجيب الدعوات يارب العالمين آمين

مكانته واشتغاله في مجلس الشورى

لسعادة حسن عبد الرازق باشا

خطب جسيم، وفاجع أليم، انقض على صرح الامة الاسلامية فهدم ركنا من أركانها وأودى بطود من العلم والحكمة كان مفزع الموحدين، وموئل المسلمين، فأي نفس لم تتصدع، وأي حشاشة لم تتقطع، وأي جفون لم تقرحها العبرات، وأي زفرات لم تصعدها الحسرات — ليس على وجه البسيطة ولا بين ارجاء العالم من لم يدم هذا المصاب فؤاده و يندب سوء تأثيره على الاسلام والمسلمين

الناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار أنة وزفير

فما بالكم بمن عاشر الفقيد رحمة الله عليه عشرة الصديق وأصفاه الوداد واخلص له الولاء وعرف من كمالاته وفضائله وجميل مزاياه وجليل شيمه مايزيد ألم المصيبة فيه و يضاعف الحزن عليه حتى أخذ الاسى بمجامع قلبه وعقد لسانه ومزق درع اصطباره فلا غرو ان رجوتكم ايها السادة ان تقنعوا مني بما استطيع من القول في مآثر الفقيد وهو قليل في جنب ما ينبغي ان يقال في تأبين رجل

كانت حياته كلها خيرا لامته ودينه ـ ما كان فقيدنا رحمة الله عليه من الرجال الذين ينبغون فى كل جيل، او ينشأون من كل قبيل، ولكن من النوابغ الذين يأتي بهم الدهر آحادا وتتحلى بهم العصور في احقاب متفرقة فينشأون وقد أعدهم الله لجلائل الاعمال وعظائم الامور ومنحهم فطرة تعلو على سائر الفطر وميزهم بسداد الرأي ورجاحة العقل و بعد المرمى وسعة الصدر وقوة القلب فاذا نبت امثال هوءلاء في ارض صالحة ووجدوا فى أمم مستعدة للرقي طامحة الى ادراك المعالي عرفت اقدارهم ووزنت اعمالهم واهتدت بهديهم فساروا بها في سبل السعادة ورفعوا مقامها على هام السماك سيما اذا طال بهم الاجل واتسعت لهم مدة العمر وكان نصيب بلادهم واهلها منهم خير نصيب . هوءلاء الرجال العاملون لخير اممهم يجدون من قومهم فى البلاد الحية ما يزيدهم اقداما وثباتا و يملأ صدورهم ثقة ورجاء فيعيشون ما يعيشون موءيدة كلمتهم مكرمة رتبتهم محفوظا لهم الجميل و بذلك يشتد ساعدهم وتنمو ملكة الاصلاح فيهم وكلما زادهم قومهم قبولا واقبالا زادوا رغبة في العمل ولا تجد أنشط للعامل من ان يرى لعمله عند امته قبولا

أما اذا قضى الله لاولئك النابغين ان يكونوا بين أمم فسدت اخلاقها وتمزقت روابطها و بعد ما بينها و بين الحياة القومية وتمكنت منها الغفلة وساد فيها الجهل فانهم يجدون من قومهم حربا عوانا كلما أرادوا بهم اصلاحا لانهم يريدون ان يزحزحوا الناس عن ملكات فاسدة رسخت فى نفوسهم واطمأنت لها قلوبهم و يعملون لتحويل وجوههم الى الرشاد بعد ان انصرفت الى الغي وأنست به وما اصعب نقل الطباع فى الامم من الفساد الى الصلاح وما اشد مدافعة الجاهلين عن اهوائهم وشهواتهم ولكن قد يوجد فى تلك الامم الميتة بعض افراد يوفقهم الله لتمييز الصواب من الخطاء ومعرفة النافع من الضار فيقبلون على اولئك المصلحين يوءازرونهم و يصغون لندائهم فان مد الله لهم فى حبل الحياة أثمر غراسهم وتركوا من يخلفهم في أعمالهم أما اذا أسرع اليهم الحمام كان نجاح عملهم بطيئاً

ولا يخفى عليكم أيها السادة حال امتنا المصرية وما لاقى الاستاذ الفقيد رحمه الله منها ابتداء من مناصبتها له ووضعها العقبات في سبيله ولولا ما منحه الله من سعة

الصدر وقوة الصبر ما استطاع ان يقاوم تلك المصاعب او يصبر على هاتيك النوائب وان يعيش حياته فى جهاد مستمر ثم لا يزيده ذلك الا ثباتا على الحق والدعوة اليه

أبعد الاستاذ رحمه الله عن بلاده بزعم مما لأنه للقائمين بالثورة العرابية و يعلم الله انه لم يكن من جناتها ولقد كان بينه و بين القائمين بها من الخلاف فى الرأي ما بين الحق والباطل على ان هذه الغربة وان نالته ببعض الاذى بالضرورة فقد انتفع منها واستفاد خيرا لنفسه ولأمته فتعلم هناك ما تعلم من لغة الفرنسا و بين وخبر احوال الغربيين ظاهرهم وباطنهم وعرف ما عندهم من العادات الطيبة والخصال الذميمة وكان اكبر غرضه من ذلك ان يحمل قومه على الطيب و ينفي عنهم الخبيث ولم تصرفه الشواغل في غربته عن العمل لدينه وأمته فكان لا يدع فرصة للنداء بما ينفع المسلمين الا انتهزها على ألسنة الصحف و بطون الكتب

وهذه رسالة التوحيد وغيرها من الكتب النافعة التي الفها في غربته وما كتب من المقالات فى العروة الوثقى وغيرها أيضا تشهد له بالعناية الكبرى بالدين وتحسين الآداب وتهذيب الاخلاق بين المسلمين

ولما عاد الى مصر مشرق شمسه ومنبت غرسه كان قومه قد فطنوا لبعض حسناته وتنبهوا للقليل من فضائله وكانت الحكومة ايضا قد عرفت شيئا من شأنه واذ ذاك كانت أنشئت المحاكم الاهلية فعين فيها قاضيا ابتدائيا ثم قاضيا فى الاستئناف وكان فى كل منصب يشغله مثال الجد فى العمل والحكمة في الرأي وكان علأ المناصب حرمة ووقارا ونورا و بهاء وترك فى كل وظيفة تولاها ذكرا جميلا وأثرا جليلا ولم تذهله كثرة الاعمال عن العناية بحال الامة ولا شغلته عن النظر فى شأن الاسلام وتخليصه من دسائس المفسدين واوهام الجاهلين. ثم ندب لوظيفة افتاء الديار المصرية فوجد منفذا لسوق الاصلاح الى المسلمين باديا ظاهرا واتسع له المجال وعظمت عنده الآمال. بذل وسعه فى جمع كلمة المسلمين على الحق واصلاح ذات بينهم وتمهد معاهد العلم وتطهيرها من ادران النقائص والمعايب ولم يبال بما قام بين يديه من العقبات ولم يحفل بما ثار امامه من غبار الترهات

لان الحق كان فى جانبه وعند ذلك اتجهت اليه وجوه المسلمين فى جوانب الارض وجعلوه مفزعهم فى كل شبهة وملجأهم عند كل ملمة فلقد كان يهرع اليه المسلمون المهضومون فى الممالك النائية فيتوسل الى دولهم بالرفق واللين حتى يرد عنهم ظلم الظالمين فازدادت منزلته علوا بين المسلمين وغير المسلمين وعرف الاجانب من فضله أ كثر مما عرف قومه وعشيرته .

وان رجلا هذا مركزه فى الهيئة الاجتماعية وهذه مكانته من الفضل وعلو الشأن في النفوس لا يستطيع القائل ان يوفيه ما ينبغي له

ولكني ارى من الواجب علي أيها السادة ان اذكر لكم مجملا من مآثره الغراء وأعماله الجليلة فى مجلس شورى القوانين لانني رافقته فيه فى أغلب أوقاته وشاركته فى معظم أعماله وعرفت من حسن نيته وصدق عزيمته ما لا يعرفه كثير من الناس

اختارت الحكومة الاستاذ رحمة الله عليه عضوا في المجلس وتعين بأمر عال فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ واول جلسة حضرها كانت يوم الخميس ٢٩ منه وكان اذ ذاك بين اهل الحل والعقد فى الحكومة و بين رجال الشورى شيء أشبه بالخلاف فى الرأي أدى الى ان الحكومة نفذت كثيرا من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للامة فى عدم العمل بها وصرفت النظر ايضا عن كل اوجه التعديل فى المشروعات التي كان يرى ان الصلاح والنفع للامة فى تعديلها فلما جاء الاستاذ الى المجلس ونظر فى الامر نظرة الحكيم البصير وعرف ان ليس هناك ما يدعو الى هذا الانفراج وانما هو سوء التفاهم باعد ما بين المشارب على تقاربها سعى رحمه الله في أن يزيل أسباب هذا الخلاف فكان ما اراد وعرفت الحكومة ان المجلس انما يطلب ما فيه السعادة للامة ويبتغي الخير لها وان ليس له غرض فى مصادمة آراء الحكومة ومطالبها ما دامت تتفق مع مقصده وعلم المجلس أيضاً ان الحكومة لا تقصد الى شيء وراء ما يقصده لمصلحة البلاد و بذلك اتفقت الكلمة فى الغالب ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتعسر حله .

كان الاستاذ رحمة الله عليه واسطة العقد في مجلس الشورى فالتفت حوله

القلوب وعرف الكل مكانته من قوة الحجة وسداد الرأي وطهارة النية وكان اخوانه من رجال الشورى يلجؤون اليه اذا اشتبه الامر وخفي الصواب فينطق بالحكمة وفصل الخطاب وكان مع هذا أسرع الناس قبولا الى الحق واوسعهم له صدرا فاذا سقت اليه الحق هشت له نفسه وقرت به عينه ولم يصرفه عنه تمسك بالرأي ولا تعصب لمشرب

وكثيرا ما كنا نباحثه فى أمر اختلف النظر فيه بيننا و بينه فيرجع الينا و يوافق رأيه رأينا ولم نر مثله فى احترام الآراء ما دام مصدرها شريفا لم يشبه الغرض

ولقد كنا نختلف معه في رأي ويجاهر كل منا برأيه ويدعو اليه اعتقادا منه انه الحق ولا نزال بعد ذلك اخلص الناس سرا واصفاهم ودا

كان رحمه يتألم كثيرا لما عليه المحاكم الشرعية الآن من عدم كفاءة العمال وخلل النظام فى الاعمال ونزارة رواتب القضاة والموظفين وقلة العناية بشؤونها حتى في محال مراكزها التي لا تليق ان تكون مستقرا لاصدار احكام الشرع الشريف . وكان منذ تقلد وظيفة افتاء الديار المصرية لا يزال يلفت الحكومة و يلح عليها بتلافي هذا النقص فعهدت اليه ان ينظر في الامر و يبين لها كل ما في نظام المحاكم الشرعية من العلل وما يلزم لاصلاحه فقام بالامر خير قيام وطاف لذلك كل المحاكم فى الوجهين القبلي والبحري ودقق البحث فى احوالها واعمالها وقد أودع ذلك في تقرير بين فيه بالتفصيل حقيقة الداء وما يجب له من الدواء وقدمه للحكومة وها هو لا يزال في محفوظاتها كما ان صداه لا يزال يقرع الاسماع الى الآن

وكان الشعور باحتياج المحاكم الشرعية الى الاصلاح قد امتلأت به نفوس أعضاء الشورى ايضا وانتشر بين اعضاء الجمعية العمومية حال انعقادها فجاهرت به وطلبته من الحكومة واحيل هذا الطلب على مجلس الشورى لبحثه وهو احاله على اللجنة التي كان يرأسها الفقيد رحمه الله وفوض لها مخابرة الحكومة فيما ترى لزومه و بعد ان بحثته وقررت ما رأته فيه عرضته على المجلس وهو اقره ايضا فانتهز الفقيد واخوانه اعضاء المجلس هذه الفرصة واظهر للحكومة بأقوى حجة واوضح دليل

ان الضرورة قاضية باصلاح المحاكم الشرعية وجعلها فى مصاف المصالح الاولى للحكومة فاقتنعت بما تقدم من البراهين وشكلت لجنتين تحت رئاسته الاولى مركبة من نخبة أفاضل العلماء وكلفتها بجمع ما يلزم لعمل القضاة من الاحكام الشرعية والثانية مؤلفة من أكابر رجال العلم والعمل ايضاً وكلفتها وضع مشروع لمدرسة القضاء الشرعي وجعل نظامها كافيا كافلا لايجاد العمال الاكفاء فكان رحمه الله مع ما فيه من شدة ألم المرض يواصل العمل في ذلك ليله ونهاره حتى أتمه وقدمه الى الحكومة قبيل قيامه الى الاسكندرية ببضعة أيام والله يعلم ما سيؤول اليه بعده امر هذا المشروع الخطير

ان تفصيل أعمال الاستاذ ومآثره في مجلس الشورى لاتتسع له هذه الفرصة ومجمل ما يقال انه لم يعمل عمل فى المجلس مدة وجوده الا كان له فيه الرأي الرشيد والقول السديد فما انتخبت لجنة فى مشروع الا كان أول المنتخبين ولم يتألف وفد لمفاوضة الحكومة فى أمر الا كانت له الصدارة وهو في كل ذلك عضو عامل وعليم متبصر

كان رحمه الله واسع الاطلاع نير البصيرة فى كل ضرب من ضروب الاصلاح فاذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيرا بصيرا و اذا قدمت اللوائح الادارية لم يكن أقل من أهلها علماً بدقائقها وأسرارها، واحاطة بمنافعها ومضارها، واذا جاءت المسائل المالية رأيته ماهرا بأساليب الحساب، عارفاً بفنون الاقتصاد، فكنا نجد منه فى سائر الابواب علما جما، ومعرفة وفهما، ورأيا صائبا، وذهنا ثاقباً، ولم يزل هكذا يعمل وهكذا يجاهد حتى عجزت قواه عن العمل، وحال بينه و بين مراده الاجل،

قضى هذا الفقيد الكريم مدته بيننا وهو كالقطر حيثما وقع نفع وانا لنعلم ان البلاد ثكلت بموته رجلا لا نعوضه الرجال وانثلم بفقده بناء الاسلام ثلمة جانبها ليس بمسدود

نسأل الله تعالى ان يجزل حظه من الرحمة وأن يبوأه دار الكرامة وان يعوض الامة والاسلام فيه خيرا "

﴿ اشتغال الفقيد باصلاح الازهر والمحاكم الشرعية ﴾

* لحضرة القاضي الفاضل الاستاذ الشيخ أحمد أبي خطوة المدرس بالازهر والقاضى بالمحكمة الشرعية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله محمد رسول الله . لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . انا لله وانا اليه راجعون

اجتمعنا اليوم هنا حوالي هذا القبر المجلل الموقر الذي انتهى اليه أمر الامام الكبير الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ليذكر كل منا ما عرفه من مزاياه رحمه الله وهي كثيرة متفرقة يعرف البعض منا مالا يعرفه الآخر منها وهي عادة وان كانت مستحدثة لاعاظم الرجال الا انها لا يأباها الشرع بل ربما ندب اليها اذا أدت بالاحياء الى الاستكثار من الحسنات والاستزادة من الخيرات ليذكروا بها بعد الممات وها أنا ذاكر ما عرفته من أيادي المرحوم على الازهر والازهريين بعد ذكر اشتغاله بالعلم والتعليم لانني واحد منهم ومخالط له فيه

ولد المرحوم فى سنة ١٢٦٦ هجرية وأكمل حفظ القرآن الشريف في سنة ١٢٧٩ هجرية وقصد الجامع الاحمدي فى طنطا سنة ١٢٨٠ هجرية لتلقي العلم فيه ثم جاء الى الازهر في اخريات سنة ١٢٨٢ ه واشتغل بتحصيل العلوم المتداولة فيه فما لبث غير قليل حتى صار شريكا لأكابر اساتذته في العلوم سواء فى ذلك فهم العبارات بمنطوقها ومفهومها وما اشتملت عليه من الاحكام والحكم مع تمييز الصحيح منها من السقيم واشتغل بالبحث عن مآخذها وراجع كثيرا من كتبها الصحيحة القديمة التي تركت وأهملت مراجعتها حتى وصل الى جواهرها الحقيقية مبرأة من علل الاوهام . وكان جل اهتمامه موجها الى العلوم الشرعية والعربية خصوصا ما يتعلق بمتن اللغة وفقهها وآدابها وتاريخها ثم ارتفعت به تلك الهمة العالية الى الاشتغال بالعلوم العقلية من الطبيعيات والرياضيات والالهيات والامور العامة على ما اصطلح عليه اهلها القدماء ثم طلب أرقى من ذلك لمعرفته ان العلوم لا تزال تتزايد بتجديد الافكار فحصل اللغة الفرنسوية ليطلع على ما يتجدد من تلك العلوم ففاز منها بالقدح المعلى وحاز قصب السبق بين أهلها شرقيين وغربيين

فأقروا له بعلو المنزلة بعد ما كانت له معهم في ذلك الوقائع المشهورة

كان شغله الشاغل لاوقاته هو الازهر وأهلوه لعلمه ان في صلاحه صلاح المسلمين ولقد نقل عنه وهو بالشام أنه لا يرتاح ولا يهدأ خاطره الااذا صلح هذا المكان . وانه لا بد أن يجهد نفسه و يعمل فكره و يعمل فى صلاحه وانه انمات فى هذا السبيل مات قرير العين . ولهذا كان دأبه السعي فى مصلحته وهو غير مكلف به الا من نفسه . فلما ان كلف به من الحكومة المصرية في ١٧ رجب سنه ١٣١٢ وصدر الامر العالي بتعيينه عضوا في مجلس ادارة الازهر رأى انه سيصل الى ضالته المنشودة وأخذ في كل ما يرقيه من كل جهاته ووافقه وساعده على ذلك بعض كبراء مشايخ الازهر وأعضاء مجلس ادارته خصوصا عضده وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان

ابتدأ بالبحث عن أهل الازهر وسيرهم وأخلاقهم ومعيشتهم ومساكنهم والعلوم المتداولة بينهم وطرق التعلم والتعليم . فعلم أنهم يستوجبون العناية والالتفات خصوصا فى امر معيشتهم لان أكثرهم من الفقراء الضعفاء . وليس لهم الا قليل من خبز الجرايات يقدر بنحو خمسة آلاف رغيف في اليوم وقليل من مرتبات النقود لا تزيد عن ٣١٠ جنيهات مرتبات شهرية و ٣٦٧ جنيها مرتبات سنوية وهي المعروفة بدل الكساوي وان مساكنهم عتيقة ضيقة فرأى انمن اول الواجبات ان يتقدم الاصلاح المعنوي اصلاح الماديات فاجتهد مع من بيدهم الامرفى الحكومة حتى زيد فى المرتبات الشهرية المرتبة من المالية ألفا جنيه فى السنة ووعدوه بالمزيد الى عشرة آلاف جنيه متى ظهرت فائدة الاصلاح ثم استمطر فيوضات الجناب العالي الخديو حفظه الله فأفاض ما أوجب على الازهريين شكر اياديه واصدر أمره السامي الى ديوان الاوقاف بترتيب ثلاثة آلاف جنيه وثلاثمائة وأربعة وسبعين جنيها في السنة وزيد فى خبز الجرايات مبالغ وافرة وعم هذا الخير الجهات الملحقة بالازهر كالجامع الاحمدي والدسوقي وعلماء دمياط والاسكندرية حتى بلغ الآن مجموع مرتبات الازهر وملحقاته نحو أربعة عشر الف جنيه وسبعمائة وخمسين جنيها بعد ان كان فوق الاربعة آلاف بقليل وذلك غير ما زيد لبعض اشخاص

منهم وغير ما زيد فى رواتب الخدم والموظفين وقد بلغت الجرايات العمومية والخصوصية فى اليوم بخصوص الازهر نحو ١٥٠٠٠ رغيف بعد ان كانت ٥٠٠٠ رغيف كما قدمناه وذلك غير ما رتب من الجرايات للملحقات المذكورة . وأما ما يتعلق بالمساكن فانه رحمه الله قد عرض أمرها على الجناب العالي الخديوي فصدر أمره السامي بشراء الاماكن المجاورة للازهر من جهته الغربيه ليجعل مكانها أماكن لسكنى المجاورين واستتبع هذا هدم كثير من الاروقة المعدة لسكنهم وتجديدها فكمل هذا وذلك على أحسن مثال مراعى فيه النظامات الصحية ثم توجهت الفكرة الى نظافة الازهر بتمامه فبعد ان كان يفرش في السنة مرة واحدة صار يفرش في العام مرتين ، و بعد ان كان يضاء بالزيت القليل الضوء حسب العادة أصبح يضاء بمصابيح الغاز التي تكفي القاريء والكاتب فسهل على الطلبة الاشتغال ليلا ، و بعد ان كانت المياه المستعملة فيه معينة مالحة راكدة قذرة لا توجد إلا بمزيد التعب والمشقة ادخلت فيه حنفيات شركة المياه فأصبح ماؤه يتجدد كل يوم نقيا صالحا للاستعمال

كان أمر الصحة في الازهر مهملا بالمرة وكانت الامراض المعدية منتشرة فيه فعين له طبيب يعرض عليه كل من يريد الالتحاق بالازهر من الطلاب ويعالج المرضى ويراقب تنفيذ الامور الصحية وأنشئت له أجزاخانه بالرواق العباسي ومحل لعيادة المرضى وصرفت لهم الادوية مجانا فأصبح ولاهله عناية تامة بالصحة من أنفسهم . ولما كان هذا المحل المعد لعيادة المرضى لا يسعهم اشتغل رحمه الله في ديوان الاوقاف حتى تقرر انشاء مستشفى فسيح بجوار الازهر في شارع الشنواني أعد لاقامة المرضى ومعالجتهم فيه خصوصا في زمن الامراض الوبائية دفعا لحدوث مثل حادثة رواق الشوام المشهورة وسيفتتح قريبا إن شاء الله وناهيك بأمر صيانة نظام الضبط والربط فى الازهر فقد زيد عدد خدمته وملاحظيه بنسبة عدد المجاورين فيه . فامتنع بذلك حدوث كثير من الوقائع والمشاجرات ونيط ببعضهم المبيت فى الازهر منعا لحدوث الحوادث الليلية وكل ذلك كان بمساعيه رحمة الله عليه .

كانت مشيخة الازهر تدار اعمالها بمنزل من يكون شيخا له يتحمل أهله مشقة الذهاب والاياب على اختلاف ابعاد المسافات بين الازهر و بين بيوت مشايخه وكان له كاتب واحد يجلس في الازهر حيث شاء . وكانت سلطته عامة طامة لترك شيخ الجامع التصرف له وعدم مباشرته لشيء من أشغاله الا ما يرجع اليه لاخذ رأيه فيه من المهمات . فكان من عمل المرحوم وسعيه ان أنشيء في المباني الجديدة مكان للمشيخة والادارة . وتبينت كثرة الاعمال وان كاتبا واحدا لا يكفيها فزيد في عدد الكتبة خمسة ووظف لمجلس الادارة العدد الكافي من الخدم حتى صارت الادارة ديوانا كبيرا واستراح العلماء والطلبة من قطع المسافات وتضييع الاوقات في الذهاب الى بيوت المشايخ ونجزت الاعمال في أوقاتها

كانت المرتبات في الازهر مبعثرة مشتتة لا ضابط لها سنوية كانت أم شهرية كانت تمنح لاناس دون آخرين فكان لبعضهم نحو الستة عشر قرشا في الشهر وللكثير منهم الحرمان ولبعضهم ما فوق الستمائة قرش وكان لاولاد العلماء بعض هذه المرتبات يعطونها بلا شرط ولا قيد حسبما يراه شيخ الجامع وحده فجاء نظام المرتبات الذي اشتغل به الشيخ المرحوم اول الامر ودفع كل هذه الاستئثارات فجعل للعلماء درجات علم كل منهم درجته ومقدار مرتبه فكان يأتيهم بدون كد ولا رجاء وكذلك صار الحال في المرتبات السنوية التي هي بدل الكساوي فكان لكل نوع من هذين النوعين ضوابط استوفى بها كل واحد مرتب درجته وانتفع به بلا حاجة الى الرجاء والاستجداء وأما اولاد العلماء فقد جعل لهم في استيلائهم المرتبات المنحلة عن آبائهم شروطا وقيودا الغرض منها استدامة اشتغالهم بطلب العلم ليخلفوا آباءهم فيه و بسبب هذا النظام استقال كثير منهم من طلب العلم لما عرفوه في أنفسهم من الضعف عنه فحرموا من المرتب بمقتضى هذا القانون . ولكن الشيخ رحمه الله قد رثي لفقرهم وجمع لهم من أهل البر والخير صدقة واسعة ها هي مودعة في خزينة الازهر ليصرف عليهم منها كل شهر بمقدار ما كانوا يأخذون من الازهر تقريبا وربما زاد

أما نظام الجرايات فكان من الهمجية بمكان لا يتصور ما هو عليه ولا كيف

رضي به اهلوه فلم تكن الا منبع ثروة للنقباء ومشايخ الاروقة والحارات وسببا للتخاصم والتحاسد بين أهليه ولذلك رأى الشيخ رحمه الله أن يجعل لها نظام عام واشتغلت بذلك مشيخة الازهر ومجلس ادارته وانتهى الامر بتشكيل لجنة للنظر فيها ووضع نظام يعم جميع الاروقة والحارات على اختلاف مقادير الجرايات فيها وجهات ورودها مراعى فيه شروط الواقفين ان كان لها شروط معينة والا فيرجع الى قواعد الشرع الشريف فشكلت تحت رئاسة الاستاذ الشيخ الرافعي وأطالت البحث فى سجلات الازهر والوقفيات المقيدة بها ورجعت فى معظم أعمالها الى النصوص الشرعية حتى أكملت المشروع على الوجه المشروع مستوفى جميع ما يحتاج اليه فى هذا الموضوع ثم قدمته الى مشيخة الازهر فى أواخر سنة ١٣١٦ ولكن قد طرأ على المجلس امور كثيرة عاقته عن النظر فيه واصدار القرار بتنفيذه

وكذلك وضع لكساوي التشريف نظام حتى لا تكون فى اعطائها والحرمان منها موكولة الى رأي واحد وحتى لا يدخل فيها من ليس من أهل العلم كما كان جاريا من قبل فصار استحقاق الكسوة العلمية مشروطا بشروط مقيدا بقيود الغرض منها أن لا تمنح الكسوة الا لمن وضح نفعه فى التعليم مع مراعاة الاقدمية عند التساوي و بذلك انتقل الحال فيها أيضا من الهمجية الى النظام

هذا ما وجه اليه المرحوم فكرته من اصلاح الماديات الذي جعله مقدمة لاصلاح المعنويات و بعد الفراغ منه وجه فكرته الى وضع نظام للتدريس والامتحان فكان كذلك واشتغلت مشيخة الازهر ومجلس الادارة بوضع قانون عام لذلك بينت فيه مقاصد العلوم ووسائلها وما يجب لعلوم المقاصد من العناية وتوسيع الزمن و بينت علوم المقاصد بأنها هي التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصوله والاخلاق الدينية و بينت الوسائل بأنها هي المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة وعلم مصطلح الحديث وضم اليها الحساب والجبر وتاريخ الاسلام وصناعة الانشاء ومتن اللغة وآدابها ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان وألزم طالب الامتحان للحصول على شهادة العالمية بأدائه فى المقاصد و بعض الوسائل والحساب والجبر ثم حتم القانون على معلمي العلوم الآلية خصوصا علوم البلاغة ان يدربوا الطلبة على تطبيق

العلم على العمل وأن يتجنبوا في السنين الاربع الاول قراءة الحواشي والتقارير صيانة للوقت من الضياع وغير ذلك من الاحكام الكثيرة التي ترجع كلها الى تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن معلوم بطريقة سهلة التناول والتحلي بمحاسن الاخلاق الشرعية والاقتدار على الانتفاع بما حصلوه من العلوم. وبهذا تحول الازهر من فوضى التدريس الى نوع من النظام ولقد كانت العادة ان لا يتجاوز عدد الممتحنين من طالبي الامتحان الكثيرين عن ستة أشخاص فى السنة وقد يكونون فى الغالب ثلاثة أشخاص لا غير فوصل عدد الممتحنين بعد وضع هذا النظام وتنفيذه الى خمسة وتسعين فى السنة ربما نجح منهم ما فوق الثلث وبذلك سار الامتحان في طريق التقدم وتجددت عزائم الطلبة وتكاملت رغباتهم فى التحصيل وكانت المدة التي يشتغل فيها الطالب في السنة قبل وضع هذا النظام فى الازهر لا تزيد عن أربعة شهور مقطعة في السنة كلها فصارت الآن بعد تحديد أيام العطلة بمقتضى هذا النظام تزيد عن الثمانية شهور

هذا ما يتعلق بأصول العلم والتعليم وقد اشتغل رحمه الله بافكار تكميلية لهذا النظام كان يعرض كل ما سنح له منها على مشيخة الازهر ومجلس الادارة فاشتغلوا جميعا بوضع قرارات تكميلية لهذا النظام صارت قواعد أساسية الى اليوم منها ما يرجع الى كيفية تعليم المعلم ومنها ما يبين الواجب على المشايخ في أثناء التعليم وان يكونوا قدوة للطالب فى مكارم الاخلاق ومنها ما يتعلق بسير الطالب وآدابه مع الاستاذ واخوانه من الطلبة المتعلمين معه ومنها ما يتعلق بتبيين الطريقة المثلى فى تعليم العلوم الآلية حتى يتوصل بها الى المقاصد وتستثمر بها الحكم التي قصدها الشرع الشريف من الاحكام فأقبل العلماء المعلمون والطلبة المتعلمون على عملهم بالجد والنشاط واشتغل الكثير من المدرسين بتبيان الحكم التى أودعها الشارع فى كلامه وفى أقوال وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم واستعان مجلس الادارة بما زيد فى نقود المرتبات على هذه الامنية خصوصا فيما يتعلق بالعلوم الحديثة فانه خصص منها ستمائة جنيه لمعلمى تاريخ الاسلام والحساب وتقويم البلدان وانتخب لتعليمها فى الازهر معلمين كانوا تخرجوا في الازهر الى مدرسة دار العلوم حتى لا يكون معلموها اجانب عن

هذا المكان وخصص كذلك ثلاثمائة وستين جنيها لتعليم الخط فأصبح هذا الفن مع سابقيه منتشرا فى الازهر بين كل الطلبة واستفاد اهلوه من ذلك فائدة عظيمة فأصبحوا فى هذه العلوم على حال لم تكن لتنتظر منهم فانه يوجد فيه الآن خمسة عشر عالما يدرسون الحساب على احسن ما يكون فى تدريسه بالمدارس الاميرية وثلاثة يدرسون علم تقويم البلدان وواحد يدرس علم الاملاء والكثير من الطلبة قد ادى الامتحان فى الحساب والجبر العالي وتحصل على الشهادة باكمال دروسهما ومن بينهم عدد كبير تقدموا فى امتحان الاساتذة بالمدارس الاميرية ومدارس الاوقاف والمدارس الاهلية وحازوا قصب السبق فيه على المتخرجين من تلك المدارس وأحرزوا وظائف الاستاذية فيها باستحقاق وهذه احدى النتائج الحسان التى ربما كانت لا يحلم بها ولا تخطر على البال

ولما لغط اللاغطون فى ان هذه العلوم الحديثة ربما حالت بين الطالب و بين العلوم القديمة المتداولة فى الازهر رأى المرحوم أن يعمل احصاء عن الطلبة الذين يتقدمون لامتحان المكافآت فى كل عام يقصد فيه تبيان حال من اشتغل بهذه العلوم الحديثة مع العلوم القديمة ومن لم يشتغل بهذه العلوم الحديثة واقتصر على العلوم القديمة فكان كذلك ووضع رحمه الله طريقة لهذا الاحصاء فظهر من بعد البحث الدقيق والتحري السديد الشديد ان نسبة الناجحين فى العلوم القديمة المتداولة المقتصرين عليها أقل بكثير من الناجحين فيها من المشتغلين بالعلوم الحديثة معها وتلي ذلك في مجمع من العلماء يوم توزيع المكافآت على الناجحين بحضور شيخ الجامع وأكابر العلماء وظهر من ذلك ظهورا جليا ان العلوم الحديثة العقلية تثقف الطالب وتقويه في فهم العلوم الشرعية وغيرها من العلوم المتداولة فى الازهر

وقد رأى المرحوم ان الوسيلة في تدريس كل العلوم وتلقيها هي الكتب فلذلك وجه همته الى جمع ما تشتت من كتب الازهر وجمله فى مكان واحد ليمكن منها الانتفاع وقد كانت الكتب موزعة مشتتة فى خزائن الازهر الموضوعة فى بعض الاروقة والحارات و بعضها كان فى المساجد القريبة من الجامع الازهر كجامع القاكهاني وجامع العيني نيط حفظها باشخاص يقال لهم المغيرون .

وحقيقة انهم مغيرون لانهم غيروا وضع الكتب وشتتوا جمعها ومزقوا جلودها وأوراقها وتركوا ما لا عناية لهم به منها يأكله العث ويبليه التراب وباقيها تصرفوا فيه تصرف الملاك وصار في أيدى باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس وما وصل منها الى خزائن كتب الغربيين بهذا الطريق كثير وبالجملة فلم يكن ليعرف لتلك الكتب قيمة حتى اجتهد رحمه الله فى استدرار فيض ديوان الاوقاف من لدن المكارم الخديوية وأعد في الازهر رواق الابتغاوية مكتبة يجمع فيها ما تفرق من تلك الكتب وعين لها العمال اللازمون فجمعوا الكتب ورتبوها تحت ملاحظته فكان يؤتى بتلك الكتب من خزائنها محشوة في الغرائر والمقاطف . ثم تفرغ تلالا بينها الاتربة والجلود البالية ليس بينها كتاب مستقيم الوضع الا ما لا يكاد يذكر واستخلص من بين تلك الدشوت والاوراق المتفرقة كتب معتبرة فى كل الفنون ثم اشتغل العمال بعد ذلك فى توحيد الفنون واعد لكل فن موضعا مخصوصا فى المكتبة فعرف بذلك ان فى الازهر دار كتب فأقبل عليها أهل البر وأعانوها بهدايا من نفائس الكتب وأهمها هدية كتب المرحوم سليمان باشا أباظه فان ورثته ائتمهم بالشيخ المرحوم قبلوا اشارته وقدموا كتب أبيهم رحمه الله الى مكتبة الازهر مشترطين أن يفرد لها خزائن مخصوصة فكان كذلك وجاءت هذه الهدية باحسن زينة لدار الكتب الازهرية

ولم يكتف رحمه الله في أمر الكتب بهذا القدر من العمل بل رجع الى الاروقة الشهيرة فى الازهر وهي أروقة الترك والشوام والصعايدة والمغاربة وجعل الكتب التى بقيت فيها تحت مراقبة أمين المكتبة الازهرية . وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ جديدة لترتيب كتبها وتنظيمها فأجيب الطلب وتعينت العمال واشتغلوا فى تلك الاروقة على الطريقة التى كان العمل عليها فى انشاء المكتبة . وبعد مراجعتها وترتيبها وضعت فى خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقته وجعل مقرها أروقتها تحت مراقبة ذلك الامين . وقد اشتريت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاقت عنها دار الكتب على سعتها فاضطر المجلس الى أخذ رواق الطيبرسية وأصلحه ديوان الاوقاف وأقام فيه الخزائن وامتلأت بمعتبرات الكتب

ونفائسها ما يتجدد شراؤه كل حين من المبالغ المقررة لذلك

كان رحمه الله شغوفا بنشر العلم وتوسيع دائرته في القطر المصري على ان يكون مركز هذه الدائرة هو الجامع الازهر وأن يمتد سلطان اصلاح العلوم في جميع القطر من هذا المنبع المنيف فجاء في فكره ان الجهات البعيدة عن الازهر التي يدرس فيها علومه كالجامع الاحمدي والجامع الدسوقي ودمياط والاسكندرية والمنصورة وغيرها من بنادر الوجهين البحري والقبلي يجب أن تكون ملحقة بالجامع الازهر وتابعة له يمتد نظامه اليها فيحفظ فيها التعلم والتعليم فاشتغل لذلك بهمته المعروفة المشهورة وعاونته في ذلك مشيخة الازهر ومجلس ادارته ووقع هذا الطلب من الجناب العالي موقع القبول لتحققه من فائدته ومحبته لايجادها وصدرت اوامره العالية في تواريخ مختلفة بحسب مقتضيات الظروف والاحوال بالحاق تلك الاماكن الشهيرة السابق ذكرها بالجامع الازهر وفوض لمجلس ادارته أن يضع لها النظامات والقوانين وسعى الشيخ رحمه الله سعيه السابق ذكره في ايجاد المرتبات كما تقدم فسار التعليم فيها سيرا حسنا وأقبل العلماء والمتعلمون فيها على التعلم والتعليم على أحسن وجه يناسبها وأرسل الى بعضها علماء أزهريون لتوسيع دائرة العلم فيها وأجزيت في بعضها امتحانات التدريس فكانت النتيجة ولله الحمد أحسن ما ينتظر وتواردت عليها الطلاب من البلدان القريبة والنائية وأنشئت فيها دور للكتب على نظام دار الكتب الازهرية وعين لها موظفون ومبالغ لشراء الكتب في كل عام . والتعليم فيها الآن سائر من حسن الى أحسن بعد ان لم يكن له أثر يذكر — ويمكنني هنا أن أستلفت سامعي قولي هذا الى مجموعة ظهرت حديثا جمعت أعمال ادارة مجلس الازهر جمعاً حسناً تاريخياً مبرهناً بالرسميات من اول تأسيسه من اول سنة ١٣١٢ الى ان استقال منه الاستاذ المرحوم هو وزميله في أواخر سنة ١٣٢٢ يظهر ان بعض الواقفين على الحقائق الازهرية ألفها لتكون تاريخا للاخلاق في الازهر ولما أجملناه من هذه الاعمال الجسام وهي مطبوعة تتناولها الايدي

كان للشيخ المرحوم وجهة خصوصية لم يشتغل بها أحد كاشتغاله بها وذلك فيما يتعلق باللغة العربية وانتشارها واستعمالها فاشتغل بها من اول صباه ومارس

قولا وكتابة قولا فى الجامع العمومية وكتابة فى الجرائد السيارة خصوصا زمن وجوده في الجريدة الرسمية فانه اشتغل باصلاح الكتابة فى كل دواوين الحكومة اذ جعل قسما كبيرا من هذه الجريدة خاصاً بانتقاد كل ما يصل اليها من رسائل الحكام والدواوين والمصالح ومجالس الاحكام واصلاحه بعد تلخيصه ونشره فيها ليكون مثالا لمعشر الكتاب ولما جاء الى الازهر ووجده على حال لا يليق به من التأخر فى اللغة العربية التي هو شديد الاهتمام بها المحب لانتشارها حتى لقد كان يود ان لا يحصل كلام ولا كتابة الا بها خصوصا في التعليم ومذاكرات العلم اجتهد فى طبع كثير من معتبرات كتبها كالمخصص وقاسى كثيرا من المتاعب في تصحيحه مع الاستاذ المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي ثم أنه عمل على ذلك فى دروسه التى كان يلقيها فى الازهر.وفى محادثته مع علمائه وطلبته ليفهمهم ان اللغة العربية هي أساس الدين وقوام اصوله التى هي تفسير القرآن والحديث . ومن العار ان يكون الازهر وهو منبع العلوم الدينية خلوا من المتضلعين في هذه اللغة وآدابها وتاريخها حتى تقرر ذلك فيأذهان الكثير منهم ورجعوا الى تحصيل مادة اللغة وتطبيق العلم على العمل فيها وتوقي كثيرمنهم الغلط الفاحش عند الكتابة . واهتدى البعض الى كيفية مراجعة المعجمات بعد ان كانوا يجهلونها وراجع معظمهم ما يعرض فى كتب النحو من الشواهد العربية حتى يخلص من التخبط فى قراءتها وأحب رحمه اللهأن يزيد رغبتهم فيهذا العلم فاقترح أن يطلب من ديوان الاوقاف مبلغ لترقية التعليم في علوم اللغة العربية واجيب هذا الطلب وقرر مبلغ مائة جنيه سنويا لهذا الغرض وتعين احد علماء الازهر للتدريس فيها فقرأ كتاب الكامل للمبرد وهذه من غريب مزاياه رحمه الله

وفوق هذا فقدكان رحمه الله يحب للازهر ان يبلغ به الغاية القصوى من الكمالات العلمية والاخلاق الدينية يرمي بذلك في مخالطتهم في محل الادارة وفى بيته أو أي مكان أثناء كلامه معهم وكان دائما ناصحا أمينا مبينا مكارم الاخلاق والآداب الدينية مظهرا مقاصد الشرع وأسرار التشريع وصلاحية الشريعة المطهرة لكل زمان ومكان خصوصا فى هذا الزمن الذي انتشرت فيه الافكار

والمدنية الغربية معلماً ان الشريعة الاسلامية تنطبق على كثير من العلوم والمعارف والصنائع العصرية وان جوهر الشريعة يطلب من المسلمين المؤمنين الكمالات من كل وجه وانه يجب على المسلم ان يكون متحلياً بالفضائل متخلياً عن الرذائل وكان شديد الحرص على ذلك في كل مجالسه ومحادثاته سواء كانت مع الازهريين أو مع أي طبقة من طبقات الناس وكان شديد التحذير من المؤلفات التي شوهت وجه محاسن الشريعة وأحلت محدثات البدع محل الآداب الشرعية

وكان رحمه الله كثير الحث والتحريض على الاشتغال بالقرآن والحديث والسير الصحيحة حتى يتبين مقصد التشريع وروحه وتعرف كيفية استخلاص الاحكام ومكارم الاخلاق من الشبه والبدع العامة فكان الرائي اذا رآه في أي حال من احواله كأنما يرى خطيبا يعظ الناس بما يفيدهم في أمر المعاد والمعاش ولما رأى ان الازهر والازهريين اهم الذين يمكن ان ينتشر بسببهم ذلك الفكر بين العامة اشتغل بتدريس بعض ما كتبه في التوحيد و بتدريس بعض كتب المنطق وكتب الشيخ عبد القاهر في البلاغة لتكون مقدمة للازهريين في استفادة العلوم الاخرى التي اشتغل بها رحمه الله في آخر الامر ومنها تفسير القرآن الكريم فلقد كان يستخرج من درر الكتاب العزيز ما شاء الله ان يستخرج من العقائد والاحكام وأسرار التنزيل وكيف تنطبق هذه الاحكام والاسرار على كل زمان وحال وكيف اشتملت الشريعة على أحكام الناس مع بعد ما بين أحوالهم من الصلاح والفساد فكان رحمه الله في درس التفسير ينبوع كل العلوم اذا جاء ذكر السموات والارض والشجر والدواب والسحب والمطر والرعد والبرق ينهمر سيل معارفه بالفلكيات والمواليد وعموم المعادن والنبات والحيوانات والتركيب والتحليل واستخراج اسرار حكم الله من الآيات في المكونات واذا جاءت آيات العبر والنصائح تفجرت ينابيع حكمه في الاخلاق ومكارمها والضار منها والنافع والحث على اجتلاب النافع ودرء الضار الى غير ذلك من ضرب الامثال وتبيين ما للامم الغابرة والامم الحاضرة من الاحوال وما يستوجب سخط الله وما يستجلب رضوانه ليعمل و يحذر الناس و بالجملة فقد كان رحمه الله في هذا الباب مثال الصدق والاخلاص للاسلام والمسلمين ولطالبي

الحق الراغبين فيه

أما معاملته رحمه الله لاهل الازهر فقد كانت أكبر من معاملته لعامة الناس لعلمه أنهم أقرب الناس اليـه وأولى من ينتفع به فقـد كان شديد الرأفة بفقراء الطلاب والعلماء وضعفائهم يصرف عليهم جزءا كبيرا من امواله وجراياته الخاصة به وللكثير منهم في دفتره الخصوصي مرتبات شهرية وكان يصرف عليهم كل ما وصـل اليه من مرتبات الاوقاف التى تولى أمرها كوقف المرحومة زينب هانم ووقف رستم افنـدي رسا ووقف خليل أغا اللالا وسليم باشا الوزير وهي مبالغ ذات قيمة ومن أجل ما نفعهم به فكرة مشروع المساجد فانه رحمه الله سعي فى وضع لائحة يجعلها ديوان الاوقاف نظاما للائمة والخطباء والوعاظ والمدرسين فوضعت على حال يجعل الامام والخطيب من المدرسين فى الازهر و يكلف الامام بأن يدرس في الجامع الذي يوظف فيه درسا لعامة الوافدين عليه والمصلين فيه و يكون مرتب الامام والمدرس من ثلاثة جنيهات الى ثمانية في الشهر . ومع ما لاقاه هذا المشروع من الصعوبات الكثيرة المعروفة أراد الله ببركة الاخلاص في العمل تنفيذه بمعناه ونفذ فى كثير من المساجد والوجهة الآن متجهة الى تنفيذ باقيـه وهو مع اشتماله على منفعة اهل الازهر اشتمل كذلك على نشر الدين بين طبقات الامة من طريقه الصحيح

ومن شفقته باهل العلم الفقراء انه كثيرا ما حمل أهـل الخير من الموسرين على ترتيب المرتبات وانشاء الأوقاف والصدقات معونة للمحتاجين من أهل العلم حتى لقد مات رحمه الله وفى خزانة الازهر من الصـدقات ما يكفي مرتبـا لكثير منهم نحو سنتين .ولا تنكر مدافعته عن أهل الازهر اذا عرض لاحدهم ما يستوجب معونته ودرء الظلم عنه فقد كان رحمه الله يجهد النفس و يتكلف الذهاب الى الحكام لدفع ما يصيب الواحد منهم من الشر ظلما وعدوانا

و بالجملة فان مقاصده بالازهر والازهريين كانت خـيرا محضا لا يشوبها شائبة وكانت كلها لوجه تعالى وابتغاء ان يترقى أهل هذا المكان المنيف الى ما يحبه لهم من كمال الاخلاق وعلو المكانة بين الناس والحمد لله لم يجعل الله اتعابه

سدى بل قد أثمرت وهو حي وأنبتت نباتاً حسنا فنجب من شبان الازهر ومن علمائه من يقدرون العلم حق قدره ويعملون بعمل الاستاذ وفكره وسيكونون ان شاء الله فى المستقبل قدوة حسنة لغيرهم ويصل ثواب ذلك ان شاء الله الى من بذر هذا البزر الحسن وتعهده بالتربية والتغذية

هذه بعض أعماله الناشئة عن كامل اخلاقه في الازهر ومنها يعلم انه رحمه الله كان يحب أن يترقى كل المسلمين الى الحد اللائق بهم من الكمالات كما كان دأبه في كل حركاته وسكناته وفى كل محادثاته في جميع مجالسه الخاصة والعامة وانما خص الازهر لعلمه انه هو منبع سعادة الامة اذا صلح فاهتم بتربية أبنائه ليكون نفعهم عاماً لكل المسلمين — أما قيامه فى وجه كل من تكلم فى الاسلام وحاول المساس بمعتقد المسلمين فهو أشهر من نار على علم ومقدرته على ذلك دون سواه أجل من أن تبرهن ورسالته الرادة على هانوتو وكتابه فى الاسلام والنصرانية قد طبقا مشارق الارض ومغاربها وحازا عند الله والناس أكمل القبول

ولما ان ولي الاستاذ رحمه الله منصب افتاء الديار المصرية فى أوائل سنة ١٣١٧ هجرية الموافق لشهر يونيو سنة ١٨٩٩ افرنجية لم يجعل هذا المنصب قاصرا على اعطاء الفتوى على ما يرفع اليه من الاسئلة فى الحوادث بل نظر فيه الى ما هو أرفع من ذلك وأول فكرة عرضت له هي التفتيش على المحاكم الشرعية ليتحقق بنفسه حال من فيها من القضاة والعمال وكيف يسيرون فى الفصل بين عباد الله بمقتضى شرع الله فعاونته عليها نظارة الحقانية وذهب الى التفتيش فى كل أرجاء القطر ولم يدع محكمة مديرية أو مركز الا شاهدها بنفسه وبحث أعمالها بحثا دقيقا وتعرف حال قاضيها من قوة أو ضعف وضبط العمل أو الاهمال فيه ثم عاد ووضع تقريره المعروف عن المحاكم الشرعية وطلب فيه ما طلبه من الاصلاح وحجته فى ذلك انه شيخ الحنفية من جهة وانه من اعضاء المجلس الذي ينتخب القضاة من جهة أخرى فلا بد ان يعرف حال الموجودين منهم فى الوظائف وان يهيء لها فى الازهر من يخلفهم عند انفصالهم منها وقد تضمن هذا التقرير كل وجه من أوجه الاصلاح سواء كانت متعلقة بجوهر القضاء أو بترقية حال

القضاة واحترامهم فى نفوس المتقاضين أمامهم

ولما وصل تقريره هـذا الى الحكومة أحلته من الاهتمام بشأنه المحل اللائق به وشكلت فى نظارة الحقانية لجنة للبحث فيه . وتقرير ما يمكن تقريره مما فيه من أوجه الاصلاح

. و بعد هـذا صار عضوا فى مجلس شورى القوانين فوجه فكرته الى هـذا الغرض المهم عنده وهو اصلاح المحاكم الشرعية وساعده على هذه الفكرة رجال من عقلاء الامة وأكابرها ورفعوا الصوت جهرة بطلب هذا الاصلاح وحصروه في أمور بينوها رسميا للحكومة فاهتمت الحكومة لذلك وكلفته رحمه الله بأن يؤلف لجنة تحت رئاسته للبحث فى كل طرق الاصلاح . وعرضها على الحكومة لتنفيذها واشتغلت هذه اللجنة بالفعل ببعض الشغل وقدمه الى الحكومة للعمل بما فيه

وقد كان رحمه الله شديد الحرص على ان تكون هذه المحاكم محترمة موقرة فى أعين الامة بتمامها رفيعها ووضيعها وأن تكون محفوظة الحق لا يتعـدى عليها غيرها من الجهات القضائية وحادثة الحكم فى قضـية وقف المرحوم راتب باشا التى حكمت فيها محكمة الاستئناف الاهليـة لدولة بهيه هانم بأنها ناظرة لذلك الوقف بعد حكم المحاكم الشرعية فيها أصدق شاهد على ما قلناه . فانه رحمه الله جزم ان حكم محكمة الاستئناف الاهلية فى هذه المادة جاء من غير جهة مختصة فاشتغل بالامر حق الاشتغال حتى صدر الامر العالي بتشكيل هيئة تحت رئاسة ناظر الحقانية كان هو من اعضائها للفصل فى الخلف الذي وقع بين المحاكم الاهلية والمحاكم الشرعيـة فى هـذا الموضوع وقد جاء حكم هذه الهيئة موافقا لرأيه . فقضى بأن الذي ينفذ هو حكم المحكمة الشرعية دون حكم المحاكم الاهليـة . و بهذا انتهى الخلاف . . وحفظت كرامة المحاكم الشرعية حفظا لاخفاء فيه

ولما استقال رحمه الله من ادارة الازهر لم تقعـد به تلك الهمة العالية عن النظر فيما يصلح الازهر والازهريين خصوصا ما يتعلق بانجاح المحاكم الشرعية وايجاد العمال الذين يكونون امام الناس مثال التوقير والاحترام فاشتغل مع الحكومة السنية في انجاز المشروع القاضي بفتح مدرسة يتخرج منها القضاة والكتاب والمحامون

الشرعيون فرضيت منه الحكومة بذلك . وشكلت لجنة تحت رئاسته لتضع نظاما لهذه المدرسة يبين فيه ما يصرف عليها كل سنة وما يعلم فيها من العلوم . والمدة التي يمكثها المتعلم فيها وكيفية ادارتها . ومراقبة سير التعليم فيها . فكمل ذلك في أقرب وقت على أحسن ما يكون من الوضع وقدم المشروع الى الحكومة قبل سفره الى الاسكندرية بايام قلائل وقد علمنا ان الحكومة تقبلته أحسن قبول ولم تلاحظ عليه شيئا لا في مبناه ولا في معناه ولا نظنها الا عاملة به ان شاء الله

لم يبق لنا الا ان نستهمي رضوان الله ورحمته الى ساكن هذا القبر الامام الجليل ونسأله سبحانه وتعالى ان يجعل للاسلام والمسلمين أجمل العزاء على مصابهم فيه وأن يثيبه على عمله هذا بما هو أهله انه نعم المجيب

اخلاق الفقيد وفضائله وامامته

لحضرة القاضي الفاضل قاسم بك أمين المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية

سادتي

اذا أصيبت أمة من الامم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الادب أو السياسة كانت تعتمد عليه في اصلاح شأن من شؤونها قال قومه ليس في الوجود انسان لا يعوض ووجدوا في الحال بين أهل طائفته أو صناعته من يسد الفراغ الذي تركه ويأخذ مكانه

أما الحال عندنا فليس كذلك . مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في أمتنا من يعوض علينا ما خسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده لا أقول ذلك محاباة لصديق كانت محبته من أسباب الشرف والسعادة لشخصي ولا موافقة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم احد بشيء منها مدة وجودهم بين الاحياء

وانما هذا هو الحق الذي يجب اعلانه اعترافا بالفضل لمصري وصل الى اسمى مقام لا يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة . مقام لم يستمد وجوده من

منصب عال في الحكومة ولا من رتبة رفيعة ولا من ثروة طائلة ولا من نسبة الى بيت قديم ولا من شيء آخر من القاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس ، مقام اهتدى اليه بشعوره واكتسبه بجده وعمله وحافظ عليه بقوة ارادته وحسن سياسته وخدم فيه بعلمه وعمله ، مقام مكنه من ان يمسك بيده زمام أمة بأسرها ويحركها نحو الخطة التي رسمها ويسوقها الى طريق المستقبل الذي هيأه لها ، مقام الامامة باوسع معناها ، تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على ان يدعي فيه استحقاقاً بعده

لهذا رأينا مدة مرض الامام ويوم وفاته حركة في شعور الامة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حياتها

تتذكرون يوم السفر الى الاسكندرية حيث كان المئات من اصدقائه ومعارفه وزملائه وتلاميذه يودعونه في المحطة وجميعهم في سكون وقلق وخوف على حياته وتتذكرون اقامته في الرمل والزائرون من جميع طبقات الامة ومن جميع جهات القطر يتوافدون عليه أفواجاً في كل ساعة من النهار وهم يترددون بين الامل واليأس ، يسألون عن صحته ويرسلون اخباره الى محبيه الكثيرين الذين كانت تمنعهم اشغالهم عن زيارته، وتعلمون الاحتفال الجليل الذي قام به سكان الثغر والعاصمة بعد موته

رأينا كثيرا من العلماء والذوات والامراء مرضوا وماتوا فكانوا موضوعاً للمظاهرات الوسمية ولم نشاهد ان عددا يذكر من الامة غير اقاربهم وأصحابهم اهتم لحادث من تلك الحوادث واظهر شيئاً من شعوره

ذلك لان أولئك العلماء والذوات والامراء انما عاشوا لانفسهم لكن امتنا قد شعرت في هذه الدفعة بحسن غيرتها انها فقدت رجلا كان عائشاً لها أكثر من كونه كان عائشاً لنفسه ولعائلته

هذا هو سر الشعور الجديد الذي رأينا لاول مرة في الامة المصرية — شعور الاتحاد في الكدر والحزن لحرمانهم من امامهم المحبوب

فكأن هذا الحادث العظيم مبدأ الاتحاد والتضامن بين عدد كبير من الامة

المصرية جميعهم احساس واحد . وهذه خطوة في سبيل التقدم الادبي الذي هو في نهاية الامر عبارة عن ترقي الاحساس الى درجة يميل معها الى الجميل وينفر من القبيح في جميع اشكالها ومظاهرها

سادتي : ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح . والكمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نمواً عجيباً وتتكاثر فروعها وتمتد طولا وعرضاً ولا تترك محلاً لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس إمامنا العزيز . نفس خلقت على أحسن شكل . زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالا في الجمال يجب ان نضعه دائما أمامنا لنعلم منه مقدار ما يصل الجهد في العمل عند رجل اقترب من سن الستين وكان يطالع ويتعلم ويعلم ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الاوقاف الاعلى ويترأس على الجمعية الخيرية الاسلامية ويضع المشروعات للازهر وللمحاكم الشرعية ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويدافع عن الدين اذا طعن عدو عليه ويراسل علماء المسلمين في جميع الاقطار التي يسكنونها ويتخابر مع رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده وكان مع كل ذلك يجد وقتاً ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع افراحهم وأحزانهم

ونتعلم منها أيضاً مبلغ ارتقاء الخلق في انسان أجهد نفسه وهذبها ورباها حتى أرسلها الى أقصى ما تصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال

بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع اليه ويسعى الى كل نفع للغير عام أو خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين بأي مصيبة وأهل الازهر الذين هم أكثر الناس احتياجاً الى المساعدة لانهم في وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في ميدان حياتنا الجديدة . يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الامور بهمة لا تعرف الملل كأنما كان يسعى لاعز إنسان لديه — يسعى مرة ومرتين وثلاثاً إلى أن يقضي حاجتهم وهم جميعهم

في نظره مستحقون سواء كانوا كذلك في الحقيقة أم لا . بل كان يسعى الى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوما مدة حياته

لا يصل الانسان إلى هذا الخلق العظيم الا اذا ربى نفسه على أن تتغلب على الغرائز القبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصار حاكما عليها يحاسبها على كل عمل أو نزعة أو فكرة أو خاطر مما يرد عليها . كان الاستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقا وان التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في اصلاح فاعله كان متفقا مع فلاسفة العصر على ان الخير لا يتولد الا من الخير والشر لا ينتج الا من الشر

نعم كان للامام الكبير الذي فرض على نفسه اصلاح أمته خصوم واعداء كثيرون وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لان يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه فيقتصروا على التمسك بما وجد عليه آباؤهم من قبل — وعلى جوانب هذا الجيش يحرض على الطعن عليه الحاسدون الذين يتألمون اذا ارتفع واحد من الناس عنهم فلا يجدون راحتهم الا اذا أنزلوه من مكانه ووضعوه في مستوى واحد معهم — وفي مقدمة هذا الجيش كقواد له أرباب الغايات الذين يسيرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتي الرياح . فكان الاستاذ يقاوم ويحارب هذا الجيش الطويل العريض بقوة وعزيمة يحار العقل فيهما ولكنه كان يدافع بقدر الضرورة ولا يتعداها ويحارب حرب الشجاع الكريم الذي لا يطعن من الخلف ولا يخدع ولا يغش . وكان فضلا عن ذلك لا يكره خصومه ولا يبغض أعداءه وانما يناقش أفكارهم ويطعن على أوهامهم ويهدم معتقداتهم الباطلة ويرجو لهم الهداية ويرشدهم الى الصواب

كان الكثير من أصحابه ينصحونه أن يجتنب أسباب العناء ويترك إدارة الأزهر والدروس التي كان يلقيها فيه ومجلس الأوقاف ومجلس الشورى والافتاء ويعود الى مركزه في الاستئناف براتب أعظم مما كان يكسبه وعمل أخف مما يكابده فيعيش كغيره خاليا مستريحا مطمئنا ولكنه لم يسمع قول نصوح . وأقول

انه كما عرفته كان من المستحيل عليه أن يعيش عيشة أخرى

وكان الكثير من الناس يعترضون عليه قائلين: ماهذا الشيخ الذي يتكلم باللغة الفرنساوية و يسيح في بلاد الافرنج و يترجم مؤلفاتهم و ينقل عن فلاسفتهم و يباحث علماءهم و يفتي بما لم يقل به أحد من المتقدمين و يشترك في الجمعيات الخيرية و يجمع المـال للفقراء والمنكوبين — ان كان من أهل الدين فليقض حياته بين الجامع والبيت وان كان من رجال الدنيا فانا نراه يعمل فيها وحده أكثر من جميع الناس. كان الاستاذ يسمع ذلك ولا يلتفت الى أقوال المنتقدين حسنت نيتهم أو ساءت

من يرى ان الحياة لهو وزين له أن يعيش ليأكل و يشرب و يسافر و ينتقد أفكار الباحثين وعمل العاملين. أولئك لا يعلمون ان امام مصر كان محركاً بقوة فوق الاعتيادية وان عقله كان ملآنا بالفكر الى حد انه ما كان يسـعه كله فكان يفيض منه بالرغم عنه. وان قلبه كان ملتهبا بحب وطنـه فـلا يستريح الا وهو مشغول به و بسعادته ومستقبله وانه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالي بالألم الذي يأتيه بسبب أمنيته التي كان يعزها بل كان يجد الألم فيها الذيذا كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب في هوي من يحبه

كم من مرة سمعته يؤكد بانه صمم على ان لا يتداخل في شيء من هذ القبيل ثم رأيته في الغد منغمساً فيه أكثر مما كان

ذلك لأنه كان بعكس ما يراه عموم المصريين في أنفسهم عنده أمل لا يزعزعه شيء في اصلاح امته. كان عنده اعتقاد متين في أن البذرة الطيبة متى ألقيت من أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها

لهذا كان يلقي بملء يديه كل ما جمعه في حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة — كأنه كان يشعر ان حياته ليست طويلة وكان يعجل يبذل جميع ما كان عنده

وهل كان مخطئا في آماله ؟ كلا وانما يخطيء من يقنط و ييأس من مستقبل أمته ان لم تسمح القدرة لامام مصر باتمام مقاصده جميعها فلا ينكر أحد أن تعاليمه قد أثرت في عموم الامة وفي أهل الازهر على الخصوص تأثيرا حسنا

ولكن ينبغي أن لا يغيب عن فكرنا أن الامم التي تستفيد من الاصلاح هي تستحقه أي تدركه وتفهمه وتحبه وتطالب به وتكرم رجاله وتحترمهم وتعزهم والا فكل اصلاح فيها مصيره الزوال السريع

انه يجب علينا أن نضع يدنا على بناء الاصلاح الذي وضع الامام أساسه ونحافظ عليه ونداقع عنه ونضيف اليه ان أمكننا حتى نتركه الى ذريتنا كميراث نفيس ننتفع منه ونزيد عليه ثم نتركه الى من يأتي بعدها وهكذا ينمو الاصلاح فينا كلما مرت الايام والاجيال كما هو الحال عندالامم الحية .

سادتي : نحن اليوم في عصر توفرت فيه ظروف عديدة تساعد على ارتقاء بلادنا اذا نحن عرفنا أن نستخدمها نحن في عصر النظام والحرية التي لا تقف الاعند حد القانون وأرى المفسدين منا تجارتهم رابحة يتكلمون بصوت عال وينشرون ما يوافق مصالحهم ويختلسون ثقة الجمهور ورضاء ولاة الامور . أراهم بالاجمال ينتفعون من الحرية التي منحها المصريون وأرى بعكس ذلك أن الطيبين منا الصادقين الذين يريدون الخير لبلادهم لا يستعملون حريتهم ولا ينتفعون منها بشيء يتكلمون بصوت منخفض أو لا يتكلمون ولا ينشرون أميالهم وآراءهم ويبتعدون عن ولاة أمورهم ويترفعون عن المناقشة والجدال ولا يميلون الى الجهاد في سبيل الحق والعدل والمنفعة العامة فكان ضعف هؤلاء وجراءة أولئك من أهم العوائق التي صادفها الامام في طريق الاصلاح

اذا دام هذا الحال كان نصيب ما شيده من البناء الخراب والسقوط

أما اذا عدل محبو الاصلاح منا عن خطتهم وجاهروا بأفكارهم ودافعوا عن آرائهم وتركوا ما اعتادوا عليه من الافراط في الحرص على راحتهم والمسالمة الزائدة عن حد المعقول وساروا في الطريق الذي رسمه لهم امامهم ملهمين بروحه مهتدين بنوره مقتدين بسيرته معجبين بما أظهره في حياته من علو النفس وشهامة الخلق وشجاعة الرأي وثبات العزيمة . فلا ريب أن البناء يكمل والاصلاح يتم ويحقق ما كان استاذنا وامامنا العزيز يريده وما يتمناه كل مصري من الشرف والمجد والسعادة لامته

رثاء حفني بك ناصف

لِمَ لا تجيبُ وقد دعوتُ مرارا يكفي سكوتك أربعين نهارا
كثر التخبُّطُ والحقائق حُجِّبت عنا وأمسى المسلمون حيارى
يتساءلون وقد عرتهم سكرةٌ عما عراك وما همُ بسُكارى
فاجلُ الصواب لنا كما عودتنا يقْقًا ومزِّق دونه الاستارا
ما كان عهدي حين يقصدك الورى عند اشتداد الخطب أن تتوارى
فيم احتجابك في فلاة بلقعٍ لا دارة فيها ولا ديّارا
الكون عن مسعاك ضاق نطاقهُ فعلام تتخذ المقابرَ دارا
للمسلمين اليك أكبرُ حاجةٍ فاذا قضيتَ فما قضوا أوطارا
من ذا يناضل عن شريعة أحمد ويذود عن أكنافها الاخطارا
ويصون دين الله من شُبه العدا ويرُدُّ غارة من به يتمارى
ويذب عن آي الكتاب بحكمة ويذيق من باراه فيه تبارا
ويجيء في تفسيره بعجائب ويذيع من مكنونه الاسرارا
ويطهّر الاسلام مما شابَهُ ويزيل عن غُدرانه الاكدارا
ويذكر العلماء أن لا يُغْمضُوا عما اقتضاه زمانهم أبصارا
ويجادل الاشرار بالحسنى ولا ينفك حتى يصبحوا أخيارا
ويجدد العربية الاولى وقد صارت بغفلة أهلها آثارا
ويعيد للانشاء سابق مجده ويشيد في أنهاره ما أنهارا
ويرد أعواد المنابر جَذْلَةً لا تحسدُ الاعواد والاوتارا
ويبث بين الخلق غر خلائق بعظاته وينبه الاغرارا

ويحث أهل المال أن يتوسطوا   في البذل لا سرفاً ولا إقتارا
ويرود مرعى الجود في وزرائنا   ليحط عن فقرائنا أوزاراً
يقضي حوائج سائليه فلا يرى   في نفسه سأماً ولا استكبارا
ويعلم الناس الأمانة والوفا   والصدق والاخلاص والايثارا
ويظل بالاصلاح مغرى كلما   وجد السبيل الى صلاح سارا
حتى كأن عليه عهدا للملا   أن يصلح الاخلاق والافكارا
ان كان فينا مرشد يقوى على   ذا العبء أوسعنا لك الاعذارا
أولا فأولى أن تفيض نفوسنا   هلعاً ونسعى للمنون بدارا
مات الامام فيا سماء تفطري   فلذًا وطيري يا بحار بخارا
وتصدعي يا أرض وانضب فجأة   يا نيل وامطر يا سحاب حجارا
وقفي مكانك يا كواكب واسقطي   كسفاً وخري يا جبال نثارا
وذري رحاب الجو تبعث صرصرا   يا ريح واسري بيننا إعصارا
لا خير بعد محمد في العيش ان   كانت نفوس الخالفين صغارا

رثاء حافظ افندي ابراهيم

سلام على الاسلام بعد محمد   سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجى   على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله   فأصبحت أخشى أن تطول حياتي
فوالهفي والقبر بيني وبينه   على نظرة من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً   كأني حيال القبر في عرفات
لقد جهلوا قدر الامام فأنزلوا   تجاليده في موحش بفلاة

ولو أضرحوا بالمسجدين لانزلوا بخير بقاع الارض خير رفات
تباركت هذا الدين دين محمد أيترك في الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات

* * *

زرعت لنا زرعا فأخرج شطأه وبنت ولما نجتن الثمرات
فواهاً له أن لا يصيب موفقا يشارفه والارض غير موات
مددنا الى (الاعلام) بعدك راحنا فردّت الى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا فعدن وآثرن العمى شرقات
وآذوك في ذات الآله وأنكروا مكانك حتى سودوا الصفحات
رأيت الاذى في جانب الله لذة ورحت ولم تهمم له بشكاة
لقد كنت فيهم كوكبا في غياهب ومعرفة في أنفس نكرات
أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرقت بين النور والظلمات
ووفقت بين الدين والعلم والحجى فاطلعت نورا من ثلاث جهات
وقفت (لهانوتو) و(رينان) وقفة أمدك فيها الروح بالنفحات
وخفت مقام الله في كل موقف فخافك أهل الشك والنزغات
وكم لك في اغفاءة الفجر يقظة نفضت عليها لذة الهجعات
ووليت شطر البيت وجهك خالياً تناجي اله البيت في الخلوات
وكم ليلة عاندت في جوفها الكرى ونبهت فيها صادق العزمات
وأرصدت للباغي على دين أحمد شباة يراع ساحر النفثات
اذا مس خد الطرس فاض جبينه باسطار نور باهر اللمعات
كأن قرار الكهرباء بشقه يريك سناه أيسرُ اللمسات

فياسنة مرت بأعواد نعشه لأنت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبرا وأذويت روضاً ناضر الزهرات
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً على جمرات الحزن منطويات
رأى في لياليك المنجم مارأى فأنذرنا بالويل والعثرات (١)
ونبأه علم النجوم بحادث تبيت له الابراج مضطربات
رمى السرطان الليث والليث خادر ورب ضعيف نافذ الرميات (٢)
فاودى به ختلا فمال الى الثرى ومالت له الاجرام منحرفات
وشاعت تعازي الشهب باللمح بينها عن النير الهاوي الى الفلوات
مشى نعشه يختال عجباً بربه ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تقله وتدفعه الانفاس مستعرات
بكى الشرق فارتجت له الارض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي الصين جازع وفي مصر باك دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب وفي تونس ماشئت من زفرات
بكى عالم الاسلام عالم عصره سراج الدياجي هادم الشبهات
ملاذ عيايل ثمال أرامل غياث ذوي عدم امام هداة
فلا تنصبوا للناس تذكار عبده وان كان ذكرى حكمة وثبات
فاني لاخشى أن يضلوا فيومئوا الى نور هذا الوجه بالسجدات
فياويح للشورى اذا جد جدها وطاشت بها الآراء مشتجرات

(١) يشير الى ماجاء في تقويم عن احداث هذه السنة (١٣٢٣) وهو
ألا يارحمة الرحمن صبي على قبر حوى جسم الامام
ويا ذا الازهر اندب ليث غاب فمن يفتي اذا الأستاذ نام
(٢) يشير الى موت الامام بداء السرطان إذ كانت الشمس في برج السرطان

ويا ويح للفتيا اذا قيل من لها ويا ويح للخيرات والصدقات
بكينا على فرد وان بكاءنا على أنفس لله منقطعات
تعهدها فضل الامام وحاطها باحسانه والدهر غير موات
فيامنزلا في عين شمس أظلني وأرغم حسادي وغم عداتي
دعائمه التقوى وآساسه الهدى وفيه الايادي موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشا عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة ومطلع أنوار وكنز عظات

(يقول جامع الكتاب) قد استعاد الناس كثيراً من أبيات هذا الرثاء لما كان لالقائه من شدة التأثير ولا تسل عما جرى عنده وعند سابقه من انحدار العبرات؛ وتصعد الزفرات؛ الذي اشترك فيه جميع الطوائف والطبقات، وما كاد يتم الرثاء حتى آذنت الشمس بالغروب فوقف حموده بك عبده فشكر للناس جميلهم ودعا لهم بعبارة بليغة لائقة بالمقام وآذن حسن باشا عاصم رئيس الحفلة الناس بالانصراف مأجورين مشكورين، بعد ان ختمت كما افتتحت بتلاوة آيات من الكتاب العزيز

وقد كان هذا الاحتفال مجدداً لتحريك أقلام الكتاب بالثناء والدعاء كما حرك الالسنة والقلوب. ولو أردنا ان نثبت ذلك كله لأعدنا نحو ما بدأنا به ولكن نذكر جملة وجيزة من جريدة كنا أضعناتأ بينها وهي جريدة العصر الجديد المصرية لاسكندر بك شلهوب قالت:

«كانت حفلة التأبين التي أقيمت أمس فى قرافة المجاورين إحياء لذكرى إمام الشرق الاوحد ونابغته الفريد المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقاً بالغة حد النهاية في المهابة والوقار حضرها عدد عظيم من كبار الأعيان والموظفين وأصحاب الحيثيات الرفيعة والمقامات العالية من الأمراء والكبراء ورجال الصحف وأرباب الأقلام والخطباء والشعراء الذين انتدبوا لرثاء الفقيد وقد تصدر الحفلة سعادة الفاضل حسن باشا عاصم بصفته نائب الجمعية الخيرية الاسلامية وكان عدد الحاضرين لا يقل عن الخمسة آلاف نسمة غير الذين منعوا عن الدخول منعاً للزحام ولكن السكون كان سائداً والهدوء شاملاً وكان الناس كأن على رؤسهم الطير» الخ ما كتب وهو زهاء عمودين

التعازى

لقد كان الاستاذ الامام عليه الرضوان آية في حياته وآية فى مرضه وآية في موته وآية في التعزية عنه فما رأينا ولا سمعنا قبل موته أن أحـدا من العلماء أو الأمراء أو الزعماء مات فرأى جميع الطبقات من أمتهم ان مصابهم فيه كمصاب أهله فأنشأ يعزي بعضهم فيـه بعضاً ذاكرين ان مصابه مصاب الأمة والدين في كل قطر . هكذا كان شأن الناس في تعزية بعضهم بعضاً عن الاستاذ الامام. واننا نذكر نموذجاً من تعازي أهل هذا القطر وغيره من الأقطار مبتدئين بتعزية بعض المصالح ثم بتعزية بعض المصريين الذين كانوا فى خارج القاهرة ثم ببعض تعازي أهل المشرق فتعازي بعض أهل المغرب

تعزية محكمة الاستئناف الاهلية بلسان رئيسها

الى حضرات المحترمين أعضاء عائلة المرحوم الشيخ محمد عبده

لم يكد يتصل بنا خبر ذلك المصاب الجلل خبر وفاة زميلنا الفاضل العـلامة الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية حتى شملني أنا وحضرات زملائي المستشارين الكدر العظيم والحزن الشديد لما كان عليه المغفور له من أجمل الصفات وأحسن المزايا .

خدم رحمه الله تعالى القضاء خدمة جليلة وأقام بيننا طول مدته عنوان الاستقامة ومثال الفضيلة

تركنا وقد خلد له بيننا ذكرى حسنة الى وظيفة الافتاء حافظا لمركزه في محكمة الاستئناف وقضى هذا الفقيد العظيم رحمه الله تعالى وهو على هذه الحالة فكان من الواجب علينا أن نظهر على وفاته بعض ماشملنا من الحزن فأوقفنا جلسة المحكمة صباح وفاته حدادا عليه وشيعه رجال قضاء هذه المحكمة والمحكمة الابتدائية

وقد رأينا أيضا اتماما لما يجب علينا ان نحرر هذا لحضرتكم اظهارا لأسفنا العظيم وكدرنا الشديد على فراقنا لهذا العالم الكبير ونسأل الله تعالى أن يشمله بواسع رحمته وان يسكنه فسيح جناته و يمطر على جدثه صيب الرحمة والرضوان و يلهم آله وزملاءه ومحبيه جميل الصبر وخير السلوان انه تعالى سميع مجيب م

تحريرا بمصر فى ١٧ يوليه سنة ١٩٠٥ (محل الامضاء والختم)

تعزية الجمعية الخيرية الاسلامية

بلسان سعادة حسن عاصم باشا وكيل الجمعية

مصر بتاريخ ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ نمرة ١١١

حضرات المحترمين أعضاء أسرة المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده

ماكان للمرحوم الاستاذ الفاضل الرئيس والعالم الكامل الحكيم الشيخ محمد عبده رئيس جمعيتنا الخيرية الاسلامية من الأيادي البيضاء في توطيد دعائم الجمعية وتشييد أركانها جعلها اليوم من أكبر عضو لاصغر طالب فى حزن اليم وألم عظيم لفقد عضدها القوي وركنها القويم

ولذا قد حق علينا نحن أعضاء مجلس إدارة الجمعية بالاصالة عن أنفسنا والنيابة عن اخواننا أعضائها وأولادنا طلبة مدارسها أن نعقد مجلس إدارتها خاصة لنشترك جميعا في العزاء علي الفقيد الكريم ونسأل الله له خير الجزاء علي حسناته وان يسكنه فسيح جناته

وقد تقرر في جلستنا هذه تحرير هذا الكتاب لحضراتكم قياما بواجب العزاء لاسرته الكريمة و بيانا لكدرنا الشديد وحزننا الأليم على فقد هذا الاستاذ الحكيم والله يلهمكم وايانا جميل الصبر و يعظم لنا فيه الاجر انه هو الرحمن الرحيم م

تعزية الامير محمد بك ابراهيم

وكتب صاحب الدولة الأمير محمد بك ابراهيم أحد أعضاء الاسرة الخديوية الى حموده بك عبده كتابا من باريس في ٢٤ يوليو هذا نصه بعد رسم الخطاب

انتقال الشيخ محمد عبده الى دار الفناء هوى عليّ مثل الصاعقة وتمزق قلبي من هذه الداهية الشنيعة فاني كنت للمرحوم وليّ حميم واثق زكاءه الساطع واتبع نصائحه الطاهرة وابتغي مجلسه الشريف

حينما أظلم الموت عينيه احتجبت أيضاً في السماء الكواكب وانتفت العلم معه وأضاع مصر أفخر رجاله فارتدى فؤادي بأزر الحداد وتبكي عيوني دمع الشؤون فما في طاقتنا استرداده فاللهم يكنف قبره برحمته العزيزة ويدوم ذكر محمد عبده في مصر كالنجم في الآفاق

أدعو الله بأن يماطل كربكم و يعطي لعائلته الشريفة الصبر والسلوان

(الامضاء)

تعزية ابراهيم بك الهلباوي المحامي

والمستشار القضائي بديوان الاوقاف

من بروكسل في ٢٣ يوليو

حضرة الاستاذ الشيخ عبد الكريم

ماذا أكتب لك والخطب اذا عظم يبلبل الخواطر ويجرح القلب ويمسك اللسان عن الكلام ثم إذ استطيع القول فماذا عسي أن أقول وبأيّ عبارة أعزي؟ ان كان شيء من هذا فلمن يوجه العزاء في هذا الفقيد؟ ألعائلته (زوجته وبناته واخوته) مع انها لم تكن أكثر حظاً وفائدة من كثير من الطبقات الاخرى التى كانت مغمورة بفيوضات الاستاذ رحمه الله

ألعشيرته من رجال العلم والدين بالجامع الازهر المعمود على حرمانهم من رجل قضى فوق الاربعين عاما بين طالب ومدرس وموظف وهو يجتهد في تحسين حال أهل هذه الطبقة أدبيا وماليا وان المرتبات التي توالت عليهم من نظارة المالية أو من مصلحة الاوقاف كانت من نتائج مساعيه. أللناشئة الجديدة من المدرسين والطلبة وقد كان شغوفا ولوعا بالعناية بتربيتهم وبث روح الدين الخالي عن الخرافات والأوهام في نفوسهم. وقد كان تفاني المرحوم في الاشتغال بتثقيف

عقول هذه الناشئة الجديدة من الازهر يبن واعدادهم للقيام بواجب الدعوة في الناس الى نبذ ماعلق بنفوسهم من الفساد والخمول والكذب حتى يكونوا أمةعاملة صالحة تشبه رجال السلف الصالح من الامور التي أوشكت أن تتجاوز حدالاعتدال كان بالرغم عن متاعبه وأشغاله المتعلقة بوظائفه العديدة اليومية لا ينقطع عن الذهاب الى الازهر لإلقاء دروسه في أوقاتها المعتادة فضلا عن كونه كان فاتحا بيته في عين شمس ومحل ادارته في الازهر لجميع الطلبة على اختلاف مذاهبهم ليلقنهم و يغذي نفوسهم بحكمه العالية . وقدلا أخطأ اذا قلت انه اذا كان الازهر محل شروق الاستاذ ومنبت علمه وحكمته فيجوز أن يكون هوأيضا من الاسباب الكبرى لعلته وغروب شمس علومه ومن حوادث الازهر الاخيرة من عهد حادثة رواق المغاربة الى وقت استقالة شيخ الازهر السابق الاستاذالشيخ على الببلاوي الى استقالتكم واستقالة الفقيد من مجلس ادارة الازهر عبرة لمن اعتبر

ألأهل القضاء والموظفين بالمحاكم الشرعية وفى التقرير الذي تقدم من الفقيد لنظارة الحقانية المتعلق باصلاح المحاكم الشرعية و بيان وسائل الاصلاح مايدل على أن إصابة المحاكم المذكورة بوفاة المرحوم ليست أقل من مصاب الجهات الاخري

ألرجال القضاء الأهلي على فقدهم رجلا كان لا يزال حافظا مركز القضاء بمحكمة الإستئناف على الخدم الجليلة التى أداها فى المحاكم الاهلية مدة الاحدى عشرة سنة التى لبثها موظفا بها بين نائب قاض وقاض بالمحاكم الابتدائية ومستشار بمحكمة الاستئناف . ان ماعرف به الفقيد في تلك المحاكم من الذمة والاستقلال والكفاءة العالية أقام برهانا للحكومة على أنه يمكن الاعتماد على رجال فى الوظائف الكبرى القضائية مع أنهم لم يتعلموا في مدارس الحقوق علم الحقوق وعلى أثر ذلك دخل في وظائف القضاء الأهلي عدد عظيم من هذه الطبقة وكان أول فاتح للطريق الاستاذ الشيخ محمد عبده بكفاءته وعلمه

أم نعزي على هذا المصاب مجلس الشورى ورجاله وهم يعلمون كما يعلم الجميع أنه من عهد دخول الاستاذ فى عضويته والمجلس في حالة أعز وحسن الظن والثقة به

تضاعفت من جانب الحكومة وصارت المداولة في المشروعات بين مندوبي الحكومة والمجلس كالمناقشة بين متكافئين وجهتهما واحدة وهي الاصلاح ودرء الضرر ·

أم نعزي مصلحة الاوقاف الذي كان المرحوم عضوا في مجلسها الاعلا ·

كان عضوا عاملا مثابرا على العمل ملتفتاً لكل صغيرة وكبيرة تعرض على المجلس فتنال من رأيه وانصافه ماتستحقه والناس تعلم أنه في المسائل الكبرى التي لابد وأن يدونها التاريخ لهذه المصلحة في عهدها الاخير كان الشيخ من أكبر عوامل المدافعين والمحافظين على كيان هذه المصلحة · وبسبب هذ المصلحة أيضا قد أضاع الشيخ وضحى كثيرا من منافعه الشخصية وزاد في هياج أعدائه

أم نعزي فتوى الديار المصرية · ما من وظيفة دخلها الشيخ الا وألبسها ثوبا جديدا من الرفعة والجلال · كان معظم الذين سلفوا الشيخ في هذه الوظيفة الكبرى يظن أنه انما تعين مستشارا دينيا لمصالح الحكومة فلا يكتب ولا يفتي الا عن المسائل التي تحال عليه من تلك المصالح وكل طلب يعرض له من الافراد عن أي مسئلة يطلب فيها معرفة حكم الله فيها يضرب به عرض الحائط · فلما تولاها الشيخ رفع بقدرها الى الدرجة التي يجب أن تكون عليها وفتح أبوابه لافادة الافراد كما فتحه لافتاء الحكومة لانه بتعيينه فى هذا المسند الجليل صار المرشد والمفتي الاكبر لكل قاصد له في هذه البلاد

على هذا المبدإ عم الآفاق اسم مفتي الديار المصرية بعد أن كانت الوظيفة أشبه شيء بالتقاليد القديمة التي لا عمل لها وصار يقصدها القاصي والداني من مشارق الارض ومغاربها وكان أهم هذه الفتاوي بيان أحكام الله في الاحوال الجديدة التي نشأت عن اختلاط أمم الاسلام بالامم الاخرى ودخولهم تحت أحكامهم من الاحكام التي تطالب العلم بأصول الدين وبيان الغرض من أصول الاحكام ·

أم نعزي الجمعية الخيرية الاسلامية ومدارسها والفقراء والايتام الذين يلتجئون لما أصابهم من نوائب الزمان لابوابها ؟ ليس فضل الشيخ فقط أنه كان رئيسا لهذه الجمعية وخدم فيها كثيرا بهذه الصبغة بل فضله الاكبر أنه كان من أول المؤسسين لها وأول الناشرين لدعوتها بين الأمراء أعضاء العائلة الخديوية وكبار

الأعيان والوزراء . لم يكن همه وعمله فيها قاصرا على فرع من فروع الاعمال بل كنت تجده الاول في كل فرع منها . اذا التفت الى باب الحث على الاشتراك في عضوية الجمعية رأيت الشيخ أول العاملين أو الى تحصيل الاشتراكات أو المساعدات كان الشيخ كذلك أو الى انتقاء الموظفين للمدارس والاشتغال بامتحانهم أو امتحان تلامذة تلك المدارس كان الاستاذ أول العاملين أو الى حضور جلسات مجلس الادارة كان الشيخ من أول المواظبين أوالى دفع الاشتراك الشخصي الذي يجب على كل عضو كان الشيخ من أول المنجزين

أم نعزي العائلات المنكوبة في رؤسائها حيث كان الشيخ لمثل هذه العائلات والد من لا والد له أو عائل من لاعائل له خصوصا العائلات التي كانت ترتبط روساؤها بالفقيد قبل وفاته كأنه خلق بين البؤس والبؤساء والتعاسة والتعساء اذا رايته في دعوة فرح فاعلم أنه انما توجه لداعي المجاملة وسنة إجابة الدعوة ولكنك تراه مقابل ذلك مئة مرة مشيعا للجنازات ومواسيا للمصابين فى المآتم .

كان أول مثال للوفاء مع أهله وأصدقائه غير متغير في أمياله ولا مباديه الذين اتخذهم في أيام شبيبته الاولى أصدقاء وأصفياء هم الذين بقي معهم الى الايام الاخيرة من حياته . كان من أولي الهمم الشماء والمروءة الكبرى كان كما كان مقصودا لكل قاص ودان لحاجة العلم كان مقصودا للمساعدة على حاجات هذه الحياة الدنيا من مال أو توظف أو أي مساعدة أخرى

ان رجلا كانت حياته لكل الناس كرجلنا الفقيد انما نعزي فيه الامة بأسرها وحيث كنت أيها الاستاذ منه بمنزلة هارون من موسى عضده ومعينه ورفيقه الاول من عهد الطفولية الى اليوم وجهت كتابي هذا اليك معزيا في شخصك كل الذين أصيبوا بوفاته والله يوفقك الى إتمام مابدأ به المرحوم ويرزقنا واياك الصبر والسلام م؟ ابراهيم الهلباوي

وكتب الى حموده بك ما يأتي

في كتابي الذي كتبته للاستاذ الشيخ عبد الكريم بعض ما ينبغي أن أقوله لك لمناسبة المصاب فى شيخنا الا كبر رحمه الله

وغاية ما أقول لك ان فزعي من هذا المصاب أقلق راحتي وسود الدنيا في وجهي حتى تركت أولادي في فرنسا وصرت هائماً أنتقل من بلد لأخرى ولما استطعت أن أمسك القلم كتبت اليوم الى الشيخ عبد الكريم ثم كان جوابي الثاني هذا الخطاب اليك أرجو به قبول عزائي وتبليغه أيضاً للسيدة عائشة وبقية أخوتك آل الفقيد والله يعوضنا فيه خيرا ويبقيك سنداً للعائلة والسلام م؟

الاحد ٢٣ يوليو سنة ٩٠٥ ابراهيم الهلباوي

تعزية الشيخ مصطفى عبد الرازق

وكتب الأديب الفاضل الشيخ مصطفى عبد الرازق نجل سعادة حسن عبد الرازق باشا الى جامع هذا الكتاب

حضرة أخي السيد الكريم

إن نبأ المصيبة العظمى بوفاة الأستاذ الإمام قد صدم القلوب صدمة زلزلت أركانها، وصدعت جوانبها، وأخذت منافذ الصبر عليها

(ليت الجبال تدكت يوم مصرعه دكاً فلم يبق من أركانها حجر)

خان العزاء وضاق الصدر، وجل الأمر، واشتد ساعد الجزع، وهرمت عزيمة النفس، وعثر جواد الأمل

(وفاضت دموع العين من كل عبرة إذا وردت لم تستطعها الأضالع)

وكيف لا يعظم الخطب، ويشتد الكرب، وتطيش الاحلام، وتشيب النواصي، وتميد الرواسي، وقد نزلت الفاجعة وفجعت النازلة وكان ماخفت أن يكونا

(دفعنا بك الايام حتى إذا أتت تريدك لم نسطع لها عنك مدفعا)

فقد الدهر غرته، والفضل جبهته، وغربت شمس الحكمة، ورزئت هذه الامة

(وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما)

تداعى جدار الدين، ومات إمام المصلحين

(وانثلم المجد به ثلمة جانبها ليس بمسدود)

(فالآن نخشى عثرات الندى وصولة البخل على الجود)

(٣٦ ج ٣ تاريخ الاستاذ الامام)

فجع طلاب العلم النافع ورغاب الفضيلة الصحيحة والمستعدون لوعي الحكمة . في مشرق ضيائهم، وموضع رجائهم ، وأشدهم بأساً على أعدائهم

(فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة أثني عليها السهل والاوعار)

(سلكت بك العرب السبيل الى العلا حتى إذا سبق الردى بك حاروا)

غلبت على النفس فورة الهم حتى أنكرت كل ماعرفت من شأن الصبر واسترسلت مع الاكدار واستعصت على الناصح ونسيت وعد الله للصابرين

(سأبكيك لامستبقيا فيض عبرة ولا راجيا بالصبر عاقبة الصبر)

واقد خشيت أن تجمح في بيداء الجزع فلا يردها راد ، ولا يصدها صاد، ولا يدفعها عن الغي رشاد ، لكن أبت عزيمة الاسلام، وأبي يقين ورثناه عن الاستاذ الإمام، إلا أن يؤب الرشد من غيبته، ويصحو العقل من سكرته ،على عظم الرزية، وشدة البلية

(هممت بأن لا أطعم الدهر بعده حياة فكان الصبر أبقى وأكرما)

فرضينا بحكم الله واستسلمنا لما جرى به القدر وقلنا مايقول الصالحون ، إنا لله وإنا اليه راجعون

(وقد فارق الناس الاحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كل طبيب)

وإنا وإن أخذنا بالحزم ورزقنا الصبر فما نحن بغافلين عن عهدة ولا ناسين من أبوته

(وكيف أنساك لا نعماك واحدة عندي ولا بالذى أوليت من قدم)

نسأل الله تعالى أن يهب الفقيد الكريم من رحمته ورضوانه خير مايهب عباده الشاكرين

رحم الله منك نفس كريم وقليل من النفوس الكرام

ونرجوه جل شأنه أن يمهد لك السبيل ويرزقك الثبات ويعصمك من الزلل ويسددك إلى الحق ويحيي بك آمالا كان يخشى الاستاذ أن تموت بموته، وتفوت بفوته ،وأن يوفقنا لنصرتك ، وتأييد حجتك ،والسلام عليك ورحمة الله

أبوجرج - في يوم الثلاثاء ١٥ جمادي الاولى سنة ١٣٢٣

وكتب الفاضل الموحد محمد أفندي عارف الذى لم يلبث أن لحق به (رحمها الله) الى جامع الكتاب

من حلوان في يوم الجمعة ١٠ جمادي الآخرة سنة ١٣٢٣

حضرة صديقي العلامة السيد محمد رشيد رضا الأفخم

السلام عليكم تحية مسلم لمسلم و بعد فأخبر حضرتكم أنه قد جف قلمي وماجفت دموعي من البكاء المتواصل والحزن الكامل على ساكن سويداء قلبي وغذاء روحي المرحوم الموحد الاستاذ فقيدنا أسكنه الله فسيح جنانه حتى لقد اعتراني من أفول شمس حياته مرض مصحوب بحمى شديدة كادت تلحقني به عقب نوبة حزن ببكاء وعويل حيث اعتبر المرحوم أنه هو الجوهر الفرد وهو القمر المنير لذوي العقول الدرّاكة وآلت نفسي ان لاينفك حزني عليه حتى القى الله ويجمعني الله واياه فتأخري عن مقابلتكم ومشاركتكم شخصيا في الحزن والأسى كان بسبب المرض قوانا الله واياكم على احتمال فواعل هذا الحزن والكمد الشديد انه فعال لما يريد وانا لله وانا اليه راجعون

ولا يعزب عن فكركم السامي شدة حرصي على الحصول والوصول لكل مؤلفاته رضي الله عنه وكل شيء قيل ويقال فيه ممن قدره حق قدره ومقداره العظيم مع صورته رضي الله عنه فساعدوني ولاتحرموني من تلك الآثار النفيسة واني مستعد لبذل النفس والنفيس في هذا السبيل ومنتظر أمركم والسلام

وكتب الفاضل الذكي عبد الحميد أفندي زكي الضابط بالجيش المصري الى جامع الكتاب ما يأتي

الخرطوم في ١٧ يوليه سنة ٩٠٥

سيدي العزيز

أزعجني خبر وفاة المرحوم وأنا في طريقي عائد من مصر ففقدت صوابي وحزنت كما حزنتم وحزن جميع من هنا لهذا المصاب العظيم نسأل الله أن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جنانه ويعوض الاسلام والمسلمين عنه خيرا وان يكون لباقي وجودكم خير تعزية لهذا المصاب العظيم والفاجعة الكبرى وان تكونوا لنا وللمسلمين خلفه الرشيد (الامضاء)

وكتب الفاضل الأديب أبو المجد افندي من الخرطوم الى جامع الكتاب

حضرة الفاضل المحترم السيد محمد رشيد رضا

أخي أني أسأل الله ذا الجلال ان يلهمك صبر جميلا وعزاء جزيلا على المصاب العام والخطب الجلل بفقد محيي السنة ومميت البدعة وباثّ روح الحياة العلمية في هذا العصر الأستاذ الامام رحمه الله رحمة واسعة من عنده لأن هذا الرزء وان كان عاماً الا اني أعتقد ان لك منه الجزء الأكبر من التأثر لما كان بينك وبين الاستاذ من الروابط والصلات التي كادت أن تكون كصلة الأهل والعشيرة بل ربما ساوتها ولا أبالغ اذا قلت بل فاقتها والارواح جنود مجندة والنفوس لها استعدادات مخصوصة وفقك الله لاعلاء منار الدين ورفع معالم الهدى

محمد أبو المجد بكلية غردون

نموذج من التعازي البرقية

كانت البرقيات ترد كل يوم بالعشرات على حموده بك عبده أخي فقيدنا وعلى أشهر أصدقائه ومريديه لاسيما الاستاذ الشيخ عبد الكريم وهذا الفقير وهي على بنائها على الاختصار لا يخلو شيء منها عن تعزية الاسلام والامة كلها عنه كما ترى في المثال الآتي

أرسل الينا الاستاذ الفاضل الشيخ حسين والي أحد علماء الشافعية المدرسين في الأزهر البرقية الآتية من كفر سليمان وكان هناك :

السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار بمصر

بشارع درب الجماميز

أعزي نفسي وأعزيكم وأعزي الأمة الاسلامية (الامضاء)

وجاءتنا البرقية الآتية من الفاضل المحترم عبد اللطيف أفندي فهمي مأمور مركز شربين :

الشيخ رشيد صاحب المنار بمصر

تحسرت جدا والله لفقد ساكن الجنان امام الاسلام ومقر الحكمة وعم الحزن جميع الامة ألهمكم الله وإيانا الصبر الجميل (الامضاء)

وجاءتنا البرقية الآتية من الافاضل المشاراليهم فى أولها من دنقلا (السودان)

المنار بمصر

المدرس الأول والثاني والامام وعبد الله وعبد اللطيف يشاطرونكم الأحزان وعموم المسلمين بأنحاء المعمورة والخضري واسماعيل خليل بوفاة الاستاذ الحكيم.

نكتفي بهذه المثل من تعازي البريد والبرق التى كان يرسلها أبناء هذا القطر الذي يفخر بالامام على سائر الأقطار الى العاصمة وقد فاتنا كتاب بليغ أرسله أحمد فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر من أوربا الى حسن باشا عاصم فقرأه في حفلة التأبين فكان له من التأثير ماينتظر من مثل الكاتب فى شدة اخلاصه للمرحوم ومكانته من مريديه وبلاغته في القول والكتابة. وقد ضاع الكتاب نفسه فلم نر بدا من التنويه به في ختام التعازي المصرية

نموذج من تعازي الاخيار في سائر الاقطار

نبدأ ببعض ماجاء من سوريا لقربها فغيرها من بلاد المشرق ثم ببعض ماورد من بعض بلاد المغرب

كتب الكاتب البليغ صاحب السعادة الأمير شكيب ارسلان من بيروت الى الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان مايأتي

مولاي الاستاذ أيده الله

والله لاأدري ماذا أقول ولا أجد كلاما يشفي مابي من غليل الحزن ولاعبارة تفي بهول هذه المصيبة والله لاأكاد أصدق ان الاستاذ الشيخ مات بدون أن أراه وهو في الليل والنهار امام ناظري كأنه يعاتبني على تركي زيارته كل هذه المدة حتى فارق هذه الدنيا وأنا أؤجل وأسوف وأعلل النفس بالآمال. أيها الاستاذ منذ عقلت على نفسي لم أدر مصيبة عظمت عليّ مثل هذه المصيبة حتى لوقلت ان مصابي بوالدي لم يكن أعظم عندي لصدقت مع اني يوم وفاة والدي كنت شارخا وأنا الآن ذرّفت على الخمس والثلاثين وصرت كهلا وألفت نفسي المصائب ومايوازي حزني

على ارتحال الاستاذ الانامي على تأخير زيارته حتى مات ولم أره وكتبه عندي وهو يستدعيني ويستنجزوعدي . أيها الاستاذ أحس ان الدنيا قد فرغت بالنسبة لي وما فرغت هي ولكن فقدت منها من كان ملء قلبي وعيني ومن كان ذخري في الشدائد فالآن كأن الموجود غير موجود ومع كثرة الأعوان والأحباب أرى نفسي وحيدا واأسفاه هل الأحباب بكثرة العدد وهل في كل يوم صاحب كالشيخ محمد بل في كل عمر بل في كل دهر . قد فقدته مصر بل فقده الاسلام بل فقده الشرق ولكن خصصنا نحن من مصابه مالم يخص غيرنا وفقدناه مع الناس وفقدناه في أنفسنا انا لله وانا اليه راجعون . منذ بلغني هذا الخبر ما قويت أناملي ان تمسك القلم وهاأنا ذا الآن اكتب لك هذه الاسطر تعزية وأريد أن أشكو اليك بثي وحزني لأنك كنت أقرب الناس الى المرحوم فصدري ضائق والى من أفيض بما فيه من الحرقة والوجد ان لم تكن أنت . حقا عادت الدنيا في عيني أحقر من النواة واستوي عندي الماء والخشب وهان فما أبالي بالرزايا نعم أزداد حبا لمن كان يحب الأستاذ وأشعر نوعا اني اذا خاطبتك فكأني خاطبت روحا ثانية له لم تزل في الحياة واسأل الله أن يجعل العوض في سلامتك وهو تعالى المسؤول أن يجعل مقام استاذنا في أعلى عليين وان يجزيه خير ماجزى عباده الصالحين وأرجو منك أن تجاوبني لأتسلى بكلامك وان لاتعاملني على جفائي . والله لو عرفت واني لي أن أعرف أن أجل الشيخ قريب لتركت وطني ولازمته حتى ارتويت من مشاهدته وسماع حديثه . أهد سلامي الى الاخوان وما أشك أن ذكر الاستاذ حي وان الزمان لايزيده الا خلودا ولكن غيبة وجهه عنا لا يسدها شيء لاحول ولاقوة الا بالله . سأحرر الى حموده بك وأقبل وجهك الآن عن بعد ودمت لمحبك

تحريرا فى ١٦ تموز سنة ٩٠٥ شكيب أرسلان

وكتب العلامة الفاضل والانسان الكامل الشيخ ع . ب أحد علماء دمشق الشام الاخيار الى جامع هذا الكتاب رقيما قال فيه بعد رسوم الخطاب : وأتذكر الايام الماضية ، وما شاهدناه من عنايتكم الوافرة الوافية ، وفى حينها كانت شمسنا طالعة وضيئه ، وأيامنا بإمامنا وضيئه ، وفرحنا به متزايدا ، ودهرنا

لنا موازرا ومعاضدا ،فحسدنا الدهر عليه وغيبه عنا، وعوضنا عنه مدى العمر حسرة وحزنا ،وستر الثرى تلك الذات المصونة عن العيون ،وان كان ذكرها الجميل قد ملأ السهول والحزون، وأعلن بأنه فرد الزمان، ورب المعاني والبيان ،فلاحول ولا قوة الا بالله، ولا كان الا ماأراده الله،فهذا الذي شهدله فضله بأنه مليك الفضائل وقوله بأنه مورد البراهين والدلائل.فكيف لاتكون دموعناعليه ممزوجة دما،وقد أصاب عين الدهر به مرض العمى ، فلا عجب أن شق الزمان عليه فؤاده وقلبه، عوضا عن ان شق عليه جلبابه وجيبه ،أبقى الله ذاتكم وعوضنا خيرا ،والهمنا عنه رضىً وصبرا غرة رمضان سنة ١٣٢٣

وكتب الاستاذ الكامل والعالم العامل ... أحد علماء طرابلس الشام الى جامع هذا الكتاب رقيما قال فيه

سيدي الأخ الحميم ، أدام الله به النفع العميم ، وأيده بروح منه ... وبعد فإني لاأحصي لك ماحصل لي من عظيم الحزن والأسف وانصداع القلب لذاك المصاب الفاجع الأليم والرزء الفادح العظيم الذي أصاب كبد الاسلام وتلاشت دونه المصائب الجسام

أي ثلم في الدين أي انصداع فى سما الفضل أي خطب مهول
بوفاة الامام مرشد هذا الـ ـعصر شيخ الاسلام والتأويل

أسف يصهر الجسم ويذيب العظم ويفني مهجة الصبر بل * حزن مع الدهر لايبلى ويبلينا *فانا لله وانا اليه راجعون ولهذا المصاب عنده محتسبون فأعزيك وجميع المسلمين والشرق والغرب والعلم والدين والاصلاح بهذا المصاب العميم وأسأل الله تعالى أن يتغمدالاستاذ الامام برحمته ورضوانه ويجزيه عن الاسلام والدين ماهوأهله وأن يجعلك خيرخلف له تنشر علمه ورشده وتتبع هديه وجده وتنهج في الاصلاح نهجه فلقد أصبحت بفضل الله عليك موضع الرجاء ومطمح الآمال اذ كنت وارث علمه وخازن سره ومنتهى رجائه وثقته (وكان فضل الله عليك عظيما) إذ جعلك علمامن أعلام الدين وإماما من أئمة الهدى ونورا يستضاء به * وانا لنرجو فوق ذلك مظهراً *

وكتب العالم الضليع والكاتب البليغ السيد الشيخ عبد الحميد الزهراوي من حمص الى جامع الكتاب

عن حمص في ٣ جمادى الثانية سنة ١٣٢٣

الى الولي الحميم الرشيد الحكيم

إنا والحزن يساورنا لفي دائرة ضيقة اذا لمسنا الرّوح فيها لم نكد نحسه فكن لي عاذرا اذا رأيتني قطعت هذه الرسل المرقومة لأن سبيلها من القلب والفكر والقلم وحالة البريد مقطوع وطم هذا السيل اذ فاجأتنا تلك الفاجعة العظمى .

فاجعة لا أجد فيها قولا ، ولا أجد فيها عن الهلع حولا ، فمن كافني البيان فيها كلفني مالا أطيق ولن يجد لدي لطاعته سبيلا . كنا والامام يفيض على الدنيا سواطع أنواره في فسحة من الامل بانتشار الأصلاح الذي نعشقه وفي عزاء عن ضيق دائرتنا بسعة سلطانه فما حال رجائنا وقد طارت تلك الروح القدسية الى عالمها الأسنى .

نعم إن في قيام الولي الرشيد في هذا الامر لعزاء لمن كان نظره شاخصاً الي الأرواح دون الأشباح ولكن ذلك لا يدفع عن الولي (أطال الله بقاءه) ولا عن سائر الاخوان ألم هذا الفقيد العظيم ، وحسرة هذا الفراق الأليم . وما حال محب كان يرجو ان يرى طلعة ذلك الحبيب الكريم عما قريب فحال بينهما برزخ المنون ؟ قد والله ملئ الحشا حزنا وان كنت من الصابرين . واني لالتفت يمينا وشمالا فلا أجد الا من هو الجدير ان نعزيه بهذه الخطب ولكن كيف يعزي المصاب مصابا . سامحني حفظك الله بأبطائي عن تعزيتك فعندي مثل ما عندك في هذا الامر وأنا أخوك في السراء والضراء وأخوان آخران همالكم وارثان معنا هذا الاسف ، ومحافظان على آثار هذا السلف ، عنيت بهما الرفيق الكريم والصديق الحميم ، ولقد تشابه عليّ الامر فان أدري أبدأ بتعزيتهما أم بمباركة هذا الاخاء وتحبيذ هذا اللقاء ، أم بتعزية نفسي لاخذي سهمين أليمين العامّ بفقد الامام والخاص ببعدي عنكم ايها الاولياء وتعوق هذا الرجاء ، أم بتعزية العموم أصابهم من ذلك السهم العام . لأتركن هذا كله الآن فالبيان لا يواتيني اليوم وأبدأ

بأمر واحد غير هذين ذلك استمرار الشوق ولكن العوائق تترى ونحن اليوم في حال حرج كما أسلفت بيانه ولكننا لم نزل في موقفنا من الصبر والاناة والثبات حتى يفل جيش هدانا جيش ضلالهم والله مع الصابرين

هذا وقد رأيت من الواجبات أن أعلن الاسف لفقد الامام لما لمثل ذلك من الفوائد العائدة للاحياء ولما ان ذلك بعض ما يجب في مكافأة الاحسان فعمدت الى موحيات الشعر وأخذت نصيبي من لدنها كلمات تدل على ما أحس به فان لم ترزق رونق الصبغة الشعرية كغيرها فقد أغناها الله بسلامة الضمير الذي أملاها وأعاذها من كُلف تلك الزينة التي لامحل لها في هذا المقام فان رأى الوليّ رأيي في اضافتها لغيرها (من المقبولات التي سينشرها في دفتر خاص) فذاك وإلا فرأيه الاولى والأعلى. ولك التفويض بما ترى الأصلح في أمر التوقيع رمزا أو تصريحا ولا رأي لي معك في هذا ولكن لي ان أقول ان التصريح أقرب نفعاً في إباء الضيم الذي يسومنا إياه اناس لم يرعوا فينا معنى الانسانيـة ولا أخشى في اباء الضيم من مناقشات الحساب ، ولا أرجو في محادة الاثرة الا دار السلام . اللهم أرزقنا السلام وسلم و بارك على الاخوان الكرام م؟

تعزية من الهند

وكتب الامير السري والجواد الأريحي صاحب السعادة الشيخ محمد باشا عبد الوهاب أمير دارين رقيما من بمبي (الهند) الى جامع الكتاب وكان قد أرسل يسألنا عن صحة الامام بالبرق ودارت بيننا الرسائل البرقية بذلك وهذا نص رقيمه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من بمبي الى مصر في ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣

الى جناب الأجل الأمجد الأفخم الأخ العزيز العلامة الفاضل مدير مجلة المنار الاسلامية الغراء السيد محمد رشيد رضا المحترم

أحييكم تحية زكية والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وحال محبكم من فضل الله في خير وعافية لا زلتم بهما لقد انحلت العزائم وتغلبت الكآبة وتحكم الحزن

واشتد الالم وجل الخطب وعظم الرزء وكبرت المصيبة بورود البرق الخصوصي من حضرتكم لنا والبريد بعده ينعيان فقيد العلم والحلم فقيد الاسلام فقيد أهل الفضل من موافق ومخالف له في القول والاعمال فقيد اليتامى فقيد مصر فقيد الصدق والوفاء فقيد النصح والاخلاص فقيدنا الخاص شيخ الاسلام ومفتي الديار المصرية المرحوم الشيخ محمد عبده تغمده الله برحمته الواسعة ورضوانه العظيم ونسأله سبحانه وهو أكرم مسئول أن يعزينا به ويرزقنا وآله ومحبيه الصبر الجميل والاجر الجزيل ويعيض الامة والعلم والعرفان عنه عوضا نافعا واننا نعزي حضرتكم بذلك الفقيد العظيم تعزية خاصة لان حضرتكم من أعز أبنائه وعرفائه وأخص المقربين من فنائه وكذلك نعزي حضرة أخي الفقيد الشيخ حموده عبده وجميع عائلتهم وذويهم وألهمنا واياهم الصبر والسلوان محبك

محمد عبد الوهاب

﴿ تعزية من البحرين ﴾

وكتب التقي الفاضل والخير المخلص الحاج مقبل عبد الرحمن الذكير من وجهاء العرب في جزيرة البحرين الى جامع الكتاب

الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه والصلاة والسلام علي من لا نبي بعده

جناب الاجل الامجد الافخم سيدي العزيز السيد محمد رشيد رضا دام وجوده آمين

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام أولا السؤال عنكم ثانيا بلغنا ما كدر الخاطر وأدمع الناظر وفاة المرحوم المبرور المنتقل الي الجنان الحور مفتي الاسلام ومصباح الظلام العالم العلامة والحبر الفهامة الشيخ محمد عبده فلقد عظمت المصيبة وضاقت البسيطة فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم عظم الله لنا ولكم الأجر وألهمنا وإياكم جميل الصبر هذا حال الدنيا ومصير الاحياء لا لنا ولكم الا الرضا والتسليم على قضاه وقدره نسأل الله له الغفران ولمن يعزى به الصبر والسلوان، الحقيقة ان الفقيد ركن من أركان الاسلام رحمه الله رحمة الابرار، وأسكنه جنة تجري من تحتها الانهار، صلى الله على سيدنا محمد الخ (الامضاء)

﴿ تعزية من سنغافوره ﴾

وكتب النابغة الفاضل والاجتماعي الكامل الرحالة النبيل السيد محمد بن عقيل رقيما الى جامع هذا الكتاب من سنغافوره هذا نصه :

من سنغافوره الى مصر فى ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٣

الحمد لله على كل حال وفي الله عوض عن كل هالك وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله أهل الصبر والاتباع وسليلهم العلامة الجليل أخي الناصح السيد محمد رشيد رضا المحترم أسبغ الله نعمه عليه ووفقه لما يحبه منه وأعانه على كل خير آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وقد بلغنا نعي مجدد القرن الثالث عشر الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده أمطر الله عليه شآبيب رحمته وأسكنه بحبوح جنته وأخلفه على ذويه وخاصته والمسلمين أجمعين بخلف صالح وانا لله وانا اليه راجعون فعظم الله أجركم وأحسن عزاءكم وألهمكم ما هو الاحرى وكان لنا ولكم في الدنيا والاخرى ولقد عم الاسف أفئدة جميع المسلمين ومن عرف الفقيد من عقلاء الطوائف الاخرى والى الله المشتكى ولقد صدق شيخنا ابن شهاب في قوله

رزئت مصر لا بل الاسلام وأرتنا اقتدارها الأيام

ربنا يلهمنا إعداد أحسن زاد للمعاد بمنه وحررت هذا لاداء مسنون العزاء داعيا لكم بطول البقاء محرضا لكم على الجد فى نصر الشريعة المحمدية والله يتولاكم وبعين عنايته يرعاكم ولا قوة الا به وهو حسبنا ونعم الوكيل

ثم كتب الينا كتابا آخر في ٨ من هذا الشهر قال فيه :

« وقد تقدم اليكم كتاب تعزية في المصاب الجلل والخطب العظيم ولا قوة الا بالله وقد صلي على الفقيد بالمسجد السلطاني هنا بعد الجمعة جبر الله مصيبة الاسلام بمنه ثم اني رأيت في بعض الجرائد اقتراحا لبعض محبي مجدد العصر فى عمل صورة للاستاذ الامام الخ فلم يعجبني ذلك » الخ ثم اقترح هو طبع آثاره ونفثات يراعه وضمها الى ترجمته وكذلك كان

﴿ تعزية من جاوه ﴾

وكتب الفاضل الغيور الحسيب النسيب السيد محمد بن عبد الله الشاطري من بيتنزغ (جاوه) الى جامع هذا الكتاب رقيما قال فيه بعد كلام :

وهذا اليوم وصلت الجرائد المصرية معلنة بوقوع المصيبة العظمى والداهية الظالمة الظلما هو اخترام حكم القضاء بفقيد الاسلام والمسلمين وامام أئمة المصلحين المغفور له الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله رحمة الابرار وجعل قبره روضة نعيمه وأنزله من جنانه المنازل الكريمة عظم الله أجركم وأحسن عزاءكم وغفر له وألهمكم الصبر الجميل وجبر القلب العليل بالثواب الجزيل والامر لله إنا لله وانا اليه راجعون

يا رب واجمعنا وأحبابا لنا في دارك الفردوس أطيب موضع
فضلا واحسانا ومنا منك يا ذا الفضل والجود الأتم الاوسع

وعظم الامر على المسلمين في (بتاوى) و (بيتن زرغ) وصلوا عليه صلاة الغائب بعد أداء فريضة الجمعة »

﴿ تعزية من ايران ﴾

وكتب رب الفضل والعرفان أحد فضلاء ايران ميرزا جعفر بن الحاج علي أكبر رقيما الى جامع هذا الكتاب من تبريز هذا نصه :

تبريز ٢٥ شهر جمادى الثانية سنة (١٣٢٣)

حضرة الفاضل المعظم والعالم الكامل السيد محمد رشيد رضا صاحب (المنار) المحترم

نعب الغراب (ياللأسف) مصاب الحبر الجليل الشيخ النبيل العلامة النحرير الحكيم الشهير ركن العلم والادب وقوام المكرمة والحسب ذي الفضل الهمام الاستاذ الامام الشيخ (محمد عبده) عظيم مصر فأودع خبر وفاته في القلوب حسرة وكآبه وسلب من العقل رشده وصوابه أوقع محبيه في لوعة الغم والتأساء فاسترسلوا الى الحزن والبكاء

كيف لا وقد قضى رجل عظيم صاحب المآثر . (وقد كان للأسلام أكبر ناصر) . كان يدافع عن الاسلام بالتحرير واللسان ويخدم الملة في السر والعيان مات (وكل نفس ذائقة الموت) ولكن (هيهات أن يأتي الزمان بمثله الخ) مات ولن يموت ذكره ، ذهب وباق في صحائف الزمان اسمه ، قال عز من قائل (كل شيء هالك الا وجهه) . ونعم ما قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام

الموت لا والداً يبقي ولا ولداً هذا السبيل الى أن لا ترى أحداً

فنلتمس من الحي القديم أن يعزي آله الكرام ويعزيكم على فقده ويلهمكم وإياهم جميل الصبر من بعده طالبين من حضرتكم ترجمة حاله في مجلة (المنار الغراء) وفقك الله لما يحب ويرضى

جعفر بن الحاج علي أكبر خامنه

﴿ تعزية من روسيا ﴾

وكتب العالم المصلح والغيور المفلح قاضي قضاة المسلمين وعضو الجمعية الخيرية العامل في أوفا (روسيا) رقيما الى جامع هذا الكتاب هذا نصه ؟

حضرة السيد محمد رشيد رضا سلمه الله تعالى وعافاه . قد كنا من زمان كثير نتوقع تشريف الامام الاستاذ مفتي الديار المصرية الى هذه الديار الروسية ولكن أبى الله الا حرماننا من تلك النعمة الكبرى . ومات ذلك الرجل العظيم وما قدر الله كان . جعل الله مقره الجنة وصب عليه مغفرته الجمة ولا حول ولا قوة الا بالله . ومُوصِل هذا المكتوب من تلاميذي الخاصة زكي أفندي وهو من مخلصي المنار هذا . ٢٤ شعبان سنة ١٣٢٣

رضاء الدين بن فخر الدين

﴿ تعزية من تونس ﴾

وكتب الاستاذ الفاضل والعالم العامل الشيخ طاهر بن عاشور من علماء تونس المصلحين رقيما الى جامع الكتاب هذا نصه

المرسى فى ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣

الى الاستاذ العلامة النقاد أخينا الشيخ سيدي محمد رشيد رضا

أقاسمك الاسف والغم على مصيبتنا ومصيبة الاسلام والعلم والحكمة بمفارقة استاذنا الذي كان علمه نزهة أبصارنا وذكره أنس نفوسنا . أقاسمك الاسى وان كنت أوقن أن ملازمتكم له وتمتعكم السنين بمشاهدة ذاته الشريفة التي هي مثال الفضائل والحكمة تجعلكم أشد شوقا اليه ولكني أرى نفسي من جهة تعطشي الى ما كنتم منه تشربون أشد منكم حسرة على ما عدمت وفاتني من مجالس الاستاذ والانتفاع بعلمه وحكمته وكلا ذينك سبب أسف وحزن فلا بدع أن يكون أسفنا متوازنا متساويا .

عرفت الاستاذ الامام معرفة شهود بتونس في سنة ١٣٢١ فعرفت من ملاقاته الاولى رجل العزم والإرادة والفكر و بلاغة القول وشدة الفراسة وتكافؤ القوى العملية والفكرية حتى لقد كان من سكون نفسي اليه وإلفتها به واعتلاق صداقته في أمد وجيز ما يكون مثله في السنين الطوال فصارت ذكراه تفعل في نفسي فعل ذكرى والد رحيم فلا تسل عن أسفي وآلامي التى رماني بها بريد منعاه فبقيت يوما كاملا لا أستطيع حركة فكرية تسبح بي الكآبة فى بحار من الفكر الساذج وتهيم بي فى أودية من الحزن واليأس ولقد كنت من جلالة الخطب كمن لم يصدق بذلك الخبر الأليم ثم ثاب اليّ بعض الرشد ففكرت في حال الاصلاح بعده ولم أملك عبراتي عن التساقط عند ما قرأت أبياته الاخيرة الدالة على أنه كان يفكر في الاصلاح في ساعة لا يذكر فيها المرء غير نفسه

يكون الاسف في عادة النفوس على المصائب جديدا فاذا خلق المصاب رث الاسف ولكن ذلك الاسف عن الشوق الى ذات فاما أسفنا على الاستاذ

الامام فلا شك أنه يجد كلما حارت الافهام في المشكلات وخارت القوى في مقاومة البدع وجراثيم التأخر

يقابلني تمثال الاستاذ الامام في منزلي مرات وأذكر كلماته وتفاسيره مهما قرأت سورة في صلاتي فكان ذلك يهزني فخرا ويجدد فيّ روح النشاط والعزيمة فصرت الآن يزيدني ذلك كله أسفا على أسفي وغما بعد غمي حتى سئمت الحياة وصغرت في عيني الدنيا بأسرها .

أردت مشاركة المشجيين على الامام وأنتم منه بمنزلة الابن البار من الوالد النصوح ولذلك عزمت على البدار بمراسلتكم لابوح لكم بمقدار أسفي ويأسي ومرارة الحياة في فمي ولكني شغلت عن ذلك (أولا) بعجزي عن إعمال شيء ما لامتلاك المصيبة جميع قواي (وثانيا) بشغلي في تحرير ترجمة الاستاذ مع كلمات تأبين تعرب عن بعض مقداره لمن كان بعيدا عن استكناه عظمته وأنفذت ذلك لينشر في صحيفة ... ليعلم الناس أن أهل الاصلاح والنصيحة لا يعدمون نصيرا يعترف بمقدارهم ويقتبس من أنوارهم ولقد تم لي ذلك في يوم وسترونه في هاته الجريدة . رأيت هذا المصاب العظيم قد اهتزت لنبإه نفوس الاحياء من أصحابنا التونسيين فطفق متنوروهم ومحبو الاصلاح منهم الى نظم تأبين للاستاذ الامام وكان غالبهم يسلمه اليّ .....

ولقد اقترحت في آخر ما كتبت على من له انتساب الى الاستاذ الامام (رحمه الله رحمة واسعة) أن يسعى في جمع آثاره وأنتم أول مريديه والمنتمين اليه فلهذا أكرر بلسان الاخوة عليكم هذا الاقتراح وأرجو أن تسعوا بالقرب في طبع جميع تآليفه وآثاره ورسائله الادبية والعمرانية العليا ولو باكتتاب عمومي كما يفعل أهل أوروبا في تآليف وآثار عظمائهم

وأن تفضلوا لنا في المنار تاريخ حياة الاستاذ ومهام أعماله وتعددوا لنا تآليفه ما عرفنا منها وما لم نعرف وأن تتفضلوا بإعلامي خاصة هل توجد أعداد جريدة العروة الوثقى التي كان يحررها الاستاذ الامام فاني لا أملك منها الاعددا واحدا

زادني شوقاً الى جمع قرنائه اليه وأن تخبروني هل كتب الاستاذ شيئاً في رحلته الى الجزائر وتونس والاستانة وغير ذلك من البلاد

وفي ختام قولي أرجو للمنار تقدماً ولجنابكم عمرا طويلا فإن بحياتكم وتقدم المنار تحيا مباديء الاستاذ الامام وأرجو من الله أن يجمع كلمة المنتحلين الاصلاح وينبههم برزية امامهم الى وجوب التفافهم حول مباديه عسى أن يصلوا الى ما كان يرجيهم اليه وتقبلوا أطيب التحية وأزكى التسليم من حليف أخوتكم

طاهر بن عاشور

﴿ تعزية من صفاقس ﴾

وكتب العالم النير الذهن البصير القلب الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس الى جامع الكتاب ما يأتي

بسم الله الرحمن الرحيم — ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم : ما أعظمها رزية رزئ بها الاسلام والمسلمون فإنا لله وإنا اليه راجعون

سلام أيها الأخ الكريم ، وعزاء في هذا الخطب الجسيم ، خطب ينفد معه الصبر والجلد ، ويتضاعف به الاسى والكمد ،

كل الخطوب وان تفاقم أمرها هانت وهذا ما أراه يهون

كيف يهون وهو نعي ذلك الامام العظيم ، والاستاذ الحكيم ، والمصلح الكبير ، والعالم الخبير ، ذلك الذي كان الاسلام يرجو أن يرتفع به مناره ، والعلم يأمل أن تسطع في الخافقين أنواره ، ذلك الذي زحف بجيش إقدامه على البدع والأوهام ، وفتح ميادين حصون أسرار لم تسبق اليها الافهام ، ولا غرو فقد جرت سنة العناية الالهية أن تختص من شاءت بالاختصاصات العلمية ولذلك يأتي الآخرون ، بما لم يأت به الأولون ، ولقد أتى هذا الفقيد المقدس من الأقوال والأعمال الجليلة ، بما أجمع به القوم انه رجل الدنيا وشمس الفضيلة ، لسان بالحكمة ناطق ، وعزم في احياء الدين صادق ، وثبات في تأييد الحق ، وكمال في صبر على أذاية الخلق ، فهو القائم بوظائف الوراثة النبوية ، والحريص على دينه

وأمته حتى في آخر أدواره الحياتية ، كسا الله تلك الروح الزكية خلع الرضوان والشرف ، وعوض المسلمين من ذلك الكوكب النير خير خلف ، وأفاض صبرا جميلا على المعاهد العلمية والخيرية ، وعلى الآل والاصحاب وكل من عرف مرتبته الكمالية ، (الامضاء)

﴿ تعزية من الجزائر ﴾

وكتب الينا أحد فضلاء الجزائر (ع . ز) ما يأتي :

الحمد لله واليه المآب

انا لله وانا اليه راجعون ، قد أصاب العالم خطب عظيم ، وحزن جسيم ، فبكى الانسان واستبكى ، ولبس ثياب السواد الحلكى ، لوفاة الفاضل الاكمل ، والكمال الأجل ، من أعاد المكارم فأحيا رفاتها ، وأنشر أمواتها ، فيلسوف الاسلام ، وعلامة الأنام ، أستاذ الاساتذة ، المغفور له مولانا الامام مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده أسكنه الله فسيح الجنان ، وألبسه حلل سندس الرضوان ، آمين آمين آمين

وعليه بعد تقديم التحايا والسلام لحضرة المحترم الزكي الشيخ محمد رشيد رضا مدير مجلة المنار الاسلامية فاننا ندعو لكم ولحضرة اخوان المرحوم وأبنائه وأحبائه بالصبر الجميل ، وأقوى الثبات الجزيل ، وأن يجعلكم الباري تعالى خلفاءه قائمين مقامه في سلوك طريقته التي كان رحمه الله قاصدا بها احياء الاسلام و بث العلوم ونشرها . وها نحن حامدون الله حمدا لا غاية لحده ، ولا حصر لعده ، على ان منّ الله علينا برؤية حضرته الغراء ، وطلعته الزهراء ، في السنة الماضية في أيام الراحة في فصل الصيف ومكث عندنا عشرة أيام وحاضرناه وشافهناه وظللنا معه فى تلك الايام كل يوم وسامرناه ومسارح الاشباح نابغة بالفرح والسرور ، ومخارف القلوب يانعة بالابتهاج والحبور ، ونلنا منه في تلك الايام القلائل ماشاء الله ان ننال . وخاطبنا بخطاب أشهى من طعم الضرب ، بأفصح كلام العرب ، ترى الدر يقطر من عذبة لسانه ، فيبريء الانسان من أحزانه ، وكشف لنا عن

دقائق المسائل ، والناس حوله بين مصغ وسائل » — الى أن قال —

« وبالجملة قد أصبنا في هذا السيد العظيم حتى كاد يقع لبعض الجزائريين ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب في موت خير الأنام حيث قال للناس من قال منكم مات محمد أضرب عنقه » — وساق الحكاية وذكر أن بعض العلماء لا يزال ينكر موته الى وقت ارسال الكتاب — ثم اقترح « نشر محرراته وجميع مافاه به في حياته لتتم فائدة الجميع »

﴿ تعزية من أوربا ﴾

وكتب العلامة الطويل الباع . الواسع الاطلاع . الدكتور أدورد برون الانكليزي المدرس في مدرسة كمبردج الجامعة كتابا باللغة العربية التي يتقنها الى حموده بك عبده هذا نصه

في ١٦ آكست سنة ١٩٠٥

سيدي الفاضل المكرم : لاأعلم بأي لسان أعزيكم وكل المصريين بل كل المسلمين بل كل العالمين على هذه المصيبة العظمى التى عمت الناس كلهم أجمعين وخصت المصريين ومنذ ورود هذا الخبر الهائل رب يوم أردت أن آخذ القلم بأصابعي لكي أعرب عما في القلب من الحزن والغمّ الشديد ووضعته يأسا وعجزا لان هذه المصيبة وراء الكلام

خبرٌ منّا نابنا مصمئلّ ... جلّ حتى دق فيه الأجل

ياسيدي فى مدة عمري رأيت كثيرا من البلاد والعباد ومارأيت مثل الفقيد المرحوم قط لا في الشرق ولا في الغرب فوالله كان وحيداً في العلم وحيداً في التقوى والورع وحيداً في البصيرة والاطلاع على ظواهر الأمور وبواطنها وحيداً فى جميل الصبر وخلوص النية وحيداً في البلاغة والفصاحة عالماً عاملاً محسنا ورعاً مجاهداً في سبيل الله محباً للعلم ملجأً للفقراء والمساكين

شامساً فى القرّ حتى اذا ما ... ذكت الشعرى فبرد وظل

كيف أصف بهذا اللسان العاجز هذا الرجل الوحيد الفقيد الذي كنت

أفتخر بان أحسب من أقل تلامذته انما أرجو من سيدي أن يقبل مني تعزية من قلب حزين غير قابل للتسلي على هـذا الفقدان العظيم، أريد ان شاء الله أن أكتب شيئاً باللغة الانكليزية في ترجمة حال الفقيد وقد جمعت كل ما وجد في الجرائد العربية في هذا الباب وأرجو من حضرتك أن تعينوني في ذلك بارسال الترجمة الموعودة في المؤيد اذا طبع على حدة لكي أستفيد بما فيه من المعلومات فتقبل ياسيدي المكرم في الختام اخلص تعزيتي وأذكى السلام المخلص

ادوارد برون

(أقول) لما اطلعت على هذا الكتاب أرسلت الى هذا الفاضل ما كنت نشرته في المنار من ترجمة الإمام (والمؤيد لم ينشر ترجمته) ووعدته بإرسال ما سأكتبه بعد ذلك فكتب اليّ ما يأتي :

في يوم الخميس ٣٨ دسمبر سنة ١٩٠٥

حضرة العلامة المفضال

لقد تشرفت منذ أسابيع بجوابك الكريم ونسخ المنار الثلاث المشتملة على ترجمة حال فقيدنا العديم المثال وقرأت ما كتبت في هذا الموضوع الشريف وفرحت كثيراً بما رأيت ان هذا كلام شاف واف كاف صادر من ضمير منير يطلع على كل ما يتعلق بالمطلب ظواهره وبواطنه ونيتي ان شاء الله اذا رأيت حضرتك ذلك وسامحتني في ذلك أن اجعل ما كتبت بقلم الصدق وبنان الاخلاص أساساً واصلاً لما أريد أن أكتبه في ترجمة هذا الرجل العظيم التي أريد أن أكتبها باللغة الانكليزية فوالله ما رأيت في جرائدنا في هذه الواقعة العظمى والمصيبة الكبرى الا ما استحيي عن نقله الى حضرتك بسبب عدم كفايته وقلة اطلاعه على بطون الأمور كأنهم زعموا أن هذا الاستاذ الاكبر الذي كان في زماننا مثل الاكسير عديم النظير كان كاحد السياسيين القشريين ولكن من حيث ان حضرتك طلبت مني كل ما كتب في هذا المطلب في جرائدنا فأني مرسل اليك بمقالتين مارأيت في الجرائد الانكليزية غيرهما يعني مقالة مأخوذة من جريدة التيمس المؤرخ يوم

السبت ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٥ ومقالة كتبها المستر هارولداسپندر فى جريدة الديلي كرونيكل واما سائر الجرائدالفرانسوية وغيرها فليس عندى شيء الا مارأيته عند صديقنا المستر ولفرد بلونت

أشكرك ياسيدي على حسن التفاتك الىّ وأرجو أن يحصل بيننا ملاقاة عن قريب ان شاء الله تعالى فانا دائماً اطلب فرصة لزيارة مصر مع ان نور مصر قد انطفى عن أنظارنا. أتمم هذا الجواب في كمال العجلة ، سلم كثيرا على كل أصدقائي

الداعي الحقير

ادوارد برون

هذا واننا نختم فصل التعازي بما كتبه أخونا الاعز حموده بك عبده في الجرائد شكراً للحكومة ولجميع المعزين وهو :

شكر للحكومة والامة

ان أكبر عزاء لنا عن فقيدنا هو مارأيناه من مشاركة الامة لنا في المصاب من جميع الطبقات وافصاحهم لنا عن ذلك بالمشافهة ممن حضروا المأتم و بالرسائل البرقية والبريدية من الغائبين في مدن القطر وقراهُ ودعاءهم لانفسهم ولنا بالصبر على هذا الرزء العام وان يعوض الله الامة الخير ويجزل لها الاجر فلا ندري لمن نشكر والناس يعزي بعضهم بعضاً و يدعو بعضُّهم لبعض حتى بواسطة التلغرافات ولا على أي شيء نشكر سوى انهم جعلوا دارنا أجمع محل لاظهار شعورهم وابداء تعازيهم ليكون حظنا من العزاء أكبر كما ان سهمنا في المصاب أوفر

واننا رأينا الامة شاكرة للحكومة السنية مشاركتها لها فى الحزن والاسف وقيامها بالاحتفال بالجنازة في الاسكندرية ومصر على أتم وجهٍ وأكمله ونقلها جثة الفقيد فى قطار خاص واستقبالهِ في محطة مصر فكان من الواجب علينا أن نعلن هذا الشكر للحكومة بالنيابة عن الامة على لسان الجرائد التى تفضلت بتأبين الفقيد خير تأبين والله يجزي الشاكرين حموده عبده

مراثي الشعراء

تذكر مرتبة على حروف الهجاء

حرف الهمزة

رثاء الامام فقيد القطر

الشيخ محمد عبده مفتي مصر

لحضرة الأديب الفاضل محمد أفندى أبو طالب من الاسكندريه

رحلت وما للمبغضين بقاء ... ومت وعيش الحاسدين فناء
وما الموت الا حلة في غضونها ... يغيب من يسعى اليه قضاء
وعنك أخذنا علم ان نفوسنا ... خوالد بعد الموت ثم جزاء
فللطيبات المحسنات لنوعها ... نعيم واما عكسها فشقاء
وأنت على ما يشهد العلم والهدى ... نصيبك في دار النعيم هناء
وذكرك في الدنيا يدوم مخلداً ... يجدده في البائسين ولاء
لقد قمت فينا للهداية مثلما ... أقام لنا من راحتيك عطاء
فبينت ان الجود للعلم صاحب ... وذلك مالم ترضه الفقهاء
فلم نر منهم قبل جودك محسناً ... يجاب به للسائلين نداء
فمن لفتاة مات ذخر حياتها ... وما ضاع منها في نداك رجاء
ومن لامرئ أخنى عليه زمانه ... فساعدته حتى استقام بناء
ومن لبلاد كنت فيها حياتها ... أحاطت بها من بعدك البرحاء

ومن لكتاب الله يتلوه شارحاً بما فيه للقلب السقيم شفاء
لئن سكبت عين الاماني دموعها فقد فاق عنها في البكاء سخاء

دمع الحزن على فقيد الوطن

لحضرة الفاضل الشيخ محمد زناتي الأزهري أحد تلاميذه الامام

أي شيء به يرد القضاء حسبك الدمع لا يفيد البكاء
ياعيون الاسى كفي بك حزناً قد نزفت الدموع وهي دماء
صبر قلبي علمت عهدك تصبو للبقا كيف نال منك الفناء

(ومنها)

أم نعي الحبر من به رزئ الدي ن وسارت بنعيه الانباء
منبع العلم معدن الفضل من كا نت تشير النهى له والعلاء
هو بدر العلا محمد المف تي اليه انتهي الحجا والذكاء
رزئ الدين فيه رزءًا عصيباً عطلت منه بيننا (الافتاء)
ليته كان في الحياة وتفنى قوم جهل حلومهم أهواء
حسبه في العلا فخاراً اذا ما فخر القوم عزة واباء
من لنا بعده بحلم وعلم كان يروي ماليس يرويه ماء
ليت شعري من ذاك مثل امام شاد قدراً كما يشاد البناء
كنت إن أشكلت لديَّ أمور جئته حلها وزالَ الغطاء

(ومنها وهو خاتمها)

قد أتاه مبشراه وقالا لك في جنة النعيم الهناء
نلت ما نلت عزة أرخاها نلت في جنة العلا ما تشاء
سنة ١٩٠٥ ٧ ٧٠٢ ٤١ ١٣٢ ٤٥٣ ٩٠ ٤٨٠

خطب الاسلام بوفاة الامام

مرثية لصاحب الامضاء الفاضل قال فيها بعد أبيات

فعلينا نوائب الموت هانت ... اذ ألمت بسيد العلماء
واكتست مصر نابفقد امام ال ... عصر ثوب الاقذاء والاكداء
كافل يلتجى اليه بركن ... شامخ مانع رفيع البناء
مرجف كل معتد بيراع ... يتراءى كصارم في مضاء
مرشد المعتفي بشمس بيان ... أوضحت في العلوم كل خفاء
كان فينا اذا دجى ليل لبس ... صاحب البينات والآلاء
يتمت مصر بعده ثم ضلت ... عن سبيل الهدى بموت الرجاء
وغدت وهي عاطل من سنا ال ... علم وجرت مطارف الظلماء
وعجيب تغتاله سطوة المو ... ت وكانت من بأسه في التجاء
فلعمري هذا مصاب جليل ... أورث المسلمين كل عناء

مرسي شاكر

وقال معدن الاخلاص والفضل الاستاذ الشيخ محمد بن القائد على الامام بالجامع الجديد في مدينة الجزائر

غاض بحر العلوم أين العزاء ... وعيون الانام سحب دماء
فبكى المسلمون حزناً عليه ... وبكى الدين والتقى والحياء
وبكى الفضل والفضائل طرا ... عن امام الورى يحق البكاء
عبده الفيلسوف أحيا قلوباً ... ميتات اماتها العلماء
حجة الله والرسول بعصر ... جاء يهدي أقوامه فأساؤا

فسر الذكر الحكيم بفهم عجزت عن أدائه البلغاء
وكتاب التوحيد فهو لدينا مغنطيس القلوب بل كهرباء
طالما كان ساعياً في صلاح المـ سلمين حتى اضمحل الرجاء

ومنها

عبده كنت بالجميل تربي صبية العلم والعلوم غذاء
عبده كانت المحافل تزهو والنوادي وأنت فيها سماء
عبده أين من يروم صلاحاً لاناس غووا وعز الدواء

وقال فى آخرها مشيراً الى زيارته الجزائر

قد سعدنا بزورة منه جاءت بسعود يفر منها الشقاء
كم سهرنا ومنه نلنا علوماً ما سمعنا بها ولا الآباء
لم تحط ألسن الرثاء بفضل لم تسعه الغبراء والخضراء
رب أنزل عليه وبل رضاء في رضاء فنعم ذاك الرضاء

﴿ حرف الباء ﴾

خطب الاسلام بوفاة الاستاذ الامام

للاستاذ الفاضل الشيخ حسين أبو علي محرر مجلة مكارم الاخلاق الاسلامية بالاسكندرية

نفوس بأيدي الحادثات تقلب وأقضية تأتي عليها وتذهب
تضللنا الآمال يلمع برقها وبرق الاماني لا أبالك خلب
فزعنا الى الآسي نداوي كلومنا فكان الردى البرء الذي نتطلب
وما زال باسم الطب في يد جاهل سلاح المنايا بالدماء يخضب

سكتنا وصم الدهر عن بث ما بنا ... وقام على هاماتنا الموت يخطب
أجدك لا ينفك جيش عرمرم ... لعزريل يغزونا فنبكي ونندب
وكيف وإن الشر بالشر يتقى ... نلوذ بأطراف الشعاب ونهرب
فأين العتاق الجرد فوق متونها ... كماة ببيض الهند تسطو فتغلب
وأين الانوف الشم والخلق الذي ... نفل به حد الخطوب ونشعب
غدا كل هذا في يدينا كأنه ... مخارق طفل في يديه تقلب
أجل ليس للسيف اليماني مضرب ... اذا ما بدا للموت ناب ومخلب
ولا للشجاع القرم عند نزوله ... بكلكله مما يحاول مهرب
ولا لجموع الاهل والصحب حيلة ... يرد بها سهم القضاء المصوب
برغمك مأفون يعمر سالماً ... وأحزم في سن الفتوة يعطب
واعلم وثاب الى كل غاية ... من المجد لا يلوي ولا يتنكب
يثير عليه الدهر حرباً فتية ... فيقضي ويبقى أخرق اومذبذب
وكم مرة ناواه جيش جهالة ... فأرداه لا يخشى ولا يتهيب
وما بالحسام العضب كان يفله ... ولكن بسيف الحق والحق أغلب
دهتنا الليالي السود فيه ولم يكن ... يضيء الليالي السود لولاه كوكب
وخلفنا حزبين حزب على هدى ... وآخر في تيه الغواية يدأب
فياليت شعري هل يثوب مضلل ... الى الرشد أم يعدي السليمين أجرب
بلى سوف يبدو الحق أبيض ناصعاً ... ويدنو منار الدين منا ويقرب
ويطلع من ذاك (المنار) مؤذن ... الى الله يدعو جاهداً ويثوب
فيسمعه من لم يصخ لندائه ... ويمحى من الاذهان ذاك التريب
(محمد) ان الله يختار (عبده) ... وليس امرؤ في الله مثلك يرغب

قضيت فما للموت بعدك مأرب وما للرزايا بعد رزئك مطلب
وقد كنت فينا أي شمس مضيئة بها انجاب عن وجه الشريعة غيهب
كأن الردى دهقان يبتاع أنفساً فأكرمها خيما اليه محبب
كان عيون الناس يوم نعيه جداول تجري أو سحائب تسكب
كأن الغفير الجم حول سريره خضم كأن النعش يعلوه مركب
كأنا وقد شقوا له اللحد شققت أضالعنا أو أضرمت تتلهب
وكدنا عليه وهو في القبر نرتمي فنتبعه حياً وميتاً ونصحب
كأنا وقد أبنا عن القبر جحفل تقهقر مذ أودى الرئيس المجرب
الا في سبيل الله روح سما بها الى الله من جند الملائك موكب
(فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المغرب)
لها هللت أهل السماء وكبرت وظل غراب البين في الارض ينعب
محمد لا يحزنك اعراض معشر محضتهم النصح الصريح فكذبوا
أقمت لهم نهجاً الى الله واضحاً يسيرون فيه راشدين فنكبوا
لهم اعين لا يبصرون بنورها وافئدة كالصخر او هي اصلب
ضلال قديم لا يريم صدورهم فسيان منهم ذو شباب واشيب
وجهل مقيم خيمت بعقولهم عناكبه والجهل للعقل يحجب
وأخلاق سوء سلمتهم زمامها قديماً فكل فوق عشواء يركب
وما هم سوى قوم لمجدك حسد اذا زدت قدرا أو علا بك منصب
حلمت وقد خفت عليك حلومهم فما كان الا ان نصرت وخيبوا
لئن مت يا محيي النفوس فلم تمت مآثر تبدو للعيون وتكتب
اذا رام يحصيها على الدهر حاسب قضى عمر نوح وهو لا زال يحسب

أزحت ظلام الجهل عنا فأشرقت ... سماء بلاد نجمها كاد يغرب
وخلصت دين الله من كل فرية ... وترّهة كانت الى الدين تنسب
فأنت امام الناس غير مدافع ... وأنت حكيم الشرق حين تلقب
عليك سلام الله ما لاح بارق ... وجادك هتان من الغيث صيّب

حسين أبو علي أحد تلامذة الفقيد

مرثية الأديب الذكيّ الشيخ أحمد ابراهيم أبو السعد البلقاسي الازهري

أيهذا المحب للاعجاب ... هل رأيت المآب غير التراب

ومنها بعد أبيات

غير أن الهداة ضلت ضلالا ... عند موت (الامام) عالي الجناب
كامل العلم شامل الحلم ندب ... علم الدهر همة الانجاب
راقب الله كيف كان فأعطا ... ه آله الانام فصل الخطاب
وتحلى بحكمة وعفاف ... لا بفضل الثياب والجلباب
وحمى الدين حقبة وتولى ... فبكى الدين بعده بانتحاب
أيها الحتف فت قشراً غليظاً ... واقتطفت الغداة لب اللباب
كيف يا حتف لا يروعك منه ... هيبة الليث بين خيس وغاب
أأراك ابتسامه لعفاة ... كابتسام البروق بين السحاب
أم له كنت بالجنان بشيراً ... غب ما جزت زمرة الحجاب
ان تكن مت يا حكيم فما الذكـ ... ـر بميت كميتة الهياب
أو يكن أوجز المؤبن قالا ... فصفات الحكيم في اسهاب
فلئن مت حقبة فسميري ... فكر شيخي الحكيم لا احبابي
ولئن مت حسرة فبكائي ... غسل جسم ومهجة في التهاب

﴿ رثاء الشرق ﴾

لأحد تلاميذ المدارس النجباء ص. ق

رأيتك يادهر تبدي العجب بفعلك إما ونى أو وثب
تدير المنيـة في ذا الوجو د فهي الكؤوس ونحن الحبب
تمزق أكبـادنا فجأة بأنباء حزن تشب اللهب
الا حسبنا داؤنا جهلنا ! فحتى م تصدعنا بالنكب ؟
وتفجعنا برجال الصـلاح رجال هم المصلحون الشعب

(ومنها) -

رزئنا بفقد حكيم الورى رزئنا بفقـد عليم العرب
امام عظـيم أقام سنين يهدي أناسا بعزم الدأب
اذا بث قولا لدى العالمين غـدا لفوائده في نهب
وتجعله سائر الحكماء سـميراً لها أينما تنقلب
ويروونه حكماً أودعت صحائف علم وصحف الكتب
وتدرس في كل قطر وفي بلاد بها النور لا يحتجب

(ومنها)

فيا كوكب الشرق أبدى سناً وما كاد يهديهـم أن غرب
ويامنبع الفضـل للمسلمين ما كاد يحييهم أن نضب
لقد أودعوك ببطن الثرى ولو أنصفوا أودعوك الشهب

عزاء الامة والشرق

للشاعر الاديب الشيخ ابراهيم الدباغ صاحب مجلة الالسانية

أردنا لهـذا الدهر غفر ذنوبه فجدد ماضيها بأدهى خطوبه

وسدد سهما ما تخطى فؤاده وأصبح لم يقنع بشق جيوبه
أصابت صروف الدهر خير رجاله ولا زال دأب الدهر حرب أريبه
ورب قناة لا تلين لغامز حمتنا فأرداها القنا بكعوبه
وما الدهر في حال السكون بساكن ولكنه مستجمع لوثوبه
فلم يرم الا هضبة العلم والتقى ويفجع الا غصنها بكثيبه
اناخ على ذاك الامام لانه تنزه عن زلاته وعيوبه

(ومنها بعد أبيات كلها درر)

اذا ما مضى صرف الزمان بليثه على غرة منا فويل لذيبه
أأمضى حسام يقرع الدهر كلما تلألأ نور الله بين غروبه
فرى قلب (هانوتو) وأوهى دليله ورد الى (رينان) مكر خلوبه
وماناو لولا أنت للدين لاكتست عمائمه الكبرى بعار معيبه
وأركبته المتن الذي هو مأزق نفضل دوس الجردون ركوبه
دوى صوته في الغرب والشرق زاريا علينا وأعلى منه صوت مجيبه

(ومنها)

لَفقدك فقد للعلى وسبيلها وموتك موت للهدى ودروبه
تود دراري الأفق لو أن دارها ضريح يضم المجد بين جنوبه
نعاك لنا الناعي وبات غرابه يقطع أوصال الورى بنعيبه
تعاظم رزء الدين فيك وساءه شماتة أهليه بموت نقيبه
فكم منبر شيدته لهداية تماثل للاقواء بعد خطيبه
وكم جاهل بالدين عالجت داءه فأصبح لا يوسى لفقد طبيبه
تركت الربوع الآهلات دوارسا واجفاننا كالغيث عند سكوبه
فلم يفقد الاسلام غير نصيره ولم يصطف الرحمان غير حبيبه

﴿ حرف التاء والثاء ﴾

﴿ فيض الأسى رثاء الاستاذ الامام قدس الله روحه ﴾

(بالمطرية — دقهلية)

لحضرة الاديب حسين أفندي عبد الفتاح الجمل من وكلاء البريد

ما للعيون دمعت　　مثل السماء أمطرت
ما للجموع ازدحمت　　هل النفوس حشرت
أم السماء انفطرت　　أم النجوم انكدرت
أم الاراضي زلزلت　　أم الجبال سيرت
أم البدور أفلت　　أم الشموس كورت
أم الامام قد قضى　　شهيد حرب كبرت
حرب العلوم والجها　　لات التي قد كثرت
نعم قضى فغربت　　شمس علوم بهرت
شمس تود الشمس ان　　تكونها لو قدرت
كان المعد للعدا　　وحربها ان شهرت
فمن لها ان أقبلت　　كالاسد اما زأرت
وكان للدين حمى　　اذا الرماح اشتجرت
يفعل بالآراء ما　　عنه السيوف قصرت
بالامس عزت دولة　　الاقلام حين انتصرت
كانت قبيل عصره　　مكسورة فجبرت
كانت مصابيح الهدى　　مطفأة فنورت
كانت ينابيع الندى　　غائضة ففجرت
كانت مغاني العلم في　　غنى به فافتقرت

كانت به معرفة بموته قد نكرت
فأصبحت تبكي فتى بمثله ما اشتهرت
يبكي عليه الشرق والـ غرب بعين فترت
هل في بني العلم فتى دموعه ما انحدرت
لو أنصفته النجم(١) من حزن عليه انتثرت
وجاملته الشمس اكـ راماً له ما سفرت
فأظلم الكون حدا دا لمعال دثرت
كان حياة أنفس لولا الرجاء قبرت
من الأيامى واليتا مى ويلها قد خسرت
لولا نهى الله عن اليـ أس النفوس كفرت
ليت الردى كان افتدا ه بالوف كثرت
فلو جرى لرضيت به وما تأخرت
يا أمة قد صبرت على اضطبار أجرت
الصبر حق والاسى فرض على من صبرت

رثاء الامام فقيد القطر (٢)

بفقدك بات الحزن للقوم ديدنا فلسنا نبالي من تغول الحوادث
وفيك رمانا الدهر فانهد ركننا ولاحت على دين النبي الكوارث

(١) النجم: الثريا وهو اسم علم لها

(٢) هذه المرثية لحضرة محمد أفندي أبو طالب الاسكندري وهو من عشاق المرحوم على انه لم يره وقد لظم مراثي كثيرة أراد أن ينشرها في ديوان مستقل فرأينا من الشكر له أن ننشر له غير واحدة منها.

ألم تك للاسلام سيفاً على العدا تحز رقاب البغي آن جد حادث
وتدفع عنه كيد كل مفاجيء فانت له عند الشدائد حارث(١)
فمن لذوي الحاجات والبؤس والعنا اذا مادعا يوما الى الجود باعث
ومن لكتاب الله يحسن فهمه فيقنع منه بالتفاسير باحث
ومن يتصدى المشكلات يحلها وتفحم تأويلاته والمباحث
خسارة أهل القطر فيك عظيمة وحزنهم من بعد بعدك ماكث
سيلبث فيهم مادعا الله سائل كما أنت في دار الكرامة لابث

حرف الجيم والحاء

رثاء الامام فقيد القطر

نختار من مرثية الفاضل محمد افندي أبو طالب الجيمية ما يأتي

مالي أرى دمع عيني بالدم امتزجا هل مات من منه كنا نأمل الفرجا
لا والذي أسكن الاستاذ جنته مامات غير أناس أسلموا المهجا

(ومنها)

فدع قشور مقال الحاسدين وخذ من لب اصلاحه الاسلام ماوهجا
من رد كيد (هنوتو) وهو في لجج من الضلال على الاسلام قد خرجا
ومن يداني امام الشرق في همم وكل ذي فطنة أمسى بها لهجا
فالله يرحمه تعداد أنعمه ويرزق الدين من يهدي به النُهجا

رثاء الامام فقيد القطر

(مرثيته الحائية)

كان الامام لدين أحمد حجة سطعت وكان فؤاده المصباحا

(١) يقال للأسد الحارث وأبو الحارث

لو يفتــدى ميت لتحيا أمة لغدا الفداء لشيخنا الارواحا
ما أصبر القلب الذي من بعده يحيا ولا يغني عليه نواحا
فمصيبة الاسلام فيه جسيمة اذ كان الدين الحنيف سلاحا
فلطالما سلب العداة نفوسهم وأعادهم من حربه أشـباحا
من ذا الذي ينسى (هنوتو) بعدما ملأ الفضاء بما افتراه صياحا
والله لولا الشيخ لم يك عالم ممن تراهم يستطيع كفاحا
أنسيت اذ شط اليراع بكاتب ظن ابن رشد جاحدا وأباحا
فمن انبرى للذود عنه بقلبه الا الامام فرده مرتاحا
هل كان قبل امامنا جمعية تهب اليتامى المسلمين صلاحا
ومن الذي بذل المساعي جمة لينال أزهرنا الرقي فلاحا
فلو أن ربي مد في أيامه لم تلق أفئدة الورى أتراحا
ولبان للسفهاء سوء فعالهم اذ يعلمون الحق منه صراحا
لكن قضى المولى بأن نحيا على حسد لمن يبغي لنا الاصلاحا
فجزى الاله الشيخ بالحسنى على تعب واسكنه العلى وأراحا

﴿ حرف الدال ﴾

قال الشاعر المطبوع الشهير أحمد افندي الكاشف

هل بعد خطبك أستفيق فانشد لا هيم وجداً أو تعود محمد
فارقت قومك والليالي صارم دانٍ الى أعناقهم يتهـدد
وتركتهم في الخطوة الاولى الى ما كنت تأمل فالقطيع مشرد
أين الضياء لهديهم أين الزلا ل لريهم لمساقهم أين اليد

ياويحهم والبر قفر شائك متزلزل والبحر مرغٍ مزبد
كنت الامام ومت مكبودا فما يدوى من الاحياء الا الاكبد
ما كنت تخشى عائقاً غير الردى لك في سبيل الله عما تقصد
تفتي بدافعهم الى نفاعهم فتعينك الفتوى عليه وتسعد
وتكون عدتهم ليوم جهادهم ان خانهم هذا الزمان الأنكد
وتفسر القرآن تسترعي به أبناء دينك عصرهم وتزود
وتجادل البلغاء عنهم بينما يخشى الجريء ويهمد المتوقد
وتروج اللغة الصحيحة فيهم من بعدما عشقوا الركيك فأكسدوا
وتقوم بالشورى اذا طاشت بها الاحلام توترها لهم وتسدد
وتؤلف الكتب الثمينة للورى تجلو قرائحهم بها وتجدد
ما كنت ترضى في الحكومة منصباً الا لتظهر كيف يقضي السيد
من للرئاسة والسياسة والعلى ان كان فيها ذو التجارب يزهد
لم تعطك الالقاب الا همة ملء الوجود وأنعم لا تنفد
فأريت أهل الشرق أن صلاحهم بنفوسهم لا بالملوك مؤكد
وأبنت للمغلوب علة عجزه ومراس غالبه فهم يقلد
من بعد ما أمضى الليالي خائفاً مترقباً أو ذا شكاة يحقد
وأضله نفر يرون نجاته في أن يسبوا من بغى ويعربدوا
وفقت بينهما فذو غرس كما ترجو وذو رزق يطيع ويحصد
ذكروا نصيحتك التي لو صانها زعماؤهم من قبل لم يستأسدوا
لولاك لا تبعوا العناد فقاتلوا واستهدفوا أو أذعنوا فاستعبدوا
فلو احتذى منهم مثالك خمسة عاد الفخار اليهم والسؤدد

يتطلب الدستور أقوام ولو وليت حكم شعوب قيصر أخلدوا
وغدا بود غلاته وحماته لو أطلقوا لك أمرهم وتقيدوا
وقضيت فيهم مستبداً عادلا فجمعت شملهم وأنت المفرد
وكسبت مالا يكسبن متوج صعب الشكيمة بالجيوش مؤيد

* * *

ولقد تغالى الناس في الشهوات لا يعنيهم في الكون الا المسجد
رانت على ألبابهم شبهاتهم في الدين فاتهموا اليقين وفندوا
وتوهموه مقعداً للناس عن علم وعن مدنية وتشددوا
وجروا سراعاً في فسيح ظنونهم وشكوكهم متخبطين فألحدوا
حتى اذا بلغوا المدى جادلتهم فأعدتهم مستسلمين فوحدوا
هل بعد ما حكمت عقلك فيهم يبقى من العقلاء من يتردد
أنصفت حتى ما يسر لمسلم متنصر حقداً ولا متهود

* * *

ما قمت بالاصلاح الا بعد ما قدرت قوة من يكيد ويفسد
وجعلت عفوك عن عداتك سنة للقادرين بها اليهم تعهد
ما الحرب تقتيل العدى لكنها نزع الحكيم من الورى ما عودوا
ما أنت في الهيجاء خصما فاتكا تسقي المنية كل من يتمرد
ما عذر ذي الثقة الكبيرة نفسه ان لم يجد عذراً لديه الحسد
وبأي طب يستطاع علاج من يستنكر البرهان وهو مجسد
ويرى التنقل في الممالك بدعة حين ارتحالك ناقداً تتفقد
من بات غيرك والخطوب محيطة بالمغرب الأقصى رقيباً يرصد

لو طال عمرك حقبة وصنعت ما أزمعت صغت ولاية تتبدد
أتهم بالاعباء عنهم ثم لا يرضيهم الا الخمول المقعد
ماذا يضرك ان أبيت النفع لو حجبتك دار عنهم أو مسجد
ما كان يبرد غلهم ياسيفهم حتى تبيت وأنت فيهم مغمد
ونطقت بالشعر الصراح مودعاً فتركته وهو الأجل الامجد
أيضيعه أحد وتلك وصية لذويه بالحق الذي لايجحد
هذي حياة الجد في القوم الأولى هزلوا وجد سواهم يتصيد
يا مكبرين محمداً سيروا على آثاره ان الطريق ممهد
اليوم يجلو الشعر عبرة أمسكم فاستجمعوا لغد يكن لكم الغد

رثاء المفتي

لحضرة الشاعر الاديب حسن أفندي صبحي (من طنطا)

مضى قضاء الله في عبده فما احتيال الناس في رده
لا حول للمرء ولا قوة تعصم فاه من ردى ورده
الموت سيف فوق هاماتنا آجالنا تجري على حده
كم آمن يخطر في أهله وحتفه يخطر في برده
وبارق أفرحك الدهر في ايماضه والحتف في رعده
قد احتسبناك أباً راحماً زعزع ركن الدين من فقده
على الذي الارزاء من عنده ونائبات الدهر من جنده
لنا بموت المصطفى عبرة مثلى وبالفاروق من بعده
فأنت مذ وارى حجاب الثرى جسمك ماس غاب في صلده

أو دوة درت الى لجة أو صارم رد الى غمده
رب رجال بل ذئاب عوت من زمن كنت أبا أسده
واستعبدوا الشرع لخررته حين أتى يرسف في قيده
عز عليك الدين اذا هان في قوم قضوا عمداً على مجده
عضوا على القشر بانيابهم كأجرب عض على جلده
وأفلتوا اللب فما أفلحوا وابتعدوا بالشرع عن قصده
هم أطاعوا أمر أحلامهم فأخرجوا الحق الى ضده
وطاعة الجهل على غيه معصية للعقل في رشده
فبعدك الفقه هوى ركنه وانفرط التوحيد من عقده

***

وقائل فسر لنا آية الـ موت فيالله من حقده(١)
اما كفاه ان خير الورى فسرها قبلك في لحده
مات كما مت فلم تفده رسالة الله ولم تجده
وان تمت بالداء مستعصياً فالداء لم يردك عن عمده
وليس في عزمك من حطة تزريك في عجزك عن رده
فالبحر لا يملك من نفسه في جزره شيئاً ولا مده
وحيلة العاجز في دفعه للموت كالمفزع من جهده

(١) يشير الى أبيات ثلاثة نظمها أحمد شوقي بك شاعر الخديو وأنكرها الناس عليه وهي

مفسر آي الله بالامس بيننا قم اليوم فسر للورى آية الموت
رحمت مصير العالمين كما ترى وكل هناء أو عزاء الى فوت
هو الدهر ميلاد فشغل فمأتم فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوت

ما اكفر الشامت والدهر لا يترك من شيء على عهده
من غره العمر فلا يغره بالناس ان الموت لم يرده
ما أسرع الدهر الى دأبه في نقضه المبرم من عهده
ايعاده أصلح من وعده وهجره انفع من وده
وبعده أقرب من قربه وقربه أبعد من بعده
جانبت داراً ظلها زائل وبت جار الله في خلده

وقال الاديب حسين أفندى عبد الفتاح الجمل

ياراحلا اجدى ترحله الاسى ومضى كما يمضي الغمام حميدا
ماذا تركت لمعشر عزب العزا عنهم نخلد حزنهم تخليدا
هل غير علمك في البلاد تعلة للنا هجين سبيلك المحمودا
ومن اتخذت على العلوم خليفة اني لأرجو أن يكون «رشيداً»

لسان الصدق

لحضرة الاستاذ الفاضل الشيخ حمزة الفقي

أرقت ولذ لي فيهم سهادي وهمت وقد تهنوا بالرقاد
سألت الوصل قالوا يا معنى معاد وصالنا يوم المعاد
وناديت القبور وقد أجابوا أهذا الحشر أم يوم التناد
رجعنا للرماد وكل حي وان بلغ السها فالى الرماد

(وقال عن لسان الفقيد)

رجعنا للتراب وقد تركنا لطلاب العلا سبل الرشاد
ومارسنا العلوم وقد أبنا لمن يرجو الهدى عين السداد

وقـد قمنا بجـد واجتهاد … وأوضحنا الحقيقـة للعباد
وعممنا المعارف في البرايا … وما قصرت في نقع البلاد
وقاومت الجهالة فاستكانت … ولي في أهلها أجر الجهاد
فللنا حدها بحسام عزم … يرد الخصم مفؤود الفؤاد
(فهانوتو) رأى رجلا كريماً … يذب يراعه عن خير هاد
ودين محمـد أقوى وأرقى … من التضليل أو نزق المعادي
وكنت أود لو جدلا تمادى … وكنت أريكمو عقبي التمادي
فملة أحمـد بالحسن تجلى … يرق للطفها قلب الجماد
واضمرت الصلاح لأهل عصري … فما فهموا وقد جهلوا مرادي
وحاربني الزمان ولن أبالي … ودست باخمصي شوك القتاد
ومذرمت الفلاح تناوشتني … بسهم اللوم ألسنة الاعادي
فيا مصر الا سيفة جاملينـا … وجري بعدنا ثوب الحداد
فلو دمنـا لدام العـلم يسمو … ولو عشنا لأصبح في ازدياد
وعار ان يسود الجهل بعدي … وأنتم نخبتي وذوو اعتقادي
فلا تهنوا فسيف العلم ماض … ليوم كريهة أقوى عتاد
وروحي بينكم كالضوء تسري … فلا يوهي عزائمكم بعادي
فجثماني بترب قد توارى … وسري بينكم كالشمس بادي
تركت لكم علومي فادرسوها … فمنها يستقي من بات صادي
وقابلت الاله بخير فعل … وحسن بضاعة وجميل زاد
وفلت خدني وشبا لساني … فويل للطروس وللمداد
وعدت عن الفضائل اجتليها … فيا لهفي وما كان اعتيادي

وبات عكاظها يبكي وينعي عميد الفضل أوقس الايادي
وبين جوانحي كنز ثمين أقول القول لا أخشى انتقادي

***

محمد كنت فينا خير داع لدين الحق زينة كل ناد
عليك سلام ربك ما تباكت كرام الناس من حضر وباد

وقال المؤرخ الاجتماعي والكاتب الشهير رفيق بك العظم

ان الأسى بعد هذا الخطب مفقود والمبكيات وان جلت أناشيد
ما بعد خطبك خطب نتقيه وهل يحس يوما بوقع السهم مفؤود
ياغرة الشرق ان الشرق في هرج وكل أهليه مذعور ومزءود
لما نعاك لسان البرق واضطربت لفقدك الارض واهتزت بنا البيد
وقيل هذا عميد المسلمين قضى والقوم من حوله باك ومعمود
لو ساومتنا المنايا فيك ما ظفرت بأنفسنا وفي الانفاس ترديد
لكن من عادها خطف الرجال فما يغني النضال ولا تغني المناجيد
من للارامل والايتام بعدك من لابن السبيل اذا آنبتت به القود
من للمشاكل ان مرت وليس لها الاك حين يقال اشتد تعقيد
أحييت قومك والاسلام واعجبي محيي يموت وميت الامس موجود
وكم فتك الخطوب الدهم فانقلبت وكل ذي شوكة ناواك مخضود
فما لعزمك فلته المنون وما لعلمك الحي وهو اليوم موؤد
وما لهمتك الشماء قد وهنت وغاض فيضك عنا وهو مورود
لله رزء أصاب الدين حين قضى مفتيه وانهد ركن منه معدود
قضى محمد والاسلام في دعة منه وكل رجاء فيه معقود

قد كان يصدع بالحق المبين فما يثنيه عنه من الاعداء تنديد
حتى جنى ثمر الاصلاح مغتبطاً فتح من الله أوتيه وتأييد
وناط بالله آمالا فأدركها كأنما هو بالتحقيق موعود
فاين منه شيوخ العلم قاطبة وأين من عزمه الصم الجلاميد
شجاعة وترامي همة لمدى هيهات تبلغه في نفسها الصيد
وحكمة نفثت في صدره فغدا يمدنا منه تفسير وتوحيد
يا راقدا في الثرى اوحشت قومك من علم وجود فلا علم ولا جود
أنبتَّ فينا نباتاً للهدى حسنا وسوف يأتي زمان وهو محصود
وجدت بالنفس تفنيها لتنفعنا كأنما أنت للاصلاح مرصود
فنم طويلا بعفو الله مغتبطا فأنت والله في الاحياء معدود
ومن يغادر ما غادرت من أثر حياته أبداً ذكر وتخليد
أحسنت في الدين والدنيا فنم وعلى جلال قبرك ظل الله ممدود

وقال الفاضل عبد الرحمن افندي عزمي بادارة بوستة الاسكندرية

عزاء على فقد الامام محمد عزاء على طود العلوم المشيد
عزاء على ركن من الدين قد هوى وبحر بأمواج المعارف مزبد
عزاء على حصن حصين ومعقل منيع وسيف للاآله مهند
تبدلت الايام حتى كأنها من الحزن في ثوب من الليل أسود
وحالت فمن ذا نرتجيه لغارة تطيش لها الاحلام في كل معهد
ومن ذا (يضيء النهج والليل قاتم) ويرشدنا للحق يا خير مرشد
رحلت وللعلم المبين مدامع تسيل وللاسلام لوعة مكمد
وردت حياض الموت جذلان باسما فأوردتنا حوض الانين المردد

توسدت أطباق الثرى لك مضجعاً فكم في الثرى من كل قلب موسد
وهل أنت الا كوكب يهتدى به اذا ضل عن نور الحقيقة مهتد
وهل أنت الا آية أرسلت لنا تبين آيات الكتاب المجدد

(ومنها)

فديتك هل ألفيت غير حشاشة تذوب أسى أو غير جفن مسهد
وغير زفير قد أكنته أضلع تراوح ما بين البكا والتنهد
دعوت اصطباري حين ولى فخانني وجدت بدمع كاللآلي منضد
وناديت قلبي والدموع غزيرة (رويدك لا تهلك أسى وتجلد)
فيا راحلا عنا الى خير منزل لساحته الابرار تهفو وتغتدي
حباك آله العالمين بفضله عن العلم خيراً أو شريعة أحمد
سنبكيك ما الشمس المنيرة أشرقت وما غيبت في الغرب عنا الى غد
وما صال ابطال اليراع وسددوا سهامهم في كل ناد ومشهد
وما لاح في الشرق الضئيل تطلع لنيل علاء في طريق ممهد
سنبكيك ما في الغرب قام معاند وأشهر نحو الشرق كل مهند
سكبنا دموع العين وهي عزيزة وكم من عزيز هان بعد محمد

يوم وفاة الامام نظم الابيات الآتية الوجيه عبد الله بك شريف عمدة صهرجت الكبرى بالدقهلية ثم طبعها ووزعها

أبا حنيفة لا دمعي بمنقطع حزناً عليك ولا همي بمحدود
قد مزق الموت ثوباً كنت لابسه من نسج حمدك لا من نسج داود
وقبل موتك لم نندب على أحد واليوم بعدك لم نحفل بموجود
وليس بعدك من يرجي لنازلة فانما أنت مفقود بمفقود

لورتل الدهر آيات أتيت بها لم نلبس الحزن من آياته السود
مازلت تدعوالى الرحمن مجتهداً حتى دعاك اليه خيرُ معبود

وقال الفاضل علي أفندي السيد بورشة العنابر بالاسكندرية

أسفناوهل يغني التأسف أو يجدي وقد فجع الاسلام في العلم الفرد
اذا ماقضي الله القضا فهو نافذ وان حمت الاقدار فالحر كالعبد
مصاب دهى مصراً بفقد حكيمها وأستاذها المشهور بالحزم والجد
فقدنا اماماً كان والله شاهد اذا عاش أغنانا عن الجيش والجند
هوى كوكب من مصر فاعتل جسمها وعم الاسى حتى علي الصين والهند

(ومنها)

كفاك افتخاراً انك اليوم آية ولست بذي ندٍّ وذكرك كالند
محمد قد ماتت عداك ولم تمت لان لك الافضال جلت عن العد
عرفناك لما ان نبغت وفتهم وفت الوري والشيء يعرف بالضد
لئن جحدوك اليوم والقوم حسد ففي غدهم لا يقدرون على الجحد
وبعد قليل يعرفونك مصلحاً فثم آمنا حتى ينادوك في اللحد
لبست لهم برداً يخالف شكلهم وكان الحجى والله في ذلك البرد
لقد نقموا جهلا عليك وما دروا بأن لباس الحر من حلل المجد
تصدرت للافتا فكادت صدورهم تشب بها النيران من شدة الحقد
وناصبك الجهال حتى عمائم كبار ولكن ليس فيهم أخو رشد
وهل فيه من لوم عليك وأنت قد بذلت لارشاد الورى غاية الجهد
دفعت عن الاسلام كل ملمة وأنت قوي البطش في الاخذ والرد
لقد كنت لا تخشى سوى الموت نازلا وحقاً فلم يفقدك شيء سوى الفقد

أضاعوك والاسلام في فاقة الى نهاك وكتب العلم تحتاج للنقد
تلاقى العدى بالحلم حتى اذا طغوا هجمت عليهم هجمة الاسد الورد
فان رمت فعلاً كان فعلك ماضياً وان قلت قولاً كان كالصارم الهندي
اذا ما رميت الخصم بالحجة التوى وأصبح ميتاً لا يعيد ولا يبدي
تعبت وأصحاب العمائم فى هنا وناموا وقرحت الجفون من السهد
وضعت لاعلام الشريعة مبدءاً قويماً وبات اليوم يخفق كالبند
فمن أنت موصيه فقد حار فكرنا ومن منهم يدعى وليك في العهد
فيا أيها المفضال هل أنت سامع وهل مصر بعد اليوم تظفر بالقصد
ويا فيلسوف الشرق ما أنت صانع وقد مت والاعلام كالطفل فى المهد
ترحلت والآمال فيك كثيرة وما ان لها من بعد بعدك من عود
سيذكرك التاريخ من بعد موتنا ويثني عليك الناس بالشكر والحمد
اذا ما رثتك الطيبات فانما رثاؤك شعري وهو أفضل ما عندي
عليك سلام المخلص الود والوفا فانك بعد الموت أخلص للود
هجرت شقا الدنيا وفارقت أهلها فلا زلت جار الله في جنة الخلد

وقال مؤرخاً

الله قد رفع الشيخ الامام الى جواره وحباه منتهى القصد
لما رقى قلت مما بي أؤرخه محمد عبده قد صار في الخلد

سنة ١٣٢٣ ٩٢ ٨١ ١٠٤ ٢٩١ ٩٠ ٦٦٥

وقال الشاعر الناثر الاديب فؤاد افندي سليم

لا تعذلاني اذا ما بت مفؤوداً فالخطب صير مني القلب معموداً
وخلفاني كسيف البال مكتئباً أبكي أسى وأقضي الليل تسهيداً

أبعدموت (امام الدين) يبسم لي | دهري وأبصر عقدالانس منضوداً
أبعد ماقد ثوى في قبره ومضى | أروم عيشاً وأبقى فيه مجدودا
مات الامام وفخر الدين فانقلبت | أضواءُ ايامنا من بعده سودا
من للمعارف والفتيا وربهما | أضحى بحكم قضاء الله مفقودا
من لليتامى ومن للبائسين وما | لغيره نسبوا الاحسان والجودا
من للمجالس والشورى وقد فقدوا | من كان فوق رجال العلم تسويدا
قد كان سيفاً بكف الحق منصلتا | فكيف أصبح في الارماس مغمودا
قد كان ركناً لدين الله يعصمه | فكيف أصبح هذا الركن مهدودا
جرى القضاء بأمر لا مرد له | وكان قبل قضاء الله مشهودا
فقدس الله روحاً منه طاهرة | وزاد ذكراه بين الناس تخليداً

كتب الينا الفاضل فؤاد أفندي مغبغب باشكاتب مديرية أعلى النيل بالسودان كتاباً وصف فيه حزنه على الامام وقال انه لسوء حظه لم يره ولكن قرأ له في مجلة المنار ما قرأ ثم قال « وقد بلغني الخبر المحزن وأنا أطالع كتاب الاسلام والنصرانية الذي لايمكن لاديب أن يقرأه سواء كان مسلماً أو نصرانياً بدون أن يعترف بفضل الامام الكاتب ويعجب من قوة براهينه وحجته. وقد كتبت الابيات المدونة بالورقة المرسلة مع هذا واني مقر بأنني لست شاعراً بل هذه أول أبيات نظمتها في حياتي» ثم خيرنا في نشرها وانا ننشر منها مايأتي شكراً لاخلاصه قال

وقع القضاء فخاب منا المقصد | وقضى الاله بأن يغيب الفرقد
فلذا ترى شمل الأسى كل الورى | ولطرف أهل العلم جاء المرمد
والكون قاطبة رثى لمصابنا | ومناقب المفقود بات يردد
بكت المكارم ربها وكذا النهى | وبكته كل الأرض حتى الجلمد

رب المعارف والفضائل والتقى — وامام كل الشرق كان محمد
لولا اتقاء الكفر والاشراك بالر — حمن كان له يخر ويسجد

وقال الفاضل محمود افندي خيرت احد معاوني الادارة من قبل وطلاب الحقوق الآن وقد حذفنا قليلا منها

خطب دهانا راع كل فؤاد — واضاع في الاسلام كل رشاد
فانهل محمر الدموع من الاسى — يحكي انهمال السحب وهي غواد
ولرب رزء يستخف به الفتى — فيمر مثل الطيف عند رقاد
لكن رزءاً مثل رزء محمد — كنز الفضائل ليس رزأ عادي
فلقد يكون بفقد فرد واحد — فقد يحل بسائر الافراد
يا أيها السمح الذي ضنت به — ايدي المنون وانهن عوادي
انا لنذكر ذلك الجهل الذي — دارت رحاه فساد كل فساد
حتى بعثت لنا لتهدينا الى — خير السبيل بحكمة وسداد
فقضيت أدوار الحياة مجاهدا — في محو ليل الجهل خير جهاد
ونشرت أنوار المبادئ بيننا — تختال في حلل من الارشاد
وأعدت للاسلام سالف عزه — فغدا بفضلك شامخ الاطواد
وتبسمت أعلامه خفاقة — في حين أخفق سعي كل معاد
يا أيها السند الذي خسرت به — في مصر روح العلم خير عماد
قد كنت هادينا الى سبل الهدى — ولقد ذهبت فما لنا من هاد
انا لنؤثر فيك أنفسنا فدى — لو ان داعي الموت يقبل فادي
ونصيح فوق ثراك ماعشنا المدى — لو كنت تسمع صوت كل منادي
ونذيب أكبادا عليك سليمة — لو رد روحك ذائب الاكباد

جفت مدامعنا عليك من الاسى وكذاك بعدك جف كل مداد
ورثتك أقلام بكفك لم تكن الا قذى في عين الاستبداد
ونعتك سوق العلم تندب حظها لما كساها الحزن ثوب كساد
وبكتك آيات الكتاب وقد قضى حامي معانيها من الاحقاد
ياقبر انك لم تضم محمداً جسداً لديك كسائر الاجساد
لكن ضممت الدين والدنيا وأخـلاق الكرام وصولة الآساد

﴿ مرثية للمرحوم العلامة الامام الشيخ محمد عبده ﴾

لحضرة الفاضل محمود فؤاد أفندي الحبالي بمجلس النظار نلخص منها ما يأتي

الروح تنأى ويقبر الجسد ونحن نمشي وبيننا الحسد
والناس قسمان ضل بعضهمو وبعضهم يصلحون ما فسدوا
ياراقد الجفن هل أمنت غدا قم نبه الجفن فالحمام غد
ان غدا بيننا لحاملة في الحي هلا علمت ما تلد
كنا وكان الامام سيدنا مابالہ سار وهو منفرد
قد طبق الافق ذكر حكمته وهو على الله عاش يعتمد
فلو شكونا الزمان من نوب اليه بات الزمان يرتعد
يكفيه ان الاله فضله والعدل فيما يقول والرشد
فليس للعلم بعده أحد وكيف يرجى من بعده أحد

وقال بعد تنويه باصلاح الدين واللغة وتعريض بمن عبثوا بهما

فارجع الى ربك الذي وسعت رحمته الناس قادر صمد
بجنة الخلد منك في جذل وان للمتقين ما وعدوا

رثاء الامام فقيد الشرق

وقال الشاعر المجيد محمد افندي امام العبد الشهير

فداك أبي لو يفتدى الحر بالعبد ... لان حياة الآل بعدك لا تجدي
نقمت على الايام بعد محمد ... وقد غدرت بي بعد ما حفظت عهدي
وكيف يطيب العيش للمرء بعد ما ... تلاعب ذاك الدهر بالاسد الورد
ذهلت فلم اعلم اماء غمامة جرى ... ام دموع العين فاضت على خدي

(ومنها)

مني النفس ان تبقى لترشد أمة ... ابى الجهل ان تهدى الى منهج الرشد
خلقت لها فاستعصمت بظنونها ... وسارت الى قصد وسرت الى قصد
فمن لكتاب الله اذ غالك الردى ... وغادرته كالفكر يسري بلا حد
ومن للهدى والعقل كالليل مظلم ... ومن للمعالي والفضائل والمجد
خرجت الى الاولى ببرد من السنى ... وعدت الى الاخرى ببرد من الحمد
ولو عرفتك الناس بعد محمد ... لما زعمت ان الهداية للمهدي
وكنت ذكاء ما اهتدوا بضيائها ... لانك كنت النور للاعين الرمد
تحارب أرباب الضلالة بالهدى ... لتبدل ذاك النحس في مصر بالسعد
وتركب متن الصعب من غير جحفل ... كأنك بالاقدام والرأي في جند
فيا دافنيه ما دفنتم محمدا ... ولكن دفنتم آية الله في اللحد
سئمت حياتي بعد موت محمد ... ولو أنني بشرت في الدهر بالخلد
فيا ثاويا في قلب كل موحد ... عليك سلام الله في القرب والبعد

وقال الاستاذ الفاضل الشيخ محمد جوده احد علماء دمياط والعضو بالمحكمة الشرعية الكبرى بمصر

هنيئاً لمفتى الديار بمصر بدنيا وأخرى سما القوم مجده
قضى عمره فى أشد جهاد وما الجاه او نضرة المال قصده
ولكن يناضل عن خير دين ويدفع عنه الردى ويرده
وما بارزته الاجانب الا تكلل بالنصر والفوز جنده
به ازهر العلم طاب جناه وفاح شذاه وازهر ورده
وكان به مجلس الوقف أعلى ومستخدموه اتى الكل رفده
له في القوانين منشور عدل فقوق اللوائح يخفق بنده
له صائب الرأي والامر شورى له باهر النصر والدهر ضده
له همم ترهب البيض منها فكم صارم ظل يخفيه غمده
له شيم كالحدائق لطفا حلت مشربا راق للذوق ورده
فتاريخه كله حسنات على صفحة العصر يقرأ حمده
أقام سعيدا ومات حميدا وراح شهيداً فلله سعده
دعاه آله كريم فلبي سريعا بفرط اشتياق يمده
فان ودعته الالوف فحدث عن الملأ استقبل الروح وفده
فكم من ملائكة في انتظار وكم من وصيف تهلل خده
بمقدار ما اشتد حزن البرايا تبسمت الحور وانسر لحده
سيلقى بدار الخلود جزاء ويشهد مالم تقدمه يده
رأيت الخلائق تهدي اليه من الاجر ما ليس يحصر عده
فمنهم أخ يسأل الله رحمى عليه وللذكر يشتد وجده

وآخر يهديه من حسنات ويحمل اصرا فيضعف جهده
نفائس تأتي اليه جزافا فيشرق منها على الجيد عقده
على انه كم عفا عن مسيء وسامح عن قدرة من يصده
ويا ربما اغدق الخير فيهم ووافاهم بالمبرات جده
فيا ربنا اغمر ثراه ببر فكم سار للبر واهتز قده
وعوضه عن عين شمس مقاما بجنات عدن يطب فيه خلده
اجاب نداك وقد أرخوه مضى لكريم (محمد عبده)
٨١ ٩٢ ٣٠٠ ٨٥٠
سنة ١٣٢٣

مرثيتان بتاريخين

نظم الفاضل صاحب التوقيع قصائد ومقاطيع في الرثاء في كل منها تاريخ أو تاريخان فاخترنا منها ما يأتي من قصيدتين وهو

الكون ممتلئ سوادا والشرع قد لبس الحدادا
والناس من هول المصيبة كلهم فقدوا الرشادا

(ومنها)

كيف التصبر والمنية خانت المفتي العمادا
مفتي الديار وقطبها علما وفضلا واجتهادا
بل عالم الدنيا الذي انقادت له الدنيا انقيادا
بل حجة الدين الحنيف اذا تكلم أو أفادا
بل آية الله التي حج الاله بها العبادا
من للشريعة بعده يرجى اماماً واعتمادا

أو من لوحي الله يظ هر من بواطنه المرادا
أو للفتاوى كلما زادت مشاكلها انعقادا
أو للتقى والوعظ والار (م) شاد لا يألوا جهادا
أو للعلوم يحل من معقول معناها القيادا
خلت الديار فليس بعـ د (محمد) نرجو عمادا
من قال لا فليأت بالـ برهان أو يذر العنادا
من ذا يطاوله وكا ن يطاول السبع الشدادا
ولقد أتى تاريخه في بيت شعر لا يحادى
طاف الردى بمحمد بسكندرية في جمادى

٩٠ ٢٤٥ ٩٤ ٧٤٦ ٩٠ ٥٨

سنة ١٣٢٣

مالقلبي عن السرور تجرد واستبد الأسى به وتفرد
قد دهى الناس هول يوم عصيب مس فيه الردى حياة {محمد}
ذلك المرشد الامين الذى اطـ لق بالهدي كل لب مصفد
ذلك المصلح الذي دأبه الرأ ب لما أنشأ الفساد وأوجد
ذلك العالم الامام فقيه الـ كون طرا ملاذ من يتشهد
الامام الجليل حجة أهل الـ علم ذو الاجتهاد في دين أحمد
الامام العليم مظهر سر الـ وحي مفتاح كل علم مؤصد
الامام الحكيم من كان للار واح طبا وللبصائر اثمد
فيلسوف الاسلام آية اعجا ز النهى مرجع الكلام الاوحد

التقيّ النقيّ محيي لنا الد (م) ين بروح من الاله مؤيد
صاحب الوقت حجة الله في العا لم رب الهدى السراج الموقد
لهف نفسي عليه اذ حملوه وهو في نفسه مسجى ممدد
حملوه على الرقاب يسيرو ن بطود من الرواسخ مفرد
حملوه وسار من خلفه النا س حيارى حسراتهم تتردد
حملوه الى مقام كريم ونعيم لدى الاله مخلد
كيف لا وهو قد أقام لدين الله (م) في الناس بيت عز مشيد
أيهذا الحكيم مالك في صم ت وعهدي بك القؤول المسدد
كنت فينا طلق اللسان جليل الا فعل عف المقال في كل مشهد
كنت فينا أبا اليتامى ومعوا ن الأيامى وذخر كل موحد
كنت فينا اذا هممت بأمر ماضي العزم كالحسام المهند
كنت فينا من الوقار مهيباً طيب النشر بالجلال مقلد
وحمام الامام خطب جسيم مطلق في الوجود غير مقيد
ليس يبلى ولو تقادم عهداً فهو فينا مدى الحياة مجدد
لا تأسى لنا ولو أرخوه في نعيم الخلود قرّ محمد
سنة ١٣٢٣ ٩٢ ٣٠٠ ٦٧١ ١٧٠ ٩٠

محمد فاضل

صاحب جريدة المطالب

وقال الاستاذ الاديب الشيخ مهدي احمد خليل من معلمي المدارس الاميرية

هوى فوق هام الفضل عرش من المجد وغاضت من الدنيا بحور من الرفد
هو الدهر يطوي كشحه عن ذوي النهي ويفتح حضنيه الى القعدد الوغد
وددناه أزماناً فعادى ومثله يجازي أعاديه على البغض بالود

وهــذي الليالي ما رمتنا وأنما رمت نفسها بالسهم في موضع الحقد
وما نحن غيبنا امرأ في غيابة من القبر بل علما دفناه في اللحد
خذوا قودا للفضل من بنت دهره فقد قتلت نفس المكارم عن عمد
فياليتني عوجلت بالموت قبله ويا ليت صرف الدهر أمهله بعدي
فهذي خطوب الدهر سدت مسالكي وذي نوب الأيام قدكدرت وردي
تنازعني في فقـده عامـلا أسى فجسمي في سقم وروحي في جهـد
ولي كبد محروقة من لظي الأسى ولي مقلة سالت دماء على الخـد
تولى فأجفان الأباطيل في كرى طويل وأجفان الحقائق في سهد
أذا ما بكى بالك بمصر لفقـده أجاب صداه في الشآم وفي الهنـد
أذا الشرق لم يجزع لموت إمامـه فقد آثر الشرق الضلال على الرشد
فكيف نرجي بعـده صفو عيشة بدار علا فيها الشقاء على الجـد
رجوناه للجلى فعاجـله القضا وقد ينبت الحرمان في غيضة الكد
رمينـا به الأيام فارتاع لبهـا وباتت أكف الحادثات بلا زند
تطيش نواحيه اذا سئل الجدى وتثبت أن أوفى على الأسـد الورد
حبته علوم الدين حمـدا وأنما يضوع بجو الجود عرف من الحمد
فمن بعـده الاوقاف تندب حظها ومن بعده الفتيا تنوح من الوجـد
وفي مجلس الشورى كآبة واجد على رجل الاصلاح والبطل الفرد
وجمعية الاسـلام تذرف دمعها على كعبة الآمال والنائل الجعـد
وذا الكون مذ سارت للحد ركابه تدثر في ثوب من الحزن مسود
لئن أرجع الرحمن للخلد عبـده فان مآل العاريات الى الرد
حياة المعالي في حياة محمـد وفي موته موت الفضيلة والمجـد
الى ساحة الرحمن سار مكرما ونحن بدار الهون نرسف في قيد
تباعـد في قـرب المزار. فأنه هو البدر يدنو وهو في منتهي البعد
أقام (بعين الشمس) فاشتاق بعدها الى منزل أعلى فسار الى الخلد
على قـبره غيثان غيث ترحم وغيث دموع فاض من مقلة(المهدي)

مرثية لفقيد الاسلام المرحوم الشيخ محمد عبده

من نظم الاستاذ الاديب الشيخ احمد الاسكندري من معلمي المدارس (ناظر مدرسة معلمي الكتاتيب بالفيوم الآن)

من الموت لا ينجو مسود وسائد ... فياشامتا في الموت هل أنت خالد
وهل أنت يا ابن الميتين تعاف ما ... تجرعه من قبل أم ووالد
بلى انه الانسان ينبت للردى ... فها ذاك محصود وذلك حاصد
وذو الروح بين الحل والعقد دائر ... من الطين يأتي وهو للطين عائد
ولو ان عبد المال بالعيش عهده ... لقام له من دون ربك عابد
لنا في رسول الله أحسن أسوة ... وفي آله الاطهار للصبر قائد
لئن بك مفتي مصر قابل ربه ... وآهل منه الرمس أروع ماجد
لقد كان يجلو الخطب والخطب دامس ... وقد كان ينكي الخصم والخصم حاقد
وقد كان بالاسلام يقترن اسمه ... ويقصد بعد الله والله واحد
وقد كان عضباً لا يفل غراره ... اذا ثوّب الداعي وعز المساعد
وكان اذا ما ضاح بالدين صائح ... وطافت عليه البارقات الرواعد
ونالت يد الاعداء منه وفوقت ... الى لبه منهم سهام صوارد
فما هي الا نفثة من بيانه ... يجيش بها صدر على الزيغ واجد
فكل فؤاد بين جنبيه واجب ... وكل لسان بين شدقيه جامد
فأسفر دين الله أبلج ناصعاً ... وشبهات أهل الافك عنه شوارد
عزائم أغنتنا عن البيض والظبى ... على حين أبلسنا ونام المجاهد
فمن لمريد الحق بعد محمد ... اذا خانه في الحق دهر مناكد
ومن لليتامى والارامل بعده ... ومن يتولى أمرهم ويساعد

فيا راحلا عن أمة لم يكن بها سواك يرامي عنهم ويجالد
لئن جهلوا بالامس قدرك بينهم وفيك سعي منهم غشوم وحاسد
لسوف يرون النائبات تنوشهم ولا دافع اذ ذاك عنهم وذائد
وسر حيث يرتاح الكرام فطالما جهدت وما يجدي المناحيس جاهد
وسر أنت مبكياً عليك من العلا باحسن ما يبكي حبيب مباعد

وقال الاستاذ الاديب الشيخ محمد عبد المطلب المدرس في المدارس الاميرية

الى الله في رضوانه سار (عبده) مجداً فأبكى أعين المجد فقده
بكى الشرق لما قيل أودى (محمد) بجفن من الاحزان أدماه سهده
بكت مصر من ابنائها بحر حكمة اذا مد يغشى سائر الارض مده
بكته السحاب الغر كان يمدها نداه الذي عم الانام ورفده
بكته الايامى والارامل من لها سواه اذا واراه في الترب لحده
بكته اليتامى والمساكين حسبهم أسى بعده ريب الزمان وجهده
بكت حلقات الدرس كانت مآثباً يشار بها أزيّ الكلام وشهده
بكى القلم الفياض جف مداده وقد كان من سحر البيان يمده
فيالبني الاسلام دعوة واجد بحر الاسى أفني الجوانح وجده
أغيروه قلباً لا يذوب لحادث أصيب به الاسلام واندك طوده
هوى كوكب العلياء غيبه الثرى ويا أسفي لا يرتجى بعد عوده
هوى بدر تم كان نوراً لقومه وسيفاً لدين الله واراه غمده
فكم من يد للدين أسدى وموطن تبين فيه للذي ضل رشده
وما نسي الاقوام موقفه الذي به رد (هانوتو) وقد ضل كيده

وكان يظن ابن الفرنسي انه … أتى بالذي لا يمكن الناس جحده
ويوم رمى الافرنج دين محمد … بمنكر قول أعجز القوم رده
وقالوا ضلالا دين ظلم وقسوة … قضى بهما فيه حسام وحده
فجرد فيهم مقولا ذا ذؤابة … صقيلا بنور الحق يزهو فرنده
وصال عليهم صولة رجعوا بها … يعافير دوٍّ تقتفيهن أسده
ومهما تعالى باطل بين معشر … وأيده جهلا على الحق جنده
فللحق سيف لو نضاه مدافع … عن الحق في صلب الحديد يقده
ولكن اذا لم يحمل الامر ناصح … خبير بسبل الرشد لم ير زنده
سقى الله قبراً حل فيه محمد … رضاء يظل الدهر ينهل جوده
وأنزله في حضرة القدس منزلا … يطيب له فيه نعيم وخلده
تولى وأكباد المعالي قريحة … عليه وحزن المكرمات أشده
وخلى الندى والعلم هذا دموعه … غزار وهذا ينفح الارض نده
فلم يرث أهل الدين والعلم مثله … اماماً ولم يخلفه في الناس نده
فيا ثاويا في لحده وهو روضة … يضوعه فيها عبير ورنده
يحييك ذو حزن عليك ولوعة … اليك بما يستطيع في القول جهده
تحييك بالرضوان والفوز أمة … لها منك ارشاد النصوح ورشده
ويا معشر الباكين حول ضريحه … سلاماً له يستغرق الحصر عده
فديناه لو أنا ملكنا فداءه … ولكن حكم الله ماض ووعده

﴿ حرف الذال ﴾

﴿ رثاء الامام فقيد القطر الشيخ محمد عبده مفتى مصر ﴾

من مراثي الفاضل محمد افندي ابو طالب الاسكندري

عم المصاب فكلنا أمثال ... مذغيبت أيدي الردى الاستاذا

سلبت به مصر أجل ذخيرة ... اذ كان فيها للعفاة ملاذا

قدكان يطمع في الحياة لكي يرى ... مصرا تفوق بعلمها بغداذا

فأبى عليه الجاهلون مراده ... ولكم تصداه السفيه وآذى

لكن بحسن تدبر وروية ... راحت قلوب معانديه جذاذا

من مثله أمضى الحياة مدافعاً ... عن دين أحمد هادياً ومعاذا

من مثله قرأ الكتاب مفسرا ... وعلى القلوب استحوذ استحواذا

من مثله في المكرمات وكفه ... أحيا نداها من به قد لاذا

ياليت شعري هل لذلك وارث ... يدعو فينقذ مصرنا انقاذا

ياليت شعري هل أرى من أمتي ... حبرا يكون فؤاده فولاذا

والله بعدك يا محمد لا نرى ... شيخاً لسيف عقولنا شحاذا

فعلى ضريحك يا امام سحابة ... تهمي عليه وابلا ورذاذا

﴿ حرف الراء ﴾

نظم الفاضل صاحب الامضاء هذه المرثية فاخترنا أوائلها وهي

ياناثيا بالله صبرا ... كيما تمتع منك مصرا

روعتها بالخطب إذ ... فاجعتها وأفلت قهرا

خلفتها في مهد عز (م) عم في الآفاق ذكرا

بين الحواضر كالعرو س تفوق أعلاهن قدرا
كم من يد بيضاء منـ ـك بسطتها وكشفت ضرا
بالجد كم أذخرتها من كل كنز فيك ذخرا
في الدين كم جاهدت اذ آتيتها بالعلم فخرا
هذا كتاب الله يز منك بالتفسير قدرا
أظهرت فيه حقائقا خفيت عن الابصار دهرا
بالحزم كم أجريت في مجرى السياسة منك بحرا
وقد ارتوى من فيضه قوم براح الذل سكرا
نهضوا ولكن ما لبثـ ـت اذ المنون دهتك غدرا
فتركتهم والغرب يضـ ـحك اذ أتته اليوم بشرى
والشرق يندب حسرة بغزير دمع سال نهرا
يا مصر كفي عنك لا يجدي الحزين الحزن أمرا
الا انحطاط عزائم كانت لعين (الحمر) سحرا
لكن (امامك) فيك أفـ ـلح حيث أنبت منك نضرا
خلفا له عوناً على التـ ـحرير والأقلام أحرى
فالناس بث العلم فيـ ـهم روح ذاك النهج عمرا
حتي بدت فيهم بشا ئر نهضة الاسلام بكرا
لله من أثر أضا ء بمصحف التاريخ شطرا
لك يا اماماً كنت قبـ ـل اليوم للتمهيد صدرا
فلقد أتاك الأمر من أعلاك واستدعاك سرا

ليت لكن في قلو ب الناس قدأضرمت جمرا
أسفاً عليك فكل اذ سان انتربك صب قطرا

أحمد شكري
بميت أبو الحسين (دقهليه)

﴿ رثاء الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ﴾

لحضرة الاديب حسن افندي السفطي بجمرك بور سعيد

لا تسل عن مدمعي كيف جرى فوق خدي يجاري الانهرا
ودع الاحزان لا تبقي على مهجة حرا عراها ماعرا
واطرح الصبر فقد حال الاسى دونه حتى غدا مستنكرا
أي صبر بعد خطب لم يزل جمره في مهجتي مستعرا
أي صبر بعد ان مات الذي لم يكن للدين (الاعمرا)
كان للاسلام منه ملجأ أقبل الدهر به أو أدبرا
كان للعافين جوداً صيبا وذوي البؤس سحاباً ممطرا
ما سمعنا قبل هذا الرزء ان تدفن الحكمة في بطن الثرى
من لنا بعدك هاد مرشد يرأب الصدع ويحيي (الازهرا)
من اليه تسند (الشورى) ومن يكسب (الافتاء) حظاً أوفرا
ماعهدنا قبل ان حل الاسى ان نرى بدر العلا مستترا
كنت للشرق حياة وهدى كنت في العصر تباهي الاعصرا

***

يا أبا الطيب إما شعرا وابن زيدون اذا ما نثرا
وابن ادريس بشافي فقهه وابن عباس اذا ما فسرا

أوقع الدهر بنا فانفطرت مهج سالت نجيعاً أحمرا
غالك الموت اماماً مصلحاً فغدا قلب التقى منكسرا
ليت شعري هل رأوا بعدك من يحسن السير ويحيي السيرا
في اعتقادي انهم لن يجدوا ولعمري كل حي سيرى
أمة قد فقدت واحدها فبمن تأمل ان تستنصرا
فقدت فيه شعوراً طاهراً بين جنبيه وقلباً أطهرا
فقدت فيه صلاحاً ظاهراً ونجاحاً في المساعي أظهرا
كم رأى الاسلام منه نصرة يوم لاقاه العدا فاستظهرا
عزمة وجهها الحق اذا وجهت تعنو لها أسد الشرى
همة كم حاولوا اقعادها فأبت ذاك الجمود المنكرا
وعلا لو نسب النجم له كان في جانبه مستصغرا
كيف أودى ذلك المجد الذي ملأ الآفاق حتى اشتهرا
كيف يقضي الحلم والعلم معاً رزئ الشرق فعاد القهقرى
تلك حال الدهر ما أبقى على أمة الا بها قد غدرا
قد ظننا العيش صفوا سائغاً وحسبنا الدهر يغشاه الكرى
فجع الاسلام في ناصره كل صفو بعده قد كدرا
طيب الله ثراه بالرضا قدر ما خلف فينا أثرا
يا بني مصر عزاء انني لا أرى الأيام الا عبرا

وقال الفاضل حسين افندي شفيق المصري

تردّ بثوب الصبر ان أمكن الصبر ومرني اذا بالصبر تم لك الاجر
واما وقد أبصرت دمعك جارياً يحوز بخارا كلما اشتعل الصدر

وكل امرئ يدعو ثبورا ونفسه تذوب فلا نهي علي ولا أمر

وقال في آخرها

فان حياة المرء بعد محمد عناء وبعد اليسر يستصعب العسر
لقد كان سباق الرجال الى العلى بحق ولا فخر هناك ولا كبر
اذا قال قال الناس قال امامنا وابطلت الآراء وانحسم الامر
ستندبه الفتيا اذا ضاق ذرعها وتندبه الشورى اذا مسها الضر
وتندبه العلياء والمجد والندى وتندبه الاقطار لا سيما مصر
فان نضب الدمع الغزير تحولت كبود الورى ماءً هو الادمع الحمر
ولو كان للاستاذ ند نخف ما نلاقي ولكن ليس كالجدول البحر
وهل يستوى الراوي الحديث بربه وهذا له قول وهذا له فكر
سلام على الاستاذ رضوان ربه عليه وان نهلك أسى فلنا أجر

وقال الشاعر الفياض خليل أفندي نظير المصري

أيود طرفك أن يبيت قريرا هيهات كلفت الزمان عسيرا
يا خاطب الدنيا حذارك انها تلد الخطوب عشية وبكورا
دارت على دارا وكم هي دمرت للملوك تدمر أربعاً وقصورا
وعدت لى عاد سوا بقها التي تركت سنا بكها الديار دثورا
كسرت لكسرى الصولجان وغللت سيف بن ذي يزن فعاد كسيرا
وتتبعت أثر التبابعة الذين تفيؤوا ظل الجلال دهورا
قصرت لها أيدي القياصرة الأولى كان الفخار عليهم مقصورا
قد أنذرت بالمنذرين وحذرت يابني ربيعة بعدهم تحذيرا
أمسى مهادهم الرغام وطالما تخذوا السماك أريكة وسريرا

ورضوا المنام على الهوان وقبله ... عافوا النمارق أن تكون حريرا
عرضت لهم سنة فلما استيقظوا ... كان الممات لحلمهم تفسيرا
سل عنهم هذا الصعيد فانه ... يدري الجواب ويحسن التعبيرا
كم ساورتني الحادثات ونفرت ... عن ناظري ذود الكرى تنفيرا
فوقفت وقفة اصمعي قلبه ... ندبا على كيد الزمان صبورا
حتى نعى الناعي الامام فلم يزل ... نبأ بتصديع الكبود جديرا
يا يوم قيل قضى وجاور رمسه ... لا زلت يوما بالاسى مذكورا
كم عبرة أجريتها وحشاشة ... شذبتها أسفا وهجت زفيرا
ودت نفوس أن تكون فداءه ... مختارة لو تملك التخييرا
أهون بكل مصيبة من بعده ... تدع الجليل من الخطوب حقيرا
يا جابرا كسر العفاة بسيبه ... اليوم أصبح جبرهم مكسورا
أمحمد مالي دعوت فلم تجب ... حتى الكلام رأيته محظورا
ما عذر عيني في الجمود وقد عرت ... نكباء تدع يذبلا وثبيرا
أبكي عليك بكاء ثكلى فوجئت ... بوحيدها وأراه فيك يسيرا
من لليتامى والايامى أصبحت ... تدعو على عظم المصاب ثبورا
ومن نقوّم في الشريعة أمرنا ... ان أحدثت غير الزمان أمورا
كم مجلس عطلته من هيبة ... وجلالة تدع الكبير صغيرا
كم موقف لك في الخطابة زانه ... لفظ يفصل لؤلؤاً منثورا
كم غمرة من بعد أخرى خضتها ... وخرجت منها فائزاً منصورا
لم يحسدوك وانما هم ضاعفوا ... لك شهرة بالفضل لا تشهيرا
لا تأس على عمائما نبهتها ... تضحو فتسعى سعيك المشكورا

ان يتبعوك فلا المفاسد تتقي … في ديننا أبداً ولا التأخيرا
شهدوا وقالوا صالح والله يعـ … ـلم أنهم لا يشهدون الزورا
لولا التقى لتخذت قبرك قبلة … ولكان حجي نحوها مبرورا
ولطفت سبعاً حوله أشكو الذنو … ب واكثر التهليل والتكبيرا
ان كنت فارقت الديار فانما … عوضت عنها جنة وحريرا
أو كنت غصناً صوحته يد البلى … فهناك تلقى نضرة وسرورا
والصبر أجمل بي عليك من البكا … لو كان أمر الصبر لي ميسورا

وقالت الأديبة الفاضلة زينب فواز

ياللرجال أرى المدامع تمطر … خطب دهانا فالمصيبة أكبر
تبكي المحابر والقلوب تفطرت … اذا مات مولانا الامام الأنور
حتى كأن الافق أظلم نوره … والراسيات لهوله تتفطر
حتى كأن الشمس يوم مصابه … وجلت وهذا الوجه منها أصفر
طود هوى والجمع صاح كأنه … في يوم بابل والمرائر تفطر
ما كنت أعلم قبل موت (محمد) … ان الثرى فيه بدور تقبر
فعجبت من تابوته حمل الندى … (وتراه لا يخضر منه ويثمر)
وعجبت كيف الماء راق لغسله … والمجد يبكي والمدامع تمطر
هلا تغسله دموع أذرفت … لمصابه وهو التقي الأطهر
تبكي الجموع وطالما أضحكتها … بجميل أعمال تجل وتكبر
أمفصل الآيات هل من عودة … تعلو على نور الصباح وتسفر
أسفي عليك وهل يرد لآسف … مافات من يوم الحياة وينشر

طوقت بالتأييد دين محمد منّنا على مر الزمان تكرر
قد سار نعشك والمحاجر خلفه تجري سيولا حيث ضج الازهر
ورأيت وجه الحق أغبر آسفاً حزناً عليك وكيف لا يتكدر
أرجو من الرحمن يجزي (عبده) عنا بما أسدى وربي أقدر

خير الكلام لفقيد الاسلام

من نظم الشاعر الأديب الشيخ صادق عمران

حياتك آي والقضا الآية الكبرى أمات وأحيا العلم والحزن في مصرا
دعاك من الرحمن أفضل دعوة اذل بها الأولى وعز بها الاخرى
فتلك عظات ان أعش بعدأ وأمت أذكر بها دهري وأنى له الذكرى
وما المرء الا قصده بيد انه وديعة غيب ان قضى قدم العذرا
وان الذي يبني الفخار لأمة تربت على جهل غدا نجحه نزرا
اذا هز فرع المجد يجنيه أنكروا وقالوا جنى أو رام في أمره امرا
فيقضي فيقضون الغداة بأنه لا فضل هاد ميز الخير والشرا
فياساكن الجنات انى تركتنا سراجاً بلا زاع وكنت لنا ظهرا
حشا الله لم ترغم بروح سلبتها ولكن رأيت الخير انجازك الامرا
على ان ما أحدثت أفنى طلابه ملوكاً رأوه من عزائمهم عسرا
كفاك من الآيات انهضت أمة رأت ربها كانت بتقليدها سكرى
كفاك من الآيات ما بيّنت به غوامض وحي الله من حكم غرا
كفاك من الآيات أن شدت عنوة ذرى حجج الاسلام اذ تهدم الكفرا
كفاك من الآيات فتياهديتها مع العدل والشورى وقد أوذيا دهرا

رأينا بك المهدي في طي حكمة تطهر أرواحا وتحيي لك الذكرا
فتبكيك دار العلم والخير والقضا وتبكيك ايتام رأوا بعدك الفقرا
وطافت بك الارواح مثل طوافنا بقبرك شعثا تبتغي عندك الاجرا
حنانيك روحنا بروحك أوفر نفوس الورى تقضي فقد نعت الصبرا
لقد كنت نعمى يسعد الناس شكرها فردت ليشقوا اذ اسرّوا لها الكفرا
وكنا جدادا حلية الناس فانبرت حلانا ونشريها فصرنا لها نشرى
نعض على بعض الحديث وطالما اضعنا حديثاً ما قدرنا له قدرا
محمد تدريه ان آل محمد رأوا بعدك الويلات فاعتنقوا القبرا
وطافوا سراعاً بالمراثي وجلدهم بكى بكية الخنساء اذ فقدت صخرا
فمن (صادق) فيها مجيد و(ناصف) ومن (حافظ) أبكى بتأبينك الشعرا
عليك من الرحمن يا عبد رحمة وان نلت في الفردوس ماشئت أو أحرى
لقد ألبستنا الحين فيك غلائلا من الحزن لا تفنى وتفني بها العمرا
ولكن صبرا للمنون فعودها الينا وان أوفى بآجالنا دهرا

وقال العالم الفاضل الاستاذ الشيخ طنطاوي جوهري المدرس بمدارس الحكومة

أمانيّ طاشت في المهامه والقفر وأرزاء بؤس مرسلات على مصر
تخلّ عراها واستبان صغارها وراح الاولى شادوا المعالي كالقصر
فما ثاكلات كللت بقتادها بوائس من أم شفوق ومن ظئر
اذاما رأين الطير في وكناتها شجون على المقبور في بلد صفر
يجاوبنها بجواب يأس وحسرة يتابعن بالآلام يهطلن كالقطر
بأبأس من مصر افقد محمد وهل ينفع المفئود أدوية الصبر

سواك بكته الباكيات وقد بكت عليك رجال الدين والعلم والعصر
وكانت تلام النادبات لنعشها ولولاه لم تحسب من الانجم الزهر
ألم تر ان النعش فوق رءوسنا نجوم عليها القطب في فلك يجري
ولولا التقى والدين قلت تفزعت لمصرعه الافلاك والكوكب الدري
وشابت ذؤابات الدراري في الدجى فتندبه الشعرى وتلطم بالنسر
جوامد ان لم تذرف الدمع أعين عليك الا أن الجوامد في خسر
خليلي اما شمتما المزن ليلة تروح وتغدو هاطلات على النهر
فقولا لها يمن قبر امامنا وأسقينه سقي النعيم الى الحشر
فديتك قل لي هل نزلت من السما لنا ملكا آخى البشائر بالنذر
تهيمن أوقافا وتنشي مدارسا وتكفل ايتاما وتبذل بالبشر
ومصبية مصرية قد عهدتها بكتك بجنح الليل أو مطلع الفجر
وشاعر آفاق ومفت مثقف ومغتبط التأليف والوجل المثري
ومجلس شورانا وقاضي ديارنا وواعظ اخرانا ومصطنع البر
وأنت لهم روح وأنت لهم نهى وانت لهم نور لموهبة الفكر
الا يالحى الله المنايا فانها ترد الاماني البيض سودا على الاثر
وكان مرجى في الحياة فمذ مضى ذهبت أناجي الروح في روضة القبر
فياقبر هذا عالم وسع الورى فكيف وسعت الملك في مأزق الشبر
وياقبر هذا البحر يبدي عجائبا ولم ار بحرا قبل في مهجة البر
وياقبر هذا عالم الشرق كله أأفتاك ان تختص بالعالم الحبر
وياقبر هذا صفحة الكون كله فكيف كتبت اللوح اجمع في سطر
هنالك لاخت نحو سري نفحة وآيات عرفان ووحي الى السر

الا يانجي اليوم شأنك والعلى وسابق لنشر العلم في السر والجهر
ولا تبتئس يوما بكارثة ولو فرتك الاعادي بالمثقفة السمر
فدونك هذا الموت راحة عالم مضى نصبا في سعيه امد العمر
وما هذه الدنيا سوى البرق لامعا فهذا به يلهو وذا رائد القطر
وماهذه الدنيا سوى الروض يانعا وأثماره حسن الاحاديث والذكر
وقل لبني الدنيا سلام عليكم سلام اب في كل صالحه بر
وقل لهم قوموا لنشر فضيلة وترقية الابناء بالعلم والصبر
فاني رأيت المجد عندكم به وعند بنيّ الاخرى لدى عالم النشر
وقل لبني مصر سلام عليكم وسلم على أهل المعارف في مصر
وقل لهم انى نشطت من العنا وكنت على امر فدوموا على امري
فقلنا قبلنا النصح فاقبل تحية وعش رغدا في جنة امد الدهر

وقال الفاضل صاحب التوقيع

مصاب ولما استطع معه صبرا ألم وقد أجرى من الدمع ما أجرى
ففي كل قلب جذوة قد توقدت ومن كل عين قد جرى ماؤها نهرا
ولولا التأسي ذاب قلبي من الاسى لعمرك هذا الخطب قد قصم الظهرا
لقد افلت شمس المعارف والهدى لموت امام كان أعلى الورى قدرا
(محمد) رب العلم والحلم والتقى ورب النهى والجود والايدي الغرا
اذا عد أهل الفضل فهو امامهم وأفصحهم نطقاً وأعطرهم ذكرا
وأطيبهم نفساً وأسمحهم يدا وأرشدهم رأيا وأصوبهم فكرا
وأصدقهم وعدا وأحفظهم عهدا وأغزرهم علماً وأوسعهم صدرا
حكيم له أتى الكلام قياده ودان فلا يعصي له ابداً امرا

على حبه كل الخلائق اجمعت فكل فؤاد في محبته مغرى
فقل للذي يبغي يعدد فضله مناقبه لا تستطيع لها حصرا

ثم أنشأ هو بعد منها ما هو مشهور وقال في الختام

فمن بعده نرجو لاصلاح حالنا فموت امام العصر فادحة كبرى
ومن للفتاوي والتفاسير والهدى ومن للمعاني والبلاغة في مصرا
ترى الناس حول النعش يمشون خشعا ينوحون كالخنساء اذ فقدت صخرا
ومر وكل الناس ما بين آسف عليه وباك صدره يقدح الجمرا
وما حملوا الا العفاف مجسما بل المجد والمعروف والفضل والطهرا
وما دفنوا الا السماحة والندى وما ودعوا الا الذي فاقهم طرا
فطوبى لقبر قد حوى جسدا له ولم تر عيني ان قبرا حوى بحرا
سقاه وحياه الحيا كل ساعة ورحمة مولاه على قبره تترى

عبد الحميد راشد قباني — بالجمالية بمصر

رثاء المفتي

للفاضل محمد أفندي توفيق جانا من عكا (سوريا)

صبر جميل فمن ذا يدفع القدرا أمر المهيمن فلنرضى بما أمرا
تبكي الامام عيون المسلمين فلا قلب لذا الخطب الا ذاب وانفطرا
تبكي الشبيبة شمس العلم اذ أفلت فمن لها اليوم من يبدي لها القمرا
من للديانة من يبدي فضائلها وللشريعة من يقضي لها الوطرا
وللبلاغة من يعلي منارها وللفصاحة من يدرأ لها الخطرا
محمد وكفى للمشرقين به فخر اذا الغرب في ابنائه افتخرا
عار على الشرق ان لم تجر أدمعه بحراً يخفف عن اخلافه الكدرا

﴿ مرثية الجزائر ﴾

من نظم الاستاذ الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجه المدرس بجامع سفير بمدينة الجزائر وصاحب التصانيف الشهيرة

مصاب جسيم عم كل العشائر ... واسلمنا قهرا لحكم المقادر
رمينا بخطب لا يقاس بغيره ... فجعنا برزء ماله من مناظر
واكبادنا ذابت اسى وكآبة ... واعيننا مثل العيون الهوامر
على موت مفتي المسلمين وفخرهم ... ومن كان للاسلام نور البصائر
بكت مصر والدنيا جميعا لفقده ... وابناؤها من كل باد وحاضر
وابدى جميع الناس حزنا وحسرة ... وأجروا دموعا كالغيوث المواطر
واثنوا عليه بالذي هو أهله ... ثناء جميلا طيبا كالعنابر
على مثل ذا كل الجرائد اجمعت ... وما شذ عنها غير خاس وخاسر
يحاول نقص البدر ليلة تمه ... باظهاره المقوت في كل عامر
فقل لحسود الشيخ قد ذهب الذي ... تهاب محياه فحول القساور
وتعنو له طوعا أئمة وقته ... ويلقاه بالتبجيل كل الاكابر
فطب وانشرح صدراً اذا كنت خالداً ... ولكن ستلقى في حفير المقابر
ولا تحسبن الله عنك بغافل ... فان لم تتب تصلى بنار النهابر
وما مات من قد كان في الكون آية ... أوائله محمودة كالاواخر
تآليفه تنسيك ما حيك قبلها ... وتغنيك عن جل الطروس الكبائر
افادت من التحقيق كل يتيمة ... تقاصر عنها كابر اثر كابر
وحلت بتدقيق عويصا ومشكلا ... بحيث غدا كالبدر يبدو لناظر
عليك بها ان رمت تجني هداية ... وتصبح إستاذ العلوم الغزائر

وانشاؤه قد زاد حسنا وبهجة على الدر بل زهر الدراري السوافر
اذا خط اعيا الكاتبين وكم اتى بسحر بيان في معان زواهر
فعروته الوثقى تريك بلاغة يدين لها قس وعبد لقاهر
فواها على شمس المعارف والتقى وواها على التذكير فوق المنابر
وواها على التدريس في كل مذهب وواها على الاقلام بعد المحابر
وواها على التوحيد الفقه واللغى وواها على التفسير أصل العناصر
وواها وواها الف الف ولن أفي ولو انني نمقت كل الدفاتر
واني لنا الصبر الجميل وقد هوى منار الهدى واندك طود المفاخر
وروض الاماني والمكارم قد ذوى وقد كان للعافين أجدى الذخائر
وغيض عباب العلم والجود في الثرى كذا فليكن غيض البحور الزواخر
فمن لكتاب الله يكشف سره ويشرحه وفق الفنون الحواضر
فقدنا اماما كان حجة عصره وقدوة أرباب النهى والمظاهر
حكيما سما فوق السماك بهمة هماما جليل القدر حر الضمائر
فيأمر بالمشروع في كل محفل وينهى عن المحظور طبق الاوامر
ويصدع بالقول الصحيح نصيحة ولا يرهبن في الحق اقسى الجبابر
وكم ذب عن دين النبي محمد ودافع عنه بالردود البواتر
فضائله سارت الى كل وجهة واخلاقه مثل الرياض النواضر
وما دأبه الا اتخاذ صنيعة وكسب معال وابتناء مآثر
وانفاق مال في سبيل مبرة واسداء معروف لبر وفاجر
وارشاد ضليل واصلاح فاسد وابداء مستور واحياء داثر
وتقويم مناد وتوضيح منهج موارده مأمونة كالمصادر

مناقب لم يبلغ مداهن ناثر فصيح ولم يستوفها نظم شاعر
عليه سلام الله ما عبرة همت وما فاه بالتأبين عبد جزائري
فيارب قابله بعفو ورحمة وعامله بالغفران ياخير غافر
واحسن اليه وارض عنه وارضه بكل نعيم لم يجل في الخواطر
وبالحور والولدان آنسه منة وانزله في الفردوس دار الاخاير
وارو صداه من رحيق ختامه هو المسك يزري عرفه بالازاهر

وقال من مرثية طويلة الفاضل الشيخ محمد حسن مرسي الدمياطي بمدرسة روضة العلوم الاسلامية في ميت غمر

وكيف لنا صبر وان محمدا امام الهدى للناس غيب في الثرا
امام حوى لا ريب كل فضيلة ومن مثله قد طاب أصلا وعنصرا
فكم كان للارشاد والخير داعياً وما عن دعاء الخير يوماً تأخرا
وكم حث ميسورا الى البر والتقى وبين فضل الله فيه وأظهرا
فلباه مذ ضاءت سماء فؤاده وأثر فيه الوعظ منه وأثمرا
وجاد ببذل المال عن طيب نفسه وأوقف ماينمو دواماً ليؤجرا
وكان كثيرا ما يجول بفكره الى حال اصلاح الورى متبصرا
فحين رأى حكم الشريعة عاطلا أجاد بمشروع النفوذ مدبرا
فياحزن أحكام الشريعة بعده فقد كان للاحكام والدين ناصرا
وصبي أيا (ميت غمر) كل عشية دموعك حزناً واجعلي الدمع أحمرا
فهذا الذي أحيا معالمك التي أزال وأفناها الحريق ودمرا
فلولاه ما فقت المراكز رونقاً وما عاد منكوب الحريق ميسرا

﴿ مرثية لفقيد الوطن والعلم الاستاذ الفاضل والملاذ الكامل العلامة الأوحد والفهامة الامجد الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله ﴾

من نظم الفاضل صاحب التوقيع

على مثل هذا الخطب عز التصبر فكيف يعزي القلب أم كيف يصبر

فما كل شيء يستعاض بغيره وما كل عبء حمله متيسر

ولكنما الأيام لادرّ درها تحملنا مالا يطاق فنصبر

(ومنها)

وما كل خطب مثل فقد محمد امام الهدى من فضله ليس ينكر

فمذ بارح الاحياء مفتي ديارنا قد اشتدت البلوى وعيل التصبر

فمن مثله يلفى لكل ملمة ويسهر للخيرات وهو يدبر

ومن مثله للرأي ان حل طارق به ارتجت الدنيا وحار المدبر

ومن مثله للقول فى كل معرض ومن مثله للصالحات ميسر

خبير بكنه الحادثات مجرب يطالع أحوال الزمان ويخبر

هو الفرد في مصر بل الفرد في الدنا وأوصافه كالشمس بل تلك أشهر

(ومنها)

لقد كان في المنقول ثبتاً وحجة كذلك في المعقول أعلى وأشهر

ولولا تلاميذ له بعد موته تقوم بنشر العلم ما كان ينشر

ولولا تآليف بحسن عبارة لما كان در اللفظ في الكون ينثر

ولولا رجال هذبتهم علومه لما كان نور العلم في الكون يظهر

ولولا تقارير أراد بنشرها صلاح الورى من كان للحق ينصر

ولولا ردود ما سمعنا بمثلها لكانت نبال الطعن في الدين تكثر

ولولا تدابير بثاقب فكره لما كان روض العلم ينمو ويثمر
فللرأي أقوام وللخير عترة وللعلم انصار وللحق معشر
وما كل رام يستفيد برميه وما كل من قد حاول الامر يظفر
وما كل ذي لب بمثال محمد فان مثال الشيخ لا شك ينـدر

محمد غنيم المدرس بالمدارس الاميرية

﴿ رثاء الاستاذ الامام ﴾

للاديب الفاضل (م . غ) من احدى مدن القطر السوري

رويدك ما هذي الخلائق يا دهر فانت خؤون العهد رائدك الكبر
رأيتك تعتام الكرام من الورى وترفع مخفوضا وتخفض من يسرو

ومنها في خطاب الموت

كأن الملا ملك ليمناك ماتشا فعلت فلا نهي عليك ولا أمر
وتغتال اهل الجود والندب تصطفي ويدفع في تيار اهوالك الحر
وتبقي على اهل النفاق وحزبهم ولو كان من اعمالهم يرهب الشر
وتمهلهم والكون يشكو فعالهم وان وفرت ارهاطهم ونما الوزر
فهل لكرام الناس عندك دمنة فتطلبها ام ذلك الحنق الوتر
ففي كل يوم منك هول يخيفنا وذا اليوم خطب شبه اهواله الحشر
نضوت علينا فيه تبغي قراعنا بواتر من أغرابها يهمع الضر
مصاب به عم الاسى الكون كله واضرم في الاكباد مادونه الجمر
وقطع أصلابا ونكس ارؤسا واجرى دموعا لا يقاس بها البحر
وأهلك اجساما تفانت بحبه كأن اقصدتها في الحشا قضب بتر
واخرس أفواها حبسن لمدحه يفوح لها في كل مجتمع نشر

فيالك من رزء عظيم لوانه اناخ باصلاد الصفاهالها الامر
وواأسفا ياموت كيف تنوله وتترك هذا الكون ادمعه غزر
فهات من الارزاء ما شئت بعده فصار سواء عندي الحلو والمرّ
فقد كان للاسلام حصنا وموئلا وسيفا صقيلا ان سطا حادث نكر
وكان لنا في كل مشكلة صوًى وبدرا ينير النهج ان نقد البدر
فاما عويص العلم عسعس ليله اتاح له من شمس افكاره فجر
بتفسيره الشافي شفى الروح والحجا فزالت به حجبٌ اظلتهما كثر
فكم آية اعيت ازال لثامها فهانت لدينا وهي من قبله بكر
ومن بعد للفتيا يقوم بعبئها ويفتي كفتياه ولو نحر النحر
فياويحها بعد الحكيم معينها اذا ماذيول الجهل في الدين قدجروا
ومن بعده للمشكلات ينيرها اذا ما ادلهم الخطب أو أغطش الامر
ومن يصدم الاخطار ان نزلت بنا وفي صدرها الرحب الضغينة والوغر
ومن بعده للدين يعلي مناره اذا ما بنوه بالغواية قد أثروا
اذا ما عن النهج القويم تنكبوا وفي لجج الاوهام سفن الهوى أجروا
اذا ما شيوخ ران فوق عقولهم تقاليد ترديهم ولو كرم النجر
فقد خاف أن يقضي على الدين بعدما أشيدت صياصيه وينثغر الثغر
ويهدمه اهل العمائم ضلة فويلهم في تلكم الدار والخسر
اجل كان ما يخشى الامام وقوعه فهم هدموا دينا دعامته الدهر
وكان لهذا الدين قطب شؤونه ومرشده والامر مشتبه وعر
فقام به خير القيام بهمة مضت أين منها العضب والفتكة البكر
وقاوم أرباب الضلال لحطهم الى درك الخذلان لم يثنه غمر

وجاهد في الرحمن حق جهاده ولم تلهه دنيا وما راقه نضر
فطوبى لارض مس جسمك تربها وضمت بها اعضاء جثمانك الطهر
فانك سيف الله ياعبده الذي بك الدين يزهى والفضائل والفخر
وأنت لدين الله ترس يصونه وأنت له فينا اناملـه العشر
بنيت مباني عزّها بعد هدمها وقمت بعبء الامر رائدك الصبر
فكم لك يامولى العظام وبدرها مناقب جلت ان يحيط بها الفكر
اذا اشرقت في حندس الليل افزعت كتائبه كالورق طاردها النسر
مناقب اين الصبح من نور وجهها وأين السهى والشمس والانجم الزهر
فلو رام حساب البسيطة حصرها لاعجزهم في عشر معشارها الحصر
ويكفيك مما نلته من فضائل مهابة ذكر لا يطاوله ذكر
وحلم وحزم واقتدار وحكمة وفرط بيان لا يقاس به السحر
وكم لك فينا من اياد طويلة سيحملها من فوق عاتقه الشكر
ونرسمها في صفحة القلب بالثنا ونذكرها بالمدح ما بقي الدهر

ولنظم الفاضل الشيخ حامد محمد مدرس العربية بمدرسة الجمعية الخيرية بطنطا مرثية طويلة منها

ايا موت موّتّ الجميع بموته وصلت على الآداب والدين والطهر
فياضيعة الاسلام من بعد فقده ويا ظلمة الايام بعد اختفا البدر
قضى فانقضى عصر المروءة والندى ومات فماتت دولة المجد والفخر
مضى وله الذكر الجميل مشيع وقد شاع عنه كل مكرمة بكر
مضى فرأينا العلم أول نادب وأول مفجوع بذا العلم الحبر
مضى وقلوب المجد حرّى لفقده واكبده شقت على ذلك الحر

بكته عيون كالعيون سوائل ... وكالسحب تبكي في الرياض على الزهر

(ومنها)

مآثرك الغراء اضحت كأنها ... نجوم أضاءت في الدياجي لمن يسري

ألست الذي قد جمل الدين بعدما ... تشوه بالالحاد في الاعصر الكدر

اقمت بناء العدل بعد انهدامه ... وقمت بامر الله في السر والجهر

وكنت لنا بحرا يفيض بدره ... وكنت لنا عونا على نوب الدهر

﴿ حرف السين ﴾

رثاء حكيم الشرق

من نظم الشاعر الاديب السيد حسين وصفي رضا شقيق جامع الكتاب

ماتت لموتك يا امام الناس ... في شرقنا وتزلزلت آساس

كنت الرجاء لأمة منهوكة ... أودى بها التقليد والوسواس

كنت الزعيم ومصلح الشرق الذي ... ألقت اليه رجاءها الأجناس

كنت الذي إمّا أخذت يراعة ... شخصت لتعرف ماتقول الناس

أنت الذي أوجدت فينا نهضة ... لو أنها دامت لزال الباس

أنت اقتلعت اليأس من ألبابنا ... حتى اذا مازلت عاد الياس

أنت الذي لا يرتجى خلف له ... أو من برب المصلحين يقاس

بل أنت فرد فيك قد جمع الورى ... وحكيم أهل الشرق والنبراس

كم أيّم لولاك ساءت حالها ... وبيوت مجدٍ هاضها الافلاس

حاولت أن تحيي شعوباً غالها ... ما فرّط العلماء والسواس

وانتشت قوماً من براثن صيلم ... لحيوا وكادت تخمد الانفاس

ودلت مثرينا على طرق الهدى　وحثثهم أن يرأفوا ويواسوا
نازلت (هانوتو) فآب وقدنسي　ما هاجت اللورين والالزاس
ورددت (رينان) الجحود مغاضباً　متمنياً لو مزّق القرطاس
لو لا فئات أخطأت سبل الهدى　لنما غراسك بل ذوت اغراس
نصبوا الحبائل يبتغون لك الاذى　فزجرتهم لم يثنك الايجاس
زعموا بأن هنداك لا يجديهمُ　ما دام اجماع لهم وقياس
فتنكبوا النهج الذي أشرعته　ولهم من الخزي المشين لباس
جاسوا خلال الدار يبغون الاذى　ثم انثنوا يرجون لو ماجاسوا
يتربصون بك الدوائر حسبما　يوحي اليهم ذلك الخنّاس
حاربت جيش الجهل فينا حقبة　فأراد صدّك معشرٌ انكاس
فهجمت حتى أن تركت جموعهم　متخاذلين وكلهم أنداس
وبدت لهم أخلاق صيد منك ما　شاء الاله سماحة وحماس
راموا لحاقك يا امام وفاتهم　هم انهم خزف وانك ماس
ياويح قوم ضيعوك وفرطوا　فكأنهم باتوا ولا احساس
ياويح هذا الشرق مات حكيمه　فغدا كجسم حزّ منه الراس
كانت مجالسنا كأعراس به　فغدت مآتم تلكم الاعراس
كانت منازله القلوب فبدلت　وقداستعيضت بعدها الارماس
فلتندب الايتام بعد كفيلها　ومجامع التدريس والجلاس
ولتبكه الزورا ومصر وفارس　والهند ثم الشام ثمت فاس

﴿ حرف العين ﴾

﴿ رثاء الامام ﴾

للشاعر المجيد أحمد افندي محرم الشهير

خفض الصوت أيهذا الناعي رحمة بالقلوب والاسماع
أنعيت الامام يعتصم الاسـ لام منه بشاهق ذي امتناع
أنعيت الامام يحيي به العلـ م ويغدو مناره في ارتفاع
أنعيت الامام يأوي اليه الـ فضل والنبل والعلى والمساعي
انعَ من شئت غيره ولك الحكـ م ومنا الرضى بغير نزاع
انه الضن والاباء وما ليـ س بمستسهل ولا مستطاع
انه السيد البعيد مدى الهمـ ـة والايّدِ الطويل الباع
انه المصلح الذي يرأب الامـ ر اذا هم صدعه باتساع
انه الشارع الذي يجمع الخيـ ر برأي يغني عن الاجماع
انه المرشد المسدد لامر شد أولى منه بحسن اتباع
انه ذلك الحكيم الذي أبـ رأ مرضى النهى من الاوجاع
انه ذلك العليم الذي أبـ دع في القول أيما ابداع
يايراع الامام أينك تستـ ـل ذليقا تفل كل يراع
فلّك الموت اذطواه وكنت الـ موت يطوي الشجاع بعد الشجاع
في جهاد حمي به بيضة الديـ ن لدن رامها ذوو الاطماع
كرّ والقوم يمعنون فرارا خيفة الموت في ظلال القراع
فرمى الدارعين منه بعزم ظل يفري سوابغ الادراع
فابذعروا بهم كلوم تفرّى عن مراق يروي ظماء البقاع

كرة بعد كرة وصراع للامام الهمام بعد صراع
ينتحي واحدا يشيعه بأ س شديد يغني عن الاشياع
شكر الله منه حسن بلاء خير شكر يبقى بغير انقطاع

*
* *

يابني الشرق والمصيبة ساوت فيه بين الجليد والمجزاع
خبروني أتعرفون له ندا (م) فاني جم عليه التياعي
انني خفت أن تضلوا فلايد عوكم بعده الى الرشد داع
انني خفت أن يضيع دين كان يأوي منه الي خير راع
أين أنداده الذين يرجيه اذا ناب مفظع لدفاع
أين حساده الذين أضاعو ه ولو شاء عوقبوا بالضياع
كف عنهم ولم يكن بالذي يو لعه بالاذاة لؤم الطباع
كان في المحفظات هضبة حلم ومكان الهضاب فوق التلاع
عجبا للحمام كيف طواه غير ماهائب ولا مرتاع
انه كان ذا جلال يرد الـ عين حسرى عن مشرق ذي شعاع
واباء ما كان يترك خطبا ذا اباء بغير ماالخضاع
أطواه بأمره فهو ذو الامـ ر الذي لم نجده غير مطاع
سار عزريل اذ دعاه اليه مطرقا من تأدب واتضاع
مغدقا دونه القناع وما عو (م) د قبل الامام لبس القناع
عالج الروح جازعا مستقيلا فلحاه فنالها بانتزاع
حملوه وكان من قبل بالأ قال أما تظاهرت ذا اضطلاع
ثم ساروا به الى حيث لايطـ مع منه ذو خلة في ارتجاع

كادت الارض يوم ذلك تنشـ {*} قـ فهوي بنا الى شر قاع
لست أرجوله من الارض صقعاً فهو ثاو في أشرف الاصقاع
انما تشرف البقاع بمن فيـ ها وعى ذاك منذ آدم واع
ودّعوا فيـه أمـة وبلادا آذنت بالذهاب قبل الوداع
صـاح مابالنـا نغر بدنيـا أخـذتنا بزخرف وخـداع
فتنتنا خضراؤهـا فانتجعنا ها وانا من الردى في انتجاع
وازدهانا متاعها وهو لو فكـــرت في منتهـاه شر متـاع
ما انتفعنا به وما طلب الشيء لغـير اسـتفادة وانتفاع
قل لمبتاعه غبنت فهل تر غب فيما يطيـب للمبتـاع
خير حرث الفتى عفاف وتقوى واصطناع للخير بعد اصطناع
صاح ان التآمنا لاإلي بيـ ن يعني نفوسـنا وانصداع
راحل بعد راحل ومذاع من حديث المنون بعد مذاع
يوشك الدمع أن يخون المآقي بعـد طول التهمال والتهماع
ويكاد الاسي المبرح أن يعـ وزقبرح الاكباد والاضلاع
ان بؤس الحياة فيما بدالي ا كثير الالوان والانواع
فهي فيما تحوكه من أذاها وأفانين كيدها كالصناع
شاقني مضجعي بحيث ثوى الصحـ ب فيارب هل يؤون اضطجاعي
انما هـذه الحيـاة جهام مؤذن كل ساعة بانقشاع
انما نحن كالفرائس نلهو والمنايا من حولنا كالسباع
أكلت قبلنا الشعوب وغالتـ نا وما ان تبيت غـير جياع
يا امام الهدى عليك سلام مانعى هالكا من الناس ناع

وقال العالم الفاضل « ح . ر » من سوريا

ماالصبر ملكالمن كأس الاسى كرعوا ولا الخطوب اذا ما أشرعت شرع
وهل لنا غير جس مائل قلق يديره الدهر اذ تأتي به البدع
من الألى صبروا في كل حادثة وما استفزوا لما يعلي وما يضع
من الألى زعموا ان الخطوب وان مقدارها جل لايعروهم الجزع
يارب صدمة رزء لاينوء بها قوم ولا الارض من وجدلهم تسع
ألم تروا كيف أهل الله حين قضى {محمد عبده} من حزنهم وجعوا
وهم هم القوم لا للمشتهى انبسطوا ولا هموا لسوى ذا الخطب قد كنعوا
أقدامهم وهي تلك الثابتات غدت لذاك ترجف والالباب تنخلع
وأي شعب من الاسلام ماصدعت هذي الرزية أيٌّ فيه مافجعوا
لقد قضى اليوم مفتي مصر وأسفا فقدت ياشرق فردا فيه ترتفع
قضى الذي نهج النهج السويّ وقد فاز الذين لهذا النهج قد تبعوا
قضى الذى لمّ أشمل القوم من شعث وروق الدين مما رنق الشيع
قضى الامام الذي قد كان منتصرا للحق يصدع بالبرهان لا يرع
والناس في غفلة لا يعرفون سوى الـ موروث والناس للآباء تتبع
عوائد أخذ وها عن معاشرهم وقدسوها جميعا بئس ماصنعوا
فانظر وقد قام عبد الله ينذرهم من التقاليد عقباها ليرتفعوا
وانظر لشخص وحيد قام في ملأ يدعو لغير الذي فيه قد انطبعوا
هذا هو الفرد بل هذا هو العلم السا{م} مي الذي حزبه في نوره سطعوا
هذا الامام الحكيم الشهم ناصحنا هذا العليم الذي يحلو به الولع
اني لاعجب من قوم وقد عرفوا مقداره كيف يوما بعده هجعوا

لادرّ در المنايا انها نصبت ... للناس اشراكها كل بها يقع
والموت تجلبه هذي الحياة كما ... قد قال ذو حكم أقواله بدَع
ولو فدي منه مرء لافتدى زمر ... هذا الامام ولاتلقى بهم قرع
فلنحزنن عليه مانعيش وان ... لم يجدنا بعده في عمرنا الهلع
ولتبكه أربع بالعلم عمرها ... وليأسفن له من ارضنا الربع
أيا حكيما فقدناه ففارقنا ... حلم وكنا به من قبل ندرع
بثثت في الشرق نور العلم فارتشدت ... بنوه حتى سبيل الارتقا شرعوا
خلدت ذكرا جميلا ليس ينسخه الحسا { م } د مهما لارواح لهم بخعوا
سقى ضريحك غيث الفضل ممتزجا ... بالجود رب له أهل النهى خضعوا
ولا تزال بعليين مبتهجا ... بالقدس ثم وبالاملاك تجتمع

﴿ الخطب العظيم ﴾

للأديب الفاضل عباس أفندي المصفي اللبناني نزيل الاسكندرية

لقد حل في مصر المصاب المفجع ... فأي فؤاد منه لا يتصدع
قضى عالم الشرق الامام محمد ... ومنه خلا ذاك المقام الممنع
اهاب به داعي المنون فأوشكت ... كبود المعالي بعده تتقطع
لئن تك مصر قد بكت وتوجعت ... فحق علينا ذا البكا والتوجع
فما نابها رزء كرزء محمد ... ولا هالها خطب اشد واوقع
على حين قل المرشدون الى الهدى ... وقد يقظ الاعداء والقوم هجع
فكم كانت الآمال تزهو بسعيه ... فأظلمت الآمال والغي مفزع
وكم ذب عن دين البلاد وحقها ... وزاد أذى لولاه ما كان يدفع

وأنهضها من كبوة بعد كبوة وحاذران يسري اليها التضعضع
فأسلمه الدهر الذميم الى الردى وان الردى بالحازم الحر مولع
ففي كل يوم للمنية صيحة وفي كل يوم للفضيلة مصرع
قضى رجل لو قيض الله مثله لمصر لكانت بالمنى تتمتع
فمن بعده للجد والعلم مأتم وللفضل والعليا اسىً وتفجع
فياوحشة الدنيا لغيبة مرشد الى فضله تعشو وما هو يرجع
فقدنا اماماً نابغاً نسج وحده له في هدى العلم الصحيح تضلع
ومولى سديد الرأي مكتمل النهى ونديماً رشيداً لم يشبه التصنع
وقد كان في الدنيا وفي الدين مرشداً وبينهما آياته تتضوع
فقدنا هماماً كان للشرق حجة على الغرب في عصر به الشرق يخدع
فقدنا بليغاً يعلم الكون انه خطيب جريء راجح القول مصقع
وقد كانت الاقلام طوع بنانه يحوك بها وشي الكلام ويبدع
تقلد في مصر المناصب فاعتلى به العدل لما كان يقضي ويشرع
وكم عالج الداء الدفين بمعطن غدا فيه للغرب المسيطر مطمع
واوجد فيه نهضة حيوية طريق الهدى منها الى النجح مهيع
ومهد في مصر السبيل الى العلى فهل يحصد الاهلون ما كان يزرع
وآثاره في الدين والشرع والهدى لها في بلاد العالمين توزع
الا أيها المولى المجاور ربه لقد شهدت في فضلك الناس أجمع
بعدت عن الدنيا ولو ردّك القضا لكنت ترى ماقيل فيك وتسمع
كأن الورى من قبل موتك مادروا بأنك من أهل الترفع أرفع
فلما احلتك المنية في الثرى وأضحى عماد المكرمات يزعزع

أصابهم الخطب الجسيم وهالهم ... ممالك حتى سيد القوم موجع
فناح عليك العلم وانبت عقده ... وشتت من أهليه شمل مجمع
وكان رجاءُ القطر ان تبتني له ... من العلم مغنى منه للنجح مطلع
وان ترشد الشعب الكثير الى الهدى ... فيعقد منهم للتناصر مجمع
وان تجد القوم المجدين نجدة ... تصح لهم فيها المساعي وتنفع
لقد عظم الحزن الذي أنت تارك ... بمصر وليس الحزن بعدك يردع
وسار الى الشام النعيّ فهالها الـ ... ـمصاب واضحت بالأسى تتلفع
وتلك بلاد في مناصب مجدها ... رجال على اجلال قدرك أجمعوا
فلم تنس أرض الشام قط محمداً ... ولم ينس أهل الشام ما كان يصنع
فبعدك للقطرين حزن وحسرة ... لأن على القطرين فضلك يسطع
فما مقلة في مصر الا ومثلها ... بسورية أخرى من الحزن تدمع
عليك سلام الله يا علم الهدى ... ويا بدر علم كان في الشرق يطلع
سموت علواً في الحياة وانما ... مقرك في الفردوس أعلى وأوسع
رحلت عن الدنيا وغادرت أهلها ... ينوحون ذا راثٍ وذاك مودع
وأبقيت بين الناس ذكراً كأنه ... على هامة التاريخ تاج مرصع

وقال أحد علماء تونس وقد نشرت في جريدة الصواب التونسية الغراء

أحق نصير الدين قد عز مرجعه ... وسار به من مأهل الموت مسرعه
وصدق يقال مات عالم ديننا ... ومن كان في الاسلام يشكوه مبدعه
توفي مريد الخير للدين والورى ... ومات ولم يمتد في الناس مشرعه
توفي عن الاسلام وهي رزية ... وما بعده للدين رزء فيفجعه
فقل لطروس العلم شقي جيوبك ... فلا كاتب للطرس من بعد يرفعه

وقل لمنار الدين ينقص نوره حداداً على من كان للعلم يجمعه
فمن لكتاب الله يكمل شرحه ومن لصلاح القوم مذعن منزعه
ومن للدروس والخطابة بعد ما فم العلم والتقرير قد غار منبعه
ومن لنوادي العلم بعد رئيسها وللخير والتحقيق اذمات مبدعه
فصبراً نرى الاستاذ يودع في الثرى ويلبس ثوب البعد ثم نودعه
دعا (عبده) الرحمن اذ كان داعيا فأصبح ذاك الطود يحويه مضجعه
فحق على الايام تبكي عليهما وتسأل للاسلام خلفا فينفعه
والا فذو التقليد مبدع دينه يسير بما يهواه والخلق تتبعه
وأف لدهر لا يغادر عالما حريصا على الاسلام يعنيه مشرعه
وتعسا لهذا الموت ان كان دائما يخير خير الناس فينا فيصرعه
ولكن هي الايام ليست بواقيا فيبنا تعيد القلب ريان توجعه
ومامات (عبده) في القلوب وانما يعيش على التحقيق مادام متبعه

ونظم الفاضل محمد أمين أفندي عبد الرحمن بالقصر العيني مرثية طويلة مطلعها

خطب الم وعم الكون مصرعه والقلب ذاب فلا وصل يرجعه

(ومنها)

قد كان بحر علوم راق مورده وفضله في صدور الخلق موضعه
قد كان روح حياة في مشارقنا ومن تزود منه كان ينفعه
واذ توسد تربا كيف نطمع في تلك الحياة وهذا الروح نودعه
قد كان غوث رجال في غوامضهم وفي صعاب أمور الدين تسمعه

(وقال في ختامها)

أبكيك طول حياتي والورى عضدي بكاء منقطع الآمال تولعه

وان جفتك دموعي بعد شحتها فذاك نظم بياقوت أرصعه
وهاك تاريخه وجد يكمله خطب الم وعم الكون مصرعه
١٣ ٦١١ ٧١ ١١٦ ١٠٧ ٤٠٥

﴿ حرف الفاء ﴾

﴿ رثاء الامام فقيد القطر ﴾

من مراثي الفاضل محمد أفندي أبو طالب الاسكندري

دهتك الليالي بالذي تتخوف فصرك أقاع في الممالك صفصف
مضى واحد الشرق الذي كان يرتجى لنشر علوم من مجانية تقطف
ولم يك ان عد الرجال بواحد ولكن بآلاف ومن عد منصف
فديتك هل فيمن تقادم عهدهم امام بها تيك الفضائل يوصف
وقد كان ذاك العصر عصر حضارة لابناء هذا الشرق فيه التصرف
فكيف وقد كدنا نموت جهالة وبتنا بأغلال التقاليد نرسف
فضاعت أمانينا وقل رجاؤنا وليس لنا الا الاسى والتأسف
ولما رأينا منه عزما وهمة ونفسا على اسنى المقاصد تشرف
تبعنا هداه واقتفينا طريقه لنيل المعالى وهو بالطرق أعرف
فأسس للاسلام جمعية بها يعز ذليل في البلاد ويشرف
وأصلح حال الازهريين بعد ما تصدى له في ذلك المتعسف
واعرض عن قول السفيه تكرما فعاد الى اعتابه يتزلف
ورد (هنوتو) حين شط به الهوى وصال بسيف الحق والسيف مرهف
فكان لدين الله أعظم آية بها طرف أعداء الهداية يطرف

وفسر آيات الكتاب على هدى فتفسيره بين التفاسير مصحف
وكم بدع في الناس أبطل حكمها وكانت سيولا للشريعة تجرف
وكم من ضلالات سعى فأزالها ليظهر للاسلام نور وزخرف
وما كان جود الشيخ قط بعلمه ولكنه قد كاد بالمال يسرف
فقل لاناس حاولوا الجري خلفه رويدكم ما في السجايا تكلف
فان الذي كنتم سعيتم لكيده أبرّ بدين الله منكم وارأف
ولو شاء رب العرش للقطر رفعة لما مات حتى يبصر الحق مرجف
ولكن شقاء من قديم مسطر وليس لنا عما قضى الله مصرف
فليس الذي قد مات بالامس مثلكم ولكنه موسى وعيسى ويوسف
وليس الذي شيعتموه امامنا ولكنه لقمان داود آصف
وليس الذي فوق السرير محمداً ولكنه المجد الاثيل يرفرف
(وليس فتيق المسك ريح حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف)
(وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه اصلاب قوم تقصف)

﴿ حرف القاف ﴾

﴿ رثاء الاستاذ الحكيم ﴾

جاء في جريدة الصواب التونسية تحت هذا العنوان ما يأتي

وردت لنا القصيدة الآتية من بنات افكار فاضل علامة في رثاء فقيد الاسلام والمسلمين الشيخ محمد عبده ولرقة معانيها وجزالة مبانيها اثبتناها بحروفها وهاك هي :

نعى الاستاذ ناعي الشرق فينا فيالله من قلب يمزق
احقا ايها الناعي احقا أليس الموت من علياه يفرق
لعمر للامام وليس هونا نكاد من الجلالة لا نصدق

فمن للدين ان ضاقت رجال ... فأعيا فكرها ما ليس تلحق
ومن للمصلحين يكون رأسا ... لنهضتهم الى شرف محقق
لقد كانوا به كالعقد حسنا ... فها بوفاته عقد تفتق
فان يهلك فكم أمل تقضى ... وكم فوز لامتنا تعوّق
فقل للشامتين مقال صدق ... افيقوا ان جمعكم تفرق
لقد اصليتموا كبدا شريفا ... فكان على تأخركم يحرق
فان يسئل غدا عن حزب سوء ... يعارض نصحه مهما تحقق
فسوف يقول اني رمت جمعا ... ولكن شاط غيظهم ففرق
مضى الاستاذ فليكُ يوم حشر ... لان الشمس قد غربت بمشرق
تذكر يومه العلماء دوما ... فتوشك كل نفس منه تزهق
لقد حبست بنا عبرات حزن ... فكانت كالشجا في الحلق تشرق
فليت لنا لسانا شاعريا ... فندأب في رثا الاستاذ ننطق

﴿ حرف الكاف ﴾

مرثية لمحب مستخف إخلاصا فننشر معظمها

بكت الانام دما وحق لها البكا ... وشكوا مصيبتهم وحق المشتكى
يا راحلا أدمى القلوب رحيله ... لو كنت تصبر برهة ما ضركا
سارعت كي تلقى الاله وطالما ... سارعت في الخيرات ترجو ربكا
ورضيت من لقيا الاله وطالما ... رضي الاله وقد رأى أعمالكا
فالبر والتقوى ونافلة الدجى ... والنصح والدين المبين بكينكا
من للحيارى والسكارى من لهم ... والليل اقيم ليس فيه ضياؤكا

كانت تنير لك الظلام قريحة | وقادة تبني بها انباؤكا
جاهدت اعوان الضلال بهمة | قعساء لم تعرف سواك وغيركا
وخطرت في ميدان كل كريهة | اخطارها عن خوضها لم تشكا
ودفعت عن دين النبي مخاوفا | اولا اجتهادك في الدفاع لا وشكا
وهديتنا ولأنت أفضل مرشد | والنجم في الظلمات يفعل فعلكا
والناس ان يبكوك يبكوا وارثا | علم النبي وهل يرون مثيلكا
والله ان ابك الامام فقد بكى | كل الانام وان شكوت فقد شكا

﴿ حرف اللام ﴾

قال العالم النحرير والكاتب البليغ الشهير ابراهيم بك اللقاني المحامي

جدع المقدور أنف الحيل | وقضى المولى مناط الامل
فاتنا وهو يعاني رشدنا | ما نرى عنه لنا من بدل
عقم الأزهر عن ثان له | وثنى العقم مصاب الثكل
فعلينا — ولو العيش لنا — | لا عليه انقضّ عادي الاجل
كان مفخورا بنا الدين فعا | د به يفخر كل الملل
اي وربي إنه كان كما | يرتجي من وارث للرسل
كان للدين وللدنيا وما | كان فيه مغمز للقول
ان بكاه منصب الفتيا فقد | كان كالفاروق فيه وعلي
أمة الفطرة كانت همه | لم يكن عنها له من شغل
كان لا يهنيه الا ان يرا | ها على متن علاها الاول
نهج القصد لهذا جهده | وهو جهد لم يكن في رجل

نهجه كان كتاب الله حيث كتاب الله خير السبل
ولكم جاهد في هذا السبيل وكم أبلى بلاء البطل
وسرت دعوته تجتث غرس الاساطير ومرعى الزلل
وترقي الفطرة الغراء لا شيء فيها من غواشي الخطل
وجرى في الناس روح لم يكن جريان الحس بعد الشلل
ودروا منزلة العقل وقد كان دهراً في الحضيض الاسفل
وانتهى للحجة الحكم وصار على العلم مدار العمل
هذه آثاره سيان فيها ضرير وحديد المقل
قدس الله له روحاً غداً عند ذي العرش كريم المنزل

﴿ رثاء المرحوم المفتي ﴾

للشاعر الاديب الشيخ حسين محمد الجمل المدرس بالمدارس الاهلية

مصاب عظيم وخطب جلل وللصبر بينهما مرتحل
ورزء به انقض ركن المنا وقوض قوى صروح الجدل
وسهم أصاب صميم المني وقد حل عقد مكين الامل
وبؤس محا شرفات النهى واصمى القلوب وادمى المقل
لقد غاض فيض الهدى وذوت غصون السداد وساد الخطل
وأظلمت الارض بل والسما وغطى الكواكب ستر الخجل
وطاح من الدهر برهانه وأصبح كف الزمان أشل
هو الموت لا يتقي بالقوى وتدفع صولته بالحيل
طوى صحف الامم الغابرين وأنشب اظفاره في الدول

ولكن يعجل بالامثلين ... وينهلهم بالكؤوس الاول
وما راعنا منه ياويحه ... سوى فقد هذا الهمام الاجل
امام الائمة في عصره ... واعلمهم باصول الملل
واعرفهم بشؤون الحياة ... وابعدهم عن مناط الزلل
واحسنهم فى ضروب البيان ... واتقنهم لجيد العمل
وارفع قدراً وأنفذ فكرا ... وأسير في ذكره من مثل
لقد كان اخطب اهل النهى ... واجمعهم لفنون الجدل
يسل سخائم غل القلوب ... وينزع منها خفي الدخل
يصور سامعه كيف شاء ... وينزل منه بأعلى محل
فان ناصحا كان أو زاجرا ... فاما شفاه واما قتل
وابرع أهل اليراع حجا ... واعملهم فى احترام الوجل
فان يراعته في الطروس ... ادق شبا من سنان الاسل
وان براهينه القاطعات ... امد ظبا من حسام البطل
واقدر اهل العقائد في ... وجوه الدفاع وقمع العذل
فكم شبهة قد محا ليلها ... وعقدة مشكلة منه حل
وكم صد عن دينه عائبا ... وكل حملته بالفشل
أعز بني المجد في حزمه ... وعن منتهى عزمه لاتسل
سمى المراد ذكي الفؤاد ... في رأيه للهدى محتفل
ومن فكره تستضيء الغيوب ... ويلهم سر ضمير الازل
أمفتي مصر ونبراسها ... عصيب فراقك لايحتمل
فيالك من طود فضل هوى ... ويالك من بدر هدي أفل

فلو كنت تفدى لكنا الفدا ... ولكن لكل حياة أجل
فمن للسياسة أو للكيا ... سة أو يستشار لدفع الغيل
ومن للعزائم أو للعظا ... ئم من يستخار اذا الخطب جل
ومن للعناية بالبائسين ... ن يدرأ عنهم جيوش العلل
ومن يغرس الفضل في فتية ... لهم من حلي العلوم عطل
نتبك عليك عيون العصور ... لانك انسان تلك المقل
وهمتك المنتهى شأوها ... الى أمد تسترق الامل
لتبك لفقدك نشأة جد ... بها قد صدعت فؤاد الكسل
نفخت في القطر سر النجاح ... و روح النشاط وحب العمل
وكم لك في المسلمين يد ... يرى البحر من دونها كالوشل
لقد كان بدر سماء العلى ... فكيف عليه التراب اشتمل
وقد وسع الدهر في علمه ... فكيف بهذا المضيق نزل
أيا قبره الممتلي حكمة ... ليحسدك اليوم برج الحمل
سلام عليك وليس السلام ... سوى رنة من أنين الملل
سلام الذي ليس يخشى الخطو ... ب وكيف يخاف الغريق البلل

(رثاء العلامة الشيخ محمد عبده)

وقال العالم الاديب (عبد الله أفندي الانصاري) المدرس في المدارس الاميرية العالية

كل حي الى الزوال مآله ... قل أوجل في الحياة اتصاله
رب سار في رفعة كالثريا ... تطأ الهام والانوف نعاله
وامام يريك ماضمنته ... أسطر العلم والوجود خياله

وحكيم يصارع الجهل حتى صرع الجهل بالسداد قتاله
وعزيز على النفوس مفدى جلل الفضل والعلاء جلاله
وهمام اذا لخطبٍ تصدى صدع الدهر أو يجاب مقاله
وكريم يجيب كل كريم قبل ما يجتديه منه سؤاله
بات والناس في المقال سواء كان أعماله وكان خصاله
هكذا مفتي الديار غدونا حين خاب الرجا وبتت حباله
وبدا النعش يستقل كبرج سطعت شمسه وغاب هلاله
ورجال الزمان خلف امام كمليك في الانهزام رجاله
طالما سدد الامور برأي يرأب النقص في سواه كماله
من لنشر العلوم والخير والعد ل ومن دأبه الهدى وخلاله
لهف نفس على جليل تولى عطل الفكر والعقول انتقاله
ليس خطب الامام الا كغيث أقشعت سحبه وجفت سجاله
حسدته على الكمال اناس وسعتهم فيوضه وظلاله
أنصف الناس في المروءة طرا تلك اخوانه وتلك عياله
فسقى الله قبره وحباه من نعيم لا يعتريه زواله

﴿ رثاء فقيد مصر وعلامة العصر المغفور له الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريه رحمه الله ﴾

من نظم الاديب محمد أفندي محمود الرافعي من كتاب ديوان الاوقاف

أيسلو فؤادي والاسى متواصل ويثلج صدري والهموم شواغل

﴿ الى أن قال ﴾

ألم تر خير الناس علماً وحكمة وحلماً تردته الخطوب النوازل

امام براه الله من صيغة التقى سجيته علم وحزم ونائل
امام جليل لا يقادر قدره وبحر علوم فضله متكامل
لقد هد للاسلام ركن ومسه لفقدانه خطب على الدهر شامل
لقد كان معوان العفاة ورائد الا هداة وصمصاما على من يجادل
وما كنت أدري ما فضائل علمه على الناس حتى غيبته الجنادل
فان تكن الايام أفنته وانقضى فما اندرست آثاره والفضائل
ذروا أدمع الباكين تدمى لفقده وكل جنان بعده يتواكل
وألقوا مقاليد المكارم والتقى فليس لنا من بعده ما نطاول
لئن كان محمود السريرة ماجدا لقد كان محسود النهى لا يماثل
أخو عزمات لو تقسم بعضها على أهل هذا الدهر ما بات خامل
مضى ومضت أيامه وتقطعت لمن يهتدي منه العرى والوسائل
وما كنت لولا الصبر تنفد لوعتي وأسلوك حتى ماتغول الغوائل
كأن بني مصر غداة وفاته وفود الالى حول النبي حوافل
فليت الدراري الزهر أمست لفقده تهاوى وليت الراسيات تزايل
عليك سلام الله ماذر شارق وماحدثت عنك العلى والفواضل

﴿ كلمة في رثاء فقيد المشرقين مفتي الديار المصرية ﴾

للشاعر الذكي حسن افندي شاكر الدمياطي نشرنا معظمها

خطب أصاب المشرقين جليلا بغداة اضحى النيل ينعي النيلا
أودى عميدهما وشمس فضائل افلت فلما تنو بعد قفولا
وتنزلت علياؤه وسط الثرى من كان يأنف بالسماك حلولا

تتلمس الفتوى سراجا بعده حتى ترى من لا يفيد فتيلا
هل تعلمين غداة ارالى النوى أبي المكارم والهدى المحمولا
قولي لدهر بالنوائب مفجع أن قد أصاب بخطبنا التنزيلا
قولي لهوالخطب اهول مايرى صُل كيف شئت فما نخاف مهولا
كنا نخافك في معال خولست ومعالم درست وفضل غيلا
فالآن آمن رغم آناف جرى كنا نرجي الخوف منه بديلا
كانت حياتك يامحمد رحمة لقي الحسود عذابها مخذولا
قالوا وكل فاتح شدقيه لا لتلمس التحقيق بل ليقولا
فئة رأت منك الهداية ضلة عمها وأخرى تنتحي التضليلا
كانوا وكنت فحين نجمك آفل نبذوا العداء ورتلوا التبجيلا
برح الخفاء اذن واذعن جمعهم للفضل يدعى من سواك فضولا
كنت الغريب مكانة وهمو هوى فمن الغريب وقد رحلت رحيلا
كنت الاسد محجة دينية فمن الذي يهدي الانام سبيلا
ياأيها المولى الذي آثاره سحبت على هام النجوم ذيولا
هاتيك نفثة شاعر شجنية لولا الاسى ما كان قط قؤولا
الله يرحم اعظما هي منتهى مجد العظامي ان يرمه اثيلا
والله اكبر اذ توفي عبده ان يمنح الصبر الجزيل جميلا

﴿ رثاء الامام فقيد القطر ﴾

مرثية محمد افندي أبي طالب اللامية

ألمّ بالباب الانام ذهول وحزن على فقد الامام يطول
وأصبح بال الحاسدين منعما وران على قلب المحب خمول

وأمست مغاني العلم للجهل مرتعا يكر عليها جيشه ويصول
وظل أولوا الحاجات يسأل بعضهم اما لا إمام المحسنين قفول
وكاد يفيض النيل هما ولوعة وأوشكت الاهرام عنه تزول
واضحى الورى اكفاء بعد مضيه فكلٌ كريم بيننا وبخيل
ولا عالمٌ يرجى لتفسير آية بلى قد تساوى عالم وجهول
عدمتكمو يامبغضيه امالكم قلوب عن الحقد القديم تحول
لقد كنت والاستاذ حيٌّ ارى لكم من العذر ما يرجى اليه قبول
اما والهدى قد غاب عنكم بموته وادرك بدر المصلحين افول
فان بقاء الغل فيكم ضلالة وقولكم زورا عليه ثقيل
فكفوا عن الاستاذ ان طريقه طريق سويٌّ ليس عنه نميل
وان كنتمو تبغون للدين رفعة وللقطر خيرا فالمراد جميل
هلموا ارونا كيف يصلح حاله وكيف يعز الشعب وهو ذليل
وكيف نرى في المسلمين توددا فيبدو على صدق القلوب دليل
وكيف نربي الناشئين ومالنا مدارس فيها للرشاد سبيل
وكيف نرى في الازهر العلم حافلا كما كان قبلا والهداة قليل
وكيف نرى كف الشحيح سحابة لها فوق هام المعوزين هطول
وكيف نحاكي اهل ذا العصر همة اذا قرعت للفائزين طبول
هنالك يدعو الدين ان محمدا له غرض في المسلمين جليل
ويعرف فضل الشيخ من كان جاحداً ويؤمن طوعا جاحد وذهول

ونظم الناشىء الذكي محمد فؤاد أفندي نجل حسن وهبي بك الازرجانلي مرثية نختار منها هذه الابيات

هلا بكيت بكاء الخائف الوجل ... على امام همام سيد بطل
على المروءة والاقدام مع كرم ... على التقى والنقا والعلم والعمل
على الذي كان لا تثنيه ثانية ... عن المعالي ولا يرضى عن الكسل
على الذي كان فخرا دائما أبدا ... لمصر والشرق في حل ومرتحل
على الذى خدم الاسلام مجتهدا ... على الذي فضله كالشمس في الحمل
على الذي أنشدت فتواه قائلة ... (اصالة الرأي صانتني عن الخطل)
ياليت شعري وقلب الناس منفطر ... والعين جاءت لهم بالمدمع المطل
هل ينبغ الدهر مقداما لنا عوضا ... وعاقلا مفردا يغني عن الجمل
ياويح مصر بها الآذان في صمم ... والعين في ديم والقلب في شغل
تبكي على يتمها اذ مات كافلها ... محمد عبده ذو الحزم والرتل
غوثاه غوثاه من رزء ألم بنا ... هل من عزاء لنا في رزئنا الجلل
لكن عزانا بأن الله قربه ... منه فنال لديه غاية الامل

وأرسل الينا الفاضل محمد نجيب أفندي سري مرثية نختار منها الابيات الآتية

أقمت فؤادي أم مقامك ارقال ... وعيني بخلت أم جودك اعوال
وهل بعد موت للامام محمد ... يروعك خطب أو لدمعك اهلال
فكنت كشمس حجبتها سحابة ... وللجهل في أفق القرائح آصال
ومافل هذا منك عزما وصارما ... فلله أعمام نموك وأخوال
هززت عروش المالكين وقد غدت ... بها يامقيم الدين صدع واخلال
وعزمك لم يشهد قناة ولم يقد ... جيوشا وقد حارت لبطشك ابطال

ومن يك متن الفرقدين ركابه وأضحى على مهد المجرة يختال
فما الناس إلا غابطون وطلع وما الناس إلا حاسدون وعذال
دفنتم على يا آل مصر بتربها ومصر على دفن الفضيلة تحتال
فلا الدين مشدود ولا الرشد عامل ولا الملك محفوظ ولا نحس الفال
عليك سلام الله ياخير راحل وفي النفس معنى من رحيلك قتال

ونظمت الاديبة البارعة نبويه موسى من تلميذات المدرسة السنية هذه المرثية

لقد مال ركن الدين وانهدم الفضل وأقوت ديار العلم وارتحل العدل
وغالت يد المقدار نفس محمد فكان نصيب الفقه من بعده الثكل
فهلا قضى العافون حزناً لفقده ومادت رواسي الارض وانطبق السهل
وهلا فديناه بخير هداتنا فليس له في علمه منهم مثل
وكان سراجاً وسط قوم وجلهم أخو رمد أو حاسد صدره الدحل
وغيثا على الصوان كان هبوطه وهل تخصب الصما وان هطل الوبل
وما كان الا رحمة الله للورى فجار بهم عن شكر نعمته الجهل
وسيفاً لنصر الحق جرده الحجا فأجلى العمى وارتد في غمده النصل
قضى عمره في خدمة الدين جاهدا وكان له في نصره الباع والحول
ذكي تقي زين العلم فعله بحسن اجتهاد لم يكن شيم من قبل
كريم لكل الناس فيه مارب فللأغنيا علم وللسوقة النيل
تجمل شمل المكرمات حياله وغاب عن الاحياء فانصدع الشمل
رحلت وللاحسان إثرك لوعة وللحكم والتفسير من بعدك الويل
وفي الخلد اخلاف الذي قد بذلته من العمل المبرور لا يبخس الكيل
سهرت وجاهدت الضلال وأهله وساعدت أهل الرشد حتى انجلى الليل

وبانت كضوء الشمس كل حقيقة فما ضل عن تحصيلها من له عقل
فان جحد الجهال فضلك والنهى فقد كُذّبت بالافك من قبلك الرسل
مصابك قد ساء المعالي وأهلها كما كان يرضيهم فعالك والقول
ولولا الذي خلفته من معارف لضاقت بنا الدنيا وزاد بها الهول
وفي بعض مادونته خير ملجأ كما كان قبل الموت في ربعك الظل
فصبراً جميلا معشر الشيخ للقضا وهل من مقيم لا يشد له رحل

حرف الميم

الخطب الفادح

لحضرة الفاضل صاحب التوقيع

خطب هوت من وقعه الاعلام طاشت له الآراء والافهام
وانحل عقد نظام أرباب النهى والنيرات انتابهن قتام
مابال عين الدهر تنقد في الورى حتى انتقت من دأبه الاقدام
مفتي الانام امام هذا العصر من لمصابه عظمت بنا الاسقام
فلذات أكباد الورى قد فتتت حزنا عليه وعمت الآلام
العلم يبكيه ويندبه التقى والفضل والايمان والاسلام
والازهر الزاهي توارى نوره وغدت مزلزلة به الاقدام
مقل المحابر قد نضبن من البكا لما بكت لرثائه الاقلام
تفسير آي الله أحكم وضعه حتى أضيئت للورى الاحكام
وأبان غامضه بأوضح حجة عقلية دهشت لها الاحلام
كم قد جلا عن دين أحمد شبهة حارت لها علماؤنا الاعلام

وأماط أستار الضلال عن النهى من بعد ماضلت بها الافهام
(هانوتو) بالبرهان خطأ وهمه وأضاخ حتى ماالديه كلام
أمحمد قد عاقني نظمي فلم أوف الرثاء وما علي ملام
لم أستطع تعداد فضلك سيدي ولك المآثر كلهن جسام
آل النهى ألهمتم صبرا على هذا المصاب وهكذا الايام
فامامكم في الخلد أضحى ثاويا قدسره الاجلال والاكرام
ولسان حال الحور يهتف قائلا اليوم قد حل النعيم امام

احمد ابراهيم ناظر مدرسة المعاقب بفارسكور

﴿ مرثية لحضرة الاستاذ الحكيم والفيلسوف العليم مولانا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ﴾

من نظم الشاعر الاديب صاحب التوقيع

رويدك أيها الناعي الحكيما نعيت الحزم والخلق العظيما
رويدك أيها الناعي لتدري بأنك قد نعيت به العلوما
لعلك قد نعيت وأنت ساه فقد فعسى الذي تنعي سليما
وليتك بالشفاء أتيت تشدو فننظم في مدائحك النجوما
بعيشك هل رأيت مصاب قوم كمثل مصابنا جللا اليما
بعيشك هل رأيت مصاب نفس أضاع بوقعه الشرف الصميما
أجل فمحمد مامات الا ليصدع موته الدين القويما
ففكر مااردت فلست تلقى كريما ينشد الفعل الكريما
ولست بواجد في مصر الا مبيدا للمكارم أو مليما

أغرك أن ترى فيها رجالا يرون أن لا يروا منهم زعيما
قضى وكأنما الاسلام طفل غدا بذهاب والده يتيما
أأبكيه واندب حظ جم من الايتام كان بهم رحيما
أأبكيه أم المعروف مالت دعائمه وكان لها مقيما
أأبكيه أم العلم اكفهرت أسرته وكان به وسيما
محمد انما الدنيا أرتنا بموتك ذلك الخطب الجسيما
فان تذهب فما في العيش خير وهل للخير بعدك أن يقيما
كان العلم جسم فارقته بفقدك روحه فغدا رميما
كأن مغارس الخيرات روض أتاح له الردى ريحا سموما
لبثت دريئة الاسلام حينا ترد بفضل حكمتك الخصوما
وقمت معضدا للعلم حتى رأينا شأن طالبه عظيما
وقلدت المناصب فاستعزت وكنت بها أبا الامل المروما
فما أغضبت من صلف تقيا ولا أرضيت عن ملق ظلوما
وما أقدمت في أمر تراه وعدت بغير غايته نديما
ولا فلت عزيمتك الليالي فعارت حسن منطقك الوجوما
ولكن في قضاء الله سر أضل بكنهه الفطن العليما
دعاك وكلنا أمل لتبقى فترأب بالهدى صدعا عقيما
فياجدثا حويت المجد غضا أراك وقد غدوت به نعيما
فلا زلت تحييك الغوادي ودام بجنة المأوى مقيما

بقلم أحمد جوده بابيار غربيه

﴿ رثاء المغفور له فضيلة الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده ﴾

من نظم الشاعر المشهور أحمد أفندي نسيم وطبعت يوم الوفاة ووزعت

أخنى الحمام على أبر إمام فكأنه أخنى على الاسلام
فزعت من الخطب المناسك وانثنت تبكي بأربعة عليه سجام
كان المغيث اذا دعاه مسهد ناجي الاسى وكوارث الايام
كان الرباب اذا همى شؤبوبه والخلق من متقشع وجهام
لم ينأ عن هذي القلوب وانما ترك القلوب عليه ذات ضرام
شلت يد رمت الامام ولم تخب فأصابت الدنيا بغير سهام
خطب يحرك من جبال يلملم وجوى يفتت من جبال شمام
لا تجزعي يا نفس من موت فقد صمت بـ ا لا تعهدين صمام
موت يدب الى ابن آدم خلسة خير من الآلام والاسقام
والنفس ترغب في البقاء وانما خرجت الى الدنيا ليوم حمام
لبيك يا هادي العباد الى الهدى لبيك تحت جنادل ورجام
خلت البرية خلف نعشك أمة بعثت من الدنيا ليوم زحام
حملوا سريرك والخلائق حوله وضعوا الرؤوس مواضع الاقدام
وكانما فوق العباد عصابة للطير من دهش ومن اعظام
والناس حيرى ليس تعقل من أسى دهم النفوس بخفة الاحلام
يمشون حولك مطرقين وكلهم من سجد لك هيبة وقيام
من للشريعة من يبين لقومها حكمي حلال بينهم وحرام
من للتقي وقد رآك هلاله ان شك في فطر له وصيام
دفنوك في ترب ولست بناقص فالتبر يوجد في ثرى ورغام

ياليتهم قد غسلوك بدمع طهر كشؤبوب السحابة هام
أو كفنوك بصحف فسرته من غامض الآيات والاحكام
أو انزلوك من الفرادس جنة لاحفرة صفرت من الا كرام
أوليتهم حفروا لجسمك درة لا مرقداً يقتات بالاجسام
أوليتهم حملوك فوق اريكة حدباء قد صنعت من الاقلام
أوليتني قد مت قبلك تاركا مدحي بما أوليته ونظامي
ثم آمنا تحت الثرى مع معشر لا يلهجون بشرة وخصام
وارحل عن الاولى وحليتك التقى وانزل من الاخرى بدار مقام
عذراً اذا قصرت فيك محمد فالرزء أفنى فى رثاك كلامي
صلى عليك الله ما سح الحيا وهمى على مثواك صوب غمام

وقال الفاضل (ح . ش) من أدباء المسلمين في سوريا

واصلي الاحزان يا ام العلا قد فقدت السيد البر الرحيم
لن تلاقي عوضاً عنه ولا أنت من أمثاله الا عقيم

***

قد خلا بيتك لما ان قضى من بهاء معه فيه قد سكن
فاشبعي بعد ابتهاج مضضاً وارتوي بعد الصفا من ذا الحزن
ويح قوم خيرهم عنهم مضى ولديهم أعظم الغم عدن
عنهم قد سار بدر كملا بالخطب فادح صعب جسيم
ذاك بدر العلم لا حول ولا قوة الا بذي العرش العظيم

***

ويحنا قد عاجلت أيدي المنون شمسنا حتى توارت في الحجاب

والفردٍ جمعت فيه الفنون وأتاه العلم من غير حساب
جاء نوراً كاشفاً كل دجون ومبيناً للملا نهج الصواب
ثم عن ذي الغير الدنيا خلا وأتى الباقي في قلب سليم
راجيا تلقاؤه كل علا راجيا في قربه أبهى نعيم

***

إشرقي ايتها الاقلام في مدمع منا لقد مد المداد
واندبي ألسن هذه الصحف واشملي الازهر اثواب الحداد
كان هذا الفرد روح الشرف كيف لا يأسى له كل فؤاد
قد ضحا حاسده لما انجلى عظم الامر بذا الرزء العظيم
راح ندماناً يعض الأنملا ايته ما كان في أمر مليم

***

يارجال الله قد راح الامام عبده من صاح جيئوا للفلاح
واقتفى سنة مصباح الظلام أحمد الهادي الى سبل الصلاح
أيكم يسعد في اسو الكلام بروايات معانيه الصحاح
تلكم اثاره دلت على فضله يعقلها كل فهيم
رحمة الله عليه ما انجلى نور بدر التم في الليل البهيم

﴿ مرثيه للمغفور له المرحوم العالم العلامة مولانا الاستاذ العلم الشيخ محمد عبده مفتي مصر طيب الله ثراه ﴾

لأحد تلاميذ الامام الأدباء

أحقا فارق الدنيا الامام وأغمد في الثرى ذاك الحسام
وغابت شمس أنوار المعالي وكانت لا تنال ولا ترام

(ومنها)

لقد فقد الانام به اماما ألا لله من فقد الانام
أحامي الدين من يحمي حماه وينصره اذا اشتد الخصام
ويكسر من شكيمة شانئيه اذا ماشبهة منهم تقام
ويوم قد توالى ماتوالى عليه فلاح منك الابتسام
وقمت مناضلا عنه بقلب تأبى أن يقلبه الملام
لقد دافعت جهدك عن علاه دفاع الليث همّ به انتقام
عهدناك الشجاع فأنت سهم تصيب اذا تفزعت السهام
اذا اغتنمت مضاربها المواضي فما بسواك يجديها اغتنام
وان طغت الخطوب أقمت ركنا بعزمك لا يهاض ولا يضام
(فهانوتو) جعلت الرعب يقصي أمانيه وقد عز المرام
بقوة حجة صيغت ولكن كلاما لا يدانيه كلام
فمن للعلم بعدك ليت شعري وأنت لكعبة العلم المقام
أقمت تفسر القرآن حينا ولم يمنعك عن نفع سقام
وفي التوحيد اذ تهدي عقولا لك الآيات في الناس العظام
جعلت تبثه شرقا وغربا ولم تشغلك دعد أو أمام
ألست الواهب الالباب علما تحلى المخلصون به فهاموا
ألست الغيث بالارشاد تروي صدورا كم أضر بها الاوام
سلوا الافتاء كم شقت عليه مرارتها فليس بها التئام
سلوا علم البلاغة عن خطيب يهيم بحسن منطقة النظام
لتنصد به المعارف والمعالي وملء فؤادها الشاكي ضرام

لتندبه السماحة فهي أدرى بأخلاق تمشقها بشام
وتندبه الارامل واليتامى وتندب ثكلها مصر وشام
الا من للحزين عليك مثلي فقلبي فيك منك به غرام
أقول لمعشري والدمع يجري دما من دون صيبه الغمام
صحابي والمصيبة جمعتنا وقد يدعو الى البلوى اعتصام
أ كل الدهر جمع وافتراق أ كل الدهر قرب وانفصام

(ومنها)

سلام الله بالرضوان يهمي على المفتي يتبعه سلام
على روح المشرف بالمزايا ندى الكف ماضن الجهام
(محمد عبده) من كان شمسا بنور علومه انقشع الظلام
سقى المولى برحمته ثراه شآبيبا يواصله السلام
له الفردوس أضحت دار خلد بمسك قبوله يسمو الختام

وقال الفاضل « ط . ن » من أدباء المسلمين في سوريا

هكذا هكذا تكون الكلوم قد قضى ذا كم العليم العظيم
قد قضى مفتي مصر رب المعالي فاعترانا لذا المصاب وجوم
لا أرانا من بعده نتسلى فالتسلي عن مثله مذموم
سنة الله لا ترد كما قد كان دوما ان لا حياة تدوم
لكن القلب والخطوب سهام صائبات لوقعها لا يقوم
كيف يقوى للخطب في فقد بدر شاع في الكون من سناه علوم
آية الله عبده من اتانا بكتاب ضياه فينا عميم
جاءه الحق والشعوب تمنى خلده لكن الخلود عديم

عدمته مصر بل الشرق طرا اذ دهاه بعد الضياء غيوم
فسلام من الاله عليه فله آب والفؤاد سليم
وسحاب الرضوان يسقي ضريحا حل فيه هذا الامام الكريم

المراثي الشجية

(في الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية)

للناظم الناثر عبد المسيح بك انطاكي صاحب جريدة العمران وقد اختصرناها

مات الامام فمن الى الاسلام وقضى الجوادُ فمن الى الايتام
ومن الذي ترجوه للقرآن والا (م) يمان بعد مصحح الاوهام
ومن الذي ترجوه للافتا ومن ترجو لدفع مظالم الظلام
ومن الذي ترجوه للشورى وقد فقدت بهِ ركنا رفيعَ مقام
ومن الذي ترجوه للاصلاح والد (م) ين الحنيف لحاجة لهمام
من للشريعة بعده ليذيعها بين الانام بغاية الاحكام
ومن الذي ترجوه بعد محمد للدين والدنيا وما من حام
ان كان قد نجمت به مصر فقد نجمت به فعلا بلاد الشام
والهند تندب واعظا ومديراً والسند تبكيه بدمع هام
والرزء رزء المسلمين جميعهم والخطب اي والله خطب دام

***

شيخ الجوامع مصدر الدين الحنيف ومرجع التفسير في الاحكام
اولست انت الازهر السامي البها ومقر دست السادة الاعلام
ماذا دهاك اليوم حتى أظلمت شمس الحقيقة من فنائك السامي

قد كنت حتى الأمس مجلي الحق في الد ... ين القويم بمرشد قوام
لله أنت وقد فقدت معلما ... علما يذيع حقائق الالهام
هلا عذدت لمن فقدت خليفة ... ليذيع هذا الدين في الاقوام
من يفتنا من بعد مالك عصره ... ويحل معقد طلسم الحكام
ويصون أحكام الشريعة من أذى ال ... جهال عند تخاصم الاخصام
ويوزع العدل الصحيح بحكمة ... بين الوضيع وخصمه المتسامي
ويغل أيدي الطامعين اذا اعتدوا ... في مدها يوماً لكسب حرام
جمعية الاسلام ان المسلمي ... ن اليوم قد فقدوا الامام السامي
فلأن حزنت على المؤسس انما ... حزنت عليه مرابع الاسلام
يا مجلس الشورى كانك ذاكر ... عهد الفقيد وكان عهد كرام
من بعده يقوي على التوفيق ما ... بين العباد وزمرة الحكام
او ان يقوم بخدمة الاوطان في ... وجه الزمان اذا طغى بعقام
يا شرع دين محمد قد قيدو ... ك وضيقوا في البحث دون تمام
والاجتهاد لقد قضوا ظلما علي ... ه ولم يكن في اصله بحرام
ولذاك ابقوا المسلمين كما همو ... والناس في سير الى القدام
فالقلب أزهر في سنا العمران اما ... الشرق فهو مقهقر بنظام
حتى أتى الاستاذ يقصد كر إغ ... لاق القديم بغير ما استسلام
فرموه بالكفران وهو موحد ... وبدين ربك واسع الالمام
فمن الذي يمشي على آثاره ... ويسير للعمران بالاسلام

***

يا نابغاً أورى بألباب الورى ... ناراً قد استعرت وذات ضرام

قد كنت فينا المرشد الهادي الحكيـ ـم ولم تزل في حاجة لامام
أسفا عليك اذا علا صوت الطغا م على الكرام بمقبل الاعوام
وسطا على الدين الحنيف عداته سطواً يبيح عبادة الاصنام
وقضى على الاصلاح ارباب القديـ ـم بعطاق الوسواس والاوهام
جاهدت في سبل الديانة والتقى والخير حسب ارادة العلام
ونشرت دين محمـد بين الملا وسعيت في تعضيد كل سلام
وعملت مافوق القوى لهنا الورى وأنرت بالتقوى دجى الافهام
فعليك من أهل الكتاب تحية عطرية مشفوعة بسلام
وعلى ضريحك نفحة الرضوان والـ غفران والاجلال والاعظام

دموع الشعر على فقيد العصر

للشاب الذكي عبد الحميد افندي حمدي نجل ابراهيم حمدي بك

النوم بعدك للعيون حرام يا كوكبا غدرت بك الايام
والعلم بعدك امحلت اصقاعه والدين قد لعبت به الاحلام
والارض باكية عليك مع السما والناس بعدك كلهم أيتام
مصر عليك تقطعت أوصالها والهند تبكي خطبنا والشام
جزع الانام عليك يوم اتاهم خبر الممات وحارت الافهام
وبكوا وضج النيران واظلما وبكى النهى وتصدع الاسلام
(محمد) من ذا تركت لديننا والجهل قد رفعت له الاعلام
لوان في مصر سواك لكفكفت من دمعها واستؤنف الاقدام
لوان في مصر سواك لاملت خيرا ولم تلعب بها الاوهام

(ومنها)

(احمد) خاب الرجاء فليتنا ... من قبل خطبك في القبور نيام
خاب الرجاء فلا هناء يرتجى ... كلا ولا صفو الحياة يرام
ياليتنا في الجهل عشنا عمرنا ... لم ندر كيف تقوم الاقلام
أدنيتنا للعلم ثم تركتنا ... ولنا اليه هزة وغرام
ياراحلا عنا مقامك عندنا ... باق ورسمك في القلوب مقام
كنت السعادة للوجود فغيبت ... فكأنها وكأنه احلام

(ومنها في الختام)

اسفا عليك فقيد مصر ومذهبي ... ان الاسى الا عليك حرام
اسفا عليك وليتني كنت الفدا ... كيما يعيش بعيشك الاسلام
ياجاهلي قدر الامام تصبروا ... تنبيكموا عن فضله الايام
لاتسألوا عن قدره جهلاءكم ... وسلوا نعيم الله كيف ينام
في جيرة الرحمن ياخير امرئ ... كانت لهم في العالمين مهام
تبكي عليك قلوبنا وعيوننا ... ويحفك الاجلال والاكرام
فعليك منا حسرة لاتنقضي ... ومن الاله تحية وسلام

وقال العالم الفاضل والكاتب الاجتماعي السيد الشيخ عبد الحميد الزهراوي من علماء حمص (سوريا)

نعى البرق شمس العصر فاستحوذت ظلما ... وأرعدت الالباب إذ امطرت غما
توارى بحجب الغيب عنا محمد ... إمام الهدى السامي بحكمته العظمى
وآب يوافي الحق في القدس (عبده) ... وغادر هذي الأرض مستخلفاً رسما
وكان بهذي الأرض مفردها الذي ... بأنواره الحسنى سما قدرها النجما
فياليت شعري كيف يهدأ روعها ... وقد أرهق الأقطار هذا النبا صدما

لقد ذادَ منه الروحَ عن قتن هنا شهودُ جمال القدسِ في حضرة ثم
فما هو إلاّ في معارج بهجةٍ وماالأرضُ إلاّ ثاكل فردها الشه
ومانحن الاّ واجدون لفقده وان كان حيًّا عندنا هديهُ الأ
فنذكرُه فرحى لرفعة شأنه وحسبي لهذا الكلم أصعب به كلم
ونذكره كيْ نستضيءَ بعلمه وأعظم بما أبقى الامام لنا علما

***

محمدُ لا نأسى لفقد سناك بل سناؤك باقٍ بيننا يكشف الظلما
ولكنها الآمالُ بتَّ عرى لها نواك وكنا نرتجي الزيدَ والإنما
ودولة جمع بعد فرق أقمتها نظمت بها الأقوام في ذا الهدى نظما
فكان بمصر والشآم وفارس وفي الهندِ والأتراكِ راج لك الدوما
ولكن لأنواع الظهور مراتبٌ لها أجلٌ يثني الظهور اذا حما

***

محمدُ لانقلى وان قومنا قلوا لنا بلظى الانكار واستسهلوا الاثما
لخلفت نور الشرق خير عصابةٍ ترى نشر هذا النور مفروضها الحتما
فلبيك لاتأسف وهديك بيننا لأنك لم تجهل الحنادس الدهما
ورحماك أشرف من علاك عساك أن ترى أثر النصح الذي ينهض العزما
وتهنأ اذ يبدو لك الغرس مثمرا ونورك مايطفا ونهجك مايعمى

***

محمد روح أنت من أمر ربنا لتبرىء باسم الفاطر العمي والصما
ليبصر من أعمته أوهامُ من خلوا ويسمع مرء من تخبطهم صما
أتيت فأدّيت الامانة رافعاً منار الهدى والحق في دامس عما
ورحت الى القدس الذي قد نزلت من حماه لهذي الدار تستنزلُ النعمى
هنالك زد مجداً تبارك مسرةً تعاظم بهاء طب مجالي طبّ بسما

***

امامُ الهدى هذا وداعُ مفجع لهُ مهجةٌ في حبكم تنكرُ اللوما

تذكر فيه النفس يوم مصابها وأعظم به رزءاً وأكبر به خطبا
وترفع فيه عهدها بمحبة لحضرة قدس عندها قدرك الاسمى
وقد تأتسي ذي النفس والصحب كلهم بذي الشمس اما صادفت في الضحى غيما
فبارك وألق الصبر رب محمد علينا وهبنا ربنا كلنا رحمى

وأرسل الينا الفاضل كمال الدين أفندي جودت معاون تفتيش الاوقاف في المحلة مرثية مطولة اخترنا منها ما يأتي

مصابك يامفتي الديار عظيم وخطبك في كل القلوب أليم
مصاب بدك الطود هول نزوله ورزء لكل المسلمين عظيم
أقيمت له في كل بيت مآتم تجدد آلام الاسى وتديم
لقد كنت للاسلام أشفق والد فأضحى بهذا الرزء وهو يتيم
وكنت أبا للعائذين فأصبحوا وليس لهم في العالمين رحيم
وللازهر المعمور نبراس أهله فأصبح من فقد السراج يهيم
وفي مجلس الشورى شفيقا بامة تود لها كسب العلا وتروم
وهاهي أمسى خبط عشواء سيرها حوالي رجاها اليأس بات يحوم
لمن تترك الدين الذي كم خدمته تقوم معوجا له وتقيم
فيا أعظم الاعلام علما وحكمة اذا ماتبدى في الانام حكيم
ويا واحدا في المسلمين بفقده غدا أمل الاسلام وهو عديم
ويافيلسوف الشرق بالله فاتئد حنانيك لاتهجر فأنت حليم
حنانيك لاتعجل الى القبر إننا كثير علينا أن يموت كريم
فكيف بنا في فقد واجد قطرنا حكيم وبالداء الدفين عليم

(لسان الخاص والعام • في رثاء فقيد العلم والاسلام)

مرثية طويلة من نظم الفاضل الشيخ محمد حسن التندي بديروط المحطة اختصرناها

آن البكاء فما عليه ملام ... اذظل يبكي العلم والاسلام
يبكي أبا المعقول والمنقول ذا ... لكم الامام الاعظم المقدام
بحر لقد جارى الكهول لغاية ... فاجتازهم في الفضل وهو غلام
ما مبتدأ أو منتهى الا له ... حقا أشار بأن ذاك إمام
جمع ولكن في عيونك مفرد ... رقم وما من بعده أرقام
ذو همة لو انها قسمت على ... كل الرجال لعالت الاقسام
يبكي عليه أولو العقول باسرهم ... الا القليل فانهم للئام
أبدى لهم شمس العلى فتكففوا ... ودعاهم فاذا الجميع نيام
ياغرة الدنيا وزهرتها التي ... ولت عليك مدى الزمان سلام

* (الفاجعة المؤلمة) *

من نظم الاديب الكاتب الشاعر محمد صادق افندي عنبر (المحرر الآن بجريدة المنبر)

أي رزء ياأمة الاسلام ... يتقى بعد موت ذاك الامام
غير داء كما عهدت جسام ... كلنا منه في عناء جسام
كامن في النفوس يفتك فيها ... فوق فتك الخطي والصمصام
نال منا مالم تنله الليالي ... من بئيس أشفى على الاعدام
انما الناس في الحياة نيام ... ان قضوها فما هم بالنيام
واذا جاز في الحقائق شك ... جاز الا في شرب كاس الحمام
والورى بعضهم يمر ويبقى ... خالداً ذكره على الاعوام
انني أعرف النوابغ في الشر ... ق قصار الآمال والأيام

هم يموتون كالأهلة لم يبـ لغ هلال منها أوان التمام
يافقيد الاسلام من بعدك اليو م يرجّى لنصرة الاسلام
لم يخف فيك ربه القدر المحـ توم اذ جل فيك رزء الكرام
كنت للدين حجة واعتصاما فهو من غير حجة واعتصام
تصرع الوهم دونه حيث تفري بالبراهين مهجة الأوهام
وتردّ الظنون بالحقّ حتى قمت بالدين عن جميع الانام
ورفعت الاسلام أعلى مقام بيراع قد نال أعلى مقام
هو من نور خالق النور والحكـ مة لا مثل هذه الاقلام
لو أراد الاله أن يرفع الشر ق لابقى على حياة الامام
بيد أن المولى اصطفاه فأخلى أمم الشرق من حكيم همام
كلنا للفناء والخلد أبقى من حياة تمرّ كالاحلام
ولنا بعده شقاء مقيم وله بعدنا نعيم المقام

وقال الاستاذ الشيخ محمد مروان مدرس العربية بمدرسة العرب بالزقازيق واختصرناها

قد حل بالدين القويم الرزء والخطب الجسيم
هدت دعائم شرعنا بعد الصراط المستقيم
زهقت لفقدك روح شر ع الله والدين القويم
للدين كنت معززا بالفكر والذوق السليم
فقت الائمة كلهم فدعيت بالحكم الحكيم
يالوعة الافتاء بعـ ـد محمد العدل العليم
قد كنت بالثقلين يا مولى الوري البر الرحيم

رب البلاغة والعلا والجاه والخلق العظيم
والخير والاحسان والا (م) نعام والنفع العميم
ناداه مولاه فأر (م) خ مات مفتينا الكريم
سنة ١٣٢٣ هـ ٣٠١ ٥٨١ ٤٤١

﴿ رثاء المغفور له امام العصر وحكيم الشرق مولانا الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ﴾

من نظم الاديب محمد أفندي محمد الموظف بديوان الاوقاف

ألا فليرتد الشرق القتاما ويبد النور في الدنيا ظلاما
وتنهل الدموع دما وتجري عيونا قد تفجرت انسجاما
وتنحل الروابط من حياة نذوق بكاسها موتا زؤاما
وبيك الدين خطبا هدّمنه بناء كان بالتقوى مقاما
وبيك العلم والعلماء جمعا جليلا سيدا سندا اماما
كبير أئمة الاسلام طرا وأفضلهم وأعلاهم مقاما
وأفصحهم وأبلغهم بيانا وأحفظهم وأرعاهم ذماما
قضى والله يعلم كيف بتنا نعاني الحزن والخطب الجساما
ملمات غدون ورحن شتى وأرزاء تحل بنا دواما
ولكن مالهذا الخطب مثل يذيب القلب حزنا واضطراما
فياهذا الجليل وكنت حيا أنادي منك مقداما هماما
لبثت العمر مصباحا مضيئا وللخيرات أرشدت الاناما
وكنت أبا حنيفة في الفتاوى ودرة حكمة صيغت كلاما

وأمة عزمة تعلو الثريا ودولة همة حسنت نظاما
فكم شاهدت حولك من ألوف ودار العلم ترتج ازدحاما
ليشهد من تولته شكوك بدين الله من رفع اللثاما

***

ويانعش الجليل عظمت قدرا وقد حملته أبهى وساما
وسرت به الامام مع الهوينا ومن عرف الامام مشى أماما
لعمرك لم يرعني في بلادي سوى ابي أرى فيها لثاما
اذا ماجئتهم والشمس ظهرا عموا واستبدلوا منها غماما
وقد رضعوا البان الحقد دهرا فما كبروا ولا بلغوا الفطاما
وكم هز الدليل لهم رؤسا ليوقظهم وما برحوا نياما
ولكن سوف تأتيهم ليال تحاسبهم بتدقيق على ما
رسول الحكمة الغراء ذرهم الى مالا ترى فيها خصاما
الى جنات عدن حيت تلقى طوائفها تحييك السلاما
تهلل اذ رأتك بها هلالا وتلقاها وتلقاك ابتساما
فقد رضي الاله على امام يقول الحق لا يخشى ملاما
تولاني قنوط من حياتي ولم أبلغ من الدنيا مراما
حياة تلك عقباها ودنيا يكون مصابها هذا ختاما
حياة كلها بؤس وأولى لحبل مودة الدنيا انصراما
فبعد ذهاب هذا الفضل منها أرى عيش الاديب بها حراما

وجاءتنا هذه المرثية من الاديبة البارعة « ملك » ناصف كريمة حفني بك ناصف المتخرجة في القسم العالي من المدرسة السنية

ليبكك العلم والاسلام ماسلما وليذرفا الدمع أو فليمزجاه دما
وليبعث الفضل في منعاك روح أسى كما بعثت الى تحصيله الامما
غالتك غائلة الموت التي صدعت من الهدى علما تعشو له العلما
مددت للعلم في مصر جداوله فلم تدع في نفوس الواردين ظما
والدين طهرته من بدعة عرضت عليه في سالف العصر الذي انصرما
والعلم والدين للجنسين مطلب فليس يختص جنس منهما بهما
فنحن في الحزن شاطرنا الرجال كما في الاستفادة شاطرناهم قدما
لهفي على طرق الاصلاح قد تركت بلا منار وأمسى نورها ظلما
ياحجة الدين من يبني دعائمه للمسلمين اذا بنيانه انهدما
عدت عليك عوادي الدهر فاقتلعت من بيننا برداك العلم والكرما
واحسرتاه على العافين من لهم يسد اعوازهم ان حادث دهما
اذا شكا معدم يوما خصاصته بسطت كفاله بالمكرمات همى
نشرت في الازهر الاصلاح منتصرا للحق معتضدا بالله معتصما
رددت (هانوتو) والقوم الذين نحوا منحاه عن فرية في ديننا زعما
حملت من خطط الاعمال أصعبها أن العظائم في الدنيا لمن عظما
عاجلت ياموت مولانا وسيدنا تبت يداك لقد أورثتنا العدما
كلامه الدر الا انه حكم فهل سمعت بدر ينتج الحكما
لولم يدبج سوى التفسير منطقه لجل قدرا كما تهوى العلا وسما
اذا على منبر فاضت بلاغته بالموعظات نسيت العرب والعجما

لا غرو ان كان بالاصلاح مضطلعا فانه عاشق الاصلاح مذ فطما
من للمحاكم والفتيا ينظمها ومن لمجلس شورانا اذا التأما
ومن لجمعية العافين يسعفهم اذا الزمان بهم لم يبق غير ذِما
محمد ضاعت الآمال وارتجعت الى الوراء أماني سرت أمما
غاض الوفاق كما فاض الشقاق وقد زاد النفاق فأما الحق فاهتضما
والدهر آلى فلا حول ولا حيل أن لا يراعي لنا إلاًّ ولا ذمما
وقد قضى الله أن نبقى بمنخفض نرى على هامنا من غيرنا قدما
ياأيها الحاسدوه ضل سعيكم أما نهاكم ضمير عن أذاه أما
كفاكم مارميتم قبل مصرعه شلت يمين فتى بعد الممات رمى
أن المنايا لاقوام الورى شرع من رام في دهره خلدا فقدوهما
راقت شعوب من العليا ذوائبها فاستأصلتها فبات المجد منفصما
أن السحاب يصيب الارض ماطره ويسلم الكل فيها ماخلا القمما
وفي الكواكب لا يعروا الكسوف سوى شمس وأحسن مافي الروض مارجما
كفاك من هذه الدنيا متاعبها لا يدرك النور من في مقلتيه عما
ولا يلذ بأنغام توقعها ذو عاهة يشتكي في اذنه صمما
أحلك الله دار الخلد دانية قطوفها وسقاك الدائم الديما

وقال الاصولي البارع والشاعر المجيد نصر الدين أفندي زغلول المحامي الشهير

خطب ألمّ فآلم الاسلاما فالام نحس المسلمين إلاما
ياأيها القدر المطل على الورى أقضيت أن نبقى الزمان يتامى
خطب تصدعت القلوب لهوله وسقى النفوس من المرارة جاما
خِطب تذوب له الجوانح لوعة وعلى الاسى ضم الحشا آلاما

خطب تخر الشامخات لذكره مات الامام فهل ترون اماما
مات الذي لو مد في أيامه لأمد دين محمد وأقاما
في الله عمر قد طواه مجاهدا بدعا لقوم قلدوا الاوهاما
قوال صدق مظهراً لحقائق تعيي العقول وتعجز الافهاما
حتى تنفس فضله وتنافست فيه البلاد وأوطأته الهاما
متنقلا كالنيرات لضوئه تعشو عقول تشتكي الاظلاما
كم حل من بلد فاعدد أهله منهم سويداء القلوب مقاما
يتزاحمون على موارد فضله حتى أعل وانهل الاحلاما
فاضت عليهم من غمائم علمه ديم عليها كم حسدنا الشاما
أضحى لمصر عليه وجه عابس بالامس كان به لنا بساما
شقت عليه جيوبها ولطالما لبست به حللا زهت ووساما
واستعبرت عيناً عليه قريحة حزنا وكم قرت به اعواما
واستنكرت شمس النهار مضيئة وتخيلت بدر الضياء ظلاما
فكأنما ثكلت بنيها كلهم وبنت لهم بين التراب رجاما
يامصر إيه ان خطبك فاجع فيه العزاء يجدد الايلاما
مات الذي بكت المعالي فقده وغدت لذاك المكرمات أيامى
مات الذي قد كان مطلع حكمة في الشرق يبهر نورها الاقواما
غربت فليس لها طلوع بعده ما كان أبهى نورها أياما
مرت فما مر الحياة بمنقض حتى نلاقي بين ذاك حماما
استودع العبرات طرفاً كلما قلبته خال الانام نياما
لاهمة ترجي وليس مروءة ماتا ومات أبوهما فسلاما

أمحمد ان ضم لحدك أعظما فلك الجوانح ضمت الإعظاما
أووسدوك من التراب فأنت في كل النفوس موسد اكراما
أوسنموا قبراً غربت خلاله فلك المظاهر غاربا وسناما
أو غاب شخصك في الثرى متحجبا فمثاله بين المآثر قاما
هم أسلموك الى التراب فأغمدوا في القبر منك الصارم الصمصاما
ثم انثنوا يبكون فيك مناقبا عنها تقاصر من بنى الاهراما
بأس يزيل الراسيات ثباته وعزيمة فوق السماك مراما
رأي كأن الصبح بعض سنائه وكأن طيّ ضميرك الالهاما
لسن يصوغ النيرات بيانه حججا يمزق نورها الابهاما
قلم يروع الحادثات صريفه ان جال تخشاه الصروف خصاما
في حكمة سقراط يصغر دونها تأبى لغيرك ان تميط لثاما
أمحمد طوقت دين محمد مننا تقبلها الاله جساما
فنصرته وخذلت (هانوتو) وما أعانت حرباً أو أخفت سلاما
ورميت عن قوس براه محمد فرشقت مهجة عائبيه سهاما
وكشفت للدينين سر حقائق فكشفت عيباً أكنوه وذاما

***

تبكيك آيات الكتاب وكم بكت لله ممن ضللوا الافهاما
عرفتك تدري للنبي مكانة عرفتك تدري للاله مقاما
بجلت لك الاستار عن اسرارها واستخلصتك على الهدى قواما
بجلوت أحكام الكتاب على النهى وأريتنا الاعجاز والاحكاما
يبكيك علم قد رفعت مناره ونشرت في عليائه الاعلاما

جددته واقت منه معالما كانت تقسمها البلى أقساما
أمست تتيه على الزمان صروحه اذ أرغمت أنف العدى ارغاما
غادرته فرمت شوامخ عزه نوب يصير لها المشيد رغاما
فكأنه وكأن أمسا لم يكن وكأنما رأت العيون مناما

***

أمحمد قد قمت بين عشيرة كمحمد في قومه اذ قاما
تدعو الى النهج القويم وتبتغي بالخاملين الى الرقي قياما
فتحملوا الاوزار فيك وسودوا منها صحائف دينهم أرقاما
ما أنقصوا فضلا يزيدك رفعة كلا ولا خلنا الكلام كلاما
ان الفضائل ان ظهرن عظائما لقي العظيم بقدرهن خصاما
أمحمد ناديت كل محمد فوجدت بعدك من دعوت نياما
ادعو الوفا ادعو المروءة لا أرى بالدار بعدك في الخلال كراما
من للارامل بعد برك عائلا يرعى ويكفل جوده الأيتاما
ماراقهن ندى يديك هنيهة حتى أرقن لك الدموع سجاما
ضاعت رغائب أمة خلفتها نبتاً فلم يُسق النبات غماما
ماتت لموتك وانطوت آمالها وغدت كما مد الكرى أحلاما
ياليت نفسي قد فدتك وعندها ذمم لفضلك أو تفيك ذماما
تبكيك عين كنت في انسانها فرداً جمعت العالمين تماما
مامثل خطبك في الخطوب فانه خطب غدا للفاجعات ختاما
أمحمد حول الضريح معاشر نثروا الدموع وابنوك قياما
وقفوا أمامك خشعا أبصارهم بين الجلال مطأطئين الهاما

سكنوا وقد سكن الوجيف قلوبهم · في موقف قد زلزل الاقداما
كبر الرثاء عن القريض وأصبحت · فيك المحابر تفضل الاقلاما
ماذا يعدد شاعر أو ناثر · ولك الخلال الساميات مقاما
أستودع الرحمن منك شمائلا · ضربت بأفنية النعيم خياما
طلعت على الدنيا فملت أهلها · فتخيرت دار الكريم مقاما
فعليك من رضوان ربك دائما · غيث تصبب رحمة وسلاما

تعزية وتأبين ورثاء

جاءتنا رسالة في ذلك من الفاضل الاديب محمد توفيق أفندي العطار فرأينا ان نختصرها وننشر المختصر بين حرفي الميم والنون من المراثي لانه أليق بها وهو

سيدي الرشيد ذا المنار

اخط بسواد الفؤاد . آيات الحداد . فيضطرم الفكر . ويختلج الذكر . فلا اجد من الاقتدار . ما أصل به الى غير الاعتذار . فواصلت الجد . بقلب غير مستعد . حيث ترتجف الكف . وتتولى جيوش الافكار عن الزحف . لأقوم بواجب الرثاء . وأجعل الذكرى عين العزاء . حتى امكنني الاستمرار . وساعدتني الاقدار . فسطرت هذه الابيات فمنوا بقبولها ادام الله لنا بكم خلفا لخير سلف . ورحم الله من بالحق اعترف . فقد عظمت لفقيد هذا الدين المنة . بحماية الكتاب والسنة . وانتم احسن تلامذته الاحرار . تنادون بنصرته على اعلا منار . مد الله ايامكم . ورفع على المنار أعلامكم

فقد الإمام من المصاب أمام كانت تسر حديثه الايام
رزءله كل الشؤون تعطلت الآن يندب فقده الاسلام

نعم إنه كان من المصائب كبّارا . أجرى الدموع انهارا . واصمى الافئدة والضمائر . وابلى العقول والسرائر . فوجمت القلوب والابصار . وارتجت القرى والامصار . فتجلى الحداد . واستعصم السداد . وظهر رزء العواصم من البدع . واغمد سيف القواصم من الجزع .

هل للحوادث والخطوب قلوب فيبثها شجو الاسى المكروب
أم هل لهذا الدهر بعض تدبر فنقول أو يصغى لنا فيجيب
كم للزمان على الانام جناية كبرت فيمقتها العلا ويصيب
تعدو بوادره فيقدم انسها فلباسها يوم النكير قشيب
يوم أبان البرق نعي محمد . يوم على أهل القلوب عصيب

(ومنها)

عز العزاء على العلوم فاصبحت بالكتم طرس حياتها مخضوب
من للسياحة والتدبر والحجا من للكياسة والخطوب ضروب
من للحقائق ان تحجب كنهها ليزول عنها الستر والتحجيب
من للشريعة كي يرد أصولها لكتابها بالجد فهو رقيب
من للتمدن والعلوم يجيدها ويجيدها من صنعه المطلوب
من للبلاد وقد تزايد خطبها ماعاد فيها منشئ وخطيب
فهو الامام انا العزاء بفقده ولفقده الدين الحنيف غريب

نعم زلت اقدام الآمال . وساء بهذا الرزء المآل . فعز العزاء . وتكاثرت الارزاء . وجف المداد . وساد الحداد . وانطلق لسان اليراع

وامتد . وبئس فؤاده واحتد . فعدد من حسنات هذا الامام ماعلم . ليقيم ميزان الاعمال بالكلم . فارفع ايها الرشيد على منارك هذه العلامة . لنقوم معا بالواجب لهذا العلامة . وهاك رثائي ذاك الاستاذ الامام . لترددده القلوب واجمة مدى الايام احسن الله عزاء المسلمين فيه والاسلام . ماتليت آيات حكمته في كل مقام .

كف الامان بدت بغير بنان وصياحه أمسى بغير بيان
ولدى الحناجر من أليم مصابها بلغت قلوب ثواقب الاذهان
لو كان يفدي بالالوف رأيتنا تفدي امام الفضل والعرفان
تفدي الامام الفرد في اطواره تفدي الخبير بمعجز القرآن
نفدي الذي كانت ثواقب فكره تهوى المحاسن في حلى البرهان
كالآي تتلى فى الخطوب وكالرقى يشفى بها اللاهي عن الاحسان
آي لها السحر الحلال مسخر يقضي اليراع به على الثعبان
هل ثم منكر فضل قول محمد عبد الاله وقوله كمثاني

(ومنها)

وسعى بتقدير العليم مجاهدا ومهاجرا كالسابق الافغاني
فرأى من الآيات في ترحاله حكما تعرفها من الاكوان
نظر هو النظر المجيد لقوله عين البصيرة ليس بالوسنان
يدعو الى الدين الحنيف بعروة وثقى كشمس في سماء معان
هو ذا الحكيم فلا يجيء مثاله ابدا وليس يصح في الامكان
فرحت بلاد الغال حين بدا بها قمرا يضيء لها بكل مكان
عرفوا به الاسلام بعد تجهم فاباح منه معاقل الكتمان

فرأوه سمحا لا يصح بغيره نيل التمدن عند كل معاني
فافاد بالترحال ضعف مقامه واتى به الاصلاح بعد زمان

(ومنها بعد ذكر الافتاء وثوران الحمد عليه واصلاحه للمحاكم والازهر)

ودروسه درست طرائق غيره لوضوحها للعقل بالبرهان
(فدلائل الاعجاز) تشهد انه سباق حلبتها مع الجرجاني
وله (باسرار البلاغة) خبرة كانت مطيته الى الاتقان
واقام للتفسير سوق عوارف من هديه القاصي برشد الداني
من حيث محص شرعة الاسلام بالسـ ـمحاء في قول وخير بيان
ما كان يرضى ان يكون مقلدا لو قلدوه قلائد العقيان
كالشافعي ولا أقول مجازفا في رأيه يدعو الى الفرقان

(وقال بعد بضعة وعشرين بيتا)

يايوم مشهده وذكرى فقده اصميت قلب المجد ياذا الجاني
ماان لنا سلوى وبح نداؤنا فنسيننا ذكرى لذي اشجان
ألمثله سلوى وقد دفنت به آمال ذي الاصلاح بالقرآن
اليوم يرتصد المقلد وثبة ليثل عرش العلم بالوثبان
اليوم ينتشر الضلال ويقتدي بذويه قوم « والرشيد » يعاني
اليوم يرتقب « المنار » وقوله صدق يصححه لنا الشيخان
أفقيد هذا الدين طال بكاؤنا وتقرحت من سهدنا الجفنان
أفقيد هذا الدين من ذاك الذي يسعى بنا في حلبة الاقران
في الله نحتسب المصاب فانه فرط لنا في العرض والميزان
هبوا انميط عن الضمائر ذا القذى لنسير للحسنى بغير توان

هبوا لنرقى بالنفوس الى العلا من وهدة الاخلاد والادماد
هبوا لننفع ذا الزمان بعلمه لاتهجروا المثلى رجاء دهان
ما كان يرضى ان تسوء فعالكم أو أن يسوئها بلا كتمان
ودعوا التطرف انكم لستم هنا وهناك نرضي حكمة الديان
فامامنا في الخلد وهو امامنا ولنعم ما يلقى من المنان
نرضاه مجتهدا ونسلك سبله ونجد للتحقيق والاحسان
رضي الاله وكل صالح خلقه عن ذا الامام على مدى الازمان

﴿ حرف النون ﴾

قال الاستاذ الفاضل الشيخ خليل عثمان الايوبي عضو محكمة مديرية اسوان الشرعية

قفا نبك الفضائل أجمعينا وندب حظ دين المسلمينا
عليه الدهر جر وما اتخذنا لرد سهامه درعا تقينا
أمات ملاذنا شيخ الفتاوى وقائد ساسة المتفكرينا
وجار على أبر الناس فعلا وأوفاهم به للمعوزينا
أقام لناشئيهم دور علم وكان لمثلهم كهفا حصينا
أناخ بنا كلا كله وأخنى على رجل الهدى والفضل فينا
محمد من أبان بكل علم حقائق فوق فهم الواضعينا
أعز منارة الاسلام شأنا ورد جماح بغي العابثينا
وأظهر حكمة التكليف عقلا بشكل دونه فكر ابن سينا
فكم حجج له بهرت عقولا تخر لها عقول الملحدينا
بعيد الشأو والمرمى ولكن بمعنى فوق وصف الواصفينا

فقد فقدت بموته مزايا ونهضة أمة دنيا ودينا
وأمست وحدة الاسلام جسما بلا روح تحركه يمينا
ولو أن البكاء عليه يجدي لزمناه وقنا به سنينا
ففقدك يا محمد نقص دين وخسران ألم بنا شئينا
ولو أن المنية أنصفتنا لما عبثت بأفضل قائدينا
وفارقنا حيارى في ظلام بلا رشد يقود الناهجينا
فللاسلام قيض يارحيما دعاة من خيار المخلصينا
وقابل شيبه برضاك عنه وأرفق وفده بالمرسلينا
وعم جميعنا بالفضل وارحم وعاملنا بلطفك اجمعينا

﴿ رثاء أستاذنا الامام الحكيم فقيد العلم والاسلام المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريه ﴾

من نظم الشاعر الاديب عبد العليم أفندي صالح المحامي بمصر

من بعد يومك والحياة شجون كل الخطوب ولو تجل تهون
رزء دها الاسلام في انسانه من هوله ظلت تفيض عيون
ياواحد العقلاء تمت النهى فمن الوصي على العقول يكون
لوقامت الحكماء تبكيك الحجا افنى عليك الدمع افلاطون
يا فرد العلماء قد خلفتنا نغشى شكوك الفهم وهو يقين
قد عطلت حلقات درسك في الهدى وانهد ركن للعلوم ركين
قد كنت فيها والمدارك حولها كفؤا بحل المعضلات قمين
ياضيعة الطلاب بعد (محمد) وقد اعترتهم حيرة وسكون

و ا عليك ولوعة تنتابهم ... وجوى يلمّ وعبرة وأنين

ار ن لم يجزع عليك أخوهوى ... فلقد بكى شرع الاله ودين

أولم يكن يرثيك فينا شاعر ... جمد القريض به فليس يلين

(نهج البلاغة) فيك يشرح حزنه ... (ودلائل الاعجاز) فيه متون

علمتنا فن اليراع فكلنا ... بازاء خطبك فى الرثاء فنون

ياحجة الاسلام أفحمت الذي ... بالقول في دين الاله يمين

أرجعته للحق معتذرا بما ... زعم الوزير بأنه سيشين

لو عاد (هانوتو) وجدد بحثه ... ياليت شعرى هل تصول يمين

ومن الذى يعطي الجواب مسددا ... ومن الذي جعل الخصوم تدين

ومن الذي يبدي الرشاد بقوله ... ومن الحقيقة طيها وغضون

أمضيت فى (بوذا) الدليل و(برهمن) ... فابنت للوثني كيف يدين

ورميت دهري الانام بحجة ... الهند تعرف قدرها والصين

وتركت في كل البلاد مآثرا ... الشرق معترف بها ومدين

فكر يوحد فى العقيدة قوله ... ذرب بأسلوب الجدال رصين

صححت بالرأي الصحيح لأمة ... فتخيلته الغث وهو سمين

ونطقت بالحكم الصواب وأنت ذو ... ثقة على الدين الحنيف أمين

فتقولوا بالغيب فيك وأولوا ... نص الكتاب وانه لمبين

عكس القضايا في الزمان وأهله ... داء مقيم فى النفوس كمين

كيف استوت فيك المشارب نزعة ... جزعا عليك وكلها تأبين

ماذاك الا أن عهدك دلها ... ان الكريم الحر ليس يخون

يا واحد الفصحاء في تبيانه ... بالغت في المثوى فلست تبين

انى احتجبت عن المصالح وانطوى .فيك الرجاء وأنت منه مكين
ان البلاد وما علمت بأهلها ترجوك عونا في الصلاح يعين
خففت ويلات الحياة على الاولى أعيتهموا الحاجات وهي شؤون
من للايامى المعدمات وبائس حر يعاني العيش وهو حزين
يطوي على الآلام نفسا عزها أبدا على ذل الحياة رهين
عجبا يظل الحر عبد زمانه في عيشه طول الحياة غبين
لاتعجبي يانفس إن زماننا في قسمه للاكرمين ضنين
يامنصب الفتيا وفيك مساند لاتغمضن لها الزمان جفون
هلا استعضت عن الامام بمثله حرا لعز المكرمات يهون
قسما بفضلك ياحكيم وانه للصادقين مدى العصور يمين
ماعوضوا يوم الكريهة كاملا يوم النضال ويوم عز قرين
يوم الدفاع عن الحقيقة والردى يهتاضها والنفس منك تصون
كالليث يحمي في الفلاة عرينه ولك الحقيقة في البلاد عرين
همم تعير الدهر فضلة بأسها وهوى لفعل الصالحات متين
عزم تهاب العاديات لقاءه ثبت على مر الخطوب رزين
ان الحياة لمن أجل فخارها أثر يخلد للرجال ثمين
والمرء ان لم يدركنه حياته سيان حي في الورى ودفين
ياراحلا والطيبات تحفه في جنة تاقت اليه وعين
هذي الدنا ولأنت أعلم انها نوب تمر على الفتى وشجون
غادرتها فالروح تسعد في العلى ورضى الاله يخصها ويزين
يسقي الغمام ضريح جسمك غاديا ويمده بالغيث وهو هتون

﴿ رثاء استاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده ﴾

لحضرة الفاضل صاحب الامضاء

دهر بالقسوة يفجعنا وزمان الغدر يروعنا

وصروف عداوته فينا تودي بالعلم وتصرعنا

وظروف حياة مظلمة ظلما لهموم تدفعنا

مات المفتيّ ولا عوض فالخطب شديد يفزعنا

برهان الدين وحجته وامام الشرق وانفعنا

ووحيد العصر بلا جدل وعماد الفضل وابرعنا

ذهب العلامة مرشدنا فاسودّ يقينا طالعنا

قبر العرفان بمدفنه والرشد اراه يودعنا

أمل كنا نرجوه مضى وضروب اليأس تزعزعنا

وقنوط اليوم يدوم بنا حتى نتلاشى أجمعنا

رحماك الهي قد وهنت من هول الحادث أضلعنا

تبكيه عيون قد هطلت وانهالت منها ادمعنا

فالله تعالى يرحمه وبه في الجنة يجمعنا

علي محب بالاوقاف

﴿ رثاء الامام فقيد القطر الشيخ محمد عبده مفتي مصر ﴾

من مراثي الفاضل محمد أفندي أبو طالب الاسكندري

غادرتنا لصروف الدهر تغشانا من بعد ما كانت الآساد تخشانا

فمن لقومك يغضي عن اساءتهم ويبذل النصح ياموسى بن عمرانا

أوذيت منهم على جهل ومعرفة وما تعمدت بالايذاء انسانا

سلكت فيهم سبيل المصلحين ولم تعبأ بما قيل ارجافاً وبهتانا
وكدت توردهم خير الموارد لا ترجو من القوم فيما رمت شكرانا
يا آية الله كانت في الورى سطعت تزيد من يطلب التوحيد ايمانا
فمن أقمت على اصلاح أمتنا وما نرى في رجال الدين يقظانا
وأنت تعرفهم !! مافي ضمائرهم الاسفاسف في المعطوف أوكانا
كأن ذا الدين خصم للحضارة لم يحفظ أرائك في الماضي وتيجانا
كأنه ليس أصلا للتمدن في ممالك الغرب قد عزت به شانا
والله لولاه كان الغرب في ظلل من الجهالة يلقى الضنك ألوانا
ومن يماري فاني لا أكلفه الا مراجعة التاريخ برهانا
أليس من عجب أن الاولى كفروا بالقول لم يرفضوا بالفعل إذعانا
باللب من أدب الدين الحنيف غدوا مستمسكين فنالوا منه سلطانا
وكان حظ بني الاسلام ان لهم منه القشور فما أغبى وأشقانا
قد أغفلوا فهم آيات الكتاب وما تحوي الاحاديث ارشاداً وتبيانا
كأنما العلم لا يدعو الى عمل أوان هذي الدنا ليست بدنيانا
كأنما الدين يرضى عن تكاسلهم وعن تحاسدهم بغيا وعدوانا
فهل هدتهم تعاليم الرسول الى هذا التباغض اذ يجنون أضغانا
كلا وفي الخلفاء الراشدين لهم قام الدليل على ان الهدى بانا
اذ استقاموا على تلك الطريقة لا يرضون غير كتاب الله ميزانا
فأزهرت بهم الدنيا وقد ملكوا أهل البسيطة أعجاما وعربانا
وجاء من بعدهم من لا خلاق لهم فأورثونا بهذا الجهل خسرانا
وشوّهوا وجه هذا الدين واتبعوا أهواءهم فأزال الله بنيانا

حتى بعدنا عن الدين القوم ولم يعد لنا منه غير الاسم عنوانا
ومذ شعرت بهذا قمت ترشدنا عسى يعز الذي بالجهل قد هانا
أسست جمعية ثم انثنيت الى تلك المساجد والتدريس ازمانا
وكنت طورا أخا علم وآونة أخا سخاء وفي التبيان سحبانا
ولجت في كل باب فيه منفعة للمسلمين وما قصرت احسانا
فحين جاءك أمر الله وانقطعت أيدي الرجاء وفيك الطب أعيانا
عدنا الى حالة قد كنت تعرفها الجهل أثمر والتقليد أعمانا
فان بكينا فما نبكي سوى أمم كنت الحياة لها دينا وعرفانا
كل المصائب فيها للسلو يدٌ الا مصيبة هذا الحبر مولانا

وقال الفاضل صاحب الامضاء من مرثية بعد أبيات في الدهر وأخرى في الموت ما يأتي بعد اختصار

وانتقى بدرا خبيرا زاهيا كان نبراسا لنا دنيا ودين
شيخنا المفتي عنوان الهدى كعبة الخيرات غوث البائسين
مات فارتاعت له مصر ولو كان يفدى لافتدي بالمسلمين
قد بكاه العلم والآي التي كان في تفسيرها نعم الامين
ان تكن ياموت فيناحا كما فاعتدل فالله يجزي الظالمين
ما فقدنا مثله حبرا وان مات منا كل يوم بالمئين
كان عذب القول منطيقا اذا جادل الاحبار خروا ساجدين
مارس المعقول والمنقول في كل فن ثم فاق الاولين
كان في الافتاء بحرا زاخرا صائب الرأي صدوقا لا يمين
كان فردا عاملا لكنه في مقام الناس طراً أجمعين

أدهشت أحكامه أهل الحجى وأرى الحكام فضل العادلين
كان للاسلام درعا مانعا بل سهاما في قلوب الملحدين
ذاد عنه مذ رماهم جهلهم واستطالوا فيه بالقول المهين
سل هنوتوعنه والقوم الاولى ردهم عنا فباءوا خاسئين
أذعنوا للحق لما ان رأوا قوة البرهان والقول المتين
لم يعقه الموت اشفاقا بنا عن تأسّ قاله للحاضرين
رب هب للدين بعدي مرشدا حاميا عن حوضه السامي المعين
رحمة الله عليه كلما خط حرف من يراع الكاتبين

محمد فتحي مدرس بالزقازيق

﴿ مرثية لفقيد الدين ﴾

جاءتنا من الفاضل صاحب الامضاء

رميت ياموت سهما في نواحينا فأقصد العلم والآداب والدينا
كل السهام اذا ماعولجت نزعت الا سهامك أعيتنا وتعيينا
وكل رزء بجيش الصبر نهزمه الا مصاب امام الدين مفتينا
كم قد أضاء لنا نهجاً وخاض بنا لجا واقنع بالحق المعادينا
وكم حمى الدين من ضر ومن بدع وافم الصحف قصد الخير تدوينا
وكم أغاث من الاخطار ذالهف وكم أقال من العدم المساكينا
وألف الكتب يرجو ان يقوم بها من هوة الجهل قاصينا ودانينا
سما به الشرق في علم وفلسفة وهابه الغرب لما قام يحمينا
هل في الديار سوى باك عليه دما أو شاعر مادح أعماله فينا

أو نادب حظنا من بعد موتته ... من يا ترى بعده يسعى ويعلينا
من ذا يدافع عن دين الاله اذا ... قامت تعارضنا فيه أعادينا
من ذا يدافع عن حق البلاد وعن ... حق العباد وبالانفاس يفدينا
من ذا يقود هداة المصلحين لقد ... عز الدواء علينا من يداوينا
لو كان خطب سوى هذا ألم بنا ... لقمت أطلب صبرا من أهالينا
لكن ذلك خطب لا يعادله ... خطب لذلك جودي يا مآقينا
جودي ببعض الذي جاد الامام به ... على البلاد عسى نوفي له دينا
محمد يا فقيد الدين ذكرك لن ... يمحى وان كان يشجينا ويبكينا
ان كنت في الترب قد أمسيت محتجبا ... فشمس هديك تزهو بين أيدينا
وان موتك هذا ليس يمنعنا ... أن نرتجي من سناها العلم والدينا

مصطفى الشوربجي بمحلة مرحوم غربية

وقال الشاعر الاديب مصطفى أفندي صادق الرافعي

سكت وقد ضجت لك الثقلان ... وأغضيت والابصار في رجفان
فويحي متى تصغى الي مناجياً ... وويحي اذا ادعوك كيف تراني
أمان وآمال ودين وحكمة ... ذهبت بها عنا ببضع ثوان
ضبطت عنان الحادثات فامسكت ... وخلفتها تجري بغير عنان
وكنت أمان الرأي من عثرة الهوى ... فمن ذا له من بعدها بأمان
وكنت لنا في أمة الشرق أمة ... فيا ضعفها كفين تنفردان
وكنت رجاء الدين فالدين ساكن ... ولكنه قد عاد للخفقان
سنعرف أن مد المدى عم تنجلي ... وغي فقدت من راحتيك يماني

ونسمع ان طار الجدال بفتنة عن الصارخ الهاذي بغير بيان
ونبصر اما غيم الشك مرة بوارق افكار بلا لمعان
ولا بد منها انها النار أطفئت وما بعد طفء النار غير دخان

***

(محمد) قد هيلت لمصرعك الورى أقاصيهم فوق الثرى وأدان
ولو انه يوم تدجى ظلامه لكشفه عن افقنا القمران
ولكنها من ظلمة الحزن والاسى وذل لمن أسعدتهم وهوان
فقد كنت من عين الزمان وسمعه بحيث غدا يخشاك ذان وذان
حفظت لجنبي الفؤاد فما له تقلق عنه بعدك الصدفان
وكنت لدهري جدة فمساؤه واصباحه من بعدها خلقان
وكانت علوم الدين في الناس والدنا لحبل ومنه عندك الطرفان
فهل تتغانى بعد فقدك أمة على فقرها لما تجد لك ثاني
بكائي على فكر خفضت جناحه على الموت حتى عيّ بالطيران
بكائي على تلك الخواطر قد هوى بها فلك الدنيا من الدوران
بكائي على ذاك اليراع ممددا وكم خط عنه لفظه الملكان
تفرد بالآيات عن كل كاتب ولم يشترك في زهره غصنان
ولهفي من داء يغيض به الهدى وكيف يجف البحر (للسرطان)
على انها الدنيا تجر الى الردى فمن عجل فيها ومن متوان

﴿ حرف الهاء والواو والياء ﴾

﴿ الوفاء بعد الوفاة ﴾

للاستاذ الفاضل الشيخ حمزه الفتي الجنبيهي (وقد اختصرناها)

عيوني في الدجا تهمي دماها ... وروحي بالجوى عدمت قواها
ومن فقد الامام رأيت مالا ... يطيق الصخر لو يؤذى أذاها
وفى شرع الوفا يوحي اليها ... اذا ماروعت عشقت وفاها
فيانفس اندبي رجلا أبيا ... كريما كان للاسلام جاها
يشيد مجده ويذود عنه ... اذا نار الجدال ذكا لظاها
فقد حل المعمى من حديث ... وآيات الكتاب لنا جلاها
(وهانوتو) تقهقر ثم ولى ... وحرب القول قد دارت رحاها
رأى شهما يفوق الليث بأسا ... يصون الدار أو يحمي حماها
ولو طال البقا دامت بعز ... ولولا موته بلغت مناها
فيامصر اندبيه أبا رحيما ... اذا ماربية شانت اباها
وياقوم امنحوا مصرا عزاء ... فمصر قد دهاها مادهاها
فيا أسفي عليه من تقي ... حكيم فيلسوف لايضاهى
فكم من أمة بليت بجهل ... فحاول رشدها حتى هداها
وكم من حرة منيت بفقد ... فأغناها وما هتكت خباها
وأقوام شكت جهلا قديما ... وبالعلم الحديث لقد شفاها
وبدد بالقضا جورا وعسفا ... وحاجات لمهضوم قضاها
ومدّ يد المنافع فى أناس ... يعيش بنفعها أمم سواها
نشا والنفس يكنفها وقار ... وما ألهاه عن جد صباها

وشبت روحه تهوى المعالي فجاهدها ونالت مبتغاها
أما والحق ما مالت لشين وما يحدو بها الا تقاها
وأقسم بالسجايا الغر منها لأنت امام مصر ومجتباها
وأنت سواد مقلتها المفدى فيالهفي وقد فقدت ضياها
تباهينا به شرقا وغربا وما يوما على عظم تباهى
وكان بسره للدهر أمر ولكن المنون أرته فاها
وما قصد الامام سوى ديار تعز بأهلها ويرى ارتقاها
يئن العلم أنة مستضام من القوم التي سلبت لحاها
أماتوا الدين مذ حظروا عليه أيا للدين من جهل عراها
وقبل الموت كانت في ائتلاف وبعد الموت قد شقت عصاها
وكان نظامها في كل أمر فولى الشيخ وانحلت عراها
جدير بالقلوب تذوب حزنا واعذر كل عين في بكاها
محمد كنت فينا خير حبر اذا ما شبهة عرضت محاها
وللدين القويم منار فضل اذ أحكامه فقدت صواها
فقدنا الشاه والقدح المعلى فقل للرخ يمرح في ذراها
فقدنا اليوم أغزرها علوما ومن بالحزم يكسوها رواها
فلا تعجب وخلف النعش ناس تسد الطرق أو تملا فضاها
وواروه التراب وكان بحرا وبرا للتي تشكو طواها
وخافته الملوك فأنكرته فمال بعزة التقوى وتاها
وتخشاه الاسود فلو بغاها يريد عرينها هجرت شراها
ورثت العلم عن خير البرايا امام المرسلين ومتقاها

وأقسم كنت للفتوى زعيما وبالاقناع ترمي من رماها
فأموا تربة طهرت وطابت وبات أبو الارامل في ثراها
بها الاملاك تهبط كل وقت على روح تقدس من براها
وأبرزها لتظهر آي ربي فمذ قامت بواجبها دعاها
ففاضت والمفاخر في حداد وافق الشرق قد أفلت ذكاها
وخلف أمة تبكي عليه وما بلغت قصارى منتهاها
وأعقب أمة ورثت علوما ورباها وما جهلت أباها
وقابل ربه بجميل صنع ففاز بقربه وجوار طاها
فعظم أجرها وارحم قواها وجمل في مصائبها عزاها

(وقال ولم نحذف منها الا قليلا)

أقسمت بالله مات العرف والجدوى ودك طود العلا والمجد والتقوى
وانهال بيت الهدى وانحط قائمه وقد هوى صرحه فالربع قد أقوى
والعلم أضحى رهين القبر منجدلا ياضيعة الدين والتحرير والفتوى
لم يبق للشرع من يحليه من شبه قد عاش من يدعي لا يثبت الدعوى
من للحوالك يجلوها اذا احتدمت بعد الامام ومن للبأس واللأوى
من للغوامض من للمشكلات ومن للحل والعقد من للغارة الشعوا
هي المنابر تبكيه وتندبه تلك المحافل تنعي الفارس الالوى
في رحمة الله روح كنت أعهدها تهوى المعالي فما طاشت بها الاهوا
ياطالب المجد سر في نهج سيرته ان المكارم عن أمثاله تروى
ضدان ياشيخنا من بعدك اجتمعا في مهجتي لهب ، من مقلتي أنوا
عز السلو فياجزني على رجل يغذوك تقريره لا المن والسلوى

قد بث روح المنا في قومه زمناً لكنه لم يصل للغاية القصوى
أخني على قصده دهر يخر له هام الاثير وما يبقي على رضوى
يمحي الزمان وما تمحي عوارفه تطوى الليالي وما آثاره تطوى
لم يفقهوا كنه ما كانت سياسته نما بها ظالع لم يبلغ الشأوا
عوجوا على قبره حجوا لتربته هذا الضريح يضاهي جنة المأوى
ياعصبة الدين هل فيكم مماثله ان حل خطب اليه نرفع الشكوى
يا أطيب الناس في قول وفي عمل أرضيت ربك في سر وفي نجوى
دم في نعيمك واتركنا على كمد نستعذب المرّ لا صبر ولا سلوى

وقال حضرة الفاضل مراد أفندي فرج المحامي في الاستئناف الاهلي وأحد أدباء الاسرائيليين من قصيدة طويلة مؤثرة

ألا من للمعاني والاحاجي ومن للشعر بعدك والرويّ
أتيح له الثبات فلم يخنه وقاوم كلّ ذي شأن عليّ
ألا ياموت انك من قديم خؤون لست عمرك بالوفيّ
أتخت بعالم حبر كبير يفيد الناس بالعلم النقيّ
يجيء المرء في الدنيا ويمضي وهل قد جاء الا الصفيّ

﴿ مرثية لفقيد الاسلام والمسلمين والعلم والادب مولانا الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده تغمده الله برحمته آمين ﴾

لحضرة الفاضل الشيخ مصطفى علي أبو علي من أعيان دمشق (وقد اختصرناها)

مالي أرى الاسلام أصبح باكيا والعلم حب الدمع أحمر قانيا
والمجد شق الجيب مملوءاً أسى فأثار لي حزناً أذاب فؤاديا

والقيل أظلم بعد نور ساطع والشرق صار من المفاخر خاليا
أقضى امام العصر مصباح الهدى من كان للاسلام حصناً واقيا
(أحمد) كيف انقيادك للردى وأراك أجدر أن تكون الآبيا
هلا حماك حكيم رأيك والنهى من أن تغادرك المنية فانيا
هلا وقاك الفكر يسمو دائما فوق السماك منازلا ومراقيا
قد كنت ذا عزم يخاف الدهر من صولاته ويراه حتما قاضيا
من قبل هذا اليوم من ذا قد رأى بحرا غدا تحت الثرى متواريا
من قبل هذا اليوم من ذا قد رأى رسما يضم البدر ازهر زاهيا
من قبل هذا اليوم من ذا قد رأى جدثاً حوى شمساً تضيء دياجيا
هــذا مصاب ليس يلقى مثله دين البشير مصائباً ودواهيا
هذا مصاب ساء كل موحد بل كل ذي عقل يحوز معاليا
من للمحابر والمنابر بعده من يشرح القرآن شرحا وافيا
من للسماحة والمروءة والندى من يملأ الالباب نوراً شافيا
لولا الكتاب أتى بنص واضح قال الورى هذا ختام الانبيا

﴿ خاتمة المراثي ﴾

لامير الادباء ، واشعر الشعراء ، صاحب السعادة اسماعيل باشا صبري وكيل نظارة الحقانية

تدفق دموعا أودماً أو قوافيـاً ما آتم أولى الناس بالحزن هاميا
أيجمل أن تنعى الفضائل للورى ولم تك في الباكين ويحك باكيا
أغرك من بعض الليالي سكونها فبت قريرا ناعم البال لاهيا

لقد سكنت لكن لترهف للوغى دقائق من ساعاتها وثوانيا
ألا ان بين الكأس والفم فرجة لركض عظيمات تشيب النواصيا
فنبه رقيباً من حذارك كلما رأيت بأطراف الفؤاد أمانيا

***

محمد دور العلم كانت اواهلا بفضلك ما بين الانام زواهيا
فصبحها الآن من الحزن والاسى عليك القضاء المستبد خواليا
أما للردى لا بارك الله في الردي أحال بشير الامس في الكون ناعيا
برغم الحجى والمجد أن مسك البلى بسوء فأضحى عودك الصلب ذاويا
وأن أقفل الباب الذي كنت عنده تقابل ملهوفا وترصد شاكيا
محمد من للدين يحرس حوضه ويدرأ بين الناس عنه العواديا
تعرض قوم للكتاب وانحنوا صراحته شرحاً عن القصد نائيا
فأرسلت فيه نظرة نفذت الى صميم مراد الله اذ قمت هاديا
ووفقت بين الشرع والعقل بعد ما قد اعتقد الالفان أن لا تلاقيا
ورب أناس حاربوا دين أحمد فثرت عليهم ثورة الليث عاديا
وقفت وأقلام الغواية شرع وأقلام أهل الحق ترنو سواهيا
وأفحمت بالبرهان كل مناضل لو انك لم تغضب لزاد تماديا
ففاءوا الى الحسنى ولو لم تحجهم لعادت زئيرا صيحة القوم داويا
هنيئاً لهم فليحملوا حملاتهم فقد أصبح الميدان بعدك خاليا
محمد وفيت المروآت حقها وقمت اليها في حياتك داعيا
وعلمت أهل العرف في العرف أوجها لها غرر مشهورة ومعانيا
وعالجت امراض القلوب بحكمة ترى ظاهراً من خلفها البرء خافيا

وأودعت في الطلاب أجزاء مهجة ترى العلم ان لم يعل بالمرء هاذيا
مناقب ان عدت تضوع بيننا كأنا اتخذنا ساحة الروض ناديا
ألا نم مع الابرار فى الخلد ناعماً فكم بت فينا ساهر العزم عانيا
جزيت عن الاسلام ما أنت أهله فقد كنت سيفاً في يد الحق ماضيا

يقول جامع الكتاب

هذا ما اخترنا نشره من المراثي التي وردت الينا من هذا القطر وغيره ولعل مالم يرد الينا أكثر فقد مكثت جريدة الظاهر زمناً طويلا تنشر المراثي وبلغنا انه لم ينشر فيها كل ما أرسل اليها ونحن لم ننقل منها شيئاً ولكننا نعلم ان بعض ما جاءنا نشر فيها أيضاً .

أهملنا بعض القصائد التي كتم مرسلوها أسماءهم وبعضاً لضعف النظم وبعضها لتأخر ورودها الينا . واختصرنا بعض ما نشرنا لمجرد الاختصار، وبعضه للتأويل فيه بذم الدهر ومعاتبة الموت والشكوى من الزمان ، وبعضه لضعف النظم ، وبعضه لسبق مثله مكرراً كذكر الجمعية الخيرية والاصلاح في الازهر والشورى والمحاكم والرد على هانوتو

وكان ينبغي ان نحذف أكثر مما حذفنا لولا أن غرضنا بيان أن هذه المزايا والفضائل ثابتة للاستاذ الامام بالتواتر الحقيقي وان الناس لم يمنحوه لقب « الإمام » الا عن شعور مستفيض ، قد انطقهم عن اعتقاد لا عن تواطؤ ولا تقليد ،

﴿ ملحق بالتعازي ﴾

صورة التعزية المرسلة من رئاسة مجلس شورى القوانين لحضرة حموده بك عبده وباقي عائلة الفقيد رحمه الله بتاريخ أول اغسطس سنة ١٩٠٥ نمرة ٥٩٢

انه بجلسة مجلس شورى القوانين المنعقدة في يومنا هذا أبدت الهيئة مزيد أسفها وشديد حزنها وكدرها بالنسبة لوفاة المرحوم العلامة الاستاذ الشيخ محمد عبده احد الاعضاء وذلك لما له في المجلس من الخدم الكثيرة الجليلة والاعمال النافعة الوافرة التي تذكر فتشكر وما كان عليه تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته من الفضل والعلم والحزم والاخلاق الطيبة الفاضلة وماله من المكانة في القلوب مقدرة ماشمل الجميع من الحزن تلقاء تلك المآثر الغراء حق قدره وقررت أن يكتب لحضرتكم بالاعراب عن هذه الاحساسات فنبلغكم ذلك مشفوعا بمزيد تأثرنا الشخصي والله المسؤل في أن يلهمنا وإياكم الصبر ليضاعف لنا ولكم الأجر م

(التوقيع)

ما كتبه حموده بك عبده ابن الفقيد بالتربية وأخوه بالنسب الى بعض المعزين

﴿ صورة ما كتبه الى سعادة رئيس مجلس الشورى ﴾

سيدي المفضال سعادتلو أفندم

شرفنا ليلة الامس خطاب سعادتكم الشامل لجميل عواطفكم ولقد غمرتمونا فيه بجزيل فضلكم بما شاركتمونا فيه مع حضرات الاعضاء في مصابنا العظيم وأظهرتموه من المنة في حسن الذكرى لفقيدنا الكريم وأوليتمونا فيه عزاء وافراً ومنحتمونا ولاء عاطراً لاحرمنا الله منكم تلك الاحساسات العالية والمودة الصافية واني أدعو الله ان يطيل بقاءكم وبقاء حضرات الاعضاء ممتعين بالنعم الجزيلة والحياة السعيدة آمين م

حموده عبده

﴿ صورة ما كتبه الى سعادة رئيس الاستئناف الاهلي ﴾

سيدي المفضال سعادتلو أفندم

تشرفت بكتاب سعادتكم وقد أوليتمونا فضلا جزيلا بمشاركتكم لنا بالحزن على فقيدنا المرحوم الشيخ محمد عبده وايقافكم جلسة المحكمة صباح وفاته حداداً عليه وتشييعه مع حضرات الافاضل قضاة المحكمتين لحمدنا لكم هذه المنة الكبرى، التي حفظتم بها لفقيدنا حسن الذكرى، ولا غرو فان هذا أثر من كمال وفائكم وعاطر ولائكم وقد كان لنا أكبر العزاء من احساسات رجال الفضل وأهل القضاء واني بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن أعضاء أسرتي أرفع الى سعادتكم خالص الشكر الوافر والى جميع حضرات مستشاري المحكمة وقضاتها الافاضل ونسأل الله تعالى أن يقيكم شر المصائب والاحزان ويبقيكم ذخرا للاوطان أفندم م

﴿ صورة ما كتبه الى العلامة المستر ادورد براون ﴾

سيدي الصديق الجليل

شرفنا بالامس خطابكم . الشامل لحسن عزائكم . وفصيح بيانكم . وشريف إحساسكم وعاطر إخلاصكم . ولقد أوليتموني به فضلا جزيلا . وغمرتموني به ولاء عظيما . بما أوضحتموه من فائق الاخلاصات وعاطر الكمالات في وصف فقيدنا المرحوم وتعداد فضائله في الأمة والأمم ولا غرو فان هذا من ساطع وفائكم ووافر ولائكم . وقد كان لي أكبر عزاء أحفظه في مودتكم . وأذكره في محبتكم أما ترجمة حياة الفقيد فقد قرر اخواني هنا ان تكتب بتفصيلها وأن تنشر معها مقالاته وأعماله التي عملها في تقدم الأمة عندنا وستطبع معها صورته أيضاً وتنشر وعند اتمام الترجمة سأرسل لحضرتكم نسخة لتختاروا منها ماتشاؤنه واني أشكر حضرتكم عن الأمة على اشتغالكم بأمر تاريخه لان هذا مما يعزينا وينفعنا كما أكرر آية شكري لكم على تلك العواطف الجليلة والاخلاق الكريمة وادعو الله تعالى أن يطيل لي بقاءكم ويحفظ لي ودادكم آمين م

حموده عبده

﴿ ملحق آخر ﴾

نستدرك به على قسم تأبين العلماء والفضلاء ما جاء في تقرير اللورد كرومر وتقرير المستشار القضائي عن سنة ١٩٠٥ قال جناب اللورد في الفصل السابع من تقريره

الشيخ محمد عبده

اختطفت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا فى الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر أريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتيت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لأنه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبقاً لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضياً في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفى سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فاصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع ماله من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثالاً على نفع عمله الفتوى التي افتاها في ماإذا كان يحل للمسلمين تثمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم باباً به يحل لهم تثمير أموالهم فيها من غير أن يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء

أما الفئة التي ينتمي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فمعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ الجليل السيد أحمد الشهير الذي أنشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاما . والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير أن يزعزعوا أركان الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لاتخلو من أساس ديني . فعملهم شاق وقضاؤه عسير لأنهم يستهدفون دائما لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخلص بعضهم النية في النقد و يقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

أما مريدو الشيخ محمد عبده واتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة الملية بمنزلة الجير وندست في الثورة الفرنسوية فالمسلمون المتنطعون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم في سبيلهم . والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة . فهم وسط بين طرفين، وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين، كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين غير أن معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله ما يكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ماذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولا . وعسى الهيئة الاجتماعية أن تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد اليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل . الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم اذا ساروا فيه فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين . ولعلهم يجدون بعض التنشيط من نقلي قولا لرجل من أهل دينهم وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفاً والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة

بعد ما وصف السيد محمود قلة اهتمام المسلمين في الهند بتعلم العلوم منذ أربعين أو خمسين سنة قال « وكان هؤلاء السادة المسلمون مستائين من قلة تقدم المسلمين في تعلم العلوم العالية غير انهم كانوا مستائين من أنفسهم أيضاً ومنحسرين على العلوم التي أهملوا تعلمها . ولكنهم لم يكونوا ممن يكتفي بالتشكي والتذمر ويقتصر على اللوم والتعنيف بل انهم لما علموا علة الشر وأصل البلوى عقدوا النية على اكتشاف علاجها أيضا فأنشأوا جمعية شيخها السيد أحمد خان الذي قضى العمر مجاهدا في سبيل تهذيب العقول بالعلوم والمعارف وجعلوا غايتها العظمى البحث عن وجوه الاعتراض التي يعترض بها المسلمون على التعليم الذي تعلمه حكومة الهند في مدارسها . ومعرفة التعليم الذي يرجون استبداله به . فاتضح لهم ان الرجوع الى أساليب التعليم التي

كانت متبعة في الشرق قديما أضحى ضر بامن المحال . ورأوا على ما بهم من الاكرام والاحترام لتقاليد السلف والاستعظام لكنوز العلوم والآداب التي توارثوها عن آبائهم ان التعليم الذي يرقي قومهم الى درجة تلائم التمدن المحيط بهم ويردهم الى مقام يشعر فيه بنفوذهم وتأثيرهم انما هو التعليم المبني على الاعتراف بتقدم العلوم الواسع الابواب ، الدقيق الدروس ، المحبب الى المتعلم كل أمر بديع عجيب في علوم البلدان الأخرى وآدابها وفلسفتها فكانت هذه السعة منهم في العقل والاصالة في الرأي أعظم خطر على مشروعهم في بادىء الامر لانهم لو دعوا جموع المسلمين الى قبول رأيهم المبني على مبادىء لا تخالف الدين الاسلامي بالذات بل تخالف التفاسير التي يفسره بها أكثر المتدينين به لاستفزت الدعوة جموع المسلمين الى المعارضة واقامت على الجمعية القيامة . وكانت الجمعية تعلم ذلك وتصبر عليه لانتظارها الفوز في النهاية فبقيت مدة وليس من يؤيدها عن طيب نفس حتى ضعفت المعارضة شيئاً فشيئاً امام شجاعة المصلحين وثباتهم . ثم أيدهم رجال خطيرو الشأن مثل المرحوم السر سلار جنك تأييدا ماديا من جهة ومعنويا من أخرى في اعتبار الذين يعدون الاسم العظيم ضمانا عظيما . وكان أعضاء هذه الجمعية متخلقين بأخلاق تجلهم وتنزههم عن كل غاية شخصية فزالت الأوهام بعد ادراك حقيقة بدعتهم الرهيبة وانقلب بعض الذين كانوا ألد خصومهم الى أشد الانصار غيرة عليهم . وقد مضى ثلاثة عشر عاما (١) على اجتماع الجمعية لوضع مشروعها وظني أن الذين كانوا أقوى أعضائها آمالا في نجاح مسعاها لم يكونوا يتصورون أنها تنجح النجاح السريع الذي عاشوا حتى شاهدوه » اه

أقول : في تلك المدرسة الآن ٧٠٠ طالب ولو كانت تسع غيرهم لكان فيها أكثر منهم ومعظم الذين فيها من الهند ومنهم طلبة من بلاد الصومال وفارس وبلوخستان وبلاد العرب وأوغندة وموريتيوس ومستعمرة الرأس ويقيني انه لو قصدها الطلاب من مصر لاستقبلوا فيها بالسرور والبشاشة وأنزلوا على الرحب والسعة

(وقال في أواخر الفصل الذي تكلم فيه على المحاكم الشرعية (ص ١٣٢) ما نصه :

(١) هذا كتب منذ اعوام

« هذا واني أوافق السر ملكولم مكاريث على ماقاله عن الضربة الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد عبده فقد اشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا التقرير وأعود فأبسط الرجاء أيضا ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لاتخور عزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم لذكراه أحسن اظهار بترقية المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته » اه

أما ما أشار اليه اللورد من كلام السر ملكولم مكاريث المستشار القضائي في تقريره عن المحاكم فها هو بنصه:

« ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وان أبدي شديد اسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت هذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق بالشريعة الإسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيرا للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر، كثيرا ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها . وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيرا من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها أو يبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ماخسرناه بموته نظرا لسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد أن تكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . أما الآن فانه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلا تشعر بخسارتها بفقده اه كلام المستشار .

فرحم الله الاستاذ الامام الذي اعترف بفضله الوطني والاجنبي وأثنى عليه الموافق والمخالف ولازال ذكره حيا في الآخرين وسيرته اسوة حسنة الى يوم الدين


Bibliotheca Alexandrina
02444649